جامباتِّيستا بازيلِهْ

البِنْتَاميرون
حكايةُ الحكايات

تحقيق وتقديم الفيلسوف:

بِنِدِتُّو كروتشِهْ

ترجمه عن الإيطالية:

أمارجي، ويوسف وقَّاص

المتوسط

وُلِدَ **جامباتِّيتسا بازيلِهْ**، وفقاً لرواية بِنِدِتُّو كروتشِهْ، في نابولي نحوَ عام 1575، وتوفيِّ فيها سنةَ 1632. كان شاعراً وقاصّاً تطوّع في شبابه لخدمة جمهوريَّة البندقيَّة، وبعد فترةٍ قضاها بين البندقيَّة وكانديا، كجنديٍّ مرتزقٍ، عاد إلى نابولي في عام 1608 حيث أدخلته أختُه أدريانا، المغنِّية الشَّهيرة آنذاك، صالونات النُّبلاء وسرعان ما بدأ حياته المهنيَّة كرجُلِ بلاطٍ وقائمٍ على تنظيم الفعاليَّات الثَّقافيَّة. خدمَ العديد من الدُّوقاتِ والأمراء وكان مقرَّباً من الدُّوق فينتْشِنْزو غونزاغا ثمّ من ابنه الدُّوق فِرديناندو الذي منحه لقب "فارس". كتبَ الرَّعويَّات والملاحم الشِّعريَّة، ولكنَّ شغفه بالموروث الشَّعبيِّ وباللُّغة النَّابوليتانيَّة دفعاه إلى تأليف "البنتاميرون" بلهجةِ مدينته، العملِ الذي يُعَدُّ أوَّل وأهمَّ مجموعةٍ من الحكايات الشَّعبيَّة في الموروثَين الإيطاليِّ والأوروبِّيِّ على حدٍّ سواء، والذي نُشِر بعد وفاته بعنوان (حكاية الحكايات أو مؤانَسات الصِّغار) وكان مخصَّصاً في الأصل لدردشات ما بعد الغداء في صالونات نابولي أكثر ممَّا كان مخصَّصاً للقراءة. إنَّ حيويَّةَ اللُّغة والاستعارات الغريبة والدُّعابات اللَّفظيَّة الطَّريفة والمقاربةُ بين الخرافيِّ واليوميِّ من جهةٍ وبين الهزليِّ والرَّصين من جهةٍ أُخرى، كلُّ ذلك إنَّما يشهد على قدرة بازيلِهْ على إحياء التَّقاليد المحلِّيَّة عبْرَ فنٍّ وأدبٍ رفيعَين.

المتوسط

من الرواية:

وهكذا، أُرسِلَ مِائة صيَّادٍ إلى البحر، بعد أن سُلِّحوا جميعاً بالحِراب، والحبال الطَّويلة، والرِّماح، وقُفَفِ الخيزران، والصَّنانير والشِّباك، وظلُّوا يُطيفون ويهيمون إلى أن اصطادوا تنِّيناً، فانتزعوا قلبه وجلبوه إلى الملك الذي طلب من إحدى المحظيَّات أن تطهوه. أقفلت المحظيَّة على نفسها بابَ الغرفة، وما إن وضعت القلب على النَّار حتى تصاعد بخار الغليان، ولم تصبح الطَّاهية الجميلة وحدها حاملاً، بل تضخَّمت بطون كلِّ قطع الأثاث في الغرفة. وبعد بضعة أيَّام أنجبوا جميعاً. فالسَّرير أنجبَ سريراً صغيراً، والخَزْنَة صندوقاً صغيراً، والكراسيُّ مقاعد صغيرةً، والطَّاولة طاولةً صغيرةً، وإناءُ اللَّيل مِبْوَلَةً صغيرةً مطليَّةً وجميلةً جدَّاً، متعةً للنَّاظرين.

منشورات المتوسط

الشاميرون

حكاية الحكايات

حقوق نسخ هذه الترجمة © 2024 منشورات المتوسط - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Il racconto dei racconti by "Giambattista Basile"
Arabic translation copyright © 2023 by **Almutawassit Books**

المؤلِّف: جامباتِّيستا بازيلِه / المترجم: أمارجي، ويوسف وقّاص
عنوان الكتاب: البنتاميرون، حاية الحكايات
الطبعة الأولى: 2024 / تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

La traduzione di questo libro è stata possibile anche grazie a un contributo del Ministero degli Affari Esteri e della Cooperazione Internazionale italiano.

جزء من هذا الكتاب، تُرجم بمساهمة من وزارة الخارجية الأيطالية، وقسم التعاون الدولي.

ISBN: 979-12-5591-067-1

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

جامباتِّيستا بازيلِهْ

البِنْتَاميرون

حكايةُ الحكايات

تحقيق وتقديم الفيلسوف:

بِندِتُّو كروتشِهْ

ترجمه عن الإيطالية:

أمارجي، ويوسف وقَّاص

المتوسط

ساهمَ جامباتِّيستا بازيلِهْ (1575 - 1632)، الذي كان يكتب باللَّهجة المحلِّيَّة السَّائدة في مدينة نابولي، في إغناء الأدب الإيطاليِّ بحكاياتٍ استمدَّتْ حبكاتها من نماذج عريقةٍ في القدم، حكاياتٍ أصبحت فيما بعد منبع إلهامٍ لكثيرٍ من الكتَّاب الأوروبيِّين في القرنين الثَّامن عشر والتَّاسع عشر. لذا، يمكن أن نعدَّه بجدارةٍ واحداً من كُتَّاب الرِّوايات القصيرة Novelle. وجديرٌ بالذِّكر، هنا، أنَّ عمله هذا لم يرَ النُّور إلَّا بعد مماته، وبعد نحو قرنٍ من الزَّمن تَرجَمَهُ إلى اللُّغة الإيطاليَّة الفيلسوف بِنِدِتُّو كروتشِهْ Benedetto Croce.

أمَّا ملكيَّة كتابات بِنِدِتُّو كروتشِهْ، فتعود إلى المؤسَّسة التي تحمل اسمَ الفيلسوف نفسه، والتي أسَّستها الدَّولة الإيطاليَّة لنشر أعماله، ولتحويل تلك الأعمال، مِن ثَمَّ، إلى ملكيَّةٍ عامَّة.

إنَّ النَّصَّ الحاليَّ مأخوذٌ من الإصدار الأوَّل لدار نشر "لا تيرتسا"، باري 1925، مع الهوامش والشُّروحات التي وضعها بِنِدِتُّو كروتشِهْ الذي قام بترجمة النَّصِّ الأصليِّ من اللَّهجة النَّابوليتانيَّة المحلِّيَّة إلى اللُّغة الإيطاليَّة الفصحى.

مقدّمة
بازيلهْ وتطويره لفنِّ الحكايات الشَّعبيَّة

بقلم: بِنِدِتُّو كروتشِهْ

تحظى إيطاليا في "حكاية الحكايات" أو "البنتاميرون" لجامباتِّيستا بازيلهْ، بواحدٍ من أقدم وأغنى الأعمال الأدبيَّة ذات القيمة الفنِّيَّة الأرفع بين جُلِّ كتب الحكايات الشَّعبية، وهو ما اتَّفقَتْ عليه آراءُ النُّقَّاد الأجانب المتبحِّرين في هذا الشَّأن، وفي مقدِّمتهم Jacob Ludwig Grimm جاكوب لودفيغ غريم (1785-1863) الذي منح ألمانيا، مع أخيه Wilhelm Karl Grimm وليم كارل غريم (1786-1859)، مجموعةً بعنوان: "حكاياتٍ للأطفال وللبيت *Kinder und hausmärchen*"، طُبعَتْ مرَّاتٍ عديدة. مع ذلك، يبدو الأمرُ كما لو أنَّ إيطاليا لا تملك هذا الكتاب، ذلك أنَّه كُتب بلهجةٍ قديمةٍ وصعبةٍ، فلم يذعْ صيتُه إلَّا كعنوانٍ فحسب، ولم يعد يقرأه أيُّ إنسانٍ تقريباً، لا في المقاطعات الأخرى، ولا حتى في المكان الذي أبصرَ فيه النُّور، أي مدينة نابولي.

غير أنَّ قراءته كانت قد تيسَّرت للألمان أكثر، فنراهم قد استحوذوا، منذ أواخر عام 1846، على نسخةٍ منه ترجمها Felix Liebrecht فيليكس ليبرِشت (1812-1890)، وللإنجليز الذين تبنُّوا، منذ عام 1848، التَّرجمة السَّابقة التي أنجزها John Taylor جون إدوارد تايلور (1791-1844)، والتي طُبِعَتْ بدورها عدَّة مرَّاتٍ، قبل أن تذيع، بدءاً من عام 1893، ترجمةُ السِّير Richard Francis Burton ريتشارد فرنسيس برتون (1821-1890). إنَّ هدفي من هذا الجهد الجديد يتمثَّل في إدخال عمل بازيلهْ في أدبنا المحلِّيّ، وانتشاله من الحلقة الضَّيِّقة التي يقبع فيها الآن - (ذلك أنَّه لم يعد موجوداً حتى في تلك المناطق التي تسود فيها اللَّهجات المحلِّيَّة،

بل انسحبَ إلى حلقةٍ أضيق، حلقةِ المفكِّرين والمختصِّين والفضوليِّين) - وإعادةِ هذه التُّحفة الأدبيَّة العظيمة، التي تندرج في باب الحكايات الشَّعبيَّة، إلى إيطاليا.

وُلد جامباتِّيستا بازيلهْ في نابولي نحوَ عام 1575، وتوفي بالقرب من المدينة نفسها سنةَ 1632. وكان واحداً من العديد من الإيطاليِّين، من أولئك «المغامرين المبجَّلين» الحقيقيِّين، الذين نسجوا حياتهم في تلك الحقبة، تارةً في الجنديَّة، وتارةً في خدمةِ القصور الأميريَّة والبارونيَّة، كأمناء ومدراء وقضاة وموفدين دبلوماسيِّين، وفي الوقت نفسه، كأدباء بارعين ومتمرِّسين، قادرين على كتابة قصائد شعريَّة للأعياد والمناسبات المختلفة، وعلى تنظيم الحفلات والعروض.

ومن بين أمورٍ أخرى، تطوَّع بازيلهْ في شبابه لخدمة جمهوريَّة البندقيَّة، وبقي لبعض الوقت مرابطاً في كانديا (هيراقليون الحاليَّة، وهي مدينةٌ تقع في جزيرة كريت اليونانيَّة)، وفي عام 1607 التحق بأسطول جوفانيٍّ بِمْبو، حين كانت تلوح في الأفق بوادرُ انفجار حربٍ بين البندقيَّة وإسبانيا. ثمَّ عاد إلى نابولي، والتحق ببلاط أميرِ ستيليانو، لويجي كارافا، وبعد زيارةٍ قام بها مع معظم أفراد عائلته لمدينة مانطوفا في عام 1613، بصفة رجلٍ نبيلٍ ومقرَّبٍ من الدُّوق فينتشِنْزو غونزاغا، حيث استُقبل بترحابٍ كبيرٍ، عاد ليعيش من جديدٍ في مسقط رأسه، متردِّداً على بلاط آلِ كاراتشولو أمراء أفِللينو، وعلى بلاط نائب الملك دوقِ ألبا. ومن وقتٍ إلى آخر، كان بازيلهْ يمارس وظيفة حاكم الدِّيوان الملكيِّ أو الإقطاعيِّ، وبهذه الصِّفة قَطَنَ في مونْتِمارانو، وفي زونغولي، وفي لاغو نيغرو، وفي آفِرْسا، وأخيراً في جوليانو كمُناصرٍ لدوق أتشيرينزا، غالياتزو بينِللي، حيث ختمَ أيَّامه، كما ذكرنا آنفاً، في الثَّالث والعشرين من شهر شباط/ فبراير 1632، ودُفن هناك.

وقد نَهجَ أشقَّاؤه الكثيرون، أيضاً، نَهْجَ حياته؛ بعضهم في مملكة

نابولي، وبعضهم في مانطوفا، وآخرون في بلاد الفلاندرز (مقاطعة في شمال بلجيكا)، وفي إسبانيا. ولم يكن ما كانت شقيقاتهنَّ يُزاولنَه في بلاط الملوك أقلَّ شأناً ممَّا كانوا يزاولونه، فثلاثٌ منهنَّ كنَّ مغنِّياتٍ، ومن بينهنَّ المغنِّية الشَّهيرة أدريانا التي تربَّعت على عرش الغناء في إيطاليا، وكان ذلك في الوقت الذي ظهرت فيه لأوَّل مرَّةٍ شخصيَّة "الفنَّانة" أو "المتُناغمة"، كما كان يُقال، أو "المطربة"، كما يطيب لنا نحن أن نهتف، وسط هيجان حماس الجمهور ورُغْبِ المتُرَمِّتين. فلأجل أدريانا أُنشِئ، أو بالأحرى "شُيِّدَ"، من قبل تجمُّع قوى الأدباء آنذاك، مسرحُ *الأمجاد*، وقد قامت أدريانا بتنشئة عائلةٍ جلُّها من الموسيقيِّين، ومن بين بناتها، وريثتها على عرش الغناء، ليونورا باروني، التي كُرِّس لها بالمِثْل مجلَّدٌ من *المدائح الشِّعرية*، وكان من بين المعجبين والمتحمِّسين لها الشَّاعر الإنجليزيُّ جون ميلتون، الذي تعرَّف بها في روما ما بين عامي 1638 و1639، واستمع إليها وهي تغنِّي بينما ترافقها أمُّها على القيثار.

إضافةً إلى ذلك، كانت هذه العائلةُ المنضويةُ إلى البلاط وإلى الفنِّ، محافظةً، ومهذَّبةً جدّاً، وحريصةً على سمعتها ومكانتها، فأدريانا لم تشأ الذَّهاب لزيارة دوق مانطوفا إلَّا بعد أن وجَّه إليها دعوةً مباشرةً مشفوعةً بحظوةِ واهتمامِ الدُّوقة، وكانت لا تغنِّي في بيوتات نابولي الرَّاقية إن لم تزرْها النِّساء في بيتها أوَّلاً. وفي هذا المجتمع النَّبيل، كانوا يحاولون أن يرتقوا ويحافظوا على أنفسهم، سواءٌ عن طريق إضفاء قيمةٍ عاليةٍ على منشئهم، أو عن طريق منح أنفسهم الألقاب، إذْ أصبحَتْ أدريانا بارونةَ بيانْتشِرِّيتو في مونفيرَّاتو، وجامباتِّيستا فارسَ وكونتَ بالاتينو، وبعد أن تمكَّن من نقل هذه الصِّفة الأخيرة إلى بعض الأراضي الأخرى، لقَّبَ نفسَه أيضاً بِكونت كاستِل رامبا، وغالباً بِكونت تورونِه.

وسرعان ما جرت أخبارُ أعماله الأدبيَّة على ألسنة النَّاس، وكانت تلك

الأعمال مكوَّنةٌ من قصائد غنائيَّةٍ ومن أشعارٍ أخرى موضوعها الغَزَل، وقد كُتبت بأسلوبٍ مسهبٍ، ولغةٍ صعبةٍ، كما كان دارجاً آنذاك. كان يَنظِم القصائد بالإيطاليَّة للويجي كارافا، أميرِ ستيليانو:

يا ربَّة الإلهام، أخبرينا أنتِ عن مجدِ
لويجي العظيم، وإنْ رأى هو من المهين
أن تظلِّلي أُبَّهة شيمته الزَّائلة
بمدقٍّ الشَّرف،
فلأنَّ الثَّناء والمباهاة ليسا ما يرتجيه،
هو المطَّلع، كإلهٍ أبديٍّ، على الأنشودة السَّماويَّة...

أو بالإسبانيَّة، لِدوق ألبا:

مولاي، يا مَن اسمُكَ فجرٌ[1]،
بك تشرقُ الأرضُ،
لأنَّ ضياءَ ذِكْرِكَ أعظمُ...

وكان يبتكر ألاعيبَ لغويَّةً أو جِناساً لسيِّدات نابولي، كذلك الجِناس الذي كتبه لدوروتيا دِيْ كابوا، "ماركيزةِ كامبولاتَّارو":

ما مِن جمالٍ يُشرقُ
حيثما أُبَّهةٌ شامخةٌ عَليَّهْ
يصنعُ جمالُك، أيَّتها المحاربة السَّنيَّهْ؛
ولا شيءٍ أجدرُ منكِ بالسُّؤدَدْ
ولا السَّماء المحبوبة تنتصر عليكِ وتأسَدْ،

---

1) كلمة «Alba» بالإيطاليَّة تعني بالعربيَّة «فجر»؛ (المترجمان).

لأنّك أنت الشَّمس، في السُّطوع والعنفوانْ،
ومن الحبِّ تملكين المجد والصَّولجانْ.

وكان يَنظِمُ بالإيطاليَّة والإسبانيَّة أغانيَ وتراتيل لتُلحَّنَ وتُنشَد:

أيا روحيَ الشَّقيَّة، أخبريني ما أنتِ فاعلة؟
أبِشراسةٍ تريدين أن تعشقي دائماً؟ لا، ليس بعد اليوم!
أتلك التي تسومُكِ خَسْفاً سوف تتبعين؟ لا، ليس بعد اليوم!
أتلك الجاحدة سوف تحبِّين؟ لا، ليس بعد اليوم!
أقاتلتكِ تناشدين؟ لا، ليس بعد اليوم!
آهِ ما أصعب الخِداع، اهربي، اهربي من هذه المَضَرَّة!

وقد نَظَمَ أيضاً، كما هو شأن جميع الأدباء الآخرين في عصره، وكواجبٍ محتَّمٍ تقريباً على كل أديبٍ يحترم نفسه، دراما رعويَّةً أو بالأحرى بَحْريَّةً، عنوانها *"إخفاق المغامرات الشَّيِّقة"*، وملحمةً شعريَّةً طويلةً ثُمانيَّة المقاطع، عنوانها "التِّيجينيه *Teagene*"، أعاد فيها صياغة رواية "هليودوروس"[1]، موائماً إيَّاها مع الأنماط المعهودة والمستساغة. يذكرُ الكونتُ مايولينو بيساتْشوني (الشَّبيهُ به من نواحٍ كثيرةٍ في حياة "المغامر المبجَّل" التي عاشها)، وكان قد التقاه عام 1620 في أفِلّينو لدى بلاط عائلة كاراتْشُولو، ورافقه في تنظيم الحفلات المقنَّعة وإلقاء المسرحيَّات الكوميديَّة-، يذكرُ، في الأعوام اللَّاحقة، أنَّ "الفارس بازِيلهْ، كان ذا ذاكرةٍ وقَّادةٍ في القراءات الأدبيَّة الجيِّدة وذا تهذيبٍ عالٍ"، فقد

1) هليودوروس الحمصيُّ، هو كاتبٌ إغريقيٌّ من حمص السُّوريَّة، عاش في القرن الثَّالث الميلاديِّ، واشتهر بروايته الموسومة بـ "إثيوبيكا" أو "القصَّة الإثيوبيَّة". وتُعَدُّ هذه الرِّواية أضخم رواية وصلت من العصور القديمة، إذْ تتألَّف من عشرة كتب (أجزاء) تدور أحداثها في زمن السَّيطرة الفارسيَّة على مصر؛ (المترجمان).

كان "حاضرَ البديهة في النَّثر والشِّعر، وغالباً ما كان يُدهشنا في القيام بأمورٍ عديدةٍ وعظيمةٍ في ساعاتٍ قليلة".

في هذا الأدب ذي الطَّابع التَّقليديِّ، والإجرائيِّ، والآليِّ، لم يضع شيئاً، أو لنقُلْ إنَّه تقريباً لم يضع شيئاً، من روحه، كما لو أنَّه لم يكن يملك روحاً. ولكنَّه في الحقيقةِ كان إنساناً ذا قلبٍ وعقلٍ، إنساناً طيِّبَ السَّريرة، كما يُستشَفُّ من الانطباعات التي تركها لنا معاصروه، وبدقَّةٍ أكبر من كتاباته التي دوَّنها باللَّهجة المحلِّيَّة، وهي الكتابات التي سنتكلَّم عنها الآن: كتاباتٌ تنضحُ بروح كاتبها الفائق النَّزاهة، والمُحبِّ للخير، والمُتعطِّش للعدالة، والمترَع بالعاطفة والنَّدم والحنين، مع ميلٍ إلى الشَّجن كان بَلَغ حدَّ التَّشاؤم والضِّيق من كلِّ ما يمتُّ إلى البشريَّة بصِلة.

مُرغَماً على التَّنقُّل بين بلاط الملوك، كان يشعر بوخزٍ وطعنٍ في الضَّمير وهو يشهد ذلك الصِّراع البائس، والذَّميم في أكثر الأحيان، الذي كان يُخاض من أجل الحياة هناك، حياةٍ كانت تَدفع دائماً إلى المصافِّ الأولى مَن هو أكثر جرأةً على الكذب، وحياكة المؤامرات، وفعْل الشَّرِّ. فبصفته متصرِّفاً إقطاعيَّاً، كان يشهد عمليَّات الابتزاز والنَّهب التي كانت تُمارَسُ على الأتباع البائسين، من قبل البارونات في المقام الأول، كما من قبل وكلائهم السَّائرين على منوالهم. ولأنَّه كان مُصِرَّاً على إبقاء ضميره حيَّاً، فقد كان يخرج من تلك الدَّواوين تَعِساً مثلما كان يدخلها، مجبَراً على تحمُّل الابتسامات المشفقة التي كان يرشقه بها كلُّ مَن استبان سذاجته، الأمرُ الذي وقف عثرةً بينه وبين استغلال الفرص الجيِّدة التي كانت تسوقها له رياحُ الفأل الحسن.

مع هذا الدَّأب على مراقبة وتأمُّل الأمور التي كانت تلوحُ في فِكْره، تحوَّل شيئاً فشيئاً إلى متزمِّتٍ أخلاقيٍّ، جاهزٍ لليِّ شدقيه تفاصُحاً، ولرسم صورٍ ساخرةٍ، وللوعظ والتَّأنيب. ومع ذلك، في حدَّة وخز الضَّمير هذه، كان يحمل دائماً في أعماق قلبه شَغَفاً بحبِّ الخير، والاستقامة، والنَّقاوة الفطريَّة، ومحبَّةً لمسقط رأسه ولعاداته العريقة، وهُياماً بالأغاني القديمة،

واهتماماً ما بين العاطفيّ والفضوليّ بالحكايات التي كانت ترويها النِّسوة من العوامّ، وبالأمثال الجذّابة والحكم التي كنّ يسردن من خلالها معرفتهنّ بالحياة؛ وفوق كلّ شيء، كان يملك حسّاً موسيقيّاً، وفي الموسيقى تجلّى له تناغمُ الأشياء، وفيها وجدَ جمالَ الإنسان وسَدادَ أمره.

وإنّه لمن غرائب الصُّدَف حقّاً، أنّ صديقاً له، وكان بمكانة أخيه، وصداقته به كانت قد بدأتْ مُذْ كان صبيّاً يرتاد المدرسة، هو جوليو تشيزارِهْ كورتيزِهْ - ذو السَّريرة الطَّيِّبة والرُّوح الشِّعريَّة الخالصة هو الآخر – كان قد أخذ على عاتقه بجدِّيَّة، في ذلك الوقت، رفع شأن فنِّ اللَّهجة "النابوليتانيَّة" التي لم يكن قد استخدمها حتى ذلك الوقت إلَّا الحكَّائون الشَّعبيُّون، وناظمو القوافي، والأغاني، وأشعار الهجاء، وبعضها بالتَّأكيد لم تكن تنقصها ومضاتٌ من البراعة، كما هو الحال مع الحكواتي الذي كان يُعرَف باسم فيلاردينيلُّو.

كان على بازيلِهْ في البدء أن يجرِّب الأسلوبَ الجديدَ في الأدب من باب الدُّعابة اللَّفظيَّة الغريبة فحسب، كما فعل نثراً وشعراً في بعض الرَّسائل التي أضافها إلى إحدى ملاحم صديقه، ملحمة "الفاياسييدِهْ *Vaiasseide*"[1]، ولكنَّه بعد ذلك بدأ يشعر تدريجيّاً بالارتياح إلى تلك اللَّهجة الحميمة التي لا تفرض عليه أيَّة التزاماتٍ أدبيَّة، ولا ترهبه، وتسمح له بالتَّعبير عمَّا يعتمل في صدره، لهجةٍ ربَّما كانت قليلة الشَّأن مقارنةً بسموِّ الأشكال الأدبيَّة التي كان يدَّخرها لمدح "الأبطال"، أو بالأحرى ولاة العهد والأمراء والدُّوقات.

وأنشأ بازيلِهْ تسع حواريَّاتٍ شعريَّةٍ بهذه الطريقة، ودعاها "إغلوكِهْ Eglogh"[2]، مسمِّياً كلَّ واحدةٍ منها باسم إلهةٍ من إلهات الإلهام التِّسع،

1) ملحمة شعريَّة ساخرة ممَّا هو بطوليٌّ كتبها الشَّاعر الإيطاليُّ جوليو تشيزارِهْ كورتيزِهْ (1570-1640)؛ (المترجمان).

2) قصيدةٌ شعريَّةٌ في صورة حوارٍ، تنتمي إلى جنس الشِّعر الغنائيِّ، أو ما يُعرَف بالأدب الرَّعويِّ

ومعنوناً إيَّاها معاً باسم "المُلهمات النّابوليتانيّات"، ولكنَّها، في الحقيقة، لوحاتٌ شعبيَّةٌ نابضةٌ بالحياة، رُسِمَتْ بهَدْيٍ من شعورٍ أخلاقيٍّ خالصٍ، وهي تبدأ بمشهدٍ لشخصين يلعبان ويتخاصمان، ومن تبادل الإهانات ينتقلان إلى الأسلحة، ليأتي شخصٌ عجوزٌ ويفرِّق بينهما، وفي أثناء تأنيبهما ونُصحهما يقول لهما بلهجةٍ وقورةٍ نابعةٍ من الأعماق: "إنَّ السَّلام لشيءٌ في غاية الجمال!". ثمَّ يتقدَّم شابٌّ واقعٌ في شِراك مومس، وآخر يتمعَّنه ويجعله يلمس لمسَ اليد حبائل مكيدة هذه العاطفة وفداحتها وبؤسها، دون أن يتمكَّن من إقناعه، لأنَّ هذا لديه العقل والحكمة، بينما لا يملك الشَّابُّ إلَّا غليان الدَّم والخيال الذي يعمي البصيرة ويجرُّ إلى المهاوي. ويتبع ذلك مشهدٌ يصوِّر مكاناً مبتذلاً في نابولي تلك الأزمان، هو حانة تشرِّيليو التي كان بعضهم يرتادها للسَّمَر بصحبة الأصدقاء وبائعات الهوى، وكانت أيضاً ملتقىً للُّصوص، والمزوِّرين، والقتلة؛ ومشهدٌ ثانٍ لِشجارٍ بين نسوةٍ صغيراتٍ، مع صورٍ ديونيسيَّةٍ خاليةٍ من الابتذال؛ ثمَّ مشهدٌ مناقضٌ لما سبق، يصوِّرُ في إطار الأنشودة الرَّعويَّة فتاةً جميلةً وبريئةً، في طريقها إلى الزِّفاف، محضونةً بنظرات العريس الهائمة، ومحاطةً بمحبَّةِ الأقارب وهُم يغمرونها بالهدايا والتَّبريكات. ثمَّ عودةٌ مرَّةً أخرى إلى الهجاء السَّاخر للرَّجل العجوز الذي يمضي، خلافاً لقوانين الطَّبيعة المقدَّسة، في طريقه إلى الزَّواج من فتاةٍ في مقتبل العمر. ثمَّ هناك ذلك الاستعراض المرير لمسألة التَّرفِ الغامضِ الأسباب الذي يتباهى به بعضُهم، هنالك حيث يُشاهَدُ أناسٌ طيِّبون ونزيهون يصونون بكلِّ حرصٍ الثَّوب الوحيد والعتيق

الذي يشيد بالتَّقاليد البسيطة في حياة الريف، وفي نفس الوقت ينتقد الجوانب السَّلبيَّة في المجتمع. من أوائل كتَّابها اليونانيُّ ثيوقريطس الذي يُعَدُّ مبدعَ ومؤسِّسَ هذا الأدب، والشَّاعر الرُّومانيُّ فرجيل (بوبليو فيرجيليو مورونه 70-19 قبل المسيح). استمرَّ ازدهار الأدب الرَّعويِّ حتى القرنين الخامس عشر والسَّادس عشر، ليتحوَّل في إيطاليا إلى دراما رعويَّة، وفي إنكلترا وفرنسا وإسبانيا إلى روايةٍ رعويَّة. وجديرةٌ بالذِّكر، في هذا المقام، المراسلاتُ الرَّعويَّةُ المشهورة باللُّغة اللَّاتينيَّة بين دانتي أليجيير ي وجوفانّي دي فيرجيليو (شاعرٌ ولغويٌّ إيطاليٌّ عاش ما بين القرنين الثَّالث عشر والرَّابع عشر)؛ (المترجمان).

الذي يسترون به الفقر باستعلاء. وفي النِّهاية، هناك حوارٌ حول الموسيقى، حوارٌ يتردَّد كلُّ صداه في نبراتٍ وألحانٍ قديمة، تمجيداً للموسيقى البسيطة التي تلج القلب، معزوفةً على آلاتٍ بسيطةٍ وبدائيَّة الصُّنع، مقابل تلك الأنيقة والمتكلِّفة الرَّائجة في البلاطات والقصور.

بعد هذه *"المُلهمات النَّابوليتانيَّات"*، أو بالتَّزامن معها، قام بازيلِهْ بإبداع لوحةٍ فنِّيَّةٍ أكثر اتِّساعاً، لوحةٍ كانت أشبه بمحاكاةٍ للدِّيكاميرون، أرادَ بها أن يجمع كنزاً من الحكايات الشَّعبيَّة التي كانت تروى في نابولي: إنَّها "البِنْتاميرون"[1]، ذلك أنَّ عدد الحكايات فيها سيكون خمسين حكايةً مقسَّمةً على خمسة أيَّام، وقد أسماها *"حكاية الحكايات"*، أو بالأحرى *"مؤانساتٌ للصِّغار"*، ولم يكن يعني بذلك (كما اعتقد بعضُهم، ومن بينهم الأَخَوان غريم، عندما ترجموا هذا العنوان المَرِح حرفيّاً) أنه أَلَّفَهُ من أجل الأطفال. فهو، وعلى النَّقيض من ذلك، مؤلَّفٌ للكبار، للأدباء والمتمرِّسين والمتبحِّرين الذين يفهمون ويتذوَّقون الأشياء المعقَّدة والفذَّة؛ وربَّما كان ذلك في أثناء ارتياده أكاديميَّات نابولي، وبالأخصِّ تلك العريقة منها، كأكاديميَّة "الخاملون"[2] التي انتسب إليها بازيلِهْ باسم "الكسول" (الاسم نفسُه الذي كان قد اعتمده سابقاً في أكاديميَّة "الأشخاص غريبو الأطوار" في كانديا)، حيث كان يقرأ مقتطفاتٍ من "الأدب الرَّعويِّ" أو من "حكاية الحكايات"؛ ولا شكَّ في أنَّ عمله الذي كان ينتظر ثماره منذ سنواتٍ، كان معروفاً في تلك الدَّوائر، حتى أنَّ فرانتْشِيسكو دِيْ كويفيدو الذي كان يتردَّد إلى أدباء نابولي، وكان عضواً من أعضاء "الخاملون"، منح عنوان *"حكاية الحكايات"* في عام 1626 لمجموعةٍ من نصوصه التي تحوي كلماتٍ وعباراتٍ ساخرةٍ ومبتذلةٍ مكتوبةٍ باللغة الإسبانيَّة. وسواءٌ بالنِّسبة إلى هذا العمل أو ذاك، *"المُلهمات"* أو *"حكاية الحكايات"*، فإنَّ كليهما

1) أي المخموس، أو كلُّ ما هو مكوَّنٌ من خمسة عناصر أو أركان؛ (المترجمان).

2) مؤسَّسة ثقافيَّة، ولا سيَّما أدبيَّة، نشطت في نابولي خلال القرن السَّابع عشر؛ (المترجمان).

لم يريا النُّور إلَّا بعد وفاة مؤلِّفهما، من عام 1634 إلى عام 1636، إذ كان الأوَّل مكتملاً وجاهزاً للطِّباعة، بينما كان الثَّاني لا يزال غير مُكتملٍ وغير مُنقَّحٍ في كثيرٍ من الحكايات، ولا سيَّما في حكايات اليوم الأخير، وكان أيضاً في حاجةٍ إلى مراجعةٍ شاملة.

مع هذه الذِّهنيَّة التي أشرنا إليها أعلاه، ومع الأخلاقيَّة السَّاخرة التي سبق أن عبَّر عنها في *"الملهمات النَّابوليتانيَّات"*، وفوق ذلك، مع براعته الأدبيَّة في صياغة موضوعٍ يُبهج القلوب – وإن كان دائماً ما وضع في اعتباره الوهن والبساطة، مازحاً حولهما، ومزخرفاً الأمور بشكلٍ نزويٍّ متقلِّبٍ، ليقوم بعد ذلك، في لحظةٍ ما، برفع الحجاب عن فقرها أو عريها – كرَّس بازيلهْ نفسه لسرد حكايات شعبه التَّقليديَّة.

وكان هذا التَّغلغل هو الشَّرط اللَّازم لتحويل مادَّة تلك الحكايات إلى عملٍ فنِّيٍّ. فبالشَّكل الذي سردها العوامُّ به قبلَ هذا، كانت قد فقدت حياتها الشِّعريَّة الحقيقيَّة، والنَّفَسَ الأصليَّ الذي منحَه لها مَن تخيَّلها لأوَّل مرَّةٍ، وألَّفَها. فهي بحالتها هذه أشبه بمادَّةٍ خامٍ مختصَرةٍ وباهتةٍ تعرض "واقعةً" أقصوصةٍ أو رواية. من هنا تنبع الفجاجة المألوفة للحكايات التي جمعَها توثيقاً دارسو الفلكلور والمختصُّون في بسيكولوجيا وعادات الشُّعوب، فهي لا تعدو كونها وثيقةً لِلَهَجَاتٍ وعاداتٍ، وإذا لزم الأمرُ، لأساطير، ولكن نادراً ما تؤخَذ مأخذَ الأعمال الشِّعريَّة؛ وبطبيعة الحال، لم يحدث قَطُّ أن تحوَّلَتْ تلك المجموعات إلى كتبٍ للقراءة، إلَّا في حال أعيدَتْ صياغتها، أو مراجعتها، مع إضفاء لمسةٍ فنِّيَّةٍ عليها.

ويتعارض، في الحقيقة، مع هذا الحكم الذي أطلقناه، ذلك التَّحيُّز أو الحكم المسبَّق الذي يمكن أن نصفه بالرُّومانسيَّة، حول الشِّعر والرِّواية الشَّعبيَّة التي يُفترَض أنَّ "روحاً شعبيَّةً"، أو "نفساً فطريَّةً"، هي التي أنتجت حكاياتها، ومِن ثَمَّ سيكون من الضَّروريِّ أن نعرف كيف نستعيدها حين تكون قد حُرِفَتْ عن مسارها من باب التَّغيير واللَّامبالاة. والحالُ أنَّ تلك

"الرُّوح البسيطة"، أو تلك "الرُّوح الشَّعبيَّة"، كثيراً ما يعثر فيها، مَن يشتغل عليها مِن فنَّانين موهوبين، على ما يُسمَّى بروح العصر[1] "Der Herren eigner Geist" التي تكلَّم عنها فاوست، والتي تتضمَّن حكايات مرآة النَّفس "Sich bespiegeln".

والحقيقة هي أنَّه ما مِن عبقريَّةٍ أو موهبةٍ فنِّيَّةٍ قد راعت التَّجرُّد والموضوعيَّة حيال الحكايات الشَّعبيَّة، فبعد ستِّين عاماً على رحيل بازيلِه، أدخلَ شارلز بيرُّو، بكتابته "حكايات الإوزَّة الأم *Contes de ma mére l'Oye*"، الكثير من روح القرن الفرنسيِّ العظيم، كما وجد النُّقَّاد الفرنسيُّون في "ذات الرِّداء الأحمر *Chaperon rouge*"، و"القطُّ ذو الحذاء *Chat botté*"، و"عُقْلة الإصبع *Petit Poucet*"، و"سندريلَّا *Cendrillon*"، وفي الحكايات الأخرى الفائقة النَّقاء من حيث الشَّكل- وجدوا فيها العقلانيَّة الدِّيكارتيَّة، وخبرةَ وخبثَ رجلٍ خَبَرَ العالم، حتى إنَّ آخرين رأوا فيها سخريةً طفيفةً من الجوهر البسيط والشَّعبيِّ، دونما تقليلٍ من شأنها، بل بما يسهم، في الواقع، في تشكيل وإغناء سحرها الخاص.

وعلى نحوٍ مماثلٍ، نقلَ كارلو غوتزي، الذي حوَّل تلك الحكايات إلى مسرحيَّات، شغفه بتصوير المناظر الطَّبيعيَّة إليها، محتضِناً في تلك المناظر الشَّخصيَّات الخرافيَّة وأقنعة المسرح معاً، ومُدخِلاً هنا وهناك جدله الأدبيَّ والسِّياسيَّ ضدَّ المُجدِّدين واختصاصيِّي المعاجم والموسوعات. وبالطَّريقة نفسِها تصرَّف كلٌّ من يوهان لودفيغ تيك Johann Ludwig Tiek (1773-1853)، والكونتُ أوغست فون بلاتن-هالرموندِه (1796-

1) المصطلح الأصليُّ هو مفهومٌ علميٌّ بحتٌ أصبح معروفاً من خلال دراسة كتبها الفيلسوف يوهان غوتفريد هيردر ونُشر في عام 1769 ضمن عمل جدليٍّ ضدَّ الفيلسوف واللُّغويِّ أدولف كلوتس، إذْ تمَّت الاستعانة بالتَّعبير اللَّاتينيِّ Genius saecoli، وهو نفس التَّعبير الموجود في "فاوست" (دون تغيير تقريباً) لفولفغانغ غوته: "ذاك الذي تدعونه روح العصر"، ولكنَّه معروفٌ بشكلٍ رئيسيٍّ في فلسفة التَّاريخ باستخدام هيجل له في محاضراته حول هذا الموضوع. يُذكر أن الفلاسفة الألمان تعاملوا مع مصطلح "روح العصر" بِعَدِّه سمةً تاريخيَّةً قائمةً في ذاتها، بدلاً من عدِّه وصفاً عاماً للعصر؛ (المترجمان).

1835)، وبقيَّة مقلِّدي كارلو غوتزي من الكتَّاب الألمان المشكوك في أعمالهم، كما هو شأن الأعمال الصَّادرة بلهجة مقاطعة البندقيَّة، التي لا تبلغ حتى شرف وضعها موضعَ النِّقاش، إلَّا ربَّما لتناول الذَّاتيَّة الشِّعريَّة لمؤلِّفيها. وعلاوةً على ذلك، فإنَّ هذه الأشياء، التي نسيها النُّقَّاد أحياناً أو تغافلوا عنها، لا تتغافلُ عن الشَّعب الذي يطلب أن تُجدَّد الحكايات من قبل الرُّواة والشُّعراء، ويقول ضارباً المثل: "الحكاية لا تكون جميلة، بلا لمسةٍ وحيلة".

ولهذا السَّبب، فإنَّ *"حكاية الحكايات"* كتابٌ حيٌّ، كتابٌ ليس سوى مجموعةِ حكاياتٍ من صقلِّية، وتوسكانا، والبندقيَّة، التي كانت ثريَّةً آنذاك بحكاياتها، ولكنَّه، في الوقت نفسه، ينتمي إلى أدب الفنِّ الإيطاليِّ الذي كان قد أخذ يعيد صياغة روايات الفروسيَّة والأدب الشَّعبيِّ مع لويجي بولتشي (1432-1484)، ومع لورنزو الرائع (لورنزو دي بييرو دي ميديشي (1449-1492)، ومع تيوفيلو فولِنغو (1491-1544)، ومن بعض النَّواحي مع ماتيو ماريا بوياردو (1441-1494) ولودوفيكو أريوستو (1474-1533)، ويمكن القول، بشكلٍ أو بآخر، إنَّه آخر عملٍ صريحٍ في هذا المضمار، ظهر متأخِّراً في نابولي، ليس في بيئة عصر النَّهضة بالتَّأكيد، وإنَّما في القرن السَّابع عشر وعصر الباروك.

الباروكُ يتغلغلُ فيٌّ كلِّ مكانٍ، وبازيلِهْ لا يقف حياله قانعاً بتبجيل حكايات الغيلان والحوريَّات، بل يسعى إلى تقديمه في إطارٍ مقاربٍ للإطار الكلاسيكيِّ للدِّيكاميرون، مُخلياً المكان الذي كانت قد شغلته من قبلُ بامبينيا Pampinea، وفياميتَّا Fiammetta، ونيفيلهْ Neifile، وإليزا Elisa، لكلٍّ من تسيتسهْ Zeze، وتشولَّهْ Ciulle، وبيبهْ Pepe، وتشومِّتلَّا Ciommetella، ولكنَّه ينثرهم جميعاً بالأريج الفوَّاح لأدب القرن السَّابع عشر. لا يبزغ الفجر ولا تغرب الشَّمس، في تلك الحكايات، دون أن يعثر بازيلِهْ على طريقةٍ جديدةٍ وغريبةٍ لوصف مراحل النَّهار مع الإتيان بتورياتٍ

من هذا القبيل: "في الفجر، حالما صرخت الطُّيور: عاشت الشَّمس!"، "عندما أشرقت الشَّمس وتمدَّدت لتجفِّف الرُّطوبة التي امتُصَّتْ في نهر الهند"، "عندما تكنس الشَّمس بألياف أشعَّتها الذَّهبيَّة نفايات اللَّيل من الحقول التي يسقيها الفجر"، "عندما يبزغ الفجر للبحث عن بيضٍ طازجٍ يواسي به عشيقته الهرمة"، أو: "في اللَّحظة التي تنهج فيها الكراتُ المذهَّبةُ، التي تلعب بها الشَّمس في حقول السَّماء البديعة، المسارَ المائل نحو الغروب"، "عندما تضع الشَّمس التَّفْتَةَ السَّوداء حول وجهها، كسيِّدةٍ نبيلةٍ من جنوة"، "عندما يرتفع اللَّيل ليشعل الشُّموع على منصَّة نعشِ السَّماء من أجل مراسم جنازة الشمس"، "عندما تمدُّ الأرض بساطاً أسود كبيراً من الورق المقوَّى لجمع الشَّمع النَّازف من مشاعل اللَّيل"، وهكذا دواليك.

يمكن تعداد العشرات من هذه الصُّوَر، ومن صورٍ أخرى تضاهيها في هذا التَّنوُّع الكبير، من غاباتٍ حالكةٍ، وجداول وأنهارٍ صاخبةٍ، ونوافير دفَّاقة. مُلوكُ بازيلهْ وملكاته، أمراؤه وأميراته، قرويُّوه ومزارعوه، نساؤه من الفلَّاحات والشَّغَّالات، يُعبِّرون عن معاناتهم باستهلالاتٍ، وتدرُّجاتٍ، وتكراراتٍ، بتملُّقٍ وكلماتٍ منمَّقةٍ، مع حدَّةٍ بصيرةٍ ومشاحناتٍ مشفوعةٍ بمعارف الحكماء، بما يتَّفق مع قواعد وأمثولاتٍ مستقاةٍ من مواثيق البلاغة المزدهرة آنذاك. "فلتذهبي الآن إلى الجحيم، أيتها الإلهة القبرصيَّة! - يصرخ الأمير، مأخوذاً بجمال الحوريَّة التي جاءت لترقد بجانبه - فلتذهبي وتشنقي نفسك، يا هيلين! ولتعودي إلى بيتك، يا فيوريلَّا! جمالكنَّ تُرَّهاتٌ أمام هذا الجمال المضاعَف، هذا الجمال الكامل، المتكامل، المطمئنّ، الهائل، الرَّاسخ؛ جمالكنَّ لا شيء أمام هذه النِّعمة الإلهيَّة، نعمة إشبيلية، الرَّائعة، والسَّاحرة، والمهيبة... آه أيُّها النَّوم، آه أيُّها النَّوم القشيب، صُبَّ المزيد من الخشخاش على أعين هذا الفرح الجميل! لا تفسد عليَّ متعة التَّأمُّل، فلطالما اشتهيتُ انتصارَ الجمال هذا! آه أيَّتها الجديلة الجميلة التي تلفُّني!

آه أيَّتها العيون الجميلة التي تدفِّئني! آه أيَّتها الشِّفاه الجميلة التي تُنهلني! آه أيُّها الصَّدر الجميل الذي يُريحني! آه أيَّتها اليد الجميلة التي تطعنني! أين، أين، في أيِّ مشغلٍ من عجائب الطَّبيعة نُحتَ هذا التِّمثال الحيُّ؟ أيُّ هندٍ قدَّمت الذَّهب لنسج هذا الشَّعر؟ بأيِّ عاجٍ إثيوبيٍّ صُقلَ هذا الجبين النَّاصع؟ أيُّ أهوارٍ قدَّمَت الفحم لتكوين هذه العيون؟ أي صُوَرٍ قدَّمَت الأرجوان لتورُّدِ هذا المحيا؟ ...". وكذلك حالُ الأمير الآخر، الذي يملك بين يديه النَّعل الرَّشيق الذي أفلت من قدَم سندريلاَّ، إذْ يقول في نجواه: "إذا كان أساسُ المنزلِ بهذا الجمال، فما بالكم بالمنزل نفسه؟ آه أيُّها الشَّمعدان الجميل، حيث الشَّمعة التي تستنزف قواي! آه أيُّها الحامل الثُّلاثيُّ للمرجل الجميل، حيث تغلي حياتي! آه أيُّها الفلِّين الجميل على صنَّارة الحبِّ التي اصطادَتْ هذه الرُّوح! هأنذا أعانقكم وأحضنكم، وإذا لم أستطع الوصول إلى النَّبتة، فسوف أعشق الجذور، وإذا لم أستطع أن أنهل من تيجان العواميد، فسوف أقبِّل القواعد! لقد كنتم بالفعل الأغلال لِقَدَمٍ بيضاء، والآن أنتم المصيدة لقلبٍ شجيٍّ معذَّب. بفضلكم أنتم، تلك التي ظلمَتْ حياتي، كانت أطول بشبرٍ ونصف الشِّبر، ولأجلكم تنمو بنفس العذوبة حياتي هذه، بينما أنظر إليكم وأمتلككم».

وفي بعض الأحيان، لا تتوانى الشَّخصيَّة عن وضع نفسها في المكان المناسب، في المشهد المُعَدِّ جيِّداً لتدفُّق مشاعرها، مثل الأميرة رينزا التي تذهب إلى تحت شجرة توتٍ، وفي ظلِّ تلك الأوراق تبوح بسخطها ذي الأسلوب المؤنَّق. ويكثر الإغراق في البلاغة، مدفوعاً إلى حدوده القصوى التي يتبخَّر عندَها في كلِّ ما يفوق القول وما يفوق الوصف؛ هناك حيث الوصف التَّفصيليُّ للجمال والقبح يبدو أشبه بقائمة جردٍ محشوَّةٍ عَنوةً بالبحث عن كلِّ ما يمكن تخيُّله، وبالتَّعبير عن كلِّ ما هو فائق السِّحر والشَّناعة.

تبدو الاستعاراتُ غريبةً حيناً ومُبهمَةً حيناً آخر، وهي تتواصل دون

انقطاع. الأمير والرَّاهب المُزيَّف يلتقيان، يتبادلان الحديث، ويسيران معاً وهما يلغوان: "ملوِّحَين حرارةَ الشَّارع بمِرْوَحة الثَّرثرة". والقطُّ الذي ورثه غاليوزو، ثمَّ اكتشف القطُّ جحودَه البارد، يؤنِّبه الآن بحدَّة ويدير له ظهره، وغاليوزو يتبعه ويسعى جاهداً لتهدئته "مع رئة التَّصاغُر": مع الرِّئة التي هي الطَّعام الذي يُقدَّم في منازل نابولي للقطط الأليفة التي تنتظره بتلهُّفٍ ونفادِ صبر. وبنْتا التي طُردت إلى المنفى مع طفلها، "تأخذ بين ذراعيها خيارتها الغضَّة[1]، وتسقيها بالحليب وبالدُّموع". وليست أقلَّ تواتراً مداوراتُ المزاح، فالملكة التي تلفظ أنفاسها توصي زوجها أن يتَّخذ له زوجةً الفتاةَ الطَّيِّبة المبتورة الذِّراعين، والزَّوج، متأثِّراً كما هو، تمرُّ في خاطره الصُّورة المضحكة لاقتراح زوجته ويفكِّر دون أن يبوح بما يفكِّر فيه: "لا بأس: إذا كان ينبغي أن أتزوَّج ثانيةً، فسآخذ بكلِّ سرورٍ الفتاة المبتورة الذِّراعين، لأنَّه من الأفضل للمرء أن يأخذ أقلَّ قدرٍ ممكنٍ من الأشياء المغمَّة، كالنِّساء".

هل أراد بازيلهْ أن يسخر من أدب الباروك في عهده، باتِّباعه هذا النَّهج؟ هذا ما خمَّنه وأيَّده لويجي سيريو في القرن الثَّامن عشر، ولكنَّه هدفٌ بعيد الاحتمال كلِّيّاً، لأنَّ أعمال بازيلهْ المكتوبة باللغة الإيطاليَّة الفصحى، والتي من المؤكَّد أن سيريو لم يكن يعرفها، تثبت أنَّها من نمط الباروك الأكثر فجاجةً. فبازيلهْ لم ينأ عن أشكال الأدب الشَّائعة في عصره، بل على العكس، كان معجباً جدّاً بها، هو الدَّائر في فلك مارينو العظيم[2]. ولكنَّه، في سرد حكاياته، كان يفعل ذلك من باب اللَّهو، بالطَّريقة نفسِها التي يداعب بها المرءُ طفلاً ويدلِّله، محاولاً أن يجعله يضحك ويبتهج،

1) كنايةٌ عن الطِّفل نفسه؛ (المترجمان).

2) الإشارة هنا إلى جامْباتِّيستا مارينو Giambattista Marino (1569-1625) أحد أبرز شعراء عصر الباروك في إيطاليا. وُلِد في نابولي، وتوفِّي فيها. بدأت شهرته مع "أنشودة القبلات" التي أدرِجَت فيما بعد في مؤلَّفه "القيثارة". نشرَ رائعته "أدونيس" في باريس في عام 1623؛ (المترجمان).

واضعاً على رأسه قبّعةً أسطوانيّةً وزوجاً من النّظّارات على أنفه، وهذا لا يعني ازدراءً وسخريةً من القبّعة الأسطوانيّة أو من النّظّارات، ولا من الأطفال بطبيعة الحال. ومع ذلك، فإنّ بازيلهْ ينجح فنّيّاً، وبلا إدراك، في الاستهزاء من فنّ الباروك الذي يبقى، أيّاً يكن ما يقوله مؤيّدوه الحاليّون، فنّاً مُضجراً وفارغاً، ولا يُطاق عندما يكون جدّيّاً، ولكنّ هذا الفنّ لا يصبح عند بازيلهْ قابلاً للاحتمال فحسب، بل يصبح لطيفاً واحتفائيّاً أيضاً، إذْ يتخلّله بريقٌ من الخبث، وينعشه منهلٌ من روح الدُّعابة الرزينة. وفي هذا الصّدد، يمكن للمرء أن يزعم أنّ "بِنتاميرون" بازيلهْ هو أجمل كتابٍ وصلَنا من عصر الباروك الإيطاليّ، وليس بالتّأكيد كتابُ "أدونيس" المسهَبُ والمتصنِّع: إنّه الأجمل، في الواقع، لأنّ فنّ الباروك يؤدّي رقصةً مرحةً هناك ويبدو كما لو أنّه يذوب: كان الباروك مِن قبلُ عكراً، وقد تحوّل الآن إلى بهجةٍ صافية.

يتطلّع هذا الباروك المُبهِج إلى إبقاء روح المؤلّف والقارئ فوق موضوع الحكايات، في تمييزٍ مستمرٍّ بين الثّقافة والجهل، بين العقل المتطوّر والعقل الخام، بين المثقّفين والرّعاع: نهج سيفهمه على النّحو الواجب، وسيقدّرُه بشكلٍ خاصٍّ، أولئك العارفون الذين لا يطيقون الهراء والتّكلُّف في الأدب الشّعبيّ الذي يحاول الكبار فيه بلا طائلٍ أن يعودوا أطفالاً ولا ينجحون إلّا في التّباري في الحذلقة الصّبيانيّة البسيطة والسّاذجة. ولكنّ هذا النّهج لم يمنع بازيلهْ من التّطرُّق إلى المسائل الإنسانيّة في حكاياته التي يقدّمها بمخيّلةٍ فائقةِ المرونة، وبصورةٍ ملموسةٍ ومفصّلةٍ (مذكّراً هنا أيضاً بأدب الشّاعرين لويجي بولْتشي، وتيوفيلو فولِنْغي)، ومثيراً في نفوس القرّاء مشاعر الخوف، والتّعاطف، والإعجاب، والمقت، والنُّفور.

إنّه يُريكم حزمةً من الحطب، إذا ما امتطاها الرّجل المحظوظ الذي تتحوّل كلُّ رغبةٍ لديه إلى حقيقة، فإنّها تبدأ بالتّحرُّك مثل حصانٍ، فتخبُّ، وتعدو، وتقفز، وتنعطف، يلاحقها صخب الأولاد، فيما تنظر النّساء إليها بفضولٍ من النّوافذ؛ أو يُريكم حفلَ استقبالٍ لجميع متسوّلي المدينة إذْ

يدعوهم الملك إلى مأدبة في قصره، فيجلسون بجدِّيَّة وسعادةٍ على الطَّاولة، "كأنَّهم ثُلَّةٌ من النُّبلاء الموسرين"؛ أو ذلك المشهد لدى طبخ قلب التِّنين البحريِّ، والرَّائحة التي تنبعث منه، ومعجزة حَبَل الطَّاهية وكلِّ أثاث الغرفة، إذ تُنجب كلُّ قطع الأثاث أشباهها بأحجامٍ صغيرةٍ، فالطَّاولة تلدُ طاولةً صغيرةً، ومسند القدمين يلدُ مسنداً صغيراً، والكرسيُّ يلدُ مقعداً صغيراً، وحتى المِبْوَلة اللَّيليَّة تلدُ مِبْوَلةً صغيرةً مطليَّةً وجميلةً، متعةً للنَّاظرين؛ أو مشهد شقِّ الخنادق والخدع التي يقوم بها الجرذ والصَّرصار بغية الوصول إلى جسم السَّيِّد الألمانيِّ البدين الذي يريدون منعه من الزَّواج؛ أو فورتِسكيينا الذي يحمل على ظهره القويِّ كلَّ ثروات الدَّولة والأفراد؛ أو بارميتيلَّا التي تركض، صارخةً وتائهةً، خلف الآلات الموسيقيَّة التي تركتها تهرب من حافظتها، فهي الآن تحلِّق وتعزف ألحانها في الهواء. وأحياناً يروِّح عنكم بمشهدٍ ريفيٍّ غضيضٍ وشَجير، كمشهد نيلَّا التي تتسلَّق شجرةً في اللَّيل الصَّامت وتبدأ بالإصغاء إلى الحديث الذي يدور في بيت الغول، أو كمشهد الأميرة التي تخرج من بوَّابة المدينة آناءَ اللَّيل، ينيرها ضوء القمر، وقد جعلَتْ من الثَّعلب مرافقاً لها، ومع الثَّعلب تنام تحت خيمةٍ من الأوراق، على فراشٍ من العشب الطَّريِّ، بالقرب من نافورةٍ متدفِّقةٍ، وعند الفجر، حين تستيقظ، تتمهَّل لكي تصغي إلى غناء الطُّيور الجاثمة على الأشجار بأعدادٍ لا حصر لها، وتمتِّعَ أذنيها بشدوها.

ولكنَّ بازيلهْ يجعلكم تشعرون، أيضاً، بالعفَّةِ الحَيِيَّة لفتياته اللَّاتي تلاحقهنَّ الشُّرور ويكافئهنَّ طالع السَّعد: مثل فيولا التي كادت لها خالتُها ميتسانا كيداً، فأنقذت نفسها بعزيمتها، وذهبت حالاً إلى العجوز وقطعت أذنيها اقتصاصاً منها؛ وبِنتَا التي تقطع يديها الجميلتين بسبب شقيقها الذي أضمر عاطفةً خبيثةً نحوها، وترسلهما له كهديَّةٍ في وعاء؛ وسابيا التي تفرُّ من الإغواءات التي تحاول شقيقتاها من خلالها أن يُوْقِعاها بما وقعتا فيه. يجعلكم تُعجَبون بشجاعة وذكاء ابنة البارونة التي، بصفعها ابن

الملك، تجعله يستيقظ خجلاً من جهله المتعنِّت وتحرُّره منه، ثمَّ تدعم بجرأةٍ انتقاماته، وفي النِّهاية، مسترشدةً بحنكتها، تعلُّقه بها. إنَّه يجدِّد ببراعةٍ تلك الكوميديا المحبوبة التي تتحدَّث عن اثنين يحبَّان بعضهما، ويبحثان دائماً عن المشاحنات كما لو كانا عدوَّين، متسلِّحَين بالكلمات الجارحة والتَّراشقات الحَقود، في تشابهٍ مع شخصيَّتي "بِنديك Benedick" و"بياتريس[1] Beatrice" الشِّكسبيريَّتَين. إنَّه يُترعكم بمشاعر الحنوِّ على الطِّفلات المعدمات اللَّاتي يقتطعن من أفواههنَّ الكعكة ليمنحنها للعجوز البائسة التي طلبتها منهنَّ، وحين يحظين برزقٍ وافر، يحتفظن بما هنَّ عليه من اللُّطف والتَّواضع. ومن بين مجموعةٍ من النِّسوة الوضيعات والشَّرسات، نراه ينحِّي فجأةً واحدةً منهنَّ، أصغرهنَّ التي تحسُّ بالشَّفقة وتتراجع عن قتل الصَّبيَّة الجميلة، منافستهنَّ في عشق الأمير.

ثمَّ إنَّه يبثُّ فيكم قشعريرةَ خوفٍ من المتسوِّلة العجوز التي يحطِّمُ مزاحٌ قاسٍ وعاءَ من الفاصولياء بالكاد تسوَّلَته، فتموت من الجوع، وتظهر فجأةً كظلٍّ خبيثٍ للأمير الخليِّ البال في منتصف حفل زفافه. ويقدِّم لكم في "كورفِتُّو" الحسدَ المقيتَ والشَّرس الذي تضمره الحاشية لِحَظِّي الملك، والأباطيل الجديدة التي يختلقونها باستمرارٍ وينفِّذونها لكي يتخلَّصوا منه. يُظهر لكم فرحةَ بِنتا التي استعادت زوجها وراحت تدور حوله مثل جروٍ صغيرٍ يهزُّ ذيله لأنَّه عثر على سيِّده مرَّةً أخرى. ويمكن القول إنَّه يقدِّم لكم معجزة الأُمومة في قصَّة الجميلة النَّائمة في الغابة، تلك التي صارت أمَّاً في منامها، ووضعتْ، في منامها طبعاً، طفلين هما الشَّمس والقمر، التصقا بصدر أمِّهما بحثاً عن الحلمة، ولكنَّهما بدلاً من أن يمصَّا الحلمة، يمصَّان إصبعها وينتزعان الشَّوكة القاتلة التي جعلتها تقع في هوَّةِ السُّبات، ويعيدانها إلى الحياة. يحجبُ عنكم السِّحر الغامض للشِّعر في ذلك الأمير الذي يفقد ذكرى المرأة التي يعشقها ويسمع من فمها، هي المجهولة له والمتخفِّية، أغنية "الوجه الأبيض"،

1) بطلا المسرحيَّة الهزليَّة «جعجعة بلا طحن» لوليم شكسبير؛ (المترجمان).

دون أن يعرف هو نفسُه لماذا تخترقه هذه الأغنية بالعذوبة وبحنينٍ غامضٍ متأجِّج، ولماذا لا يملُّ أبداً من أن تُكرِّرَ تلك الأغنية له.

هذا غيضٌ من فيضِ العناصر العاطفيَّة الكثيرة التي يتردَّد صداها في هذه القصص الخياليَّة، سواءٌ كان بازيلهْ يستقيها من النَّاس ويعيد إحياءها، أو كان يقدِّمها لكم من بنات أفكاره، متعمِّقاً في خياله ومُسبِغاً طابعاً إنسانيَّاً على الحكاية الخرافيَّة الملتزمة بالصِّيَغ الثَّابتة والمتجرِّدة. وعند الاقتضاء، يقاربُ بازيلهْ بين الخرافيِّ والحياة المعيشة، الحياة اليوميَّة العاديَّة، وعلى وجه الخصوص حياة عصره، أو الحياة في مدينة نابولي؛ فالغولة تتجلَّى أحياناً في هيئة فلَّاحةٍ غيورٍ على بستانها، شرسةٍ في ذودها عن ممتلكاتها، وانتقاميَّةٍ من أولئك الذين نكثوا عهودَهم لها؛ أو تُسمَع أحياناً أخرى في المساء، وهي تثرثر في أثناء العشاء مع زوجها العائد من شؤونه اليوميَّة، وتسأله عمَّا يُقال وعمَّا يدور في العالم؛ وهناك سندريلَّا التي تبدو، وهي جالسةٌ بملابسها الفخمة في العربة التي زوَّدتها بها الحوريَّة السَّاحرة، مع حشدٍ من الخدم والغلمان، أشبه بمومسٍ نابوليتانيَّةٍ جميلةٍ على رصيف "كيايا" المحظور، إذْ يباغتها رجال الشُّرطة ويطوِّقونها ويسوقونها إلى السِّجن؛ وهناك تشينزو الذي يُنفَى من نابولي لأنَّه شجَّ من غير قصدٍ رأس ابن الملك في تحدٍّ بالتَّراشق بالحصى أو "الحجارة" في أريناتشيلا؛ وهناك الإماء السَّمراوات اللَّاتي لهنَّ طريقة الكثير من الإماء في الحركات والإيماء والكلام، وكُنَّ يُشاهدْنَ آنذاك في بيوتات نابولي، كحصيلةٍ لأعمال القرصنة ضد البرابرة[1]؛ وهناك روزيلاَّ، ابنة القائد التركيِّ، التي أوصلها الحبُّ إلى أرض المسيحيِّين، وكان نبلاء نابولي يتودَّدون إليها بوصفها تلك المغامرة الفاتنة الجمال، ويلجؤون إلى الغشِّ والخداع ويستدينون من المرابين ليلبُّوا ما كانت تطلبه من هدايا؛ وهناك شقيقتا سابيا اللتان

1) Barberia هو الاسم القديم الذي كان يُطلَق على شمال إفريقيا، وBarbareschi هم السُّكَّان الذين قطنوا تلك المنطقة؛ (المترجمان).

لم تخضعا لحياة الرَّهبنة المُحصَّنة التي فرضها عليهما أبوهما، فتاتان شيطانيَّتان "مدمنتان على التلصُّص من النَّوافذ"، تماماً كفتيات الجنوب المتأجِّجات، ولأنَّ النَّوافذ كانت قد سُمِّرَتْ، كانتا تتسلَّقان الرَّواشِنَ[1] لتبرزا رأسيهما وتُحادِثا المارَّة وتُغازلا.

إنَّ المشاعر الإنسانيَّة والأخلاقيَّة عند بازيلهْ، تلك التي تظهر من طريقة معالجته للشَّخصيَّات والحالات، تأخذ أيضاً شكلاً تأمُّليَّاً في المقدِّمات والخواتيم المليئة بأحكامٍ وآراءٍ حول مثالب الجحود، والغيرة، والحسد، وفضول النِّساء الجامح ومكرهنَّ، والحظِّ الذي يُفَضِّلُ الجُهلاء والخاملين، كما تأخذ شكلاً تأمُّليَّاً أيضاً في الأقوال المأثورة التي تبرزها القصص أو التي وُضِعَتْ في أفواه الشَّخصيَّات. ولكن لدى بازيلهْ الكثير ليقوله في هذا الصَّدد، بأنَّ هذه التَّلميحات العرضيَّة والمتفرِّقة لا تكفيه، وبأنَّه يشعر بالحاجة إلى صبِّ فيضِ روحه في أربع حواراتٍ أو "مشاهد رعويَّة" يلي كلٌّ منها يوماً من الأيَّام الأربعة الأولى، وفيها يسخر من الفرق بين الظَّاهر والحقيقة (*البوتقة*)، ومن إغواء الكلمات التي من خلالها يتموَّه الشَّرُّ بالخير، والخيرُ بالشَّرِّ (*الصَّباغة*)، ومن الوعثاء التي تقابل كلَّ طموحٍ إنسانيٍّ وكلَّ فرحةٍ (*الموقد*)، ومن الجشع المتفشِّي الذي يدفع الجميع إلى السَّلب والنَّهب وتكديس الأرباح (*الخُطَّاف*). فهي، إذاً، صورٌ أخلاقيَّةٌ ولوحاتُ عاداتٍ وتقاليد، مكتوبةٌ بأسلوبٍ ما بين الإغراقيِّ والغرائبيِّ، ولكن مرسومةٌ بهمَّةٍ ومُكْنةٍ، حتى إنَّها تذكِّرنا بنقوش جاكومو كالُّوت[2] Giacomo Callot.

يمرُّ من أمام أعينكم السَّيِّدُ العظيمُ، والعسكريُّ، والنَّبيلُ الذي يتباهى بسلالته، والمغرورُ، والمُتزلِّفُ، والمُستأسدُ، والمتملِّقُ الذَّليل، وامرأةٌ

1) الرَّوشن فتحةٌ أو خرقٌ في السَّقف المائل يدخل منه الهواء والضَّوء؛ (المترجمان).

2) جاك كالوت (1592-1635)، رسَّامٌ باروكيٌّ فرنسيٌّ من دوقيَّة لورين. من أشهر أعماله سلسلةٌ من ثمانية عشر نقشاً بعنوان "بؤس الحرب العظيمة"، وهي سلسلةٌ تستحضرُ مأساة حرب الثَّلاثين عاماً التي مزَّقت أوروبَّا بين عامَي 1618 و1648؛ (المترجمان).

المتعة، والشَّاعرُ، والمُغرَمُ، والمُنجِّمُ، والخيميائيُّ، والبخيلُ الذي يمتدحه النَّاس لأجل مالِه، والجبانُ الذي يُسلَّط عليه الضَّوء كإنسانٍ حصيفٍ محترزٍ، ومَن يعيش على حساب زوجته ويُحتفى به كإنسانٍ لطيف المعشر، وبالعَكس، رجلُ الشَّهامةِ والشَّرف الذي يفقد مصداقيَّته بسبب طيشه، والمتعالي على شؤون العوامِّ، فيُتَّهَمُ لذلك بالفظاظةِ والتَّوحُّش، والبارونُ الظَّالم ووكلاؤه الذين يبيعون العدالة، والتَّاجرُ والخيَّاطُ وصاحبُ الحانة وخِدَعهم، والكثير الكثير من الشَّخصيَّات وصنوف البشر الأخرى؛ وأخيراً، خيبةُ الأمل التي ينطوي عليها الحُبُّ، والأسلحةُ، والتَّرفيهُ، والعروضُ، والفنون، غيرَ مستثنٍ من انحطاط القيم العامَّة إلَّا الفضيلة والغنى أو السُّلطة، فهي التي تمنح الإنسان الرِّضا الحقيقيَّ الوحيدَ في العالم.

إنَّ "حكاية الحكايات"، بِعَدِّه كتاباً هزليّاً وكنزاً صغيراً من الكلمات الغريبة والتَّعابير العاميَّة، لم ينقصه بعض الحظِّ في القرن السَّابع عشر، وهو ما تشهد به ستُّ طبعاتٍ أعقبت الطَّبعة الأصليَّة، والمحاكاةُ التي حاولها بومبيو سارنيللي (1649-1724) في عمله "لأبوزيليكياتا La Posilecheata"؛ وما تشهد به خارج نابولي الأجزاءُ العديدةُ منه التي استخدمها الشَّاعر والرَّسَّام لورنزو ليبِّي (1606-1665) في ملحمته الشِّعريَّة "مالْمانتيلِه المُستعادَة"، والأفكارُ التي استلهمها منه سالفاتور روزا (1615-1673) وبندِتُّو منتسيني (1646-1704) لأجل هجائهما السَّاخر، والاقتباساتُ القليلةُ، بالأخصِّ من عمله "الإغلوگهْ Egloghe"، التي نقع عليها في أعمال كتَّاب آخرين، كما في أعمال فرانتشِسكو ريدي (1626-1698). وفي القرن الثَّامن عشر أيضاً أُعيدَت طباعته أربع مرَّاتٍ باللهجة المحلِّيَّة، وفي عام 1754 تُرجِمَ باختزالٍ إلى اللغة الإيطاليَّة، ترجمةً لا تستحقُّ الذِّكر، ولكن هناك اختزالٌ ظريفٌ للكتاب أنجزتْه باللهجة البولونيَّة[1]، في عام 1713، الشَّقيقتان مانفريدي، تحت عنوان "La

1) نسبةً إلى مدينة بولونيا في مقاطعة إميليا رومانيا شمال شرق إيطاليا؛ (المترجمان).

"ciaqlira dia banzola"، كما استقى منه الكاتب المسرحيُّ كارلو غوتزي (1720-1806) مادَّةً لبعض حكاياته المسرحيَّة، ومنه استقى أيضاً، بشكلٍ غير مباشرٍ ربمَّا، الألمانيُّ فيلاند[1] مقتطفاتٍ لإحدى ملاحمه الشِّعريَّة الفلسفيَّة المُدرَجة في "مكتبة الرِّوايات" Bibliothéque des romans.

غير أنَّ النُّقَّاد، من جهةٍ أخرى، لم يفهموا، أو لم يكونوا بعدُ قادرين على فهم روح النَّصّ، وهو ما يمكن أن نلحظه في النَّقد اللَّاذع الذي وجَّهه له فِرْديناندو غالياني[2] في كتابه "اللهجة النَّابوليتانيَّة"، والذي لا يقلُّ شراسةً عمَّا كتبه لويجي سيريو[3] ضدَّ غالياني. ولم يبدأ الاعتراف بأصالته وبخصائصه الفنِّيَّة الفريدة (وهذا مثالٌ آخر على التَّأثير المفيد الذي مارسه النَّقد الألمانيُّ الرومانسيُّ تجاه كتَّابنا، كأفضل تقديرٍ لأعمالهم) إلَّا مِن قِبَل جاكوب غريم Iacop Grimm، وذلك في عام 1822، في التَّذييل النَّقديِّ الملحق بمجموعة "حكايات خرافيَّة من ألمانيا *Kinder und Hausmärchen*". وكان كلمنس فون برِنتانو[4]، قرابةَ ذلك العام، قد ترجم أو قلَّد الكثير من تلك الحكايات. وكانت ثمرةُ ثناءِ جاكوب غريم، فيما بعد، ترجمةَ ليبرِشت الألمانيَّة، وترجمةَ تايلور الإنجليزيَّة، وإكسابَ كتاب بازيلِهْ سمعةً ذات شأنٍ لدى دارسي القصص الخياليَّة والأدب الشَّعبي. في ذلك الوقت، كان إهمالُ هذا الكتاب في إيطاليا آخذاً في الازدياد،

---

1) Chrisoph Martin Wieland (1733-1813): كاتبٌ وشاعرٌ ألمانيٌّ؛ (المترجمان).

2) Ferdinando Galiani (1728-1787): اقتصاديٌّ إيطاليٌّ، له كتابٌ في خمسة أجزاء عنوانه "عن العُملة"؛ (المترجمان).

3) Luigi Serio (1744-1799): أديبٌ ومناضلٌ إيطاليٌّ، ألَّف كتاباً بعنوان "ردٌّ على كتاب اللهجة النَّابوليتانيَّة لفرْديناندو غالياني". أصبح جمهوريَّاً بعد عام 1790، وقُتِل وهو يحارب أتباع حركة "الإيمان المقدَّس" Sanfedismo، وهي حركةٌ دينيَّةٌ رجعيَّةٌ قامت في نابولي ضدَّ الاتِّجاه الجمهوريِّ المناوئ للبابويَّة؛ (المترجمان).

4) Clemens Von Brentano (1778-1842): روائيٌّ وشاعرٌ ألمانيٌّ، من أعماله "قصَّة كاسبرل الشُّجاع وأنزل الجميلة"؛ (المترجمان).

وكان عدد القرّاء، أولئك الذين كانت نابولي لا تزال تحتفظ بهم في القرن الثّامن عشر، آخذاً في التّقلُّص مع ظهور الأذواق الجديدة وتقادمِ اللهجة التي كُتِبَ بها الكتاب، إذْ لم تُعَدْ طباعته مرّةً أخرى. زِدْ على ذلك أنّ النسخة المختصرة باللهجة البولونية، تلك التي كانت طباعتها قد أُعيدَت أربع مرّاتٍ خلال القرن التّاسع عشر، وآخرها في عام 1883، كانت قد تأخّرت كثيراً، وفي نهاية الأمر، استسلمت هي أيضاً بدورها لتغيُّر الأذواق واللهجة، وهي الآن خارج قائمة الكتب المقروءة.

في عام 1875، كتبَ فيتُّوريو إمبرياني[1]، وهو كاتبٌ بارعٌ في بعض النّواحي التي برعَ فيها بازيلِهْ ومؤلِّفٌ لحكاياتٍ غريبةٍ وساخرة، كتبَ دراسةً عن مؤلِّف "البنتاميرون"، أبرزَ فيها أنّه فَهِمَ خصوصيّةَ وقيمة هذا العمل الفريد. ولكن لا اجتهادات إمبرياني ولا اجتهاداتي – ذلك أنّني أنجزتُ في عام 1892 طبعةً جديدةً وأكثر أصالةً تضمَّنَتْ تحقيقاً في اللهجة والتّقاليد – استطاعتا أن تحقّقا الأثر المرجوّ منهما. فمحاولتي إعادة صياغة الكتاب لم تلقَ الكثيرَ من الحظِّ، وتوقَّفَتْ عند المجلّد الأوّل، وسمعت أصدقاءَ لي، ليس من مناطق أخرى فحسب ولكن من نابولي نفسِها، يقولون إنّهم، حتّى مع ملاحظاتي، لم يستطيعوا فَهْمَ أو قراءةَ ذلك النّصِّ إلّا بشِقِّ الأنفس.

ولهذا السّببِ لم أرَ، استناداً إلى تحقيقاتي في أدب القرن السّابع عشر، ووصولاً الآن إلى عمل بازيلِهْ واستئنافاً له بعاطفةٍ شابّة، أنّه من المناسب أن أُكمِلَ أو أعيدَ، على الأقلِّ إلى الآن، صياغةَ النّصِّ المكتوب باللهجة المحلّيّة، ولكنّني اعتقدتُ أنّه سيكون من الأفضل أن أصوغه باللغة الإيطاليّة، وهو ما لم يفعله أحدٌ من قبل، ذلك أنّه لم يكن من الممكن الاعتدادُ بالتّرجمة الرّائفة التي أُجريَتْ في القرن الثّامن عشر وسبق ذكرُها،

---

1) Vittorio Imbriani (1840-1886): كاتبٌ وناقدٌ إيطاليٌّ. يُعَدُّ كتابه "بازيلِهْ العظيم: سيرته وأعماله" واحداً من أهمِّ كتبه النّقديّة؛ (المترجمان).

كما أنَّ النُّسخة التي أعدَّها جوستينو فيرِّي[1] للأطفال، ونُشِرتْ في عام 1889، وهي مجرَّد تلخيصٍ وتعديلٍ لثماني عشرة حكايةً فقط، كانت قد جُرِّدَتْ من طابعها الأصلي.

لقد كان بازيلهْ، كما قلنا، أديباً من أهل البلاط، وباحثاً في اللغة والأسلوب، حصل على طبعاتٍ من قوافي بييترو بِمْبو[2] وجوفانيٌ ديلاّ كازا[3]، ومن قوافي غالياتسو دا تارسيا[4] غير المنشورة، ودوَّن مجلَّداً من الشُّروحات حول أوَّل اثنين من هؤلاء المؤلِّفين؛ وكان في البداية يتصوَّر تلك القوافي ذهنيَّاً بالإيطاليَّة، ثم يترجمها إلى اللهجة النَّابوليتانيَّة بلغةٍ غامضةٍ عفا عليها الزَّمن، متباهياً بثراء الخطاب البارتِنوبي[5]؛ ومِن ثَمَّ فإنَّ وَضْعَ عمله في قالبٍ إيطاليٍّ لا يهدف إلى إعطائه شكلاً جديداً، ولكن إلى إعادته إلى الطَّبيعة البدائيَّة والفطريَّة، وهذه الطَّبيعة تزيد بالإيطاليَّة ولا تفقد رونقها (إذا ما استثنينا من باب الاقتضاء مثالبَ المترجم).

لقد عملتُ على ترجمة الطَّبعة الأصليَّة النَّادرة جدَّاً التي تعود إلى فترة 1634-1636، وهي طبعةٌ تعوزها الدِّقَّة في مواضع كثيرةٍ، ولكنَّها لم تخضع لتحريفٍ تعسُّفيٍّ كما حدث مع طبعة عام 1674 التي راجعها

---

1) Giustino Lorenzo Ferri (1856-1913): كاتبٌ وصحفيٌّ إيطاليٌّ. من أعماله الرِّوائيَّة: "اللَّيلة الأخيرة"، و"روما الصَّفراء"، و"المشَّاء"؛ (المترجمان).

2) Pietro Bembo (1470-1547): كاردينالٌ وكاتبٌ وشاعرٌ ومنظِّرٌ أدبيٌّ إيطاليٌّ. كان له تأثيرٌ وإسهامٌ كبيرٌ في تطوُّر اللغة الإيطاليَّة. نُشِرَ عمله الشِّعريُّ "قوافٍ" لأوَّل مرَّةٍ في البندقيَّة عام 1530؛ (المترجمان).

3) Giovanni della Casa (1503-1556): شاعرٌ وكاتبٌ ودبلوماسيٌّ إيطاليٌّ. نُشِرَ عمله الشِّعريُّ "قوافٍ" بعد رحيله بسنتين ولاقى نجاحاً منقطع النَّظير؛ (المترجمان).

4) Galeazzo di Tarsia (1520-1553): شاعرٌ إيطاليٌّ. قام بازيلهْ بجمع وتحرير ونشر "قوافيه" في عام 1617؛ (المترجمان).

5) نسبةً إلى الاسم القديم لمدينة نابولي؛ (المترجمان).

بومبيو سارنيللي، ومع طبعاتٍ عديدةٍ أخرى، وقد كنتُ مخلصاً جدّاً لكلمات النّصّ، وحاولتُ جاهداً ألّا أقلّل من كمّيّتها، وألّا أغيّر ما أمكن في نوعيّة الصُّوَر التي تحتويها؛ ولكنّني منحتُ نفسي الحرّيّة الكاملة لإعادة بناء الجُمَل التي هي عندَ بازيلِهْ مُختلّةٌ وغالباً رديئة، وربّما يرجع ذلك إلى أنّ العمل كان قد طُبِعَ في الأصل بلا تنقيحٍ وفي صيغته الأوّليّة تقريباً في عدّةِ أجزاءٍ منه. لقد قاومتُ ما كان سيخضع له الآخرون من رغبةٍ في استبدال التّعابير "النّابوليتانيّة" بما يعادلها من كلماتٍ وعباراتٍ من "الفلورنسيّة" الحيّة؛ وتوخّيتُ أن أترك للكتاب، ليس زخرفته الباروكيّة فحسب، ولكن نكهتَه "النّابوليتانيّة" أيضاً. ولمّا كان النّصُّ يحتوي على إشاراتٍ وتلميحاتٍ متكرّرةٍ إلى أشياء وعاداتٍ عصره ومدينته، وجبَ عليَّ أن أوضح هذه الإحالات في الملاحظات، بطريقةٍ يمكن أن تُظهِر للقرّاء، فيما وراءَ الحكاية الخرافيّة، جوانبَ الواقع التّاريخيِّ كما كان يتصوَّره بازيلِهْ.

من ناحيةٍ أخرى، أغفلتُ التّوضيح المقارن للحكايات، مع أنّه كان من السّهل عليَّ أن أستكملَ على الأقلّ "جدول المقارنات" الذي كنتُ قد أضفته إلى اليومين الأوّلين في طبعة عام 1892. فمع مثل هذا النّوع من التّوضيح كان الانتباه سيتحوّل إلى الموادّ التّجريديّة لكتاب بازيلِهْ، ومِن ثَمَّ إلى النّظر إليه بِعَدِّه وثيقةً ديموبسيكولوجيّة[1]، وليس إلى طابعه الجوهريِّ كعملٍ فنّيٍّ.

ما الذي يمكن أن يهمَّ القارئَ الذي إليه أوجّه هذه التّرجمة إن عرفَ، على سبيل المثال، أنّ "مورتيلّا" في حكايات بازيلِهْ هي نفسها "روزماري"

1) علمٌ يدرس بسيكولوجيا الشّعوب المختلفة من خلال دراسة عاداتها وتقاليدها وأساطيرها؛ (المترجمان).

في الحكايات الصِّقلِّيَّة لجوزيبّه بيتريهْ[1]، و"مِيلا" في حكايات المؤلِّف نفسِه التُّوسكانيَّة، و"دي نيلكِهْ" في مجموعة جاكوب غريم؟ أو أنَّ "فارديِيلّو" هو نفسه "جوفا" و"جوكّا" في المجموعات السَّابقة الذِّكر لبيتريهْ، وهو جزئياً الرَّقم /49/ في حكايات وقصص مورينو Novellae et Pabulae del Moriino، وهو أيضاً فصلٌ بعينِه من "برتولدينو Bertoldino" لجوليو تشيزارِهْ كروتشِهْ[2]؟ أو أنَّ "العجوز المسلوخة" هي دونَّا بيبَّا، ودونَّا تورا، في حكايات بيتريهْ، وفي جميع تلك الحكايات الأخرى الصِّقلِّيَّة، والبندقيَّة، والأبروتسيَّة، والتِّيروليَّة التي يتذكَّرها بيتريه؟ إنَّ من الممكن ألَّا يهمَّه ذلك في شيء، ولكن قد لا يتوقَّف الأمرُ عند ذلك الحدِّ، بل من الممكن أن يؤدِّي إلى إزعاجه، ساحباً إيَّاه بشكل غير لائقٍ، تارةً هنا وتارةً هناك، من استغراقه. ولكن بعد كلِّ شيءٍ، (اسمحوا لي هنا أن أوضِّح أفكاري للحظةٍ حول هذا الأمر)، أعتقد أن الدَّافع لهذه المقارنات، وهو تحديد "أصل الحكايات الشَّعبيَّة"، ليس بالأمر القليل الشَّأن، فقد وضعَتْ هذه المقارنات حدّاً لنظريَّات اعتباطيَّة، كتلك التي تنحدر من أصلٍ هنديٍّ، أو من أصلٍ بدائيٍّ، بِعَدِّها انعكاساً لأعراف حقبةٍ سحيقة، أو من أصلٍ أسطوريٍّ-فطريٍّ، وهي نظريَّاتٌ نشأت في أزمنة التَّعصُّب لعلم اللسانيَّات المقارن، ولعلم أنساب اللغات، وللبحث المشترك عن أوَّل مصدرٍ تاريخيٍّ للغة، ويجب أن تخضع اليوم لثورةٍ مراجعةٍ وإلغاءٍ بعد أن اتَّخذت الفلسفة وعلم اللغة منعطفاً جديداً، وأعلنَتْ لأسبابٍ منطقيَّةٍ فشلَ الإتيمولوجيا (علم أصل الكلمات وتاريخها)، وعدمَ جدوى البحث عن الأصل التَّاريخيِّ للغة. وحتى البحث في أصل القصص الخياليَّة يجب أن يتحوَّل اليوم إلى البحث في تاريخ

1) Giuseppe Pitrè (1841-1916): كاتبٌ وأنثروبولوجيٌّ إيطاليٌّ. من أعماله: "عن الأغاني الصِّقلِّيَّة الشَّعبيَّة"، و"قصصٌ وحكاياتٌ شعبيَّةٌ من صِقلِّية"، و"حكاياتٌ شعبيَّةٌ من توسكانا"؛ (المترجمان).

2) Giulio Cesare Croce (1550-1609): كاتبٌ ومسرحيٌّ إيطاليٌّ. والإشارة هنا إلى كتابه "سذاجاتُ برتولدينو الظَّريفة والمضحكة"؛ (المترجمان).

كلِّ واحدةٍ منها، ما من شأنه بعد ذلك، في كلِّ خطوةٍ نخطوها في هذا المساق، أن يكون خلقاً جديداً. وبالطَّبع، سيكون من البديع في بعض الأحيان تَتَبُّعُ هذا التَّاريخ المتنوِّع والمعقَّد في تفاصيله؛ ولكنَّه يبقى أمراً صعباً جدَّاً وغير مأمون العواقب، لأنَّنا نتعامل هنا مع عمليَّاتٍ خياليَّةٍ تجري دائماً تقريباً خارج كلِّ محاولةٍ للرَّصد والتَّوثيق، عمليَّاتٍ ربَّما كانت لها حقبتُها الغزيرة في أزمانٍ غابرة، إن لم يكن في عصور ما قبل التَّاريخ. ولذلك، فإنَّ الغايات التي نتوخَّاها في هذا الصَّدد قلَّما تكون دامغةً للتَّعويض عن الجهد المبذول؛ ثمَّ إنَّ ذلك، سواءٌ أكان بجهدٍ أم من غير جهد، يبقى دائماً قليل الأهمِّيَّة أو غير ذي أهمِّيَّة. أقصدُ أنَّه قليل أو عديم الأهمِّيَّة بالنِّسبة إلى أولئك الذين يطالبون بما يهمُّ حقَّاً الإنسانَ وتاريخَه؛ فبالنِّسبة إلى المثقَّف، كما نعلم، مثلما بالنِّسبة إلى جامع الأشياء، كلُّ شيءٍ مهمٌّ، كلُّ شيءٍ يشكِّل جزءاً من مجموعته ومن بطاقاته.

ولكن حتى القرَّاء يُعجبهم ما يُعجبهم؛ وما يهمُّني، في نهاية المطاف، هو أن يكونوا متَّفقين معي الآن على قراءة كتاب بازيلهْ بوصفه ببساطةٍ عملاً فنِّيَّاً.

18 كانون الأول/ ديسمبر 1924

مدخلٌ إلى مؤانَسات الصِّغار

لقد قيل في الأمثال المأثورة التي سُكَّت قديماً إنَّ من يبحث عمّا لا ينبغي له أن يبحث عنه، يعثر على ما لا يبتغيه. ومن المعروف أنَّ القرد الذي أراد أن ينتعلَ الأحذية الطَّويلة، عَلِقَ فيها من قدميه[1]، وهذا ما حدث لأَمَةٍ رثَّةِ الأسمال، فرغم أنَّها لم تنتعل قَطُّ حذاءً في قدميها، ابتغت تاجاً تزيِّن به رأسها، ولكن لأنَّ المدحلة[2] تمهِّد كلَّ السُّطوح الخشنة، ولأنَّه يأتي دائماً يومٌ تُقضى فيه كفَّارة كلِّ ذنب، فإنَّ تلك التي أساءت استخدام ما كان يخصُّ الآخرين، تعثَّرت أخيراً في عجلة الرَّكلات[3]، وكلَّما كانت تمعن في الصُّعود نحو القمَّة، كان سقوطها يزداد وطأةً، كما يُروى في هذا الكتاب.

في قديم الزَّمان كان هناك ملكٌ من فالِّيلوزا[4] لديه ابنةٌ تدعى تسوتسا، وكما لو أنَّها زرادشتٌ أو هرقليطسٌ مُحْدَثٌ، لم تُشاهَد قَطُّ

1) يروي الرَّحَّالة وعلماء الطَّبيعة أنَّ الصَّيادين في المكان الذي تشاهَد فيه القرود ينتعلون ويخلعون أحذيتهم عدَّة مرَّاتٍ ويتركونها بعد تفخيخها والقرود التي تسعى لتقليدهم تبقى عالقةً في الفخِّ؛ (المترجمان).

2) المدحلة حجرٌ بازلتيٌّ أسطوانيُّ الشَّكل، مثقوبٌ من الجانبين لإدخال (الماعوس) فيه، والماعوسُ قضيبٌ حديديٌّ على شكل قوسٍ يُستعمَل لجرِّها على السُّطوح التُّرابيَّة لرصِّ التُّراب ومنع تغلغل مياه الأمطار؛ (المترجمان).

3) لعبةٌ يمارسها الأطفال، يمسك فيها كلُّ واحدٍ منهم يدَ الآخر مشكِّلين دائرةً، ويقومون بحركاتٍ من أقدامهم بدفع الطِّفل الذي يحاول أن يجد ثغرةً يدخل منها، ومَن يسمح له منهم بالدُّخول، يخرج من الدَّائرة؛ (كروتشه).

4) تعني حرفيّاً: الوادي الأزغب؛ (المترجمان).

تضحك. ولم يكن الأب البائس الذي لم تكن لديه روحٌ أخرى غير هذه الابنة الوحيدة يتوانى في فِعل أيِّ شيءٍ قد يُبعِدُ الكآبة عنها، ولكي يحثَّها على الضَّحك كان يستقدم مرَّةً أولئك الذين يمشون على العصيِّ، ومرَّةً أولئك الذين يقفزون عبر الأطواق، ومرَّةً البهلوانات[1]، ومرَّةً ماسترو روجِّيرو[2]، ومرَّةً لاعبي الخفَّة، ومرَّةً أبطال هرقل[3]، ومرَّةً الكلب الذي يرقص، ومرَّةً البراكونة[4] الذي يقفز، ومرَّةً الحمار الذي يشرب من الكأس، ومرَّةً لوتشيا كاناتسا[5]، ومرَّةً هذا ومرَّةً ذاك، ولكنَّ ذلك كان مضيعةً للوقت، فلا مداواة ماسترو غريلُّو[6]، ولا الحوذان السَّردينيُّ[7]، ولا حتى نخسةٌ تحت الحزام كانت لتجعل ثغرها يفترُّ عن طيفِ ابتسامة. فما كان من الأب المسكين الذي لم يعد يعرف أمراً آخر يجرِّبه، سوى أن أمر، كمحاولةٍ أخيرةٍ، بتدشين نافورة زيتٍ كبيرةٍ أمام باب القصر، معتقداً أنَّ النَّاس الذين سيعبرون هذه الطَّريق جيئةً وذهاباً، كما النَّمل، سوف يقومون، تفادياً لرذاذ الزَّيت أن

1) أصحاب حيلٍ وألعاب متنكِّرون، يقول عنهم أنِّيباله كارو في (خطاب اعتذار، الأعمال الكاملة، منشورات مونيير، ص201)، إنَّهم "لكي يُضحِكوا أكثر يخرجون في هذا القميص الواسع والجوارب المفتوحة، ويأتون بالمهازل"؛ (كروتشِهْ).

2) مطربٌ شعبيٌّ مشهورٌ في ذلك الوقت، ذكَرَه أيضاً الشُّعراء جوفانِّي باتِّيستا دِلْ توفو (1548-1600)، وجوليو تشيزارِهْ كورتيزِهْ (1570-1640)، وفيليبُّو سغروتِّنْديو (؟ 1678-). منح اسمه لرقصةٍ مشهورةٍ في نابولي؛ (كروتشِهْ).

3) ألعابٌ رياضيَّة؛ (كروتشِهْ)

4) هكذا كان يسمَّى القرد المروَّض الذي يشارك لاعبي الخفَّة استعراضاتهم في السَّاحات العامَّة؛ (كروتشِهْ).

5) رقصة «لوتشيا» أو «سفيسَّانيا» التي أدخلها المالطيُّون إلى نابولي؛ (كروتشِهْ).

6) مسرحيَّةٌ هزليَّةٌ كانت مشهورةً في تلك الحقبة، تروي قصَّة فلَّاحٍ يدعى جدجد كان يريد أن يصبح طبيباً. وكان، من جملة أمورٍ أخرى، يستخدم أداةً غريبةً جعلت ابنة أحد الملوك تنفجر من الضَّحك؛ (كروتشِهْ).

7) نوعٌ نباتيٌّ من الفصيلة الحوذانيَّة، سُمِّي السَّردينيُّ نسبةً إلى جزيرة سردينيا، وكان يُعتقد أنَّه المسبِّب للتكشيرة السَّردينيَّة «Risus sardonicus" التي هي عبارةٌ عن تشنُّجٍ في عضلات الوجه في شكل ابتسامةٍ عريضة؛ (المترجمان).

يلطّخ ثيابهم، بقفزاتٍ كقفزات الجداجد، ووثباتٍ كوثباتِ تيوس الجبل، ونفراتٍ كنفراتِ الأرانب البرّيّة، منزلقين ومرتطماً بعضُهم ببعضٍ، عسى أن تحثّ إحدى تلك الحالات ابنته على الانفجار ضحكاً.

وهكذا، بعد أن دُشّنَتْ هذه النّافورة وأطلّت تسوتسا من النّافذة، رصينةً لدرجة أنّها بدَتْ وكأنّها تنضح خلاًّ، جاءت صُدفةً امرأةٌ عجوزٌ وأخذت تجمع الزّيت بإسفنجةٍ وتعصره في خابيةٍ صغيرة. وبينما هي مستغرقةٌ في إنجاز عملها بهمّةٍ عاليةٍ، قام أحد الأشقياء من وُصفاء القصر برمي الخابية بحصىً أصابتها في منتصفها فأحالتها شظايا. حينذاك التفتَتْ المرأة العجوز التي كانت تملك لساناً سليطاً، ولا تستكين لأيٍّ كان، نحو الوصيف، وجعلت تقول له: "آه يا من يسيل مخاطه، أيُّها النّذل، والنّتن، أيُّها الشّخّاخ، يا نطّاط الدّفّ، وثنيةَ الدّبر[1]، يا أنشوطة المشنوق، أيُّها البغل الهجين! هاكم البراغيث تكحُّ أيضاً! اذهبْ، فليلمَّ بك الجدريُّ! فلتتلقَّ أمُّك الأخبار السّيِّئة! عسى ألّا ترى الأوّل من أيّار[2]! عسى أن تصيبك قذيفةٌ كتالونيّة[3]، أو شدّة حبلٍ لا تجعل دمك يتدفّق! عسى أن تصاب بألف مرضٍ، واحداً تلو الآخر! عسى أن تتبدّد بذرتك، أيُّها الوغد، الأبله، المحتال، يا بن امرأةٍ لقيطةٍ وزانية!".

حين سمع الصّبيُّ الذي كان قليل الزّغب على خدّيه وأقلَّ منها حشمةً، هذا التّعنيف الشّديد يهوي عليه، ردَّ عليها بالعملة نفسها، قائلاً: "ألا تريدين أن تسدّي قناة المجرور هذه يا سليلة الأبالسة؟ يا ساحرة، يا مصّاصة الدّماء، يا خنّاقة الأطفال، يا خَرْجَ زِبْلٍ، يا وجه الضُّراط؟". وما إن سمعَتْ المرأة العجوز هذه الأخبار عن منبتها حتى هاجت فاقدةً بوصلةً

1) تُقال لطفلٍ يرتدي سروالاً جعل فيه الخيّاط، كما كان معتاداً في ذلك الوقت، فتحةً من الخلف، تظهرُ منها الثّنيةُ أو الحاشيةُ البيضاء للقميص؛ (كروتشه).

2) عيدٌ شعبيٌّ في نابولي؛ (كروتشه).

3) كان يُضرَبُ المثل بفعاليّة الأسلحة الكتالونيّة؛ (كروتشه).

هدوئها ومربطَ صبرِها، فما كان منها إلّا أن رفعت السِّتار كاشفةً عن مشهدٍ غابيٍّ[1] كان من شأنه أن يُلهم سيلفيو على القول: "اذهبْ، أيقظ العيون بالبوق"[2]. أمام هذا العرض، انتابَت تسوتسا نوبةٌ قويَّةٌ من الضَّحك، كادت معها أن تفقد وعيها.

على وقع هذا المقلب الهازئ ثارت ثائرةُ العجوز، وقالت ملتفتةً بخطمها المخيف إلى تسوتسا: "اذهبي! عسى ألّا تتمكَّني من العثور على ظلِّ زوجٍ، وألّا تتزوَّجي سوى أمير كامبوروتوندو!". فلمَّا سمعت الأميرة هذه الكلمات، استدعتها إليها وأرادت بأيِّ ثمنٍ أن تعرف إنْ كانت تقصد بتلك الكلمات ذمَّها فحسب أو أنَّها لعنةٌ رمتها بها، فأجابت العجوز: "فلتعلمي أنَّ الأمير الذي ذكرته لكِ شخصٌ وسيمٌ يُدعى تاديو، وهو يرقد في قبرٍ خارج أسوار المدينة، بعد أن وضع اللَّمسة الأخيرة على لوحة حياته بسبب لعنة حوريَّة، وثمَّة نقشٌ على ذلك القبر يقول إنَّ أيَّ امرأةٍ تملأ بدموعها أمفورةً[3] معلَّقةً على خطّافٍ هناك في غضون ثلاثة أيّام، ستجعله ينبعث من مرقده وستتَّخذه زوجاً لها. ولكن من المستحيل لعينَين بشريَّتَين أن تذرفا كلَّ هذه القطرات لملء أمفورةٍ تتَّسع لنصف مكيالٍ، هذا إنْ كان صحيحاً، كما سمعت، أنَّ إجيريا صنعَتْ في روما نافورةً من الدُّموع[4]؛

1) أي أنَّ العجوز رفعت ثوبها كاشفةً عن فَرْجها؛ (المترجمان).

2) بيتٌ شعريٌّ من دراما «باستورفيدو» الرَّعويَّة التي كتبها جوفانِّي باتِّيستا غوارِيني ما بين عامَي 1583 و1587، مستوحياً إيَّاها من أحد أعمال الكاتب اليونانيِّ باوزياناس (القرن الثَّاني قبل الميلاد)، ومن حكاية «أمينتا» الرَّعويَّة التي كتبها الشَّاعر توركواتو تاسُّو عام 1573 وعُرضت على المسرح عام 1580؛ (المترجمان).

3) نوعٌ من الجرار الخزفيَّة له قبضتان وعنقٌ طويلٌ أضيق من جسم الجرَّة البيضاويِّ الشَّكل. وقد ظهرت أولى الأمفورات على السَّاحل السُّوريِّ في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، واستُخدمت لتخزين الزَّيت والخمر والحبوب والأسماك؛ (المترجمان).

4) حسب الأساطير الرُّومانيَّة، هي إلهةٌ قديمةٌ كانت عشيقةً ومستشارةً، ولاحقاً زوجةً للملك نوما بومبيليو. عندما مات الملك، صنعَتْ إجيريا بدموعها الغزيرة نبعاً يستسقي منه النَّاس؛ (كروتشه).

ولذلك، حين رأيتُ سخريتك واستهزائك بي، قذفتك بهذه اللَّعنة، وإنيّ لأدعو السَّماء أن تتحقَّق بحذافيرها، انتقاماً من الظُّلم الذي لحق بي". وما إن قالت قولَها هذا، حتى هرعت نازلةً الأدراج، مخافةَ أن تُدركها بعض العُصيّ.

وفي الحال، بدأت تسوتسا تمضغ وتجترُّ كلمات العجوز، وتسلَّلت روحٌ غاويةٌ إلى رأسها، وبعد أن أدارت عجلةَ الأفكار وطاحونةَ الشُّكوك حول هذه الواقعة، استسلمت في نهاية المطاف لعربة ذلك العشق الذي يعمي بصيرة الإنسان ويسحر عقله، ثم أخذت حفنةً من اللِّيرات الذَّهبيَّة من صندوق أبيها وانسلَّت خارجةً من القصر الملكي. وهكذا، بعد أن مشت طويلاً، وصلت إلى قلعة إحدى الحوريَّات، وباحت لها بمكنونات صدرها، فأشفقت الحوريَّة على الفتاة الرَّائعة الجمال التي كان ثمَّة منخسان يدفعانها إلى مشارف الهاوية، يفاعةُ سنِّها وطغيان الهيام بشيءٍ مجهول، وأعطتها رسالة توصيةٍ إلى إحدى شقيقاتها، وكانت حوريَّةً أيضاً. هذه الأخيرة رحَّبت بها بمجاملاتٍ كثيرةٍ، وفي اليوم التَّالي، مع بزوغ الفجر – حين يرسل اللَّيل مع الطُّيور بلاغاً يقضي بأنَّ كلَّ من يأتي له بأخبار زمرةٍ من الظِّلال السَّوداء التَّائهة سوف يُكافَأ – أعطتها حبَّة جوزٍ جميلةً، وقالت لها: "خذيها يا بُنيَّتي، وحافظي عليها جيِّداً، ولا تفتحيها إلَّا في وقت الشِّدَّة". ثمَّ أرسلت معها رسالةً أخرى إلى أختٍ ثالثةٍ لهما، وحين وصلت إليها بعد رحلةٍ طويلةٍ، وتلقَّت منها مشاعر الودِّ نفسَها، حصلت منها على رسالةٍ لأختٍ رابعةٍ، وعلى حبَّة كستناء، وعلى التَّحذير نفسه الذي تلقَّته بشأن الجوزة. سارت مرَّةً أخرى ووصلت إلى قلعة الحوريَّة الأخيرة التي قابلتها بترحابٍ منقطع النَّظير، وفي الصَّباح، لدى مغادرتها، أعطتها حبَّة بندقٍ، مع الإصرار نفسِه على ألَّا تفتحها إلَّا تحت سيف الحاجة.

وبعد أن حصلت تسوتسا على هذه الأشياء، وضعَتْ الطَّريق بين ساقيها، وجالَت في العديد من البلدان، وعبرت الكثير من الغابات

والأنهار، وبعد سبع سنواتٍ وصلَتْ - تماماً في اللَّحظةِ التي كانت الشَّمس فيها، وقد استيقظت على صوت أبواق الدِّيوك، تسرِّجُ حصانها لتسلِّم حمولاتها المعتادة - متورِّمةَ القدمين تقريباً إلى كامبوروتوندو. هنا، قبل أن تدخل المدينة، رأت القبر الرُّخاميَّ عند كعب نافورةٍ كانت تذرف دموعاً من الكريستال لكونها محصورةً في سجنٍ من الرُّخام السُّماقِي. فانتزعَت الأمفورةَ التي وجدتها معلَّقةً، ووضعتها في حضنها، وبدأت بتمثيل مسرحيَّة "الثُّنائي"[1]، هي في الأسفل والنَّافورة في الأعلى، دون أن ترفع رأسها أبداً عن فوَّهة الأمفورة. وفي أقلِّ من يومين، كانت قد ملأتها إلى مقدار إصبعين فوق طوق الرَّقبة، ولم يكن ينقصها سوى إصبعين آخرين حتى تمتلئ بالكامل. ولكنْ، قبل أن تسكب دموعها الأخيرة، تملَّكها التَّعب من شدَّة البكاء، ورانَ عليها النُّعاس دون أن تستطيع له دفعاً، فاضطُرَّت إلى الاستكنان بضع ساعاتٍ تحت فُسطاط الجفون.

وفي خلال ذلك، كانت أمَةٌ سوداء تدعى قَدَم الجدجد، وهي امرأةٌ تتردَّد باستمرارٍ إلى النَّافورة لجلب الماء بالبرميل، وتعرف قصَّة النَّقش على الضَّريح، لأنَّها كانت تُروَى في كلِّ مكان، قد جاءت إلى النَّافورة وحين رأت تسوتسا تسكب سيلاً من الدُّموع التي راحت تتدفَّق في مجريين، وقفت تتجسَّس متحيِّنةً أن يبلغ الدَّمعُ شفةَ الأمفورة إلَّا قليلاً، لتنتزعها من يدها وتتركها مع حفنةٍ من الذُّباب. وحالما رأتها نائمةً، سحبت الأمفورةَ بهدوءٍ من حضنها، ثمَّ أحنت عينيها فوقها، وما هي إلَّا عصراتٌ أربع فإذا الأمفورةُ طافحةٌ. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ على ذلك حتى قام الأمير، كالمستيقظ من رقادٍ عميقٍ، من صندوق الرُّخام الأبيض وألقى بنفسه على تلك الكتلة من اللَّحم الأسود، واصطحبها على الفور إلى قصره، وسط الحفلات والأضواء الباهرة، متَّخذاً إيَّاها زوجةً له.

---

1) الإشارة هنا إلى مسرحيَّة "الأخوان ميناكمي" أو "الثُّنائي" للكاتب المسرحيِّ الرُّومانيِّ بلاوتوس (254 ق.م - 184 ق.م)، وهي المسرحيَّة التي كان لها أثرٌ كبيرٌ على مسرح عصر النَّهضة. (المترجمان).

استفاقت تسوتسا، وإذْ رأت الأمفورةَ مطروحةً أرضاً مع آمالها، ورأت القبر مفتوحاً، انقبض قلبها انقباضاً شديداً بلغَتْ معه حدَّ حَلِّ أمتعة روحها أمام الرَّقابة الجمركيَّة للموت. ولكن في النِّهاية، حين أدركت أنَّه لم يكن ثمَّة دواءٌ لآلامها، وأنَّه لا يمكنها أن تشتكي إلَّا من عينيها اللتين لم تحرسا جيِّداً عجلَ آمالها[1]، سارت بخُطىً وئيدةٍ نحو المدينة، حيث سمعَتْ عن أمسيات الأمير وعن الخصال الحميدة للزَّوجة التي اقترن بها. وفي الحال تصوَّرَت بشكلٍ لا يتطرَّق إليه الشَّكُّ كيف سارت الأمور، فقالت، متنهِّدةً، إنَّ شيئين أسودين قد ألقيا بها على الأرض العارية، النَّوم والأمَة السَّوداء. ومع ذلك، لكي تجرِّب كلَّ السُّبل الممكنة ضدَّ الموت الذي يدفعه كلُّ كائنٍ حيٍّ عن نفسه بقدر ما يستطيع، اكترَتْ منزلاً جميلاً أمام قصر الأمير، فعلى الأقلِّ، إنْ لم تتمكَّن من رؤية معبود قلبها، ستتمكَّن من تأمُّل جدران المعبد الذي يضمُّ النِّعمة التي كانت تشتهيها. ولكن في يومٍ من الأيَّام، ما إن لمحها تاديو، الذي كان يخفق دائماً مثل خفَّاشٍ حول ليل الأمَة الأسود، حتى أصبح عُقاباً لا يحيد بنظره عن تسوتسا التي كانت الفيضَ في سخاء الطَّبيعة، والتَّجسيدَ لعبارةِ "أنا خارج لعبة"[2] الجمال. ولكنَّ الأمَةَ السَّوداء فطنت لذلك، فأقامت الدُّنيا وأقعدتها، ولأنَّها كانت حاملاً، فقد هدَّدت زوجها قائلةً: "إذا لم تبتعد عن النَّافذة، فسوف أجهض جورجِتْيِيلُّو بلكمةٍ على بطني، ولن ينفع بعدها بكاك!"[3]. فأشفق تاديو من كلماتها، ومرتجفاً مثل قصبةٍ مخافةَ أنْ يسبِّب لها أدنى امتعاضٍ، نأى بنفسه، مثلما تنأى الرُّوح عن الجسد، عن مرأى تسوتسا.

---

1) الإشارة هنا إلى قصَّة آرغوس (المتعدِّد العيون) والبقرة «إيو» التي سرقها هرمس منه؛ (كروتشِهْ).

2) هذا التَّعبير مستوحىً من أنواعٍ معيَّنة من ورق اللَّعب، يرمي فيها مَن يحقِّق النِّقاط المطلوبة للفوز ما تبقَّى معه من أوراقٍ ويقول: أنا خارج اللُّعبة؛ (كروتشِهْ).

3) يحاول المؤلِّف هنا أن يقلِّد طريقة كلام الأسيرات أو السَّبايا التُّركيَّات اللَّاتي كانت نابولي تعجُّ بهنَّ نتيجة الحروب والقرصنة ضدَّ الأتراك والعرب في شمال إفريقيا؛ (المترجمان).

وحين رأت هذه الأخيرة أنَّ رشفةَ السُّلوان تلك تُنتزَع من قبضة آمالها الواهنة، لم تعرف في بادئ الأمر أيَّ طريقٍ تسلك، فتذكَّرت في لحظة الضِّيق تلك هدايا الحوريَّات. فتحت حينذاك حبَّة الجوز، فخرج منها قزمٌ أكبر حجماً بقليلٍ من دميةٍ صغيرة، أجملُ ما رأت عينٌ في العالم. وقف القزم على النَّافذة وأخذ يشدو أغانيَ وألحاناً بديعةً مع كثيرٍ من التَّغريد والتَّطريب والتَّجويد بدا معه وكأنَّه قرينُ بيوندو، متجاوزاً بيتسيِلُّو، ومخلِّفاً وراءَه أعمى بوتِنسا وملكَ الطُّيور[1]. ورأته الأمَةُ السَّوداء مصادفةً وهامت به، فاستدعت تاديو وقالت له: "إذا لم أمتلك ذاك الصَّغير الذي يغنِّي، فسوف أُجهض جورجِتيِيلُّو بلكمةٍ على بطني، ولن ينفع بعدها بكاك!".

وفي الحال بعث الأميرُ، الذي كان قد ترك أمَةً تركيَّةً تسرِّجه بالبردعة[2]، رسولاً يسأل تسوتسا إنْ كانت ترغب في بيعه، فأجابت أنَّها ليست تاجرةً، ولكن يمكنها، إن هو قَبِلَه كهديَّة، أن تقدِّمه له عن طيب خاطر. فما كان من تاديو الذي كان يلهث دائماً لإرضاء زوجته ريثما تضع مولودها إلَّا أن قَبِلَ العرض.

بعد أربعة أيَّامٍ من تلك الحادثة، فتحت تسوتسا حبَّةَ الكستناء، فخرجت منها دجاجةٌ مع اثني عشر صوصاً ذهبيًّاً، وضعتهم تسوتسا على حافة النَّافذة نفسها، وحالما رأتهم الأمَة، تملَّكتْها رغبةٌ جامحةٌ إلى امتلاكهم، فنادت تاديو وأشارت بإصبعها نحو ذلك الشَّيء الآسر، وقالت له: "إذا لم تأتني بهذه الدَّ جاجة، فسوف أُجهض جورجِتيِيلُّو بلكمةٍ على بطني، ولن ينفع بعدها بكاك!". فلم يكن بيد تاديو، الذي كان يهاب

1) مطربون مشهورون في تلك الحقبة من تاريخ نابولي، وقد أتى المؤلِّف على ذكرهم في أكثر من مكانٍ في هذا الكتاب؛ (المترجمان).

2) ما يوضع على الحمار أو البغل ليُركَبَ عليه، كالسَّرج للفرس، ويُسمَّى في دول الخليج البدود أو البداد أو البديد ومفردها البد، والكلمة من أصلٍ عربيٍّ فصيحٍ، بينما في سورية يُسمَّى جلال ومفردها جُل، وفي مصر بردعة؛ (المترجمان).

تلك الكلبة التُّركيَّة ويتركها تهيمن عليه، حيلةً سوى أن يرسل إلى تسوتسا مرَّةً أخرى يعرض عليها ما ترغب فيه ثمناً لتلك الدَّجاجة الرَّائعة. فتلقَّى جواب المرَّة السَّابقة نفسَه، أنَّ بإمكانه أن يأخذها كهديَّةٍ أيضاً، لأنَّ كلماته سوف تذهب هباءً إنْ أراد أن يتعامل معها بلغةِ البيع والشِّراء. ولمَّا كان مكبَّل اليدين، فإنَّه ترك الحاجةَ تطرد التَّحفُّظ، وتناول تلك اللُّقمة الطَّيِّبة وهو مشدوهٌ من سخاء امرأةٍ تنتمي إلى جنسٍ في منتهى الجشع لدرجة أنَّ كلَّ سبائك الذَّهب الآتية من جزر الهند لا تكفيه.

مرَّت أيَّامٌ أخرى بعدد الأيَّام التي مرَّت آنفاً، وفتحت تسوتسا حبَّةَ البندق، فخرجت منها دميةٌ تغزل الذَّهب، وكانت بحقٍّ شيئاً يفوق الخيال، فحالما وضعتها على حافة النَّافذة نفسِها ولمحتها الأمَة، نادت هذه الأخيرة تاديو وكرَّرت على مسمعيه موسيقاها المعهودة: "إذا لم تشترِ تلك الدُّمية، فسوف أجهض جورجِتْيِيلُّو بلكمةٍ على بطني، ولن ينفع بعدها بكاك!". وإذْ لم يجد تاديو، وهو الذي كان يسمح بإدارته كعجلة الغَزلِ ويتجاهل غطرسة زوجته التي تركها تمتطيه، مَن يرسله إلى تسوتسا من أجل الدُّمية، فقد أراد الذَّهاب بنفسه، متذكِّراً الأمثال القائلة: "لا يوجد رسولٌ أفضل من نفسك"، و"إذا أردت شيئاً لنفسك فاذهب إليه بنفسك، وإذا أردته لغيرك فلتُرسِل"، و"من يريد أن يأكل السَّمك، عليه أن يبلِّل ذيله". وإذْ رأته تسوتسا، وقد أخذتها النَّشوة بمرأى مَن يورِثها آلامَها، يتوسَّل إليها بكلِّ جوارحه أن تغفر صلافة رغباتِ امرأةٍ حُبلى، لجمَتْ نفسها عن إجابة طلبه وتركته يستجديها ويستعطفها لكي تبقى ممسكةً بمجداف القارب وتتمتَّع لمزيدٍ من الوقت برؤية سيِّدها الذي سرقته منها أمَةٌ قبيحة. وفي النِّهاية، أعطته الدُّمية كما فعلت مع الأشياء الأخرى آنفاً، وقبل أن تسلِّمها له، أسرَّت في أُذن الدُّمية الصَّغيرة بأن تشعل في صدر الأمَةِ رغبةً عارمةً في الإصغاء إلى سرد الحكايات. فلمَّا رأى تاديو الدُّمية في يده من دون أن يدفع ولو قرشاً واحداً، بُهِتَ لكلِّ هذه الدَّماثة،

وعرض عليها مكانةً وحياةً مرموقتين مقابل ذلك المعروف، وبعد أن عاد إلى القصر، قدَّم الدُّمية لزوجته.

وضعت الأمَةُ الدُّميةَ في حضنها لتروِّحَ بها عن نفسها، وفجأةً بدت وكأنَّها إله الحبِّ كيوبيد، متجلِّياً بصورةِ أسكانيوس في حضن ديدون[1]. أشعلت تلك الدُّمية النَّارَ في صدر الأمَةِ، باعثةً في نفسها رغبةً مضطرمةً في سماع الحكايات، ولأنَّها لم تستطع مقاومةَ هذه الرَّغبة، ولأنَّ الخوف انتابها إنْ هي لمست فمها أن تضع أولاداً متذمِّرين لدرجة أنَّهم سيكونون قادرين على إزعاج سفينةٍ كاملةٍ من المساكين[2]، نادت كالعادة زوجها وكرَّرت قولَها: "إذا لم تأتني بأناسٍ يروون الحكايات، فسوف أجهض جورجِتْيِيلُّو بلكمةٍ على بطني، ولن ينفع بعدها بكاك!".

ولكي يتخلَّص تاديو من هذه المضايقة، أمر بإذاعة بلاغٍ يطلب فيه من جميع نساء المملكة أن يأتين إليه في يومٍ معيَّن. وفي ذلك اليوم، حالما بزغت نجمة ديانا التي توقظ الفجر ليزيِّن الدُّروب التي سوف تسير عليها الشَّمس، التقين كلُّهنَّ في المكان المقصود. ولكن، لأنَّه رأى من غير المناسب أن يستبقيَ كلَّ تلك الطُّغمة من النِّساء لأجل نزوةٍ من نزوات زوجته، فضلاً عن أنَّ هذه كانت تختنق من رؤية الحشود الكبيرة، فقد اختار منهنَّ عشراً فحسب، أفضل عشر نساءٍ في المدينة، ممَّن بدونَ له أكثر ثرثرةً وحذاقةً من الأخريات، وهؤلاء كُنَّ تسيتسا العرجاء، وتشيكَّا العَوْجاء، ومينيكا الضَّخمة الغدَّة، وتولا الضَّخمة الأنف، وبوبا الحدباء، وأنطونيلَّا

---

1) يشيرُ بازيلِهْ هنا إلى مشهدٍ وصفه فرجيل في «الإنيادة»، يوقع كيوبيدُ فيه ديدون بالحبِّ متجلّياً لها بصورة أسكانيوس ابن بطل طروادة إينياس. وديدون هي أليسا أو أليسار، ابنة ملك صور ومؤسِّسة قرطاج وملكتها الأولى؛ (المترجمان).

2) يشير بازيلِهْ هنا إلى الاعتقاد الشَّعبيِّ بأنَّ النِّسوة الحوامل حين يشتهين شيئاً ولا يستطعن الحصول عليه، إنْ لمسن دون قصدٍ جزءاً من جسمهنَّ، فإنَّ الجزء المقابل له من جسم الطِّفل تظهر عليه علامةٌ (شهوةٌ) على شكلِ الشَّيء المشتهَى. وهنا تخشى الأمَةُ إن هي لمست فمها أن يولد طفلُها متذمِّراً وكثيرَ الشَّكوى على مثال أمِّه؛ (كروتشِهْ).

المريِّلة، وتشولاّ المَخَطِميَّة الوجه، وباولا الحولاء، وتَشومِّتلاّ الجرباء، وياكوفا الخَرِفة. وبعد أن كتبَ هذه الأسماء على بطاقةٍ واحدةٍ، وصرفَ الأُخريات، نهض هو والأَمَة من تحت المظلَّة وساروا جميعاً بخطواتٍ موزونةٍ نحو حديقة القصر نفسِه، حيث كانت الأغصانَ المورقة متشابكةً جدّاً، لدرجةِ أنَّ الشَّمس لم تكن قادرةً على تفريقها بعصا أشعَّتها. وبعد أن جلسوا تحت صيوانٍ مغطّىً بعريشةِ عنبٍ، تتدفَّق في وسطه نافورةٌ كبيرةٌ (معلِّمةُ أفراد الحاشية، إذْ كانت تعلِّمهم يوميّاً فنَّ التَّمتمة)، قال تاديو موجِّهاً حديثه إليهنَّ: "إنَّه ما من شيءٍ في العالم أكثر إثارةً للشَّهيَّة، يا نسائي المحترمات، من سماع أفعال الآخرين، وليس من دون سببٍ وضع ذلك الفيلسوف الكبير[1] منتهى سعادة الإنسان في الاستماع إلى الحكايات الممتعة، ذلك أنَّ الإصغاء إلى أشياء رفيعة الذَّوق، يبدِّد المخاوف، ويطرد الأفكار المزعجة ويُطيل الحياة. انظرْنَ، لأجل هذه الرَّغبة، يترك الحرفيُّون محترفاتهم، والتُّجَّارُ متاجرَهم، والقضاةُ قضاياهم، والدُكَّانيُّون دكاكينهم، ويذهبون فاغري الأفواه إلى محلاَّت الحلاقة وإلى حلقات الثَّرثارين ليستمعوا إلى حكاياتٍ مختلَقة، وإشعاراتٍ ملفَّقة، وصُحُفٍ خياليَّة[2]. ولذلك عليَّ أن أعذر زوجتي إذا هي وضعت في رأسها هذا التَّوق الكئيب إلى سماع الحكايات. فإذا كنتنَّ راغباتٍ في تلبيةِ رغبة أميرتي وإصابةِ كبدِ رغبتي، فسوف تَسعدن لمدَّة أربعة أو خمسة أيَّامٍ، قبل أن تضع مولودها، بأن تروي كلُّ واحدةٍ منكنَّ كلَّ يومٍ حكايةً من تلك الحكايات التي ترويهنَّ العجائز عادةً لتسلية الأطفال. سنلتقي دائماً في المكان نفسِه، حيث سنأكل في البداية، ثم سنفسح المجال للثَّرثرة، وسينتهي النَّهارُ ببعض القصائد الرَّعويَّة التي

1) أرسطو، ولكنَّ الاقتباس هنا هو بالتَّأكيد من باب السُّخرية؛ (كروتشِهْ).

2) كانت الصُّحف المكتوبة بخطِّ اليد تسمَّى في ذلك الوقت «إشعارات»، وكذلك أحياناً رسائل المندوبين الدُّبلوماسيِّين؛ تمييزاً لها عن الصُّحف المطبوعة التي كانت قد بدأت بالظُّهور آنذاك؛ (كروتشِهْ).

سيلقيها خدمُنا[1] أنفسُهم، وهكذا ستمضي بسعادةِ حياتنا، وويحٌ لمن يوافيه الأجل!".

لدى سماعهنَّ هذه الكلمات، وافقن كلُّهنَّ بإيماءةٍ من رؤوسهنَّ على تلبية أمر تاديو، وفي هذه الأثناء كانت الموائد تُمَدُّ والطَّعام يتوافدُ، فبدأن بالأكل، وبعد أن انتهين من حشو بطونهنَّ، أشار الأمير إلى تسيتسا العرجاء أن تحشو سلاحها. وبعد أن أدَّت هذه الأخيرة انحناءةً عظيمةً للأمير ولزوجته، جعلت تتكلَّم على هذا المنوال.

1) في الأصل Sfrattapanelle، أي «مشرِّدو الخبز»، فقد كان الخدم يُعطون سبعة أرغفة في بداية كلّ أسبوع، وكان يجب أن تكفيهم سبعة أيّام (كان الخبز يُخبَز يوم السَّبت ويوزَّع يوم الأحَد)؛ ومن هنا جاءت التَّسمية الأخرى لهم Settepanelle التي تعني "الأرغفة السَّبعة": (كروتشِه).

حكاية الغول
المؤانَسة الأولى من اليوم الأوَّل

بعد أن يُطرَد أنطوُونو دا ماريليانو مِن قِبَل والدته لأنَّه كان أحمقَ الحمقى، يضع نفسه في خدمة الغول، فيعطيه هذا الأخير هديَّةً كلَّما أراد أن يعود ويرى بيته. وفي كلِّ مرَّةٍ كان صاحب حانةٍ يسخر منه، ولكن في النِّهاية، يهديه الغول هراوةً تصوِّب حماقاته، وتُرغم صاحب الحانة على دفع ثمن الحيل التي كان يوقِعه في أحابيلها، وتجلب لعائلة أنطوُونو الثَّراء العميم.

كلُّ من قال إنَّ الحظَّ أعمى، أثبتَ أنَّه أكثر حكمةً من ماسترو لانزا[1] (فليُصَبْ بطعنة!)، ذلك أنَّه يخبط حقًّا خبطَ عشواء، فيرفع إلى القمَّة أناساً تأنف حتى من أن تخرجَهم من حقل فولٍ[2]، ويطرحُ أرضاً آخرين، ممَّن هم زهرة الرِّجال، كما سأروي لكم مع مثال.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، امرأةٌ عريضةُ الجاه من قرية ماريليانو تُدعى مازيلَّا، وكان لها ستُّ بناتٍ عازباتٍ، نواحل كأنَّهنَّ ستُّ سَوَارٍ، وولدٌ ذكرٌ، أبله وأحمق كالأنعام، لدرجة أنَّه كان

1) حكَّاءٌ شعبيٌّ؛ (كروتشه).

2) أي أنَّهم مُعدَمون جدًّا. قد يحضرُ المرءَ هنا المثلُ الشَّائع الذي نقع عليه في النُّصوص الفلورنسيَّة، ويقول: «لا يملك شروى فولةٍ» أي أنَّه لا يملك شيئاً؛ (كروتشه). [قرَّبنا المثلَ إلى المثل العربيِّ القائل: «لا يملك شروى نقيرٍ»؛ (المترجمان)].

لا يصلح حتى للعبة الثّلج[1]، وكانت هي تقعد له كأنثى خنزيرٍ تعضُّ على حديدة لجامها، ولم يكن يمرُّ يومٌ من دون أن تصرخ في وجهه: "ماذا تفعل في هذا البيت، أيُّها اللعين؟ اللعنة على الخبز الذي أكلتَه! هيَّا اغربْ عن وجهي، أيُّها الخسيس! انقلعْ أيُّها المغفَّل! إلى الهاوية يا بليَّة البلايا، ولا تُرِني وجهك، يا آكل الكستناء المسلوق بقشره! يا ليتهم استبدلوك في المهد ووضعوا مكانَ الدُّميةِ الجميلة، والطِّفل الوسيم الذي أنجبتُه، خنزيراً شرهاً!". ولكن، مع كلِّ ذلك، كانت مازيلَّا تتحدَّث، وكان هو يصفِّر.

ولمَّا أيقنَتْ أنَّه لا أملَ في أن يغيِّر أنطوُونو[2] (وكان هذا اسم ابنها) من طبعه ويقوم بعملٍ مفيدٍ، أمسكت في يومٍ من الأيَّام، بعد أن غسلت رأسه بلا صابونٍ، مرقاقَ العجين بيدها وجعلت تقيس به بدنَه[3]. وهكذا في لحظةٍ لم يكن يتوقَّعها، وجد أنطوُونو نفسه مسوَّراً، ومطوَّقاً، ومحاصَراً، وحالما تمكَّن من الإفلات من يديها أطلق ساقيه للرِّيح. ومشى كثيراً، حتى إنَّه بعد أربعٍ وعشرين ساعةً، حين بدأت المصابيح تُضاء في دكاكين تشينزيا، كان قد وصل إلى سفح جبلٍ شاهقٍ يناطح بقرونه الغيوم.

هناك، فوق جذور شجرة حورٍ ضخمةٍ، عند مدخل مغارةٍ منحوتةٍ في صخرةٍ خُفافٍ بركانيَّةٍ، كان يجلس غولٌ: يا أمَّاه، كم كان قبيحاً! كان قزماً ومشوَّه التَّكوين، وكان يملك رأساً أكبر حجماً من يقطينةٍ هنديَّةٍ، وجبهةً مليئةً بالنُّتوءات، وحاجبين متَّصلين، وعينين دميمتين، وأنفاً أفطسَ، مع منخارين أشبه بقناتي مجارٍ رئيسَتَين؛ وكان فمه بحجم جُرن دَوْس العنب، يبرز منه نابان يصلان إلى كعبَيه، وصدرُه مغطًّى بشعرٍ أشعث، وذراعاه

1) يريد أن يقول إنَّ لعبة رمي كُرات الثَّلج هي أبسط لعبة، ومع ذلك لم يكن أنطوُونو أهلاً لها؛ (كروتشِهْ).

2) «القدّيس أنطوُونو» باللهجة النَّابوليتانيَّة ليس هو قدّيسُ بادوفا، وإنَّما هو القدّيس أنطونيو أباتي. ولفظة «أنطوُونو» بلهجة نابولي تُستعمَل أيضاً للدَّلالة على «الحماقة»؛ (كروتشِهْ).

3) أي تضربه به؛ (المترجمان).

مفتولتين كبكرتيَ غزْلٍ، وساقاه مقوَّستين كعَقْدَي قنطرةٍ، وقدماه عريضتَين كقدمَي بطَّة. وباختصارٍ، كان يبدو كأنَّه شيطانٌ، أو عفريتٌ، أو متسوِّلٌ قبيحٌ، أو ظلٌّ ممسوخٌ لروحٍ خبيثةٍ، كائنٌ من شأنه أن يُخيف رولاند[1]، وأن يُفزع سكانَّاريبيكُو[2]،وأن يُوقع في غيبوبةٍ أمهر المبارزين.

ولكنَّ أنطوُونو الذي لم تكن ضربة مقلاعٍ لتزحزحه قيد أنملةٍ، أحنى رأسه وقال له: "طاب يومك يا سيِّدي، ما الأخبار؟ كيف حالك؟ أتريد شيئاً؟ ما المسافة من هنا إلى حيث يجب أن أذهب؟". ضحك الغول لدى سماعه هذا الكلام الذي لا يربطه رابطٌ، ولأنَّه أحبَّ حسَّ الدُّعابة عند ذلك البهيمة، قال له: "هل تريد أن تكون في خدمة سيِّدٍ؟". فأجابه أنطوُونو: "وكم تريد في الشَّهر؟". قال الغول: "انتظرْ ريثما نرى إن كنتَ ستخدمني بشرفٍ، وسوف نتَّفق وتحيا حياةً طيِّبة". وهكذا، عُقِدَتْ هذه الآصرة، ومكث أنطوُونو في خدمة الغول، حيث كان الطَّعام وافراً في مسكنه، وأمَّا عن العمل، فقد كان يبقى مستلقياً على الأريكة، بحيث أصبح في غضون أربعة أيَّامٍ بديناً مثل تركيٍّ، ومكوَّراً مثلَ ثورٍ، ووقحاً مثلَ ديكٍ، وأحمرَ مثل جمبريٍّ، وأخضرَ مثلَ ثومةٍ، وضخماً مثلَ حوتٍ، بجسمٍ ممتلئٍ وجلدٍ مشدودٍ حتى إنَّه أوشك أن يصبح عاجزاً عن فتح عينيه.

ولم يكد يمضي عامان حتى استولى عليه ضيقٌ من كلِّ ذلك الرَّخاء، ضيقٌ شعر في إثره بحنينٍ ورغبةٍ عارمةٍ في خطفِ نفسه والجري إلى ماريليانو[3]، فمع كلِّ ذلك الشَّوق إلى منزله الصَّغير، كان قد ذاب وعاد

---

1) بطل الملحمة الفرنسيَّة المشهورة «نشيد رولاند» التي تُعَدُّ أقدم عملٍ في الأدب الفرنسيِّ باقٍ إلى اليوم، ويقوم موضوعها على أحداث معركة ممرِّ رونسفال التي وقعت سنة 778. يعود زمن تأليفها إلى الفترة الواقعة بين عامَي 1040 و1115؛ (المترجمان).

2) هكذا كانوا يلفظون اسم جورج كاستريوت، أو إسكندر بك (1405-1468)، وهو نبيلٌ ألبانيٌّ قاد تمرُّداً ضد الدَّولة العثمانيَّة قرابة 25 عاماً، وكانت تربطه علاقة صداقةٍ قويَّةٍ مع ملك نابولي فيرانتي الأوَّل الآراغوني؛ (المترجمان).

3) في النَّصِّ الأصليِّ: "إلى باسكارولا"، وهي مزرعةٌ في إقليم آفِرْسا، ولكن من الواضح أنَّها هفوةٌ،

تقريباً إلى مظهره السَّابق. وما كان من الغول الذي كان يرى قرارةَ نفسه حتى المصارين ويعرف كُنْهَ ذلك الأُكال الذي كان يجعله يبدو مثل عروسٍ خائبة، إلَّا أن ناداه جانباً وقال له: "يا عزيزي أنطوُوْنو، أنا أعرف أنَّ بك شوقاً عظيماً لرؤية من هم من لحمك ودمك، ولذلك، لأنَّني أحبُّك مثل بؤبؤَي عينيَّ، يسعدني أن تقوم برحلةٍ تُشبعُ رغبتك. فلتأخذ، إذاً، هذا الحمار الذي سيوفِّر عليك عناءَ الطَّريق، ولكن حذار من أن تقول له: أرِّي، كاكَاوْرو!، لأنَّك وروح جدِّي ستندم حينئذٍ على ما فعلت".

أخذ أنطوُوْنو الحمارَ، ودون أن يقول للغول عشيَّةً طيِّبةً، امتطاه وانطلق رهواً. ولكنْ، لم يكن قد قطع مِائة خطوةٍ بعد، حين نزل عن ظهر الحمار وبدأ يصرخ: أرِّي، كاكَاوْرو! وما إن فتح فمه ليقول ذلك حتى بدأ ذلك الحمار السَّرديني يتغوَّط لؤلؤاً، وياقوتاً، وزُمُرُّداً، وزفيراً، وألماساً، وكلُّ قطعةٍ منها بحجم حبَّة الجوز. راح أنطوُوْنو يحدِّق، بفمٍ فاغرٍ، في تلك الأشياء الجميلة التي خرجت من جسمٍ حيٍّ، في تلك المفرَزات الرَّائعة، في زُحار الثَّراء المتدفِّق من حمارٍ صغيرٍ، وبابتهاجٍ كبيرٍ، ملأ أحد الخُرْجَين من تلك المجوهرات، ثم امتطاه ثانيةً، ومُضاعِفاً من سرعته، وصل إلى إحدى الحانات.

كان أوَّل شيءٍ قاله لصاحب الحانة حين نزل عن حماره: "اربط هذا الحمار إلى المذود، وأعطه علفاً وافراً، ولكن حذار من أن تقول له: أرِّي، كاكَاوْرو! لأنَّك ستندم حينئذٍ على ما قلت، واحفظ لي هذه المقتنيات الصَّغيرة في مكانٍ آمنٍ". فلمَّا سمع صاحبُ الحانة الذي كان من أصحاب الفنون الأربعة[1]، ومتمرِّساً في الخبث، هذا التَّحذير غير المتوقَّع، ورأى المجوهرات التي تساوي الآلاف، تملَّكه الفضول لمعرفة مدى تأثير تلك

وأنَّ المقصود هو "ماريليانو" المشار إليها سابقاً؛ (كروتشه).

1) في التَّراتبيَّة الهرميَّة لرابطة الحِرَف والفنون قديماً كان يتربَّع في القمَّة المستشارون و «أصحاب الفنون الأربعة»؛ (كروتشه).

الكلمات. لذلك، بعد أن وضع أمام أنطوُونو وجبةً طيِّبةً من الطَّعام وأعطاه ما يكفيه ويزيد من الشَّراب، حشره بين فراشٍ من القشِّ وبطَّانيَّةٍ ثخينةٍ، وحالما رأى جفنيه يتهدَّلان وشخيرَه يتسارع، هرع إلى الإسطبل وقال للحمار: أرِّي، كاكَاوُرو! وإذا بالحمار، بسحر هذه الكلمات، يقوم بأداء العمليَّة المعتادة، مُسَلِّكاً أمعاءه بإسهالٍ من الذَّهب وفَرْثٍ من الأحجار الكريمة.

حين رأى صاحبُ الحانة هذا التَّغوُّطَ النَّفيسَ، رسمَ خطَّةً لتبديل الحمار والاحتيال على ذلك الغبيِّ أنطوُونو، مقدِّراً أنَّه سيكون من اليسير إعماءُه، وربطه، وتضليله، وخداعه، ومخاتلته، وتوريطه، جاعلاً المثانة تبدو قنديلاً في عين ذلك الخنزير، الأبله، الأخرق، التَّيس، السَّاذج، الذي وقع بين يديه. وفي الصَّباح، أوانَ خروج الفجر ليلقي أصيصَه القديم المليءَ برملٍ أحمرَ ناعمٍ من نافذة الشَّرق، استيقظَ أنطوُونو، وبقيَ يفرك عينيه بيديه ويمطُّ ذراعيه لمدَّةِ نصف ساعةٍ، مُطلِقاً حوالي ستِّين ثؤباءَ وضرطةً بشكل حواريَّةٍ، ثم نادى صاحبَ الحانة، وقال له: "تعال إلى هنا يا صاحبي: لتكن بيننا عقودٌ كثيرةٌ وصداقةٌ مديدةٌ؛ لنكن أنا وأنت صديقين، ولنترك شأن الحرب لمحفظتي نقودنا: هيِّئ لي حسابي واحصل على مالِك". وهكذا، محتسباً هذا المبلغَ لقاءَ الخبز، وذاكَ لقاءَ النَّبيذ، وهذا لقاءَ الحساء، وذاك لقاءَ اللَّحم، وخمساً لقاءَ مبيت الحمار في الإسطبل، وعشراً لقاءَ مبيته في السَّرير، وخمس عشرة بقشيشاً، سدَّد النُّقود وأخذ الحمار المزيَّف مع خُرجٍ مليءٍ بحجارة الخُفاف بدلاً من أحجار الخواتم الكريمة وانطلق حثيثاً نحو بلدته.

حين وصل إلى ماريليانو، وقبل أن تطأ قدماه عتبة البيت، بدأ يصرخ، كالملسوع بالقرَّاص: "أسرعي يا أمَّاه، أسرعي، لقد أصبحنا أغنياء! افرشي المناشف، مُدِّي المُلاءات، انشري الأغطية، لأنَّك سترين الكنوز!". فتحت الأمُّ بفرحٍ غامرٍ صندوقاً كبيراً كانت تحتفظ فيه بجهاز البنات وأخرجت منه ملاءاتٍ ناعمةً تطير إن نُفِخَ عليها، ومفارش موائدِ تعبق برائحة الغسيل،

وبطّانيّاتٍ ملوّنةً تبهر العيون، وفرشتها بتنسيقٍ أخّاذٍ على الأرض. فقاد أنطوُونو الحمارَ فوقها وبدأ يصيح: أرّي، كاكَاوُرو! ولكن مع كلِّ المرّات التي قال فيها: "أرّي كاكَاوُرو"، لم يشعر الحمار حيال تلك الكلمات بأكثر ممّا كان يشعر حيال لحن قيثارة[1]. ومع ذلك، عاد يكرِّر تلك الكلمات ثلاث أو أربع مرّاتٍ، وفي كلِّ مرّةٍ كانت كلماته تذهب أدراج الرِّياح. فأمسك بهراوةٍ غليظةٍ وراح ينهال بها على البهيمة البائسة، وتابع على هذا المنوال إلى أن فقد الحيوان المسكين سيطرته على جسده، فأفرغ ما كان في أحشائه على الأغطية البيضاء.

وحين رأت مازيلاّ البائسة ما حدث، وفي اللّحظة التي كانت تؤسِّس فيها لطرد فقرها، وجدت نفسها أمامَ أساسٍ من نوعٍ آخر، أساسٍ سخيٍّ لدرجة تلويث بيتها بأكمله. فتلقَّفت عصاً ودون أن تمنح أنطوُونو الوقت لكي يريها أحجار الخُفاف، أشبعته ضرباً. فولّى في الحال هارباً إلى منزل الغول.

لمحه الغول يقتربُ بخطوٍ أقرب إلى الهرولة ممّا إلى المشي، ولمّا كان، ككائنٍ مسحورٍ، يعرف ما حدث له، فقد وبَّخه بعنفٍ لأنّه سمح لصاحب الحانة بالسُّخرية منه، ناعتاً إيّاه بالمغفَّل، والغبيِّ، والسّاذج، والغشيم، والجبان، والأبله، وهازئاً به بقوله: "أمّي، ضعي اللُّقمة في فمي"، لأنّه بدلاً من حمارٍ طافحٍ بالكنوز، أخذ بهيمةً ثامرةً بالرَّوث المتعارف عليه. ابتلع أنطوُونو المذلّةَ وأقسم أنّه لن يسمح أبداً، أبداً، أن يخدعه ويخاتله بعد ذلك اليوم إنسانٌ حيٌّ.

ولكن بعد عامٍ، صُدعَ بالوجع نفسه في رأسه، خائراً أمام لاعج الشّوق إلى رؤية ذويه. فما كان من الغول الذي كان قبيحَ الوجه، ولكن مليحَ القلب، إلّا أن منحه الإذن مرّةً أخرى، وأهداه منديلاً بديعاً، قائلاً له: "خذ

1) «كالحمار يسمع قيثارة»، باللّاتينيّة: «Asinus ad lyram"، مثلٌ لاتينيٌّ؛ (كروتشِه).

هذا لأمّك، وحذارِ من أن يحتال عليك أحدٌ كما حدث لك مع الحمار، ومن الآن حتى تصل إلى بيتك، لا تقلْ لا "افتحْ" ولا "أغلقْ، أيُّها المنديل"، لأنَّه إذا ما نزلت بك مصيبةٌ أخرى، فإنَّ الضَّرَّاء لن تكون من نصيب أحدٍ سواك. هيَّا، انطلق الآن تصحبك أمانيَّ الطَّيِّبة وعُدْ سريعاً".

وهكذا غادر أنطوُونو: ولكنَّه لم يكن قد ابتعد إلَّا قليلاً عن الكهف حين وضع المنديل على الأرض، وقال: "افتحْ أيُّها المنديل!" فانفتح المنديل، وعلى الفور ظهرت فوقه كومةٌ من الأشياء الفاخرة والبرَّاقة والنَّفيسة، أشياء في غاية الجمال والإبهار. ثمَّ قال أنطوُونو: "أغلقْ أيُّها المنديل!" وبعد أن انغلق على كلِّ شيءٍ، مضى به إلى الحانة السَّابقة نفسِها. وحينما وصل إلى هناك، قال لصاحب الحانة: "خذ هذا المنديل واحتفظ به لأجلي، وحذار من أن تقول "افتحْ وأغلقْ أيُّها المنديل". فأجاب صاحب الحانة الذي كان رجلاً حاذقاً: "دع الأمر لي"، ثمَّ قدَّم له طعاماً وفيراً، وبعد أن تأكَّد من أنَّه أمسك السَّعدان[1] من ذيله، أرسله إلى النَّوم، ثم أخذ المنديل، ونطق بتلك الكلمات، فوجد أمامه فيضاً من الأشياء الثَّمينة التي تذهب بالألباب، فقام وبدَّل مكانه منديلاً مماثلاً له.

استيقظ أنطوُونو باكراً، وامتطى دابَّته التي مضت تخبُّ به خبباً سريعاً، وبوصوله إلى منزل والدته، هتف قائلاً: "ها نحن الآن سنركل التَّسوُّل في وجهه! ها نحن الآن سنضع حدَّاً للمِزَقِ والخِرَقِ والنُّتَف البالية!". ثمَّ نشر منديله على الأرض، وقال: "هيَّا، افتحْ أيُّها المنديل!". ولكن كان يمكنه أن يردِّد تلك الكلمات من اليوم وحتى يوم غدٍ دونما جدوى، ذلك أنَّ المنديل بقي على حاله، ولم يتحرَّك قيد أنملة. فلمَّا رأى أنَّ الأمر يسير بعكس ما كان يشتهي، قال لأمِّه: "فلتتبارك السَّماء! لقد فعلها بي صاحب الحانة مرَّةً أخرى. هيهات أن نجتمع أنا وهو على أمرٍ. ليته لم يولد! ليته سقط

1) اي أنَّه في حالة سُكر، لأنَّ السَّعدان هنا هو المكَّاك البربريّ العديم الذَّيل "*Inuus ecaudatus*"؛ (كروتشِه).

تحت عجلات عربة! فلأفقد أفضل قطعةِ أثاثٍ في بيتي إنْ أنا لم أحوِّل إلى شظايا كلَّ الأوعية والأطباق والكؤوس، وأجعله يدفع ثمن المجوهرات والحمار المسروق، حين أمرُّ بتلك الحانة". ولكنَّ الأمَّ التي سمعت هذه الحماقات الجديدة، وبَّخته قائلةً وهي تلفظ ناراً: "فلتُسحق رقبتك، أيُّها الولد المنبوذ من الكنيسة! فلتُكسَر سلسلةُ ظهرك! انقلعْ من أمام وجهي! لقد صارت أمعائي أمام عينيَّ، ولم أعد قادرةً على هضمك؛ لقد توسَّعَ فتقي، وغدَّتي الدَّرقيَّة تضخَّمَتْ حتى صارت بين قدميَّ! هيَّا أنْهِ هذه المهزلةَ حالاً، وليحرقك هذا المنزل كالنَّار! لقد غسلت يديَّ منك، ويا ليتني لم أخرأك إلى هذا العالم".

لم يشأ أنطوُونو البائس، وقد رأى البرقَ، أن ينتظرَ الرَّعد، وكَمَنْ سرق الغسيل المنشور، أحنى رأسه ورفع كعبيه وتوارى عائداً إلى كهف الغول. وإذْ لمحه هذا يتسلَّل رويداً رويداً وعلى رؤوس أصابعه كالسَّارق، عزف له مقطوعة صُنُوجٍ أخرى، قائلاً: "أنا لا أعرف ما الذي يمنعني من أن أفقأ إحدى عينيك، أيُّها الثرثار، يا فمَ الضُّراط، يا كتلة اللَّحم النَّتنة، يا مؤخِّرة الدَّجاجة، أيُّها الطَّرطور، يا بوق نائب الأسقف[1]، يا من تذيعُ إعلاناً عن كلِّ شيء، وتَبُقُّ كلَّ ما في جوفك، ولا تستطيع أن تحتفظ بحبَّة الحِمَّص في فمك! لو بقيت صامتاً في الحانة، لما حدث لك ما حدث، ولكنَّك تملك لساناً مثل عصا الطَّاحونة، وها قد طحنتَ السَّعادة التي وقعت بين يديك!".

حشر أنطوُونو البائس ذيله بين ساقيه وتجرَّعَ هذه الموسيقى، وبقي أكثر من ثلاث سنواتٍ هادئاً في خدمة الغول، يفكِّر في العودة إلى بيته بقدر ما يفكِّر في أن يصبحَ كونتاً. ولكن مرَّةً أخرى، بعد كلِّ ذلك الوقت، فاض به الحنين، وتولَّدت في نفسه نزوة القيام برحلةٍ إلى بيته، فعاد والتمس الإذن من الغول. ونزولاً عند إلحافه، اقتنع الغولُ بمغادرته، وأعطاه هراوةً

1) دلّال المحكمة العليا في نابولي الذي كان يرافق إذاعةَ الأخبار بالنَّفخ في البوق؛ (كروتشِهْ).

جميلةً مزخرفةً، محذِّراً إيَّاه: "خذ هذه الهراوة معك ذكرى منّي، ولكن حذارِ من أن تقول: ارتفعي يا هراوة! واهمدي يا هراوة! لأنَّني لن أستطيع حينئذٍ أن أفعل لك شيئاً". فأجاب أنطوُونو وهو يستلمها: "لا عليك، فقد قلعتُ ضرس العقل عندي، وبتُّ أعرف الآن كم زوجاً تشكِّل ثلاثة ثيران! لم أعد صبيّاً، ومن يريد أن يخدع أنطوُونو عليه أن يقبِّل كوعَه أوّلاً". وكان ردُّ الغول: "اللَّوحةُ تمدح الفنَّان: الكلمات مؤنَّثةٌ والأعمال مذكَّرة: سنرى! لقد سمعتَني أفضل ممَّا يسمع الأصمُّ، وقد أُعذِر من أنذر".

وفيما كان الغول يتابع كلامَه، بدأ أنطوُونو يحثُّ الخطى نحو البيت. ولكن لم يكن قد قطع بعدُ نصفَ ميلٍ حين توقَّف وقال: انهضي يا هراوة! ولم تكن مجرَّدَ كلمة، بل فنّاً من فنون السِّحر. فالهراوة، كما لو أنَّها تحوي عفريتاً في نخاعها، بدأت تعمل عملَ المخرطة على كاهلِ أنطوُونو البائس، وراحت الضَّربات تتوالى كزخِّ المطر في الهواء الطَّلق، والضَّربةُ لا تُمهِلُ الأخرى. وإذْ ألفى صاحبُنا المسكين نفسه يُضرب ويُصْفَق كقطعةِ جلدِ قرطبيٍّ، صرخ: "اهمدي يا هراوة!"، فتوقَّفت الهراوة عن كتابة طِباقها على المدرَجِ الموسيقيِّ لظهره. وهكذا، بعد أن تعلَّم الدَّرسَ من كيسِه، قال: "فليعرجْ كلُّ من يفلت منكِ! أفٍّ، لن أترك الفرصة تفلت منّي هذه المرَّة! لم يأوِ بعدُ إلى فراشه ذاك الذي عليه أن يرى أمسيةً سيِّئة!".

مع هذه الأفكار وصل إلى الحانة المعتادة، حيث استُقبِلَ أحرَّ استقبالٍ في العالم، فصاحب الحانة كان يعرف أيَّ مَرَقٍ كان من الممكن استخراجُه من قشرةِ جلد الخنزير المقدَّد ذاك. قال له أنطوُونو: "خذْ، حافظ على هذه الهراوة. ولكن حذار من أن تقول: ارتفعي يا هراوة! لأنَّك ستعرِّض نفسك حينئذٍ للخطر. اصغِ إليَّ جيداً: لا تشكُّ بعد اليوم من أنطوُونو، لأنَّني سأعترض على ذلك، ولا تقل إنَّني لم أهيِّئ الفراش مسبَّقاً!".

وما كان من صاحب الحانة الذي غمرته الغبطة من هذه الفرصة الثَّالثة إلَّا أن أتخمه جيِّداً بالحساء وجعله يرى قعر الجرَّة، وحالما ألقى

به، بعد أن ران عليه النُّعاس، في سريرٍ صغيرٍ، هرع ليأخذ الهراوة، ثمَّ قال وهو يدعو زوجته لحضور الاحتفال الجميل: "انهضي يا هراوة!" فبدأت الهراوة تجوسُ ضلوعَ عنبرِ المضيفَين[1]، وضربةٌ من هنا وأخرى من هناك، مرَّت على جسديهما جيئةً وذهاباً تسومهما سوءَ العذاب، لدرجة أنَّ الزَّوج والزَّوجة، بعد أن رأيا الأمور تسوء، هرعا متبوعَين بالهراوة ليوقظا أنطوُونو ويستجدياه الرَّحمة.

وإذْ رأى أنطوُونو أنَّ مآربه تكلَّل بالنَّجاح وأنَّ الأبله سقط في حبائله سقوطَ المعكرونةِ في جبنة الكاتشُو والقنَّبيط الأخضرِ في دهن الخنزير، قال: "ليس ثمَّة بُرءٌ لحالكما! إنَّكما ميِّتان لا محالة تحت ضربات الهراوة إذا لم تعيدا لي أغراضي". فصرخ صاحب الحانة الذي كان مغطّىً بالكامل بالكدمات: "خذ كلَّ ما أملك، ولكن انزع هذا الشَّيء الفظَّ واللَّعين عن ظهري!". ولكي يحملَ أنطوُونو على الطُّمأنينة، جلب له كلَّ الأغراض التي كان قد سرقها منه. فلمَّا صار كلُّ شيءٍ بين يدَي أنطوُونو، قال هذا الأخير: "اهمدي يا هراوة!"، فاستناخت الهراوة وربضت جانباً.

وهكذا، أخذ الحمارَ والأشياء الأخرى ومضى إلى منزل والدته، وهناك، بعد أن قام باختبارٍ فخمٍ لمؤخِّرة الحمار وبتجربةٍ مأمونة العواقب على المنديل، جمع أموالاً عظيمةً، وزوَّج شقيقاته، وأثرى والدته، مبرهناً بذلك على حقيقة القول المأثور:

فليكن الرَّبُّ في عون الصِّبيةِ والمجانين.

---

1) يشبِّه بازيلهْ هنا ضلوعَ جسد الإنسان بضلوع السَّفينة؛ (المترجمان).

شتلةُ الآس
المؤانَسة الثَّانية من اليوم الأوَّل

تلدُ فلّاحةٌ من ميانو شتلةَ آسٍ، فيقعُ أحد الأمراء في حُبِّ هذه الشَّتلة التي تتكشَّف عن حوريَّةٍ جميلة. يقوم الأمير برحلةٍ ويترك الحوريَّة داخل الشَّتلة مع جرسٍ صغيرٍ معلَّقٍ عليها. تدخل بعض النِّساء المغمومات والغيورات غرفة الأمير، وحالما يلمسن شتلةَ الآس، تخرج الحوريَّة، فيقطِّعنها إرباً. يعود الأمير ويكتشف هذه المذبحة ويوشك أن يموت من الألم، ولكنَّه يستعيد الحوريَّة بأعجوبةٍ خرافيَّة، ويتَّخذها زوجةً له، ويحكم بالموت على المذنبات.

لم ينبس أحدٌ ببنت شفةٍ بينما كانت تسيتسا تتابع حديثها. ولكن ما إن أنهت كلامها حتى وقع هرجٌ ومرجٌ كبيران، ولم تعد الأفواه تعرف طريقاً إلى السُّكوت حول التغوُّط العجيب للحمار وحول الهراوة المسحورة، وكان ثمَّة من قال إنَّه لو كانت هناك غابةٌ من هذه الهراوات لَمَا عزف على الصَّنج[1] أكثر من أربعة لصوصٍ، ولَعادَ أكثر من أربعةِ آخرين إلى رشدهم، وإنَّه لن يحدث في أيَّامنا هذه أن يكون هناك حميرٌ أكثر من دوابِّ الحملِ والرُّكوب. ولكن بعد شيءٍ من الجدال حول هذه المسألة، أوعز السَّيِّد إلى تشيكًّا أن تواصل سرد الحكايات، وهكذا تكلَّمت تشيكًّا:

لو نظر الرَّجلُ كم من الأذيَّةِ، وكم من الخراب، وكم من الخسائر تنزل به

1) مجازٌ يُراد منه «السَّرقة»؛ (كروتشه).

بسبب نساء الدُّنيا اللّعينات، لَرأى أنَّ الهروب من درب امرأةٍ غير شريفةٍ أكثر حكمةً من الهروب من مرأى ثعبان؛ ولَما أهدرَ شرفه من أجل فضلاتِ بيوت الدَّعارة، ولا حياته من أجل مشفىً للأمراض، ولا دَخْلَه كلَّه من أجل مومسٍ لا تساوي أكثر من ثلاثة قروشٍ، ولا تفعل سوى أنَّها تجعلك تبتلع أقراصاً مُدْمَجَةً[1] من الاشمئزاز والغضب، وهذا هو ما حدث، كما ستسمعون، لأميرٍ من الأمراء ألقى بنفسه بين يدَي هذا الجنس الشِّرِّير.

كان يعيش في ضيعةٍ صغيرةٍ تُدعَى "ميانو" زوجٌ وزوجةٌ، ولأنَّهما لم يكونا يملكان ولا حتى برعم طفلٍ، كانا يرغبان من صميم روحيهما أن يكون لهما وريثٌ، وكانت الزَّوجة على وجه الخصوص تتنهَّد دائماً: "آه يا إلهي، لو أنَّني أنجب شيئاً إلى هذا العالم، ولا يهمُّني إن كان غصن آسٍ أخضرا!". ولكثرة ما ردَّدت هذه المعزوفة، ولكثرة ما أزعجت السَّماء، تضخَّمَتْ كرشها وتكوَّرَتْ بطنها، وبعد مضي تسعة أشهرٍ، بدلاً من أن تلد مثل الأخريات ولداً أو بنتاً، أخرجت مِن إليسيومِ[2] رحمها غصناً بديعاً من الآس.

وبفرحٍ غامرٍ، زرعته في أصيصٍ للزُّهور، وزيَّنته بكثيرٍ من قطع الغرُتسك[3] الجميلة، ووضعته على رفِّ النَّافذة، وأخذت تعتني به صباحاً ومساءً باذلةً جهداً عظيماً لا يبذله فلَّاحٌ لأجل مسكبٍ من القنَّبيط الأخضر يأمل كسبَ إيجار البستان منه. ولكن أثناء مرور ابن الملك من أمام ذلك البيت في طريقه إلى الصَّيد، وَلِهَ وَلَهاً لا حدود له في حُبِّ ذلك الغصن الجميل وأرسل إلى صاحبته سائلاً أن تبيعه إيَّاه، وأنَّه مستعدٌّ أن يدفع إحدى عينيه ثمناً لأجله. فما كان من المرأة، بعد كثيرٍ من الرَّفض وكثيرٍ من النِّقاش،

---

1) كانت تُسمَّى هكذا لأنَّها كانت تنفع لعدَّة أمراضٍ معاً؛ (كروتشِهْ).

2) هي في الميثولوجيا الإغريقيَّة "جزيرة الخالدين" التي يرسل إليها قضاةُ الموتى الخالدين والمباركين ليعيشوا هناك حياةً أبديَّةً كلُّها حبورٌ ونعيم؛ (المترجمان).

3) قطعٌ من الفنِّ الزُّخرفيِّ تتميَّز بأشكالٍ بشريَّةٍ وحيوانيَّةٍ ونباتيَّةٍ خياليَّةٍ وغريبةٍ ومتنافرة؛ (المترجمان).

وقد أخذها الجشعُ تجاه تلك العروض، وجذبتها صنَّارةُ الوعود، وبغتَتْها التَّهديدات، وغلبَتْها التَّوسُّلات، إلَّا أن أعطته الأصيص مع غصن الآس، ورجته أن يعتني به جيِّداً لأنَّها تحبُّه أكثر من ابنةٍ، وتبجِّله كما لو أنَّه خرج من كليتيها.

وبفرحٍ لا يُضاهيه فرحٌ في العالم، حملَ الأميرُ غصن الآس إلى شقَّته، ووضعه على الشُّرفة، وكان يعزق ترابه ويسقيه بيديه.

وحدث في إحدى الأمسيات أن ذهب الأمير ليأوي إلى الفراش وأطفأ الشُّموع، وما إن ساد الصَّمت في الأرجاء، وصار الأنامُ في أوَّل غفوتهم، حتى سمع وقع أقدامٍ في البيت وشعر بشخصٍ يتلمَّس طريقه نحو السَّرير. وفي الحال خطر له أنَّ الأمر يتعلَّق إمَّا بوصيفٍ يريد أن يسرق محفظته، وإمَّا بعفريتٍ منزليٍّ يريد أن ينزع عنه اللِّحاف، ولكن، كرجلٍ جسورٍ لا يخيفه حتى سعيرُ الجحيم، بقي ساكناً في مكانه كهرَّةٍ ميِّتةٍ بانتظار ما سوف يحدث. ولكن حين أحسَّ بذلك الشَّخص إلى جانبه، وبعد أن تحسَّسه، وشعر بنعومته، وحيث كان يعتقد أنَّه سيلمس أشواك قنفذٍ، كان يجد شيئاً أكثر رقَّةً وليونةً من الصُّوف البربريِّ[1]، وأكثر طراوةً ونعومةً من ذيل الدَّلَق، وأكثر ملاسةً ورخاصةً من ريش الحسُّون، اندفع نحوه ليحتضنه، ومُقدِّراً أن يكون (كما كان في الواقع) حوريَّةً، أمسك به مثل أخطبوطٍ، وبعد أن مارسا لعبة "الدُّوريِّ الأبكم"، أرادا أن يلعبا أيضاً لعبة "الحجَر في حضنك"[2]، لولا أنَّ الزَّائرة، قبل أن تخرج الشَّمسُ كطبيب البلاط لكي تزور الأزهار التي أمست خلال اللَّيل مريضةً وذابلةً، نهضت واختفت، تاركةً الأمير مُكتنَفاً بالعذوبة، وغاصَّاً بالفضول، وغارقاً في الذُّهول.

---

1) صوفٌ من تونس كان مشهوراً بنعومته؛ (كروتشِهْ).

2) لعبتان كان يلعبهما الأولاد وقد استخدم الكاتب هنا اسميهما استخداماً بذيئاً؛ (كروتشِهْ). [في العصر الرُّومانيِّ كان الدُّوريُّ يُعَدُّ أكثر المخلوقات فجوراً، وقد استخدم كلٌّ من وليم شكسبير وجيفري تشوسر هذا الطَّائر ككنايةٍ عن الفجور؛ (المترجمان)].

واستمرَّت هذه الزِّيارات سبعة أيَّامٍ، وكان الأمير يذوب وينصهر من التَّوق إلى معرفة أيُّ نعمةٍ هي هذه التي تمطرها عليه النُّجوم، وأيُّ سفينةٍ، زاخرةٍ بأعزِّ مسرَّاتِ الحُبِّ، كانت تأتي لترمي مرساتها في سريره. ثمَّ ذات ليلةٍ، بينما كانت الحوريَّة غافيةً كالأطفال، ربط إحدى ضفائرها بذراعه لكيلا تتمكَّن من الهرب، ثم نادى أحدَ الخدم، وحين أضيئت الشُّموع، رأى زهرةَ الجميلات، أعجوبةَ النِّساء، مرآة فينوس وبيضتها الملوَّنة[1]، سِحْرَ الحُبِّ. رأى دميةً، حمامةً صغيرةً ساحرةً، سرابَ الجنِّيَّةِ مورغانا[2]، رايةً ساطعةً، غصناً من الذَّهب. رأى جارحةَ قلوبٍ، عينَ صقرٍ، بدراً، طفلاً رضيعاً، لقمةً ملكيَّةً شهيَّةً، جوهرة. رأى، باختصارٍ، مشهداً يخلب الألباب.

وبعد أن تأمَّلها طويلاً، هتف: "فلتذهبي الآن إلى الجحيم، أيَّتها الإلهة القبرصيَّة! فلتذهبي وتشنقي نفسك، يا هيلين! ولتعودي إلى بيتك، يا فيوريلاَّ![3] جمالكنَّ تُرَّهاتٌ أمام هذا الجمال المضاعَف، هذا الجمال الكامل، المتكامل، المطمئنِّ، الهائل، الرَّاسخ؛ جمالكنَّ لا شيء أمام هذه النِّعمة الإلهيَّة، نعمة إشبيلية[4]، الرَّائعة، والسَّاحرة، والمهيبة، حيث لن تجد أيَّ نقيصةٍ، ولا حتى نقطةً واحدةً تقتضي التَّقويم. آه أيُّها النَّوم، آه أيُّها النَّوم القشيب، صُبَّ المزيد من الخشخاش على أعين هذا الفرح الجميل! لا تفسد عليَّ متعة التَّأمُّل، فلطالما اشتهيتُ انتصارَ الجمال هذا! آه أيَّتها الجديلة الجميلة التي تلفُّني! آه أيَّتها العيون الجميلة التي تدفِّئني! آه أيَّتها الشِّفاه الجميلة التي تُنهلني! آه أيُّها الصَّدر الجميل الذي

---

1) بيضةٌ ملوَّنةٌ بألوانٍ مختلفةٍ كان من الشَّائع أن يتهاداها النَّاسُ في الأعياد؛ (كروتشِهْ).

2) بالإيطاليَّة Fata Morgana، وهي ظاهرةٌ بصريَّةٌ تُشاهَدُ كسرابٍ فوق خطِّ الأفق، وتجعل الأجسام تبدو مشوَّهةً بحيث يصعب تمييزها؛ (المترجمان).

3) ماركو وفيوريلاَّ، كانا عاشقين مشهورين في تلك الحقبة؛ (كروتشِهْ).

4) كانت مملكة نابولي تستورد بضائع كثيرةً من إشبيلية في تلك الحقبة، مثل التَّبغ، والجوارب، وحليِّ النِّساء وأشياء أخرى؛ (كروتشِهْ).

يُريحني! آه أيّتها اليد الجميلة التي تطعنني! أين، أين، في أيِّ مشغلٍ من عجائب الطَّبيعة نُحِتَ هذا التِّمثال الحيُّ؟ أيُّ هِندٍ قدَّمت الذَّهب لنسج هذا الشَّعر؟ بأيِّ عاجٍ إثيوبيٍّ صُقِلَ هذا الجبين النَّاصع؟ أيُّ أهوار قدَّمت الفحم لتكوين هذه العيون؟ أي صُوَرٍ قدَّمت الأرجوان لتورُّدِ هذا المحيَّا؟ أيُّ لآلىء شرقيَّةٍ كوَّنت هذه الأسنان؟ ومن أيِّ جبلٍ جُلِبَ الثَّلج لنثره على هذا الصَّدر؟ ثلجٌ لا تجده في الطَّبيعة، ثلجٌ يرعى الزُّهورَ ويدفِّئ القلوب!".

وبينما كان يردِّد هذه الكلمات، لفَّ ذراعيه حولها كجَفنةِ عنب. وحين طوَّقَ عنقها، استيقظت من نومها، وأجابت بتثاؤبٍ رقيقٍ على تنهُّد الأمير العاشق. وإذْ رآها استفاقت، قال لها: "آه يا نعمتي، إذا كنتُ على شفا الموت، وأنا أنظر بلا شموعٍ إلى معبد الحبِّ هذا، فكيف ستكون حياتي الآن، وقد أضاءَتْ شمعتين؟ آه أيّتها العينان الجميلتان اللَّتان بغلَبَةِ ضيائهما تجعلان النُّجوم تخسر أوراقَ لعبها، أنتما، أنتما وحدكما، مَن طعنَ هذا الفؤاد، وأنتما وحدكما القادرتان، مثل بيضتين طازجتين، على أن تصنعا له لبخةً[1]. وأنتِ، يا طبيبتي الجميلة، كوني عوناً لِتَوَلُّهِ مريض الحبِّ الذي، إذْ انتقل من قتامة اللَّيل إلى نور هذا الجمال، أصيب بالحمَّى! ضعي يدك على صدري، جسِّي نبضي، اطلبي لي وصفة الدَّواء! ولكن عن أيَّةِ وصفةٍ أبحث، يا حبيبتي؟ ارشقي شفتيَّ بخمس كؤوس حجامةٍ من فمك الجميل! لا أريد أيَّ لمسةٍ أخرى سوى إمرارةٍ من يدك الصَّغيرة، لأنَّني متيقِّنٌ، مع الماء العشقيِّ لهذا الجمال الفتَّان ومع جذور نبتة المرُّير، من أنَّني سأصبح حرّاً ومعافى".

عند سماع الحوريَّة الجميلة هذه الكلمات، احمرَّت كلهيب النَّار، وأجابت: "لا تُكثر عليَّ من الثَّناء يا سيِّدي الأمير، فأنا خادمتك، وخدمةً

---

1) كان يتمُّ تحضير «اللَّبخة» بغمس قطعةٍ من قماش الكتَّان في مخفوق البيض الممزوج بزيت الورد والتُّربنتين، ومن ثمَّ توضع على الجرح؛ (كروتشيةْ).

لهذا المحيَّا الملوكيِّ، سأذهب عن طيب خاطرٍ حتى لإفراغ ما يلزم[1]؛ وإنَّني لأخالُني محظوظةً جدًّا، لأنَّني من شتلةِ آسٍ زُرِعَتْ في أصيصٍ من الفخَّار، تحوَّلتُ إلى غصنِ غارٍ التصقَ بمشرب قلبٍ من اللَّحم، قلبٍ مُفعَمٍ بجزيل العظمة والفضائل".

فما كان من الأمير، وهو يذوب كشمعةٍ من الشَّحم، بعدَ إذْ عاد إلى عناقها خاتماً الرِّسالة بقبلةٍ، إلَّا أن مدَّ يده إليها قائلاً: "إليكِ عهدي: سوف تكونين زوجتي، سوف تكونين سيِّدة الصَّولجان، سوف تملكين مفتاحَ هذا القلب، أنتِ التي أمسكتِ بالفعل دفَّةَ هذه الحياة". وبعد هذا ومئات غيره من عذبِ الملاطفات والأحاديث، نهضا من السَّرير، تأكَّدا من أنَّ أحشاءهما في حالةٍ جيِّدةٍ[2]، وتمتَّعا على هذا المنوال لعددٍ من الأيَّام.

ولكن لأنَّ إلهةَ الحظِّ، مُفسِدةَ المتَعِ ومفرِّقةَ الأزواج، عائقٌ يقف دائماً أمام خُطى الحُبِّ، وكلبٌ أسود يتغوَّطُ دائماً على مسرَّات المحبِّين، فقد حدثَ أن دُعِيَ الأمير لاصطياد خنزيرٍ برِّيٍّ كبيرٍ كان يعيث في ذلك البلد فساداً، ولذلك اضطرَّ إلى ترك زوجته، أو بالأحرى ثلثي قلبه، ولأنَّه كان يحبُّها أكثر من حُبِّه الحياة نفسها، ويراها أجمل من كلِّ الأشياء الجميلة، فقد نَبَتَ من هذا الحُبِّ ومن هذا الجمال ذاك الصِّنف الثَّالث[3] الذي هو عاصفةٌ في بحر الملذَّات العاطفيَّة، ومطرٌ على غسيلِ مسرَّاتِ الحُبِّ، وسخامٌ يتساقط على القصعةِ الدَّسماء[4] لمباهج العاشقِين؛ أعني ذلك الصِّنف من الحُبِّ الذي هو أفعىً تلدغ، ووَسْوَسَةٌ تنخر، ومرارةٌ تُسمِّمُ،

1) إناء اللَّيل؛ (كروتشِهْ).

2) أي تناولا وجبةً من الطَّعام؛ (كروتشِهْ).

3) الغيرة؛ (كروتشِهْ).

4) «القصعة الدَّسماء» أو «قصعة العروسَين» هي نوعٌ من الحساء المحضَّر من الكرنب ولحم وشحم الخنزير ومكوِّناتٍ أخرى. وكان بالنِّسبة إلى الكتَّاب الشَّعبيِّين الذين يكتبون باللَّهجة العاميَّة بمثابة تحفة من مطبخ نابولي، وكان يضاهي الطَّبق الإسبانيَّ «ألَّا بودريدا» الذي يُفاخر الإسبانُ به الأمَمَ؛ (كروتشِهْ).

وجليدٌ يُخدِّرُ؛ ذلك الذي بسببه تبقى الحياة دائماً معلَّقةً، والعقلُ دائماً مضطرباً، والقلبُ دائماً مُترَعاً بالظُّنون.

فنادى الحوريَّة وقال لها: "إنَّني مُكرَهٌ، يا فؤادي، على البقاء ليلتين أو ثلاث ليالٍ بعيداً عن المنزل: الرَّبُّ يعلم بأيِّ ألمٍ أنفصل عنك، أنتِ التي صرتِ روحي؛ وتعلمُ السَّماء إن لم أكن سأخطو آخِر خطوةٍ، قبل حتى أن يبدأ حصاني أوَّلَ الخبب! ولكن، لأنَّني لا أستطيع إلَّا أن أذهب إرضاءً لوالدي، فإنَّني مُرغَمٌ على فراقك. ولكن أتوسَّل إليكِ، باسمِ الحُبِّ الذي تكنِّين لي، أن تدخلي أصيصَكِ ولا تخرجي منه إلى حين عودتي التي ستكون في أقرب وقتٍ ممكن". "سوف أفعل ذلك - قالت الحوريَّة - لأنَّني لا أعرف، ولا أريد، ولا أستطيع الاعتراض على مشيئتك. اذهب إذاً، مع تباشير الصَّباح الأولى، لأنَّني بأكثر السُّبُل استقامةً سوف أبقى طوعَ بنانك. ولكن هلَّا تؤدِّي لي معروفاً: هلَّا تترك خيطاً من الحرير معلَّقاً مع جرسٍ بأعلى شتلةِ الآس، وحين تعود، اسحب الخيط واقرع الجرس، فأخرج أنا على الفور وأقول: - هأنذا!".

فعل الأمير ذلك، وأوصى أحد خُدَّامه: "تعال إلى هنا، تعال إلى هنا يا هذا، افتح أذنيك جيِّداً، وضِّبْ هذا السَّرير كلَّ ليلةٍ، كما لو أنَّني سأنام عليه شخصيَّاً، واسقِ دائماً هذا الأصيص، وتوخَّ الحذر، لأنَّني أحصيتُ الوريقات، فإن وجدتُها نقصَتْ واحدةً، فسوف أقطع لقمة عيشك". وبعد أن قال ذلك، امتطى حصانه ومضى، مثل نعجةٍ تُساقُ إلى المسلخ، ليتقصَّصَ أثرَ خنزيرٍ برِّيٍّ.

في هذه الأثناء، انتبهت سبع نساءِ هوىً، كان الأمير يحتفظ بهنَّ لمتعته، إلى أنَّه أصبح فاتراً، ثمَّ بارداً، في حبِّهنَّ، وأنَّه توقَّف عن العناية بأراضيهنَّ. فبدأت تساورهنَّ الشُّكوك في أنَّه، بسبب مكيدةٍ جديدةٍ، نسيَ عشرتهنَّ القديمة. ومتلهِّفاتٍ لاكتشاف الأرض الجديدة، استدعَين عامل بناءٍ، وأغرينه بالمال ليحفر نفقاً يصل ما بين بيوتهنَّ وغرفة الأمير.

بعد ذلك انسلَّت هؤلاء الفاجرات الشِّرِّيرات فيه، ليرَين إن كانت محظيَّةٌ جديدةٌ، غانيةٌ، قد سلبتهنَّ وظيفتهنَّ وفتنَتْ عنهنَّ زبونهنَّ. ففتَحْن البابَ ولم يجدن أحداً. وحين رأين شتلة الآس الجميلة، قطفت كلُّ واحدةٍ منهنَّ ورقةً منها. ولكنَّ صُغراهنَّ قطفت ورقةً من القمَّة، حيث كان الجرس معلَّقاً، وهذا، ما إن مُسَّ قليلاً، حتى رنَّ، فإذا بالحوريَّة تخرج على الأثر، اعتقاداً منها أنَّه كان الأمير. فما كان من الشِّرِّيرات القبيحات، حالما رأين تلك المخلوقة اللَّطيفة، إلَّا أن أنشبن أظافرهنَّ فوراً في جسدها، وهنَّ يهتفن: "أأنت هي التي تجرُّ إلى طاحونتها مياه آمالنا؟ أأنت هي التي سلبَتْنا الفائض الجميل من نعمة الأمير؟ أأنت هي "المرأة الرَّائعة" التي وضعت يدها على قطعة اللَّحم الطَّريَّة التي تخصُّنا؟ صادفتِ أهلاً ووطِئتِ سهلاً: هيَّا، لقد بلغتِ الخطوةَ الأخيرة! كان من الأفضل لو أنَّ أمَّك لم تنجبك! هيَّا، أيَّتها الجديدةُ الطَّريَّة! لقد جرَتْ رياحُكِ بما لا تشتهي سُفنك! لقد وقعتِ بين أيدينا! لستُ ممَّن وُلدن في تسعة أشهرٍ، إن تركتُكِ تفرِّين!".
وإذْ قالت كلُّ واحدةٍ منهنَّ قولَها، هَوَيْنَ بالهراوة على رأسها، وقطَّعْنَها في الحالِ مائةَ قطعةٍ، أخذَتْ كلُّ واحدةٍ منهنَّ نصيبها منها. وحدها صُغراهنَّ لم ترغب في المشاركة في هذا التَّنكيل، ولمَّا دُعيَتْ من قِبَل أخواتها لحَذْوِ حذوهنَّ، لم تقم سوى بنزع خصلةٍ من شعرها الذَّهبيِّ، ثمَّ تلاشَين في النَّفق نفسِه الذي أتين منه.

في غضون ذلك وصلَ الخادم لتوضيب السَّرير وسقي الأصيص، كما أمره سيِّده، فلمَّا رأى هذه الإبادةَ الشَّنيعة، كاد أن يموت من الرُّعب. عضَّ أصابعَه، ثمَّ جمع بقايا اللَّحم والعظام، وكشط الدِّماء من الأرض، وجعلَ كلَّ تلك الأشياء كومةً في الأصيص نفسِه، وسقاها بالماء، ثمَّ وضَّبَ السَّرير، وأوصدَ الباب، واضعاً المفتاحَ تحته، وولَّى هارباً على جناح السُّرعة من تلك الأرض.

لدى عودته من رحلة الصَّيد، سحب الأمير طرفَ الخيطِ الحريرِ وقرعَ

الجرس. ولكن اقرع ما تشاء، علّكَ تصطاد بعضَ السُّمَّان[1]. اقرع ما تشاء، علَّ الأسقف يمرُّ! كان بإمكانه أن يقرع مراراً وتكراراً دونما جدوى: لقد كانت الحوريَّة غافلة. ذهب إلى غرفة نومه غاضباً، ولأنَّه لم يستطع صبراً ريثما يستدعي الخادم ويبحث عن المفتاح، ركلَ البابَ بقدمه، فانفتح على مصراعيه، وفي الحال هرع إلى الدَّاخل، فتح النَّافذة، وإذْ رأى شتلةَ الآس بلا وريقاتٍ، أخذ يبكي بحرقةٍ، وهو يصرخ ويزعق ويصيح: "يا للوعتي، يا لخيبتي، يا لحزني! من الذي جعلَ من لحيتي مُشاقةً[2]؟ من الذي أعطاني في لعبة "التِّريونفو" هذه الكؤوس؟[3] آه أيُّها الأمير المنكوب، المحطَّم، الغارق! آه يا ريحانتي[4] المنزوعةَ الأوراق، آه يا حوريَّتي المفقودة، آه يا حياتي المعذَّبة، آه يا مسرَّاتي التي ذهبَتْ هباءً، آه يا ملذَّاتي التي أصبحت خَلّاً! ما أنتَ فاعلٌ الآن يا كولا ماركيونّهْ الشَّقيُّ؟[5] ما أنت فاعلٌ، أيُّها التَّعِس؟ هيَّا تخطَّ الآنَ هذا الخندق، تخلَّص من هذه القبضة! أتفقدُ كلَّ نعمةٍ، ولا تنحرُ نفسَك؟ أتفقدُ كلَّ كنوزك، ولا تقطعُ أوردتك؟ أتتخلَّى عنك الحياة، ولا تفقد عقلك؟ أين أنت يا ريحانتي؟ أيُّ روحٍ أشدُّ صلادةً من صخرٍ بركانيٍّ هذه التي دمَّرتْ هذا الأصيص الجميل؟ سحقاً لكِ يا رحلة الصَّيد الملعونة التي انتزعتِ منِّي كلَّ هناء! واحسرتاه، لقد قُضيَ أمري، لقد دُمِّرْتُ، لقد هلكتُ، وخَتَمْتُ أيَّامي! لا يمكنني العيش بعد الآن لأجرِّب هذا النَّوع من الحياة دون حياتيَ الأغلى! سأكون مجبَراً على

---

1) في إشارةٍ إلى الجرس المعلَّق على شِباك صيد السُّمَّان؛ (كروتشهْ).

2) أي "مَن الذي خدعني"، والمُشاقة ما سقط من الشَّعر والكتَّان ونحوهما عند المَشْط؛ (المترجمان).

3) لحظةٌ حرجةٌ في لعبة الورق المسمَّاة «تريونفو Trionfo» أن يحصل اللاَّعب على أوراق «الكُبَّة Coppa» أي «الكأس» حسب تسمية الأصناف الأربعة لورق اللَّعب في نابولي: كُبَّة (كأس أو كوب)، ديناري (نقود أو ليرات)، بستوني (عصا أو هراوة) وسباتي (أزهار أو ورود)؛ (المترجمان).

4) الرَّيحان اسمٌ من أسماء الآس؛ (المترجمان).

5) نيقولا ميلكيورّه، اسم الأمير؛ (كروتشهْ).

مدُّ قدميَّ للمرَّة الأخيرة، فبلا نعمتي سيكون النَّوم عذاباً لي، والأكلُ سُمّاً، واللَّذَّةُ إمساكاً، والحياةُ فاكهةً مُرَّة!".

طفقَ الأميرُ يردِّد هذه وغيرها من الكلمات القادرة على تحريك حتى حجارة الطَّريق شفقةً. وبعد تأوُّهاتٍ طويلةٍ، ودموعٍ مريرةٍ مليئةٍ بالكرب والغضب، لم يُغمض خلالها عينيه لينام، ولا فتح فمه ليأكل، استسلمَ للحزنِ ينهشه، لدرجةٍ أنَّ وجهه الذي كان من قبلُ بحُمرة الإشرنج[1] الشرَّقيِّ، أصبح الآنَ بلون الرَّهج الأصفر[2]، وحمرة شفتيه الورديَّة كفخذ الخنزير أصبحت كالدُّهن الألْخَن. وإذْ رأت الحوريَّة، وكانت قد عادت تنبت من تلك البقايا المكوَّمة في الأصيص، العاشقَ المسكينَ يكافح وينتف شَعره، وقد أصبح ضئيلاً وبائساً بلون إسبانيٍّ مريضٍ[3]، وسحليةٍ دوديَّة[4]، وعصير الكرنب، بلونِ اليرقان، والإجاص، بلونِ إسْتِ هازجةِ البساتين[5]، وضراط الذِّئب، استولت عليها الشَّفقة؛ وبقفزةٍ واحدةٍ خرجت من الأصيص، كشعاعِ شمعةٍ في فانوسٍ كتيمٍ، وتجلَّتْ أمام عينَي كولا ماركيونُهْ وقالت له وهي تضمُّه بين ذراعيها: "هيَّا، هيَّا، يا أميري، كفى! توقَّف عن هذا النُّواح، جفِّف هاتين المقلتين، وانفض عنكَ هذا الغضب، وافردْ قسمات هذا الوجه المشدود! هأنذا حيَّةٌ وجميلة، رغم أنوف أولئك النِّسوة الشِّرِّيرات

1) الرَّصاص الأحمر؛ (المترجمان).

2) معدن ثالث كبريتيد الزِّرنيخ، يوجد متكتِّلاً أو متورِّقاً في عروق الصَّخر ورُسابات الحمَّات وقرب البراكين؛ (المترجمان).

3) كان لون الإسبانيِّ المريض قد أصبح سِمَةً ومثلاً يتردَّد على ألسنة أهل نابولي، حتى إنَّ صباغ نوعٍ من القماش كان يُطلق عليه «لون الإسبانيِّ المريض»؛ (كروتشِهْ).

4) يُطلق الشَّاعر جيوفانِّي بوكَّاتشو (1313-1375)، الذي يبدو أنَّه أخذ هذه التَّسمية من أهل نابولي الذين ما يزالون يستخدمونها إلى اليوم، يُطلق هذه التَّسمية، في «الدِّيكاميرون»، على نساء بيزا، وتعني ضامراتٍ ولونهنَّ يميل إلى الاخضرار؛ (كروتشِهْ).

5) نوعٌ من العصافير، من فصيلة الهوازج، يُقال له أيضاً "الفَرْقَفَنَّة" أو "الكُحَيْحيلة"، وبالإيطاليَّة "ناقرُ التِّين"؛ (المترجمان).

اللّاتي بعد أن حطّمنَ جمجمتي، فعلوا بجسدي ما فعله تايفوس[1] بجسد أخيه المسكين!".

وإذْ رأى الأميرُ آخرَ ما كان يتوقّع حدوثه يحدث أمامه، انبعث من الموت إلى الحياة، وبعد أن استعاد لون خدّيه ودفءَ دمه ودَفْقَ الرُّوح في صدره، وبعد أن داعبها ألف مرّةٍ، ودلّلها، ومازحَها، أراد أن يعرف القصّة بالتّفصيل وما حدث من البداية إلى النّهاية. ولمّا عرف أنّ الخادم لم يكن له أيُّ ذنب فيما جرى، استدعاه وأمر بإقامة مأدبةٍ كبيرةٍ، وتزوّج الحوريّة بمباركةٍ كريمةٍ من والده. وفضلاً عن جميع الشّخصيّات الرّئيسة في المملكة، شاء الأمير أن تحضر الشّرّيرات السّبع اللّاتي ارتكبن مذبحةَ العِجْلَةِ الرّضيعة تلك المأدبةَ، في الصّفّ الأوّل.

وحالما أُتِيَ على كلّ ما على المائدة من طعام، استجوبَ الأمير جميع الضّيوف واحداً تلو الآخر: "ماذا يستحقُّ مَن يؤذي هذه الفتاة الجميلة؟"، مشيراً بإصبعه إلى الحوريّة التي كانت ذات جَمالٍ فاتنٍ يصعق القلوب كالبرق، ويشدُّ النّفوس كمِرْفاعٍ، ويجرُّ الشّهوة كعربة. فأدلى كلُّ الذين كانوا يجلسون على الطّاولة، بدءاً من الملك، بدلوهم، فهذا قال إنّه يستحقُّ المشنقة، وآخرُ إنّه يستحقُّ العجلة، وآخرُ الكُلّابَ، وآخرُ الهاوية. هذا ذكر هذه العقوبة، وذاكَ تلك. وأخيراً أتى الدّور في الكلام على سمكات القُشر[2] السّبع اللّاتي، مع أنّ من أنّ هذه المحادثة لم تعجبهنَّ كثيراً، وكنَّ قد بدأن يحلمن بليلةٍ سيّئةٍ، ولأنّ الحقيقة تكمن دائماً حيث يُجْرَعُ النّبيذ، أجبْنَ: إنّ من يجرؤ على لمس هذه المخلوقة البديعة المكلّلة بفضائل الحُبّ لَيَستحقُّ أن يُدفن حيّاً في المجرور.

1) تايفوس أو تايفون، وحشٌ ذو مائة رأسٍ حسب الأساطير الإغريقيّة، أمُّه غايا وأبوه تارتاروس، حاول تدمير زيوس، ولكنّ هذا الأخير غلبه وحبسه تحت بركان إتنا في صقليّة؛ (المترجمان).

2) تعبيرٌ مجازيٌّ للإشارة إلى شخصٍ قبيح: قبيح من النّاحية الأخلاقيّة هنا. ففمُ سمك القُشر قبيحٌ جدّاً. وعن "بيرونْتو" أيضاً سيقول بازيلِهْ (انظرْ المُسامرة التّالية) إنّ له فمٌ كفمِ سمكةِ القُشر؛ (كروتشِهْ).

وعندَ هذا الحكم الذي نطقَتْ به أفواههنَّ، قال الأمير: "أنتنَّ من أقمْنَ المحاكمة، وأنتنَّ من وقَّعْنَ على صكِّ الحُكم. يبقى أن آمُرَ أنا بتنفيذ حُكمكنَّ، لأنَّكنَّ أنتنَّ اللَّواتي، بقلب نيرونٍ وبقسوة ميديا، صنعتنَّ قرص عجَّةٍ من هذه الرَّأس الصَّغيرة البديعة ومزَّقتنَّ كلحم السُّجُق هذه الأطراف الجميلة. لذلك، هيَّا، ليكن الأمرُ على جناح السُّرعة، لن نضيِّع فليُلْقَ: فليُلْقَى بهنَّ على الفور في مجرى مصرفٍ رئيسٍ يُنهينَ فيه حياتهنَّ البائسة".

بعد أن نُفِّذَ الأمر مباشرةً، زوَّج الأميرُ خادمه بالشَّقيقة الصُّغرى لأولئك الفاسقات، ومنحهما مهراً سخيّاً. وبعد أن وفَّر لوالد شتلةِ الآس ووالدتها كلَّ ما يحتاجانه لعيشٍ رغيدٍ، عاش بسعادةٍ وهناءٍ مع الحوريَّة، وأمَّا بنات الجحيم أولئك، إذْ ختمنَ حياتهنَّ ختاماً مُفجعاً، فقد صدق فيهنَّ مثل الحكماء القدماء:

تمرُّ العنزةُ العرجاء،

إذا لم تجد من يلجمها.

بِيرُونْتُو
المؤانسة الثَّالثة من اليوم الأوَّل

بينما بِيرُونْتُو، المنكودُ الحظِّ، في طريقه إلى الغابة لجمع الحطب، يُسدي معروفاً لثلاثة أشخاص ينامون في الشَّمس، فيلقون عليه سحراً، ولأنَّ ابنة الملك استهزأت به، يرمي عليها لعنةً فتصبح حاملاً منه، كما يحدث في الواقع. وحين يكتشف الملك أنَّه والد الطِّفلين اللَّذين رأيا النُّور، يضعه في برميلٍ خشبيٍّ مع زوجته وطفليهما ويُلقيهم في البحر. ولكن بفضل سحره، يتغلَّب على المخاطر ويتحوَّل إلى شابٍّ وسيمٍ، ويصبح ملكاً.

وأظهرَ الجميعُ أنَّهم شعروا بسرورٍ كبيرٍ للسَّلوى التي وجدها الأميرُ المسكين وللعقاب الذي نزل بالنِّسوة الشِّرِّيرات. ولكن، لمَّا كان على مينيكا أن تواصل سرد الحكايات، فإنَّه سرعان ما وُضع حدٌّ للثَّرثرة، وبدأت هي تروي الواقعةَ التَّالية:

لا يضيعُ عملُ الخير أبداً. مَن يبذر الخير يحصد الثَّواب، ومن يزرع المحبَّة يَجْنِ الرَّحمة: الصَّنيعةُ التي نؤدِّيها إلى نفسٍ كريمةٍ ليست عقيمةً أبداً، بل إنَّها تلدُ العرفانَ وتُنجِبُ الإثابة. ثمَّة أدلَّةٌ مستمرَّةٌ على هذا في التَّجارب البشريَّة، وسوف ترون مثالاً من هذه الأدلَّةِ في الحكاية التي أنا على وشك أن أحكيها لكم.

كان لامرأةٍ فاضلةٍ من كازوريا، تُدعَى تشيتشاريلَّا، ابنٌ يدعى بِيرُونْتُو،

وكان أكثر الخاملين بؤساً وغباءً، وأكثر المخلوقات التي أنجبتها الطَّبيعةُ همجيَّةً. من أجل ذلك كان للأمِّ البائسة قلبٌ أكثر سواداً من مِمْسَحَةِ المطبخ؛ وكانت تلعن كلَّ يومٍ ألفَ مرَّةٍ تلك الرُّكبة[1] التي فتحت البابَ لهذا البوم الغبيِّ الذي لم يكن يصلح حتى لاستخراج إنْفَحَةِ كلب[2]. ولكن كان بإمكان تلك المنحوسة أن تتكلَّمَ، وتصرخَ، وتصيحَ ما شاءت: فذلك العديم الفائدة لم يكن يُعيرها أذناً صاغيةً ولم يكن يكلِّف نفسه عناء القيام بأدنى خدمةٍ لها. وأخيراً، بعد ألف صرخةِ توبيخٍ، وألف تقريعٍ وتأنيبٍ، وألف تَردادٍ لعبارة "أقول لك وقلت لك"، بين صريخٍ حيناً، وزعيقٍ حيناً آخر، أقنعته بالذَّهاب إلى الغابة لجمع حزمةٍ من الحطب، قائلةً له: "لقد حان الوقت لنضع لقمةً في فمنا: أسرع لجمع هذا الحطب، ولا تنسَ نفسك في الطَّريق، وعُدْ حالاً، لأنَّنا نريد أن نطهو أربع حبَّاتٍ من القنَّبيط الأخضر المجرور[3] حتى نستمرَّ في جرِّ هذه الحياة البائسة".

غادرَ بيرونْتُو العديمُ الفائدة، ومضى كمن يمشي وسط إخوة العدالةِ البيضاء[4]، مضى كما لو أنَّه يمشي على البيض، مِشيةً كمشيةِ العقعق[5]، عادّاً خطواته، وهو يقترب رويداً رويداً، وشيئاً فشيئاً، بتثاقلٍ شديدٍ، من الغابة، لكي يدخلها دخولَ الغراب[6]. ولكن ما إن صار وسطَ حقلٍ يجري

---

1) كان يُقال توريةً «خرجَ من الرُّكبة» بدلاً من «وُلِدَ»؛ (كروتشهْ).

2) المقصود، كما يبدو من المعنى، أنَّه لم يكن ينفع لشيءٍ؛ (كروتشهْ). [الإنْفَحَة مادَّةٌ خاصَّةٌ تُستخرَج من الجزء الباطنيِّ من معدة الرَّضيع من العجول أو الجِداء أو نحوهما، بها خميرةٌ تُجبِّنُ اللَّبن؛ (المترجمان)].

3) «القنَّبيط الأخضر المجرور» هي التَّسمية التي تُطلَق على البروكلي المقليِّ بالزَّيت في نابولي؛ (كروتشهْ).

4) أولئك الذين يشرفون على إعدام المحكوم عليهم بالموت، وكان يُطلَق عليهم في نابولي تسمية «أخوة العدالة البيضاء»؛ (كروتشهْ).

5) أي ببطءٍ وتردُّدٍ، فطائر العقعق يمشي بنقلاتٍ صغيرةٍ متمايلاً؛ (كروتشهْ).

6) أي دخول مَن لن يعود منها أبداً، أو مَن سيعود منها متأخِّراً؛ (المترجمان).

فيه نهرٌ مغمغماً ومهمهماً لقلّة تهذيب الحجارة التي تعرقل طريقه، حتى وقعت عيناه على ثلاثة فتيةٍ يفترشون العشب ويتوسّدون الصَّوّان، نائمين مثل حيواناتٍ منحورةٍ تحت لظى الشّمس العموديَّة المستعرة. فلمّا رأى بيرونْتّو هؤلاء المساكين ينضحون عرقاً كنافورةِ ماءٍ في قلبِ تنُّورٍ مشتعل، أخذَتْه بهم رأفةٌ، فقطع بفأسه بعض الأغصان من شجرة بلُّوطٍ، وضفرَ بها تعريشةً جميلةً فوقهم. في تلك الأثناء، استفاق الفتية الثَّلاثة الذين كانوا أبناء حوريَّةٍ من الحوريَّات، وإذْ رأوا ممتنِّين مدى طيبةِ بيرونْتّو ومحبَّته، ألقوا عليه سحراً يمكِّنه من الحصول دائماً على أيِّ شيءٍ تشتهيه نفسُه.

بعد ذلك، تابع بيرونْتّو طريقه نحو الغابة، وهناك جمع حزمةً هائلةً من الحطب كانت تحتاج عربةً لنقلها، وحين أيقن أنَّ من المستحيل أن يحملها على ظهره، جلس منفرج السَّاقين، وقال: "آه يا إلهي، لو أنَّ هذه الحزمة تحملني وتعدو بي كحصان!". وهكذا كان، كحصانٍ أصيلٍ من أحصنة بيسينيانو[1]، بدأت الحزمة تخبُّ وتعدو، ولدى وصولها إلى أمام قصر الملك، راحت تدور وتقفز في حركاتٍ مذهلة.

حين رأت وصيفات الشَّرف، اللَّاتي كنَّ على النَّافذة، هذا الشَّيءَ الرَّائعَ، ركضن لاستدعاء فاستولّا، ابنةِ الملك. أطلّت هذه من النَّافذة، وإذْ رأت دورات وقفزات الحزمة، انفجرت ضاحكةً في وقتٍ لم يعُد أحدٌ فيه يذكرُ، بحُكم طبيعتها الكئيبة، متى كانت آخر مرَّةٍ ضحكَتْ فيها.

رفع بيرونْتّو رأسه، وإذْ فطن إلى أنّهنَّ كنَّ يسخرن منه، قال: "هيَّا يا فاستولّا، فلتصبحي حاملاً من جذعيَ هذا!". وبعد أن قال ذلك، نخسَ الحزمةَ بحذائه، وبعَدْوِ فرسٍ عربيَّةٍ وصلَ على الفور إلى منزله، يتعقَّبه عددٌ كبيرٌ من الأطفال، وكلُّهم يصيحون ويهزؤون به، ولو أنَّ والدته لم تسرع في غلق الباب، لكانوا قتلوه حتماً برشقاتِ الكبَّادِ والنَّوى.

---

1) سلالةٌ من الأحصنة استولدتها عائلة سانسِفِرينو في بلدة بيسينيانو، وأصبحت مشهورةً وعظيمة الشّأن في كلّ أوروبّا؛ (المترجمان).

ولكن حين أحسَّتْ فاستولّا في البدايةِ انقطاعَ دورتها الشَّهريَّة، وبدأت تشعر بعد ذلك بالغثيان وإعياءٍ في القلب، أدركت أنَّها أكلت العجينة[1]. ففعلت كلَّ ما في وسعها لإخفاء حملها؛ ولكن، في النِّهاية، لم يعُد بإمكانها إخفاء بطنها الذي انتفخ مقدارَ وَيْبَة[2] كاملة، فاكتشف والدُها الملك، هو الآخر، حقيقةَ ما جرى، وقام بفعل أشياء من العالم الآخر، ثمَّ جمع مجلسه وقال: "لقد بتُّم تعرفون الآن أنَّ قمرَ شرفي قد ركَّبَتْ لي قروناً؛ بتُّم تعرفون أنَّ ابنتي قد أمدَّتني، لأجل تدوين وقائعِ عاري، أو بالأحرى هزليَّاته، بالمادَّة اللَّازمة للدَّواة[3]؛ وبتُّم تعرفون أنَّها، لكي تُثقِلَ جبيني[4]، قد أثقلَتْ بطنَها. لذا، انطقوا الآن، قدِّموا ليَ المشورة! سألتقي في الرَّأي مع القائل بجعلها تُخرِجُ روحها قبل أن تُخرِجَ نسلاً عفِناً؛ سألتقي في المزاج مع القائل بجعلها تشعر بآلام الموت قبل آلام الولادة؛ سألتقي في الهوى مع القائل بجعلها تخرج أوَّلاً من العالم، قبل أن يخرج منها برعمٌ أو بذار".

فأجاب المستشارون، وكانوا جميعاً ممَّن استهلكوا زيتاً أكثر ممَّا استهلكوا نبيذاً، قائلين: "حقّاً، إنَّها تستحقُّ عقاباً كبيراً؛ والقرن الذي وضعَتْه على جبينك، يجب أن يُصنع منه مقبض المُدية التي ستُنهي حياتها. ولكن لا، إذا قتلناها الآن وهي حُبلى، فإنَّ ذلك الأرعن سوف ينسلُّ من قميص الزَّرد المكسور، وهو الذي، لكي يزجَّ بك في معركةِ القرازة هذه، سلَّحكَ بالقرن الأيمن والقرن الأيسر؛ ولكي يلقِّنك سياسة

1) العجينة السَّامَّة، كتلك التي كانت تُعطى للفئران وبعض الحيوانات الأخرى؛ (كروتشِهْ).

2) الوَيبة مكيالٌ قديمٌ من مكاييل الحبوب يختلف بحسب البلدان. كان يساوي في مصر 16 قدحاً، أي ما يعادل 32 ليتراً على وجه التَّقريب، وفي صِقِلِّيَة 27.5 لتراً، وفي نابولي 55.5 لتراً؛ (المترجمان).

3) كانت الدَّوَيات تُصنع من القرون آنذاك؛ (كروتشِهْ).

4) يقصد إثقال جبينه بالقرون؛ (المترجمان).

تيبيريوس[1]، وضعكَ أمام كورنيليوس تاسيتوس[2]؛ ولكي يُريك في منامك الشَّكل الحقيقيَّ للعار، جعله يخرج لك من البوَّابة القرنيَّة[3]. فلننتظر إذاً أن تؤتي الولادة ثمارها، ونكتشف حينذاك جَذْرَ هذه المخزاة، وبعد ذلك نفكِّر ونقرِّر، بحبَّة ملحٍ، ما نحن فاعلون معها".

رحَّب الملك بهذه المشورة، إذْ رأى أنَّهم كانوا يتكلَّمون بمنطقٍ وحكمةٍ، فأمسك عن الأمر وخلص إلى القول: "فلننتظر مآل هذا الخطب".

وكما شاءت السَّماء، أزفت ساعة الولادة، وبعد أن مَخِضَتْ أربعَ طلقاتٍ خِفافٍ لِطاف، وعند أوَّل نفخةٍ في فم الحوجلة[4]، وأوَّل كلمةٍ لفظتها القابلة، وأوَّل تقلُّصٍ في بطنها، ألقت فاستولاً في حضن امرأةٍ أخرى ذكرَين مكتنزَين، أشبه بتفَّاحتين ذهبيَّتَين.

دعا الملك الذي كان هو أيضاً حَبِلاً، ولكن بالغضب لا بالولَد، دعا مستشاريه لكي يضعَ بدوره حِمْلَه، وقال: "ها قد وضعَت ابنتي: فالآن حان الوقت لإنزال الضَّربة بها". "كلَّا (أجاب أولئك الشُّيوخ الحكماء، وكانوا يبحثون دائماً عن ذريعةٍ لتحيُّن اللَّحظة المناسبة): كلَّا، دعونا ننتظر أن يكبر الطِّفلان لنكون قادرين على تمييز قسمات والدهما من قسماتهما". فما كان من الملك الذي كان لا يسطر سطراً واحداً من دون مسطرةِ المجلس، مخافةَ أن يسطرَ عِوَجاً، إلَّا أن هزَّ كتفيه، وتحلَّى بالصَّبر، وانتظر.

---

1) تيبريوس يوليوس أوغسطس (42 – 37 ق.م)، الإمبراطور الرُّومانيُّ الثَّاني، وكان ابناً لأوغسطس بالتَّبني وصهراً؛ (المترجمان).

2) بوبليو غايوس كورنيليوس تاسيتوس (120 – 55 ق.م)، مؤرِّخٌ وسناتورٌ رومانيٌّ. أهمُّ ما تبقَّى من كتاباته: "الحوليَّات"، و"التَّواريخ"، اللَّذان يعدَّان من أعظم أعماله التَّاريخيَّة؛ (المترجمان).

3) إحدى بوَّابات النَّوم في الأدب اللَّاتينيِّ. تحدَّث عنها فرجيل في الإنياذة، وهي نوعان، البوَّابات العاجيَّة ومنها تخرج الأحلام الزَّائفة، والبوَّابات القرنيَّة ومنها تخرج الأحلام الصَّادقة؛ (المترجمان).

4) كان من الشَّائع عند النِّساء حين كان يجيئهنَّ الطَّلق أن ينفخن بقوَّةٍ داخل حوجلة، الأمر الذي كان يساعدهنَّ على الولادة؛ (كروتشِه).

وحين صار الطِّفلان في سنِّ السَّابعة، حثَّ الملك مرَّةً أخرى أعضاءَ المجلس على الهُويِّ بالفأس على الجذع وضربِ النُّقطة الصَّحيحة التي بها يتَّصل المرتكَز، فحذَّره أحدهم قائلاً: "بما أنَّك لم تتمكَّن من استنطاق ابنتك وحملِها على البوح بعظَمة لسانها بهويَّة ذلك المزيِّف الذي تلاعب بالتَّاج في صورتك، فسوف نقوم نحن بإزالة هذه الوصمة. لذلك، ليتك تأمر بإقامة مأدبةٍ كبيرةٍ، مأدبةٍ يجب أن يحضرها كلُّ رجلٍ نبيلٍ وحاملٍ لألقاب الشَّرف في هذه المدينة، وسنُبقي نحن أعيننا يقظةً على لوح التَّقطيع[1]، لنرى إلى من سيميل الطِّفلان بتوقٍ أكبر، مدفوعَين بحُكم الطَّبيعة، لأنَّ ذلك سيكون بالتَّأكيد والدهما، وحينئذٍ سنزيله على الفور مثل روث العقعق".

بعث هذا الرَّأيُ السُّرورَ في نفسِ الملك. فصدَرَ الأمرُ بإقامة المأدبة، ودُعيَ كلُّ أصحاب المكانة والشَّأن، وبعد الغداء، نُظِموا في صفٍّ واحدٍ، واقتيدَ الطِّفلان ليمرَّا أمامهم. ولكنَّ هذين لم يعيراهم من الاهتمام أكثر ممَّا كان كلبُ الإسكندر يعيرُ الأرانبَ[2]، لدرجة أنَّ الملك اغتاظ غيظاً شديداً وبدأ يعضُّ شفتيه، ومع أنَّ من المؤكَّد أنَّه لم يكن يُعوِزُه الحذاء[3]، فإنَّ هذا الحذاء الضَّيِّق كان مؤلماً، فكان يخبط الأرض بقدميه. ولكنَّ المستشارين قالوا له: "اهدأ يا جلالة الملك، اكبحْ غضبَك: دعونا نقيم وليمةً أخرى غداً، لا يُدعَى إليها أصحاب المقامات الرَّفيعة، وإنَّما أبناء الطَّبقة الدُّنيا فحسب. فلأنَّ الأنثى تختار دائماً الأسوأ، لعلَّنا عاثرون بين صُنَّاع السَّكاكين، والباعة المتجوِّلين، وتجَّار الأمشاط، على بذرةِ غضبك التي لم نعثر عليها بين النُّبلاء".

---

1) ليستيقنوا أنَّ لا قطط أو كلاب ستخطف شيئاً من اللَّحم؛ (المترجمان).

2) يذكر بلينيوس في مؤلَّفه "التَّاريخ الطَّبيعي" أنَّ الرَّجل الذي وهب هذا الكلب، وكان آخر كلاب سلالته، للإسكندر الأكبر، قد حذَّره بأنَّ هذا الكلب لا يقاتل إلَّا الحيوانات التي تضاهيه في قوَّته كالفيلة والأسود؛ (المترجمان).

3) تعبيرٌ ضمنيٌّ عن "القرن"؛ (كروتشه).

أقنعَتْ هذه الذَّريعةُ الملك، فأمر بإقامة مأدبةٍ ثانيةٍ حضرها بإشهارٍ ملكيٍّ كلُّ البُلَهاء، والرُّعر، والمتشرِّدين، والأوغاد، والأوباش، والأولاد، وقُطّاع الطُّرُق، والعتّالين، والمحطوطيِّ القَدْر، ولصوص الأموات[1]، وكلُّ من وضعَ مئزراً وانتعلَ قبقاباً في المدينة. وما إن جلس هؤلاء، كما لو كانوا من النُّبَلاء، إلى مائدةٍ طويلةٍ طويلة، حتى بدأوا يطحنون الطَّعام بفكوك كحجَر الرَّحى. وكانت تشيتشاريلّا التي تناهى إلى سمعها النِّداء، تحثُّ في تلك الأثناء ابنها على الذَّهاب هو أيضاً إلى المأدبة، وظلَّت تُلحف في السُّؤال حتى انطلق بيرونْتُّو لينضمَّ إلى رهط الماضغين. ولكن بمجرَّد ظهوره، تعلَّق ذانك الطِّفلان الوسيمان به وجعلا يداعبانه ويلاطفانه بطريقةٍ تفوق الوصف.

وحين رأى الملك هذا المشهد، نتف شَعْرَ لحيته كلَّه، إذ اكتشف أن حبَّة فاصولياء هذه الفطيرة[2]، والرَّقمَ الرّابحَ في هذا السَّحب، قد ذهبا إلى رجلٍ أخرقَ وقبيحٍ يثيرُ القرفَ والاشمئزازَ لمجرَّد النَّظر إليه. فهذا، فضلاً عن امتلاكه رأساً أشعثَ الشَّعر، كانت له أيضاً عينان كعينَيِّ البومة، وأنفٌ كمنقار الببَّغاء، وفمٌ كفمِ سمكةِ القُشْر، وكان حافي القدمين ورثَّ الثِّياب لدرجة أنَّ المرء كان بإمكانه، من دون الاطِّلاع على كتابات فيورافانتي، أن يحيط علماً بكلِّ أسراره[3]، وبعد تنهيدةٍ مِلْؤها الألم، هتف الملك: "أيُّ ذوقٍ هذا الذي يمكن أن يكون قد حدا بابنتي الفاحشة إلى الافتتان بهذا الغول البحريِّ؟ أيُّ ذوقٍ هذا الذي حثَّها على الهروب مع هذا القَدَمِ

1) اسم كان يطلق على بائعي الأسمال والخِرَق والألبسة المستعملة؛ (كروتشِهْ).

2) كان دارجاً في عيد الغطّاس أن توضع حبَّة فاصولياء في فطيرة العيد، ومَن يعثر عليها يُحتفَى به بوصفه "ملِك الفاصولياء". ما يزال هذا التَّقليد مُتَّبعاً في العديد من دول القارَّة الأوروبيَّة؛ (كروتشِهْ).

3) أي أن يرى من خلال الخِرَق أجزاء جسمه السِّرِّيَّة؛ وليوناردو فيورافانتي طبيبٌ دجَّالٌ بولونيٌّ [نسبةً إلى مدينة بولونيا الإيطاليَّة] من القرن السَّادس عشر، له، من بين مؤلَّفاتٍ أخرى، «أسرارٌ طبِّيَّة» (البندقيَّة 1561)، و«مجموعةٌ من الأسرار العقلانيَّة حول الطِّبِّ، الجراحة والخيمياء» (البندقيَّة 1564)؛ (كروتشِهْ).

المُشْعِر؟ آه أيّتها الابنة المُخزية والعمياء والزّائفة، أيُّ تحوُّلاتٍ هذه؟ أن تصبحي بقرةً من أجل خنزير، لكي أتحوَّل أنا إلى ضأنٍ! ولكن ما الذي ننتظره؟ علامَ التّسويف؟ فلتَنَلِ العقابَ الذي تستحقّ، فلتَنَلِ القصاص الذي ستحدّدونه أنتم، ولتُبعدوها عنّي، لأنّني لم أعد قادراً على تحمُّلها!".

ثمَّ اجتمع أعضاء المجلس للنّظر في القضيّة، وخلصوا إلى القول إنّها هي والجاني والطّفلَين يجب أن يُحشَروا في برميلٍ خشبيٍّ ويُلقَى بهم في البحر، إلى أن يعثروا على مُسْتَقَرٍّ يعيشون فيه، دون أن يُلَوِّثَ الملك يديه بدمائهم. وما إن نُطِقَ بالحكم الجائر حتى كان البرميل جاهزاً، فوُضع فيه الأربعة، ولكن قبل أن يُسَمَّر الغطاء، قامت بضع وصيفات شرفٍ من وصيفات فاستولّا بوضع شيءٍ من الزّبيب والتّين المجفّف داخل البرميل لكي يتمكّن أولئك المساكين من البقاء على قيد الحياة لأمدٍ من الوقت. ثمَّ أُغلِق البرميل وحُمِلَ بمن فيه وأُلقيَ به في البحر، فأخذ يطفو ويعوم مُتَّبِعاً مسالك الرّيح.

في أثناء ذلك الشّقاء، وبينما فاستولّا مسترسلةٌ في البكاء ومن عينيها يجري نهران من الدُّموع، قالت لبيروُنتّو: "أيّة نائبةٍ عظيمةٍ هذه أنْ يكون مدفننا مهد باخوس! أوه، ليتني أعرف على الأقلّ من الذي عبث بجسدي ليجعله ينتهي في خاتمةِ المطاف داخل دنٍّ كبير! يا لوعتي! أجدُ أنَّ حياتي اغتُصِبَتْ من دون أن أعرف كيف! قل لي، قل لي، أيُّها الوحشُ، أيَّ سِحرٍ فعلتَ، وبأيِّ عصاً سحريّةٍ، لكي أُسْجَنَ داخل حلقات هذا البرميل؟ قل لي، قل لي، أيُّ شيطانٍ كان ذاك الذي أغواك لتضعَ فيَّ أنبوباً غير مرئيٍّ، فلا يكون لي من بعدُ كوّةٌ سوى هذه الفُتحةِ السّوداء؟".

وأخيراً أجاب بيروُنتّو الذي بقي طوال الوقت يُصغي بأذُنَيْ تاجرٍ: "إن كنتِ تريدين منّي أن أخبركِ، أعطيني زبيباً وتيناً". ولكي تحصل منه فاستولّا على شيءٍ ما، وضعت في فمه حفنةً من هذا وحفنةً من ذاك. وما إن امتلأ حلقومُه حتى بدأ يخبرها، نقطةً بنقطةٍ، كلَّ ما حدث له مع الفِتيةِ

الثّلاثة، ثمّ مع الحزمة، وأخيراً معها عند النّافذة، حين عاملته كمهرّجٍ كبير البطن، فجعل هو بطنها يكبرُ في المقابل.

حين سمعت الفتاة المسكينة هذا، تشجّعت وقالت لبِيروُنتّو: "وهل تريد يا أخي أن نموت داخل هذا البرميل؟ لماذا لا تجعل هذا الخشب يتحوّل بطريقةٍ ما إلى سفينةٍ جميلةٍ تولّي بنا من التّهلكة وتحملنا إلى ميناءٍ آمن؟". فأجاب بِيروُنتّو: "أعطيني زبيباً وتيناً، إنْ كنتِ تريدينني أن أتكلّم!". فملأت فاستولّا فمه على الفور، ومثل صيّادة الكرنفال[1]، كانت تصطادُ منه بالزّبيب والتّين المجفّف كلماتٍ طازجةً للغاية.

وهكذا، ما إن نطق بِيروُنتّو بما كانت فاستولّا ترغب فيه، حتى تحوّل البرميل إلى سفينةٍ كاملةٍ، مع جميع الوسائل اللّازمة للإبحار، وجميع البحّارة اللّازمين للخدمة. فكنتَ ترى من يسحب حبال الأشرعة، ومن يلفّ حبال الصّواري، ومن يضع يده على الدّفّة، ومن يرفع المرساة، ومن يصعد إلى منصّة المراقبة، ومن يصرخ "مع اتّجاه الرّيح"، ومن يزعق "بعكس اتّجاه الرّيح"، ومن ينفخ في البوق، ومن يُلَقّمُ الموقد، ومن يفعل هذا ومن يفعل ذاك. وآنذاك كانت فاستولّا داخل السّفينة تسبح في بحرٍ من العذوبة. ولكن، لمّا كان الوقتُ الذي يحبُّ فيه القمر أن يلعب مع الشّمس لعبةَ "مكانٌ تركتَه، مكانٌ فقدتَه"[2] قد حان، فإنّها قالت لبِيروُنتّو: "يا فتاي الوسيم، هلّا تجعل من هذه السّفينة قصراً جميلاً نكون فيه أكثر أمناً واطمئناناً. أتعلم ماذا يقولون عادةً؟ امدح البحرَ وابق على البرّ". وكالمعتاد، كان جواب بِيروُنتّو: "إن كنتِ تريدينني أن أتكلّم، أعطيني زبيباً وتيناً!". وناولته فاستولّا في الحال ما أراد، فطلب هو، بعد أن حشا حلقه، ذلك

---

1) امرأةٌ متنكّرةٌ في هيئة صيّادة سمك، تقوم في أثناء الكرنفال برمي صنّارة صيدٍ عُلّقت في خطّافها قطعة حلوى، مؤدّيةً الكثير من الألعاب؛ (كروتشِهْ).

2) ترنيمةٌ يترنّم بها الأطفال في أثناء لعبهم هذه اللّعبة، وذلك بشكلٍ عامٍّ حين يحتلّ أحدهم المكان الذي تركه طفلٌ آخر فارغاً، فيعود الآخر ويجده مشغولاً؛ (كروتشِهْ).

المعروف. وفي الحال، ألقت السَّفينة مرساتها، وتحوَّلت إلى قصرٍ جميلٍ، مفروشٍ بالكامل، ومليءٍ بكلِّ مظاهر البذخ والتَّرف، حتى إنَّ المرء لم يكن يشتهي شيئاً ولا يجده فيه.

وهكذا فإنَّ فاستولّا، التي كانت من قبلُ مستعدَّةً لإعطاء حياتها مقابل ثلاثة قروش، أصبحت الآن، وهي ترى نفسها تُعامل وتُخدم كملكةٍ، غيرَ مستعدَّةٍ لمبادلتها بحياة السَّيِّدة الأولى في العالم. ولكنَّها، على سبيل وضع الخَتم فحسب على كلِّ هذه الثَّروة، رجت بيرونْتّو أن يطلب نعمةَ أن يصبح جميلاً ونظيفاً، لأنَّهما قد يتزوَّجان؛ فعلى الرَّغم من أنَّ المثل يقول: "زوجٌ شحَّاذٌ أفضل من خليلِ إمبراطورٍ"، على الرَّغم من ذلك، فإنَّه لو يغيِّر مظهره، لكان ذلك بالنِّسبة إليها مبعثاً لأعظم سعادةٍ في العالم. أجاب بيرونْتّو مُمْلياً الشَّرطَ نفسَه: "أعطيني زبيباً وتيناً، إن كنت تريدينني أن أتكلَّم". وعلى جناح السُّرعة، عالجت فاستولّا، متأهِّبةً للأمر، عقمَ كلماته بدواء التِّين[1]، فأفصح في الحال عن رغبته، وخلال لحظةٍ تحوَّل من طائرٍ قبيحٍ إلى حسُّونٍ، ومن غولٍ إلى نرسيسٍ، ومن قناعٍ بشِعٍ إلى دُميةٍ بديعة. فصعدت فاستولّا إلى السَّماء السَّابعة من شدَّة الفرح، وإذْ كانت تضمُّه بين ذراعيها، كانت تعتصر منه عصيرَ النَّشوة.

في الوقت نفسِه، كان الملك الذي عانى الأمرَّين منذ حلَّ ذلك الخراب في منزله قد ملَّ من ترداد عبارةِ "اتركوني وشأني"، فترك رجال حاشيته يقودونه في رحلة صيدٍ طلباً للتَّرفيه. ولكنَّ المطاردة أوصلتهم بعيداً، وبعد أن داهمهم الظَّلام، رأى مصباحاً يتألَّق من نافذة ذلك القصر، فبعث أحد خدمه ليرى إن كانوا يرغبون في إيوائه، وكان الجواب الذي حصل عليه أنَّه لا يمكنه أن يكسر كأساً فحسب، بل يمكنه أن يكسر مِبْوَلَةً أيضاً[2].

1) حبّات تينٍ صغيرةٌ وطريّةٌ، كانت المومسات يستعملنها كلَبُوسٍ؛ (كروتشِهْ).

2) أي أنّه لن يجد هناك العشاء فحسب، بل يمكنه أن ينام أيضاً؛ (كروتشِهْ).

ذهب الملك إلى هناك، وفي أثناء تجواله في القاعات لم تقع عيناه على أيِّ شخصٍ حيٍّ، عدا صبيَّين اثنين، جعلا يدوران حوله، مردِّدَين: "جَدِّي! جَدِّي!". مشدوهاً ومذهولاً ومبهوتاً، جمدَ في مكانه كالمسحور، وحين جلس مُتعَباً إلى إحدى الطَّاولات، رأى مفارشَ من الكتَّان الفلندريِّ[1] تمُدُّ من قِبَل يدٍ غير مرئيَّةٍ، وأطباقاً من هذا الصِّنف ومن ذاك رائحةً وغاديةً، لدرجة أنَّه أكل وشرب كما يليق بملكٍ حقّاً، مخدوماً من قِبل ذينك الصَّبيَّين الوسيمين دونما توقُّف، وبينما هو جالسٌ على الطاولة، كانت موسيقى الطَّنابير[2] والدُّفوف تنزل فيه عذبةً من رأسه حتى أصغر مُثنيَات قدميه. وحين انتهى العشاء، ظهر سريرٌ طافحٌ برغوةٍ ذهبيَّةٍ، فنزع حذاءه وألقى بنفسه عليه لكي يستريح، وحذا حذوَه رجال حاشيته قاطبةً، بعد أن التهموا ما طاب لهم من طعامٍ على مِائةِ مائدةٍ أخرى أُعِدَّت ومُدَّت في القاعات الأخرى.

وحين انبلجَ الصُّبح، واعتزمَ الملكُ الرَّحيل، أراد أن يأخذ الصَّبيَّين اليافعين معه، ولكن هنا ظهرت فاستولّا مع زوجها وألقت بنفسها عند قدميه، وطلبت منه المغفرة وهي تروي له عن كلِّ ما ركبته من الأهوال. فما كان من الملك الذي رأى أنَّه حصل على حفيدين بديعَين مثل جوهرتين، وعلى صهرٍ وسيمٍ مثل حوريٍّ، إلَّا أن احتضنهم جميعاً ونقلهم إلى المدينة، وأقام احتفالاتٍ ضخمةً استمرَّت عدَّة أيَّامٍ معترفاً رغماً عن أنفه أنَّ:

الإنسان يقترح، ولكنَّ الرَّبَّ يتصرَّف.

---

1) نسبةً إلى منطقة فلاندرز بين فرنسا وبلجيكا التي اشتُهرت لإنتاجها أفضل أنواع الكتَّان؛ (المترجمان).

2) الطُّنبور آلةٌ موسيقيَّةٌ تشبه البُزُق؛ (المترجمان).

فارديِنُّو
المؤانسة الرَّابعة من اليوم الأوَّل

بعد أن قدَّمَ فارديِنُّو، وهو شخصٌ أحمق تماماً، إلى أمِّه مِائةَ خدمةٍ سيِّئةٍ من خدماته، يَفقدُ قطعةَ قماشٍ ثمينةَ من أقمشتها، وحين يحاول استرجاعها بطريقةٍ غبيَّةٍ من أحد التَّماثيل، يصبح غنيَّاً.

حين انتهت مينيكا من سرد حكايتها التي حُكِم عليها بأنَّها لم تكن أقلَّ روعةً من الأخريات، لِما تضمَّنَتْه من أحداثٍ غريبةٍ أخذَتْ بقلوب السَّامعين حتى النِّهاية، تولَّت الكلمة، بأمرٍ من الأمير، توَلَّا التي دون أن تضيِّع وقتاً شرعَتْ تقول:

لو أنَّ الطَّبيعة فرضَتْ على الحيوانات الحاجةَ إلى ارتداءِ الملابس والإنفاقِ على الطَّعام، لكانت أجناسُ القوائمِ الأربع هذه قد انقرضَتْ حتماً. ولكنَّها تجد الطَّعام جاهزاً دون زارعٍ يحصدُه، أو طاهٍ يُعدُّه، أو مُضيفٍ يقسِّم ما فيه من أنصبةِ اللُّحوم، كما أنَّها تجد في جلودها نفسِها وقاءً لها من المطر ومن الثُّلوج، دون أن تحتاج إلى تاجرٍ يوفِّر لها الأقمشة، أو إلى خيَّاطٍ يَخِيطُ لها الأثواب، أو إلى نادلٍ يسألها البقشيش. أمَّا الإنسان، ذلك المخلوق الذي يملك موهبة العقل، فلم تحرص الطَّبيعة على التَّفضُّل عليه برفاهيةٍ من هذا القبيل، لأنَّه يعرف كيف يحصل بنفسه على ما يحتاج إليه. وهذا هو الأمر الذي بسببه عادةً ما نرى الحكماء يفتقرون إلى الثَّروة، والهمج يكنزون مخزوناً عظيماً منها، كما يمكنكم أن تستخلصوا من الحكاية التي أنا على وشك أن أحكيها لكم.

كانت غرانُونيا دابْرانو امرأةً حكيمةً جدًّا، ولكن كان لديها ابنٌ يُدعَى فاردِينْلُو، ليس له شبيهٌ في الغباء والسَّذاجة في ذلك البلد. ومع ذلك، لمَّا كانت عينا الأمِّ مسحورتَين وتريان ما وراء الحجاب، فإنَّ حُبّاً لا مُتناهياً كانت تُكِنُّه له، وكانت تؤويه وتتباهى به كما لو كان أجمل مخلوقٍ في العالم.

كانت لدى غرانُونيا هذه دجاجةٌ، وكانت تأمل الحصولَ منها على دفعةٍ جيِّدةٍ من الصِّيصان تجني ربحاً وفيراً من ورائها. وفي أحد الأيَّام، اضطُرَّت إلى الابتعاد عن المنزل لقضاء أمرٍ ما، فقالت لابنها: "يا بنيَّ الوسيم، يا أثيرَ أمِّك، تعال إلى هنا وأصغ إليَّ: أبقِ عينيك على هذه الدَّجاجة، فإذا نهضَتْ لتنقر الحَبَّ، احرص على أن تعيدها إلى خُمِّها، وإلَّا فإنَّ البيض سوف يبردُ ولن تحصل أنت لا على الكتاكيت ولا على الكتكتات". "دعي الأمر لهذا الرَّجل، - أجاب فاردِينْلُو، - لأنَّك لم تحدِّثي أصمَّ". "هناك شيءٌ آخر - أضافت الأمُّ، - انظر أيُّها الابن المبارك، ثمَّة إناءٌ ملوَّنٌ داخل تلك الخزانة يحتوي على بعض الموادِّ السَّامَّة، حذار من أن تسوِّل لك نفسُك الغاويةُ لَمْسَه، لأنَّك ستمدِّد رجليك لآخر مرَّةٍ إن فعلت!". "معاذَ الله! - أجاب فاردِينْلُو: - لن يمسَّني السُّمُّ أبداً! وإنَّكِ لداهيةٌ برأسِ مجنونٍ لأنَّك حذَّرتِني، فهذا كان يمكن أن يحدث لي حقًّا، وما مِن حسكةٍ ولا غضروفٍ كانا ليَحُولا حينئذٍ دون نزوله إلى معدتي».

وحالما أدارت الأمُّ ظهرها، بقي فاردِينْلُو بمفرده، ولكيلا يضيِّع وقتاً، ذهب إلى الحديقة لحفر بعض الخنادق الصَّغيرة وتغطيتها بالأغصان والتُّراب لكي يقع الأطفال فيها. وبينما هو منكبٌّ كُلِّيَّةً على عمله، انتبه إلى أنَّ الدَّجاجة كانت قد خرجت تتجوَّل خارج خُمِّها، فصرخ على الفور: "هيَّا، هيَّا، - اذهبي من هنا، عودي إلى هناك!". ولكنَّها لم تنكص على عقبيها، وحين أيقن فاردِينْلُو أنَّ لدى تلك الدَّجاجة شيئاً من عناد الحمير، وأنَّ نداءاته لا تجدي نفعاً، جعل يخبط بقدميه، وبعد خبط القدمين،

رماها بقبّعته، وبعد القبّعة، رماها بمرقاق العجين، فأصابها في منتصفها، وأوقعَها صريعةً، متصلّبةَ السّاقَين.

كانت المصيبة قد حلّت الآن، وراح فارديبِلّو يفكّر في علاج الأضرار: فلكيلا يبرد البيض، جعل من الضّرورة فضيلةً، فخلع سرواله على الفور وجلس على الحَضنة التي لم تتحمّل ضغط عَجُزه فتحوّلت إلى عُجّة. وإذْ رأى أنّه زاد الطّين بلّةً، أوشك أن يطرق رأسه بالجدران. ولكن، في النّهاية، لمّا كان كلُّ ألمٍ يعود مضاعَفاً، ولأنّه كان يشعر بالجوع، فقد عقد العزم على التهام الدّجاجة. وهكذا، بعد أن نتف ريشها، غرزها في سيخٍ، وأشعل ناراً كبيرةً، وبدأ يشويها. وحين رأى أنّها على وشك أن تنضجَ، ولكي يكون كلُّ شيءٍ جاهزاً في الوقت المناسب، مدَّ مُلاءةً جميلةً من البياضات على صندوقٍ قديمٍ، ثمّ تناول إبريقاً ونزل إلى القبو ليبزلَ دنّاً من النّبيذ. ولكن بينما هو منهمكٌ في سكب النّبيذ، سمع ضجيجاً، وجلبةً، وجلجلةً في أرجاء المنزل الذي بدا وكأنّه ممرُّ خيولٍ مدرّعة؛ ومذعوراً تماماً، أدار عينيه، فرأى هرّاً ضخماً وقد أمسك بالدّجاجة مع السّيخ بكامله، وهرّاً آخر يطارده لينال حصّته. وكيما يتلافى فارديبِلّو هذه المصيبة، اندفع كأسدٍ جامحٍ على الهرّ؛ ولتسرُّعه، ترك الدّنّ مفتوحاً. وبعد أن لعب "اركض خلفي" في جميع زوايا المنزل، استعاد الدّجاجة، ولكن في هذه الأثناء، كان النّبيذ كلّه قد ذهب هدراً على الأرض. وحين عاد إلى القبو ورأى الفوضى العارمة التي تسبّب بها، أراقَ هو أيضاً دَنَّ روحه من حنفيَّتي عينيه. ولكن، لمّا كانت بصيرته عوناً له في كلّ شيءٍ، فإنّه استعان بها لإصلاح ما أفسدَتْ يداه وللتّيقُّن من أنّ أمّه لن تلاحظ الكثير من الخراب، فتناول كيساً كاملاً وطافحاً من الدّقيق، وذَهَبَ ونثره على الأرض الرّطبة.

مع كلّ هذا، بعدما عدّ على أصابعه الكوارث التي وقعت، ورأى أنّه ارتكب من الحماقات ما يكفي ويزيد، وأنّه موشكٌ أن يخسرَ نعمة غرانّونيا، اتّخذ قراراً حازماً بألّا تتمكّن أمّه أبداً من العثور عليه حيّاً، ثمّ تناول إناء الجوز

المعالَج من الخزانة، ذاك الذي أخبرته أمُّه بأنَّه مسمومٌ، ولم يرفع يده عنه حتى انكشف له قعرُه الأملس، وبعد أن ملأ بطنه جيِّداً، اندسَّ داخل الفرن.

في هذه الأثناء، عادت والدته، وبعد أن قرعت لفترةٍ من الوقت دون أن تسمع حركة كائنٍ حيٍّ، ركلت الباب ودخلَتْ، ثم بدأت تنادي ابنها بصوتٍ عالٍ. ولأنَّ أحداً لم يُجِبْ، تخيَّلت أنَّ مصيبةً قد وقعَتْ، فتعاظمَ قلقها وراحت تصرخ بصوتٍ أعلى: "يا فارديِنلُّو، يا فارديِنلُّو، هل أُصبتَ بالصَّمم، فأنتَ لا تسمع ندائي؟ هل أُصبتَ بالتهاب المفاصل، فأنتَ لا تهرع إليَّ؟ هل أُصبتَ بخانوق الدَّجاج، فأنتَ لا تجيبني؟ أين أنت يا وجه المشنقة؟ أين تبخَّرتَ أيُّها البذرة الفاسدة؟ ليتني أغرقتك في مصبِّ النَّهر حين أنجبتك!".

بعد أن سمع فارديِنلُّو كلَّ هذا العويل، قال أخيراً بصوتٍ خافتٍ ومثيرٍ للشَّفقة: "أنا هنا، في داخل الفرن، ولن تريني مرَّةً أخرى يا أمَّاه!". "لماذا؟"، سألت الأمُّ المسكينة. "لأنَّني سمَّمتُ نفسي"، أجاب الابن. "يا إلهي! - أضافت غرانُّونيا. - وكيف فعلتَ ذلك؟ وما السَّبب الذي دفعك إلى القيام بهذا العمل الفظيع، ومن أعطاك السُّمَّ؟". فروى لها فارديِنلُّو كلَّ المِحَن القاسية التي مرَّ بها، الواحدة تِلْوَ الأخرى، وكيف أنَّه بسببها أرادَ أن يموت كي لا يكون بعد اليوم هدفاً لسوء الحظِّ في هذا العالَم.

لدى سماع الأمِّ هذه الكلمات، اسودَّتْ الدُّنيا في عينيها، وشعرت بغُصَّةٍ في حلقها، وكان عليها أن تفعل وتقول الكثير لكي تنزع ذلك المزاج الكئيب من نفس فارديِنلُّو. ولأنَّها كانت تشعر بحنانٍ كبيرٍ تجاهه، أعطته أنواعاً أخرى من الشَّراب لتنزع من رأسه الخوف من الجوز المُعالَج الذي لم يكن سامّاً، بل كان مسكِّناً لآلام المعدة فحسب. وهكذا، بتهدئته بالكلمات الطَّيِّبة، وإغراقه بالمداعبات العذبة، أخرجَتْه من الفرن.

ثم فكَّرت، لكي تهدِّئ تماماً من روعه، في أن تأتمنه على قطعةٍ ثمينةٍ

من القماش يأخذها ليبيعها، محذِّرةً إيَّاه من التَّعامل مع أناسٍ ثرثارين. "حسناً! – قال فارديِلّو، – سوف أخدمك بسخاءٍ. لا تشكّي أدنى شكٍّ في هذا". ثمَّ وضع القماش تحت إبطه وانطلق صوبَ المدينة.

راح يتجوَّل ببضاعته في شوارع نابولي وساحاتها، هاتفاً: "قماش! قماش!"، ولكن كلّما اقترب منه أحدٌ يسأله: "ما نوع هذا القماش؟"، كان يجيبه على الفور: "أنت لا تناسبني، لأنَّك ثرثار". وإذا سأله أحدٌ آخر: "بكم تبيعه؟"، دعاه "مهذاراً"، وادَّعى أنَّه سبَّب له الصُّداع وتلَّ صدغيه.

وأخيراً، اكتشف في فناء منزلٍ هجره أصحابه لأنَّ عفريتاً قزماً كان يتردَّد إليه، تمثالاً من الجصِّ، فجلسَ المسكين الذي كان التَّعب قد هدَّه من التَّجوال، على حافَّة جدارٍ واطئ. وحين لم ير أحداً يدخل ويخرج من ذلك البيت الذي كان أشبه بقريةٍ منهوبةٍ مليئةٍ بالأعاجيب، قال للتِّمثال: "قل لي يا صاح، هل يعيش أحدٌ ما في هذا البيت؟". ولأنَّ التِّمثال لم يُجب، بدا له أنَّه شخصٌ قليل الكلام، فاقترح عليه في الحال: "هل تريد شراء هذا القماش؟ سأعطيكَهُ لقاءَ ثمنٍ بخسٍ". وبقي التِّمثال صامتاً لا يجيب، فقال: "آه، لقد وجدتُ ما كنتُ أبحث عنه! خذه وافحصه، وأعطني السِّعر الذي تريد: سأعود غداً لأخذ ثمنه". قال ذلك، وترك القماش على الجدار الواطئ الذي كان يجلس عليه؛ وأوَّل من وجد نفسه يمرُّ من هناك ويدخل ذلك الفناء لتلبية نداء الطَّبيعة، رأى تلك الثَّروة الجميلة، وحملَها معه.

حين عاد فارديِلّو إلى والدته صِفرَ اليدين من قطعة القماش، وروى لها ما حدث، أحسَّت المرأة المسكينة وكأنَّ قلبها ينفطر، فبدأت بتوبيخه: "متى ستضع عقلك في مكانه؟ أترى كم من مصيبةٍ جلبتَ عليَّ؟ تذكَّرْ! ولكنَّ الذَّنب، أوَّلاً وقبل كلِّ شيءٍ، ذنبي أنا، لأنَّني كنت رقيقة القلب للغاية معك، ولأنَّني لم أُقوِّمكَ، من اللَّحظة الأولى، بعصاً جيِّدة: والآن أدرك أنَّ الطَّبيب الرَّؤوف يصنع طاعوناً لا يمكن علاجه! ولكنَّك ستظلُّ تتمادى

في فِعالك، إلى أن تقع في النِّهاية في شرِّ أعمالك، وحينها سيكون بيننا حسابٌ طويل!".

من جهته، قال فاردِيلُّو: "اصمتي يا أمَّاه، فلن يكون ما تقولين، أتريدين سوى أن تحصلي على الكثير من النُّقود الرَّنَّانة الحديثة السَّكِّ؟ أتحسبين أنَّني قادمٌ من يويو[1]، وأنَّني لا أعرف حساباتي؟ إنَّ غداً لناظره قريب! والمسافة قصيرةٌ من هنا إلى بِلْفيديرهْ[2]، وسوف ترين إن كنتُ بارعاً في تركيب مقبضٍ لهذه المجرفة أم لا!".

في الصَّباح، حالما تمكَّنت شرطة الشَّمس من طرد ظلال اللَّيل من ربوع القرية، ذهب فاردِيلُّو إلى الفناء حيث كان التِّمثال، وتحدَّث معه قائلاً: "نهارك سعيدٌ يا سيِّدي! سوف لن يضيرك أن تؤدِّي إليَّ تلك النُّقود القليلة، أليس كذلك؟ فإذاً هيَّا، ادفع لي ثمن قماشي!". ولكن حين رأى أنَّ التِّمثال بقي صامتاً، التقط حجراً وقذفه به بكلِّ ما أوتي من قوَّةٍ، فأصابه في منتصف عظمة القصِّ، محطِّماً ضلعاً من ضلوعه، وكان ذلك خلاصَ بيته، فما إن تكسَّرت طبقاتٌ من الجصِّ، حتى ظهرت أمام عينيه قِدْرٌ مليئةٌ باللِّيرات الذَّهبيَّة، فرفعها من مكانها وركض بها بأقصى سرعةٍ إلى منزله.

دخل البيتَ صارخاً: "أمَّاه، أمَّاه، انظري كم من اللِّيرات الحمراء! إنَّها كثيرةٌ، أليس كذلك؟ إنَّها كثيرة!". ولكنَّ الأمَّ، إذْ رأت تلك الثَّروة من اللِّيرات، التي كسبتها من حيث لا تدري، فكَّرت على الفور أنَّ ابنها سيشيع الخبر بين النَّاس، فاحتاطت للخطر، وقالت لفاردِيلُّو أن ينتظر أمام الباب ليرى متى سيمرُّ بائع الأجبان، لأنَّها كانت في حاجةٍ إلى شراء قَدْرٍ من الحليب بما ثمنه قرشٌ واحد.

---

1) أرضٌ تقع ما بين ريف سالرنو ومنطقة فالُو دِيلَّا لوكانيا. تُسَمَّى اليوم جوي؛ (كروتشِهْ).

2) تلاعبٌ بالكلمات بين "un bel vedere" [تعني "المنظر الجميل"]، وبين "Belvedere" وهو اسم قلعةٍ كانت تبعد مسافةً قصيرةً عن بوتزولي؛ (كروتشِهْ).

فما كان من فارديِنلُّو، الذي كان في غاية الطِّيبة والسَّذاجة، إلَّا أن جلس على الفور أمام الباب، فيما راحت الأمُّ تُسقط عليه من النَّافذة أكثر من ستِّ لفَّاتٍ من الزَّبيب والتِّين المجفَّف لأكثر من نصف ساعة. وكان هو يجمع كلَّ ذلك ويصيح: "أمَّاه، أمَّاه، هاتي قصعاتٍ، أحضري طُسُوتاً، اجلبي سلالاً، لأنَّه إذا استمرَّ هذا المطر، فإنَّنا سنصبح أغنياء!". وحين ملأ بطنه تماماً، صعد إلى غرفته، وأخلدَ إلى النَّوم.

وحدث ذات يومٍ أن تشاجر شخصان من ذوي السُّمعة السَّيِّئة بسبب ليرةٍ ذهبيَّةٍ وجداها على الأرض، وصادف أن كان فارديِنلُّو مارّاً من هناك في تلك اللَّحظة، فخاطبهما قائلاً: "يا لغبائكما، كلُّ هذا الهراء من أجل ليرةٍ حمراء كهذه! إنَّني لا أعطي أيَّة قيمةٍ لها، لأنَّني أنا نفسي وجدت إناءً طافحاً بها!".

وعلمت المحكمة بالأمر وصارت كلُّها عيوناً، فأرسلت وراءه واستجوبته لتعرف كيف ومتى وجد اللِّيرات التي تحدَّث عنها، فأجاب فارديِنلُّو: "وجدتها في أحد القصور، في جسد رجلٍ أصمَّ، في ذلك اليوم الذي أمطرت فيه السَّماء زبيباً وتيناً مجفَّفاً". وحين سمع القاضي هذه الإجابة غير المتوقَّعة، اشتمَّ رائحةَ أمرٍ مريبٍ وأمر بإرساله إلى مستشفى المجانين الذي كان هو قاضيه ذا الخبرة والاختصاص.

وهكذا، جعل جهلُ الابن الأمَّ غنيَّةً، وبصيرةُ الأمِّ السَّليمةُ أنقذتها من غبائه، ومن هذا يتَّضح لنا أنَّ:

السَّفينة التي يقودُها ربَّانٌ ماهرٌ

من المستبعد أن تتحطَّم على الصُّخور.

البرغوث
المؤانسة الخامسة من اليوم الأوَّل

يربِّي أحدُ الملوك، لصغر عقله، برغوثاً، فيصبح هذا ضخماً كخروفٍ؛ وبعد أن يأمر لاحقاً بسلخه، يعلن أنَّه سيقدِّم ابنته زوجةً لمن يعرف إلى أيِّ حيوانٍ يعود ذلك الجلد. فيحزر أحد الغيلان ذلك بحاسَّة الشَّمِّ القويَّة لديه، ويأخذ الأميرة التي يُفَكُّ أسرُها بعد ذلك من قبل الأبناء السَّبعة لامرأةٍ عجوزٍ، بعد سبعة اختباراتٍ قاسية.

ضحك الأميرُ والأمَةُ بصوتٍ عالٍ من جهل فاردينِلُّو، وأثنيا على حنكة والدته التي عرفت كيف تتكهَّن بحماقته وتجد الدَّواء المناسب لها. ثمَّ حُمِلَتْ بوبا على سرد حكايتها، فانتظرَتْ أن يضع الجميع ثرثرتهم وراء القضبان، ثمَّ ابتدأتْ قائلةً:

دائماً ما تُفضي القراراتُ المتَّخَذة بلا حكمةٍ وبصيرةٍ إلى هلاكٍ لا بُرء منه؛ ومن يتصرَّف كمخبولٍ، كحكيمٍ يتألَّم. وهذا ما حدث لملك ألتومونتِهْ الذي، بسبب غلطةٍ رباعيَّةِ النِّعال، ارتكب حماقةً من نوعيَّة الجلد القرطبيِّ[1]، واضعاً بذلك ابنته وشرفه في خطرٍ جسيم.

ذات مرَّةٍ، لدغ برغوثٌ ملكَ ألتومونتِهْ، فأمسكه هذا ببراعةٍ عظيمةٍ، وإذْ رآه لامعاً ومكتنزاً، حرص على ألَّا ينفِّذ فيه حكمَ الإعدام بمقصلةِ ظفره. أراد

1) أي من النوعيَّة الممتازة، كنوعيَّة الجلد الذي كان يُستخدَم في الصِّناعات الجلديَّة الرَّفيعة في قرطبة؛ (المترجمان).

أن يضعه في إبريقٍ ويطعمه كلَّ يومٍ من دم ذراعه، فنما البرغوث بسرعةٍ حتى إنَّه، بعد سبعة أشهرٍ، أصبح أضخمَ من خروفٍ، وكان لا بدَّ من تغيير حجرته.

حين رأى الملك أنه وصل إلى ذلك الحجم، أمر بسلخ جلده ودباغته. ثم أصدر إشهاراً يعلن فيه أنَّه سيزوِّج ابنته إلى أيِّ رجلٍ يستطيع أن يحزر لأيِّ حيوانٍ كان ذلك الجلد. وما إن انتشر هذا الخبر في كلِّ الأصقاع، حتى هرع النَّاس أفواجاً من أقاصي الأرض ليحضُروا الاختبار ويجرِّبوا حظَّهم. فهناك من قال إنَّه جلد القطِّ الشَّيطان[1]، وهناك من قال إنَّه جلد وَشَقٍ، وهناك من قال إنَّه جلد تمساحٍ، وهناك من سمَّى هذا الحيوان وهناك من سمَّى ذاك. ولكن جميعهم كانوا بعيدين مئات الأميال، ولم يحزر أحدٌ منهم كنهَ ذلك الشَّيء.

وأخيراً، انضمَّ إلى لعبة التَّشريح هذه غولٌ لم ترَ عينُ إنسانٍ قطُّ مخلوقاً ببشاعته، حتى إنَّ نظرةً واحدةً إليه فحسب، كان من شأنها أن تبثَّ في الجسم القشعريرةَ والزُّحارَ والحمَّى الدُّوديَّة، وفي القلب الصَّقيعَ، حتى لأكثر الشُّبَّان جرأةً في العالم. وحالما وصل هذا الغول، جعل يدورُ حول الجلد كذبابةٍ، وما إن اشتمَّ رائحته، حتى أصاب كبدَ الهدف، وقال: "هذا الجلد يعود إلى كبير عُصبةِ البراغيث!".

حين رأى الملك أنَّه طعَّمَ شجرةَ المَيْس[2]، لم يشأ أن يتراجع عن كلمته وأمر باستدعاء ابنته بورتسيبلَّا، وكانت فتاةً مخلوقةً من حليبٍ ودمٍ فحسب. يا إلهي! لو نظرتَ إليها لما رأيتَ سوى مِغزَلٍ صغيرٍ، ولأردتَ أن تحتضنها بعينيك لجمالها الفائق! وقال لها: "يا بُنَيَّتي، إنَّكِ تعرفين الإشهارَ الذي أصدرته، وتعرفين من أنا. في النِّهاية، أنا ملكٌ ولا أستطيع أن أنكث عهدي: إمَّا أن أكون ملكاً، وإمَّا أن أكون قطعةً من الخشب! لقد

1) قطٌّ خرافيٌّ عملاقٌ ومخيفٌ ارتبط ذكره بالشَّيطان في الحكايات الشَّعبيَّة خلال القرون الوسطى؛ (المترجمان).

2) أي أنَّه حلَّ الأحجيَّة ببراعةٍ؛ (كروتشه).

أعطيتُ كلمتي، ويجب أن أحافظ عليها، حتى وإن كان قلبي يتقطّع. مَنْ كان ليتصوَّر أنَّ المستفيد من هذه الجائزة سيكون واحداً من الغيلان؟ ولكن، لأنَّه ما من ورقةٍ في الأرض تتحرَّك إلَّا بمشيئة السَّماء، فإنَّ علينا أن نؤمن بأنَّ هذا الزَّواج عُقِدَ أوَّلاً في الأعلى، قبل أن يُعقَدَ هنا في الأسفل. لذلك، تحلَّي بالصَّبر، إذا كنت ابنةً مباركةً، ولا تخيِّبي ظنَّ أبيك، فقلبي يقول إنَّكِ ستكونين سعيدة. فكم من مرَّةٍ وجدوا كنوزاً في آنيةٍ حقيرةٍ منحوتةٍ من حجرٍ رخيص؟".

لدى سماع بورتسيبِلَّا هذا القرار المرير، اسودَّت الدُّنيا في عينيها، وشحب وجهها، وارتعشت شفتاها، وارتجفت ساقاها، وأوشكت أن تدع صقر روحها يطير وراء سُمَّان الألم[1]. وأخيراً، انفجرت في نواحٍ مصحوبٍ بتنهُّداتٍ سخينةٍ، وقالت: "وما الذَّنب الذي اقترفتُه في حقِّ هذا البيت حتى يحقَّ عليَّ هذا القصاص؟ أيَّ خُلُقٍ سيِّئٍ أبديتُه لكَ حتى تضعني بين يدَي هذا الشَّيطان القبيح؟ آه يا بورتسيبِلَّا المنكودة الحظِّ! ها أنا ذاهبةٌ طوعاً، مثل ابن عرسٍ، في حلق علجوم! ها أنا نعجةٌ بائسةٌ، فريسةٌ لذئبٍ ضارٍ! أهذه هي العاطفة التي تكنُّها لمن هي من دمك؟ أهذا هو الحُبُّ الذي تُبديه لمن كنتَ تناديها فلذة كبدك؟ أهكذا تتحوَّل عن القلب الذي هو جزءٌ من كيانك؟ أهكذا تُبعد عن عينيك من كانت ضياءَ عينيك؟ آه يا أبي، آه أيُّها الأب القاسي، يقيناً أنَّك لم تولد من لحمٍ بشريٍّ: الغيلان البحريَّة منحتك الدَّم، والقطط البرِّيَّة أرضعتكَ الحليب. ولكن ما لي أتكلَّم على حيوانات البحر والبرِّ؟ فكلُّ حيوانٍ يحبُّ ولَدَه. أنت وحدك بالضِّيق والنُّفور تعاملُ بذرتَك؛ أنت وحدك لا تطيق ابنتك! لكان أفضل لي لو أنَّ أمِّي خنقتني، لو أنَّ المهد كان تابوتاً، وثدي المرضعة مثانةً من السُّمِّ، وأقمطتي أناشيطَ مشانق، والصَّافرة التي كانوا يعلِّقونها حول رقبتي حجرَ رحىً يسحبني إلى قاع البحر؛ بدلاً من أن تصيبني هذه المصيبة، وأرى

1) أي أنَّ فرصتها في الدِّفاع عن نفسها كانت ضئيلةً؛ (كروتشِهْ).

نفسي بجانب هذا الوحش، وأراه يداعبني بيده التي تشبه الخطّاف، ويحتضنني بمخالب دبٍّ، ويلثمني بنابيَ خنزير!".

ولَقالت أكثر من ذلك لو أنَّ الملك، وقد صعد الدُّخان إلى رأسه، لم يقاطعها قائلاً: "كفاكِ سخطاً؛ فالسُّكَّر غالي الثَّمن؛ رويدكِ، فما ترسُكِ إلَّا من خشب الحور؛[1] أغلقي فمكِ، فهو يقيءُ دَنَساً؛ اصمتي، كفاكِ تذمُّراً ودمدمةً؛ إنَّكِ لاذعةٌ جدّاً، مهذارةٌ وسليطةُ اللِّسان! لقد أحسنتُ ما فعلْت. لا تحاولي أن تُعلِّمي والدك كيف يصنع الأبناء. كُفِّي عن هذا، أقحمي لسانك في حلقك، ولا تدعي الخردلَ يصعد إلى أنفي، لأنني إذا ما وضعتُ أظافري عليكِ، فلن أترك خصلةَ شعرٍ واحدةً في رأسك، وسأجعلك تعضّين الأرض بأسنانك! انظروا، انظروا قليلاً: ضرطةٌ من مؤخِّرتي تصنع رجلاً، وهذه تريد أن تفرض رأيها على والدها! منذ متى لمخلوقٍ لا تزال رائحة الحليب تفوح من فمه أن يجرؤ على معارضة إرادتي؟ هيَّا، ضعي يدكِ في يد زوجك، وغادري في الحال إلى منزله، فأنا لا أريد أن أرى هذا الوجه الصَّفيق والمتعجرف أمام عينيَّ ولو لربع ساعةٍ أخرى!".

وما كان من بورتسيبيلَّا المنكودة الحظِّ، وقد وجدت نفسها في مثل هذا المأزق، إلَّا أن مدَّت يدها إلى الغول بسحنةٍ كسحنةِ من حُكم عليه بالموت، وعينين كعينَي من أُصيبَ بالمَسّ، وفمٍ كفمِ من أخذ شربةً من دواء دوميني أغوسطيني[2]، وبقلبٍ كقلب من رأسه بين شفرة المقصلة والخشبة. والغول أمسك يدها وجرَّها، وحيدةً، إلى غابةٍ حيث الأشجارُ تصنع ظُلَّةً للعشب كي لا تكتشفه الشَّمس؛ والأنهارُ تتوجَّع، لأنَّها حيثما تضع في الظَّلام أقدامها، تصطدم بالحجارة؛ والحيواناتُ البرِّيَّة، دون أن

1) أي وسائل دفاعك هشَّة؛ (المترجمان).

2) نسبةً إلى أغوسطين نيفو دا سِسَّا (1469– 1538)، الطَّبيب والفيلسوف الإيطاليّ الذي اخترع ذلك الشَّراب الرَّائع الذي لولاه لكان من المستحيل صنع أيِّ دواءٍ صحيح، وهو الشَّراب المعروف عند الأطباء والصَّيادلة باسم «شراب دوميني أغوسطيني»؛ (كروتشه).

تدفع حقَّ المرعى[1]، تنعم بـِ «بنفنتُو»[2] وتدخل آمنةً مطمئنَّةً تلك الآجامَ التي لم تطأها قطُّ قدمُ إنسانٍ إلّا مَن أضاع طريقه. في هذا المكان المظلم مثل مدخنةٍ مسدودةٍ، والمخيف مثل واجهة الجحيم، كان بيتُ الغول المغطّى كلِّيَّةً بعظام بشرٍ كان قد التهمهم. وكلُّ مَن هو مسيحيٌّ بإمكانه الآن أن يتخيَّل القشعريرة، والذُّهول، وانقباض القلب، واضطراب الأحشاء، والخوف، وكومة الدِّيدان، والإسهال الذي شعرت به الفتاة المسكينة: يمكن القول فحسب إنَّ الدَّم نشف في عروقها.

ولكنَّ هذا كان أقلَّ من لا شيءٍ مقارنةً ببقيَّة الطَّامَّة، ذلك أنَّ ما تناولته قبل الوجبة لم يكن سوى حِمَّصٍ، ومن ثَمَّ فولٍ مجفَّفٍ[3]. فقد عاد الغول، الذي كان قد ذهب إلى الصَّيد، وهو مُحمَّلٌ بأرباع رجالٍ كان قد قتلهم، وقال لها: «لا يمكنك أن تَشكي، يا زوجتي، من أنَّني لا أعتني بك. هاكِ مؤونةً جيِّدةً من الطَّعام، خذي واحشي معدتك وأحبِّيني، لأنَّني لن أتركك أبداً بلا طعامٍ، حتى وإن سقطت السَّماء».

أدارت بورتسيِيلاَّ البائسة وجهها إلى الجانب الآخر وهي تتقيَّأ كامرأةٍ حُبلى. لاحظ الغول ما فعلته، فهتف: «هذا يعني أن نقدِّم الحلوى إلى الخنازير! ولكن لا عليكِ: تحلَّي ببعض الصَّبر حتى صباح الغد، فقد دُعيتُ إلى رحلة صيدِ خنازيرَ برِّيَّة: سوف أجلب لك زوجاً منها، وسوف نقيم حفل زفافٍ مع الأقارب كيما نتنعَّم بزواجنا بمتعةٍ أكبر».

قال هذه الكلمات، وانطلق يسير في الغابة، فيما بقيَتْ هي تنتحب

---

1) الأجرة التي تُدفع مقابل حقِّ الرَّعي في أراضي الآخرين، أو حتى في الأراضي المَلَكيَّة أو البلديَّة؛ (كروتشِهْ).

2) Benevento، وتعني أيضاً «ترحيب»، كانت مدينةً تتبع للدَّولة البابويَّة، ولذلك كانت تشكِّل ملاذاً مناسباً للمنفيِّين من مملكة نابولي؛ (كروتشِهْ).

3) أي أنَّها تعذَّبت أوَّلاً، ثم بدأت تعيش حياة السُّجناء؛ (كروتشِهْ). [كان الحِمَّص والفول المجفَّف يُقدَّم للسُّجناء ولأولئك المحكومين بالإعدام؛ (المترجمان)].

على النَّافذة، حينما مرَّت مُصادفةً امرأةٌ عجوزٌ أمامَ المنزل. كانت المرأة تتضوَّر من الجوع، وطلبت من بورتسيِيلًا ما يسدُّ رمقها، فأجابتها الفتاة البائسة: «أوه أيَّتها المرأة الطَّيبة، وحده الله يرى ما في قلبي. إنَّني تحت بطش شيطانٍ من الجحيم، شيطانٍ لا يجلب لي أكثر من أرباع رجالٍ وأشلاء بشرٍ مقتولين، وأنا لا أعرف كيف يمكن لمعدتي أن تصمد لمرأى هذه الأشياءِ المقزِّزة؛ ألا إنَّ حياتي لأتعسُ حياةٍ عاشتها يوماً نَفْسٌ معمَّدةٌ بالرُّوح القدُس؛ مع أنَّني ابنة ملكٍ، ترعرعت على البابَّارديلَّة[1]، وكنت أعوم في الدُّهون!». وما إن قالت ذلك حتى انفجرت باكيةً، مثل طفلةٍ انتُزِعَتْ منها وجبتُها الخفيفة.

رقَّ قلب المرأة العجوز لها، وأجابتها: "فكِّري في صحَّتك يا فتاتي الصَّغيرة والجميلة، ولا تستنزفي هذا الجمال بالبكاء، لأنَّك قد وجدت طالعك الحسن، وأنا هنا لمساعدتك، ما استطعتُ، في ركوب أيِّ سرجٍ تشائين. والآن، أصغي إليَّ: لي سبعة أبناء، أرى فيهم سبع جواهر، سبع أشجار بلُّوطٍ، وسبعة عمالقة: مازِهْ، ناردو، كولا، ميكُّو، بيترولُّو، أسكاديو، وتشيكُّونِهْ، وكلُّهم لهم من المناقب الطَّاهرة أكثر ممَّا لإكليل الجبل[2]. فَمَازِهْ، يكفي أن يضع أذنه على الأرض ليسمعَ ويتنصَّت لكلِّ ما يحدث على بعد ثلاثين ميلاً؛ وناردو، في كلِّ مرَّةٍ يبصق فيها، يشكِّل بحراً كبيراً من الصَّابون؛ وكولا، كلَّما ألقى قطعةَ حديدٍ، صنعَ حقلاً من الأمْواس الحادَّة؛ وميكُّو، بعصاً رفيعةٍ يُلقيها، ينشئ غابةً متشابكٌ شجرُها؛ وبيترولُّو، إذا ما سكبَ قطرةً من الماء على الأرض، أحدثَ نهراً رهيباً؛ وأسكاديو، ما إن يرمي حجراً، حتى يرتفع برجٌ محصَّن الجوانب؛ وتشيكُّونِهْ، أمهرُ النَّشَّابةِ،

1) نوعٌ من المعكرونة على شكل شرائط رقيقة تحضَّر عادةً مع صلصةِ لحم الخنزير البرِّيِّ والفطر، أو مع أنواع أخرى من الصَّلصة؛ (المترجمان).

2) يُنسَب إلى نبات إكليل الجبل العديد من المزايا الأسطوريَّة الشَّافية، وكان يُعَدُّ عشبةَ الطَّهارة، إضافةً إلى كونه رمزاً للذِّكرى والإخلاص؛ (المترجمان).

يفقأ العيون بالقوس والنُّشَّابة، ويمكنه أن يفقأ عين دجاجةٍ من مسافة ميل. بمساعدة هؤلاء، سوف أحاول أن أنقذك من براثن الغول، فهم مهذَّبون ولُطفاء، وسترقُّ قلوبهم لكِ، لأنَّ مثل هذه اللُّقمة اللَّذيذة ليست لحلق ذلك الشَّيطان القبيح".

فقالت بورتسيبِيلَّا: "ليس هناك وقتٌ أفضل من هذا، ذلك أنَّ زوجي، ظِلَّ السُّوء هذا، قد خرجَ ولن يعود اللَّيلة، وسيكون لدينا ما يكفي من الوقت للتَّسلُّل والهروب بعيداً".

ولكنَّ المرأة العجوز ردَّت قائلةً: "لا يمكننا القيام بذلك اللَّيلة، لأنني أعيش في مكانٍ بعيدٍ بعض الشَّيء. ولكن في صباح الغد، سوف أكون أنا وأبنائي هنا لننقذك من محنتك". وحالما انتهت من قول ذلك، غادرت، وبقلبٍ مطمئنٍ نامت بورتسيبِيلَّا بعمقٍ طوال اللَّيل.

في الفجر، وحالما نادت الطُّيور: "تحيا الشَّمس"، جاءت المرأة العجوز مع أبنائها السَّبعة، فأحاطوا ببورتسيبِيلَّا وساروا نحو المدينة. ولكنَّهم لم يكونوا قد ابتعدوا نصف ميلٍ حين وضع مازِهْ أذنه على الأرض وصرخ: "هيَّا استعدُّوا! الثَّعلبُ هنا! لقد عاد الغول إلى مأواه ولم يجد الفتاة، وها هو قادمٌ وقلنسوته تحت إبطه[1] ليلحق بنا".

وما كان من ناردو، حين سمع ذلك، إلَّا أن بصق على الأرض، فتشكَّل بحرٌ من الصَّابون، وحينما وصل الغول، ورأى كلَّ تلك الرَّغوة، أقفلَ عائداً إلى البيت، وجلب كيساً من النُّخالة، وبعد أن دهن قدميه بكمِّيَّةٍ كبيرةٍ منها، استطاع في النِّهاية، بالجهد الجهيد، أن يتغلَّب على العقبة.

ثمَّ أصغى مازِهْ مرَّةً أخرى، وقال محذِّراً: "ها قد حان دورك يا صاحبي! إنَّه على وشك أن يدركنا". فألقى كولا قطعةً من الحديد، فنبتَ حقلٌ

1) أي أنَّ الغول، لارتباكه، نسي حتى أن يعتمر قلنسوته؛ (كروتشِهْ).

من الأمواس. وحين رأى الغول طريقه قد أُغلقَتْ عليه مرَّةً أخرى، عاد إلى المنزل، وارتدى زرداً حديديّاً من رأسه إلى أخمص قدميه، واستطاع أن يتخطّى ذلك الخندق.

ثمَّ، متنصّتاً مرَّةً أخرى، صرخ مازهْ: "هيَّا! هيَّا! إلى السِّلاح! لأنَّ الغول سيكون خلال وقتٍ قصيرٍ هنا، فهو لا يجري جرياً، بل يطير طيراناً". فما كان من ميكُّو، على الفور، إلَّا أن أنشأ بعصاه غابةً رهيبةً من العسير اجتيازها. ولكنَّ الغول وضع يده على سكّينٍ يحملها في خاصرته، وجعلَ يطرح أرضاً شجرةَ حورٍ هنا، وشجرةَ بلُّوطٍ هناك، ويُسقطُ في هذه النَّاحية شجرةَ قرَّانية، وفي تلك النَّاحية شجرة قطلب؛ وما هي إلَّا أربع أو خمس ضرباتٍ حتى كانت الغابة كلُّها مسوَّاةً بالأرض، وخرج حرَّاً من الدَّغل المتشابك الأغصان.

وعاد مازهْ، بعد أن ألصق أذنه، يرفع صوته: "دعونا لا نقف هنا كما لو أنَّنا نَخلِقُ لِحَانا، فلقد نشرَ الغول جناحيه، وبعد هنيهةٍ سنجده وراء ظهورنا!". فغرف بيترولُّو غَرفةَ ماءٍ من نافورةٍ تنبجس قطرةً قطرةً من محارةٍ حجريَّةٍ، ونثرها على الأرض، فسرى على الفور نهرٌ عظيم. وحين رأى الغول هذا العائق الجديد الذي ما إن كان يفتح فيه ثغرةً حتى يسدُّها أحدُهم، تجرَّد تماماً من ملابسه، ووضعها على رأسه، واجتاز النَّهر سباحةً إلى الضِّفَّة الأخرى.

سمع مازهْ وقع خطواته، فقال: "إنَّ خطَّتنا هذه تذهب أدراج الرِّياح، فالغول بدأ يضرب الأرض بكعبيه بقوَّةٍ تستطيع السَّماء أن تصفها لكم. فلنحكِّم العقلَ، ونوقِّ أنفسنا شرَّ هذه العاصفة، وإلَّا انتهى أمرُنا!". "لا تكوننَّ في ريبةٍ - أجاب أسكاديو - فمن سيتصدَّى لهذا الشَّرِّ الأثيم هو أنا". وألقى حجَراً، فتحوَّل الحجَرُ إلى برجٍ انسلُّوا جميعاً إلى داخله وأوصدوا الباب بالمزلاج. وإذْ رأى الغول أنَّهم أصبحوا في مأمنٍ منه، هرع ثانيةً إلى

المنزل، وأحضر سلَّماً يُستخدم لجني العنب، حمله على ظهره وركض عائداً إلى البرج.

سمع مازِه، الذي كان كلُّه آذاناً صاغيةً، مقدَمَه من بعيدٍ، فقال: "إنَّنا الآن في آخر طورٍ من أطوار شمعة حياتنا، وتشيكُّونهْ هو آخر ملاذٍ لنا، لأنَّ الغول عائدٌ إلينا وهو يشتعل غضباً. يا حسرتي! قلبي يخفق، لكأنِّي أرى هلاكنا رأيَ العين!". "كم أنت رعديدٌ! – أجاب الأخ الأصغر – دع الأمر لي، وانظر إن كنتُ سأصيب عينيه بنُشَّابي أو لا". وبينما كان يقول ذلك، إذْ أسندَ الغول السُّلَّم إلى الجدار وبدأ بالصُّعود. ولكنَّ تشيكُّونهْ سدَّدَ سهمَه، وفقأ إحدى عينيه مُرْدياً إيَّاه بطوله على الأرض مثل شجرة كمَّثرى، ثمَّ خرج من البرج، وبالسِّكِّين نفسِها التي كان يحملها ذاك، قطعَ رأسَه، كما لو أنَّه كان يقطع لبناً مخثَّراً.

وبفرحٍ عظيمٍ، جلبوا رأسه إلى الملك الذي سُرَّ أيما سرورٍ باستعادة ابنته، لأنَّه كان قد ندم مِائة مرَّةٍ على إعطائها للغول، وفي غضون أيَّامٍ معدوداتٍ، وجد لها زوجاً وسيماً، وجعل الأبناءَ السَّبعة وأمَّهم من الأغنياء، لأنَّهم حرَّروها من حياةٍ في غاية الشَّقاء. وألف مرَّةٍ اعترف بذنبه مع بورتسيبِلَّا التي، بسبب نزوةٍ عاصفةٍ، عرَّضها لمثل ذلك الخطر دون أن يأخذ بالحسبان حجم الخطأ الذي يرتكبه مَن يذهب للبحث عن

بيض الذِّئب وأمشاط الخمسة عشر[1].

---

1) قولٌ مجهول المصدر كان بازيلهْ قد استخدمه في «الملهمات النَّابوليتانيَّات» أيضاً، وربَّما أرادَ به أمشاط الحلج التي دائماً ما يكون عدد أسنانها أقلّ من 15 سنّاً، الأمر الذي يبدو مخالفاً للطَّبيعة، كما هو شأن بيضة الذِّئب؛ (كروتشهْ).

القطّة سندريلّا
المؤانسة السّادسة من اليوم الأوّل

تتوهّم تسيئسولّا، التي حرّضتها معلّمتها على قتل زوجة أبيها، أنّها بفضل فعلتها هذه ستكون أثيرةً عندها بعد أن تتزوّج تلك من أبيها، ولكنّها بدلاً من ذلك تلقي بها في المطبخ. ولكن في النّهاية، بفضل بعض الحوريّات والفأل الحسن، تتزوّج ملكاً.

بدا الحاضرون كالتّماثيل وهم يستمعون إلى قصّة البرغوث، وأعلنوا بكلّ صراحةٍ أنّ الملك كان أحمقَ وغبيّاً لأنّه، بسبب نزوةٍ لا قيمة لها، عرّض ثمرةَ لحمه ودمه، وإرثَ دولته، لمثل ذلك الخطر الجسيم. ولكن، ما إن أغلقوا أفواههم، حتى بدأت أنطونيلّا تروي حكايتها على النّحو التّالي:

في بحر الشّرّ، دائماً ما يكون للحسد فتقٌ[1] بدلاً من المثانة؛ وحيث يخال أنّه يرى غرقى آخرين في ذلك البحر، يجد نفسه إمّا تحت الماء وإمّا محطّماً على جُرفٍ صخريٍّ، مثلما حدث لبعض الفتيات الحسودات اللّاتي أنوي إخباركم بقصّتهنّ.

حُكي أنّه كان فيما مضى من قديم الزّمان، وسالف العصر والأوان، أميرٌ أرمل، وكانت له ابنةٌ يحبُّها حبّاً جمّاً، حتى إنّه كان لا يرى غيرها. وكان قد خصّص لها خيّاطةً بارعةً علّمَتْها غرزةَ السّلسلة، وفنَّ التّخريم[2]،

1) كان من الشّائع الاعتقاد أنّ الفتق يسبّبه الحسد؛ (المترجمان).

2) فنُّ التّطريز بالخيط والإبرة، أو «غرزة فينيسيا»، وكان مرغوباً جدّاً في القرن السّادس عشر؛ (كروتشه).

والتَّوشية، وتطريز حواشي الأثواب، وأظهرَتْ لها من المودَّة ما يفوق كلَّ وصف. ولكن، كان الأب قد تزوَّج حديثاً بامرأةٍ غضوبٍ، وخبيثةٍ، وشرِّيرةٍ، وبدأت هذه اللَّعينة تكره ابنة زوجها، وتوبِّخها بعنفٍ، وتلقاها بوجهٍ متجهِّمٍ ونظراتٍ حاقدةٍ تجعلها تنقز من الخوف.

وكانت الفتاة المسكينة تشكو دائماً إلى معلِّمتها سوءَ معاملة زوجةِ أبيها لها، وكانت تختتم شكواها دائماً بالقول: "يا إلهي، ألم يكن بإمكانك أن تكوني أنتِ أمِّي، أنتِ التي تغمرينني بالكثير من الحبِّ والحنان؟". ولكثرة ما ردَّدَتْ هذه التَّرنيمة، وضعت دبُّوراً في أذن معلِّمتها، والمعلِّمة أعماها الشَّيطان، فانتهت إلى القول: "إذا وجدتِ وسيلةً للتَّخلُّص من هذه المجنونة، كنتُ أمَّكِ وكنتِ أنتِ بؤبؤ عينيَّ". وكانت على وشك أن تواصلَ مقدِّمتها تلك، حين قاطعتها تسيتْسولَّا (هكذا كانت تُدعَى الفتاة) قائلةً: "اعذريني إن كنْتُ أسحبُ الكلام من فمك. أنا أعلم أنَّك تحبِّينني، لذلك، أبقيها في سرِّك وأعطيني المختصَر المفيد-، علِّميني الحرفةَ، فأنا جديدةُ العهد بها: أنتِ تكتبين وأنا أوقِّع". "لا بأس! – أجابت المعلِّمة، – أصغي إليَّ جيِّداً، افتحي أذنيك، وستنالين دائماً خبزاً أبيضَ بياضَ الزَّهر. حين يخرج والدك من المنزل، أخبري زوجته أنَّك تريدين واحداً من تلك الفساتين القديمة الموجودة في صندوق الخزانة الكبير، كيما توفِّري هذا الذي ترتدينه؛ وهي، التي تريد أن تراك تلبسين الخِرَقَ ومِزَقَ الثِّياب، سوف تفتح الصُّندوق وتقول: - أمسكي الغطاء. – فتمسكينه أنتِ، وبينما هي تبحث في الدَّاخل، تتركينه يسقط فجأةً ويكسر رقبتها. بعد ذلك، تعرفين جيِّداً أنَّ والدك سيفعل أيَّ شيءٍ لأجلك، وأنتِ، حين يلاطفكِ ويغنِّجكِ، اطلبي منه أن يتزوَّجني، وحينئذٍ تصبحين، أنتِ المحظوظة، سيِّدةَ حياتي".

بعد أن أصغت تسيتْسولَّا إلى الخطَّة، صارت السَّاعةُ تبدو لها ألفَ سنة؛ وبعد أن نفَّذت نصيحة معلِّمتها بحذافيرها، وانتهت مدَّة الحِداد على وفاة زوجة أبيها، بدأت تمهِّد الطَّريق لكي يتزوَّج أبوها بمعلِّمتها. في

البداية، لم يأخذ الأمير كلامها على محمل الجدّ، ولكن في النّهاية، مع إصرار تسيتْسولّا المتواصل، رضخ لطلبها، وتزوّج المعلّمةَ كارموزينا في حفلٍ كبير.

في ذلك الوقت، وبينما كان العروسان في غمرة فرحهما، وتسيتْسولّا واقفةً على شرفةٍ من شرفات القصر، حطّت حمامةٌ صغيرةٌ على جدارٍ وقالت لها: "كلّما أردتِ شيئاً، أرسلي مطلبَكِ إلى حمائم الحوريّات في جزيرة سردينيا، وستنالين بُغيتك على الفور".

لمدّة خمسةٍ أو ستّةِ أيّامٍ، غمرت زوجةُ الأب الجديدةُ تسيتْسولّا بكلّ أشكال الحنان، وجعلتها تجلس في أفضل مكانٍ على المائدة، وقدّمت لها أشهى الأطعمة، وألبستها أفضل الثّياب. ولكن بعد مرور وقتٍ قصيرٍ جدّاً، انقلبت الأمور رأساً على عقب، ونسيت تماماً ما تلقّته من أفضال (يا لبؤس من لديها وليّة أمرٍ سيّئة!)، وبدأت تركّز جُلّ اهتمامها على بناتها السّتّ اللّاتي كانت قد كتمت أمرهنّ حتى ذلك الوقت، وفعلت كلّ ما في وسعها حتى استكان لها زوجها ونزع محبّة ابنته من فؤاده. وبين عشيّةٍ وضُحاها انتهى الأمرُ بتسيتْسولّا من الحُجرة الفخمة إلى المطبخ، ومن السّرير المَلَكيّ ذي الظُّلّةِ إلى الموقد، ومن بذخ الحرير والذّهب إلى المسّاحات، ومن الصّولجان إلى السّفُّود. ولم يكن وضعُها وحده ما تغيّر، بل تغيّر اسمُها أيضاً، فلم تعد تدعى تسيتْسولّا، بل بدأوا يدعونها "سندريلّا القطّة".

ثمّ حدث أن اضطرّ الأميرُ إلى الذّهاب إلى سردينيا لشؤونٍ تخصُّ مركزَه، وقبل سفره، سأل الواحدة تلو الأخرى، إمبيريا، كالاميتا، فيوريلّا، ديامَنْتِه، كولومبينا وباسكاريلّا، وكنّ بنات زوجته السّتّ، عمّا يرغبن فيه من رحلته. فهذه طلبت ثوباً فاخراً، وتلك زينةً لشعرها، وتلك مستحضرات تجميلٍ لوجهها، وتلك ألعاباً لتزجية الوقت، وهذه شيئاً والأخرى شيئاً آخر. وأخيراً، على سبيل السُّخرية تقريباً، قال الأمير لابنته: "وأنتِ، ماذا تريدين؟"، فأجابت: "لا شيء، سوى أن توصل تحيّاتي إلى حمامة الحوريّات، وتسألها

أن ترسل لي غرضاً ما؛ فإذا نسيتَ، لن تكون قادراً على المضيِّ قُدُماً، ولا على العودة إلى الوراء. ضعْ في اعتبارك ما أقوله لك: سلاحُكَ، كُمُّكَ"[1].

سافر الأمير، وأنهى أعماله في سردينيا، ثمَّ اشترى ما طلبته بنات زوجته، ونسي أمرَ تسيتْسولًا. ولكن حين صعد إلى السَّفينة، ونُشرَتْ بالفعل أشرعتها، لم تتمكَّن من مغادرة الميناء، وبدا وكأنَّ ثمَّة عائقاً يمنعها من الحركة. وما كان من صاحب السَّفينة وقد يئس من الأمر إلَّا أن غطَّ في النَّوم مُرهَقاً، وفي الحلم ظهرت له حوريَّةٌ أخبرته قائلةً: "هل تعرف لماذا لا يمكنكم مغادرة الميناء؟ لأنَّ الأمير المسافر معكم لم يفِ بالوعد الذي قطعه لابنته، بل إنَّه تذكَّر الجميع خلا تلك التي من دمه ولحمه". وحالما استيقظ، قصَّ رؤياه على الأمير الذي انزعجَ لارتكابه تلك الهفوة، ومضى حالاً إلى كهف الحوريَّات، وبعد أن بلَّغهنَّ تحيَّات ابنته، طلب منهنَّ أن يرسلن إليها بعض الهدايا.

وخرجَت من الكهف فتاةٌ كانت آيةً من آيات الجمال، وطلبت منه أن يشكر ابنته لذاكرتها الطَّيِّبة، وأن يخبرها أنَّها سوف تنال السَّعادة جزاءَ محبَّتها لها. ومع كلماتها هذه، أعطته شتلةَ نخيلٍ، ومعزقةً، ودلواً ذهبيًّا، ومنشفةً من الحرير: الشَّتلة لزرعها، والأشياء الأخرى لإنماء النَّبتة ورعايتها.

مندهشاً من هذه الهديَّة، ودَّع الأمير الحوريَّة عائداً إلى بيته؛ وفورَ وصوله، وزَّع على بنات زوجته الأشياء التي طلبنها، وفي النِّهاية، سلَّم هديَّة الحوريَّة لابنته. وبفرحٍ كبيرٍ لم يتَّسع له جلدُها قامت تسيتْسولًا بزرع شتلة النَّخيل في أصيصٍ جميلٍ، وأخذت تعتني بها صباحاً ومساءً، تسقيها وتجفِّفها بمنديل الحرير. وكانت عاقبةُ حرصها واهتمامها أنْ نمت النَّخلة حتى صارت في غضون أربعة أيَّامٍ بطول امرأة، وحينئذٍ خرجت منها حوريَّةٌ وسألت الفتاة: "ماذا ترغبين؟"، فأجابت تسيتْسولًا أنَّها ترغب أحياناً في الخروج من المنزل،

---

1) مثلٌ شائعٌ يقصد به: إذا نكثتَ عهدك، هلكتَ وحدك؛ (كروتشه).

من دون أن تعرف أخواتها ذلك، فردَّتْ الحوريَّة قائلةً: "كلَّما رغبتِ في ذلك، تعالي إلى النَّبتة وقولي: يا نخلتي المُذَهَّبَة، بالمعزقة الذَّهبية عزقتُ تُربتك، وبالدَّلو الذَّهبي سقيتك، وبالمنديل الحريريِّ جفَّفتك، فاخلعي ملابسك، ودعيني أرتديها أنا! ثمَّ حين تريدين خلعها، غيِّري المقطع الأخير فحسب، وقولي: اخلعي ملابسي، وارتديها أنتِ".

وكان يومُ الاحتفال، فخرجَت بناتُ زوجة الأب في موكبٍ من المنزل، متأنِّقاتٍ، متبرِّجاتٍ، وُجُوهُهنَّ مغطَّاةٌ بطبقةٍ كثيفةٍ من المساحيق، ومزيَّناتٍ بالشَّرائط، والخُشخَيشات، والحليِّ، والزُّهورِ، والعطور الفوَّاحة، والورْدِ وأشياء أخرى. حينئذٍ، هرعت تسيتْسولَّا إلى شجرتها، وردَّدت الكلمات التي لقَّنتها إيَّاها الحوريَّة، فإذا بها تتَّخذ في الحال مظهر ملكةٍ على صهوة حصانٍ أبيض، يحفُّ بها اثنا عشر خادماً مُهندَماً وأنيقاً، وذهبت هي أيضاً حيث ذهبت شقيقاتها اللَّاتي لم يتعرَّفْنَها، ولكنَّ اللُّعاب كان يسيل من أفواههنَّ لجمال تلك الحمامة السَّاحرة.

وشاء القدر أن يحضر إلى المكان نفسِه الملكُ الذي وقف مسحوراً أمامَ مرأى جمال تسيتْسولَّا الخارق، وأمر خادماً من ثِقاتِ خدمه أن يستخبرَ بأفضل طريقةٍ ممكنةٍ عن تلك المخلوقة البديعة، من هي وأين تعيش. ومضى الخادم من فوره في إثرها، ولكنَّها، إذ علمت بالكمين، ألقت حفنةً من اللِّيرات الذَّهبيَّة التي كانت قد حصلت عليها من النَّخلة لهذا الغرض، فغفلَ الخادم الذي تحرَّق جشعاً أمام تلك القطع المعدنيَّة البرَّاقة عن متابعة الحصان الأبيض، وتوقَّف لجمع المال. أمَّا هي، فبقفزةٍ واحدةٍ دخلت إلى المنزل، وخلعت ملابسها بسرعةٍ كما علَّمتها الحوريَّة، ثمَّ انضمَّت إلى الشِّرِّيرات السِّتِّ، بناتِ زوجةِ أبيها اللَّاتي، لكي يغظنها ويحقِّرنها، رحن يصفن لها مطوَّلاً كلَّ الأشياء البديعة التي رأينها في الحفلة.

في هذه الأثناء، عاد الخادم إلى الملك وأخبره بقصَّة اللِّيرات، فغضب الملك وبضيقٍ شديدٍ أخبره أنَّه قد باع رضا سيِّده عليه لقاءَ أربع عملاتٍ

دنيئاتٍ، وأنَّه في الحفلة القادمة يريد أن يعرف بأيِّ ثمنٍ من هي تلك الفتاة الجميلة، وأين يعَشِّشُ طائرٌ بهيٌّ كهذا.

وحلَّ موعد الحفلة التَّالية، وخرجت الأخوات مزيَّناتٍ متأنِّقاتٍ، وتركن تسيتْسولَّا مَهينةً مُزدراةً عند الموقد. ولكنَّها ما لبثت أن هرعت إلى النَّخلة، وما إن انتهت من ترديد الكلمات المعتادة، حتى وجدت نفسها أمام صفٍّ من وصيفات الشَّرف، تحمل إحداهنَّ مرآةً، وأخرى زجاجةً من ماء اليقطين[1]، وأخرى مكواةً لتجعيد الشَّعر، وأخرى قطعةً من أحمر الشِّفاه، وأخرى مشطاً، وأخرى دبابيسَ زينةٍ، وأخرى قلائدَ وأطواقاً. وتحلَّقن كلُّهنَّ حولها، وجعلنها جميلةً كالشَّمس، ثم وضعنها في عربةٍ تجرُّها ستَّة خيولٍ ويرافقها سُعاةٌ وخدمٌ بلباسِ المراسم، وذهبت إلى نفس المكان السَّابق، فأدخلت الذُّهول في قلوب الأخوات وأذكت النَّار في صدر الملك.

وهذه المرَّة أيضاً، في أثناء عودتها، ذهب الخادم في إثرها، فرمت حفنةً من اللُّؤلؤ والمجوهرات لتشغله بها، فلم يملك ذلك الرَّجل الشَّريف حيالها إلَّا أن ينحني ليلتقطها، فهي لم تكن، في نهاية الأمر، أشياء يمكن التَّغاضي عنها. وهكذا، امتلكت تسيتْسولَّا الوقت الكافي لتعود إلى منزلها وتتخلَّص كالعادة من ملابسها. وعاد الخادم ذاهلاً إلى الملك الذي قال له: "وحقِّ أمواتك، إن لم تعثر لي على تلك الفتاة، لأشبعنَّك ضرباً، وأبرِّحنَّ بمؤخِّرتك ركلاً بقدر شعيرات ذقنك".

وفي يوم الحفل الجديد، وبعد أن كانت الأخوات قد انطلقن بالفعل، عادت تسيتْسولَّا إلى النَّخلة، وكرَّرت التَّرنيمة السِّحرية، فوجدت نفسها ترتدي ملابس رائعةً داخل عربةٍ ذهبيَّةٍ يحفُّ بها عددٌ كبيرٌ من الخدم، فكانت تبدو وكأنَّها مومسٌ اعتُقلت في المتنزَّه العامِّ وطُوِّقت برجال الشُّرطة. وبعد أن أثارت عجبَ الأخوات وحسدهنَّ، غادرت يتبعها خادم

---

1) زيتٌ طبيٌّ وتجميليٌّ يُستخلص من اليقطين؛ (كروتشة).

الملك الذي ربط نفسه هذه المرَّة بخيطٍ مزدوجٍ إلى العربة. ولكن حين رأت تسيتْسولَّا أنَّه لا يبرح أثرها، صرخت: "أسرع أيُّها الحوذيُّ!"، فانطلقت العربة كالحيوان الهائج، فسقط من قدمها في أثناء تلك المعمعة نعلٌ لم يرَ امرؤٌ قطُّ ما هو أكثر جمالاً ولطفاً منه.

وما كان من الخادم الذي لم يتمكَّن من اللَّحاق بالعربة التي كانت تحلِّق آنذاك إلَّا أن التقط النَّعل وحمله إلى الملك، راوياً له ما حدث، فانتزع الملك النَّعل من يده وقال: "إذا كان أساسُ المنزلِ بهذا الجمال، فما بالكم بالمنزل نفسه؟ آه أيُّها الشَّمعدان الجميل، حيث الشَّمعة التي تستنزف قواي! آه أيُّها الحامل الثُّلاثيُّ للمرجل الجميل، حيث تغلي حياتي! آه أيُّها الفلِّين[1] الجميل على صنَّارة الحبِّ التي اصطادَتْ هذه الرُّوح! هأنذا أعانقكم وأحضنكم، وإذا لم أستطع الوصول إلى النَّبتة، فسوف أعشق الجذور، وإذا لم أستطع أن أنهل من تيجان العواميد، فسوف أقبِّل القواعد! لقد كنتم بالفعل الأغلال لِقَدَمٍ بيضاء، والآن أنتم المصيدة لقلبٍ شجيٍّ معذَّب. بفضلكم أنتم، تلك التي ظلمَتْ حياتي، كانت أطول بشبرٍ ونصف الشِّبر، ولأجلكم تنمو بنفس العذوبة حياتي هذه، بينما أنظر إليكم وأمتلككم".

وبعد أن قال الملكُ ذلك، دعا الكاتبَ، وأمر بالأبواق، وطُو – طُو – طُو، أصدر إشهاراً يدعو فيه جميع نساء المدينة أن يأتين إلى حفلةٍ ومأدبةٍ كان قد قرَّ عزمُه على إقامتهما. وفي اليوم الموعود، أوه، يا إلهي!، أيَّ مأدبةٍ كانت تلك وأيَّ عرضٍ كان ذاك! من أين جاءت كلُّ صنوف الحلوى والفطائر تلك؟ من أين جاءت كلُّ تلك اليخنات وكُرات اللَّحم؟ من أين جاءت كلُّ تلك المعكرونة والرَّافيولي التي يمكن أن تُشبع جيشاً عرمرماً؟ كانت النِّساء كلُّهنَّ حاضراتٍ، من كلِّ صنفٍ ولون، النَّبيلات منهنَّ والوضيعات، الثَّريَّات

---

1) كانت النِّعال ذات الكِعاب العالية تُصنع من الفلِّين؛ (المترجمان).

والمتسوِّلات، المسنَّات والفَتيَّات، الجميلات والقبيحات. وبعد أن أعملن جيِّداً أسنانهنَّ، بدأ الملك، وقد حقَّق مُراده، بتجريب النَّعل الصَّغير على أقدام جميع المدعوَّات، واحدةً تِلْو الأخرى، ليرى قدمَ أيٍّ واحدةٍ منهنَّ تناسبه وتستقرُّ فيه بشكلٍ جيِّدٍ، آملاً أن يتمكَّن بهذه الطَّريقة من تمييز تلك التي كان يبحث عنها. ولكنَّه لم يجد أيَّ قدمٍ تلائمه، وانتهى به الأمرُ على عتبة اليأس.

ومع ذلك، بعد أن أمر الجميعَ بالصَّمت، قال: "عُدْنَ غداً لتكفِّرن عن ذنوبكنَّ معي؛ ولكن، إذا كنت عزيزاً عليكنَّ، لا تتركن أيَّ أنثى في المنزل، لأيِّ سببٍ كان!". فتحدَّث الأمير حينئذٍ قائلاً: " لديَّ ابنةٌ، ولكنَّها تعنى دائماً بالطَّهي، ذلك أنَّها مخلوقةٌ بائسةٌ وقليلة الشَّأن، لا تستحقُّ الجلوس حيث تأكلون أنتم". ردَّ الملك: "فلتكن هي على رأس القائمة إذاً، لأنَّ هذه هي مشيئتي".

فغادروا، وفي اليوم التَّالي حضر الجميع، ومع بنات كارموزينا حضرَتْ تسيتْسولَّا التي حالما رآها الملك أعطته انطباعاً بأنَّها هي التي كان يبحث عنها؛ ومع ذلك تظاهر بخلاف ذلك. ولكن، حين انتهى العشاء، حان وقتُ اختبار النَّعل، وما إن اقترب هذا من قدم تسيتْسولَّا، حتى انطلق من تلقاء نفسه، كما الحديد حين ينجذب إلى المغنطيس، ليُلبس بيضةَ كيوبيد الملوَّنة تلك. وعندئذٍ احتضن الملكُ تسيتْسولَّا بين ذراعيه وقادها إلى تحت ظلَّةِ العرش ووضع التَّاج على رأسها، وأمر الجميع بالانحناء لها وتبجيلها كملكة. وإذْ رأت الأخوات ذلك، امتُقِعَت وجوههنَّ من الحسد، ولم تستطع قلوبهنَّ تحمُّل تلك الصَّدمة، فتسلَّلن كسيراتِ الخاطر نحو منزل الأمِّ، واعترفن رغماً عنهنَّ أنَّه

مجنونٌ مَن يناوئ النُّجوم.

ابنا التَّاجر
المؤانسة السَّابعة من اليوم الأوَّل

يشجُّ تشينزو رأسَ ابن الملك ويهرب من بلده، وبعد أن يحرِّرَ ابنةَ ملكِ بيرديسينُّو من التِّنِّين، ويُحرزَ نجاحاتٍ شتَّى، يحصل عليها كزوجة. تُلقي امرأةٌ عليه سحراً، فيحرِّره شقيقه الذي يقتله تشينزو بعد ذلك بدافع الغيرة، ولكنَّه فيما بعد، حين يكتشف براءته، يعيده مرَّةً أخرى إلى الحياة، بفضل مزايا عشبةٍ معيَّنة.

لا يمكن للمرء أن يتصوَّر عظمةَ السَّعادة التي شعر بها الجميع لحسن الطَّالع الذي حظيت به تسيتْسولَّا؛ ولكن بقدر ما أثنوا على جود السَّماء تجاه هذه الفتاة، رأوا أنَّ العقاب الذي تلقَّته بنات زوجة الأب كان خفيفاً جدَّاً، ذلك أنَّه لا يوجد عقابٌ لا تستحقُّه الغطرسة، ولا هلاكٌ لا يَجْمُلُ بالحسد.

وبينما كانت هذه الهمهمة تدور في الأنحاء حول قصَّة أنطونيلَّا، وضع الأمير تاديو سبَّابة يده اليمنى على فمه مشيراً إليهم أن يصمتوا. فالتزم الجميع الصَّمت كما لو أنَّهم رأوا ذئباً، أو كتلميذٍ رأى المعلِّم يظهر فجأةً وهو في ذروة الشَّغب. وبدأت تشولَّا، إذْ أومأ الأمير لها برأسه، تروي حكايتها على هذا النَّحو:

كثيراً ما تكون المتاعب التي تعترض طريق الإنسان فؤوساً ورفوشاً تمهِّد له الطَّريق نحو حظٍّ جيِّدٍ ما كان ليتخيَّله. فثمَّة من يلعن المطر الذي يبلِّل

رأسه، ولا يعلم أنَّه يجلب له الوفرةَ القادرةَ على طرد الجوع، كما سنرى في قصَّة الشَّابِّ التي سأرويها لكم.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، تاجرٌ عظيم الثَّراء، يدعى أنطونيِيلُّو، وكان له ولدان، تشينزو ومِيُو، وكانا متشابهين لدرجةٍ لا يمكنكم معها تمييز أحدهما عن الآخر. وحدث أنَّ تشينزو، الابن الأكبر، تحدَّى بالتَّراشق بالحجارة ابن ملك نابولي، في أريناتشيلا، فشجَّ جمجمته.

اشتعل أنطونيِيلُّو غضباً بسبب هذه الحادثة، فقال لابنه: "أحسنت، لقد قمت بمأثرةٍ ستُدوَّن في سجلِّ البلاد! تباهَ، أيُّها الكِيْس، وإلَّا فتقتُ مواضعَ خياطتك! ضع براعتك على عمودٍ ليراها الجميع! هيَّا، لقد كسرت ذلك الشَّيء الذي يساوي ستَّ قمحاتٍ![1] فلعتَ رأس ابن الملك؟ ماذا، ألم يكن لديك نصف قصبةٍ لتقيس حدَّك[2] يا بن التَّيس؟ ماذا سيكون مصيرك الآن؟ لقد طبختَ طبخةً سيِّئةً لا أراهن عليها بثلاثة قروش. وحتى لو عدت إلى المكان الذي خرجت منه[3]، لن أستطيع أن أخلِّصك من يد الملك، فأنت تعلم أنَّ له يداً طويلةً تصل إلى كلِّ مكان، ولسوف يفعل الأفاعيل".

وبعد أن أفرغ والده كلَّ ما في جعبته من كلامٍ، أجاب تشينزو قائلاً: "يا سيِّدي، لقد سمعتُ دائماً أنَّ شرطيّاً في المنزل أفضل من طبيب. أليس من الأسوأ لو كان هو مَن شجَّ رأسي؟ لقد استفزَّني، ونحن في سنِّ اليُفوع، فانتهى بنا الأمر إلى الشِّجار، وهذه أوَّل جنايةٍ أرتكبها، والملك رجلٌ حكيمٌ،

1) إشارةٌ إلى المِبولة التي توضع في حجرة النَّوم، وكان هذا هو سعرُها في ذلك الوقت؛ (كروتشِهْ). [القمحة هنا وحدةُ قياسٍ قديمةٌ للوزن؛ (المترجمان)].

2) أي لقياس المسافة التي كانت بينه وبين ابن الملك. نصف القصبة مقياسٌ يساوي أربعة أشبار، وكان شائع الاستعمال في نابولي؛ (كروتشِهْ).

3) يقصد: إلى بطن أمِّه؛ (كروتشِهْ).

وفي النِّهاية، ماذا يمكنه أن يفعل بي؟ من لا يريد أن يعطينا الأمَّ، فليعطنا الابنة، ومن لا يريد أن يرسل إلينا المطبوخ، فليرسل النِّيءَ. هذا يحدث في كلِّ أنحاء العالم، ومَن يخف، فليَصِرْ شرطيّاً".

"ماذا يمكنه أن يفعل بك؟ أجاب أنطونيِلُّو. - يمكنه أن يأتي بأجلك، أن يُحيلك نثاراً في مهبِّ الرِّيح. يمكنه أن يعاملك كما لو كان معلِّم مدرسة، بسوطٍ بطول أربعةِ وعشرين شبراً، وأن يرسلك إلى عذابٍ يجعل السَّمَك يتعلَّم الكلام[1]، يمكنه أن يرسلك بأنشوطةٍ من ثلاثة أشبارٍ، منشَّاةٍ بالصَّابون[2]، لكي تعقد قرانك مع الأرملة[3]، وبدلاً من أن تلمس يد العروس، يجعلك تلمس أقدام العرَّاب[4]. لذلك لا تلقي بنفسك إلى التَّهلكة، بين القماش والمقصِّ، بل ارحل في لحظتك هذه، فلا يُعرَف شيءٌ، لا جديدٌ ولا قديمٌ، من شؤونك، إذا كنت لا تريد أن تُصطاد من قدميك. طائرٌ في الخلاء أفضل من طائرٍ في القفص. هاك النُّقود، وخُذْ أحد الحصانين المسحورين من الإسطبل، ولا تتردَّد أكثر. من الأفضل لك أن تلمس كعب قدمك، بدلاً من أن تلمس كعوب الآخرين[5]؛ من الأفضل أن تضع ساقيك على كتفيك، بدلاً من أن تجد رقبتك تحت ساقَي غيرك؛ ومن الأفضل أن تقوم بألف خطوةٍ، على أن تبقى على مبعدة ثلاث خطواتٍ من الحبل. إذا لم تحمل خُرجَيك من فورك، فسوف لن يستطيع مساعدتك لا بالدوس ولا بارتولوس[6]".

1) يقصد أن يرسله ليجذِّف في السُّفن الشِّراعيَّة الكبيرة التي تحمل السُّجناء؛ (كروتشِهْ).

2) بحبلٍ مطليٍّ بالصَّابون حول رقبته؛ (كروتشِهْ).

3) المشنقة؛ (كروتشِهْ).

4) كان الجلَّاد يصعد على كتفيِّ المحكوم بالإعدام لينهي حياته بسرعة؛ (كروتشِهْ).

5) يقصد كما في الأعلى: كعبيِّ الجلَّاد؛ (كروتشِهْ).

6) بالدوس دي أوبالديس (1319-1400) وبارتولوس دي ساكسوفِرَّاتو (1314-1357)، مستشاران قانونيَّان مشهوران في ذلك الوقت؛ (المترجمان).

سأل تشينزو والده أن يبارك رحلته، ثمَّ امتطى الحصان حاملاً الكلبة بين ذراعيه، وانطلق خارجاً من المدينة. ولكن، ما إن خرج من بوَّابة كابوانا حتى التفت إلى الوراء وراح يقول: "ها أنا أتركك يا نابولي الجميلة! من يدري إن كنتُ سأراكِ مرَّةً ثانيةً، يا لَبِناتٍ من السُّكَّر وجدراناً من الفطائر الحلوة، حيث الحجارةُ مَنٌّ، والرَّوافدُ قصبُ سُكَّرٍ، والأبواب والنَّوافذ معجَّناتٌ منتفخة؟ واحسرتاه! ها أنا أفارقُكَ يا بِنِّينو[1] الجميل، فأشعر وكأنَّني أمشي وراء رايةٍ جنائزيَّة؛ وإذْ أصرف ناظريَّ عنكِ، يا ساحة لارغا، يُعتصَر قلبي ألماً؛ ومبتعداً عنكِ، يا ساحة أولمو، أشعر وكأنَّ روحي تنفلق نصفين؛ وراحلاً عنكَ، يا لاتتْشييْري[2]، يطعنني رمحٌ كتالانيٌّ؛ ونازحاً عنكِ، يا فورتْشِلاَّ، تنسلخ روحي عن ثغرة نحري! أين سأجدُ لي ميناءً آخر، يا أحلى موانئ العالم؟ أين سأجدُ لي جلْسِيْ[3] أخرى، حيث ديدان قزِّ العِشقِ تغزل باستمرارٍ شرانقَ حبورٍ وملذَّات؟ أين في الأرض بيرتوسُو[4] آخر، مأوىً لجميع الرِّجال الفاضلين؟ أين في الأرض لوجَّا[5] أخرى، حيث تثوي الوفرةُ ويُصْقَل الذَّوق؟ ويلٌ لي، يا لافينارو![6] لا أستطيع أن أبتعد عنك، دون أن تفيض عيناي بالدَّمع! لا أستطيع أن أتركك أيها السُّوق، دون أن يعتريني الألم! لا

---

1) بِنِّينو، أو بِنْدِينو، حيٌّ في نابولي؛ (المترجمان).

2) شارعٌ في منطقة الميناء، كانت فيه في الماضي حوانيتُ صانعي الأسلحة وبائعيها؛ (المترجمان).

3) منطقة في نابولي يعني اسمها «أشجار التُّوت» لأنَّها كانت حتى بداية القرن السَّادس عشر مليئةً بأشجار التُّوت، وكانت تُربَّى هناك ديدان القزِّ بأعداد كبيرة. في النِّصف الثَّاني من القرن السَّادس عشر أسَّس الجنود الإسبان أحياءهم هناك، وتحوَّل اسم المنطقة إلى «الأحياء الإسبانيَّة» التي تقع اليوم في الجزء التَّاريخيِّ من المدينة؛ (المترجمان).

4) مكانٌ قربَ كنيسة مونتيسانو. سُمِّي بهذا الاسم الذي يعني "الثُّقب" أو "الثُّغرة" لأنَّه كان يقع قرب صدعٍ في سور المدينة؛ (المترجمان).

5) سوق طعامٍ مشهورٍ يأخذ اسمه، «لوجَّا جِنوة»، من تجَّار جِنوة الذين يرتادونه؛ (كروتشِهْ).

6) شارعٌ كان يمتدُّ من "بورتا نولانا" إلى "كارمينهْ"؛ (المترجمان).

أستطيع أن أتخلّى عنكِ، يا بياجّا[1] الجميلة، دون أن ينفتح ألف قرحٍ في قلبي! وداعاً، أيُّها الجزر الأبيض وأيُّها السَّلق؛ وداعاً، أيُّها الكعك المحشوُّ بالعسل وأيّتها الفطائر المحشوَّة بلحم الخنزير؛ وداعاً، أيُّها القرنبيط وأيّتها التُّونة المملَّحة؛ وداعاً، أيّتها الكرشةُ وأيّتها المقادم؛ وداعاً، أيّتها اليخناتُ وأيّتها الطَّواجن؛ وداعاً، يا زهرة جميع المدائن، يا روعة إيطاليا، يا بيضةَ أوروبّا الملوَّنة، يا مرآة العالم. وداعاً يا نابولي التي لا شيء بعدها، أنتِ التي فيكِ وضعت الفضيلةُ درجاتها والنِّعمةُ حدودها! إنَّني راحلٌ عنكِ لأصبح أرملاً بعدَ أطباقِ حسائك؛ إنَّني منفيٌّ عنكِ أيّتها المزرعة[2] الجميلة؛ آهِ أيُّها القرنبيط، ها أنا أتركك ورائي!".

وبينما كان يردِّد هذه الكلمات ويذرف دمعاً مدراراً في عزِّ أوارِ التَّنهُّدات، وصل، دون أن يشعر، إلى غابةٍ بجوار كاسكانو قبل حلول المساء، غابةٍ كانت تُبقي بغلَها خارج حدودها لتعتني به الشَّمس، بينما تنعم هي بالصَّمت والظِّلِّ. كان هناك بيتٌ قديمٌ عند سفح برجٍ، فطرق على باب البرج، ولكنَّ صاحبه، لأنَّ اللَّيل كان قد أرخى سدوله، ولأنَّه كان يتوجَّس خيفةً من قطَّاع الطُّرق، لم يشأ أن يفتح له الباب، فاضطرَّ تشينزو المسكين إلى البقاء في ذلك البيت المتهدِّم، وبعد أن ربط حصانه في وسط أحد المروج، أخلدَ إلى النَّوم، مرتمياً على كومةٍ من القشِّ الذي وجده هناك في الدَّاخل، وكلبته بجانبه.

ولكن ما إن تدلَّى جفناه وأغفى حتى استفاق على نباح الكلبة، ثمَّ سمع وقعَ نعلَين يجوبان ذلك البيت المشؤوم. وضع تشينزو، الذي كان شجاعاً وجسوراً، يده على قرن الخرُّوب[3] وبدأ يلوِّح به بقوَّةٍ في الظَّلام. ولكن، حين أدرك أنَّه لا يصيب أحداً وأن ضرباته تذهب سُدَىً، عاد ثانيةً إلى مرقده.

1) محلّةٌ في الجزء الغربيِّ من نابولي؛ (المترجمان).

2) كانت نابولي تُسمَّى، تحبُّباً، بالمزرعة الكبيرة؛ (كروتشه).

3) تعبيرٌ انتقاصيٌّ كنايةً عن السَّيف الذي يشبه شكلُه شكلَ ثمرة الخرُّوب؛ (كروتشه).

وبعد قليلٍ، شعر بشيءٍ يشدُّه برفقٍ من قدمه، فاستلَّ مرَّةً أخرى سيفه المعقوف، وهبَّ واقفاً وهو يصيح: "كفى، لقد جعلتني أفقد صبري الآن! ما غايتك من هذه الألاعيب الصَّغيرة؟ إن كنتَ شجاعاً بحقٍّ، فلتَظهرْ وليُظهِرْ كلٌّ منَّا نزوات غضبه للآخر، ذلك أنَّك عثرت هنا على ندٍّ لك!".

وما إن انتهى من قول ذلك حتى سمع صوت ضحكةٍ تمزِّق الخاصرة، تلاها صوتٌ عميقٌ يقول: "هيَّا تعال انزلْ من هنا، وسأقول لك من أنا". فأجاب تشينزو دون أن يفقد شجاعته: "انتظرني، أنا قادم". وبعد أن تلمَّس طريقه بصعوبةٍ في الظَّلام، وصل إلى سلَّمٍ يؤدِّي إلى قبوٍ، فنزله ووجد مصباحاً صغيراً مُضاءً وثلاثة أشخاصٍ، كأنَّهم ثلاثة عفاريت، ينتحبون بمرارةٍ، ويشكون: "أوه يا حبيبتي الجميلة، كيف لي أن أفقدك!". حين رأى تشينزو ذلك، بدأ هو أيضاً بالنَّحيب، علَّه يجاذبهم أطراف الحديث؛ وبعد أن انتحبوا لوقتٍ طويلٍ، إلى أن بدأ القمر يَقْطَعُ بِفَأسِ شُعَاعِه كعكة السَّماء من المنتصف، قال له أولئك الثَّلاثة الذين كانوا ينشدون مرثاتهم: "اذهب الآن وخذ هذا الكنز المُقَدَّرَ لك وحدك، واعرفْ كيف تحافظ عليه". ثمَّ اختفوا على الفور، كما لو أنَّهم ذاك الذي لا يمكن أن تراه أبداً!"[1].

رأى تشينزو ضوء الشَّمس ينسلُّ من ثقبٍ، فأراد أن يصعد، ولكنَّه لم يعثر على السُّلَّم. حينئذٍ بدأ بالصُّراخ، وظلَّ يصرخ ويصرخ إلى أن سمعه صاحب البرج الذي كان قد دخل بين تلك الجدران المتهدِّمة ليتبوَّل، فسأله عمَّا كان يفعله هناك، وبعد أن عرف كيف سارت الأمور، ذهب وجلب سلَّماً ونزل إلى الأسفل حيث كان تشينزو. وحالما وضع قدميه في القبو، وقعت عيناه على كنزٍ هائلٍ فاستولى عليه، ولكن ليس دون أن يعرض على تشينزو الجزء الذي يستحقُّه، غير أنَّ تشينزو أبى أن يأخذ شيئاً منه، ثمَّ أخذ الكلبة بين ذراعيه، وامتطى حصانه، وانطلق في طريقه.

---

1) إبليس؛ (كروتشِة).

وصل بعد بضع ساعاتٍ إلى غابةٍ منعزلةٍ وموحشةٍ تجعل فمك يلتوي رعباً لشدَّة حلكتها، وهناك، على ضفَّةِ نهرٍ كان يتراقص في المروج ويتواثب على الحجارة لكي يمنح المتعة للظِّلال التي كان يهيم بحبِّها، صادفَ حوريَّةً كانت محاطةً بزمرةٍ من قطَّاع الطُّرق الذين يريدون أن يسلبوها شرفها. وحالما رأى تشينزو نذالة أولئك الأوغاد، امتشق سيفه وأرداهم قتلى. وإذْ رأت الحوريَّة ما فعله دفاعاً عنها، أمطرته بكلمات الشُّكر والمديح، ودعته إلى قصرٍ ليس بعيداً لتردَّ له بالمثل المعروفَ الذي تلقَّته منه. ولكنَّ تشينزو ردَّ قائلاً: "شكراً جزيلاً، ليس ما فعلتُه بالأمر الذي يُذكر، ربَّما أستفيد في مرَّةٍ أخرى من أفضالكم، لأنَّني الآن في عجلةٍ من أمري لشأنٍ مهمٍّ"، ثمَّ ودَّعها ورحل.

بعد مسافةٍ لا بأس بها من الطَّريق، وجد نفسه أمام قصر أحد الملوك، وكان القصر مكلَّلاً بالحِداد، ومرآه يبعث الكآبة في قلوب النَّاظرين. فاستفسر تشينزو عن السَّبب، فقيل له إنَّ تنِّيناً بسبع رؤوسٍ، لم تر عينٌ قَطُّ ما هو أشدُّ رعباً منه في العالَم، كان قد ظهر في تلك الأرض، وإنَّ له عُرْفَ ديكٍ، ورأسَ قطٍّ، وعينَين من نارٍ، وفكَّي كلبٍ كورسيكيٍّ، وجناحَي خفَّاشٍ، ومخالب دبٍّ، وذيل ثعبان. "وهو الآن يلتهم في كلِّ يومٍ آدميَّاً، وبعد أن استمرَّ الأمر حتى يومنا هذا، حان الآن دور مينيكيلَّا ابنة الملك، وهذا هو سبب الاهتياج والجلبة التي تعمُّ البيت الملكيَّ، لأنَّ ألطف مخلوقٍ في بلدنا سوف يزدرده ويبتلعه هذا الحيوان القبيح".

بعد أن حصل تشينزو على هذه المعلومات، تنحَّى جانباً ورأى مينيكيلَّا قادمةً يلفُّها الغمُّ، وترافقها وصيفات الشَّرف وجميع نساء تلك الأرض اللَّاتي كنَّ يضربن كفَّاً بكفٍّ ويمزِّقن خصلات شعرهنَّ خصلةً تلو الأخرى، وهنَّ يبكين المصير السَّيِّئ للأميرة المسكينة، ويهتفن: "من كان ليتصوَّر أنَّ على هذه الشَّابَّة أن تتنازل عن نعم الحياة في جسد هذا الوحش الشِّرِّير؟ من كان ليقول لهذا الحسُّون الجميل إنَّ بطن التِّنِّين سوف يكون قفصاً

له؟ من كان ليقول لهذه اليرقة البديعة إنَّها سوف تترك بذرةَ سداةِ حياتها داخلَ شرنقةٍ سوداء؟". وفيما كنَّ يردِّدن هذه العبارات، إذا بالتِّنّين يخرج من أحشاء كهفٍ فظيعٍ: يا أمَّاه، كم كان قبيحاً! يكفي أن تعرفوا أنَّ الشَّمس اختبأت في جوف الغيوم هلعاً، وأنَّ السَّماء غامت، وتحنَّطت قلوبُ كلِّ أولئك النَّاس، ووصلت بهم القشعريرة حدّاً لم يكن من الممكن معه إيلاج ولو وبرة خنزيرٍ كحقنةٍ في شرجهم.

حالما رأى تشينزو هذا المنظر، اندفع إلى الأمام، وبضربة سيفٍ، فصلَ إحدى رؤوسه طارحاً إيَّاها أرضاً. ولكنَّ التِّنّين فرك رقبته بعشبةٍ لم تكن بعيدةً عنه، فالتصقَتِ الرَّأس حالاً في مكانها، كما السَّحليَّة حين تلتصق بذيلها. ففكَّر تشينزو في قرارة نفسه: "من لا يصرُّ، لا يُنجب". ثمَّ كزَّ على أسنانه وانهال عليه بضربةٍ قاصمةٍ قطعت جميع رؤوسه السَّبع التي تطايرت من رقبته كما تتطاير حبَّات الحِمَّص من المغرفة. ثمَّ انتزع ألسنته واحتفظ بها في جرابه، ورمى رؤوسه على مسافة ميلٍ من جسده لكيلا تعود وتلتصق به، وأخذ حزمةً من تلك العشبة التي استخدمها التِّنّين للصق عنقه. وفي النِّهاية، أرسل مينيكيلّا إلى بيت أبيها، وذهب هو ليأخذ قسطاً من الرَّاحة في إحدى الحانات.

حين رأى الملك ابنته مرَّةً أخرى، لم تكن هناك كلماتٌ يمكن أن تصف البهجة التي غمرته. وبعد أن استمع إلى الطَّريقة التي تمَّ بها إطلاق سراحها، أمر بإصدار إشهارٍ ملكيٍّ فوراً: فليأت الشَّخص الذي قتل التِّنّين ليتزوَّج ابنتي.

وبعدما ذاع خبر الإشهار الملكيِّ، قام فلَّاحٌ خبيثٌ بجمع رؤوس التِّنّين، وذهب إلى الملك، قائلاً: "بفضل صنيع هذا الرَّجل الذي ترونه أمامكم، تمَّ إنقاذ مينيكيلّا. لقد حرَّرت هاتان اليدان البلادَ من التَّهلكة، وها هي الرُّؤوس تشهد على بطولتي. لذلك، وعدُ الحُرِّ دَيْنٌ!". حينئذٍ، نزع الملك

التَّاج عن رأسه ووضعه على رأس ذلك الخسيس التي كانت تبدو كرأس قاطعِ طريقٍ في أعلى عمود[1].

انتشر خبرُ هذه الحادثة في كلِّ الأرض حتى بلغَ سَمْعَ تشينزو الذي قال في طويَّة نفسه: "إنَّني حقّاً بهيمةٌ كبيرة! لقد أمسكتُ بإلهة الحظِّ من شَعرها، وتركتها تفلت من يدي. أراد رجلٌ أن يعطيني نصف كنزٍ، فلم أكترث لذلك إلَّا بقدر ما يكترث الألمانيُّ للماء العذب[2]، وأرادت إحداهنَّ أن تصنع لي معروفاً في قصرها، فاكترثتُ لذلك اكتراثَ الحمار للموسيقى. وها أنا الآنَ أُدعَى إلى التَّاج، فأقف كما تقف السَّكرى أمام مِغزلها، سامحاً لقدَمٍ مغطَّاةٍ بالشَّعر أن تسبق قدمي، ولمقامرٍ غشَّاشٍ أن ينزع الورقة الرَّابحة من يدي".

وبينما هو مستغرقٌ في تأمُّلاته، تناول الرِّيشة والمحبرة، وأخذ ورقةً، وشرع يكتب: "إلى جوهرة النِّساء جميعاً، مينيكيلَّا، أميرةِ بيرديسينُّو. – بنعمةٍ من شمسِ أيَّام الكلب[3] أنقذتُ حياتك، وبلغني أنَّ شخصاً آخر يتباهى بجهودي ويزعم لنفسه الخدمة التي قدَّمتها لكِ. لذلك يمكنك، أنتِ التي شهدتِ المعركة، أن تنقلي الحقيقة إلى الملك، وألَّا تسمحي للآخرين بأن يفوزوا بساحةٍ ميِّتة[4]، بينما أنا هو الذي استعمل يديه. سيكون

---

1) بعد تنفيذ حكم الإعدام بقاطع طريقٍ أو مجرم، كانوا يعرضون رأسه داخل قفصٍ موضوعٍ أعلى عمودٍ، أو كانت الرَّأس تعلَّق على إحدى بوَّابات المدينة؛ (كروتشه).

2) كان ولع الألمان بالنَّبيذ مضرب الأمثال منذ قرون، وهذا واحدٌ من تلك الأمثال التي كان النَّاس يتداولونها عنهم؛ (كروتشه).

3) أيَّام الكلب هي أشدُّ أيَّام الصَّيف حرّاً، وتعود هذه التَّسمية إلى الرُّومان الذين ربطوا بين شدَّة الحرِّ وظهور نجم الشِّعرى اليمانيَّة، النَّجم الأكثر لمعاناً في كوكبة الكلب الأكبر؛ (المترجمان).

4) بأمر من نائب الملك دون بييترو دي توليدو، كان يجب ترك مكانٍ شاغر في كلِّ حملةٍ للجنودَ الإسبان أو الإيطاليِّين، يُخصَّص لثلاثة جنودٍ مُصابين، وذلك بتوفير السَّكن لأحدهم والنُّقودَ للآخرين. هذا المكان الذي هو بمثابة إحالةٍ إلى التَّقاعد كان يُسمَّى «ساحةً ميِّتةً» أو «مكاناً شاغراً»؛ (كروتشه).

هذا خيرَ إقرارٍ بالفضل من سموّك الملكيّ الرَّفيع، ومكافأةً مستحَقّةً لهذه القبضة القويَّة كقبضة إسكندر بك[1]. ختاماً، أقبِّل يديك الصَّغيرتين الرَّقيقتين. – من حانة المبْوَلَة، اليوم، الأحد".

وبعدما انتهى تشينزو من كتابة هذه الرِّسالة وختمها بالخبز الممضوغ، وضعها في فم الكلبة، موصياً إيَّاها: "هيَّا، احمليها بسرعةٍ إلى ابنة الملك، ولا تسلِّميها إلَّا إلى يدَي صاحبةِ ذاك المحيَّا اللُّجين". وانطلقت الكلبة، كأنَّها تطير طيراناً، حتى وصلت إلى القصر الملكيّ، فصعدت الأدراج وعثرت على الملك الذي كان لا يزال يهنِّئ العريس؛ وإذْ رأى الملكُ الكلبةَ تدخل حاملةً رسالةً في فمها، أمر أن ينتزعوها منها. ولكنَّ الكلبة أبت أن تسلِّمها إلى أحدٍ، وقفزت إلى حضن مينيكيلاَّ ووضعتها بين يديها. هبَّت مينيكيلاَّ واقفةً، وبعد أن انحنت أمام الملك، سلَّمته الرِّسالة ليقرأها. قرأ الملك الرِّسالة وأوعز على الفور في اقتفاء أثر الكلبة، وفي إحضار صاحبها من كلِّ بدٍّ ليمثل أمامه. فتبع حارسان الكلبة ووصلا إلى الحانة، حيث وجدا تشينزو، فقرآ على مسمعه أوامر الملك، وأحضراه إلى القصر.

حين وصلَ ومَثَلَ في الحضرة الملكيَّة، سأله الملك لماذا تجرَّأ على التَّفاخر بقتل التِّنِّين، إذا كان الرَّجل الجالس الآن بجانبه، والتَّاج على رأسه، هو الذي جلب إليه رؤوسه. فأجاب تشينزو: "إنَّ هذا الخسيس يستحقُّ قَلَنسُوَةً من الورق عوضاً عن التَّاج الملكيّ، لأنَّ الوقاحة بلغت به حدَّاً جعله يُريكم البثورَ مصابيحَ. ولكي أثبت لكم أنَّني أنا من أنجز المهمَّة، وليس لحية التَّيس هذا، دعوهم يُحضِرون رؤوس التِّنِّين إلى هنا، ولكنَّكم سترون أنَّه لا يمكن لرأسٍ منها أن تشهد بالحقيقة لأنَّها تفتقر إلى اللِّسان. ها هي الألسنة، لقد أحضرتها إلى المحكمة لتكون حجَّةً عليه وبرهاناً لكم".

وأظهرَ الألسنة، فوقف الخسيسُ هناك ذاهلاً، لا يعرف ما حدث له،

---

1) مرَّ ذكره في إيضاحٍ سابقٍ: (كروتشِه).

خاصَّةً وأنَّ مينيكيلاَّ أضافت: "إنَّه هو! آه أيُّها الكلب الوقح، كيف تجرَّأت على فعل هذا؟!". وعلى الفور، قام الملك بنزع التَّاج عن رأس الفلاَّح الجلف، ووضعه على رأس تشينزو، وأراد أن يرسل الفلاَّح إلى السِّجن، ولكنَّ تشينزو، لكي يقابل الإساءةَ بإحسانٍ، التمسَ له العفوَ وحصل عليه. وهكذا أُعِدَّت الموائد لمأدبةٍ تليق بالسَّادة الكبار، ومضى العروسان للاستلقاء في سريرٍ جميلٍ تفوح منه رائحةُ الغسيل العطِرة، حيث دخل تشينزو، بعد أن رفع تذكار نصره على التِّنِّين، ظافراً مُظفَّراً صرحَ الحُبِّ.

في صباح اليوم التَّالي، حين كانت الشَّمس تمسك سيفَ الضَّوء بيديها الاثنتين، ملوِّحةً به وسط النُّجوم، وهي تصرخ: "هيَّا، تقهقروا من أمام وجهي يا أيُّها المارقون!"، كان تشينزو يرتدي ملابسه أمام إحدى النَّوافذ، فرأى في المنزل المقابل امرأةً شابَّةً، فالتفت إلى مينيكيلاَّ، وقال: "يا لجمال تلك الشَّابَّة التي تقف أمام ذلك البيت!". "وما شأنك بها؟ - أجابت زوجته: - هل وضعت عينيك عليها؟ هل أنت متعكِّر المزاج لسببٍ ما؟ أم أنَّك سئمت من الطَّعام الدَّسم؟ أليس اللَّحم الموجود في البيت كافياً لك؟".

أحنى تشينزو رأسه مثل هرٍّ تسبَّب ببعض الأضرار، ولم ينبس بكلمةٍ واحدةٍ، ولكنَّه زعمَ أنَّه ذاهبٌ لقضاء بعض الأعمال، وخرج من القصر ودخل منزل تلك الشَّابَّة. لقد كانت لقمةً لذيذةً حقّاً: كانت أشبه بحلوى طريَّةٍ، بعجينةٍ من السُّكَّر! لم تكن تحوِّل أبداً زرَّي عينيها دون أن تترك القلوب مدنفةً بنار العشق؛ ولم تكن تفتح أبداً محارة شفتيها دون أن تجعل النُّفوس تغلي؛ ولم تكن تحرِّك أبداً أخمص قدمٍ من قدميها دون أن تدوس بقوَّةٍ على أكتاف المتعلِّقين بحبال الآمال. ولكن، إلى جانب كلِّ جمالها السَّاحر، كانت تمتلك هذه القوَّة: كانت تستطيع، متى أرادت، أن تسحر، وتقيِّد، وتربط، وتكبِّل، وتلفَّ الرِّجال بشَعرها، كما فعلت مع تشينزو الذي، بمجرَّد أن وضع قدمه في بيتها، لبث مربوطاً مثل مُهر.

في ذلك الوقت، كان ميو، الأخُ الأصغر، يفكِّر في الذَّهاب بحثاً عن

تشينزو الذي انقطعت جميع أخباره، وبعد أن طلب الإذن من والده، حصل هو أيضاً على حصانٍ وجروةٍ مسحورَين. وفي طريق رحلته، وجد نفسه مساءً في البرج الذي كان تشينزو قد قضى فيه ليلته، ورحَّب به صاحب البرج أعظم ترحيبٍ، ظنّاً منه أنّه أخوه، وأراد أن يمنحه كنزاً من النُّقود، ولكنَّ عرضه قوبل بالرَّفض؛ غير أنَّ هذا الثَّناء جعله يعتقد أنَّ أخاه كان هناك، فازداد أمله في العثور عليه. وحالما أدار القمر، عدوُّ الشُّعراء، ظهره للشَّمس، استأنف رحلته، ووصل إلى المكان الذي كانت تعيش فيه الحوريَّة، وهي بدورها ظنَّته تشينزو، فرحَّبت به قائلةً: "حللت أهلاً ونزلت سهلاً، أيُّها الشَّابُّ الذي أنقذ حياتي!". شكرها ميو على لطفها، وقال لها: "اعذريني إذا كنت غير قادرٍ على المكوث، فأنا في عجلةٍ من أمري. سأراك في طريق العودة". وسعيداً بالعثور دائماً على آثار أخيه، تابع طريقه إلى أن وصل إلى قصر الملك، في اليوم نفسه الذي وقع فيه تشينزو في مصيدة شَعر السَّاحرة. وحالما دخلَ القصر، استقبله الخدم بمراسم تشريفٍ عظيمٍ، وعانقته العروس بحنانٍ كبيرٍ، وقالت له: "على الرَّحب والسَّعة يا زوجيَ العزيز. لقد مضى الصَّباح وحلَّ المساء، وحين ذهب كلُّ طائرٍ للبحث عن قوته، عادت البومة إلى منزلها. لماذا تأخَّرت كثيراً، يا حبيبي؟ كيف أمكنك البقاء بعيداً عن مينيكيلاَّ؟ لقد انتزعتَني من فم التِّنِّين، ولكنَّك تلقي بي في حلق الشَّكِّ إذا لم تكن عيناك دوماً هنا لتكونا مرآتي!". وفي الحال فهم ميو، الذي كان ذكيّاً، أنّها كانت زوجة أخيه، فاعتذر عن التَّأخير وعانقها، ثم جلسا لتناول طعام العشاء جنباً إلى جنب.

وحين دعا القمر، مثل دجاجةٍ، النُّجومَ لتنقر قطرات النَّدى، ذهب الاثنان إلى السَّرير. ولكنَّ ميو، احتراماً لشرف أخيه، قسَّم الملاءات، فأخذ واحدةً لنفسه وترك الأخرى لمينيكيلاَّ، لكيلا يكون هناك أيُّ احتمالٍ للمس زوجة أخيه. فما كان من المرأة، حين رأت منه هذه المعاملة الجديدة، سوى أن قالت له بحدَّةٍ وتجهُّمِ زوجة أبٍ: "ومنذ متى كنَّا هكذا يا نعمتي؟ ما

اللُّعبة التي نلعبها؟ وأيّة مقالب هذه؟ هل نحن حقلٌ لفلاّحَين متناحرَين حتى تضع هذا الخطَّ الفاصل بيننا؟ هل نحن جيشان عدوّان حتى تحفر هذا الخندق بيننا؟ هل نحن حصانان بريّان حتى تضع هذا القاطع الخشبيَّ بيننا؟". فأجاب ميو الذي كان يعرف العدَّ إلى ثلاثة عشر: "لا تشتكي منّي يا نعمتي، بل من الطَّبيب الذي أراد أن يطهّرني، فوصف لي حميةً؛ فضلاً عن أنّني، بسبب تعب يومٍ كاملٍ في الصَّيد، أشعر أنّني مقطوع الذَّيل". فابتلعت مينيكيلاّ، التي كانت لا تعرف كيف تعكّر الماء[1]، هذه الكذبة وأخلدت إلى النَّوم.

ولكن في الوقت الذي بدأت فيه الشَّمس تتنصَّت على اللَّيل الذي منح الشَّفق وقتاً ليُعدَّ خِراجَه[2]، وبينما كان ميو يرتدي ملابسه أمام النَّافذة نفسها، رأى تلك الشَّابَّة التي اصطادت تشينزو، ولأنّه وقع هو أيضاً في حبّها، سأل مينيكيلاّ: "مَن تلك اللَّعوب التي تقف عند النَّافذة؟ فأجابته بحنقٍ شديدٍ: "دعنا نعود إلى البداية! بالأمس أيضاً، غنّيت لي أغنية سمكة القُشْر تلك، وأخشى أن يذهب اللّسان حيث تتألّم الضّرس. ففي النّهاية، أنا ابنة ملكٍ، وعليك أن تُظهر لي قدراً أكبر من الاحترام، ولكلّ روثٍ رائحة! فليس من دون سببٍ، إذاً، أنّك في اللَّيلة الفائتة جعلت من نفسك عُقاباً إمبراطوريّاً، فأدَرْتَ الظّهر للظّهر![3] وليس من دون سببٍ أنّك يوم أمس انسحبت بمقتنياتك! لقد فهمتك: حِمْيَةٌ في سريري تعني مأدبةً في بيوت الآخرين. ولكن، إذا ما تثبَّتَ لي ذلك، فإنّني سأفعل أشياء مجنونةً وسأجعل الشَّظايا تتطاير في الهواء". فما كان من ميو، الذي كان قد ذاق الخبز من كثيرٍ من الأفران، إلّا أن راح يهدّئها بكلماتٍ طيّبةٍ، وقال لها مُقْسِماً إنّه ما

---

1) أي ساذجة وسريعة التّصديق؛ (كروتشِهْ).

2) جمع "خُرْج"، وهو وعاءٌ من شعرٍ أو جلدٍ، ذو عِدْلَين، يوضع على ظهر الدَّابّة لوضع الأمتعة فيه؛ (المترجمان).

3) العُقاب ذو الرَّأسين، شعار إمبراطوريّة هابسبورغ؛ (كروتشِهْ).

كان ليبدِّلَ بمنزله منزلَ أجمل محظيَّةٍ في العالم، وإنَّها كانت أغلى مخلوقٍ على قلبه. فذهبت مينيكيلاَّ مرتاحةَ البال تماماً إلى مقصورتها لكي تجعل وصيفات الشَّرف يمرِّرن الزُّجاج على جبهتها[1]، ويضفرن شعرها، ويصبغن رموشها، ويضعن الحمرةَ على وجنتيها، ويبهرجنها كلَّها لتبدوَ أكثر جمالاً لذاك الذي كانت تحسبه زوجَها.

في تلك الأثناء، إذ حزرَ من كلمات مينيكيلاَّ أنَّ تشينزو كان موجوداً في منزل تلك المرأة الشَّابَّة، اصطحب ميو الكلبة، وغادر القصر، وتوجَّه إلى المنزل المقابل، ولكنَّه لم يكن قد وصل بعد، حين قالت السَّاحرة الجميلة: "يا شَعري، اربط هذه الدَّخيل!". فهتف ميو الذي كان مستعدَّاً: "يا كلبتي الصَّغيرة، التهمي تلك المرأة!". وبقفزةٍ واحدةٍ ابتلعتها الكلبة كما لو كانت تبتلع صفار بيضة. ثمَّ ذهب ميو إلى الدَّاخل ووجد شقيقه المسحور؛ ولكن، بوبرتين من أوبار الكلبة وضعهما على جسده، بدا وكأنَّه يستيقظ من سُباتٍ عميق.

وراح ميو في الحال يخبره بكلِّ ما حدث له في الرِّحلة، وفي القصر الملكيِّ في نهاية المطاف، وكيف أنَّه كان على وشك أن ينام مع مينيكيلاَّ بعد أن ظنَّته هو. وأراد أن يروي له قصَّة المُلاءات المقسَّمة، حينما وضع تشينزو، بإغواءٍ من الشَّيطان، يده على نصل ذئبةٍ قديمةٍ[2] وقطع عنقه كما يُقطَع الخيار. لدى سماعها ذلك الصَّخب، أطلَّت ابنة الملك، ورأت أنَّ تشينزو قتل رجلاً آخرَ مشابهاً له، فسألته عن السَّبب، فأجاب: "اسألي نفسك، أنتِ التي نمتِ مع أخي معتقدةً أنَّكِ كنتِ تنامين معي؛ لهذا السَّبب قطعتُ رأسه". "أوه، لقد قتلتَه بغير حقٍّ! - هتفت مينيكيلاَّ: - يا للعمل البطوليِّ الذي قمتَ به! إنَّك لا تستحقُّ هذا الأخ النَّزيه! لأنَّه يجب

1) لتنعيم الجبهة كانت النِّساء في ذلك العصر يستعملن كرةً من الزُّجاج؛ (كروتشِه).

2) في إسبانيا، على امتداد قرنين من الزَّمن، كانوا يصنعون أنصالَ سيوفٍ رائعةً، كنت ترى نقش ذئبةٍ عليها؛ (كروتشِه).

أن تعلم أنَّه، حين وجد نفسه معي في السَّرير، قام بتقسيم المُلاءات بخفَرٍ شديدٍ، واقترح أن أبقى أنا مع نفسي، وأن يبقى هو مع نفسه".

حين سمع تشينزو ذلك، عضَّ بنانَ النَّدم على ذلك الخطأ الجسيم الذي هو ابنُ حُكمٍ متهوِّرٍ وأبُ حماقةٍ حمَاريَّة، وشطبَ نصفَ وجهه. ولكن، في أثناء ذلك، تذكَّر العشبة التي تعلَّم استخدامها من التِّنِّين، فأخذها وفرك بها رقبةَ أخيه، فالتصق جسده في الحال برأسه، ونهض هذا الأخير واقفاً على قدميه، كاملاً وحيَّاً. احتضنه تشينزو بفرحٍ كبيرٍ وتوسَّل إليه أن يغفر له أنَّه تصرَّف بغضبٍ ودونما درايةٍ، وأخرجَه من هذا العالم. وبعد ذلك، ذهبا معاً إلى القصر الملكيِّ. ومن هناك، أرسلوا في طلب أنطونييلُّو مع جميع أفراد أسرته، وحباهمُ الملك مكانةً مرموقةً لديه بعدما رأى في شخص الابن صحَّة المثل القائل:

القارب المنحرفُ يُبحر مستقيماً إلى الميناء.

وجه الماعز
المؤانسة الثَّامنة من اليوم الأوَّل

بفضلٍ من إحدى الحوريَّات تصبح ابنةُ أحد الفلَّاحين زوجةَ ملكٍ. ولكن، عندما تُظهر نكران الجميل تجاه مَن أحسنت إليها إحساناً عظيماً، تبدِّل الحوريَّة بوجهها وجهَ ماعز، فيحتقرها زوجها، وتَلقَى الكثير من المعاملات السَّيِّئة، إلى أن تتواضع في النِّهاية نتيجةً لتدخُّل عجوزٍ طيِّبٍ، وتستعيد شكلها السَّابق، وتعود ذاتَ حظوةٍ عندَ زوجها.

انتهت تشولَّا من سرد حكايتها التي استهوت الجميع، وجاء دورُ باولا لتدخل حلبة الرَّقص، فاستهلَّت كلامها قائلةً: كلُّ الشُّرور التي يرتكبها الإنسان، يكمن خلفها باعثٌ ما، فإمَّا تكبُّرٌ يحرِّضُ، وإمَّا حاجةٌ تُرغِمُ، وإمَّا حبٌّ يُعمي، وإمَّا غضبٌ يُشعل. ولكنَّ الجحود ليس له أيُّ سببٍ، لا سديدٍ ولا خاطئٍ، يمكن له أن يتعلَّق به؛ ولذلك، بئسَ هذه الرَّذيلة التي تجفِّف نافورة الرَّحمة، وتطفئ نار الحُبِّ، وتسدُّ طريق الإحسان، وتبعث الحزازةَ والنَّدم في نفس الشَّخص الذي يُنكِر فضلَه، كما سترون في الحكاية التي سأسردها على مسامعكم.

كان لفلَّاحٍ من بسطاء القوم اثنتا عشرة بنتاً، وما كان لدى إحداهنَّ الوقت لتعانق الأخرى، لأنَّ ربَّة المنزل الطَّيِّبة، زوجته تشيكُّوتسا، كانت في كلِّ عامٍ تهدي إليه واحدة. وكان الرَّجل الفقير، لكي يؤمِّن لقمة العيش بشرفٍ لأسرته، يخرج كلَّ صباحٍ ويعزق الأرض مقابل أجرٍ يوميٍّ؛ وكنتَ لا

تستطيع أن تقول أيُّهما كان أغزر، العرق الذي كان يسيل منه على الأرض، أو اللُّعاب الذي كان يبصقه في جوف يديه، لكي يحفظ، بذلك النَّزر اليسير الذي كان يجنيه من عمله، بناته من الموت جوعاً.

في أحد الأيَّام، بينما كان يحفر عند سفح جبلٍ يشمخ برأسه فوق الغيم ليتجسَّس للجبال الأخرى على ما يحدث في أعالي الأجواء، رأى سحليَّةً خضراء، كبيرةً بحجم تمساح، تخرج من كهفٍ عميقٍ ومظلمٍ جدَّاً لدرجة أنَّ الشَّمس نفسها كانت تخشى من ولوجه. اعترى الفلَّاحَ الفقيرَ ذهولٌ كبيرٌ، حتى إنَّه لم يجرؤ على الهرب؛ وجمد في مكانه ينتظر أن يفتح ذلك الحيوان القبيح فمه ويضع حدَّاً لأيَّامه. ولكنَّ السِّحليَّةَ اقتربت منه وحدَّثته قائلةً: "لا تخف، أيُّها الرَّجل الطِّيِّب، فأنا لست هنا لأؤذيك في شيءٍ، بل جئت لأكون عوناً لك". حينئذٍ جثا مازانييلُّو (وكان هذا هو اسم الفلَّاح) أمامها متوسِّلاً: "سيِّدتي، ما اسمُكِ، إنَّني خاضعٌ لقوَّتك، فتصرَّفي كشخصٍ طيِّبٍ، وأشفقي على هذا الرَّجل الفقير الذي يكدح لإطعام اثنتي عشرة مخلوقة". "ولهذا السَّبب بالضَّبط – أجابت السِّحليَّة – تحرَّكتُ لمساعدتكم. اجلب معك أصغر بناتك صباح الغد، لأنَّني أريد أن أرعاها كما لو أنَّها ابنتي وأن أحرص عليها كما لو أنَّها حياتي".

لبث الأب البائس، أمام هذا الاقتراح، مضطرباً أكثر من لصٍّ ضُبط بالجرم المشهود، لأنَّه عندما سمع السِّحليَّة تطلب إحدى بناته، الأكثر طراوةً بينهنَّ، فكَّر أنَّ العباءة لم تكن بلا وبرٍ خشنٍ، وأنَّ تلك السِّحليَّة كانت تطلب ابنته كقرصٍ مُدمَجٍ[1] تهدِّئ به جوعها. وقال في طويَّة نفسه: "إن أنا أعطيتها هذه الابنة، أعطيتها معها روحي، وإن رفضتُ طلبها، عرَّضت نفسي للهلاك. إن تخلَّيتُ لها عنها، حرمتُ نفسي من بؤبؤَي عينيَّ، وإن عارضتها، امتصَّت دمي. إن وافقتُ، أخذَتْ جزءاً من نفسي، وإن تحدَّيتها، أخذَتْ كلَّ شيء. فكيف يمكنني حلُّ هذه المعضلة؟ ما الخيار

1) انظر المؤانسة الثَّانية من اليوم الأوَّل؛ (المترجمان).

الذي ينبغي لي أن أتعلّق به؟ ما الحلُّ الذي عليَّ أن أتّكل عليه؟ أوه، أيُّ يومٍ سيِّئٍ هذا! أيُّ مصيبةٍ هذه التي سقطت عليَّ من السَّماء!". ولكنَّ السِّحليَّة قطعت عليه الطَّريق، قائلةً: "قرِّرْ بسرعةٍ وافعلْ ما قلته لك، وإلّا فإنَّه لن يبقى منك هنا سوى أسمالك، لأنَّ هذا ما أريد أن يكون، وهذا ما يجب أن يكون".

بعد أن سمع مازانييلّو هذا الحُكْمَ، ولأنَّه لم يكن لديه من يلجأ إليه، عاد إلى دياره حزيناً ومصفرَّ الوجه كأنَّه مصابٌ باليرقان. وحين رأته تشيكُّوتسا على هذه الحال من الحزن واليأس، الغصَّةُ في حلقه والألم يعتصر قلبه، استجوبته قائلةً: "ماذا حدث لك يا زوجي؟ هل تشاجرت مع أحدٍ ما؟ هل أرسل إليك أحدٌ ما بيانَ حسابٍ؟ أم أنَّ حمارنا قد مات؟". "لا شيء من كلِّ هذا – أجاب مازانييلّو – ولكنَّ سحليَّةً قرناء نكَّدت عليَّ يومي، لأنَّها هدَّدتني إنْ أنا لم آتِها بأصغر بناتنا، فإنَّها ستفعل أشياء في منتهى السُّوء؛ ولهذا فإنَّ رأسي تدور مثل عجلة الغَزْلِ، ولا أعرف ماذا عليَّ أن أفعل! فمن ناحيةٍ، يحاصرني الحبُّ، ومن ناحيةٍ أخرى، يحاصرني كراءُ المنزل. أنا أحبُّ رينزولّا بكلِّ جوارحي، ولكنَّني أحبُّ حياتي بالقدر نفسه. إذا رفضتُ أن أعطيها هذه المخلوقة التي هي من لحمي ودمي، فإنَّها لن تُبقي على مثقال ذرَّةٍ من جسميَ الشَّقيِّ هذا. قدِّمي لي، إذاً، المشورة يا حبيبتي تشيكُّوتسا، وإلّا فإنَّها نهايتي".

ولكنَّ زوجته هدَّأت من روعه قائلةً: "مَن يدري، يا زوجي العزيز؟ لعلَّ هذه السِّحليَّة تكون لمنزلنا سحليَّةً بذَنَبَين[1]. لعلَّ هذه السِّحليَّة تكون سبباً لوضع حدٍّ لبؤسنا. أنت تعلم أنَّنا كثيراً ما هوينا بالفأس على أقدامنا؛ وكلَّما كان علينا أن نمتلك بصر عُقابٍ لنرى الخير القادم إلينا، امتلكنا غشاوةً على عيوننا وسرطان بحرٍ في أيدينا، فلا نمسك به. فلتذهب،

1) كان هناك اعتقادٌ بأنَّ السِّحليَّة بذَنَبَين تجلب الحظَّ، وهو اعتقادٌ كان سائداً في الشَّرق الأقصى أيضاً، في الفلبِّين واليابان على سبيل المثال؛ (كروتشِه).

إذاً، ولتأخذها إليها، لأنَّ قلبي يخبرني أنَّ ثمَّة حظّاً سعيداً قد أُعِدَّ لهذه الطّفلة المسكينة".

اقتنع مازانييلُّو بهذه الكلمات؛ وفي الصَّباح، حالما قشعت الشَّمسُ، بفرشاةِ أشعَّتها، السَّماءَ المُسَوَّدَةَ بظلال اللَّيل، أمسك بيد الصَّغيرة وقادها إلى فم الكهف. لمحت السّحليَّةُ في الحال الفلَّاحَ الذي كانت تترقَّب وصوله، فخرجت من مخبئها. وبعد أن أخذت الطّفلة، أعطت لوالدها كيساً من العملات المعدنيَّة[1]، قائلةً له: "اذهب وزوِّج بهذا المال بناتك الأخريات، وكن سعيداً، لأنَّ رينزولَّا وجدت فيَّ الأب والأمّ. طوبى لها، لأنَّها لَقِيَتْ حظَّها!".

وشكر مازانييلُّو، وقد فاض صدرُه بالسَّعادة، السّحليَّةَ ومضى في طريقه وهو يقفز من الفرح، وحال وصوله إلى البيت، أخبر زوجته بما حدث وأراها المال الذي قدَّما به، بالدَّور والتَّرتيب، دوطةَ جميع البنات الأخريات، وبقي لهما منه قدرٌ كبيرٌ مكَّنهما، بعد ذلك، من ابتلاع مشقَّات الحياة بلذَّة.

وأمَّا السّحليَّة، فبعد أن امتلكت رينزولَّا بقربها، بَنَتْ لها قصراً جميلاً لتسكن فيه، وربَّتها في بذخٍ وأبَّهةٍ لا ينبغيان إلَّا لملكة: ولنضع في اعتبارنا هنا أنَّه لم ينقصها حتى حليب النَّملة[2]. وكان الطّعام يليق بكونتيسَّة، والملبس بأميرة، وكان لها تحت تصرُّفها مِائة فتاةٍ من الفتيات الغيورات والمتحمِّسات لخدمتها؛ وبفضل هذه المعاملة الجيِّدة، نمت حتى صارت في وقتٍ قصيرٍ جدّاً بطول شجرة بلُّوط.

ثمَّ حدث أنَّه، حين ذهب الملك للصَّيد في تلك الغابات، هبط عليه

---

1) العملة هي الباتاكُونه، Pataccone، وهي عملةٌ كانت تساوي في ذلك الوقت أكثر بقليل من ليرتين؛ (المترجمان).

2) أي أنَّ كلَّ أشكال البذخ والرَّفاهة كانت موجودةً. يقول بازيله في إحدى "ملهماته النابوليتانيَّات" واصفاً حانة تشيريليو: "وتجد في الحال كلَّ ما تشتهيه نفسك، حتى حليب النَّملة، ولسان الببّغاء، وريش العنقاء"؛ (المترجمان).

اللَّيل، ولم يعد يعرف أيَّ طريقٍ عليه أن يأخذ، ورأى ضوءاً يشعُّ من القصر، فأرسل خادمه ليطلب من سيِّد القصر أن يقدِّم له المأوى. ذهبت السِّحليَّة للقاء الخادم في شكل امرأةٍ شابَّةٍ وجميلةٍ، وبعد أن استمعت إلى رسالة الملك، أجابت أنَّه كان ألف مرَّةٍ موضعَ ترحيبٍ، وأنَّه لن ينقصه لا الخبز ولا السِّكِّين. دخل الملك واستُقبلَ استقبالَ الفرسان من قبل مِائة خادمٍ يحملون مشاعل مضاءةٍ، كما لو أنَّها مراسيم جنازةٍ فخمةٍ لأحد الأثرياء، وكان مِائةٌ آخرون يأتون بالطَّعام إلى المائدة، وقد بدوا وكأنَّهم خدمٌ مبعوثون من قِبَل صيدلانيٍّ أرسلَهم ليحملوا الأطايب للمرضى، ومِائةٌ آخرون كانوا يعزفون الموسيقى بآلاتهم وأدواتهم. ولكن، الأهمُّ من هذا وذاك، أنَّ رينزولَّا هي التي قدَّمت، بمنتهى اللُّطف، الشَّرابَ للملك الذي احتسى من الحُبِّ أكثر ممَّا احتسى من النَّبيذ. وحين انتهى من تناول طعامه، انسحب لكي يأوي إلى فراشه، فقامت رينزولَّا بنفسها بخلع جواربه من قدميه وقلبه من صدره، بكثيرٍ من الرِّقَّة والعذوبة. وحين لمسته تلك اليد الرَّقيقة، شعر بسمٍّ الحُبِّ يصعد من كعبيه ويزلزل كيانه.

ولكي يجد الملك دواءً لموته هذا، موته الذي بدا له أنَّ من المتعذِّر اجتنابه، قرَّر أن يحصل على ترياقه من ذلك الجمال؛ ومتوجِّهاً بكلامه إلى الحوريَّة التي كانت وليَّة أمرها، طلب منها يدَ رينزولَّا للزَّواج. والحوريَّة التي لم تكن تسعى سوى إلى ما فيه الخير لرينزولَّا، لم توافق فحسب، بل منحتها كدوطةٍ سبعة ملايين قطعةً ذهبيَّةً، فغادر الملك مع رينزولَّا، مفعماً بالبهجة لما ناله من حظٍّ عظيم.

ولكنَّ رينزولَّا، بفظاظةٍ ونكرانِ جميلٍ تجاه كلِّ ما فعلته الحوريَّة لأجلها، غادرت مع زوجها دون أن تقول لها ولو كلمةً واحدةً من كلمات الشُّكر والمودَّة. أمام هذا الجحود البغيض، أرسلت الحوريَّة عليها لعنةً تحوِّل وجهها إلى وجهٍ كوجه الماعز. وفي الحال، تمطَّط فم الفتاة إلى خطمٍ مع

لحيةٍ بطول شبرٍ، وتضيَّقَ فكَّاها، وتصلَّب جلدُها، واكتسى وجهها بالوبر، وتحوَّلت ضفائرها الملتفَّة حول رأسها، مثلَ سلَّةٍ، إلى قرنين مدبَّبَين.

وقع الملك المسكين بحرَجٍ كبيرٍ أمام هذا التحوُّل، وكم كان ذهوله كبيراً حين رأى ذلك الجمال الرَّائع يُمسَخ إلى هذه الصُّورة القبيحة. فتنهَّد وبكى بمرارةٍ بالغة، قائلاً: "أين الشَّعْر الذي كان يلفُّني؟ أين العيون التي كانت تطعنني؟ أين الثَّغر الذي كان مصيدةً لهذه النَّفْس، فخّاً لهذه الأرواح، أحبولةً لهذا القلب؟ ولكن ماذا؟ هل يجب أن أكون زوجَ عَنْزٍ وأحظى بالتَّيس لقباً؟ وتبعاً لذلك، ألا أكون كمن يدفع الرُّسوم في فوجّا؟[1] لا، لا، أنا لا أريد لقلبي أن ينفلق من أجل وجه عَنْزٍ، عَنْزٍ ستجلب عليَّ الحرب بتغوُّطها زيتوناً"[2].

مُتشكِّياً على هذا المنوال، حالما وصل إلى قصره، أودع رينزولّا لدى خادمةٍ في المطبخ، وأعطى هذه وتلك عشر حُزَمٍ من الكتَّان لكي تغزلاها، وأمهلهما أسبوعاً لإنجاز عملهما. أطاعت الخادمة أوامر الملك، وشرعت في تمشيط الكتَّان، وصنع الفتائل، ووضعها على عصا المِغزل، وتدويرها، لتشكِّل منها شلَّة النَّسيج، وهي تكافح مثل كلبة، لدرجة أنَّها مع حلول ليل السَّبت كانت قد أنجزت عملها. أمَّا رينزولّا التي كانت تحسب أنَّها لا تزال تلك الفتاة التي كانت في منزل الحوريَّة، لأنَّها لم تكن قد نظرت بعد إلى نفسها في المرآة، فقد رمت حزمةَ الكتَّان من النَّافذة، قائلةً: "إنَّ الملك يضيِّع وقته إن كان يظنُّ أنَّ بإمكانه أن يضعني في هذه الورطة! إن كان يريد قمصاناً، فليشترِها، ولا يعتقدنَّ أنَّه وجدني في قناةِ تصريفٍ

---

1) كانت فوجّا، عاصمة مقاطعة بوليا في الجنوب الإيطاليّ، مركزاً لتجمُّع قطعان المواشي وكان فيها أيضاً ما يُسمَّى بـ «دائرة جمارك المواشي»، ولذا فإنَّ القول إنَّ امرأ يدفع الرُّسوم في فوجّا يعني أنَّه «ذو قرون»؛ (المترجمان).

2) شكل روث الماعز، في صورةٍ تنطوي على تناقضٍ مع شجرة الزَّيتون التي تُعَدُّ أغصانها رمزاً للسَّلام؛ (كروتشه).

على جانب الطَّريق! فليتذكَّر أنَّني حملتُ له دوطةً بسبعة ملايين قطعةٍ ذهبيَّةٍ، وأنَّني زوجته ولست خادمته؛ وإنَّه ليبدو لي أنَّه يتَّصرف كالحمار إذْ يعاملني بهذه الطَّريقة!".

مع كلِّ هذا، في صباح يوم السَّبت، حين رأت أنَّ الخادمة قد انتهت من نسج حصَّتها من الكتَّان، انتابها خوفٌ شديدٌ من أن يُعهَدَ إليها بأمر تمشيط الصُّوف وتنعيمه، ولذا انطلقت إلى قصر الحوريَّة وروت لها سوء حظِّها. احتضنتها الحوريَّة بمحبَّةٍ كبيرةٍ وأعطتها كيساً مليئاً بالغزل لتقدِّمه لزوجها وتُظهر له أنَّها ربَّة منزلٍ جيِّدة. أخذت رينزولَّا الكيس، ودون أن تقول "شكراً جزيلاً على هذه الخدمة!"، أدارت لها ظهرها، فلم تعرف الحوريَّة، حيالَ السُّلوك السَّيِّئ للفتاة التي خلا قلبها من المحبَّة، سبيلاً إلى تهدئة نفسها.

استلمَ الملكُ الغَزْلَ منهما، وسلَّمهما كلبين، كلباً لها وآخرَ للخادمة، لكي تربِّياهما وتعتنيا بهما. ربَّت الخادمة كلبها بكلِّ أساليب الرِّقَّة وعاملته وكأنَّه ابنٌ لها. ولكنَّ رينزولَّا صاحت مُضجَّةً: "نعم، ربَّما هذه هي بالضَّبط الفكرة التي تركها لي جَدِّي؟ أتُراني وقعتُ في أيدي الأتراك؟ هل يجب عليَّ تمشيط الكلاب واصطحابهم لقضاء حاجاتهم؟"، وألقت به من النَّافذة، ولم يكن الأمر مجرَّد قفزٍ عبرَ الحلقات. ولكن بعد بضعة أشهرٍ، سأل الملك عن الكلاب، فاستولى الخوف على رينزولَّا، ولم تجد بدَّاً من الهرع مرَّةً أخرى إلى الحوريَّة.

هناك، وجدت على بابها رجلاً عجوزاً سألها قائلاً: "من أنتِ؟ وماذا تريدين؟". لم تكن رينزولَّا تتوقَّع مثل هذا السُّؤال، فانفجرت بحنقٍ: "ألا تعرفني يا لحية الماعز؟". "أتأتينني بالسِّكِّين؟ - أجاب الرَّجل العجوز؛ - اللِّصُّ يطارد الشُّرطيَّ! تنحَّ جانباً لئلَّا تلطِّخ ثيابي، قال صانع المراجل! طأطئ رأسك، لئلَّا تسقط! أأنا لحية ماعزٍ؟ بل أنتِ لحية ماعزٍ ونصف، فبسبب

غطرستكِ تستحقِّين هذا وأكثر. انتظري قليلاً أيَّتها الوقحة المتعجرفة، وسأفسِّر لك كلَّ شيءٍ، وسترين إلى أيِّ حدٍّ أوصلك وَهْمُ تكبُّرك!". ثمَّ هرع إلى غرفة الملابس، وأتى بمرآةٍ، ووضعها أمام رينزولّا.

وحين رأت ذلك الوجه القبيح المكسوَّ بالشَّعر، كاد قلبها أن ينفطر من الألم، حتى إنَّ رينالدو[1] نفسه، حين نظر في الدِّرع المسحور ورأى نفسه مختلفاً تماماً عمَّا كان عليه، لم يشعر بمثل هذا الألم الكبير الذي شعرت به حين رأت أنَّها تشوَّهَت لدرجةٍ لم تستطع معها أن تعرف نفسها. واستأنف الرَّجل العجوز قائلاً: "يجب أن تتذكَّري يا رينزولّا أنَّكِ ابنة فلَّاحٍ، وأنَّ الحوريَّة عاملتكِ بلطفٍ كبيرٍ وصنعَتْ منكِ ملكة. ولكنَّك كنت حمقاء وفظَّةً وناكرةً للجميل، فلم تُظهري أيَّ امتنانٍ لفضلٍ واحدٍ من أفضالها العديدة، ولم تُفسحي لها مكاناً إلَّا في تلك الغرفة التي في الوسط[2] فحسب، ولم تُظهري لها علامةً واحدةً من علامات الحُبِّ. لذلك، خذي الآن وأنفقي، خذي هذا وارجعي من أجل البقيَّة! لقد سارت الأمور على ما يُرام بالنِّسبة إليكِ! تأمَّلي أيَّ وجهٍ تملكين الآن، وانظري إلى أيِّ دركٍ وصلتِ بسبب جحودك: لعنة الحوريَّة لم تغيِّر وجهكِ فحسب، بل ومقامكِ أيضاً. مع ذلك، إن كنت ترغبين في اتِّباع مشورة هذه اللِّحية البيضاء، ادخلي إليها، وألقي بنفسك عند قدميها، وانتفي خصلات شعرك، واخدشي وجهك، والطُمي صدرك، واسأليها العفو عن سلوككِ السَّيِّئ تجاهها. إنَّها تملك قلباً طيِّباً، وسوف تأخذها الرَّأفة بكِ في المصائب التي حلَّت بك".

وإذْ تلمَّسَتْ رينزولّا جيِّداً ملمسَ العلَّة ومكمنَ الغرض، تصرَّفَتْ وفقاً لنصيحة العجوز، وما كان من الحوريَّة إلَّا أن عانقتها وقبَّلتها وأعادتها إلى

1) شخصيَّةٌ في ملحمة "أورلاندو الهائج" للشَّاعر الإيطاليِّ لودوفيكو أريوستو (1474-1533) وفي ملحمة "تحرير أورشليم" للشَّاعر الإيطاليِّ أيضاً، توركواتو تاسُّو (1544-1595)؛ (المترجمان).

2) يقصد «في شرجها»، أي دون إيلاء أيِّ اعتبارٍ لها؛ (كروتشه).

شكلها السَّابق، ثمَّ ألبستها رداءً من الذَّهب، وأركبتها عربةً رائعةً يرافقها عددٌ كبيرٌ من الخدم، وأعادتها إلى الملك. وحين رآها هذا الأخير، بكلِّ أبَّهتها وجمالها، أحبَّها بقدر حياته، ولطم صدره بقبضتين قويَّتين للآلام التي سبَّبها لها، واعتذر لأنَّه وضعها موضعَ الأشياء الخسيسة، بسبب ذلك الوجه، وجه العَنْز اللَّعين.

وهكذا عاشت رينزولَّا سعيدةً، تغمر زوجها بالحبِّ وتكرِّم الحوريَّة وتُظهر الامتنان للرَّجل العجوز، لأنَّها كانت قد تعلَّمت على نفقتها الخاصَّة:

أنَّ التَّهذيب دائماً ما يعود على المرء بالنَّفع.

الظَّبية المسحورة
المؤانسة التَّاسعة من اليوم الأوَّل

وُلد فونزو وكانِّيلورو بتعويذةٍ سحريَّة، ويصبح كانِّيلورو موضعَ حسدٍ من قبل الملكة، والدة فونزو، التي تجرحه في جبينه. يغادر كانِّيلورو على إثر ذلك وينفصل عن صديقه فونزو، وبعد أن يصبح ملكاً، يجابه خطراً كبيراً. يدرك فونزو، بفضل نافورةٍ وشجرة آسٍ، المأزق الذي وقع فيه كانِّيلورو، فينطلق ليفكَّ أسره.

لقد أصغوا بأفواهٍ فاغرةٍ إلى قصَّة باولا الجميلة، وخلصوا إلى القول إنَّ مَثَلَ المتواضع كَمَثَل الكرة، كلَّما ازدادت شدَّةُ ضربها على الأرض، ازدادَتْ تحليقاً إلى أعلى، وكَمَثَل التَّيس، كلَّما تراجع أكثر، نطح بقوَّةٍ أكبر. ولكنَّ تاديو أشار إلى تشومِّتِلَّا أن تواصل حديثها، فأدارت هذه لسانها على هذا المنوال:

عظيمةٌ، ولا يتطرَّق إليها الشَّكُّ، قوَّة الصَّداقة، وبفضلها نركب الصِّعاب والمخاطر خدمةً للصَّديق: المتاع لا يساوي أكثر من قشَّةٍ صغيرةٍ، والشَّرف لا يساوي أكثر من جدجدٍ مملَّحٍ[1]، والحياة لا تساوي شيئاً، عندما تُبذَل لمساعدة صديق. وبشواهد على هذا تفيض الحكايات وتغصُّ القصص، وسوف أروي لكم اليوم حكايةً اعتادت أن تقصَّها عليَّ جدَّتي سيمونيلَّا

1) نوعٌ من الجداجد كان القراصنة الدَّلماسيُّون والقراصنة العرب يأكلونه حين يكونون في عرض البحر: (كرونشة).

(فلتتغمَّد الرَّحمةُ روحَها!)، فإذا شئتم الإصغاء قليلاً، أغلقوا أفواهكم وأطيلوا آذانكم.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، ملكٌ من لونغابرغولا يدعى يانُونِهْ، وكانت نفسُه تتوق إلى إنجاب ذُرِّيَّة، فكان يصلِّي دائماً إلى الآلهة لكي يمنُّوا عليه ويجعلوا زوجته تحبل، ولكي يحثَّهم على منحه هذه المسرَّة، كان عطوفاً جدَّاً على الحجَّاج، ومستعدَّاً لمنحهم بؤبؤي عينيه. ولكن في النِّهاية، بعدما رأى أنَّ الأمور بدأت تطول كثيراً، وأنَّه لم يكن ثمَّة بزوغٌ لأيِّ برعمٍ، تغيَّر مزاجه، وأصبح كئيباً وصعب المراس، فأغلق باب منزله بالمزلاج، وإذا اقترب أيُّ شخصٍ منه، رماه بالقوس والنُّشَّاب.

وصادف أن مرَّ بتلك الأرض رجلٌ فائق الحكمة، ذو لحيةٍ بيضاء طويلةٍ، ولم يكن يعرف أنَّ الملك قد غيَّر من سلوكه، أو لعلَّه كان يعرف ذلك وكان راغباً في علاجه، فذهب لزيارة يانُونِهْ وطلب منه أن يستضيفه في بيته. فأجابه الملك بوجهٍ متجهِّمٍ وعُبُوسٍ مُخيف: "إنْ كنتَ لا تملك سوى هذه الشَّمعة، فيمكنك الذَّهاب إلى الفراش في جُنحِ الظَّلام! لقد انقضى الوقتُ لكي تغزلَ بيرتا الآن[1]. الآن، فتحت القططُ الصَّغيرة عيونها، ولم يعد هناك ما يُسمَّى ماما في الوقت الحاضر!". فسأله الرَّجل العجوز عن الباعث على هذا التَّغيير، فردَّ الملك قائلاً: "رغبةٌ في إنجاب وريثٍ يخلفني، أنفقتُ وفرَّقتُ على الغادين والرَّائحين، وألقيت لهم بكلِّ ما أملك. ولكن، بعد أن تبيَّن لي في النِّهاية أنَّني فقدتُ القدرة على حلاقة ذقني، سحبتُ يديَّ ورفعت المرساة". "إن كان الأمر لا يتعدَّى هذا - أجاب الرَّجل العجوز - فلا تقلق، لأنَّني سوف أجعلها تخرج في القريب العاجل حُبلى، وأراهن على ذلك بأذنيَّ!". "إن فعلتَ ذلك - قال الملك

1) جملةٌ مأخوذةٌ من أغنيةٍ شعبيَّةٍ قديمةٍ، تحوَّلت فيما بعد إلى مثلٍ شعبيٍّ يُراد به استذكار الأيَّام الجميلة الماضية؛ (المترجمان).

- أعدك أنّني سوف أعطيك نصف مملكتي". وأجاب الرَّجل العجوز: "هيَّا، اصغُ إليَّ جيِّداً. إذا كنت ترغب في تلقيح شجرة الكمَّثرى، فما عليك سوى أن تحصل على قلب تنِّينٍ بحريٍّ وأن تطهوه فتاةٌ عذراء، والفتاةُ ستصبح حبلى بدورها من الرَّائحة التي ستنبعث من القِدْر فحسب. وحالما يُطهى القلب، دع الملكة تأكل منه وسترى أنَّها ستحبل من فورها وكأنَّها في شهرها التَّاسع". "كيف يمكن أن يحدث هذا؟ - تعجَّبَ الملك - يبدو لي، وأقولها صراحةً، أنَّ هذا شيءٌ أكبر ممَّا يمكن ابتلاعه!". " لا تتعجَّب - قال الرَّجل العجوز - فلو أنَّك اطَّلعتَ على الحكايات، لرأيتَ أنَّ جونو[1]، حين مرَّت فوق زهرةٍ في حقول أوليني الجميلة، شعرت ببطنها تنتفخ وأنجبت". "إن كان الأمر كذلك - عاد الملك إلى القول - فليُعثَر في الحال على قلب هذا التِّنين، فأنا في النِّهاية لن أخسر شيئاً".

وهكذا، أُرسِلَ مائة صيَّادٍ إلى البحر، بعد أن سُلِّحوا جميعاً بالحِراب، والحبال الطَّويلة، والرِّماح، وقُفَفِ الخيزران، والصَّنانير والشِّباك، وظلُّوا يطيفون ويهيمون إلى أن اصطادوا تنِّيناً، فانتزعوا قلبه وجلبوه إلى الملك الذي طلب من إحدى المحظيَّات أن تطهوه. أقفلت المحظيَّة على نفسها بابَ الغرفة، وما إن وضعت القلب على النَّار حتى تصاعد بخار الغليان، ولم تصبح الطَّاهية الجميلة وحدها حاملاً، بل تضخَّمت بطون كلِّ قطع الأثاث في الغرفة. وبعد بضعة أيَّامٍ أنجبوا جميعاً. فالسَّرير أنجبَ سريراً صغيراً، والخزْنة صندوقاً صغيراً، والكراسيُّ مقاعد صغيرةً، والطَّاولة طاولةً صغيرةً، وإناءُ اللَّيل مِبْوَلَةً صغيرةً مطليَّةً وجميلةً جدَّاً، متعةً للنَّاظرين.

بعد أن طُهي القلب، ما إن ذاقته الملكة حتى شعرت ببطنها ينتفخ. وفي غضون أربعة أيَّامٍ، أنجبت كلُّ واحدةٍ منهما، هي والمحظيَّة، طفلاً

1) أخت وزوجة جوبيتر كبير الآلهة في الأساطير الرُّومانيَّة، وكانت نساء الرُّومان خصوصاً يقدِّسنها بصفتها ملكة الزَّواج وإلهة ميلاد الأطفال؛ (المترجمان).

جميلاً، وكان الطِّفلان متشابهَين تمامَ الشَّبه، حتى كان لَيبدو من المستحيلِ التَّمييز بينهما.

كبر الاثنان جنباً إلى جنبٍ يغمر كلاًّ منهما حبٌّ كبيرٌ نحو الآخر، فكان أحدهما لا يستطيع البقاء لحظةً دون رفيقه، وكان عميقاً جدّاً وَلَعُ أحدهما بالآخر، فبدأت الملكة تشعر ببعض الحسد لأنَّ ابنها يُظهر لابن محظيَّةٍ محبَّةً أكبر من التي يُظهرها لها، ولم تكن تعرف كيف تزيل هذا القذى من عينها.

في أحد الأيَّام، أراد الأمير أن يخرج في رحلة صيدٍ مع رفيقه، فطلب إشعال النَّار في موقد غرفته، وبدأ يذيب الرَّصاص لصنع الخُرْدُقِ، ولكنَّه اكتشف أنَّ شيئاً ما كان ينقصه، فقام للبحث عنه بنفسه. في هذه الأثناء، جاءت الملكة لترى ما كان يفعله ابنها، فوجدت كانِّيلورو، ابن المحظيَّة، وحدَه، وإذْ عقدت النِّيَّة على محوه من هذا العالم، رمته بكرةٍ متوهِّجةٍ من الرَّصاص في وجهه. انحنى الشَّابُّ إلى الأسفل، فأصابته الكرة فوق حاجبه وسبَّبت له جرحاً خطيراً. ولكانت الملكة أعادت الكرَّة، لو أنَّ ابنها لم يصل في تلك اللَّحظة، فتظاهرت عندئذٍ أنَّها أتت لتفقُّد أحواله، ثمَّ منحته بضعَ مداعباتٍ بائخةٍ وغادرت الغرفة.

ظلَّ كانِّيلورو، الذي كان في هذه الأثناء قد وضع قبَّعةً غطَّى بها جبهته حتى لا يرى الآخر ما حدث، راسخاً وثابتاً في مكانه مع أنَّ الجرح كان يلسعُه. وحين انتهى من لفِّ كريَّات الرَّصاص كما لو كانت خنافسَ، طلب الإذن من الأمير لمغادرة البلاد، ممَّا أثار دهشة فونزو، ذلك أنَّه لم يكن قد أتى على ذكر شيءٍ من هذا القبيل من قبل، فسأله عن سبب قراره المفاجئ هذا، فردَّ كانِّيلورو قائلاً: "لا تبحث عن أيِّ سببٍ يا عزيزي فونزو؛ كلُّ ما عليك معرفته هو أنَّني مضطرٌّ إلى المغادرة؛ وتعلم السَّماء أنَّني إذا ما تركتك، وأنت خلِّي الوفيُّ، انخلع القلبُ من صدري، وغادرَت الرُّوحُ

جسمي، واختفى الدَّم من أوردتي. ولكن، لمَّا كان ليس في الإمكان فعلُ شيءٍ آخر، ابقَ بصحَّةٍ جيِّدةٍ وتذكَّرني".

وهكذا، بعد العناقِ والدُّموع، انصرفَ كانِّيلورو إلى غرفته، ارتدى الزَّرَدَ والسَّيف، وهذان أيضاً كان قد أنجبهما زَرَدٌ وسيفٌ آخران حين كان قلبُ التِّنِّين يُطهَى، ثمَّ أخذ حصاناً من الإسطبل. وكان على وشك أن يضع قدمه في الرِّكاب حين انضمَّ إليه فونزو باكياً وقال له، بما أنَّه كان عازماً على التَّخلِّي عنه، أن يترك له على الأقلِّ أيَّ علامةٍ على حبِّه، علَّها تخفِّف من وطأة الحزن على غيابه. فاستلَّ كانِّيلورو عندئذٍ خنجره وغرزه في الأرض، وعلى الفور انبجسَتْ عينُ ماءٍ جميلةٌ، وقال: "هاك، هذه هي أفضل ذكرى يمكن أن أتركها لك، فمن خلال مجرى هذه العين ستعرف مجرى حياتي. إذا رأيت الماء يسري رائقاً، فهذا يعني أنَّني أنا أيضاً رائقٌ مطمئنُّ الحال؛ وإذا كان عكراً، فليكن في حسبانكَ أنَّني أعاني من المتاعب؛ وإذا جفَّ (لا شاءَتِ السَّماء)، فلتضَعْ في اعتبارك أنَّ زيت مصباحي على وشك أن ينضب، وأنَّني وصلتُ إلى حيث ينبغي أن أدفع للطَّبيعة الإتاوةَ التي لا بدَّ منها". ثمَّ امتشقَ سيفه وهوى به على الأرض، فنبتَتْ جنبةُ آسٍ: "وطالما رأيتَ هذه الجنبة يانعةً، كنتُ أنا أيضاً يانعاً كالثُّوم؛ فإذا رأيتَها ذاويةً، وَجَبَ عليك أن تفكِّر في أنَّ حظوظي ليست شامخةً للغاية؛ أمَّا إذا يبسَتْ تماماً، فيمكنك حينئذٍ أن تدعوَ بالرَّحمة لروح كانِّيلورو، بأحذيته وقباقيبه"[1]. ثمَّ عانق صديقه مرَّةً أخرى، وغادر.

مشى كانِّيلورو ومشى، وبعد أن اعترضَتْ طريقه حوادث كثيرةٌ يطول الحديث عنها، كالمُشادَّات مع الحوذيِّين، وحِيَلِ أصحاب الحانات، واغتيالاتِ محصِّلي الضَّرائب، ومخاطر المسالك الخبيثة، وأهوال قطَّاع الطُّرق، وصل إلى فينيافيوريتا في اليوم نفسه الذي كانت تُقام فيه مبارزةٌ

---

1) تحويرٌ لجملة «requiescat in pace»، حيث المقطعُ اللفظيُّ «scat" يصبحُ "scarpe"، ويُضاف إليه "zoccoli"، أي قباقيب، لغايةٍ تعداديَّةٍ بلاغيَّةٍ؛ (كروتشِه).

بالسُّيوف، وكانت الجائزة المعلَنة للفائز ابنة الملك. وقد أظهرَ كانِّيلورو، الذي تقدَّم للمشاركة في المسابقة، شجاعةً فائقةً وطرح أرضاً معظم الفرسان الذين كانوا قد أتوا من أماكن مختلفةٍ بحثاً عن الشُّهرة، وهكذا زُوِّجَ بِفينيتْسيا، ابنةِ الملك، وأقيمَتْ لهما حفلة زفافٍ مهيبة.

لبضعة أشهرٍ عاش العريسان في صفاءٍ وهناءٍ، إلى أن استولىَ على كانِّيلورو ذلك التَّوق الحزين إلى القيام برحلة صيدٍ. فقال له الملك: "انظر أين تضع ساقك[1] يا صهري! حذارِ أن يعميك الشرُّ! حكِّمْ عقلك! افتح عينيك جيِّداً يا بنيَّ! ففي هذه الغابة يطوف غولٌ شيطانيٌّ يغيِّر كلَّ يومٍ من هيئته، فهو تارةً أسدٌ، وتارةً ظبيٌ، وتارةً حمارٌ، وتارةً هذا الشَّيء وتارةً ذاك؛ وبآلاف الحِيَل يجرُّ المنحوسين الذين يلتقون به إلى كهفٍ يأكلهم فيه. لذلك، لا تُلقِ بنفسك إلى التَّهلكة يا بنيَّ، لأنَّه لن يبقى منك وراءَ ظهرك سوى الخِرَق!".

لم يأخذ كانِّيلورو، الذي كان قد ترك الخوف في رحم أمِّه، بمشورة حَميه، وخرج إلى الصَّيد حين لم تكن الشَّمس قد كنستْ بَعْد بمكنسةِ أشعَّتها سُخامَ اللَّيل. وحين وصلَ إلى غابةٍ، حيث الظِّلال تتجمَّع تحت ظلَّةٍ من الأغصان لتتواطأ وتتآمر ضدَّ الشمس، تحوَّلَ الغولُ الذي رآه من بعيدٍ إلى ظبيةٍ جميلةٍ، فأخذ كانِّيلورو يطاردها، ولكنَّ الظَّبية أبقته بعيداً عنها وألهته طويلاً إلى أن جذبته إلى قلب الغابة. هنا أنزل الغول وابلاً شديداً من المطر والثُّلوج، وبدَتِ السَّماء وكأنَّها موشكةٌ على السُّقوط، وإذْ وجدَ كانِّيلورو نفسَه أمام كهفٍ، دخلَه بحثاً عن مأوىً، ولأنَّه كان يقشعرُّ من البرد، جمع بعض الحطب الذي كان في الكهف، ثم قدحَ الزِّنْدَ الذي أخرجه من جرابه وأشعل ناراً كبيرة.

وبينما كان يدفِّئ نفسه ويجفِّف ثيابه، ظهرت الظَّبية في باب الكهف

1) العبارة توسكانيَّة الأصل، وهي تعود إلى عادة قديمة تتمثَّل في لمسِ ساقِ من كان يُزَجُّ به في السِّجن بسبب الدُّيون، مع هتافٍ مشفقٍ: انظر أين تضع ساقك!؛ (كروتشه).

وتوسَّلت إليه قائلةً: "يا سيِّدي الفارس، اسمح لي أن أتدفَّأ قليلاً، لأنَّ جسمي تخدَّر من البرد". فأجابها كانِّيلورو، الذي كان دَمِثَ الخُلُق، قائلاً: "تفضَّلي، على الرَّحب والسَّعة". "أنا آتية - أجابت الظَّبية - ولكن أخشى أن تقتلني بعد ذلك". "لا ترتابي - ردَّ كانِّيلورو - أعطيكِ كلمتي". "إذا كنت تريدني أن آتي - قالت الظَّبية مرَّةً أخرى - فلتربطْ تلك الكلاب لئلَّا تؤذيني، ولتقيِّدْ الحصان لئلَّا يركلني". ربط كانِّيلورو الكلابَ وقيَّدَ الحصان. "نعم، أنا نصف مطمئنَّةٍ الآن. ولكن إنْ أنتَ لم تربط السَّيف، فما أنا بداخلةٍ وحقِّ روح جدِّي". وما كان من كانِّيلورو، الذي كان يودُّ أن يتآلف مع الظَّبية، إلَّا أن ربط السَّيف كما يفعل الفلَّاح حين يحمله داخل المدينة خوفاً من رجال الشُّرطة[1]. وحين رأى الغولُ كانِّيلورو مجرَّداً من سلاحه، استعاد شكله الحقيقيَّ، وبعد أن أمسك به، ألقاه في حفرةٍ كانت في آخرِ الكهف، وسدَّ فتحتها بحجرٍ، ليأكله في وقتٍ لاحقٍ.

في هذا الحين، وجدَ فونزو الذي لم ينقطع أبداً، لا صباحَ ولا مساءَ، عن زيارة النَّبع وشجرة الآس مستسقياً الأخبار عن أحوال كانِّيلورو، وجدَ الأوَّل عكراً والأخرى ذابلةً، وخمَّنَ على الفور أنَّ صديقه الحميم يواجه المخاطر. فعقد العزمَ على مساعدته، ولم يطلب الإذن من والده أو والدته، بل تسلَّح جيِّداً، وامتطى فرسه، وانطلق عبر العالم يرافقه كلبان مسحوران. طافَ وطوَّفَ في البلاد، ذاهباً مرَّةً في هذا الاتِّجاه ومرَّةً في ذاك، إلى أن وصل إلى فينيافيوريتا التي وجدها غارقةً في الحِداد لاعتقادهم أنَّ كانِّيلورو قد قضى نحبه. ولكن حالما ظهرَ فونزو، ولشبهه الكبير بكانِّيلورو، حَسِبَه جميع من كانوا في البلاط صهرَ الملك، حتى إنَّ كثيرين منهم هرعوا إلى فينيتْسيا يسألونها إكراميَّةً على البشارة التي حملوها إليها.

---

1) كان ثمَّة مرسومٌ صدرَ في عام 1573، يقضي على من يدخل مدينةَ نابولي من الزُّوَّار والفلَّاحين أن تكون بواريدهم غير محشوَّةٍ بالبارود وسيوفهم مربوطة؛ (المترجمان).

نزلت فينيتْسيا الأدراجَ بلهفةٍ وألقت بنفسها بين ذراعَي فونزو، قائلةً له: "يا زوجي، يا فؤادي، أين كنت طوالَ هذه الأيَّام؟". حَدَسَ فونزو في الحال أنَّ كانِّيلورو قد جاء إلى هذه الأرض وغادرها، ورسم خطَّةً لاستنطاق الأميرة بحذَرٍ ورويَّةٍ علَّه يستنبطُ من كلماتها المكانَ الذي يمكن أن يكون فيه صديقُه. وإذْ سمعهم يقولون: "لقد عرَّض نفسه لخطرٍ جسيمٍ بسبب رحلة الصَّيد اللَّعينة تلك، ولا سيَّما إن كان قد التقى بالغول الذي يُعامل الرِّجال بوحشيَّةٍ منقطعة النَّظير"، فخلصَ إلى أنَّ صديقه قد وقع في المصيدة هناك. ولكنَّه لم يقل شيئاً، وحين أرخى اللَّيل سدوله، ذهب إلى الفراش، وفيه تظاهر أنَّه كان قد قدَّم نذراً إلى ديانا[1] بألاَّ يلمس زوجته في تلك اللَّيلة، ووضع بينه وبين فينيتْسيا سيفاً بلا غمدٍ، كأنَّما يُقيم به سياجاً بينهما، وانتظر بفارغ الصَّبر أن تخرجَ الشَّمسُ وتعطي السَّماء بعض الحبوب الذَّهبيَّة[2] لتطهِّرها من الظِّلِّ.

في الصَّباح، حين نهض من السَّرير، لم تمنعه توسُّلات فينيتْسيا ولا أوامر الملك من الخروج إلى الصَّيد. وهكذا، على صهوة حصانه، ومتبوعاً بكلبيه المسحورَين، دخل فونزو الغابة، حيث حدث له الشَّيءُ نفسُه الذي حدثَ لكانِّيلورو. وحين ولج الكهفَ، استرعى انتباهَه على الفور أسلحةُ صديقه وكلابُه وحصانُه المربوط، فأصبح على يقينٍ من أنَّ كانِّيلورو قد تعثَّر هناك. ولكن حين طلبَتْ منه الظَّبية أن يربط الأسلحة والحصان والكلبَين، هوَّشَ هذين الأخيرين عليها، فجعلاها تخرُّ صريعةً. وبينما كان يبحث عن صديقه، سمع أنيناً يخرج من الحفرة، فرفع الحجرَ وأخرج كانِّيلورو مع كلِّ أولئك الآخرين الذين كان الغولُ يحتفظ بهم هناك، مدفونين أحياء، بغيةَ تسمينهم. ثمَّ تعانقا بفرحٍ غامرٍ، وعادا إلى المنزل.

---

1) هي، في الميثولوجيا الرُّومانيَّة، إلهة القمر والصَّيد والعفَّة؛ (المترجمان).

2) حبوب دواءٍ مليِّنة؛ (كروتشة).

حين رأتهما فينيتْسيا عائدَين، لم تعرف كيف تميِّز أيُّهما زوجها، ولكن ما إنْ نزع كانِّيلورو قبَّعته ورأت النَّدبة حتى عرفته وهرعت إليه لتعانقه.

مكثَ فونزو في ذلك البلاط شهراً، مستمتعاً بشتَّى ضروب التَّسلية؛ ولكنَّه بعد ذلك أراد العودة إلى وطنه ورؤية عشِّه من جديد. أرسل كانِّيلورو معه رسالةً إلى والدته لكي تأتي وتشاركه في عظمته، ففعلت ذلك، ومنذ ذلك الحين لم يعد يريد أن يعرف شيئاً عن الكلاب أو الصَّيد، وتذكَّرَ المثلَ القائلَ:

ما أتعسَ مَن يُعاقَب من كيسِه.

العجوز المسلوخة
المؤانسة العاشرة من اليوم الأوَّل

يهيمُ ملكُ روكّافورتِهْ حبّاً بصوت امرأةٍ عجوزٍ لم يَرَها، ومخدوعاً بمرأى إصبعٍ ناعمٍ، يستقبلها في فِراشه. ولكن، إذْ يكتشف الخدعة، يوعزُ في إلقائها من النّافذة، فتبقى معلّقةً بشجَرةٍ، وتُلقي عليها سبعُ حوريّاتٍ سحرهنّ، فتصبح شابّةً جميلةً ويتّخذها الملك زوجةً. تحسدُها شقيقتها على حظّها، ولكي تصبح هي أيضاً جميلةً مثلها، تطلبُ أن يُسلَخ جلدُها، وتموت.

لم يكن هناك مَن لم تُعجبه قصّة تشومِّتلّا، وقد شعروا بمتعةٍ لا حدود لها برؤية كانِّيلورو محرَّراً والغولَ الذي كان يذيق الصّيادين المساكين مُرَّ العذاب معاقَباً. وأُمِرَتْ ياكوفا أن تضع ختمها على رسالة المؤانسة هذه بطريقتها، فتحدَّثَتْ هذه الأخيرة قائلةً:

إنَّ رذيلةَ الرَّغبة في أن نبدو جميلاتٍ، تلك الرَّذيلة اللّعينة المغروزة فينا نحن الإناث، لتُودي بنا إلى نهايةٍ حيث إنَّنا لكي نُذهِّبَ إطار الجبين، نفسدُ لوحةَ الوجه؛ ولكي نبيِّضَ جلدَ الجسد، ندمِّر عظام الأسنان؛ ولكي نُعيدَ البريقَ إلى أعضائنا، نغطّي بالظّلال ملامحنا، فتُصابُ الأعين بالرَّمَصِ، والوجه بالتَّجاعيد، والأضراس بالتّسوُّس قبل أن تحين ساعةُ تأدية الجزية إلى الزّمن. فإن كانت فتاةٌ في مقتبل العمر تستحقُّ اللّومَ لأنّها في زَهوِها تجري خلف مثل هذه التُّرّهات، فأيَّ عقابٍ تستحقُّ امرأةٌ عجوزٌ ترغب في

منافسة الفتيات، فتصبح أضحوكةً للنَّاس وتجني على نفسها، كهذه التي سأحكي لكم حكايتها الآن، إنْ أعرتموني بعض الآذان الصَّاغية.

في حديقةٍ يطلُّ عليها قصرُ ملكِ روكَّافورتِهْ، انزوت امرأتان مُسنَّتَان كانتا خلاصةً لكلِّ المآسي، وسِجلاًّ لكلِّ التَّشوُّهات، والكتابَ الرَّئيسَ للقباحة. كان شعرهما منفوشاً وشائكاً، وجبينهما متغضِّناً ومغطًّى بالنُّتوءات، ورموشهما كثَّةً وشعثاء، وجفونهما متورِّمةً ومرتخيةً، وعيونهما ذابلةً وزائغةً، والوجهُ مُصْفَرّاً ومُتَجَعِّداً، والفمُ مُتوسِّعاً وملتوياً، وكانت لهما، باختصارٍ، لحيةٌ ماعزٍ، وصدرٌ مُشعِرٌ، وكتفان محدودبتان، وذراعان ضامرتان، وساقان ناحلتان وواهنتان، وقدمان مقوَّستان. ولكي تمنعا حتى الشَّمس من رؤية سحنتيهما الدَّميمتين، فقد احتجبتا في طابقٍ أرضيٍّ يقع تحت نوافذ ذاك السَّيِّد.

وكان الملك قد بلغَ مبلغاً لم يستطع معه أن يُطلِقَ ضرطةً دون أن تبلغَ خياشيم تينك القبيحتين اللَّتَين كانتا تتذمَّران وتغمغمان لأتفه الأسباب، فتارةً كانتا تقولان إنَّ ياسمينةً سقطت من النَّافذة قد أحدثت كدمةً في رأس إحداهما، وتارةً إنَّ رسالةً ممزَّقةً خلعَتْ كتفَ الأخرى، وتارةً إنَّ بعض الغبار رضَّ فخذيهما. لدرجة أنَّ الملك، إذْ أحسَّ منهما هذا الفيضَ من الرَّهافة، ظنَّ أنَّ التي تسكن هناك تحته هي لبُّ الأشياء اللَّطيفة وصفوةُ الأجسادِ البضَّةِ وزهرةُ الطَّراواتِ كلِّها، فارتفعت من كعبيه الشَّهوةُ ومن نخاع عظامِهِ الرَّغبةُ في رؤية تلك الأعجوبة والوقوف على حقيقة الأمر.

فبدأ يُرسلُ التَّنهُّداتِ نحو الأسفل ويسعل من دون بلغمٍ، وأخيراً راح يتكلَّم بسرعةٍ أكبر ودونما موارَبةٍ، قائلاً: "أين، أين تختبئين أيَّتها الجوهرة، يا طلاوةَ هذا العالم وزينتَه؟ اخرجي، اخرجي يا أيَّتها الشَّمس ودفْئي الإمبراطور! اكشفي عن هذه المفاتن الجميلة، أريني مشاعلَ مَشْغَلِ الحُبِّ، أخرجي هذا الرَّأس الفتَّان! آهِ يا خزنةً مكتظَّةً بكنوز الجَمال، لا تبخلي عليَّ كثيراً بمرآكِ! افتحي، افتحي الأبواب للصَّقر المسكين. امنحيني

الهبة، إن كان ثمَّة هبةٌ تريدين أن تمنحيني إيَّاها! دعيني أرى الآلةَ التي منها يخرجُ هذا الصَّوت الجميل. دعيني أرى الجَرَسَ الذي منه يتشكَّلُ هذا الرَّنين! اسمحي لي أن أُلقي نظرةً على الطَّائر الغامض! لا تجعليني أرعى الأبْسَنْتَ[1]، كخروفٍ مِن خِرافِ بُنْطُسَ[2]، بحرماني اجتلاءَ وتأمُّلَ مرآكِ الفائق الجَمال!".

قالَ الملكُ هذه الكلمات وغيرها، ولكن كان الأمرُ وكأنَّه يعزفُ المجدَ للَّه، لأنَّ العجوزين كانتا تسدَّان أذنيهما عنه، وهذا ما كان يزيد النَّار استعاراً. ولكنَّ الملكَ الذي كان يشعرُ وكأنَّه خديدٌ يُصهَر في فرن الرَّغبة، تمُسك به كلاليبُ الهجسِ وتضربه مطرقةُ عذابِ الحُبِّ، لم يتراجع، بل استمرَّ في بثِّ التَّوسُّلات وتعزيز الهجمات دونما هدنةٍ، علَّهُ يصنع مفتاحاً يمكنه أن يفتح به صندوقَ تلك المباهج التي جعلته يموت من شدَّة الرَّغبة،

عزمَتْ العجوزان اللَّتان أخذهما الزَّهوُ وانتفختا كِبْراً لعروض الملك ووعوده على ألَّا تفوِّتا هذه الفرصة للإمساك بهذا الطَّائر الذي حطَّ من تلقاء نفسه على الدَّبَق. وفي يومٍ من الأيَّام، بينما كان الملك يجدِّدُ من النَّافذة طقوسَ هذيانه الغراميِّ، قالتا له بصوتٍ ناعمٍ من قفل الباب: إنَّ أعظمَ معروفٍ يمكن أن تقدِّماه له هو أن تُظهِرا له، بعد ثمانية أيَّامٍ، إصبعَ يدٍ واحداً فحسب.

كان الملك، بوصفه جنديَّاً متمرِّساً، يعرف أنَّ القِلاعَ يُستَولَى عليها شبراً بعد شبرٍ، فلم يرفض العرض، على أمل أن يظفر إصبعاً بعد إصبعٍ بالمعقل الذي كان يضعه تحت الحصار، مستلهماً المقولة القديمة: "خذ ثمَّ اطلب". وبعد أن قبل هذا الشَّرط القطعيَّ لرؤية أعجوبة العالَم الثَّامنة في اليوم الثَّامن، لم تقم العجوزان بأيِّ عملٍ آخر سوى مصِّ أصابعهما

1) عشبةٌ من أسمائها أيضاً شِيحُ ابن سينا، والأفسنتين، وشجرة مريم، وشَيبة العجوز. يُصنَع من زهرها وأوراقها شراب الأفسنتين المُسْكِر؛ (المترجمان).

2) منطقةٌ تاريخيَّةٌ تقع على السَّاحل الجنوبيِّ للبحر الأسود؛ (المترجمان).

كصيدلانيٍّ أراقَ بعضَ الشَّراب، واتَّفقتا على أنَّ تلك التي تملك أنعمَ إصبعٍ سوف تظهره للملك في اليوم الموعود. وكان الملك، في هذه الأثناء، يقف على أعصابه في انتظار السَّاعة الموعودة ليشبع رغبته: كان يعدُّ الأيَّامَ، ويُحصي اللَّيالي، ويزن السَّاعات، ويقيس الدَّقائق، ويتأمَّل الثَّواني، ويسبر اللَّحظات المتبقِّية في انتظار النَّعيم المنشود. وكان تارةً يتضرَّع إلى الشَّمس أن تتَّخذ بعض الدُّروب المختصَرة عبرَ الحقولِ السَّماويَّة علَّها، وهي ماضيةٌ في طريقها، تصل قبل السَّاعة التي تحلُّ فيها عربتَها النَّاريَّةَ وتروي عطشَ الخيول المرهقة من الرِّحلة الطَّويلة؛ وتارةً يتوسَّلُ إلى اللَّيل أن يُغرِقَ الظِّلالَ فيسمح له أن يرى ذلك النُّور الذي لكونه غيرَ مرئيٍّ بَعْدُ كان يجبره على الاحتراق في التَّنُّور المتَّقد بلهيب الحُبِّ؛ وتارةً يثور على الوقت الذي، لكي يغيظه، كان يسير على عكَّازتين وينتعل حذاءً من الرَّصاص ليؤخِّر ساعةَ الإيفاءِ بالدَّين لمن يحبُّ والوفاءِ بالالتزام المبرم بينهما.

وكما شاءت الشَّمس، حانت السَّاعة، فذهب هو شخصيَّاً إلى الحديقة وطرق الباب قائلاً: "هيَّا تعالي! تعالي!"[1]. وهنا، ما كان من إحدى العجوزين، تلك الأكبر سنَّاً، وقد أظهرَ حجَرُ الحَكِّ أنَّ إصبعها كان أفضلَ قيراطاً من إصبع أختها، إلَّا أن أدخلته في ثقب الباب، وأظهرته للملك.

ولكنَّ ذاك لم يكن إصبعاً: كان عوداً حادَّاً اخترق قلبه! بل لم يكن عوداً، وإنَّما مقْرَعةً شوَّشَت رأسَه. ولكن أيُّ "عودٍ" وأيُّ "مِقْرَعة"؟ لقد كان عودَ ثقابٍ أوْقدَ حُرَاقاً لرغباته، كان فتيلاً أُشْعِلَ إمداداً لصباباته. ولكن، ماذا أقول بحقِّ السَّماء؟ أيُّ "عودٍ" وأيُّ "مِقْرَعةٍ" وأيُّ "عود ثقاب" وأيُّ "فتيلٍ"؟ كان شوكةً تحت ذيل أفكاره؛ كان مليِّناً من التِّين الحلو جعله يُخرِجُ غازاتِ أوجاعِ الحُبِّ مع طوفانٍ من التَّنهُّدات. ثمَّ تابع يقول وهو يضمُّ بين يديه ويقبِّلُ ذلك الإصبع الذي تحوَّل من مِبْرَدِ إسكافيٍّ إلى مِصقَلَةِ ذهبٍ: "آه يا

1) "هيَّا تعالي، تعالي، يا ذُعَرَة!": عبارةٌ يردِّدها الأطفال في لعبة الغمَّيضة؛ (كروتشه). [والذُّعَرَة طائرٌ صغيرٌ من رتبة العصافير يهزُّ ذيله باستمرار؛ (المترجمان)].

أرشيفَ عذوباتٍ، آه يا مكتبةَ بهجاتٍ، آه يا سِجلَّ امتيازاتِ الحُبِّ الذي من أجله صرتُ مستودعَ أحزانٍ، ومخزنَ لوعاتٍ، وديوانَ عذاباتٍ! أمِنَ المحتمل أنَّك تريد أن تظهر عنيداً وصلباً للغاية لكيلا تؤثِّر فيك شكواي؟ أوه يا قلبيَ الجميل، إنْ كنتِ قد أظهرتِ لي ذيلَكِ من هذا الثُّقب، فأخرجي الآنَ هذا الخطمَ ولنصنع هُلاماً من الملذَّات[1]! وإنْ كنتِ قد أظهرتِ المحارةَ، أوه يا بحر الجمال، فأريني اللَّحمَ الحلوَ العُصارةِ أيضاً؛ أريني عَينَيَ الشَّاهين هاتَين واتركيهما تتغذَّيان على هذا القلب. مَن، يا تُرَى، يحتجزُ كنزَ هذا الوجه البهيِّ داخل مرحاض؟ مَن يقيمُ الحَجْرَ الصِّحِّيَّ على هذه البضاعة البديعة داخل زريبةٍ؟ من يحبسُ قوَّةَ الحُبِّ داخل حظيرةٍ للخنازير؟ اخرجي من هذه الوَهْدَة، اهربي من هذا الإسطبل، اهجري هذا الجُحْرَ! "اقفزي يا حلزونتي الصَّغيرة وأعطي كولا يدَكِ"[2]، وادفعي لي بقدر ما أستحقُّ! فأنتِ تعرفين، بعد كلِّ شيءٍ، أنَّني ملكٌ ولستُ خيارةً، ويمكنني أن أفعلَ وأُبْطِلَ ما أشاء. ولكنَّ ذلك الأفَّاكَ الأعمى، ابنُ المُقْعَدِ والعاهرة[3]، الذي لديه السُّلطة المطلَقة على صوالج الملوك، يريد منِّي أن أكون خاضعاً لكِ، وأن أسألكِ التَّصدُّق عليَّ بما أستطيع أن أنتزعه منكِ متى شئتُ وكيفَ شئت؛ وأنا أعرف حقَّ المعرفة أنَّه بالمداعبات، وليس بالتَّبجُّح، يمكن إغواء فينوس، كما قال ذات مرَّةٍ أحدُهم".

كانت العجوز تعرف أين يُخفي الشَّيطان ذيله، فقد كانت ثعلبةً ماكرةً، قطَّةً مخضرمةً حادَّةَ الذَّكاء وماكرةً وخبيثةً، وإذ أدركَتْ ببصيرتها الثَّاقبة أنَّ السَّيِّد عندما يتوسَّل فإنَّه في الحقيقة يُصْدِرُ أمراً، وأنَّ عِنادَ الخادم يحرِّكُ الأمزجةَ الغِضَابَ في جسد السَّيِّد والتي لن تلبث أن تتفجَّرَ زُحاراً من

---

1) في إشارةٍ إلى خطم الخنزير المطبوخ في شحمِهِ نفسِه؛ (كروتشِه).

2) مطلع أغنيةٍ ريفيَّةٍ نابوليتانيَّةٍ؛ (المترجمان).

3) في إشارةٍ إلى كيوبيد، الابن غير الشَّرعي لفينوس إلهة الحُبِّ وفولكانوس إله النَّار في الميثولوجيا الرُّومانيَّة؛ (كروتشِه).

الحُطام، أظهرَت الانصياع، وقالت بصوت قطّةٍ مسلوخة: "يا سيِّدي، لمَّا كنتم تميلون إلى الخضوع لمن هو أدنى شأناً منكم، وتتكرَّمون بالنُّزول من الصَّولجان إلى عصا المِغزَل، ومن الحُجرة الملكيَّة إلى الإسطبل، ومن الأبَّهة إلى الخِرَق، ومن العظمة إلى البؤس، ومن الشُّرفة إلى القبو، ومن الحصان إلى الحمار، فإنَّني لا أستطيع، ولا يجب، ولا أريد أن أخالف إرادة ملكٍ على هذا القدر من العظمة. هأنذا إذاً، وإنْ كنتم قد عقدتم العزم على أن تصنعوا هذه السَّبيكة من أميرٍ وخادمةٍ، هذا الموزاييكَ من عاجٍ وخشب خَوَرٍ، هذه التَّرصيعةَ من ماسٍ وزُجاجٍ، فأنا مستعدَّةٌ ومُعَدَّةٌ لرغباتكم، ولكن أريد منكم كعلامةٍ أولى على المودَّة التي تكنُّونها لي معروفاً واحداً فحسب: أن تستقبلوني في سريركم ليلاً ومن دون شموعٍ، لأنَّ قلبي لا يحتمل أن يراني أحدٌ ما عاريةً!".

أقسمَ لها الملك، مختالاً بالفرح، وواضعاً يداً فوق الأخرى، أنَّه سوف يفعل بكلِّ سرورٍ ما تتمنَّاه. وبعد أن أرسل قبلةً من السُّكَّر إلى فمِ نتنِ الرَّائحة، غادر وهو لا يطيق الانتظار حتى تنتهي الشَّمس من أعمال الحراثة وتُبذَر حقولُ السَّماء بالنُّجوم، ليبذُرَ بدوره الحقلَ الذي كان يتطلَّع فيه إلى جني المسرَّاتِ أكواماً والملذَّاتِ قناطيرَ.

وعندما حلَّ اللَّيلُ الذي حين وجدَ نفسَه محاصَراً بالكثير من لصوص الحوانيت وسُرَّاق العباءات[1] رشَّ كالحبَّار حبرَه الأسود، شدَّت العجوز إلى الوراء كلَّ تجاعيدها وعَقَدَتها خلف كتفيها رابطةً إيَّاها بخيطٍ من القُنَّب، ثمَّ ولجت القصرَ في العتمة يقودُها من يدها إلى حُجرةِ الملك أحدُ الخدم. وهناك، خلعت الخِرَقَ عن جسدها واندسَّت في الفِراش.

كان الملكُ الجالسُ على نارٍ، وفتيلُه يكادُ يُلامسُ فمَ المدفع، قد رشَّ نفسه بالمِسك والزَّباد، وفركَ جسمَه بماء العطر، وبمجرَّد أن سمعها قادمةً

1) جِنايتان كانتا شائعتَين في ذلك الوقت، وكان الإسبان بارعين فيهما؛ (كروتشِه).

إلى الفِراش، ألقى بنفسه مثل كلبٍ سلوقيٍّ على السَّرير. وكان من حسن حظِّ المرأة العجوز أنَّه كان مغطًّى بفيضٍ من العطور فحَجَبَ ذلك عنه نَتَنْ فمها وزَنَخَ إبطيها وزهومةَ ذلك الشَّيء القبيح. ولكنَّه ما إنْ استلقى بجانبها وبدأ يلمسها حتى اكتشف، وهو يتحسَّس جسدها، الخدعةَ المعقودةَ خلف ظهرها وتلافيفَ الجلدِ المتجعِّد والتَّقرُّحات المترهِّلة التي تتدلَّى من متجر العجوز الرَّثَّة. تجمَّد الملك في مكانه كقطعةٍ من الحجر، ولكنَّه في الوقت نفسِه لم يشأ أن يقول أيَّ كلمةٍ قبل أن يتيقَّن تماماً من حقيقة الأمر. وهكذا، مستجمعاً قواه، رفعَ مرساته في ماندراكْيُو[1] بينما كان يظنُّ نفسه راسياً على شاطئ بوسيليبو[2]، وأبحرَ في صندلٍ بينما كان يخطِّط للإقلاع بسفينةٍ شراعيَّةٍ فلورنسيَّة[3]. ولكن حالما غطَّت العجوز في أوَّل النَّوم، قام الملكُ فأخرجَ من صندوقٍ من الأبنوس والفضَّة حقيبةً من جلد الشَّمواه تحتوي على بندقيَّةٍ وأضاء مصباحاً.

وبعد أن بحث بين المُلاءات ووجدَ هارْبي[4] مكانَ الحوريَّة، وإلهةَ الغضب مكانَ إلهةِ الحُسْن، وغُرْغُونَةً[5] مكانَ أفروديت[6]، استولى عليه غضبٌ عارمٌ أرادَ معه أن يقطع الحبل الذي يشدُّ هذه السَّفينة. ونادى

---

1) مرسىً صغيرٌ في نابولي؛ (كروتشِه).

2) هضبةٌ وشاطئٌ خلَّابان بالقرب من نابولي؛ (كروتشِه).

3) سفن فلورنسا الجميلة التي كانت تبحر في المتوسِّط مع سفن مملكة نابولي لقتال سكَّان بلاد البَرْبَر؛ (كروتشِه).

4) الهارْبِيَاتُ في الأساطير الإغريقيَّة وحوشٌ مجنَّحةٌ نصفها امرأةٌ ونصفها طائرٌ. كانت تُسَمَّى بكلاب زيوس العظيمة، وتُصَوَّر على أنَّها مخلوقاتٌ خبيثةٌ شَرِهَةٌ وبغيضة الرَّائحة؛ (المترجمان).

5) هي في الأساطير الإغريقيَّة إحدى الأخوات الثَّلاث المرعبات، بنات فوركيس إله الأخطار، وكنَّ يُصَوَّرن برأس امرأةٍ مغطًّى بشَعرٍ من الثَّعابين وبجسدٍ مسخٍ، وكان إذا نظر إليهنَّ أيُّ رجلٍ تحوَّل إلى حَجَر؛ (المترجمان).

6) حرفيًا: وغُرْغُونةً مكانَ القبرصيَّة؛ (المترجمان).

جميع الخدم وهو يزفر حنقاً ويصرخ: "إلى السِّلاح!"، فارتدوا أقمصتهم[1] على الفور وصعدوا إلى غرفة الزِّفاف. فقال لهم الملك وهو يترجرحُ مثل أخطبوط: "أترون كيف استهزأت بي هذه الجيفة؟! كنت أحسبُ أنَّني ألتهمُ عجلاً رضيعاً، فوجدتُ بين أسناني مشيمةَ جاموسٍ؛ وكنت أظنُّ أنَّني أمسكتُ بحمامةٍ بديعةٍ، فوجدتُ بين يديَّ هذه البومة؛ وكان يُخَيَّلُ إليَّ أنَّني أمام لقمةٍ تليق بملكٍ، فوجدتُ تحت أنفي هذه القذارة الممضوغة والمبصوقة! إنَّ ما أصابني أسوأ ممَّا يصيبُ مَن يشتري القطَّ في الكيس! ولكنَّ هذه الشَّمطاء أهانتني، وسوف أجعلها تكفِّر عن ذنبها هذا. هيَّا، بسرعة! احملوها كما هي وارموها من تلك النَّافذة!".

عند سماعها هذه الكلمات بدأت المرأة العجوز تدافع عن نفسها بالرَّكل والعضِّ وهي تصرخ معترضةً على الحكم، لأنَّ الملك نفسه هو الذي جرَّها جرّاً إلى سريره، وراحت تقول إضافةً إلى ذلك إنَّها ستوكِّل مائة محامٍ للدِّفاع عنها مردِّدةً، فوق كلِّ شيءٍ، ذلك القول المأثور: "الدَّجاجة العجوز تصنع حساءً لذيذاً!"، والمثلَ الآخرَ الذي يقول: "على المرء ألَّا يغادرَ الطَّريقَ القديمةَ إلى أخرى جديدة". ولكن مع كلِّ هذا، رفعوها بكلِّ ثقلها ورموها إلى الحديقة.

ولحسن حظِّها لم تنكسر رقبتها، فقد بقيَت عالقةً بغصن شجرةِ تين. وحدثَ أنَّه في الصَّباح الباكر، قبل أن تحتلَّ الشَّمسُ الأراضي التي تنازل لها اللَّيلُ عنها، مرَّت من هناك سبع حوريَّاتٍ لم يسبق لهنَّ، بسببِ كَدَرٍ حلَّ في نفوسهنَّ، أن تكلَّمن أو ضحكن قطُّ، وعندما رأين ذلك الطَّيفَ البائس يتدلَّى من الشَّجرة جاعلاً الظِّلال تتبدَّد قبل أوانها، غُشِيَ عليهنَّ من الضَّحك حتى كادت خواصرهنَّ تنفجر. وما إن أطلقن العنان لألسنتهنَّ حتى لم يعدن قادراتٍ، لفترةٍ من الوقت، على إغلاق أفواههنَّ أمام ذلك

1) كان الجنود، إذا وقع هجومٌ ليليٌّ، يرتدون قمصاناً فوق دروعهم ليميِّز بعضُهم بعضاً في الظَّلام: (كروتشه).

المشهد المُبهِج. وكانت مُتعتهنَّ وبهجتهنَّ كبيرتين لدرجةِ أنَّ كلَّ واحدةٍ منهنَّ ألقت عليها، ردّاً للجميل، تعويذتها الخاصَّة متمنِّياتٍ لها، الواحدة تِلوَ الأخرى، أن تعود شابَّةً وجميلةً وغنيَّةً ونبيلةً وطاهرةً ومحبوبةً ومحظوظة.

بعد أن غادرت الحوريَّات، وجدت المرأة العجوز نفسَها على الأرض، جالسةً على أريكةٍ من مخملٍ فاخرٍ موشَّىً بخيوطٍ من الذَّهب، تحت الشَّجرة نفسِها التي كانت قد تحوَّلت إلى مظلَّةٍ من سندسٍ أخضر مدعَّمةٍ بالذَّهب. كان وجهها قد عاد من جديدٍ وجهَ فتاةٍ في الخامسة عشرة من العمر، فتاةٍ بلغت من الجمال مبلغاً جعلَ كلَّ المفاتن الأخرى تبدو أحذيةً رثَّةً بجانب خُفٍّ أنيقٍ، وكلَّ الجَمَالات الأخرى تبدو خردواتٍ قديمةً تليق بفِرِّيْفِكي ولافينارو[1] بجانب هذا الجَمال المتوَّج؛ وحيث كانت تلعبُ ورقتَها الرَّابحةَ في الغنج والدَّلال، كانت الأخريات كلُّهنَّ يلعبن أوراقهنَّ الخاسرة. ثمَّ إنَّها كانت فخمةَ المَلْبَس، أنيقةً ومُبهرةً، لدرجة أنَّ المرء كان يرى فيها ملكةً من الملكات بما عليها من ذهبٍ يخطف الأبصار، وجواهرَ تُبهِرُ العيون، وأزاهيرَ تحيِّرُ القلوب؛ وكانت محاطةً بالخادمات ووصيفاتِ الشَّرف، فبدا الأمرُ وكأنَّه يومُ الغفران.

في هذه الأثناء، متلحِّفاً بلحافه ومنتعلاً زوجاً من الخِفاف في قدميه، أطلَّ الملك من النَّافذة ليرى ما حدث للمرأة العجوز، فرأت عيناه ما لم يتصوَّره عقلُه قطُّ. جمدَ في مكانه فاغرَ الفم، وكالمسحور بقي يحدِّق طويلاً في تلك المخلوقة الرَّائعة متمليّاً إيَّاها من رأسها إلى أخمص قدميها، متأمِّلاً تارةً شَعرها الذي تناثر جزءٌ منه على الكتفين، وجزءٌ آخر ضُفِرَ داخلَ شريطةٍ ذهبيَّةٍ، بطريقةٍ تثيرُ حسدَ الشَّمس؛ وتارةً أهدابَها، أقواسَ نُشَّابٍ ترمي القلوب؛ وتارةً عينيها، قنديلَين مقبَّبَين لعَسَسِ الحُبِّ؛ وتارةً فمَها، جرنَ عصرِ عنبٍ حيث إلهاتُ الحُسن يَدُسْنَ المباهجَ ويستخلصن منها

1) شارعان كانا من أكثر شوارع نابولي فقراً وبؤساً؛ (كروتشِه).

النَّبيذ اليونانيَّ الحلوَ ونبيذَ مانجاغويرًا اللَّذيذ[1]. وكجسرٍ متقلقلٍ راح يهتزُّ فاقداً عقلَه وهو يحملق من الشُّرفة إلى الحليِّ والمجوهرات التي كانت تضعها حول عنقها وإلى الملابس الفاخرة التي كانت ترتديها. ومتكلِّماً بينه وبين نفسه، راحَ يقول: "هل هو أوَّل التَّغفيق أم أنَّني مستيقظ؟ هل أنا صاحٍ أم أنَّني أهذي؟ هل أنا أنا أم لستُ أنا؟ أيُّ لعبةٍ بلْيَارٍ أرسلَتْ هذه الكرةَ الجميلةَ لتصيبَ الملكَ وتجعله يجنح إلى الهلاك؟ إنَّني بائدٌ، إنَّني هالكٌ، إنْ لم أعُدْ إلى رشدي. كيف أشرقت هذه الشَّمس؟ كيف تفتَّحت هذه الزَّهرة؟ كيف خرج هذا الطَّائرُ من بيضته ليسحب كالصَّنَّارة رغباتي؟ أيُّ قاربٍ حملَ هذه المرأة إلى هذا البلد؟ أيُّ سحابةٍ أمطرتها؟ أيُّ سيلٍ من الجَمَال يدفعني إلى أعماق بحرٍ من الويلات؟".

وبينما كان يردِّدُ هذه الكلمات تدحرجَ على الدَّرج وهرعَ إلى الحديقة وارتمى على ركبتيه أمام العجوز التي استعادت شبابها وعادَ يقول وهو يترحَّف على الأرض: "آه يا حمامتي الصَّغيرة، آه يا دميةَ إلهات الحُسن، آه يا قُمْريَّةً فتَّانةً من قُمْريَّاتِ عربةِ فينوس، عربةِ انتصار الحُبِّ، إنْ كنتِ لم تنقعي قلبكِ في نهر سارنو[2]، وإنْ لم تكن قد دخلَتْ أذنيكِ بذورُ القصب[3]، ولم يسقط في عينيك ذَرْقُ السُّنونو[4]، فأنا على يقينٍ من أنَّك ستشعرين وسترين الآلام والعذابات التي من النَّظرة الأولى أثارتها مفاتنك في صدري؛ وإنْ لم يكن رمادُ هذا الوجه دليلاً على الغاسولِ الذي يغلي في صدري، ولهيبُ التَّنهُّدات إثباتاً على الحجَر الجيريِّ الذي يحترق داخل هذه الأوردة، وإنْ كنتِ متفهِّمةً وحصيفةً، أمكنكِ على الأقلِّ أن تخمِّني أيَّ حبلٍ مضفورٍ من هذا الشَّعر الذَّهبي يشدُّني بوثاقه، وأيَّ فحمٍ من

---

1) نوعان من النَّبيذ اشتهرَتْ بهما المناطق المحيطة بنابولي؛ (المترجمان).

2) كان يُعتقَد أنَّ أيَّ شيءٍ يُغطُّ في نهر سارنو يتحوَّل إلى حجر؛ (كروتشه).

3) كان يُعتقَد أنَّ للقصب خصائص خبيثة؛ (كروتشه).

4) كان يُعتقَد أنَّ ذرق السُّنونو يسبِّب العمى؛ (كروتشه).

هاتين العينين السَّوداوين يشويني، وأيَّ سِهامٍ منطلقةٍ من قوسَي شفتيكِ الحمراوين تنغرس في فؤادي! آه، لا توصدي بابَ الشَّفقة، لا ترفعي جسرَ الرَّحمة، لا تسدِّي قناةَ العطف! وإنْ كنت تعتقدين أنَّني لست أهلاً لنيلِ العفو من وجهك الجميل، فامنحيني على الأقلِّ عهداً طيِّبَ الكلمات، أو ميثاقاً طيِّبَ الوعود، أو ضماناً غيرَ منقطعِ الرَّجاء، وإلَّا أخذتُ حذائي من هنا[1] ولن تري شكله بعد الآن!".

هذه الكلمات وسَيْلٌ من كلماتٍ أخرى خرجت من أعماق صدره وحرَّكَتْ في الحال مشاعرَ العجوز العائدة إلى شبابها، فارتضته، في نهاية الأمر، زوجاً لها. وهكذا، قامت على قدميها وأمسكت بيده وذهبا معاً، زوجاً وزوجةً، إلى القصر الملكيِّ حيث، في طرفةِ عينٍ، أُقيمت مأدبةٌ كبيرةٌ دُعِيَتْ إليها جميع سيِّدات المدينة النَّبيلات.

أرادت العروس العجوز أن تكون شقيقتها أيضاً بين المدعوَّات الأخريات. وكان لا بدَّ من القيام بجهدٍ كبيرٍ لإيجادها وجرِّها جرّاً إلى المأدبة، ذلك أنَّها، وبسبب توجُّسها الكبير، كانت قد اختبأت واستترت جيِّداً بحيث كان من غير الممكن العثور على أثرٍ لها. وأخيراً، أتت كما شاء الرَّبُّ، وبعدما جلست بجانب أختها التي وجدت صعوبةً كبيرةً في تعرُّفها، بدأوا جميعاً في المرح الصَّاخب.

ولكنَّ المرأة العجوز البائسة كانتْ تعاني جوعاً مختلفاً تماماً، جوعاً كان ينهشُها نَهْشاً، فالحسدُ كان يأكلُ قلبها لرؤية بشرةِ أختها الغضَّة. وبين الفينة والأخرى، كانت تشدُّها من كُمِّها وتسألها: "ماذا فعلتِ يا أختاه، ماذا فعلتِ؟ يا لحسن حظِّك! يا لحسن حظِّك!". وكانت الأخت تجيب: "اهتمِّي الآن بتناول طعامك فحسب، وسوف نناقش هذا الأمرَ لاحقاً". وكان الملك يسأل باستمرارٍ عمَّا يجري، ولكي تتكتَّم العروس على الأمر

---

1) تعبيرٌ نابوليتانيٌّ يعني: «سأمضي إلى العالم الآخر»؛ (كروتشِه).

كانت تجيب بأنَّ أختها تريد بعض الصَّلصة الخضراء، وكان الملك يأمرُ على الفور بإحضار صلصةِ الثُّوم وصلصةِ الخردل وصلصةِ الفلفل ومائة نوعٍ آخر من الصَّلصات التي تفتح الشَّهيَّة. ولكنَّ المرأة العجوز التي كان مذاقُ العنب يبدو لها كمذاق مرارة بقرة، كانت تعود وتشدُّ أختها مكرِّرةً: "ماذا فعلتِ يا أختاه، ماذا فعلتِ؟ أخبريني لكي أصنع لكِ تيناً تحت العباءة"[1]. وكانت الأخت تجيب: "اصمتي، فلدينا من الوقت أكثر مماً لدينا من المال. تناولي طعامك الآن، وإلَّا أحرقتِ الطَّبخة، وسنتحدَّث لاحقاً في الأمر!". وكان الملكُ يسأل، وقد نهشَهُ الفضول، عمَّا كانت تحتاج إليه أختها، وكانت العروس المرتبكة كفرخٍ عالقٍ بين ألياف الكتَّان، والرَّاغبة في وضع حدٍّ لهذا القرع على صدغيها، تجيب بأنَّ أختها ترغب في بعض الحلوى، وعلى الأثر كانت تتقاطرُ الفطائرُ، ويتدفَّق الكعكُ المحلَّى والكعكُ المقليُّ، وتطوفُ المهلَّبيَّة، وتمطرُ السَّماءُ أصابعَ سكَّرٍ محروق.

ولكنَّ المرأة العجوز التي كان سرطانُ بحرٍ يسري في جسمها، وهيجانٌ يعتملُ في أحشائها، عادَتْ إلى الموشَّح نفسه. وعندئذٍ، لكي تُسْكِتَهَا، أجابتها العروس التي لم تعد قادرةً على التَّحمُّل: "لقد سلختُ جلدي، يا أختاه!". وبمجرَّد أن سمعت الحسودُ هذه الكلمات، قالت لنفسها: "حسناً إذاً، لم تقع كلماتُكِ في أُذنٍ صمَّاء! أريد أنا أيضاً أن أجرِّب حظِّي، لأنَّ كلَّ نَفْسٍ لديها مَعِدَة. وإنْ نجحتُ في مسعاي، فلن تكوني الوحيدة التي تحظى بوقتٍ ممتعٍ: أنا أيضاً أريد حصَّتي من المتعة، أريدها حتى الشَّمَار[2]!". ولمَّا كانت الموائد قد رُفِعَتْ في هذه الأثناء، فقد تظاهرت بأنَّها تريد أن تقضي حاجةً ضروريَّةً، وركضت من فورها إلى محلٍّ للحلاقة.

دخلَتْ، وما إن وقعت عيناها على الحلَّاق حتى سحبته إلى الغرفة

---

1) واحدةٌ من تعويذاتٍ كثيرةٍ ضدَّ الحسد والعين الشِّرِّيرة؛ (كروتشِه).

2) أي حتى النِّهاية، فالشَّمَار أو الشَّمَر، وهو نباتٌ حلوٌ من الفصيلة الخيميَّة يؤكل نيئاً، كان يُقدَّم في نهاية الوجبة؛ (المترجمان).

الخلفيَّة، وقالت له: "دونكَ خمسين دوقيَّةً، وعليك أن تسلخني من رأسي إلى أخمص قدميَّ". فأجابها الحلّاق إذْ حكم عليها بالجنون: "اذهبي يا أختاه، إنَّكِ تتحدَّثين بكلامٍ لا يقبله العقل، وعليه فأنتِ بالتَّأكيد في حاجةٍ إلى من يلازمك"[1]. فردَّت العجوز بوجهِ صلدٍ كالرُّخام: "أنت مَن زالَ عقلُه، ذلك أنَّك لا تعرف ما ينتظرك من الثَّراء، فبالإضافة إلى الدُّوقيَّات الخمسين، إذا ما نجحَ مسعاي، سوف أجعلك تحمل الطَّاسة تحت لحيةِ إله الحظِّ. لذا، تناول العدَّة ولا تضيِّع وقتاً، فالثَّراء ينتظرك!".

بعد أن عارض الحلَّاقُ الأمرَ وتشاجر معها واستنكرَ طلبَها لفترةٍ ليست بالقصيرة، جُرَّ في النِّهاية من أنفه وتصرَّف كالغلام الذي "يربط الحمارَ حيث يريد السَّيِّد!". أجلسَها على مقعدٍ خشبيٍّ واطئٍ وبدأ يسلخ تلك القشرة السَّوداء التي كانت تنزُّ وتبول دماً من كلِّ موضعٍ وجانبٍ، وبين الفينة والأخرى كانت تقول وهي رابطة الجأش كما لو أنَّها تقصُّ شَعرها فحسب: "أوه! مَن تريدُ أن تتجمَّل، عليها أن تتحمَّل!". ولكن، بينما هو ماضٍ في سَوْقِها إلى حتفها، وبينما هي ماضيةٌ في ترديد هذه الأغنية، ذهبا بعيداً في مزج ألحانهما على بُرُقِ جسدها حتى بلغا زُهَيرةَ السُّرَّة، وعند هذا الموضع فقدَتْ ما بقيَ من دمها فخارَتْ قواها وأطلقت قذيفةً وداعٍ من مؤخِّرتها مبرهِنةً من كيسها الخاصِّ على صِدْق بيتِ سانَّاتسارو القائل:

الحسدُ، يا بنيَّ، يطحنُ نفسَه!

انتهت هذه القصَّة في ذلك الوقت من النَّهار الذي تُمنَحُ فيه الشَّمس أمدَ ساعةٍ لكي تنصرف، مثل تلميذٍ مزعجٍ، من باحاتِ الفضاء. ثمَّ دعا الأميرُ كلَّاً من فابيئلُّو وياكوفوتشو، الأوَّل خازنُ ملابسٍ والآخرُ أمينُ مؤونةِ المنزل،

1) أي إلى ممرِّضٍ يلازمكِ كما يلازم الممرِّضون المجانين في مصحَّةٍ عقليَّة؛ (كروتشه).

ليجيئا ويختتما اليومَ أجملَ اختتام. فحضرا بسرعةِ الرُقباء، أحدهما يرتدي سروالاً من الفِريز[1] الأسود مشدودٍ بلَبَب خلفيٍّ[2] وسترةً جرسيَّةَ الشَّكل، مع أزرارٍ كبيرةٍ بحجم خصية الشَّمواه؛ والآخرُ يضع قلنسوةً مسطَّحةً كلوحِ التَّقطيع ويرتدي سترةً بَطِينةً وسروالاً من قماش التَّرانتُلَة الأبيض. وخرجا من وراء ستارةٍ من شجيراتِ الآس، كأنَّهما في مشهدٍ مسرحيٍّ، وهكذا تكلَّما:

1) نسيجٌ صوفيٌّ غليظٌ؛ (المترجمان).

2) نصف حزامٍ يطبَّق على السُّترات والمعاطف من الخلف؛ (المترجمان).

البُوْتَقَة[1]
مشهدٌ من الأدب الرَّعويِّ

فابيِيْلُّو وياكوفوتشو

فابيِيْلُّو: ما لي أراك مسرعاً،
إلى أين تمضي في مثل هذه العجلة، يا ياكوفوتشو؟
ياكوفوتشو: لأحملَ هذا الشَّيء إلى البيت.
فابيِيْلُّو: وهل هو شيءٌ جميل؟
ياكوفوتشو: إنَّه كذلك بالفِعل، ومن الطِّراز الأوَّل أيضاً.
فابيِيْلُّو: حقّاً؟
ياكوفوتشو: إنَّها بُوتقة.
فابيِيْلُّو: وبماذا تنفعك؟
ياكوفوتشو: لو أنَّك تدري!
فابيِيْلُّو: إيه، عُدْ إلى رُشدِك
وابتعدْ عنِّي![2]
ياكوفوتشو: لماذا؟
فابيِيْلُّو: وما أدراني
ألَّا يكون الشَّيطان قد أعماك!
هل تفهمني؟
ياكوفوتشو: أفهمك،

---

1) وعاءٌ كان الصَّاغة يستعملونه لتنقية واختبار الفضَّة والذَّهب؛ (كروتْشِه).

2) يخشى فابيِيْلُّو أنَّ صديقه يريد أن يستخدم البوتقة لسكِّ عملات زائفة، وهي جريمةٌ كانت شائعةً في ذلك الوقت، وكانت العقوبات تنفَّذ يوميًّا تقريباً بحقِّ من يمارس هذا العمل؛ (كروتْشه).

ولكنَّك بعيدٌ مِائة ميلٍ عن الحقيقة.
فابيِنْلُّو: وأنىَّ لي أن أدري بها؟
ياكوفوتشو: من لا يعرف، يصمت يسدَّ فاه.
فابيِنْلُّو: أعرف أنَّك لست صائغاً،
ولا حتى مُقطِّراً:
فتولىَّ الباقي أنت!
ياكوفوتشو: فلننتبذْ لنا ناحيةً، يا فابيِنْلُّو،
لأنَّني أريدك أن تُذهَل وأن تُصعَق.
فابيِنْلُّو: فلنذهب أينما تشاء.
ياكوفوتشو: فلنقف تحت هذه العريشة،
وسأجعلك تخرج من ثيابك.
فابيِنْلُّو: أسرع يا صاحبي،
فأنتَ تجعلني ألهث تلهُّفاً.
ياكوفوتشو: رويدكَ يا صاحبي!
كم أنت متسرِّع!
أخبرني، أبهذه السُّرعة ولدتك أمُّك؟
حدِّق جيِّداً في هذه الأداة.
فابيِنْلُّو: نعم، إنَّها البُوتقة،
حيث تُنَقَّى الفضَّة.
ياكوفوتشو: لقد أصبتَ عينَ الهدف،
وحزرتَ في الحال.
فابيِنْلُّو: خبِّئها، قبل أن يمرَّ أحدُ الخفراء
ويسوقنا إلى السِّجن.
ياكوفوتشو: يا لك من خوَّاف!

ولكن يمكنك أن ترتجف باطمئنانٍ، فهي ليست من تلك الأشياء
التي تصنع بها عجينةً
بكثيرٍ من الحِيَل
لتحوِّل ثلاث قطعٍ نقديَّةٍ صغيرةٍ إلى ثلاث خشبات[1].
فابيِنلُّو: ولكن أخبرني، ما أنت فاعلٌ بها؟
ياكوفوتشو: سأنقِّي بها أشياء هذا العالم،
وأفرزُ الثُّوم عن التِّين.
فابيِنلُّو: إنَّك مقبلٌ إذاً على تمشيط قطعةٍ كبيرةٍ من الصُّوف!
سوف تشيخ قبل أوانك،
وفي أقرب وقتٍ سوف يشتعل رأسُك شيباً!
ياكوفوتشو: انظرْ، لا يوجد أحدٌ على هذه الأرض
لن يدفع إحدى عينيه وضرساً من أضراسه
لقاءَ الحصول على أداةٍ كهذه
تكشفُ من أوَّل محاولةٍ الوصمةَ المستترةَ
في داخل كلِّ إنسان،
وقيمةَ كلِّ صنعةٍ وكلِّ ثروة!
فهنا، في الدَّاخل، يمكنك أن ترى
إنْ كان الرَّأس فارغاً أم أنَّ فيه بعض العقل،
وإنْ كان الشَّيء زائفاً أم أصليّاً.
فابيِنلُّو: وكيف يكون هذا الآن؟
ياكوفوتشو: استمعْ حتى النِّهاية،
هدِّئ من روعك،

1) كان تزييف ثلاث قطع نقديَّة صغيرة يؤدِّي إلى خشبة الإعدام التي تتألَّف بالضَّبط من ثلاث عوارض خشبيَّة: (كروتشِه).

وسأشرح لك بشكلٍ أفضل.
إنَّ كلَّ ما يبدو في الإطار والسَّطح[1]
ذا قيمة،
ما هو إلَّا خِداعٌ للبصر،
إعماءٌ للبشر،
مجرَّدُ مظاهرَ فحسب.
لا تأتِ عاليةَ الأشياء،
ولا تطلبْ سطحَها،
ولكن لِجْها وتغلغلْ في مكامنها،
لأنَّ مَن لا يصطدْ في القاع
ليس سوى إنكشاريٍّ[2] في هذا العالم!
استخدمْ هذه البُوتقة، وسترى
إنْ كانت البضاعة أصليَّةً أم زائفة،
إنْ كانت بصلاً نابتاً أم رَبْكَةً لا معنى لها.
فابيِلُّو: وحياةِ لانفوزا[3]
إنَّ هذا لشيءٌ عُجاب!
ياكوفوتشو: اسمعني حتى النِّهاية وستبقى فاغرَ الفم!
دعني أُكمل وخذْ نَفَساً عميقاً،
لأنَّك سوف تسمع العجبَ العُجاب!
أصغِ الآن، دونكَ أمثولةٌ تُحكَى.
أنت تموت من الحسد،

1) أي في المظهر الخارجيّ؛ (كروتْشِه).

2) ساذجٌ وفظٌّ مثل جنديٍّ إنكشاريٍّ؛ (كروتْشِه).

3) والدة فيرّاو (شخصيَّةٌ أدبيَّةٌ في ملحمة «أورلاندو الهائج» للشَّاعر الإيطاليّ لودوفيكو أريوستو)، كانوا يقسمون بها في روايات الفروسيَّة؛ (كروتْشِه).

تنتفخ وتُصابُ بفتق
إذْ ترى سيِّداً، كونتاً أو فارساً،
يتنقَّل بالعربة،
وتخدمه وترافقه
ثلَّةٌ من الغوغاء والرُّعاع:
فهناك من يبتسم في وجهه هنا،
ومن ينحني له هناك؛
وهناك من يرفع أمامه قبَّعته،
ومن يقول له: *أنا عبدك المخلص!*
يبذُّرُ الحريرَ والذَّهب،
وحين يأكل يروِّحون عليه بالمراوح،
وحتى مِبْوَلَته من فضَّة!
ولكن لا تتوحَّمْ بسرعةٍ
على هذه الأبَّهة وهذه المظاهر،
لا تتنهَّد ولا تدعْ لعابك يسيل:
ضعها كلَّها في هذه البُوتقة
وسوف ترى كم من القروح المتقيِّحة
توجد تحت السَّرج المخمليِّ،
سوف ترى كم من الأفاعي
تكمن بين الزُّهور والأعشاب،
سوف تعلم، إذا رفعْتَ الغطاءَ عن المقعدة[1]
الموشَّاة بالأشرطة والمطرَّزات
بخيوط الفضَّة والذَّهب والحرير،
إنْ كان المكانُ عَطِراً أم نَتِناً!

1) كرسيٌّ مزوَّدٌ في أسفله بإناء ليلٍ، يستخدمه المقعَدون؛ (المترجمان).

إناؤه من ذهبٍ
ويبصق فيه دماً:
لقمته شهيَّةٌ،
ويغصُّ بها:
وإنْ تمعَّنتَ جيِّداً ونظرتَ مليَّاً،
رأيتَ أنَّ ما كنتَ تحسبه هبةً وحظّاً
ليس سوى عِقابٍ من السَّماء.
كلُّ الغربان التي يُطعمها خبزاً
تفقأ عينيه؛
كلُّ الكلاب التي يربِّيها
تنبحُ عليه؛
يدفعُ رواتبَ لأعدائه
الذين يحاصرونه
ويمتصُّونه حيَّاً ويحتالون عليه.
فههنا ثمَّة مَن يبتزُّه
بالتَّملُّق وطويل الأحاديث،
وههنا ثمَّة مَن يضخِّمه لك بالمنفاخ؛
هذا الذي يبدو مُحسناً حتى مؤخِّرته [1]،
وهو ذئبٌ تحت جلد خروف،
لطيفُ الوجه وبغيضُ الطِّحال،
ويحثُّه على ارتكاب الآثام والمَظالم،
وذاك الذي يدبِّر له المكائد؛
هذا الذي يتجسَّسُ له،
ثمَّ يستغلُّ

---

1) مؤخِّرة الإحسان، لقبٌ كان يُطلَق على الإنسان طيِّب القلب؛ (كروتشِه).

سذاجةَ عقلِه،
وذاك الذي يخونه
ويسوقه إلى الهلاك،
حتى إنَّه لا ينام أبداً قريرَ العين،
ولا يأكل أبداً بالتذاذ،
ولا يضحك أبداً من قلبه.
الأصواتُ، إنْ كان يأكل، تشوِّشُ عقلَه،
والأحلامُ، إنْ كان نائماً، ترعبه،
وغطرستُهُ تعذِّبه
مثلَ طائر تيتسيو[1]؛
حماقاتُه هي الماءُ والثَّمَرُ
وهو مُحاطٌ بها ويعاني الجوع[2]؛
والسَّببُ، الفاقدُ كلَّ سببٍ،
هو عجلةُ إكسيون[3]
التي لا تمنحه الرَّاحة أبداً؛
المرامي والأوهامُ
هي الحجارةُ التي يحملها
سيزيف إلى الجبل،
ومن ثَمَّ، فجأةً، تهوي!

---

1) ليس نسراً واحداً، بل نسرين اثنين يلتهمان بلا انقطاع كبدَ العملاق تيتسيو الذي قُتل بسِهام أبوللو وأرتيميديس وسقط في أعماق الجحيم لأنّه حاول اغتصاب أمِّهما (الأوديسَّة، 11، 576-581)؛ (كروتْشِه).

2) في إشارةٍ إلى عذاب تانتالوس (الأوديسَّة، 11، 582-585)؛ (كروتْشِه).

3) في الأسطورة الإغريقيَّة يُعاقَب إكسيون من قبل هرمس، بإيعازٍ من زيوس لأنّه رغب في زوجته هيرا، بأن يُربَط إلى عجلةٍ مشتعلةٍ تدور إلى الأبد في مدارٍ حول السَّماء ثمَّ في أعماق الجحيم؛ (المترجمان).

يجلس على كرسيٍّ ذهبيٍّ،
مرصَّعٍ بالعاج،
ومُطعَّمٍ برقائق الذَّهب؛
وتحت قدميه
وسائدُ من الدِّمَقسِ والتَّفْتَة
وسجاجيدُ تركيَّةٌ: ولكن فوقَ رأسه
يتدلَّى
سيفٌ حادٌّ
معلَّقٌ بشعرةٍ واحدةٍ،
لدرجة أنَّه يعاني دائماً من الزُّحار،
يتبرَّز خوفاً، ويرتعد،
يعاني دائماً من الدِّيدان
والإسهال، ويعتريه دائماً
الخوفُ والفزع.
وفي خاتمة المطاف،
ما هذه الأبَّهة وهذه العظمة كلُّها
سوى ظلالٍ ونفايات،
وقليلٌ من التُّراب
داخلَ حفرةٍ ضيِّقةٍ يكفي
لمواراة الملكِ والمتسوِّلِ على حدٍّ سواء.
فابيِلُّو: وحقِّ روحِ ذلك السَّيِّد[1] إنَّك لَمُصيب!
أقسمُ أنَّ الأمر لأسوأ ممَّا تقول،
لأنَّه كلَّما عظُمَ مقامُ المرء، عظُمَتْ مصائبُه.
وباختصارٍ، لقد أحسنَ القولُ

1) الشَّيطان؛ (كروتشه).

ذلك الرَّجل من تريكِّينا[1]
الذي كان يتجوَّل بائعاً الجوز، إذْ قال:
"ليس كلُّ ما يلمع ذهباً، لا!".
ياكوفوتشو: اسمع هذه الأخرى، وسوف تحزرها.
ثمَّة مَن يمجِّد الحرب،
ويُعلي من شأنها،
فإذا حانَ حَيْنُها
فرُفِعَتْ راياتُها
وسُمِعَ قرعُ طبولِها
سارعَ إلى التَّطوُّع،
مجروراً من حلقه
بأربع قِطَعٍ نقديَّةٍ صغيرةٍ
مُلقاةٍ على دكَّة:
يحصل على تورنيساتٍ[2] جديدةٍ،
ويلبس على طريقة جيوديكَّا،[3]
ويتمنطق بقرن الخرُّوب[4]،
ويبدو لك كبغل الأحمال
بما عليه من الرِّيش والمياثر.
إنْ سأله صديقٌ: " إلى أين نحن ذاهبون؟"
أجابَ متهلِّلاً،

1) بلدةٌ في إقليم باسيليكاتا جنوبي إيطاليا؛ (المترجمان).

2) عملةٌ فضِّيَّةٌ سُكَّت لأوَّل مرَّةٍ في القرن الحادي عشر في فرنسا، وكانت من أهمِّ العملات في القرون الوسطى؛ (المترجمان).

3) شارعٌ كان يقطنه يهودُ نابولي، وبعد طردهم تحوَّل إلى شارعٍ لبيع الألبسة المستعملة؛ (كروتشِه).

4) يقصد السَّيف الذي يشبه شكلُه شكل قرن الخرُّوب؛ (المترجمان).

ودون أن تلمس قدماه الأرض:
"إلى الحرب، إلى الحرب!".
يتسكّعُ في الحانات،
ويحقّق انتصاراته في شارع "جيلْسِي"[1]،
ثمَّ يذهب إلى مقرِّ إيوائه،
فيبيعُ بطاقةَ التَّعيين[2]،
ويفتعلُ الضَّوضاءَ والجلبة،
وحتى غراداسُّو[3] لا يستطيع لهُ لَجْمًا!
يا للمسكين، لو أنَّك صهرته في هذه البُوتقة
لرأيتَ كلَّ هذه البهجة
وهذه الغطرسة وهذا التَّبجُّح
ينقلبُ مِحَناً وعذاباتٍ عليه!
يخدِّره البرد،
يُنهكه الحَرُّ،
ينهشه الجوع،
يقتله الوَصَب،
والخطرُ دائماً على جانبيه،
والمثوبةُ بعيدة.
تأتي الجِراحُ نقداً،
والدَّفعُ بالدَّين؛

---

1) حيٌّ سيّئ السُّمعة في نابولي؛ (كروتْشِه).

2) بطاقة السُّكن التي كانت تُمنح للجنود في ذلك الوقت وكانت تخوِّلهم حقَّ الإقامة لدى عائلاتٍ مُضيفة، وكانوا عادةً ما يبيعون البطاقة للعائلات التي كانت تشتريها عن طيب خاطر لتتجنَّب مشقَّاتِ العيش مع جنديٍّ تحت سقفٍ واحدٍ؛ (كروتْشِه).

3) الملك العربيُّ الذي يظهر في ملحمة "أورلاندو الهائج"، وأصبح اسمُه كنايةً عن الشَّخص النَّفّاج الذي يفخر بما ليس عنده؛ (المترجمان).

المعاناةُ طويلةٌ والمتعةُ قصيرة؛
الحياةُ مشكوكٌ فيها والموتُ أكيد.
وفي نهاية المطاف، إمَّا يفلتُ
من الآلام الكثيرة التي استنزفَتْهُ،
وبثلاث قفزاتٍ يكتشف
إنْ كان الحبلُ فتيلةً أم رَسَناً،[1]
وإمَّا تصرعه الآلام،
أو تتركه مُقْعَداً،
فلا يتبقَّى له من شيءٍ
سوى مؤازرةِ زوجٍ من العكاكيز
أو أُلهُوَّةِ الجَرَب،
أو – وهذا أهوَنُ الشُّرور –
ساحة ميِّتة[2] في مستشفىً ما.
فابيِنْلُّو: لقد كشفتَ المتعفِّنَ،
ولم يبق شيءٌ آخرُ ليُقال؛
هذا صحيحٌ، وأكثر من صحيح،
ذلك أنَّ قَدَرَ الجنديِّ المسكين
أنْ يقضي ما بقي من حياته
إمَّا متسوِّلاً أو مبقورَ البطن!
ياكوفوتشو: ولكن ماذا ستقول عن رَجُلٍ رَكِبَهُ الغرورُ،
فهو يمشي على رؤوس أصابعه،
ويختالُ كالطّاووس،
ويتبجَّح ويفتخر

1) أي إن كان الحبل الذي علّقه حول رقبته رفيعاً أم ثخيناً؛ (كرونشه).

2) مرّ شرحُها سابقاً؛ (المترجمان).

بأنّه من أصلِ ومن نسلِ
أخيل والإسكندر:
يقضي سحابةَ يومه يرسم أشجاراً[1]،
وينتزعُ من جذع شجرةِ كستناءَ
فرعَ سنديانٍ أخضر؛
وطوال اليوم يكتبُ
قصصاً وأنساباً محرَّفةً
لآباء لم يُرزَقوا أبداً أولاداً:
يريد لمن يبيع الزَّيت بالأرباع
أن يكون نبيلاً ذا باع؛
ينظِّمُ الامتيازات على رُقوقٍ
ويعتِّقُها بالدُّخان
ليُغذِّي لديه دخانَ الغرور والغطرسة؛
يشتري شواهدَ قبورٍ ويذيِّلُها بالمراثي
مع ألف قافيةٍ وقافية.
لكي يسوِّي ثَنْيَاتِ قمصانه
يدفع بسخاءٍ للزَّازيرات[2]،
ولكي يضبط الأجراس
يُنفقُ على الكامبانيلات[3]؛

1) أي شجرة العائلة: (كروتشه).

2) تلاعبٌ بالكلمات، بين كلمة zazzera (الشَّعر الطَّويل المتساقط على الكتفين، الذي كان شائعاً جدّاً بين رجال القرن السَّابع عشر) وكنية فرانتشسكو زازّيرا Francesco Zazzera، مؤلِّف كتاب بعنوان "نبلاء إيطاليا"، وهو أحد الكتب الكثيرة التي كانت تُؤلَّف آنذاك لإرضاء الرَّغبة الشَّائعة لأشخاصٍ يطمحون إلى الحصول على مراتب أرستقراطيَّة حقيقيَّةٍ أو افتراضيَّة: (كروتشه).

3) تلاعبٌ بالكلمات، كما في الملاحظة السَّابقة، بين كلمة campanile (برج أجراس الكنيسة) وكنية فيليبرتو كامبانيلة Filiberto Campanile الذي ألَّف كتاباً بعنوان «قصَّة عائلة سانغرو»،

ولكي يُرْسِي بعض الأساسات
لبيوتٍ متداعيةٍ
ينفق مالاً كثيراً على البييْترات[1].
ولكن لو وضعْتَهُ على محكِّ البُوتقة،
هو الذي يمدُّ نفسَه أكثر ممَّا يستطيع،
هو الذي يطمحُ إلى ما لا يستطيع،
ويتحدَّثُ من أنفه ويروي الأكاذيب،
لرأيتَ يديه لا تزالان مجسوأتَين من المِعْزَق!
فابيِنْلُّو: إنَّك تضعُ يدكَ على الجرح؛
لم يبقَ شيءٌ آخر ليُقال؛ لقد أصبتَ كبدَ الحقيقة!
أذكرُ في هذا المقام،
ولتتذكَّرْ هذه الكلمات،
ما قاله أحدُ الحكماء مرَّةً:
"ليس ثمَّة أسوأ من فلَّاحٍ علا نجمُه".
ياكوفوتشو: وترى الآنَ رَجُلاً مزهوّاً،
خرَّاءَ عطورٍ يمشي في الأرض مَرَحاً،
غايةُ طموحه
أن يعلِّق أكاليلَ الجُبن حول رقبة حصانه،[2] ولأتفه الأسباب
يثورُ بتغطرسٍ كبير.

عائلةٌ نبيلةٌ قديمةٌ من نابولي، وكتاباً آخر عن شعارات النُّبلاء الإيطاليِّين، وصدرا كلاهما في نابولي ما بين عامَي 1615-1618؛ (كروتْشِه).

1) تلاعبٌ آخر بالكلمات بين كلمة pietra (حَجَر) وكنية فرانْشِسكو دي بييتري Francesco De Pietri الذي ألَّف كتاباً عن تاريخ العائلات النَّبيلة بعنوان "مِن تاريخ نابولي" (نابولي،1643)، وكتاباً آخر بعنوان "كرونولوجيا عائلة كاراتْشُولُو" (نابولي، 1605)؛ (كروتْشِه).

2) درجَت العادة على تزيين الأحصنة بأكاليل من جبنة "الكاتشوكافالُّو" والتَّجوُّل بها من باب التَّفاخر؛ (المترجمان).

ينفخُ نُفّاخاتٍ جوفاء
ويجيء بالأباطيل والتُّرّهات،
يتفُّ كلماتٍ طنّانةً ويَتَعَنْفَص،
يلوي بوزَه ويقبضُه
ويمصُّ شفتيه وهو يتكلَّم،
يقيس خطواته:
حاولْ أنتَ أن تحزر مَن يظنُّ نفسَه!
يتشامخُ ويتطوَّسُ،
"هيَّا، أحضرْ لي الكُمَيْتَ أو الأرقش!
نادِ عشرين رَجُلاً من رجالي!
انظرْ إنْ كان حفيديَ الكونت
يرغب في القيام بجولةٍ صغيرة!
متى سيأتيني بالعربة[1]
مُحَصِّلُ ضرائبنا؟
قُلْ للخيَّاط إنَّني أريدُ قبلَ المساء
جواربي الضَّيِّقة المطرَّزة بالذَّهب.
أرسلْ ردَّاً إلى تلك السَّيِّدة
التي تتعذَّب من أجلي
بأنَّني ربمَّا، ربمَّا، سأحبُّها!".
ولكن حالما تضعه في البُوتقة،
تجده خالي الوفاض،
مَحْضَ نارٍ في كومة قشٍّ.
وبقدر ما يتبخترُ يتثاءب:
يتحدَّث دائماً عن الأموال الطّائلة ولا يملكُ شَروى نقير،

1) كان محصّلو الضّرائب يحضرون أرباح ممتلكات السّادة بالعربات؛ (كروتشِه).

ينفخُ خدَّه وبطنُه خاوٍ،
طوقُهُ مكشكَشٌ وما من ثنيةٍ واحدةٍ في كيس نقوده،
كرشُهُ سعيدةٌ ولا يملكُ نكلة،
وخلاصةُ القول
كلُّ حلاقة ذقنٍ تنتهي إلى سوالفَ قصيرة[1]،
وكلُّ عصاً إلى عودِ تخليلِ أسنان،
وكلُّ عجينةٍ إلى مغليٍّ كستناء،
وكلُّ قصفٍ بالقنابل إلى ضُراط.
فابيِنلُّو: بُورِكَ لسانُك!
يا لبراعتك في تحليل الأمر،
ويا لبراعتك في استجلائه!
وباختصارٍ إنَّه قولٌ قديمٌ
أنَّ المغرور مثلُ النُّفَّاخة.
ياكوفوتشو: مَن يسعَ وراءَ البلاط،
واقعٌ تحت سحر تلك السَّاحرة القبيحة،
ينتفخ بالهواء،
ويتغذَّ بدخان الشِّواء،
ونُفَّاخاتُهُ مليئةٌ بالآمال،
ينتظر فقاقيعَ
من صابونٍ ومن غاسُولٍ،
تنفجرُ في الطَّريق
قبل أن تصلَ إليه.
يقف مشدوهاً فاغرَ الفم
أمام كلِّ تلك الأبَّهة والفخفخة،

1) من يحلق ذقنه بسرعةٍ يترك بعض الشَّعر على الفكَّين، ويبدو وكأنَّه بسوالف، وكانت السَّوالف القصيرة آنذاك تُدعَى «سوالف على الطَّريقة النَّابوليتانيَّة»؛ (كروتشه).

ولأجل خرقةٍ باليةٍ،
لأجل رشفةِ مَرَقٍ في مقصورةِ الخَدَم
مع رغيفٍ قديمٍ ومتيبِّسٍ،
يَبِعْ حرِّيَّته التي لا تُقَدَّر بثمن!
ثم إنَّك لو صَبَبْتَ المُذيبَ على هذا الذَّهب الزَّائف،
لرأيتَ متاهاتٍ
من الغشِّ والخيانة،
ولوجدتَ، يا صاحِ، هاوياتٍ
من الخداع والتَّظاهر،
ولاكتشفتَ بلدةً كبيرةً
من الألسنة السَّليطة واللَّئيمة.
تارةً تراه مرفوعاً
على الرَّاحات وتارةً في قاع البرميل[1]،
تارةً معزَّزاً عند سيِّده وتارةً مُهاناً،
تارةً متسوِّلاً وتارةً ثريّاً،
تارةً سميناً وطويلَ القامة، وتارةً ضئيلاً وهزيلاً.
يقدِّمُ خدماته، ويكدُّ، ويتعب،
يعرقُ مثل كلب،
ويعدو أكثر ممَّا يمشي،
ويجلبُ الماءَ حتى بأذنيه[2]:
ولكنَّه يضيِّع وقته،
يضيِّع جهدَه وبذورَه؛
هباءً يذهبُ كلُّ شيء،

---

1) المقصود: في قاع المجتمع؛ (المترجمان).

2) غلوٌّ في التَّصاغر والخنوع؛ (كرونشِه).

في البحر ينتهي كلُّ شيء.
افعل ما تشاء والمحصِّلة صفر،
ضع الخططَ والمشاريعَ المغذَّاةَ
بآمالك ومؤهِّلاتك وتضحياتك،
وأوهى هبَّة ريحٍ
معاكسةٍ تطرح كلَّ جهدٍ من جهودك أرضاً:
وفي النِّهاية، ستجد أمامك
متحذلقاً، أو جاسوساً، أو غانيميداً[1]،
فلَّاحاً فظّاً،
أو شخصاً يبني
بيتاً ببابَين[2] أو شخصاً بوجهين.
فابيِنْلُّو: إنَّك تهبُني حياةً جديدةً يا صاح!
صدِّقني، لقد تعلَّمتُ
في هذا الوقت القصير
وفي هذه الجلسة وحدها
أكثر ممَّا تعلَّمتُ في الأعوام الكثيرة التي قضيتُها في المدرسة!
مجلسُ الأطبَّاء قرَّرَ مرَّةً:
"مَن خدمَ في البلاط، ماتَ على كومةِ قشٍّ".
ياكوفوتشو: لقد سمعتَ مَن يكون رَجُل البلاط،
اسمع الآنَ مَن يكون الخادم الوضيع.

1) هو في الميثولوجيا الإغريقيَّة أميرٌ طرواديٌّ وصفه هوميروس بأنَّه أجمل البشر في زمنه. اختطفه زيوس ليجعل منه ساقي الآلهة؛ (المترجمان).

2) كانت تُسَمَّى بيوتاً ببابَين تلك البيوت التي يدخلها الأزواج المتواطئون من باب بينما يخرج عشيق الزَّوجة من الباب الآخر، في إشارةٍ إلى الأشخاص الذين يحصلون على امتيازاتٍ عن طريق زوجاتهم؛ (كروتْشِه).

خُذْ خادماً،
وليكن وسيماً ومهذَّباً ونظيفاً،
وبكلِّ المعاني حسنَ المظهر:
ينحني لك ألفَ مرَّةٍ،
يُرتِّبُ لك المنزل، ويجلب الماء،
يطهو،
وينظِّف ثيابك بالفرشاة،
ويمشِّط البغلة، ويجلي الأطباق،
وإنْ أرسلتَه إلى السُّوق
عادَ قبل أن تجفَّ البصقة؛[1]
لا يستطيع البقاء أبداً ويداه على خاصرتيه،
لا يعرف أبداً الكللَ والملل،
يشطف الأقداحَ ويُفرِغُ المبولة.
ولكن إنْ أردتَ اختبارَه
اختباراً حقيقيّاً،
وجدتَ أنَّ كلَّ طرافةٍ لديه جميلةٌ،
ولكنَّ عَدْوَ الحمار لا يدومُ طويلاً،
وبعد مضيٍّ ثلاثة أيَّام،
تكتشف أنَّه خائنٌ،
ضُجَعَةٌ مدى الحياة،
ديُّوثٌ من الدَّرجة الأولى،
محتالٌ وشَرِهٌ ومقامر؛
إذا أنفقَ لم ينفق إلَّا القشور،
وإذا ألقى للبغلةِ بعضَ العلف

1) عادةٌ شعبيَّةٌ لحثِّ الخادم أو الصَّبيِّ على تنفيذ المهمَّة الموكولة إليه بسرعةٍ، فكان السَّيِّدُ يبصق على الأرض ويأمره بأن يعود قبل أن تجفَّ البصقة؛ (كرونشه).

ألقاهُ بالحبَّة؛
يُفسدُ أخلاقَ خادمتك،
ويُفتِّش في جيوبك،
وأخيراً، ليزيد الطِّين بلَّةً،
وفي تطهيرٍ شاملٍ،
يجرِّدُكَ حتى من مغرفتك ويُطلِق ساقيه للرِّيح!
فانظرْ ماذا يحدث حين تُطعِمُ الخنازيرَ خِياراً!
فابيِنْلُو: لبُّ الكلام
كلماتُك هذه، لبُّه وعُصارتُه!
آهِ ما أتعسه وأشقاه
مَن يصادف خادماً خبيثاً!
ياكوفوتشو: وهاكَ أحد المتبجِّحين،
شيخُ البلطجيَّةِ
وكبيرُ معلِّمي المتغطرسين،
زعيمُ الفتوَّات
وأبرزُ المبرَّزين في فنِّ ليِّ الأعناق،
الرَّيسُ الحقيقيُّ لعصابة الصُّلَفاء
وبَطْرَكُ الأشاوس:
يحسبُ أنَّه
يروِّع النَّاسَ ويُفاخر بذلك،
يُفاخرُ بأنَّه يُرهبُك
بنظرة واحدة:
يتخطَّرُ كجنديٍّ رَمَّاحٍ،
عباءتُه على كتفيه،
والقبَّعة متدنِّيةٌ على عينيه،

وحاجباه مقوَّسان،
مستقيمةٌ شواربُه،
وحولاوان عيناه،
يدهُ على خصره؛
يهوِّلُ الأمورَ، ويضرب الأرضَ بقدميه،
وحتى القشَّة تعيق طريقه،
ويخوض شجاراً حتى مع الذُّباب.
يتنقَّلُ دائماً مع عصابته،
ولا تسمعه يتحدَّث
سوى عن إغماد السَّيف في الأجساد:
هذا الذي يطعنُ، وهذا الذي يفلعُ، وهذا الذي يبقرُ،
وهذا الذي ينحرُ، وهذا الذي يمحو النَّاسَ من سجلاَّتِ القَيْد، وهذا الذي يشجُّ،
وهذا الذي يدقُّ العِظام، وهذا الذي يخلعُها، وهذا الذي يلوي الأعناق،
وهذا الذي يبعجُ، وهذا الذي يسحقُ،
وهذا الذي يشقُّ البطون، وهذا الذي يقطع الرُّؤوس، وهذا الذي يحطِّمُ الجماجم؛
ثمَّ هذا الذي يمزِّق أمعاء النَّاس، وهذا الذي يمزِّق أكبادَهم،
وهذا الذي يلكمُهم، وهذا الذي يَقْرَعُهم بالعصا،
وهذا الذي يورِّمُهم، وهذا الذي يثخنُهم بالجراح:
إنْ سمعتَهُ يتبجَّح، انبطحْ أرضاً!
هذا الذي يقيِّدُ أسماءَ النَّاس في دفتره[1]
وهذا الذي يجتثُّهم من هذا العالَم،

1) في قائمة الأشخاص الذين سينالون الضَّرب؛ (كروتشِه).

وهذا الذي يرسلهم إلى أقربائهم،
وهذا الذي يعتصرُ منهم آخرَ ما بقي معهم من نقودٍ،
وهذا الذي يضعهم تحت الملح،
وهذا الذي يغرسهم في الأرض،
وهذا الذي يصنع منهم لحماً مقدَّداً؛
يطرحُهم أرضاً ويحصدُهم بالمئات،
ودائماً دكّاً وبطشاً،
فالعاً رؤوساً وخالعاً أرجُلاً.
ولكنَّ سيفه، بقدْرِ
ما يُظهر من بأسٍ وبسالةٍ،
يبقى عروسَ دمٍ وأرملةَ شرفٍ!
ولسوفَ تكشفُ هذه البُوتقةُ النُّحاسَ،
لأنَّ تبجُّحاتِ الفم هذه
ما هي إلَّا ارتعاشُ قلبه؛
وخناجرُ عينيه
ما هي إلَّا نكوصُ قدميه؛
ورعودُ صَلَفِه
ما هي إلَّا ضراطُ خوفِه؛
والطَّعناتُ في منامه
ما هي إلَّا صفعاتٌ يتلقَّاها في صَحْوِه؛
وحصصُهُ اللَّامتناهية من أعمال الشَّغب
ما هي إلَّا مصادرةُ سيفِه الذي
كمثلِ امرأةٍ شريفةٍ
يستحي أن يظهرَ عارياً.
إنْ أبدى بعض الشَّجاعة، فالرُّعبُ دائماً في قلبه؛

وإنْ نهشَ أُسُوداً
تغوَّطَ أرانبَ؛
وإنْ تحدَّى، خِيطَ وحُشِيَ؛[1]
وإنْ هدَّدَ، سِيطَ وأُفْحِمَ؛
وإنْ لعبَ نردَ المتبجِّحين
انقلبَ الأمرُ دائماً عليه؛
بارعٌ في الكلام ولكنَّه في الأفعال زهيد؛
يضع يدَهُ على الفولاذ
ويرفعُ مرساةً من حديد؛[2]
يبحث عن الشِّجار ويتفاداه؛
يحلِّقُ أكثر ممَّا يستطيع،
مُصادِفاً دوماً مَن يغلبه ويوضِّح له الأمور،
مَن يسوِّي له سترته على كتفيه،
مَن يهزُّه ويردُّ له الصَّاعَ صاعَين،
مَن يصفِّي له حساباته،
مَن يمشِّط له صوفه،
مَن يضربه بالحِزام،
مَن يضربه بالعصا،
مَن يجعل أذنيه تصفِّران،
مَن يخلخل أضراسَه،
مَن ينهب حافظتَه،
مَن يورِّم لوزتَيه،
مَن يرغِّيه بالدِّماء،

1) أي أُشبِعَ ضرباً ولكماً؛ (كروتشِه).

2) أي يضع يديه على سيفه ليرفعه ولكنَّه، بدلاً من ذلك، يرفع شيئاً أدنى قيمةً منه؛ (المترجمان).

أو يقتلع أحد مصباحَيه[1]،
أو يصنع له تسريحةً جميلة،[2]
أو يُزوِّقه تزويقَ الذَّاهب إلى حفلة،[3]
أو ينخسه بالعصا،
أو يدغدغه بالعُكَّاز،
أو يلكمه لكمةً تحت الحنك،
أو على الحنك، أو على الفكَّين،
صفعاتٌ بباطن اليد، وصفعاتٌ بظاهرها، وضرباتٌ بجُمْع الكفِّ،
وصفعاتٌ على قفا العنق، صفعاتٌ قويَّةٌ، وضرباتٌ تطيِّر القبَّعة عن الرَّأس،
ولكماتٌ بقبضة اليد، وضرباتٌ قاضيةٌ،
وركلاتٌ، ولكماتٌ تورِّمُ العيون، وضرباتٌ بما غلُظَ من العيدان،
أو يأخذ بخناقه ويلوي عنقه!
ما قيل يكفي، ذلك أنَّه يُقتَل بوخزةٍ ويُجرَح بريشة؛
يتصنَّعُ صوتَ رجُلٍ،
ويعدو مثل غزال؛
يبذرُ بصاقاً،
ويحصدُ كدمات؛
وفي اللَّحظة التي تظنُّ فيها
أنَّه سيهجم عليك مثل تيسٍ،

1) إحدى عينيه؛ (كروتشِه).

2) أي يُوسِعُه ضرباً؛ (كروتشِه).

3) أي يُحدِث في جسده الكدمات؛ (المترجمان).

وأنَّه سيقهر جيشاً
وسيلوِّح بمغرفته[1]،
تبزغ الشَّمسُ وينبلجُ صبحٌ جميلٌ،
ويتحوَّل إلى حصانٍ ينقلب على أعقابه؛
يتملَّصُ، ويهربُ، ويُقلعُ، ويتلاشى،
يختفي، ويُخْلِي مكانه، ويجمع أزهار البنفسج[2]،
يرحلُ، وينسلُّ، ويغوصُ بعيداً، ويُطلقُ
طلقةَ المغادرة[3]،
يرفع كعبيه، ويبتعد خفيةً، ويُطلق ساقيه للرِّيح؛
وممسكاً حقائبه يقول:
"ساعداني يا كعبيَّ فأنا أَلْبَسُكُمَا الآن!"،
وكعباه يُلامسان كتفيه،
وله قدما أرنبٍ ويلوِّحُ
بالسَّيف قائماً على ساقَيه،
ومثل ضُجَعَة
يترنَّح ويهرب، ينالُ الضَّرب ثمَّ يذهب إلى السِّجن!
فابيِلُّو: يا لها من صورةٍ طبق الأصل
لهؤلاء المتبجِّحين!
أوه كم هو صحيحٌ!
ولا تنسَ أن تقول إنَّك لن تجد
منهم أحداً، وأنا على يقينٍ من هذا، يمكنه أن يكسر قيدَه
بلسانه

1) بسلاحه، من باب الاستهزاء؛ (المترجمان).

2) أي يجهِّز حقائبه للرَّحيل؛ (كروتشه).

3) الضُّراط؛ (كروتشه).

أو يساوي أكثر من كلبٍ لصيد السُّمَّان!
ياكوفوتشو: المتزلِّفُ تارةً يمدحك ويرفعك
فوق قرص القمر،
يتبعُ دائماً ما تقول،
يعطيك الطُّعمَ والصِّنَّارة،
ينفخُ في شراعك،
وأبداً لا يعارضك:
إنْ كنتَ غولاً أو نسخةً من إيسوب[1]،
جزمَ بأنَّكَ نرسيس؛
وإنْ كان في وجهك خدشٌ
أقسمَ أنَّه شامةٌ وأنَّه شيءٌ جميل.
إنْ كنتَ ضُجَعَةً،
أكَّدَ أنَّك هرقلُ أو شمشون؛
وإنْ كنتَ من نسلٍ وضيعٍ،
شهدَ أنَّك من أهل الحسب والنَّسب؛
فهو دائماً يتودَّد إليك ويُلاطفك.
ولكن حذاريكَ التَّعلُّق بكلمات
هؤلاء الثَّرثارين الشَّرهين،
وانتبه ألَّا تعلِّق آمالك عليهم!
لا تصدِّق أيَّ كلمةٍ ممَّا يقولون،
ولا تحترمهم أبداً،
ولا تنجرف وراء عوائهم،
بل اختبرهم في هذه البُوتقة،
وسوف تلمس لَمْسَ اليد

1) إيسوب (620-564 قبل الميلاد) كاتبٌ إغريقيٌّ اشتُهر بكتابة الحكايات الخرافيَّة؛ (المترجمان).

أنَّ هؤلاء ذوو وجهين:
وجهٍ في الأمام وآخر في الخلف،
وأنَّ على ألسنتهم شيئاً، وفي قلوبهم شيئاً آخر.
إنَّهم جميعاً لاعقو وجوهٍ ومدَّعون:
يحتالون عليك، يضعونك في الوسط،
يستهزئون بك، يراوغونك، يخدعونك،
يتلاعبون بك، يبهرونك ويضلِّلونك!
يغشُّونك، ويجعلون على بصرك غشاوةً ويُخاتلونك!
حين يُجارونك في أمرك،
فاعلمْ أنَّ عاصفةً تَلُوحُ في الأفق؛
بالابتسامة يعضُّونك،
وبالثَّناء يلطِّخونك،
ينفخون رأسك
ويُفرِغون حقيبتك.
كلُّ هدفهم
أن ينهبوك ويستغلُّوك،
وبكِلَابِ مدائحهم
وبثرثرتهم وقوافيهم السَّخيفة
يتصيَّدون الدَّراهم من قلبك؛
وفقط لكي ينتزعوا منكَ بالحيلة
بضعَ قِطعٍ من الفضَّة
لكي يقصدوا العاهرات أو يرتادوا الحانات،
يبيعونك المثائنَ[1] على أنَّها فوانيس.
فابيِنلُو: فلتتبدَّدْ بذورهم!

1) جمع مثانة؛ (المترجمان).

أولئك المقنَّعون
الذين يريدون حشرنا داخل كيس:
نرسيسٌ هم من الخارج وشيطانٌ من الدَّاخل!
ياكوفوتشو: والآن استمعْ إذْ أخبرك عن امرأةٍ
تذهبُ مع الرَّائح والغادي[1].
إنْ تنظر إليها تَرَ دميةً صغيرةً،
جمالاً صارخاً، فخامةً، حمامةً،
مرآةً، جوهرةً،
بيضةً ملوَّنةً، حوريَّةً ساحرةً،
بدراً ليلةَ كماله؛
تَرَ جمالاً مرسوماً بالرِّيشة،
يمكنك أن تشربه في كأس ماء؛
تَرَ لقمةً تليق بالأسياد،
صبيَّةً صغيرةً تسرق القلوب:
تكبِّلك بضفائرها،
وتطعنك بلِحاظها،
وتبلبلُ أفكارَكَ بصوتها.
ولكن حالما تضعها في البُوتقة،
آهِ أيَّ نارٍ سترى!
آهِ كم من المصائد والفخاخ،
وكم من الكمائن المنصوبة والحِيَل،
وكم من الشِّباك والعُقَدْ!
ألفَ خدعةٍ تَحْبِكُ،
ألفَ شبكةٍ ترمي،

1) من العشّاق والرّبائن؛ (كروتشِه).

ألفَ مكيدةٍ تدبِّر،
ألفَ فخٍّ وشَرَكٍ،
ألفَ كمينٍ ومَكْمَنٍ،
وألفَ مصيدةٍ وخدعةٍ وأحبولة.
تسحبُ مثل خطّافٍ،
وتَفْصدُ مثل حلّاقٍ،
وتضلِّلُ مثل غجريَّةٍ،
وألفَ مرَّةٍ تحسبُها
نبيذاً فوّاراً،
وما هي إلّا لحمٌ موبوء!
إذ تتكلَّم تتآمرُ، وإذ تمشي تحتالُ،
وإذ تضحك تكيدُ، وإذ تلمس تلطِّخ؛
وحتى عندما لا ترسلك إلى المستشفى
فإنَّكَ كطائرٍ أو كحيوانٍ تُعامَل،
إذْ بخنجرها اللَّعين
تتركك إمّا بلا ريشٍ وإمّا بلا فروٍ!
فابيِنْلُو: لو كتبنا ما قلتَه على الورق،
لبيعَتْ بستٍّ بوبليكاتٍ[1] هذه القصَّة،
ذلك أنَّها تقدِّم العِبَر،
وتجعل المرءَ خبيراً في التزام جانب الحذَر،
وفي عدم الوقوع بين أيدي أولئك النِّسوة السَّيِّئات
اللّاتي لسنَ أكثر من عملةٍ زائفة
ومن تعفُّنٍ في اللَّحم والمرَق[2].

1) عملةٌ معدنيَّةٌ تساوي ثلاث تورنيزاتٍ، وكانت تُطلَق الكلمةُ نفسُها على العاهرات؛ (المترجمان).

2) أي في الحياة والجوهر؛ (كروتشِه).

ياكوفوتشو: إنْ رأيتَ مصادفةً إحداهنَّ على نافذةٍ
وبدَتْ لك حوريَّةً من الحوريَّات؛
الشَّعرُ أشقر
حتى لَيبدو لك أنَّك ترى
جدائلَ من جُبن الكاتشوكافالُو[1]،
والجبينُ مرآةٌ،
وكلُّ لحظٍ يُشافِهُك، وتُريكَ
شفتين كأنَّهما قطعتا لحمٍ مقدَّد؛
تحسبُها فتاةً تخلب العقول،
طويلةَ القَدِّ وساطعةً مثل راية:
ولكن ما إن تحدِّق فيها مليَّاً
حتى تسقط مغمىً عليك،
وتأخذُ بك الكُروبُ كلَّ مأخذ!
مدَّعيةٌ هي ورخيصةٌ،
ويكفي أن تضعها في البُوتقة
حتى تجد أن ذاك الذي يبدو لك
جمالاً يُباهى به
ليس إلَّا بتلةً مطليَّةً،
جداراً مكسوَّاً بالملاط،
قناعاً من فيرَّارا[2]،

1) نوعٌ من الجُبن يُصنَع في جميع أنحاء جنوبي إيطاليا، يشبه في شكله شكل الدَّمعة، وهو ذو قشرةٍ صلبةٍ تؤكَل؛ (المترجمان).

2) كانت المومسات عادةً ما يتزيَّنَّ بأقنعةٍ مصنوعةٍ في فيرَّارا القريبة من فينيسيا، وكانت هذه الزينة موضةً شائعةً في القرن السَّادس عشر؛ (كروتْشِه).

فتاةٌ تنشر السَّجّاد،[1]
ضفائرُها مستعارةٌ،
وجفونها مصبوغةٌ بسخامِ المقلاة،
والوجه محمَّرٌ بأكثر من وعاءٍ
من الإسرنج[2]، بالجير الخام والطِّلاء،
تجلو وتدهن نفسها بأبيض الرَّصاص،
تتزيَّن وتتبهرج وتتلطَّخ!
تطفحُ بالبُقَع والمراهم،
تغصُّ بالضَّمائد والجِرار الصَّغيرة،
بالمساحيق والحواجل،
فتبدو، بكلِّ هذا العتاد،
وكأنَّها بصدد معالجة بعض الجِراح!
كم وكم من العيوب
تغطِّيه الأخمرة والتَّنانير!
زِدْ على ذلك أنَّك لو أزلتَ الجُرْمُوق[3]،
مع العديد من الحشوات والكثير من النِّعال،
لرأيتَ العملاقَ يصيرُ قزماً.
فابيِلُّو: وحقِّ السَّماء، إنَّك تجلو الأمرَ لعينيَّ أكثر فأكثر!
إنَّني أكاد أصيرُ مومياء، إنَّني مذهول،
إنَّني لا أصدِّق نفسي!
كلُّ حكمٍ تنطق به، يا صاحِ،

1) كانت الفتيات اللَّاتي وصلن إلى سنِّ الزَّواج يقمن بنشر السَّجاجيد والأقمشة على النَّوافذ؛ (كروتْشِه).

2) الرَّصاص الأحمر؛ (المترجمان).

3) حذاءٌ قصيرٌ أو خفٌّ يُلبَس فوق الحذاء وقايةً له من الماء أو غيره؛ كانت نساء نابولي يستعملنه للنُّزول من العربة والمشي في الشَّارع لتفادي الوحل والغبار؛ (كروتْشِه).

يساوي سبعين سكوداً[1]!
يمكنك أن تدقَّ كلَّ ما قلتَه بالمهباج،
ولن تحيد قَدْرَ شعرةٍ
عن ذلك القول المأثور:
"الأنثى كالكستناء:
خارجها جميلٌ وداخلها عليل".
ياكوفوتشو: فلننتقل إلى ذلك التَّاجر،
الذي يعمل في الصَّرف والتَّصريف[2]،
يؤمِّن السُّفن ويجد المشترين،
يتاجر ويتآمر ويغشُّ،
يفرضُ المكوسَ
ويقتنص الصَّفقات ويجني الأرباح،
يبني السُّفن ويشيِّد الصُّروح،
يملأ خزائن مُؤَنه إلى الحافَّة،
يجمِّل بيته كأنَّما يجمِّل عروس،
يتظاهرُ بأنَّه كونت،
يرفلُ في الحرير ويفرِّقه إسرافاً،
الرِّجالُ خدمٌ لديه والنِّساءُ حرائر،
والكلُّ يحسده.
ويحٌ له إنْ وُضِعَ في البُوتقة!
فما هذا إلَّا ثراءٌ في مهبِّ الرِّيح،
كنزٌ من دخان،
كنزٌ من زجاج،

1) Scudo من العملات التي بقيت متداوَلةً في إيطاليا منذ القرن السَّادس عشر حتى القرن التَّاسع عشر؛ (المترجمان).

2) أي صرف وتصريف العملات؛ (المترجمان).

مُعرَّضٌ لكثيرٍ من الأنواء،
ولخطر الأمواج!
ما هذا إلَّا مظهرٌ جميلٌ،
ولكنَّ المظهرَ يُضِلُّك،
فبقدْرِ ما تراه
يتلألأ بالسُّكودات كصدر حصان[1]،
يمكن أن يخسر اللُّعبة بأكملها بهفوةٍ واحدة.
فابيِلُّو: يمكنني أن أُحصي آلافاً من هؤلاء
الذين هدَّموا بيوتاً،
وثرواتُهم
كسرابٍ يحسبه النَّاظرُ شيئاً
وإذا هو لا شيء، وعاشوا في العالم
على حساب هذا وذاك،
ولا يملكون من المشاعر شيئاً،
"موائدهم عامرةٌ ووصاياهم بائسة!"[2].
ياكوفوتشو: وانظرْ إلى ذاك العاشق:
يحسَبُ السَّاعات
التي يقضيها ويبدِّدها في خدمة الحبِّ سعيدةً.
يستلذُّ اللَّهيب والسَّلاسلَ؛
وعزيزٌ عليه السَّهمُ
الذي بسبب جمالٍ عظيمٍ ينغرزُ فيه.
يُجاهرُ بأنَّه يفارق الحياة
وبأنَّه لم يعد يستطيع العيش؛

1) كان الحزام الذي يُلَفُّ على صدر الحصان يُزَيَّنُ بقطعٍ معدنيَّةٍ برَّاقة؛ (كروتشِه).

2) مثلٌ يُقصَد به الشَّخص الذي يبذِّر في حياته ولا يترك لخلفه شيئاً؛ (كروتشِه).

يسمّي الآلامَ أفراحاً،
نشوةَ هذيانَ الحُبِّ وحُمَّاه،
لذَّةَ لوعَتَهُ وعذابَه؛
لا يهنأ بطعامٍ،
ولا ينام قريرَ العين،
أحلامُه مهشَّمةٌ ووجباتُه بلا شهيَّة.
دون أن يتلقَّى أجراً يطوفُ
على الأبواب المحبوبة،
ودون أن يكون معماريَّاً يضعُ الرُّسومات
ويبني قلاعاً في الهواء،
ودون أن يكون جلَّاداً
يتفنَّنُ بلا انقطاعٍ في تعذيب حياته.
ومع كلِّ هذا يطيرُ فرحاً ويَسْمن،
وكلَّما ازدادَ ذلك السَّهمُ وخزاً ونخزاً فيه
كثُرَ لحمُه وشحمُه،
وكلَّما ازداد اصطلاءً بتلك النَّار -
ازداد تهلُّلاً وابتهاجاً:
أنْ يكون مربوطاً بحبلٍ
هو في نظره حظُّه الأكثر سعادةً!
ولكن لو وضعته في البُوتقة
لأدركتَ أنَّه فرعٌ من الجنون،
ضربٌ من السُّلِّ،
حالةٌ من التَّذبذب الدَّائم
بين الخوف والأمل،
حالةٌ من التَّأرجح الدَّائم

بين الشُّكوك والشُّبهات:
حالةٌ دائمةٌ
من البقاء كقطّةِ السَّيِّد بازيلهْ[1]
التي تارةً تضحك وتارةً تبكي!
مشيتهُ ثقيلةٌ وتائهةٌ،
حديثهُ مشوَّشٌ ومتقطِّعٌ،
ودماغهُ شاردٌ طوال الوقت
في المرعى،
وتَرَاهُ في كلِّ لحظةٍ
قلبُهُ كخرقةٍ ووجهُهُ كالثَّوب المغسول،
صدرُهُ ساخنٌ وروحُهُ متجمِّدة.
وحتى لو
سخَّنَ الجليد وفتَّتَ الصَّخرَ
لأجل تلك المعشوقة
التي كلَّما ازدادتْ نأياً ازدادتْ حضوراً
فإنَّه ما إن يتذوَّق الحلاوةَ حتى يندم!
فابيِلُّو: أوه، بائسٌ مَن يقع في
هذه الشِّباك الشَّرهة!
شقيٌّ مَن يضع قدمه في هذه المصيدة!
لأنَّ ذلك الأعمى[2] يرسلُ
المسرَّاتِ بالأصابع ولكن المضرَّاتِ بالأشبار.
ياكوفوتشو: والشَّاعرُ المسكين
يصبُّ وابلاً من الثُّمانيَّات وينفث بخَّاتٍ من السُّونيتات،

---

1) إشارةٌ من الكاتب إلى قطّته؛ (كرونْشِه).

2) كيوبيد؛ (كرونْشِه).

يستنفدُ الورقَ والحبرَ،
ويعتصرُ دماغَه،
ويستنزفُ الكوعَ والوقتَ،
فقط لكي يعدَّه النَّاسُ
عرَّافَ العالَم.
يمشي كمن يتخبَّطه الشَّيطانُ من المَسِّ،
معذَّباً وذاهبَ العقل،
متفكِّراً في الأهوسةِ
التي يعجُّ بها خيالُه:
يكلِّم نفسه وحيداً في الشَّارع،
ويعثر على ألف وألف تعبيرٍ جديدٍ:
"حدقاتٌ شاهقات،
"فيضٌ سيَّالٌ من الزَّهر والأغصان،
"أمواجٌ جنائزيَّةٌ وذاتُ صرير،
"عقيقٌ وثَّابٌ،
"من الأمل الفاسق:
"أوه، يا للغطرسة الجامحة!".
ولكن إن وُضع في البُوتقة
ذهبَ كلُّ شيءٍ هباءً منثوراً:
"آه يا له من قريضٍ[1] حُلوٍ!" وهنا يقفُ الأمر.
"يا لها من غزليَّةٍ!" وما هي إلَّا هدرٌ للأنفاس!
وإنْ تَقِسْ غورَه تَجدْ أنَّه
كلَّما ازدادَت أبياتُه عدداً، قصُرَتْ طولاً.

1) تلاعبٌ بالألفاظ بين قرض الشِّعر والشيْء المقروض أو المقضوم، وهو ما يقابله في النَّصِّ الأصليِّ تلاعبٌ بكلمة composta التي تعني نَظمَ الشِّعر ولكنَّها تعني أيضاً الخُشَاف (فاكهةٌ مطبوخةٌ بالسُّكَّر)؛ (المترجمان).

يمدح مَن يحتقره،
ويمجِّد من يرهقه،
ويختزن ذكرىً أبديَّةً
لمن نسيَ أمرَه؛
يضعُ غلَّةَ أتعابه
بين يدَي من لا يعطيه كسرةَ خبز؛
هكذا يحطِّمُ حياتَه:
يغنِّي المجدَ ويبكي رقَّةَ الحال.
فابينلُّو: لقد ولَّتْ حقَّاً
أيَّامُ سان مارتيني[1] عندما
كانت كؤوس الشُّعراء تُرفَع عالياً!
ففي هذا العصر المظلم
سُحِقَ رعاةُ الأدب والفنون،
وفي نابولي، كما في أيِّ مكانٍ آخر،
وهذا يجعلني أموت من الألم،
صارَ الغارُ أدنى منزلةً من القنَّبيط الأخضر.
ياكوفوتشو: والمنجِّمُ أيضاً
يتلقَّى من كلِّ حدبٍ وصوبٍ
الكثيرَ والكثيرَ من الأسئلة.
هذا يريد أن يعرف إن كان سيُرزَق ولداً ذكراً،
وهذا إن كان سينعمُ بفترةِ رخاء،
وهذا إن كان سيربح القضيَّة،
وهذا إن كانت ستنوبه المصائب؛

1) الأيَّام السَّعيدة، لأنَّه في يوم القدِّيس مارتيني يتذوَّق النَّاس النَّبيذ الجديد؛ (كروتشِه).

هذا إن كانت السَّيِّدة[1] تفكِّر به،
وذاك إن كان سيكون رعدٌ أو خسوف.
ويجترحُ في الحال من الأكاذيب
ما يستلزمُ هراوةً لردعه،
فهو يصيبُ في نصف تخمينٍ ويخطئ في مِائة.
ولكنْ داخلَ هذه البُوتقة
يمكنك أن ترى إن كان غباراً أم طحيناً:
إنَّه يرسمُ رُبعيَّاتٍ[2]
ولكنَّه طويلٌ وبدين؛
يرسمُ منازل[3]
ولكن ليس لديه منزلٌ ولا نار.
يعرضُ أشكالاً ويُفشي قصصاً سيِّئة؛
يرتفع فوق النُّجوم
ويعطي الأرضَ مؤخِّرته؛
وفي النِّهاية، في الأسمال والخِرَق،
وكلُّها شرائطُ ومِزَق،
يسقطُ سرواله،
وحينئذٍ متِّع نظرك بعلم التَّنجيم الحقيقيِّ،
إذْ يُظهر لك إسطرلابَه وكُرَتَيه!
فابيِيلُّو: إنَّك تُضحكني يا صاح،
مع أنَّه لا رغبة لي في ذلك!

---

1) الخليلة أو العشيقة؛ (كروتشِه).

2) رُبعيَّاتٍ سحريَّة؛ (كروتشِه).

3) بالمعنى الفلكيِّ: القبَّة السَّماويَّة مقسَّمةٌ إلى ستَّة عشر منزلاً؛ (كروتشِه).

ولكن أولئك الذين يصدِّقون هؤلاء النَّاس
يجعلونني أموت من الضَّحك:
فهؤلاء يزعمون أنَّهم يتكهَّنون للآخرين،
بينما لا حيلة لهم في التَّكهُّن لأنفسهم:
إذْ يحدِّقون في النُّجوم يسقطون في حفرة![1]
ياكوفوتشو: وآخر يحسب نفسَه شيئاً كبيراً،
ويشدُّ جوربَه،[2]
يزنُ الكلمات ويبصقها طنَّانةً،
ويحسبُ أنَّه أفضل ما في العالم.
إن تعلَّق الأمرُ بالشِّعر،
وضع نفسَه على قدم المساواة مع بتراركا؛
وإن تعلَّق بالفلسفة،
هزمَ أرسطو بخمس عشرة نقطةً وبضعة كُسُور[3]؛
في علم الحساب ليس بندٌّ له كانتونهْ[4]؛
في فنون الحرب يقلي كورناتْسانو[5] قَلْياً؛
في فنِّ العمارة يردُّ إقليدس إلى بيته!
في الموسيقى يبزُّ فينوزا[6]؛

1) مثل طاليس الملطيِّ، الرِّياضيِّ والفيلسوف والفلكيِّ اليونانيِّ، الذي بينما كان يتأمَّل النُّجوم تردَّى في حفرة؛ (كروتْشِه).

2) ليسوِّي تجاعيدَ الجورَب؛ (كروتْشِه).

3) الإشارة هنا إلى نظام احتساب النِّقاط في لعبةٍ من لعب الورق؛ (المترجمان).

4) أوبرتو كانتونهْ، عالم رياضيَّات من جنوة ذاعَ صيته بعد إصدار كتابه التَّعليميِّ «التَّطبيق العمليُّ لعلم الحساب» (نابولي 1599)؛ (كروتْشِه).

5) أنطونيو كورناتْسانو، أديبٌ عاش في النِّصف الثَّاني من القرن الخامس عشر. من مؤلَّفاته «عن الفنِّ، روائع فنِّ الحرب» (البندقيَّة 1493)؛ (كروتْشِه).

6) كارلو جيزوالدو، أمير فينوزا: أكبر مغنِّيي الغزليَّات في نابولي؛ (كروتْشِه).

في القانون يُرسل فاريناتْشُو[1] إلى الجحيم؛
في اللُّغة لا يُعيرُ بوكَّاتْشُو أدنى اهتمامٍ:
يُطلِقُ أحكاماً ويدلقُ نصائحَ،
وهو لا يُجيد حتى لعبةَ القوارير[2].
لكن ما إن يوضع على المحكِّ
حتى نجد في النِّهاية أنَّه
مجرَّد أحمق بين كومةٍ من الكتب.
فابيِنْلُّو: آه كم هو همجيٌّ
أن ندَّعي ما ليس لنا!
لقد اعتادَ طالبٌ موهوبٌ أن يقول:
"الجاهل من يظنُّ أنَّه يعرف الكثير".
ياكوفوتشو: وإلى أين يصلُ الأمرُ بالخيمياء والخيميائيِّ؟
يزعمُ أنَّه مسرورٌ بالفعل،
ويحسبُ نفسَه سعيداً،
وفي غضون عشرين أو ثلاثين عاماً
يَعِدُ بأشياء عظيمة؛
يحكي عن أشياءَ رائعةٍ
اكتشفها فيما كان يقطِّرُ في الإنبيق، أشياءَ
يأملُ أن تجعل منه غنيَّاً.
ولكن ما إن يوضع في البُوتقة
حتى يتآكلَ[3] بأجمعه،
وحينئذٍ يمكنك أن ترى كم كان فنُّه زائفاً،

1) المحامي الرُّومانيُّ الشَّهير بروسبيرو فاريناتْشُو (1544-1618)؛ (كروتْشِه).

2) لعبة البولينغ الحاليَّة؛ (المترجمان).

3) يصبح متآكلاً من المذيبات ومن أحماض البُوتقة؛ (كروتْشِه).

وكم كان هو نفسُه أعمى،
هو الملطَّخُ بالشَّحم وبالأدخنة،
الذي نصبَ أعمدةَ الأمل
فوق مزهريَّاتٍ زجاجيَّة،
ووضع أفكاره ورسوماته كلَّها
في وسط الدُّخان؛
هو الذي، بينما يثيرُ بمنفاخهِ
ألسنةَ اللَّهب،
يستخدمُ في الوقتِ نفسِه كلماتِهِ
ليغذِّي بها رغبات أولئك الذين ينتظرون
ما لا يأتي أبداً.
يذهبُ مطارِداً الأسرارَ،
ويعودُ منعوتاً بالجنون؛
وفي بحثه عن المادَّة الخام
يفقدُ شكلَه الخاصَّ؛
يعتقد أنَّه يضاعف
الذَّهب وهو يُنْقِصُ ما لديه؛
يتخيَّلُ أنَّه يشفي
المعادن المريضةَ
وتراهُ يهرعُ إلى المستشفى؛
وبدلاً من أن يجمِّدَ
الزَّئبق، فيجعل منه شيئاً قيِّماً يُنفَق،
تراهُ يجمِّدُ حياته كدَّاً وكدحاً؛
وإذْ يحسب أنَّه

يحوِّلُ كلَّ معدنٍ إلى ذهب،
يتحوَّلُ هو نفسُه من رَجُلٍ إلى حصان.
فابيِنْلُّو: لا شكَّ أنَّه من الجنون
القيام بهذا العمل! لقد رأيتُ
مِائةَ منزلٍ يتقوَّضُ وينتهي في القاع!
لا شيءَ على الإطلاق يأتي منه،
ولكن يائساً في آماله الكبيرة
يمضي على الدَّوام هائماً وجائعاً.
ياكوفوتشو: ولكن قل لي: هل ترغب في المزيد مقابل ثلاثة قروش؟
فابيِنْلُّو: ها أنا مستعدٌّ للإصغاء فاغرَ الفم.
ياكوفوتشو: وأنا سأتابعُ حتى الانفجار.
فابيِنْلُّو: تابعْ في الحال إذاً، ما دام مزاجكَ رائقاً.
ياكوفوتشو: لوددتُ ذلك، لو أنَّ روحي لم تكن على الحافَّة،
ذلك أنَّ ساعة الطَّعام قد مضت!
لذا، دعنا نذهب،
وتعال، إن كنتَ ترغبُ،
إلى دكَّاني،
لنُعْمِلَ أسناننا معاً:
"فبيوتُ الفقراء لا تعدمُ قطعةَ خبزٍ".

لقد كانت كلمات هذا المشهد الشِّعريِّ الرَّعَويِّ مصحوبةً بإيماءاتٍ لطيفةٍ وحركاتٍ فتَّانةٍ تجعلك قادراً على اقتلاع أسنان[1] كلِّ امرئٍ من

1) بسبب استغراق الجميع في القهقهة والضَّحك، فكانت أفواههم مفتوحةً وأسنانهم باديةً للعيان؛ (كروتْشِه).

المستمعين. ولمَّا كانت الجداجد تدعو النَّاس إلى الهجوع، فقد أذِنَ الأميرُ للنِّساء بالانصراف، على شرط أن يعدن في صباح اليوم التَّالي ليواصلنَ سرد الحكايات، ثم صعد برفقة الأمَةِ إلى غرفته.

نهاية اليوم الأوَّل

اليوم الثَّاني
من مؤانسة الصِغار

كان الفجرُ قد بزغ ليمسح بالزَّيت عجلات عربة الشَّمس، وبعد لأيٍ في محاولةِ إزالة العشب بالهراوة من بُهرة عجلاتها، احمرَّ حتى صار بلون تفَّاحةٍ صيفيَّة. في تلك اللَّحظة، نهض تاديو من الفراش، وبعد أن مطَّ ذراعيه وساقيه، نادى الأمَةَ، وارتديا ملابسهما على عُجالةٍ ونزلا معاً إلى الحديقةِ حيث وجدا النِّسوةَ العشر وقد اجتمعنَ بالفعل. هناك، وبعد أن أوعز في قطفِ أربع تيناتٍ طازجاتٍ لكلِّ واحدةٍ منهنَّ، تيناتٍ بجلدةِ كرداء المتسوِّلين، وبعنقٍ ملتوٍ كعنقٍ مشنوقٍ، وبدموعٍ تقطرُ كدموعِ عاهرة[1]، يجعلن لعابَ النَّاظر يسيل، بدأوا ألفَ لعبةٍ لخداع الوقت ريثما يحين وقت تناول الطَّعام؛ فلم يتركوا[2] لا لعبة "آنكا نيكولا"، ولا "عجلة الرَّكلات"، ولا "انظر إلى الزَّوجة"، ولا "كوفاليرا"، ولا "يا صاحبي، جريحٌ أنا"، ولا "إشهارٌ ووصيَّة"، ولا "مرحباً بالمُعلِّم"، ولا "سنونوتي، يا سنونوتي"، ولا "فرِّغ الدِّنَان"، ولا "اقفز شبراً"، ولا "حَجَرٌ في الحضن"، ولا "هبُّوا، سمكٌ بحريٌّ"، ولا "آنولا ترانولا بيترا فونتانولا"، ولا "الملكُ حاملُ الصَّولجان"، ولا "القطَّة العمياء"، ولا "إلى السِّراج... إلى السِّراج"، ولا "مُدَّ ستارتي"، ولا "انقرْ وطبِّلْ"، ولا "العارضة الطَّويلة"، ولا "الدُّجَيْجَات"، ولا "الرَّجل

1) السِّمات الثَّلاث لحبَّة التِّين النَّاضجة واللَّذيذة وفقاً لمثلٍ نابوليتانيٍّ قديم: «تلبس كمتسوِّلة، وتلوي عنقها كالمشنوق، وتذرف دموع عاهرة»؛ (كروتشِه).

2) تحتوي هذه القائمة على إحدى وثلاثين لعبةً شعبيَّة، ويأتي ذكر أربعٍ وعشرين لعبةً أخرى في بداية اليوم الرَّابع؛ وهذه الألعاب مذكورةٌ أيضاً في كتاب «فاياسييده Vaiasseide» لكورتيزه الآنف الذِّكر، وفي الدِّراما الرَّعَويَّة «الصَّيَّادة» لمؤلِّفها م. أ. بيريللو (نابولي 1630)؛ (كروتشِه).

العجوز لم يأت"، ولا "لعبة اللّوم"، ولا "مامّارا وحبّة البندق"، ولا "ارتفعي يا أرجوحة"، ولا "المطارَدُون"، ولا "أُكمل المرافعة، يا كاتب المحكمة"، ولا "تعال ... آه تعال"، ولا "ماذا في يدك؟ الإبرة والخيط؟"، ولا "عصفورٌ... عصفورٌ... مقبضُ الحديد"، ولا "نبيذٌ يونانيٌّ أم خلٌّ؟"، ولا "افتحوا الباب للصَّقر المسكين".

وهكذا حان وقت الجلوس على المائدة وملء البطون؛ وبعد أن أكلوا، قال الأمير لتسيتسا أن تأخذ دورَ المرأة الجَسُور وتبدأ بسرد حكايتها. كان رأس تسيتسا يغصُّ ويفورُ بالحكايات، فاستحضرتْها كلَّها تِباعاً، وانتقَتْ فُضْلاها، وهي ما سأرويه لكم الآن.

بيتروسينيلَّا
المؤانسة الأولى من اليوم الثَّاني

تأكلُ امرأةٌ حاملٌ بعض البقدونس من بستان إحدى الغولات، ولأنَّها ضُبطت بالجرم المشهود، تَعِدُ الغولةَ بمولودها القادم. تنجبُ المرأةُ بيتروسينيلَّا؛ فتأخذ الغولةُ الوليدةَ وتحبسها في أحد الأبراج. يخطفها أحد الأمراء، وبفضل ثلاث ثمراتٍ من البلُّوط يتمكَّن العاشقان من الإفلات من تهديدات الغولة؛ ثمَّ يأخذها الأمير إلى قصره، وتصبح بيتروسينيلَّا أميرة.

إنَّ رغبتي في إبقاء الأميرة سعيدةً لكبيرةٌ جدَّاً، فطوال اللَّيلة الماضية، حين لم يَعُدْ يُسمَع صوتٌ من الأعلى ولا من الأسفل، لم أفعل شيئاً سوى البحث في صناديق دماغي القديمة ونَبْشِ كلِّ مخازن الذَّاكرة لأختار من بين الحكايات التي اعتادت أن ترويها السَّيِّدة كياريلَّا فوشولو، جدَّةُ عمِّي (فلترقد روحُها في مجد الرَّبِّ، أطالَ الله بقاءَكم!)، تلك الحكايات التي بدت لي أكثر ملاءمةً لأسرد لكم منها حكايةً واحدةً في اليوم. وفي الحقيقة، إن لم تكن عيناي قد أخطأتا الاختيار، أعتقد أنَّها ستنال رضاكم؛ وهي إن لم تكن بمثابة فرقٍ مسلَّحةٍ تُلحِق الهزيمةَ بأحزان أرواحكم، فإنَّها على الأقلِّ ستكون أبواقاً توقظُ زميلاتي للدُّخول إلى ميدان المعركة بهمَّةٍ أكبر من همَّةِ قواي الواهنة، علَّ وفرة خيالهم تعوِّضكم عن مثالب كلامي.

حُكي أنَّه كان ثمَّة فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان،

امرأةٌ حاملٌ اسمها باسْكَادُوتْسِيا، وبينما كانت تطلُّ من النَّافذة على حديقة إحدى الغولات، رأت حوضاً مزروعاً بالبقدونس، فنازعتْها نفسُها إليه حتى كاد أن يُغمَى عليها. وهكذا، لأنَّها لم تتمكَّن من كبت رغبتها، تحيَّنت اللَّحظة التي خرجت فيها الغولة، فنزلت واقتلعت حزمةً منه.

حين عادت الغولة إلى البيت وأعدَّتْ نفسها لتحضير صلصةِ بالبقدونس، اكتشفت أنَّ المنجل قد لعب بمحصولها، فهتفت: "فلتُكسَر رقبتي إن اكتشفتُ هذا الطَّائر اللصَّ ولم أجعله يندم على فعلته، لكي يتعلَّم الجميع أن يأكلوا ممَّا يحشُّون ولا يتطفَّلوا على قُدُور الآخرين!".

واصلت الحاملُ المسكينةُ النُّزولَ من وقتٍ لآخر إلى الحديقة، إلى أن وقعت في صباح أحد الأيَّام في مصيدةِ الغولة التي قالت لها غاضبةً وحانقةً: "لقد أمسكتك بالجرم المشهود أيَّتها اللِّصَّة! ماذا؟ أتظنِّين أنَّكِ تدفعين إيجار هذا البستان حيث تأتين، بقليلٍ من التَّحفُّظ، وتضعين يدك على أعشابي؟ خذيها منِّي كلمةَ شرفٍ، لأرسلنَّكِ إلى روما[1] لتكفِّري عن ذنبك!". بدأت باسْكَادُوتْسِيا المسكينة تستصفحُها، موضحةً لها أنَّه ليس بسبب الشَّراهة أو النَّهَم أعماها الشَّيطان وأغراها على ارتكاب هذا الخطيئة، ولكن لأنَّها حاملٌ وخشيت أن يأتي مولودها ووجهه مبقَّعٌ بالبقدونس؛ بل إنَّ على الغولة أن تكون ممتنَّةً لها لأنَّها، هي باسْكَادُوتْسِيا، لم تجعلها تُصابُ بدُمَلٍ في جفونها[2].

"ليست الكلماتُ ما ترتجيه العروس! - أجابت الغولة: - أنتِ لن تخدعيني بهذه التُّرَّهات، وسوف تضعين حدّاً لحياتك إذا لم تعديني بمنحي الطِّفل الذي ستلدينه، أذكراً كان أم أنثى". ولكي تتفادى المرأةُ

1) كان الحجُّ إلى الأماكن المقدَّسة في روما كفَّارةً شائعةً عن الذُّنوب؛ (المترجمان).

2) وفقاً للاعتقاد السَّائد آنذاك، إن قصَّرَ أحدٌ في إرضاء شهوةِ امرأةٍ حاملٍ أُصيبَ بدماملَ في جفونه؛ (كروتشه).

البائسةُ التَّهلُكةَ التي حاقتْ بها، أقسمت على ذلك بوضعِ يدٍ فوق الأخرى؛ فأخلَتِ الغولةُ سبيلها.

وحان وقت الولادة، وأنجبت المرأة طفلةً كانت من فرطِ جمالها بهجةً للنَّاظرين، ولأنَّها كانت تحمل على صدرها كوحمةٍ ورقةَ بقدونس جميلةً، أسمتها بيتروسينيلاَّ. كانت الطِّفلة تنمو شبراً كلَّ يوم، وفي السَّابعة من عمرها أرسلتها أمُّها إلى معلِّمة. ولكن في كلِّ يومٍ، في أثناء عبورها الطَّريق، كانت تلتقي بالغولة التي كانت تقول لها: "بلِّغي أمَّك أن تتذكَّر وعدها!". وكرَّرت مراراً وتكراراً هذا التَّحرُّش إلى أن لم تعُد الأمُّ المسكينةُ قادرةً على تحمُّل سماع هذا الموشَّح، فقالت أخيراً للفتاة الصَّغيرة: "إذا قابلتِ العجوز نفسَها، وتطرَّقَتْ إلى ذلك الوعد اللَّعين، أجيبي: – عليكِ بها!".

وما كان من بيتروسينيلاَّ التي لم تكن تعلم أيَّ شيءٍ عن الموضوع إلَّا أن أجابتها ببراءةٍ بما أملته عليها والدتها. وعلى الفور، أمسكتها الغولة من شعرها وجرَّتها إلى غابةٍ لم تكن تدخلها خيولُ الشَّمس أبداً لأنَّها كانت لا تثق بمراعي تلك الظِّلال؛ ووضعتها في برجٍ أوجدَتْهُ بسحرها من العدم، برجٍ بلا أبواب وبلا سلالم، مع كوَّةٍ واحدةٍ فحسب. ومن تلك الكوَّة كانت تنزل وتصعد وهي تنزلق على شعر بيتروسينيلاَّ الذي كان طويلاً جدَّاً، بالطَّريقة نفسِها التي يتسلَّق بها نوتيٌّ ناشئٌ حبالَ الصَّاري صعوداً ونزولاً.

وحدثَ في أحد الأيَّام أنَّ الغولة كانت غائبةً، وبيتروسينيلاَّ تعرض ضفيرتيَ شعرها للشَّمس، فمرَّ أمام البرج ابنُ أميرٍ من الأمراء. وحالما رأى تينك الرَّايتين الذَّهبيَّتين اللَّتين كانتا تدعوان الرُّوح لتنضوي تحت لواء إله الحُبِّ، ولمحَ في وسط تلك الأمواج الكريمة وجهَ حوريَّة بحرٍ يخلبُ مرآها الألباب، فُتِنَ على نحوٍ لا شفاء منه بكلِّ ذلك الجمال. فأرسل إليها تذكاراً من التَّنهُّدات، طالباً منها أن تأذن له بدخول معقل حُسْنِها؛ وقد نجح إلى

حدٌّ كبير في مقصده لدرجة أنّه تلقّى كردٍّ على قبلاته المرسَلَة في الهواء إيماءاتٍ من رأسها، وعلى انحناءاته نظراتٍ عذبةً، وعلى عروضه تشكُّراتٍ، وعلى وعوده آمالاً، وعلى إغراءاته كلماتٍ لطيفةً.

استمرّا على هذا المنوال عدَّةَ أيّامٍ، وإذ انتهى بهما الأمرُ خِلّين حدَّدا موعداً للّقاء. كان لا بدَّ أن يحدث ذلك في اللّيل، حين يلعب القمرُ لعبةَ "الدُّوريِّ الأصمّ"[1] مع النُّجوم، وبعد أن تكون بيتروسينيلاً قد أعطت الغولةَ بعض الخشخاش المنوِّم، فتسحب بعد ذلك الأميرَ إلى الأعلى بضفيرةٍ من شعرها.

ظهر الأمير أمام البرج في السّاعة المتَّفق عليها، وبعد أن أطلق صفرةَ إنذارٍ، تدلَّت الضَّفيرتان على طول الجدار، فأمسكهما بكلتا يديه وصاح: "إلى الأعلى!"، فسحبته بيتروسينيلّا حتى بلغ الكوَّةَ وقفز إلى داخل حجرتها حيث أعدَّ لنفسه عشاءاً لطيفاً من ذلك البقدونس المعجون بصلصةِ الحُبِّ. وقبل أن تبدأ الشَّمس بتدريب خيولها على القفز عبر حلقة الأبراج، نزل عبر السُّلَّم الذَّهبيِّ نفسِه وذهب إلى حال سبيله.

ولأنَّ هذا الأمر تكرَّر عدَّة مرَّاتٍ، رأتهما إحدى جارات الغولة وأرادت أن تحشر أنفها فيما لا يعنيها، فكلَّفتْ نفسَها عناءَ الأمر وحذَّرَت الغولةَ أن تبقى متيقِّظةً لأنَّ بيتروسينيلّا كانت تمارس الحبَّ مع شابٍّ يافعٍ، وكانت تشكُّ في أنَّ الأمور قد ذهبت أبعد من ذلك بكثيرٍ بعد أن سمعت أزيزَ ذلك السَّموأل[2] ورأت غدوَّه ورواحَه؛ وكانت تخشى، إذْ رأتهما يُخرجان كلَّ ما كان في المنزل، أنَّ ذينك الاثنين سيفرَّان قبل أيّار[3].

---

1) لعبةٌ يلعبها الأطفال؛ و"الدُّوريُّ"، passera بالإيطاليّة، كلمةٌ تلطيفيَّةٌ فيها تلميحٌ إلى الأعضاء التّناسليّة الأنثويّة؛ (المترجمان).

2) ذُباب الخلّ، وكانت تُقال بالإيطاليّة للخاطب الكثير الإلحاح من باب السُّخرية؛ (المترجمان).

3) أي قبل الرّابع من أيّار/مايو، وهو ما يزال إلى اليوم في نابولي، وفقاً لعرفٍ قديمٍ، يومَ إخلاء وتغيير السَّكن؛ (كرونْشه).

شكرت الغولةُ جارتها على الإخطار المفيد وقالت إنَّها سوف تأخذ على عاتقها مسؤوليَّةَ قطع الطَّريق على بيتروسينيلاَّ؛ ولكن، إلى جانب ذلك، كان من المستحيل أن تفرَّ لسحرٍ كانت قد ألقته عليها. فإذا لم تمتلك في يدها ثلاث حبَّاتٍ من البلُّوط كانت مخبَّأةً في عارضةٍ خشبيَّةٍ في المطبخ، لن يكون بإمكانها الانسلال من المنزل.

وبينما كانتا منخرطتين في هذا الحديث، وقفَتْ بيتروسينيلاَّ، التي كانت قد أوجسَتْ بعض شكوك الجارة، بآذانٍ صاغيةٍ فسمعَتْ كلَّ الحديث. وحين نشرَ اللَّيلُ على امتداد السَّماء رداءَه الأسودَ لتهويته وقاءً له من العثِّ، ووصل الأمير كعادته، جعلته بيتروسينيلاَّ يصعد العوارضَ الخشبيَّة، فعثر في الحال على حبَّات البلُّوط الثَّلاث التي كانت، هي المسحورةُ من قِبَل الغولة، تعرف بأيِّ طريقةٍ ينبغي استعمالها. بعد ذلك، ضفرا سلَّماً من الحبال ونزلا معاً إلى أسفل البرج وبدآ العَدْوَ نحو المدينة.

رأتهما الجارةُ وهما يخرجان خفيةً، فراحت تصيح مناديةً الغولة، وكان صياحها عالياً لدرجة أنَّه أيقظ الغولةَ، وحين سمعت هذه الأخيرة أنَّ بيتروسينيلاَّ قد هربت، نزلت السُّلَّمَ نفسَه الذي بقي مربوطاً إلى الكوَّة وراحت تعدو خلف العاشقَين. ورآها هذان تلاحقهما أسرع من حصانٍ منزوع اللِّجام، فظنَّا أنَّهما هالكان لا محالة. ولكنَّ بيتروسينيلاَّ تذكَّرت حبَّات البلُّوط، فرمت إحداهنَّ. وإذا كلبٌ كورسيكيٌّ يخرج من العدم، أمَّاه كم كان فظيعاً! ونابحاً بأعلى صوته هجم على الغولة فاغرَ الفم يريدُ ابتلاعها بلقمةٍ واحدة. ولكنَّ الغولة، التي كانت أخبث من ذئب الغضى، بحثت في جيبها وأخرجت منه رغيفاً من الخبز وألقته إلى الكلب الذي خفض ذيلَه وسَكَنَ عنه الغضب. ثمَّ استأنفت العدو خلف ذينك الهاربَين.

وعند رؤيتها تقترب مرَّةً أخرى، رمت بيتروسينيلاَّ حبَّة البلُّوط الثَّانية، فخرج منها أسدٌ ضارٍ بدأ يضرب الأرض بذيله ويهزُّ لُبْدَته، وفكَّاه مفتوحان بمقدار شبرَين، وكان قد تهيَّأ بالفعل لسحق الغولة، في طرفةِ عينٍ، بينهما.

ولكنَّ الغولة عادت إلى الوراء، وسلخت جلدَ حمارٍ كان يرعى في المرج، ووضعت الجلدَ على جسدها وهجمت على الأسد الذي ظنَّها حقّاً حماراً، فاعتراه خوفٌ شديدٌ لدرجة أنَّه لا يزال يركض إلى الآن. وبعد أن اجتازت الخندقَ الثَّاني بهذه الطَّريقة، تابعت العَدْوَ خلف ذينك الشَّابَّين المسكينين اللذين، حالما سمعا وَقْعَ جزمتها الضَّخمة ورأيا سحابةَ الغبار التي بلغت عنانَ السَّماء، أيقنا أنَّها منهما قاب قوسَين أو أدنى. رمت بيتروسينيلاً حبَّة البلُّوط الثَّالثة، فخرج منها ذئبٌ؛ وحالما رأى الغولة مكسوَّةً بجلد الحمار الذي لم تتخلَّص منه لظنِّها أنَّ الأسد كان لا يزال يلاحقها، لم يمنحها وقتاً لتبتدع حيلةً جديدةً، فابتلعها برمَّتها، هي وجلد الحمار.

وهكذا خرج العاشقان من هذا المأزق ومشيا الهُوَيْنَى إلى مملكة الأمير، حيث تزوَّج بيتروسينيلاً بعد أن حصل على الموافقة الكريمة من والده. وبذلك أثبتا، بعد عواصف من البلاء

أنَّ ساعةً واحدةً في ميناءٍ هادئٍ

تجعل المرء ينسى مِائةَ عامٍ من العواصف.

الأمير فيردِبْراتو
المؤانسة الثَّانية من اليوم الثَّاني

نيلَّا فتاةٌ يقع في حبِّها أميرٌ يدأبُ على الذَّهاب إليها عبر نفقٍ بلّوريٍّ ليتنعَّم بطيب القرب منها؛ ولكنَّ شقيقاتها الحسودات يُحطِّمن النَّفق، فتنقطع كلُّ صلةٍ له بها ويوشك على الموت دنفاً. وبتدخُّلِ غريبٍ للأقدار، تسمع نيلَّا عن العلاج الذي ينبغي تقديمه له، فتجرِّبه على المريض الذي يشفى ويتَّخذها زوجةً له.

أوه بكم من المتعة استمعَ الجميع حتى النِّهاية إلى حكاية تسيتسا، والتي لو استغرقت ساعةً أخرى، لبدَتْ تلك السَّاعة وكأنَّها هُنَيْهَة! ولكنَّ تشيكَّا، التي حان دورُها، ما لبثت أن استلمت خيط الكلام:

من الغريب حقّاً، لو تمعَّنا قليلاً في الأمر، أنَّ تماثيل الآلهة وأعمدة المشانق ومقاعد الأباطرة وأغطية الأواني النَّجسة مصنوعةٌ من الخشب نفسه؛ تماماً مثلما هو غريبٌ أنَّه من نفس الخِرَق يُصنع الورق الذي، بعد أن تُدَوَّن عليه رسائل الحُبِّ، قد ينال القبلات من ثغرٍ جميلٍ، أو يُستخدم، بخلاف ذلك، لمسح ذلك الثَّقب القبيح: إنَّه لعمري لأمرٌ من شأنه أن يذهب بعقول أكثر المنجِّمين موهبةً في العالم. الأمرُ نفسُه يمكن قوله عن الأمّ نفسِها التي تنجب ابنةً صالحةً وأخرى طالحة، ابنةً كسولاً وأخرى ربَّة منزل، ابنةً جميلةً وأخرى قبيحة، ابنةً حسودةً وأخرى ودودة، ابنةً كديانا العفيفة[1] وأخرى

1) ديانا هي إلهة الصَّيد والقمر والولادة في الميثولوجيا الرُّومانيَّة، وهي واحدةٌ من ثلاث إلهاتٍ أقسمن على عدم الزَّواج؛ (المترجمان).

ككاترينا بابارا[1]، ابنةً منحوسةً وأخرى محظوظة. ذلك أنَّه، وفقاً للمنطق، ولأنَّهنَّ جميعاً من النَّبتةِ نفسها، ينبغي أن يكنَّ جميعاً من الطَّبيعة نفسِها أيضاً. ولكن فلنترك الخوضَ في هذا لأُولي العلم؛ وأنا، من جهتي، سوف أعطيكم مثالاً فحسب لما ألمحتُ إليه وأروي لكم حكاية ثلاث بناتٍ من أمٍّ واحدةٍ، حكايةً سترون فيها اختلاف الطِّباع الذي ألقى بالأثيمات في جوف حفرةٍ ورفعَ الابنة الطَّيِّبة إلى ما فوق عجلة الحظ.

حُكي أنَّه كان ثمَّة فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، أمٌّ لديها ثلاث بنات، اثنتان منهنَّ كانتا سيِّئتَي الحظِّ لدرجة أنَّهما لم تنجحا قَطُّ في مقصدٍ من مقاصدهما، فكلُّ خططهما انحرفت عن مسارها، وجلُّ آمالهما انتهتْ فُتاتاً. أمَّا صُغراهنَّ سنّاً، نيلَّا، فقد جلبت الفأل الحسن مُذْ كانت في رحم أمِّها، وعندما وُلِدَتْ، توافقت كلُّ الأشياء على منحها أفضل ما يمكن منحُه: فمن فينوس، نالت ضلعَ[2] الجمالِ الرَّئيسَ؛ ومن كيوبيد، غليانَ فورته الأولى؛ ومن الطَّبيعة، لبَّ وجوهرَ السَّلائق. لم تقم بواجبٍ منزليٍّ إلَّا وأتمَّته على أحسن وجه؛ ولم تبدأ شأناً إلَّا وكُلِّلَ بالنَّجاح؛ ولم تشارك في رقصةٍ إلَّا وغادرتْها عاليةَ الكَعْب. لهذا السَّبب، لم تكن محسودةً من أختيها الطَّالحتين بقدر ما كانت محبوبةً ومرغوبةً من الآخرين، ولم تكن رغبةُ أختيها في دفنها تحت الأرض أقوى من رغبة النَّاس في حملها على راحات أيديهم.

وفي ذلك البلد، كان ثمَّة أميرٌ مسحورٌ قَيَّضَ له القدرُ أن يخوض في بحر جمالها، فراحَ يرمي، المرَّةَ تلْوَ المرَّة، صنَّارةَ العبوديَّةِ الغراميَّةِ لسمكة المَرْجان البديعة تلك، إلى أن أنشبَ خطَّافَه أخيراً في غلاصم مشاعرها

---

1) امرأةٌ كانت مشهورةً في ذلك الوقت بالفسق والإجرام؛ واسم العائلة «بابارو» [بالعربيَّة: البطَّة] كان موجوداً بالفعل في نابولي؛ (كروتشِه).

2) قطعة اللَّحم التي يبيعها الجزَّار وتمثِّل أفضل اختيارٍ للمشتري، وبالمثل فإنَّ الاستعارات التَّالية هي ممَّا يتَّصل بشؤون المطبخ؛ (كروتشِه).

واستأثر بها. ولكي يتمكّنا من اللّقاء، دون أن تشكَّ الأمُّ التي كانت أنثى ضاريةً بأمرهما، أعطاها الأمير مسحوقاً خاصّاً وأقام نفقاً من البلّور يمتدُّ من القصر الملكيِّ إلى أسفل سرير نيلاّ، على الرّغم من وجود ثمانية أميالٍ تفصل بينهما. «كلّما أردتِ – قال لها – أن تطعميني مثل دوريٍّ من نعمة جمالك، ضعي قليلاً من هذا المسحوق على النّار، وسوف أجيئكِ من فوري عبر النّفق ملبّياً نداءكِ، سالكاً طريق الكريستال لأتمتّع بمحيّاكِ اللّجَين». وبعد أن رتّبا الأمورَ على هذا النّحو، لم تكن هناك ليلةٌ لم يقم فيها الأمير بالدّخول والخروج، بالذّهاب والإياب، عبر ذلك النّفق.

ولكن، في النّهاية، اكتشفَتِ الأختان اللّتان كانتا تتجسّسان على شؤون نيلاّ النّعيمَ الذي كانت تتمتّع به، فتشاورتا فيما بينهما وقرّرتا الحيلولة بينها وبين تلك اللُّقمة الطّيّبة؛ ولكي تَنْفُشا بَكَرَةَ غَزْلِ تلك الغراميّات، ذهبتا وحطّمتا النّفق في مواضع عدّة. وتلا ذلك أنّه حين قامت الفتاة المسكينة بنثر المسحوق على النّار لإعطاء إشارةٍ للحبيب أن يأتي، تعرّضَ هذا الأخير، الذي اعتاد أن يهرع بجنونٍ إليها، لجروحٍ من شظايا الزّجاج المحطّم، جروحٍ يثير مرآها الشّفقة في النّفوس. ولأنّه لم يستطع المضيَّ قدماً، فقد عاد إلى الوراء مُثخَناً بالجراح، ممزّقاً مثل سروالٍ ألمانيٍّ[1].

وحالما وصل إلى القصر الملكيِّ، أخلدَ إلى الفراش وأرسل في طلب أطبّاء المدينة قاطبةً؛ ولكن لمّا كان الكريستالُ مسحوراً، كانت الجراح مميتةً ولم يُجْدِ معها أيُّ علاجٍ بشريٍّ نفعاً. ولذلك، يائساً من حال ابنه، أمر الملكُ بإصدار بلاغٍ مفادُه أنَّ أيَّ شخصٍ يشفيه من علّته، إنْ كان أنثى زوّجَها به، وإنْ كان ذكراً منَحَهُ نصفَ مملكته.

لدى سماعها المنادي وهو يتلو البلاغَ بصوتٍ عالٍ، ما كان من نيلاّ، التي أدنفها الحزنُ على أميرها، إلّا أن طلَتْ وجهَهَا وتنكّرت وخرجت من

---

1) سراويل مخمليّةٌ مقصوصةٌ إلى أشرطةٍ طوليّةٍ تصل إلى الرّكبتين، كان يرتديها السّادة الألمان: (كروتْشِه).

المنزل في غفلةٍ من أختيها لتذهب وتراه قبل أن يوافيه الأجل. ولكن لمّاً كانت الكُرات الذَّهبيَّة التي تلعب بها الشَّمس في حقول السَّماء قد اتَّخذَتْ في تلك اللَّحظة المسارَ المائلَ نحو الغرب، أدركَها اللَّيلُ في إحدى الغابات، وهي على مقربةٍ من بيتِ أحد الغيلان. وخوفاً من الأخطار، تسلَّقت إحدى الأشجار وتكوَّرَتْ على نفسها هناك. كان الغول جالساً إلى المائدة مع زوجته وقد أبقيا النَّوافذ مفتوحةً لكي يتناولا الطَّعام مع بعض الهواء الطَّلق، وبعدما انتهيا من إفراغ الأواني وأطفآ السُّرُج، بدآ يتجاذبان أطراف الحديث في هذا الشَّأن وذاك، وقد سمعَتْ نيلاًّ، لقربها منهما قُرْبَ الأنف من الفم، كلَّ شيء.

قالت الغولة لزوجها من بين أمورٍ أخرى قالتها: «ها حبيبيَ المُشْعِر، ما الذي تناهى إلى سمعك من أخبار؟ ما الذي يدور على ألسنة النَّاس في هذا العالم؟». فأجابها: «يمكنني القولُ إنَّه لا يوجد شبرٌ واحدٌ نظيفٌ، وكلُّ شيءٍ مقلوبٌ رأساً على عقبٍ ومُعْوَجٌّ». «ولكن، ما السَّبب؟»، ردَّت الزَّوجة. فأجاب الغول: «يمكنني أن أستمرَّ إلى ما لا نهايةٍ في إخباركِ عن الحِيَل التي تُحاك؛ وستسمعين عن أمورٍ تجعلك تقفزين خارج ثيابك. مهرِّجون يُكَرَّمون، ورُذَلاءُ يوقَّرون، وكُسَالى يُمَجَّدون، وقَتَلَةٌ يُنْصَرون، ومزيِّفو نقودٍ يُعاضَدون، ورجالٌ كِرامٌ قلَّما يُقَدَّرون أو يُحترَمون. ولكن، لكي تعرفي ما يُغضبني أشدَّ الغضب، سأروي لكِ ما حدث لابن الملك. اعلمي أنَّه كان قد أنشأ نفقاً من الكريستال كان يعبره، عارياً، ليستمتع سرّاً بفتاةٍ جميلةٍ، والآن، ولا أحد يعرف كيف، تحطَّمَ النَّفق، وحين حاول أن يعبره، تمزَّقَ على نحوٍ سوف ينسدُّ معه أنبوبُ حياته قبل أن يتمكَّن من سدِّ الثُّقوب الكثيرة التي ملأتْ جسدَه. ومع أنَّ الملك أصدر بلاغاً يتضمَّن وعوداً كبيرةً لمن يتمكَّن من شفائه، إلَّا أنَّه جهدٌ مهدورٌ أَوْلَى له أن يخلِّلَ به أسنانَه؛ وأفضل شيءٍ يمكنه فعله هو أن يُعِدَّ ثيابَ الحِداد ويحضِّرَ للجنازة».

راحت نيلاًّ، بعد أن أدركت سببَ مرضِ الأمير، تنتحبُ بصمتٍ وقالت

في نفسها: "مَن تكون تلك الرُّوح الملعونة التي حطَّمَت النَّفقَ الذي كان يَعبُره طائري الهائم، محطِّمَةً معه المَسْرَبَ الذي كانت تمرُّ فيه روحي؟". ولكنَّ الغولةَ عادتْ إلى الكلام، فصمتت من جديدٍ وأصغَتْ برأسها وبأذنها. "وهل من المعقول - قالت الغولة - أنَّه لم تَعُدْ هناك بارقةُ أملٍ لذلك السَّيِّد المسكين؟ وأنَّه لا يوجد أيُّ علاجٍ لمرضه؟ فليذهب الطِّبُّ إلى الجحيم! وليلُفَّ الأطبَّاءُ حبلاً حول أعناقهم! وعلى جالينوس وماسويه[1] أن يُعيدا المال إلى راعيهم، ما داما عاجزَين عن العثور على الوصفات الصَّحيحة لشفاء هذا الأمير!". "أصغي إليَّ يا غاليتي[2]، - أجاب الغول: - الأطبَّاءُ ليسوا مُلزَمين بالعلاجات التي تتجاوز حدود الطَّبيعة. الأمر لا يتعلَّق بمغصٍ يكفيه حمَّامُ زيتٍ، أو بانتفاخ بطنٍ يمكن طرده بتحاميل من التِّين وروث الفئران، أو بحمَّى يمكن درؤها بالأدوية والحِمْيَة؛ ولا حتى بجروحٍ عاديَّةٍ لا تتطلَّب سوى لَبْخَةٍ أو زيتِ العَرَن[3]. فالسِّحر الذي كان موجوداً في شظايا الزُّجاج، يعمل بالتَّأثير نفسه الذي لمرقة البصل على حديد السَّهم، حيث إنَّه يجعل الجرح غير قابلٍ للشِّفاء. شيءٌ واحدٌ فحسب سيكون ناجعاً لإنقاذ حياته؛ ولكن لا تجعليني أقولُ ما هو، لأنَّه خطيرٌ للغاية".

"قُلْ لي ما هو يا عزيزي، - ردَّتِ الغولة، - قُلْ لي ما هو، إنْ كنتَ لا تريد أن تراني ميِّتةً!". فقال الغول: "سأقولُ لكِ؛ ولكن يجب أن تعديني بألَّا تُخبري كائناً حيَّاً به، لأنَّه سيكون خراباً لبيتنا ودماراً لحياتنا". "لا تشكَّ في ذلك يا زوجيَ الوسيم، - أجابت الغولة، - فأنتَ سترى الخنازير بقرونٍ، وقرودَ المغرب بذيولٍ، والمناجذَ بعيونٍ، قبل أن تفلت كلمةٌ واحدةٌ من

---

1) أبو زكريَّا يحيى بن ماسويه الخوزيُّ، طبيبٌ وعالمٌ ومترجمٌ سريانيٌّ، يعود إليه الفضلُ في تطوُّر العديد من العلوم في العالم الإسلاميِّ في العصر العباسيِّ الأوَّل؛ (المترجمان).

2) في النَّصِّ الأصليِّ: "يا مريلتي"، الفوطة تُلَفُّ حول عنق الطِّفل لوقاية ثوبه من اللُّعاب؛ (كروتشه).

3) وتُعرَف أيضاً باسم "نبتة القدِّيس يوحنَّا»؛ (المترجمان).

فمي". ثمَّ أقسمت واضعةً يداً فوق الأخرى. "اعلمي الآن – قال الغول – أنَّه ليس هناك شيءٌ تحت السَّماء وفوق الأرض يمكنه أن ينقذ الأمير من جُنْدِ الموت سوى دهوننا التي، حالما تمُرَخُ بها الجروحُ، تَحْبِسُ الرُّوحَ التي تريد أن تغادر بيتَ جسده".

بعد أن أصغت نيلاَّ إلى هذا الحوار من أوَّله إلى آخره، تركت الأمورَ تأخذ مجراها، فتريَّثت حتى فرغا من مضغ طعامهما، ثمَّ نزلت عن الشَّجرة وطرقَت على بابِ الغول ونادَت قائلةً: "بحقِّ السَّماء، يا سيِّدي الغول وسيِّدتي الغولة، صدقةٌ لوجه الله، حسنةٌ قليلةٌ، عملُ خيرٍ لفقيرةٍ مسكينةٍ، لفتاةٍ بائسةٍ دمَّرَها سوءُ الحظِّ، وهي الآن بعيدةٌ عن أرضها، مجرَّدةٌ من كلِّ معونةٍ إنسانيَّةٍ، وقد داهمها اللَّيل في هذه الغابات وهي تتضوَّر من الجوع". ثمَّ مرَّةً أخرى، طُقْ طُقْ!

لدى سماع الغولة هذا النُّواح المزعج، أرادت أن تلقي إليها بنصف رغيفٍ من الخبز وتصرفَها بعيداً. ولكنَّ الغول، الذي كان نهماً للَّحم المسيحيِّ أكثر من نهم حسُّونِ الشَّوكِ للجوز والدُّبِّ للعسل والقطِّ للأسماك الصَّغيرة والخروف للملح والحمار للنُّخالة، قال لزوجته: "اسمحي لهذه المسكينة بالدُّخول، لأنَّها إن نامت في الغابة، يمكن أن تلتهمها بعض الذِّئاب". وظلَّ يقول هذا وذاك إلى أن فتحت زوجته الباب وكان هو، بإحسان الغيلانِ هذا، يفكِّر في ابتلاعها بأربع لقمات.

ولكنَّ حسابَ الشَّرِه لا ينطبق على حساب صاحب الحانة. فلمَّا كان مخموراً للغاية، غطَّ في نومٍ عميقٍ، وأخذَتْ نيلاَّ سكِّيناً من دولاب المطبخ وقامت بذبحه هو وزوجته؛ وبعد أن استخلصت منهما الدُّهون، وضعتها في جرَّةٍ صغيرةٍ وانطلقَتْ إلى بلاط الملك.

قدَّمت نيلاَّ نفسها للملك الذي أدخلها فوراً، بفرحٍ عظيمٍ، إلى غرفه

ابنه، وحالما دهنَتْ جسمه بمقدارٍ لا بأس به من الدُّهون، التأمت جروحه، كما لو أنَّها رشَّت الماءَ على النَّار، وعاد معافىً كسمكة. قال الملك عندئذٍ لابنه: "هذه المرأة الطَّيِّبة تستحقُّ الوعد الذي أعلنتُه في البلاغ، وهو أن تتَّخذها زوجة". ولكنَّ الأمير احتجَّ في الحال: "أخبرها أنَّه يمكنها أن تستمتع منذ الآن بعود الأسنان![1] لا أظنُّ أنني أملك في جسدي مخزناً من القلوب التي يمكنني أن أمنحها لنساءٍ عديداتٍ: قلبي رَهْنُ امرأةٍ أخرى وهي سيِّدته".

رمقته نيلاَّ قائلةً: "عليك ألَّا تفكِّر بها بعد الآن، فهي كانت سببَ كلِّ الشُّرور التي ألمَّتْ بك". "الشُّرور سبَّبتها لي أختاها – ردَّ الأمير – وهما وحدهما من يجب أن يدفع الثَّمن تكفيراً عن جريمته". "أحقَّاً تحبُّها إلى هذه الدَّرجة؟"، عادت نيلاَّ تقول، فأجاب الأمير: "أكثر من مقلتيَّ هاتين". "إذا كان الأمر كذلك – استأنفت نيلاَّ، – عانقني، ضمَّني إلى صدرك، لأنَّني أنا هي نارُ فؤادك". ولكنَّ الأمير، بعد أن حدَّق في وجهها المتَّسخ كليَّاً بالسَّواد، أجاب: "تبدين فحماً أكثر ممَّا تبدين ناراً؛ لذلك تنحَّي جانباً، لئلاَّ توسِّخيني!". وإذْ رأت نيلاَّ أنَّه لم يعرفها، طلبت أن يجلبوا لها طَسْتاً من المياه العذبة، وبعد أن غسلت وجهها وأزالت عنه تلك السَّحابة من السُّخام، ظهرت الشَّمس، فما كان من الأمير الذي تعرَّفها إلَّا أن أمسك بها مثل الأخطبوط، واتَّخذها على الفور زوجةً، وحبسَ الشَّقيقتَين في موقدٍ سدَّه بجدارٍ لتتطهَّرا، مثل العَلَق في الرَّماد[2]، من دم الحسد الفاسد، مؤكِّداً بذلك القولَ المأثور:

لم يحدث أبداً أنَّ الشَّرَّ مرَّ من دون عقاب.

---

1) أي أن تبقى صائمةً؛ (كروتشِه).

2) كانوا عادةً ما يضعون ديدان العلق في الرَّماد، بعد أن تكون قد أنجزتْ مهمَّتها، لكي تفرز الدَّم الذي امتصَّته من جسد المريض؛ (كروتشِه).

فيولا
المؤانسة الثَّالثة من اليوم الثَّاني

فيولا فتاةٌ محسودةٌ من أختيها، وبعد إلقائها الكثير من المزاح على أحد الأمراء وتلقِّيها مثل ذلك منه، تصبح زوجته رغماً عن أنفهما.

عشَّشت هذه الحكاية في قلوب المستمعين الذين باركوا الأميرَ ألفَ مرَّةٍ لأنَّه عاقبَ أختَي نيلَّا بذنبهما، ورفعوا إلى النُّجوم نارَ حُبِّ الفتاةِ التي عرفت كيف تستحقُّ حُبَّ الأمير في خضمِّ بحرٍ من الصُّعوبات والأخطار. ولكن، بعد أن أشار إليهم الأمير تاديو أن يصمتوا، أعطى الأمرَ إلى مينيكا بأن تؤدِّي الدَّورَ المنوطَ بها، فكان أن سدَّدَتْ هذه الأخيرة دَيْنَها بهذه الطَّريقة:

إنَّ الحسدَ ريحٌ تهبُّ بعتوٍّ فتجعل دعائمَ سُؤدَدِ البشر النُّجَباء تنهار وتُتلِفُ حقولَ الحظِّ الطَّيِّبِ الخصبةَ. ولكن، في كثيرٍ من الأحيان، حين يبدو أنَّ هذه الرِّيحَ توشِكُ، لعقابٍ سماويٍّ، أن تكبَّكَ أرضاً على وجهك، لا يكون الأمرُ سوى أنَّها تدفعكَ بسرعةٍ أكبر للوصول إلى السَّعادة التي تنتظرك، كما سترون في الحكاية التي سأرويها لكم.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، رجلٌ أمينٌ وطيِّبٌ يُدعَى كولانييلُّو، وكان له ثلاثُ بناتٍ، روزا، وغاروفالو، وفيولا؛ والأخيرة كانت جميلةً لدرجة أنَّها تصنع شراباً من الرَّغبة يطهِّر القلوب من كلِّ عذاب. وكان تشولُّونه، ابن الملك، هائماً بها، وفي كل مرَّةٍ كان يمرُّ فيها بالقرب من الغرفة المطلَّةِ على الطَّريق حيث كانت

الأخوات الثَّلاث يعملن، كان يرفع قبَّعته ويقول لها: "نهارك سعيدٌ، نهارك سعيدٌ يا فيولا". وكانت تجيب: "نهارك سعيدٌ يا بن الملك. أنا أعرف أكثر ممَّا تعرف!".

أمام هذه الكلمات، كانت أختاها تتورَّمان غيظاً وتتذمَّران قائلتَين لها: "أنت فتاةٌ فظَّةٌ يا فيولا، وسوف تجعلين ابن الملك يغضب بطريقةٍ سيِّئة". ولأنَّ فيولا كانت ترمي كلامَ أختيها وراءَ ظهرها، قدَّمتا لها خدمةً سيِّئةً بذهابهما إلى أبيها وإخباره بأنَّها وقحةٌ جدَّاً ومغرورةٌ، وبأنَّها تردُّ على الأمير بلا احترامٍ كما لو كانت ندَّاً له، وبأنَّه في أحد الأيَّام كان على وشك الخروج عن طوره ومعاقبة البريء بذنب الخاطئ.

ودرءاً لما لا يُحمَدُ عُقباه، أرسلَ كولانييْلُّو، الذي كان رجلاً حكيماً، ابنتَه فيولا إلى خالةٍ لها تدعى كوتْشِيفانِّلَّا، لكي تعلِّمها فنَّ الخياطة. ولكن، حين لم يَعُد الأميرُ يَرى بُغيةَ صَبَواته، إبَّانَ مروره بذلك المنزل، تصرَّف لعدَّة أيَّامٍ كما تتصرَّف أنثى العندليب حين لا تجد فراخها في العشِّ، فتتنقَّل من غصنٍ إلى غصنٍ، باحثةً وشاكيةً مُصابَها. وظلَّ يتقصَّى أخبارها هنا وهناك، ناشراً أُذُنَيه على ثقوب الأبواب، إلى أن سمعَ بعضَ القيل والقال عن المنزل الذي كانت تقيم فيه.

حينئذٍ ذهب لرؤية خالتها، وقال لها: "يا سيِّدتي، أنت تعرفين من أكون، وتعلمين ما أنا قادرٌ عليه وخليقٌ به. لذلك، فلنُبْقِ هذا الأمر بيننا، ولنَبْقَ صامتَين متكتِّمَين. أريدكِ أن تُسْدي إليَّ معروفاً، ثمَّ لكِ أن تبتزِّيني بما شئتِ من المال". "سأفعل ما في وسعي – أجابت العجوز، – أنا كلِّي تحت أمرك". فقال الأمير: "لا أريد منكِ سوى أن تسمحي لي بتقبيل فيولا، ولتأخذي مقابلَ ذلك بؤبؤَي عينيَّ". فردَّت العجوز: "لا أستطيع في سبيل خدمتك أن أفعل أكثر من أن أحرس ثيابك حين تذهب للعوم؛ ولكن لا أريد أن تلاحظ فيولا أنَّني أصنعُ مقبضاً لهذه الجرَّة في حين أنَّني أضع يدي في هذا العمل المُشين؛ وإلَّا حملتُ، في آخر أيَّامي، لقبَ صبيِّ

الحدَّاد الذي ينفخ في الكور. ولذلك، فإنَّ ما يمكنني فعله لإسعادك هو أن تذهب وتختبئ في الغرفة السُّفليَّة للبستان، حيث، بحجَّةٍ ما، سأرسل إليك فيولا. وحين ستمتلك بين يديك المقصّ والقماش، ولا تعرف كيف تستخدمهما، فإنَّ الذَّنب سيكون ذنبك". شكرها الأمير على اللُّطف الكبير الذي أظهرته له وذهب ليختبئ في تلك الغرفة.

وبحجَّة أنَّها تريد قصَّ هذه القماشة أو تلك، قالت العجوز لابنة أختها: "ها فيولا، إن كنتُ عزيزةً عليكِ، اذهبي إلى الغرفة السُّفليَّة واجلبي لي قصبةَ القياس". وحالما دخلت فيولا الغرفةَ لتؤدِّي لخالتها هذه الخدمة، أحسَّت بالكمين، فتناولت قصبةَ القياس، وبرشاقةِ هرَّةٍ قفزت إلى الخارج، تاركةً الأمير بأنفٍ طويلٍ من الخجل، وقد فارَ فائرُه.

شكَّت العجوز، إذْ رأتها تعود بتلك السُّرعة، بأنَّ فتيلَ الأمير لم يشتعل؛ وبعد برهةٍ قصيرةٍ من الوقت، قالت للفتاة: "اذهبي يا بنتَ أختي إلى الغرفة السُّفليَّة، واجلبي لي كرةً من الخيط البريشاني"[1] من فوق تلك الخزانة". وبعد أن جَرَتْ فيولا وحصلت على الخيط، تملَّصت مثل أنقليسٍ من يدَي الأمير.

ولكن، لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى عادت العجوز لتقول لها: "يا بنفسجتي[2]، إذا لم تجلبي لي المقصَّ من الغرفة السُّفليَّة، فلا أعرف ماذا أفعل". وحين نزلت فيولا إلى هناك، تعرَّضت لثالث اعتداءٍ، ولكنَّها بشراسةِ كلبٍ أفلتت من المصيدة. وبعد أن رجعت إلى الأعلى، قطعت بالمقصِّ أذنيَ الخالة، وهي تقول لها: "اجرعي من هذا الشَّراب جزاءَ السَّمسَرةِ التي قمتِ بها؛ فلكلِّ عملٍ جزاء: تشويهُ الشَّرف جزاؤه شَرْمُ الآذان؛ وإنْ كنتُ لم أجدع أنفك، فذلك لكي تتمكَّني من شمِّ الرَّائحة

1) نسبةً إلى مدينة بريشا التَّابعة لإقليم لومبارديا شمالي إيطاليا؛ (المترجمان).

2) «فيولا» تعني «بنفسج» بالإيطاليَّة؛ (المترجمان).

الكريهة لسُمعتك: لستِ سوى قوّادةٍ، سمسارِ بغاءٍ، حاملةِ دُيوكٍ، آكلةَ كلِّ شيءٍ، مُفسِدةِ أطفال!". وبعد أن قالت قولها هذا، وصلت إلى بيتها بثلاث قفزاتٍ، تاركةً خالتها بلا أذنين والأميرَ يفور غضباً.

ومع ذلك، عاد الأمير يمرُّ أمام بيت الأب، وكان كلَّما رآها في مكانها المعتاد، عاودَها بالموشَّح نفسِه: "نهارك سعيدٌ، نهارك سعيدٌ، يا فيولا!". فتردُّ هي، كشمَّاسٍ متمرِّسٍ: "نهارك سعيدٌ يا بن الملك. أنا أعرف أكثر ممَّا تعرف!". فاتَّفقت أختاها اللتان لم تعودا تتحمَّلان هذا التَّجاسُر، بعد التَّشاور فيما بينهما، على التَّخلُّص منها. كانت إحدى نوافذ منزلهم تطلُّ على حديقة أحد الغيلان، فارتأتا أن تتخلَّصا من أختهما بهذه الطَّريقة التي كانت سهلةَ المتناوَل لهما. فأسقطتا شِلَّةً من خيوط الغَزْل كانتا تصنعان بها ستاراً للملكة، وصاحتا: "آه، يا لبؤسنا! لقد انتهى أمرُنا ولن نستطيع إنهاءَ العمل في الوقت المناسب إنْ لم تقم فيولا، وهي أصغرنا وأخفُّنا وزناً، بالنُّزول بحبلٍ لالتقاط الخيط الذي سقط منَّا!". ووافقت فيولا، لئلاَّ تراهما حزينتَين، على النُّزول فوراً، فتركتهما تربطانها؛ ولكن حين تدلَّت، أفلتت أختاها الحبل.

في تلك اللَّحظة بالضَّبط، دخلَ الغول ليلقي نظرةً على الحديقة، ولمَّا كان قد تَشَرَّبَ رطوبةً كبيرةً من الأرض، أفلت ضرطةً قويَّةً جدَّاً أحدثَتْ من شدَّةِ وَقْعِها ضجَّةً وجلبةً كبيرةً، فاعترى فيولا الخوفُ، وصرخت: «آه يا أمِّي، ساعديني!». التفت الغول، وإذْ رأى تلك الفتاة الجميلة، تذكَّر أنَّه سمع مرَّةً من بعض الطَّلبة أنَّ الأفراس الإسبانيَّة تتلقَّح بالرِّيح، فاعتقد أنَّ مسارَ الضُّراط قد لقَّح بعض الأشجار فخرج منها هذا المخلوق الغامض. فاحتضنها بحنانٍ كبيرٍ، وقال لها: «بُنَيَّتي، يا بُنَيَّتي، يا جزءاً من جسدي، ونفحةً من روحي؛ مَن كان يظنُّ أنَّني، بريحٍ من دُبُري، كنت سأشكِّل هذا الوجه الجميل؟ مَن كان يحسب أنَّ نتاجَ مغصٍ، سبَّبَه البرد، كان سيولِّد لهيبَ الحُبِّ هذا؟». وبعد أن قال هذه وغيرها من الكلمات اللَّطيفة،

النَّابعة من صميم أحشائه، وضعها في عهدةِ ثلاث حوريَّاتٍ وأمرهنَّ بأن يعتنين بها ويربِّينها بمنتهى الرِّقَّة.

شعر الأميرُ، الذي لم يعد يرى فيولا ولم يستطع الحصول على أيِّ خبرٍ منها، بحزنٍ عميقٍ لدرجة أنَّ عينيه تورَّمتا، ووجهه أصبح شاحباً وشفتيه رماديَّتين، ولم تعد تلذُّ له لقمةٌ، ولا تهنأ له غفوة. وأخيراً، ضاعف الجهود ووعد بالمكافآت وواصلَ بدأب تَسَقُّطَ الأخبار إلى أن اكتشف مكانها. عندئذٍ، أرسل إلى الغول يُبلغه أنَّه في حالةٍ صحِّيَّةٍ سيِّئة، كما كان بإمكانه أن يرى، وأنَّه سيكون من دواعي سروره أن يسمح له بقضاء يومٍ واحدٍ وليلةٍ واحدةٍ فحسب في حديقته، لأنَّ جُلَّ ما كان يحتاج إليه غرفةٌ واحدةٌ فحسب لكي يستعيد مزاجَه. لم يستطع الغول، بوصفه من أتباع أبيه، أن يرفض له هذا الطَّلب البسيط، فردَّ قائلاً إنَّه إذا لم تكن تكفيه غرفةٌ واحدةٌ، فبإمكانه أن يأخذ كلَّ غرف البيت وحياتَه نفسَها أيضاً. شكره الأمير على لُطفه، وحصل على الغرفة المخصَّصة له والتي، لحسن حظِّه، كانت بجوار الغرفة التي كان ينام فيها الغول مع فيولا في السَّرير نفسِه.

وحالما خرج اللَّيل ليلعبَ لعبةَ «مُدَّ ستارتي» مع النُّجوم، وجدَ الأمير باب الغول مفتوحاً، لأنَّه لمَّا كان الوقتُ صيفاً والمكانُ آمناً، أحبَّ الغولُ أن يتمتَّع ببعض الهواء البارد، فدخل الأميرُ بهدوءٍ متلمِّساً طريقه إلى جانب السَّرير حيث ترقد فيولا، وقرصَها قرصتَين. استيقظت فيولا من نومها وبدأت تصيح: «أوه أمَّاه، يا للبراغيث، يا للبراغيث!». فقام الغولُ في الحال بنقل الفتاة إلى سريرٍ آخر. وعاد الأمير يفعل الشَّيء نفسَه، وكان الغول يغيِّر الفِراشَ تارةً والملاءاتِ تارةً أخرى، وانقضى اللَّيل وهم في هذه المعمعة إلى أن وصل إلى الفجر خبرٌ مفادُهُ أنَّ الشَّمس ما تزال حيَّةً، فأُزيلَتْ ملابسُ الحِداد التي كانت تدثِّر السَّماء.

وبحلول النَّهار، بينما كان الأمير يتجوَّل في المنزل، رأى الفتاة على باب غرفتها، فقال لها: «نهارك سعيدٌ، نهارك سعيدٌ يا فيولا!». فأجابت

فيولا: «نهارك سعيدٌ يا بن الملك. أنا أعرف أكثر ممَّا تعرف»، فردَّ عليها: «أوه أمَّاه، يا للبراغيث!». وحين سمعت فيولا ذلك، أدركت في الحال أنَّ مضايقة اللَّيلة الماضية كانت مكيدةً دبَّرها الأمير، فذهبت من فورها لتقابل الحوريَّات اللَّاتي كنَّ يَوْدَدْنها كثيراً، وروت لهنَّ ما حدث. «إن كان الأمر كذلك - قالت الحوريَّات، - فسوف نجابهه قرصاناً إلى قرصانٍ، وبحَّاراً إلى سجينٍ أرعن، وإن كان هذا الكلب قد عضَّكِ، فسوف نجزُّ وبره: هو كادَ لكِ كيداً، ونحن سنكيد له كيداً ونصف. اطلبي إذاً من الغول أن يصنع لك زوجاً من النِّعال المغطَّاة بالأجراس، لأنَّنا نريد أن نردَّ له الصَّاعَ صاعَين».

طلبت فيولا، المتلهِّفة إلى الانتقام، من الغول أن يصنع لها على الفور زوجاً من النِّعال. وانتظرن أن تغطِّي الشَّمس، مثل امرأةٍ من جنوة[1]، وجهها بخمارٍ من نسيج التَّفْتَةِ السَّوداء، ثمّ ذهبن أربعتهنَّ معاً إلى بيت الأمير، وحالما أثقلَ الكرى أجفانَه ونامَ ملءَ عينيه، أحدثت الحوريَّات ضجَّةً كبيرةً، وبدأت فيولا تضرب قدميها بقوَّةٍ على الأرض، بحيث أنَّ ضجيج الكِعاب ورنين الأجراس جعلا الأمير ينتفض بذهولٍ كبيرٍ ويصيح: «أوه أمَّاه، أوه أمَّاه، أنجديني!». وبعد أن كرَّرن الأمر مرَّتين أو ثلاث مرَّاتٍ، هرعن إلى منزلهنَّ.

وفي الصَّباح، بعد أن تناول الأميرُ اللَّيمون الحامض مع بذوره[2] بسبب الخوف الذي اعتراه، خرجَ ليتنزَّه في الحديقة، لأنَّه كان لا يستطيع المكوثَ هُنَيْهَةً دون أن يَرَى فيولا صِنْوَةَ قرنفلاته. وحين لمحها بعتبة الباب، قال لها: «نهارك سعيدٌ، نهارك سعيدٌ، يا فيولا!». فأجابت فيولا: «نهارك سعيدٌ يا بن الملك. أنا أعرف أكثر ممَّا تعرف!». فتابع الأمير هازئاً: «أوه أمَّاه، يا

1) كانت نساء جنوة، أسوةً بنساء البندقيَّة، يغطِّين وجوههنَّ بخمارٍ شفَّاف حين يخرجن من البيت؛ (كروتشِه).

2) كانت بذورُه تُعطى للأولاد كعلاجٍ ضدَّ الدِّيدان؛ (كروتشِه).

للبراغيث!». فردَّتْ هي بالإيقاع نفسه: «أوه أمَّاه، أوه أمَّاه، أنجديني!». فقال الأمير بعد أن سمع هذه الكلمات: «لقد فعلتِها بي، لقد خدعْتِني! إنَّني أستسلم لك وأسلِّمُ بفوزك. ولأنَّني أرى أنَّك تعرفين أكثر ممَّا أعرف، فإنَّني، بلا مزيدٍ من المقدِّمات، أريدكِ زوجةً لي».

وهكذا بحث عن الغول وطلب يدَها منه، ولكنَّ الغول لم يُرِدْ أن يضع يديه على غلَّةِ الآخرين. فقد اتَّضح له في ذلك الصَّباح بعينِه أنَّ فيولا هي ابنة كولانييلُّو، وأنَّ عينه الخلفيَّةَ خدعَتْه حين ظنَّ أنَّ هذه المخلوقة الفوَّاحة قد وُلِدَت من نفحةٍ نتنة. لذلك استدعى الأبَ الحقيقيَّ، وبعد أن أطلعَهُ على الحظِّ السَّعيد الذي وُفِّقَتْ له ابنتُه، أقاموا الأفراح واللَّيالي المِلاح، مؤكِّدين صِدْقَ القول المأثور:

البِكْرُ الجميلةُ، في السَّاحة تتزوَّج.

غاليوزو
المؤانسة الرَّابعة من اليوم الثَّاني

بفضل حنكة قطٍّ تركه له أبوه ميراثاً، يصبح غاليوزو سيِّداً نبيلاً؛ ولكن بسبب جحوده، يوبِّخه القطُّ على سلوكه السَّيِّئ.

لا يمكن وصف الغبطة الكبيرة التي شعر بها الجميع للحظِّ السَّعيد الذي وُفِّقَتْ له فيولا التي عرفَتْ ببراعتها كيف تستغله رغم مكائد أختيها اللتين كانتا لها عدوَّتين يجري في عروقهما دمُها نفسُه، وهما اللتان حاولتا مرَّاتٍ عِدَّةً إيقاعها وتحطيم رقبتها. ولكن حان دور تولّا لتسدِّد الدَّين المستحقَّ، وتدفعه من فمها ليراتٍ ذهبيَّةً من الكلماتِ الجميلة؛ فكان أن أرضتهم على هذا النَّحو:

الجُحود، أيُّها السَّادة، مسمارٌ صَدِئٌ، إنْ غُرزَ في شجرة الكِياسة أضْمَرَها؛ إنَّه بَرَبَخٌ مكسورٌ يُفسِدُ ويُضعِفُ أُسُسَ المودَّة؛ إنَّه سُخامٌ يسقطُ في قِدْرِ الصَّداقة، فيُزيل الرَّائحة والنَّكهة، وهذا ما يمكن أن يُرى ويُختبر في كلِّ الأشكال، وسوف ترون تصويراً مبدئيّاً له في القصَّة التي سوف أرويها لكم.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، متسوِّلٌ عجوزٌ في مَدينَتِي نابولي، وكان مُعدِماً تماماً، ومُنْهَكاً ويائساً وزريَّ الحال ومهزولاً ودون أدنى جَعْدَةٍ في كيس نقودِه، حتى إنَّه كان يطوف عارياً كقملة. حين حانت السَّاعة التي كان عليه فيها أن يهزَّ أكياس الحياة ليُسقطَ منها ما بقي بداخلها، دعا ولدَيه الاثنين، أوراتْسيِنلّو وغاليوزو، وخاطبهما قائلاً: "لقد دُعِيتُ بالفعل، وفقاً لفحوى ذلك العقد، إلى

تسديد ما للطّبيعة عليَّ من ديون؛ وصدِّقاني، إن كنتما مسيحيَّين مؤمنين، أنّني سأكون في غاية الامتنان للخروج من مستنقع العناء هذا، من ظلام هذه المآسي، لولا أنّني أترككما على هذه الأرض القاحلة، مفلِسَين إفلاسَ كنيسة سانتا كيارا[1]، مكبَّلَين إلى شوارع ميليتو الخمسة[2]، دون رنين قرشٍ، نقيَّين كإناء الحلّاق، خفيفَين كالزُّقباء، ضامرَين كبذرة البرقوق، وتملكان بقدر ما تملك ذبابةٌ أن تحملَ على رجلها، ولو ركضتما مائةَ ميلٍ، لما سقطَ منكما فلسٌ واحدٌ. لقد ألقى بي القدر حيث الكلاب الثّلاثة تتغوّط[3]؛ ولم أعُدْ أملك حتى حياتي، وكما ترياني اكتبا عنّي؛ لأنّني دائماً، كما تعلمان، كنت أتثاءب وأرسم إشارة الصّليب وأخلدُ إلى النّوم بلا شمعة. مع هذا كلِّه، أريدُ مع اقتراب موتي أن أترك لكما بعض علامات الحُبّ. لذلك، لمّا كنتَ أنتَ يا أوراتسيِنلّو ابنيَ البكر، فلتأخذ هذا الغربال المعلّق على الحائط، علّكَ تكسب به قوتَ يومك؛ وأنتَ، لمّا كنتَ ربَّ منزلٍ، فلتأخذ القطَّ، وتذكّرا أباكما". وما إن قال قولَه هذا حتى انفجر في البكاء، وبعد لحظاتٍ قصيرةٍ قال: "وداعاً، لقد حلَّ اللّيل".

قام أوراتسيِنلّو بدفن والده مُستعطياً المارّة، ثم أخذ الغربال ومضى يكدُّ هنا وهناك لكسب لقمة العيش، وكان كلّما زادَ كدُّه، زادَ ربحُه. أمّا غاليوزو، بعدما أخذ القطَّ، اشتكى قائلاً: "انظر الآن أيَّ صنفٍ من الميراث تركه لي أبي! لا أملك ما أعيش منه، والآن عليَّ أن أتبضّع لاثنين. هل سمع أحدٌ من قبل بمثل هذا الميراث البائس؟ كان من الأفضل لو أنّه وفّر على نفسه هذا العناء!".

---

1) القدّيسة كيارا (كلير) الأسيزيّة، قدّيسةٌ إيطاليّةٌ من أتباع القدّيس فرانتشسكو (فرنسيس) الأسيزي الأوائل. أنشأتْ أخويّة النِّساء الفقيرات، وهي أخويّة رهبانيّة للنِّساء تتأسّس تعاليمها على عيش حياةِ زُهدٍ كليٍّ وتقشُّفٍ وانعزالٍ عن العالم؛ (المترجمان).

2) في مدينة ميليتو، على الطّريق بين نابولي وأفرَنسا، موضعٌ يُسمّى "الشّوارع الخمسة" يجتمع فيه عادةً عددٌ كبيرٌ من المتسوّلين؛ (كروتشه).

3) أي في ظروفٍ بائسةٍ، والتّعبير مجهول المصدر؛ (كروتشه).

حين سمع القطُّ هذا الأنين المزعج، قال له: "إنَّك تشتكي أكثر من اللَّازم، وحظُّك أوفر من عقلك! إنَّك لا تعرف أيَّ ضربةِ حظٍّ وُفِّقْتَ لها، فأنا أعرف كيف أجعلك غنيَّاً إن قصدتُ". معلِّقاً الآمالَ على ذلك، شكرَ غاليوزو القطَّ على حسِّه السِّنَّوريِّ، وبعد أن مسَّد ظهره ثلاث أو أربع مرَّاتٍ، أوصاه بحرارةٍ أن يهتمَّ بالأمر.

رأفةً به، كان القطُّ، صباح كلِّ يومٍ – حين تصطاد الشَّمس ظلال اللَّيل بطُعْمِ الضَّوء المعلَّق بصنَّارةٍ ذهبيَّةٍ – يذهب إلى شاطئ كيايا أو إلى صخرة السَّمك، وبعد أن يتفحَّص سمكةَ بوريٍّ كبيرةً أو سمكةَ أبرَمِيسٍ جميلةً، يخطفها ويأتي بها إلى الملك، ويقدِّمها إليه قائلاً: "السَّيِّد غاليوزو، العبد الصَّدُوقُ لسموِّ معاليكم، يرسلُ لكم هذه السَّمكة، مع التَّبجيل وطلب الغفران. هديَّةً صغيرةً لسيِّدٍ عظيم". وكان الملك يجيب بوجهٍ مغتبطٍ، كما كان شأنه تجاه كلِّ مَن يحمل إليه الهدايا: "أخبر هذا السَّيِّد الذي لا أعرفه أنَّني أقدِّم له شكري مشفوعاً بعطفٍ كبير".

في بعض المرَّات الأخرى، كان القطُّ يقصدُ المستنقعات أو منطقة أستروني حيث يَنْشطُ صيدُ الطُّيور، وحين كان الصَّيَّادون يُسقطون صُفَيْراً ذهبيَّاً أو قرقفاً كبيراً أو أبا قَلَنْسُوةٍ، كان هو يلتقطه ويأتي به إلى الملك مع الرِّسالة نفسِها. وقد استخدم هذه الحيلة مرَّاتٍ عديدةً، إلى أن قال له الملك في أحد الأيَّام: "أشعر أنَّني مدينٌ بالكثير للسَّيِّد غاليوزو هذا، وأنا أرغب في معرفته لكي أبادله اللُّطفَ الذي أظهره لي". فأجاب القطُّ: "لا رغبة للسَّيِّد غاليوزو سوى أن يضع حياته ودمه في خدمة تاجكم، وغداً صباحاً، بلا شكٍّ، حين تُضرِم الشَّمسُ النَّارَ في جُذامَاتِ حقولِ الهواء، سيأتي ليقدِّم لكم فروضَ الطَّاعة".

ولكن، حين حلَّ الصَّباح، حضر القطُّ بين يدَي الملك وقال: "يا صاحب الجلالة، إنَّ السَّيِّد غاليوزو يرسل إلى سموِّكم اعتذاره لأنَّه لم يأتِ، ذلك أنَّ بعض خدمه سرقوه اللَّيلةَ الفائتةَ ولاذوا بالفرار، دون أن يتركوا له حتى

قميصاً واحداً يرتديه". وما إن سمع الملك هذا الخبر حتى أمر من فوره بأن يأتوا من خزانته بثيابٍ وألبسةٍ داخليَّةٍ وأرسلها إلى غاليوزو الذي حضر إلى القصر بعد ساعتين يقودُه القطُّ.

رحَّب الملك به أيما ترحيبٍ، وطلب منه أن يجلس بجانبه، وقدَّم له وليمةً رائعةً. ولكن، في أثناء تناول الطَّعام، كان غاليوزو يلتفت بين لحظة وأخرى إلى القطِّ، قائلاً له: "يا قطِّي العزيز، أوصيك بأسمالي الأربعة ألَّا يمسَّها سوءٌ!". وكان القطُّ يجيب: "اصمت، سُدَّ حلقَك، لا تتفوَّه بهذه الحماقات كالمتسوِّلين!". وحين كان الملك يسأل إن كان في حاجةٍ إلى شيءٍ، كان القطُّ يجيب نيابةً عنه أنَّه اشتهى ليمونةً صغيرةً، فكان الملك يرسل على الأثر أحدَهم إلى الحديقة ليجلب سلَّةً منها. ولكن، بعد فترةٍ قصيرةٍ، عادَ غاليوزو يكرِّر المقطوعةَ نفسَها حول ملابسه وأسماله، وعاد القطُّ يطلب منه أن يغلق فاه، ومرَّةً أخرى سأل الملكُ عمَّا يحتاج إليه؛ وكان القطُّ حاضرَ العُذرِ لمداراةِ خِسَّةِ غاليوزو. وفي النِّهاية، بعد أن أكلوا وتحدَّثوا في أمورٍ شتَّى، ودَّعَ غاليوزو الملكَ وغادر القصر.

راح القطُّ، وقد بقي بمفرده مع الملك، يصف بسالةَ وذكاءَ وحكمةَ غاليوزو، وفوق كلِّ شيءٍ، الثَّروةَ الهائلةَ التي يملكها في أرياف روما ومقاطعة لومبارديا، والتي يستحقُّ لأجلها أن يُصاهرَ ملكاً يَحْكُمُ ويُطاع. وسأل الملكُ عن حجم تلك الثَّروة، فأجاب القطُّ أنَّه لا يمكن حصرُ الأملاك المنقولة وغير المنقولة والمفروشات التي يملكها هذا الثَّريُّ الكبير الذي هو نفسُه لا يعرف ما لديه، وإن أراد الملك أن يعرف عن هذا الأمر أكثر، فليرسل برفقته بعضاً من رجاله إلى خارج حدود مملكته، ليُريهم رأيَ العين أنَّه لا توجد في العالم ثروةٌ تضاهي ثروته.

أمر الملكُ عدداً من رجاله الثِّقات بأن يجمعوا معلوماتٍ دقيقةً عن الأمر، وسار هؤلاء في أعقاب القطِّ. وكان هذا الأخير يسبقهم بذريعة البحث عن بقعةٍ يرتاحون فيها بين الفينة والأخرى، بعد أن خرجوا من حدود

المملكة، وكان كلَّما صادفَ قطيعاً من الغنم، أو صُوَاراً من البقر، أو رعيلاً من الخيل، يقول للحرَّاس والرُّعيان: "إيه أنتم، كونوا حذرين، لأنَّ عصابةً من قُطَّاع الطُّرق تريد وَضْعَ اليد على كل ما تجده في هذه الأرياف؛ ولكن، إن كنتم تريدون النَّجاة من بطشهم وأن يرهبوا جانبَكم، قولوا لهم إنَّها مُلْكٌ للسَّيِّد غاليوزو، وسوف لن يمسُّوا شعرةً منكم بسوءٍ". وكان يقول الشَّيء نفسَه لأصحاب المزارع التي مرَّ بها؛ وهكذا، أينما كان رجال الملك يصِلون، كانوا يجدون مِزْمار القرْية مضبوطاً على النَّغمة نفسِها، وكان الجوابُ يأتيهم بأنَّ كلَّ الأشياء التي يرونها تخصُّ السَّيِّد غاليوزو. وبعد أن تعبوا من تكرار السُّؤال وسماع الجواب نفسِه، رجعوا إلى الملك ورووا له في تقريرهم بحاراً وجبالاً عن ثروة السَّيِّد غاليوزو التي لا أوَّل لها ولا آخر.

حين سمع الملكُ ذلك، وعدَ القطَّ بمكافأةٍ مجزيةٍ إن هو دبَّرَ زواجَ ابنته من السَّيِّد غاليوزو. وبعد جولاتٍ عديدةٍ جيئةً وذهاباً، تمكَّن القطُّ أخيراً من وصل أواصر القُربة. حضر غاليوزو، وسلَّمَه الملك ابنته مع دوطةٍ كبيرةٍ، وبعد شهرٍ كاملٍ من الاحتفالات، قال غاليوزو للملك إنَّه يريد أن يأخذ زوجته إلى أراضيه، وبعد أن رافقهما الملك إلى الحدود، غادرا إلى لومبارديا، حيث اشترى غاليوزو، بنصيحةٍ من القطِّ، أراضيَ وحقولاً وأصبح باروناً.

والآن، بعد أن وجدَ غاليوزو نفسَه غارقاً في ثراءٍ عميمٍ، أسدى للقطِّ الشُّكرَ مراراً وتكراراً، قائلاً له إنَّه مدينٌ له بحياته ولمساعيه الحميدة بما وصل إليه من منزلةٍ عظيمةٍ، وإنَّ حنكة القطِّ عادت عليه بالنَّفع أكثر ممَّا فعلت بصيرةُ الأب. لذلك، فإنَّ له مطلق الحرِّيَّة ليفعل ويُبْطِل ما يشاء، وليتصرَّف كما يشاء بأمتعته وبحياته، ووعده بأنَّه، حين يموت، - بعد مِائة عامٍ من اليوم! سوف يحنِّطه ويحتفظ به داخل قفصٍ ذهبيٍّ في غرفته نفسها معه.

ولم تمضِ ثلاثة أيَّامٍ على هذا التَّبجُّح حتى تصنَّع القطُّ الموتَ متمدِّداً بطوله على الأرض، فرأته زوجة غاليوزو، وصرخت: «آه يا زوجي، يا للمصيبة!

لقد مات القطُّ». «فليأخذ معه كلَّ شرٍّ - أجاب غاليوزو - الحمد لله هو ولا نحن». «ماذا سنفعل به؟»، سألت الزَّوجة. فأجاب غاليوزو: «التقطيه من قدمه وارمي به من النَّافذة!».

قفز القطُّ إذْ سمع هذه المكافأة الجميلة، التي ما كان ليتخيَّلها أبداً، على قوائمه الأربع قائلاً: «أهذا هو العرفان الكبير للقمل الذي نزعته من بدنك؟ أهذا هو الشُّكر الجزيل للأسمال التي نزعتها عنك، والتي لشدَّة اهترائها يمكنك أن تُعلِّق عليها خشبات المِغزَل؟ أهذه هي الطَّريقة التي تجازي بها من ألبسَكَ بأناقةِ عنكبوتٍ وأطعمكَ حين كنت جائعاً مُعدِماً رثَّ الثِّياب؟ حين لم تكن سوى أسمالٍ ممزَّقةٍ ومهلهَلة، مُدْقعاً ومُقَمَّلاً، يا معرِّي الجُثَث! حقّاً، هذا ما يحدث لمن يحاول أن يغسل رأسَ الحمار! اغربْ عن وجهي، ولتنزل اللَّعنة على كلِّ ما فعلته لك، لأنَّك لا تستحقُّ حتى أن يُبْصَقَ في حلقك! يا للقفص الذَّهبيِّ الجميل الذي أعدَدْتَه لي! يا للدَّفن الجميل الذي دبَّرتَه لي! هكذا الأمر، تقدِّم خدماتك، تضحِّي، تكدُّ، تعرق؛ وكلُّ ذلك لقاءَ هذه الجائزة الجميلة! يا لبؤس مَن يضع القِدْرَ معلَّقاً آماله على الآخرين! سديدٌ قولُ ذلك الفيلسوف: من يستلقِ حماراً، حماراً ينهض! باختصارٍ، من يفعل كثيراً، عليه أن يتوقَّع القليل. ولكنَّ الكلمات المعسولة والأفعال الماكرة تخدع الحكماء والمجانين!».

وبينما كان يتكلَّم ويهزُّ رأسَه أسفاً، اتَّجه نحو الباب الخارجيِّ، وكلُّ محاولات غاليوزو في تطييب خاطره، مع رئة التَّصاغُر[1]، لم تُفلح في إقناعه بالعدول عن رأيه. بل واصل الرَّكض دون أن يلتفت إلى الوراء، مغمغمًا

وقانا الرَّبُّ من ثريٍّ افتقرَ،

ومن شحَّاذٍ أثرَى!

1) الطَّعام المفضَّل لقطط نابولي الأليفة، وكان بائعٌ متجوِّلٌ يُطلَق عليه اسم «بولمونارو»، أو «بائع الرِّئات»، يقصد منازل نابولي في الصَّباح، فتهتاج جميع القطط في الحيِّ وتبدأ بالمواء لدى سماع صوته من بعيد؛ (كرونشِه).

الثُّعبان
المؤانسة الخامسة من اليوم الثَّاني

يزوِّجُ ملك ستارتْسَالونْغا ابنتَه بثعبانٍ، وحين يكتشف أنَّ هذا الثُّعبان ينطوي على شابٍّ وسيمٍ، يقوم بحرق جلده. يحاول العريس كَسْرَ نافذةٍ زجاجيَّةٍ ليفلت منه، ولكنَّه بدلاً من ذلك يكسر رأسه، ولأنَّه لا يجد علاجاً لعلَّته، تغادر ابنة الملك بيت أبيها، وبعد أن تعرف من أحد الثَّعالب سرَّ شفاء حبيبها، تقتلُ الثَّعلبَ وتمزج شحمه بشحوم طيورٍ مختلفةٍ وتدهن به جسم الشَّابِّ، الذي كان ابن أميرٍ من الأمراء، فتشفيه ويحتفلان بزفافهما.

أشفق الجميعُ أيما إشفاقٍ على القطِّ المسكين لأنَّه كوفئ مكافأة التِّمساح، مع أنَّ هناك من لفت الانتباه إلى أنَّه كان بإمكانه أن يواسي نفسه إلى حدٍّ كبيرٍ لكونه ليس الوحيد، لأنَّ الجحود أصبح داءً مألوفاً في هذه الأيَّام، مثل الزُّهريِّ والنَّزلة الوافدة، وهناك أناسٌ كثيرون كدُّوا وتعبوا واستنزفوا أموالهم ودمَّروا حياتهم في خدمة زمرةٍ من الجاحدين، وحين ظنُّوا أنَّهم واضعو أيديهم على ما هو أثمن من مجرَّد قفصٍ ذهبيٍّ، وجدوا أنفسهم مدفونين في أحد المستشفيات. ولكن، حين رأوا أنَّ بوبا كانت مستعدَّةً للكلام، تسربلوا بالصَّمت، فتكلَّمت هي قائلةً:

إنَّ مَن يشتغل كثيراً، مجروراً بفضوله الشَّديد، في معرفة ما لا يعنيه من شؤون الآخرين، دائماً ما يُنزل المعول على قدميه، كما يمكن أن يشهد

على ذلك ملكُ ستارتسَا الونْغا الذي حشر أنفه حيث لا ينبغي له، ونفشَ شلَّةَ غزْل ابنته، وأهلكَ صهرَه السَّيِّئ الطَّالع الذي حاول أن يحطِّم الزُّجاج، فحطَّمَ جمجمته.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، امرأةٌ فلَّاحةٌ تتوقُ نفسُها إلى إنجاب ابنٍ أكثر ممَّا تتوقُ نَفْسُ المتقاضي إلى نيل حكمٍ مُخفِّف، والمريضِ إلى رشفة ماءٍ عذب، وصاحبِ الحانة إلى تجاوُز سقف الرِّبح. ولكن، مع أنَّ الزَّوج كان فلَّاحاً مُياوماً، لم تتمكَّن من نيل الخصوبة المرجوَّة.

ذات يومٍ، جلب الرَّجل المسكين إلى البيت حزمةً من الحطب كان قد ذهب يجمعها من الجبل، وحين فكَّ رباطها، وجد بين الأغصان ثعباناً صغيراً جميلاً. تنهَّدت ساباتيلَّا (هكذا كانت تُدعى الفلَّاحة) بعمقٍ لِما رأتْ، وقالت: «حتى الثَّعابين تُنجبُ فراخاً؛ وأنا جئتُ إلى هذا العالم منحوسةً، مع زوجٍ يعاني الفتاق، ومع أنَّه بستانيٌّ، لم يُفلِح إلى اليوم في التَّطعيم!». وما إن سمع الثُّعبان كلامَها حتى نطق قائلاً: «لمَّا كنتِ غير قادرةٍ على إنجاب ولدٍ، اتَّخذيني أنا ولداً، وستكون تلك صفقةً جيِّدةً، لأنَّني سوف أحبُّكِ أكثر من أمِّي». اعترَتْ ساباتيلَّا رعشةٌ أمام هذه الواقعة غير المنتظرة لثعبانٍ يتكلَّم، ومع ذلك، استجمعت قواها وأجابته: «حتى وإن لم يكن لسببٍ آخر، سوى لُطفكَ هذا، فإنَّه يُسعدُني أن أقبَلُكَ كما لو أنَّك خرجتَ من ركبتي». وبعد أن أشارت إلى ثقبٍ في البيت ليكون بمثابة مهدٍ له، بدأت تطعمه ممَّا لديها، بحنوٍّ لا مثيل له في العالم.

يوماً بعد يومٍ كان الثُّعبان يزداد حجماً، وحين صار ضخماً، قال لكولا ماتِّيُو، الزَّوج، الذي كان يعدُّه سيِّده ووليَّ نعمته: «أيْ أبتِ، أريد أن أتزوَّج!». «بكلِّ سرورٍ، – أجاب كولا ماتِّيُو – سوف نعثر لك على واحدةٍ تشبهك، ونقوم بربط هذين المتَجَرَين معاً». «ماذا تعني بواحدةٍ تشبهني؟ – قال الثُّعبان، – أتظنُّنا الشَّيءَ نفسَه نحن والأفاعي والحيَّات؟ من الواضح

أنَّك واحدٌ ممَّن يسمُّونهم أنطوُونو[1]، ولا تعرف القشَّ من الحنطة. أنا أريد ابنةَ الملك، ولذا فلتنطلق من فورك ولتسأل الملك عن ابنته، وأخبره أنَّ ثعباناً يطلب يدها».

فما كان من كولا ماتِّيُو، الذي كان رجلاً طيِّباً لا يفهم كثيراً في آداب المراسم، إلَّا أن ذهب ببساطةٍ إلى الملك لينقل إليه الرِّسالة: «لا يُنْحِ سموُّكم باللَّائمة على الرَّسول؛ وإلَّا نالَ من العصيِّ عديدَ حبَّاتِ الرَّمل[2]. ولتعلموا الآن أنَّ ثعباناً يطلب يد ابنتكم ليتزوَّجها، ولذا أتيتُ أنا كبستانيٍّ لأرى إن كان بإمكاني تطعيم ثعبانٍ مع حمامةٍ صغيرةٍ». اشتمَّ الملكُ فيه رائحةَ مغفَّلٍ أحمق، وأراد أن يصرفه، فأجاب قائلاً: «اذهب وأخبرْ ذاك الثُّعبان أنَّه إن استطاع أن يحوِّل كلَّ الثِّمار الموجودة في هذه الحديقة إلى ذهبٍ، أعطيتُه ابنتي». ثم صرفه بقهقهةٍ مدوِّية.

وحالما نقل كولا ماتِّيُو الجوابَ إلى الثُّعبان، قال له هذا الأخير: «اذهب صباحَ غدٍ واجمع كلَّ بذور الثِّمار التي تجدها في المدينة وازرعها في الحديقة، وسوف ترى لآلئ منظومةً على الأسَل». وحالما جرفتِ الشَّمسُ بمكنستها الذَّهبيَّة نفاياتِ الظِّلال من الحقول المرويَّة بمرشَّةِ الفجر، أخذَ كولا ماتِّيُو، الذي كان لا يردُّ بجوابٍ ولا يعترض على مسألة، سلَّةً وعلَّقها بذراعه، وراح يطوف من ساحةٍ إلى ساحةٍ ملتقطاً عن الأرض كلَّ بذور الدُّرَّاق والمِشْمِش والبرقوق، وما شابه من نَوَيَاتٍ وبذورٍ وجدَها في طريقه. ثم ذهب إلى الحديقة وبذرَها كما قال له الثُّعبان؛ وسرعان ما نبتت تلك البذور ونمت أشجاراً ذات جذوعٍ وأوراق وزهورٍ وثمارٍ كلُّها من الذَّهب البرَّاق. وإذْ رأى الملكُ هذا المنظر الرَّائع، غلبَتْ عليه نشوةُ الإعجاب وهلَّلَ فرَحاً.

1) شخصيَّةٌ يُضرَبُ بها المثل في الغباوة؛ (المترجمان).

2) مثلٌ شعبيٌّ؛ (كروتشِه).

بعد ذلك، أرسل الثُّعبانُ كولا ماتِّيُو إلى الملك ليُتِمَّ الوعدَ الذي قطعه على نفسه. «على رِسْلِكَ! – قال الملك، – إنَّني أريد شيئاً آخر. إذا كان يريد ابنتي، فليحوِّل أسوارَ الحديقة وأرضَها إلى أحجارٍ كريمة». ونقل البستانيُّ الطَّلبَ الجديد إلى الثُّعبان الذي قال له: «اذهب صباحَ غَدٍ واجمع كلَّ قطع الخزف التي ستجدها على الأرض وألقِ بها على ممرَّات وأسوار الحديقة: لأنَّنا نريدُ مجاراةَ هذا الأعرج!».

وحالما بدأ اللَّيل يحزم أمتعة الشَّفق من السَّماء ليذهب إلى منفاه بتهمةِ التَّواطؤ مع اللُّصوص، تناول كولا ماتِّيُو سلَّةً وخرج يطوف جامعاً شظايا الجِرار الخزفيَّة، شظايا الأغطية الصَّغيرة والكبيرة، وقيعانَ القدور والحِلَل، وحوافَّ الأحواض، ومقابض الأباريق، وشِفاه أواني اللَّيل، آخذاً في طريقه كلَّ ما كان يجده من شظايا المصابيح المكسورة والأكواب المتصدِّعة والأواني الفخَّاريَّة المحطَّمة. وبعد أن نفَّذ أوامر الثُّعبان، لاحَتْ أمام عينيه حديقةٌ مرصوفةٌ بالزُّمرُّد والعقيق الأبيض، مرصَّعةٌ بالياقوت الأحمر والعقيق اليمانيِّ، تخطفُ روعتُها الأبصارَ من مخازن العيون وتغرسُ العجبَ في أراضي القلوب. ووقف الملك هناك متحجِّراً كتمثالٍ، دون أن يفهم ماذا جرى.

طلبَ منه الثُّعبانُ مرَّةً أخرى أن يفي بوعده؛ ولكنَّ الملك وضع مجدَّداً شرطاً آخر: "إنَّ ما قام به إلى الآن، لا شيء إنْ هو لم يحوِّل هذا القصر كلَّه إلى ذهب". وحين نقل كولا ماتِّيُو مُبتغى الملك الجديد هذا، قال له الثُّعبان: «اذهب وخذ حزمةً من أعشاب مختلفةٍ وادهن بها أساس القصر، لأنَّنا نريد أن نُرضي هذا الطِّفل البكَّاءَ والمزعج». وانطلق القرويُّ يجمع حزمةً كبيرةً من السِّلق والفجل الأسود والثُّوم الأخضر والبَقْلَة والجرجير والسَّرفيل، وما إن دهن القصر حتى بدا برَّاقاً مثل حبَّة صفراء يمكنها أن تجلو الفقر عن مِائة بيتٍ أصيب بالإمساك من سوء الحظِّ.

حين عاد القرويُّ إلى الملك ليطلب منه، باسم الثُّعبان، الإيفاءَ بوعده،

نادى الملكُ، وقد رأى أنَّه لم يعد لديه أيُّ مهرب، ابنته وقال لها: «أيْ غرانُّونيا، يا بُنَيَّتي الغالية، لكي أسخر من مخلوقٍ طلبَكِ منِّي زوجةً له، اقترحتُ عليه شروطاً صعبةً بدا لي من المستحيل أن تتحقَّق. ولكن الآن، ولا أعرف كيف، أجدُني عالقاً ومُرغَماً على إتمام وعدي، فأرجوك، إذا كنتِ ابنةً بارَّةً، اسمحي لي أن أكون حافظاً لعهدي وأن تكوني راضيةً بما قسمَتْهُ لكِ السَّماء وما أجْبِرْتُ على فعله». «افعل ما تشاء يا أبي وسيِّدي، - أجابت غرانُّونيا، - فأنا لن أخرج قيد أنملةٍ عن طاعتك». فطلبَ الملك من كولا ماتِّيُو أن يُحضِر الثُّعبان.

صعدَ هذا الأخير، بعد تلقِّيه الدَّعوة، عربةً من الذَّهب الخالص تجرُّها أربعة أفيالٍ ذهبيَّةٍ، وانطلق نحو قصر الملك. ولكن، أينما كان يمرُّ، كان النَّاس يولُّون خائفين عند رؤيةِ ثعبانٍ ضخمٍ ورهيبٍ يقوم بنزهةٍ في شوارع المدينة. وحين وصل إلى القصر الملكيِّ، ارتجف الحرَّاسُ جميعاً مثل أعواد القصب ولاذوا بالفرار، ولم يبق حتى غاسلو الأطباق في المطبخ. وحتى الملك والملكة التجآ إلى غرفتهما مذعورَين. وحدها غرانُّونيا بقيت رابطةَ الجأش ومتماسكةً، ورغم صراخ أبيها وأمِّها: «اهربي، اخرجي من هنا، أنقذي نفسك يا غرانُّونيا!»، أبَتْ أن تتحرَّك خطوةً واحدةً، قائلةً بسكينةِ نَفْسٍ: «لماذا عليَّ أن أهرب من الزَّوج الذي اخترتُماه لي؟».

دخل الثُّعبانُ الغرفةَ، وأحاطَ خصرَ غرانُّونيا بذيله ومنحها بحراً من القبلات، وحين رأى الملك ذلك المشهد، تغوَّط ربع فدَّانٍ من الدِّيدان، ولو أنَّهم فصدوه في تلك اللَّحظة لما خرجت منه قُطَيْرَةُ دمٍ واحدة. ثمَّ اصطحبها إلى غرفةٍ أخرى، وبعد أن أحكم إغلاق الباب، طرحَ على الأرض جلدَه الثُّعبانيَّ فظهر شابٌّ فائق الوسامة بخصلات شعرٍ ذهبيَّةٍ تكلِّلُ رأسه وعينين تخلبان الألباب، واحتضن العروسَ واجتنى منها أولى ثمار حبِّه.

وإذْ رأى الملكُ الثُّعبان يختلي بابنته موصِداً الباب، قال لزوجته: «فلتمنح السَّماءُ السَّلامَ لروح ابنتنا الطَّيِّبة التي رحلت إلى الأبد بلا شكٍّ؛

فربَّما كان ذلك الثُّعبان اللَّعين قد ابتلعها مثل زُلال البَيض!». ونظرَ من ثقب الباب ليرى ما حدث. ولكن، حين رأى وسامةَ الشَّابِّ المذهلةَ وجلدَ الثُّعبان مطروحاً على الأرض، رفس الباب برجله ودخل هو وزوجته، ثمَّ اتَّجها مباشرةً نحو ذلك الجلد، التقطاه وألقيا به في النَّار.

«آه، أيُّها الكلبان المارقان! – صرخ الشَّابُّ – لقد فعلتماها بي!». وفي الحال تحوَّل إلى حمامةٍ، وفي أثناء محاولته الفرار، ضربَ رأسه بزجاج النَّافذة عدَّةَ مرَّاتٍ إلى أن حطَّمه، ولكنَّه خرج مصاباً على نحوٍ لم يَبْقَ معه جزءٌ من رأسه سليماً.

راحتْ غرانُّونيا، إذْ أحسَّت أنَّها في وقتٍ واحدٍ مسرورةٌ وحزينةٌ، سعيدةٌ ومنحوسةٌ، غنيَّةٌ ومُعدِمةٌ، تخمِّشُ وجهها وهي تشتكي إلى أبيها وأمِّها هذه البلبلةَ التي عكَّرَتْ سعادتَها، وسمَّمَتْ حلاوةَ عَيْشِها، وحَرَفَتْ مسارَ حظِّها الحسن. فاعتذر أبواها إليها قائلَين إنَّهما لم يكونا يفكِّران في إيذائها. ولكنَّ غرانُّونيا، ودون أن تتوقَّف لحظةً عن النَّحيب، انتظرت أن يبسطَ اللَّيلُ رداءَه وتشتعلَ قناديلُ نعش السَّماء لأجل جنازة الشَّمس؛ وحين استيقنت أنَّ الجميع قد أخلدوا إلى النَّوم، أخذت المجوهرات التي كانت تحتفظ بها في أحد الصَّناديق وخرجت من أحد الأبواب السِّرِّيَّة عاقدةً العزم على البحث في كلِّ مكانٍ إلى أن تعثر على النِّعمة التي فقدتها.

بعد أن اجتازَتْ بوَّابات المدينة يقودُ خُطاها شعاعُ القمر، قابلَتْ ثعلباً سألها إن كانت ترغب في صحبةٍ. «يسرُّني ذلك يا عزيزي، – أجابته غرانُّونيا، – لأنَّني لا أعرف هذا البلد جيِّداً». وهكذا، بينما هما سائران معاً، وصلا إلى غابةٍ حيث كانت الأشجار وهي تلعبُ الغُمَّيضة، مثل صِبْيَةٍ صِغارٍ، تصنع أكواخاً صغيرةً لإخفاء الظِّلال. ولمَّا كان التَّعب قد أخذ منهما كلَّ مأخذٍ بعد أن مشيا كثيراً وكانا يريدان أخذ قسطٍ من الرَّاحة،

انتبذا ناحيةً تحت ظُلَّة من الأوراق، بالقرب من عين ماءٍ كانت هي الأخرى تلعب مع العشب الطَّريِّ لعبة الكرنفال، بدلق الماء عليه من الجِرار[1]. وهناك، أخلدا إلى النَّوم على فراشٍ من العشب الغضِّ، وسدَّدا بذلك الرُّسوم المستحقَّة للطَّبيعة لقاءَ بضائع الحياة؛ ولم يستيقظا حتى أعطت الشَّمس، بوهجها المعتاد، الإيعازَ للبحَّارة والسُّعاة باستئناف رحلتهم. وحين استيقظا، ظلَّا يستمتعان بتغريد أنواعٍ شتَّى من الطُّيور التي كانت تعيش في تلك الغابة، وعبَّرت غرانُّونيا عن نشوتها الكبيرة بسماع تلك السَّقسقات، فعلَّق الثَّعلب على ذلك قائلاً: «لكنتِ شعرتِ بنشوةٍ أكبر، لو كنتِ تفهمين ما يقولونه، كما أفهمه أنا!». انتاب غرانُّونيا الفضول، والفضولُ والثَّرثرة خاصِّيَّتان فطريَّتان عند الإناث، فتوسَّلَتْ إلى الثَّعلب أن يخبرها بما فهمَهُ من حديث تلك الطُّيور.

وبعد أن تركها الثَّعلبُ تتوسَّل إليه وقتاً طويلاً ليثير فضولها أكثر وأكثر لِما كان على وشك أن يرويه، أخبرها أنَّ تلك الطُّيور كانت تتحدَّث فيما بينها عن مصيبةٍ حلَّت بابنٍ لأحد الملوك، بهيِّ الطَّلعةِ كالشَّمس، قضَتْ عليه غولةٌ لعينةٌ بأن يصير ثعباناً وأن يبقى على تلك الصُّورة سبع سنواتٍ لأنَّه لم يلبِّ رغبتها الجامحة، وكان بالفعل على وشك أن ينهي المدَّة المقرَّرة عندما وقع في هوى ابنة ملكٍ آخر، وفي أثناء وجوده مع عروسه في غرفتهما، دخل أبواها وأحرقا جلده، فحاول الهرب على شكل حمامةٍ، وفي أثناء ذلك اصطدم بزجاج النَّافذة التي أراد الخروج منها، فحطَّم جمجمته بصورةٍ مروِّعةٍ، وأعلن الأطبَّاء أنَّ حالته ميؤوسٌ منها.

وإذْ أدركَتْ غرانُّونيا أنَّه يتكلَّم عن مصيبتها، سألته باديَ ذي بدءٍ عن نسب ذلك الأمير، وإن كان ثمَّة علاجٌ يمكن أن يشفيه. فأخبرها الثَّعلب

1) كان النَّاسُ في أيَّام الكرنفال يرشُّ بعضُهم بعضاً بمياهٍ معطَّرةٍ (عادةً ما تكون محتواةً داخلَ البَيض)؛ (كروتشِه).

أنَّ تلك الطُّيور قالت إنَّ أباه هو ملك ڤالُونغْرُوسُّو[1] وإنَّه لا يوجد سرٌّ آخر لسدِّ الثُّقوب في رأسه، لئلَّا تفيض روحُه، سوى أن تُدْهَنَ الجروح بدم الطُّيور نفسِها التي روت الحادثة.

لدى سماعها هذه الكلمات، جثت غرانُّونيا على ركبتيها أمام الثَّعلب متوسِّلةً إليه أن يُسدي إليها هذا المعروف ويمسك بتلك الطُّيور لأنَّهما كانا سيتقاسمان الأرباح كصديقَين مخلصَين. "على رِسْلِك! - قال الثَّعلب، - فلننتظر حلول اللَّيل، وحين تأوي الطُّيور إلى مجاثمها، دعي الأمر لي، لأنَّني سوف أتسلَّق الأشجار وأظفر بهم واحداً تِلْوَ الآخر".

وهكذا قضيا سحابةَ النَّهار يتكلَّمان تارةً عن وسامة الشَّابِّ، وتارةً عن الخطأ الذي ارتكبه والدُ العروس، وتارةً أخرى عن المصيبة التي حلَّت، ومن حديثٍ إلى حديثٍ بلغا السَّاعةَ التي تفرش فيها الأرضُ قطعةً كبيرةً من الورق الأسود المقوَّى لتجمع الشَّمع المتقطِّر من مشاعل اللَّيل[2]. وحالما رأى الثَّعلبُ الطُّيورَ جاثمةً على الأغصان، صعد إليها متسلِّلاً بهدوء، وطائراً تِلْوَ الآخر، أمسك بطيور الصُّفير الذَّهبيِّ، والحساسين، وعصافير الصَّعو، وعصافير الصَّغْنَج، وديوك الغابة، وبوماتِ أمِّ قُوَيْق، والهداهد، وطيور السُّمنة المغرِّدة، وحساسين الشَّوك، والبُوماتِ الأذناء، وخطاطيف الذُّباب التي كانت على الأشجار. ثم قتلاها ووضعا دماءها في قارورةٍ كان الثَّعلب يحملها معه لينعش بها نفسه في الطَّريق.

كانت قدما غرانُّونيا تكادان لا تطآن الأرض من الفرح، ولكنَّ الثَّعلب قاطعها قائلاً: "أوه، افرحي في أحلامك، يا صغيرتي! لأنَّك لم تفعلي شيئاً إن لم تحصلي على دمي أنا أيضاً لتمزجيه بدماء تلك الطُّيور". وما

1) تعني حرفيّاً "الوادي العريض"؛ (المترجمان).

2) كما كان يفعل الفقراء الذين كانوا يجمعون الشَّمع السَّائل المتقطِّر من القناديل بقطعةٍ من الكرتون في أثناء الحفلات والمراسم الدِّينيَّة؛ (كروتشِه).

إن قال هذه الكلمات حتى أطلق ساقيه للرِّيح. ولكنَّ غرانُّونيا، إذْ رأت آمالها تتحطَّم، لجأت إلى فنِّ النِّساء الذي هو المكر والإغواء، فصاحت قائلةً: "يا صديقي الثَّعلب، لكنت محقّاً في أن تنفذ بجلدك لو أنَّني لم أكن مدينةً لك بالكثير، ولو أنَّه لم تكن هناك ثعالب أخرى في العالم. ولكن، لأنَّك تعلم كم أنا مدينةٌ لك، ولأنَّك تعرف أنَّه ليس ثمَّة مثيلٌ لك في هذه الأرياف، يمكنك أن تثق بي ولا تفعل كما تفعل البقرة التي تقلب بحافرها الوعاء بعد أن يكون قد امتلأ بالحليب: لقد فعلتَ الكثير، وأنت الآن على وشك أن تفوِّتَ الجزء الأفضل! توقَّف، صدِّقني، ورافقني إلى مدينة هذا الملك، فإنْ فعلتَ ذلك، كنتُ لكَ كأمَةٍ اشتريتَها».

وجدَ الثَّعلب، الذي لم يكن يتخيَّل أنَّ زبدةَ المكْر الثَّعالبيِّ يمكن أن تكون موجودةً في مكانٍ ما من العالم، وجدَ نفسَه مخدوعاً من أنثى. فبعد أن اتَّفق مع غرانُّونيا، وتابعا الطَّريق معاً، لم يخطوا خمسين خطوةً حتى هوت على رأسه بالعصا التي كانت تحملها معها، وكانت الضَّربة قويَّةً جدَّاً لدرجةٍ جعلته يبسط قوائمه في الحال. ولم تُضِعْ وقتاً في التَّفكير بذبحه، ثمَّ جمعت دمه وأضافته إلى القارورة. بعد ذلك، وضعَتْ الطَّريق بين ساقيها ووصلت في وقتٍ قصيرٍ إلى ڤالُّونغْرُوسُّو وشرعت حالاً في البحث عن القصر الملكيِّ، وبعثت إلى الملك تخبره أنَّها جاءت لشفاء الأمير.

طلب الملك أن تَمْثُلَ بين يديه، وتعجَّب لرؤية فتاةٍ تَعِدُ بما لم يتمكَّن من تحقيقه أفضل أطبَّاء مملكته؛ ولأنَّه لا ضير في المحاولة، قال لها إنَّه ينتظر بفارغ الصَّبر أن يرى التَّجربة. ولكنَّ غرانُّونيا ردَّت قائلةً: «أريدُ، إنْ أنا أريتكم الأثر الذي تتوقون إلى رؤيته، أن تعدوني بأنَّكم ستعطونني الأميرَ زوجاً». فأجاب الملك الذي كان يعدُّ الأمير في عِداد الأموات: «أعطيني إيَّاه حرَّاً معافىً، أُعْطِكِ إيَّاه حرَّاً معافىً، فليس بالأمر الكبير أن أعطي زوجاً لمن تعطيني ابناً».

وهكذا، ذهبا إلى غرفة الأمير، وما إن دهنَتْ غرانُّونيا جراحَه بذلك المزيج من الدِّماء حتى نهض معتدلاً كما لو أنَّه لم يُصَبْ بأيٍّ أذى. وإذْ رأته الفتاة وقد عاد قويّاً ومفعمًا بالحياة، طلبت من الملك أن يُتِمَّ وعدَه.

التفت الملك إلى ابنه وقال: «أيْ بنيَّ، لقد رأيتك ميِّتاً والآنَ أراك حيّاً، وما زلتُ لا أصدِّق عينيَّ! ولكنَّني وعدت هذه الفتاة أنَّها، إذا شفتك، اتَّخذتك زوجاً لها: وها قد أنعمت عليكَ السَّماء، فدعني أُتِمُّ وعدي، بحقِّ ما تكنُّه لي من حبٍّ، لأنَّ العرفان بالجميل يقتضي دفع هذا الدَّين».

فأجاب الأمير: «يا مولاي، وددتُ لو أنَّني حرٌّ في رغباتي لأرضيكَ إرضاءً يساوي الحُبَّ الذي أكنُّه لك، ولكنَّني مرتبطٌ بعهدٍ مع فتاةٍ أخرى، فلا أنتم ستسمحون لي أن أنقض العهد، ولا هذه الشَّابَّة ستنصحني بأن أخطئ في حقِّ مَن أُحِبُّ، ولا أنا يمكنني أن أغيِّر رأيي».

حين سمعت غرانُّونيا هذا الكلام، شعرَتْ بنشوةٍ عميقةٍ لا يمكن وصفها لأنَّها أيقنت أنَّها كانت لا تزال حيَّةً في ذاكرة الأمير. وبوجهٍ بلون القِرْمِز بدأت تسأله: «وإنْ وجدتُ طريقةً أجعل بها هذه الفتاة، محبوبتك، سعيدةً بانتصاري عليها، ألا تنحني حينئذٍ لرغباتي؟». «لن يحدث هذا أبداً – صرخ الأمير، – لن يحدث أبداً أن أنزع صورةَ حبيبتي الجميلةَ من صدري! وسواءٌ عليَّ أجعلَتْ من حبِّي لها مربىًّ أم أعطتني بهِ شربةً من السَّنامَكيِّ[1]، ما أنا بتاركٍ هذه الرَّغبة ولا هذا الرَّأي؛ وحتى إن وجدتُ نفسي مرَّةً أخرى مهدَّداً بخسارة اللُّعبة على طاولة الحياة، لن أقوم أبداً بهذه الخدعة ولا بهذه المقايضة».

حينئذٍ، إذْ لم تعد قادرةً على البقاء أكثر في أغلال التَّظاهُر، كشفت له غرانُّونيا كلَّ شيءٍ، ذلك أنَّ غرفة المريض المظلمة، والنَّوافذ التي كانت

---

1) نباتٌ يُتَّخذ من أوراقه الجافَّة دواءً مُسْهِلاً؛ (المترجمان).

ما تزال موصَدةً، وتنكُّرَها، كلُّ ذلك لم يمكِّنه لأوَّل وهلةٍ من التَّعرُّف عليها. وعانقها الأميرُ على الفور ببهجةٍ كبيرةٍ، وأخبر أباه مَن تكون، وما فعلَ وكابدَ لأجلها. وهكذا، أرسلوا يستدعون ملكَ وملكةَ ستارتْسَالونْغا، وبمباركة الجميع احتفلا بزواجهما، مندهشَين أيما اندهاشٍ من فكرة الخدعة التي انطلت على الثَّعلب، ومستخلصَين في آخر الأمر أنَّ:

لذَّةَ الحبِّ لا تكتمل أبداً،

دون توابل الألم.

الدُّبَّة
المؤانسة السَّادسة من اليوم الثَّاني

يريد ملك روكَّاسْبرا[1] أن يتَّخذ ابنته زوجةً له، فتتحوَّل هذه، بفضل مكر امرأةٍ عجوزٍ، إلى دبَّةٍ وتهرب إلى الغابة. وهناك، تقع في يدَي أميرٍ خلال رحلة صيدٍ كان يقوم بها، ويحدث أن يراها في أحد الأيَّام في صورتها الطَّبيعيَّة في حديقة القصر، حيث كانت تمشِّط شعرها، فيقع في حُبِّها. وبعد أحداثٍ عديدةٍ، ينكشف أمرها ويتَّخذها الأميرُ زوجة.

جعلت قصَّةُ بوبا، في مجملها، النِّساءَ يُغرِقْنَ في الضَّحك؛ ولكن حين تطرَّقت إلى خبثهنَّ وقدرتهنَّ على خِداع حتى الثَّعلب، كادت تتفتَّق خواصرهنَّ من الضَّحك. والواقعُ أنَّ للنِّساء من ألوان المكْر عددَ فُتات اليَنَع[2]، ملتحمةً بالمئات في كلِّ شعرةٍ من شَعر رؤوسهنَّ: فالخديعة أمُّهنَّ، والمكيدةُ مرضعتهنَّ، والمُداجاةُ معلِّمتهنَّ، والرِّياء مستشارهنَّ، والخَتْلُ رفيق دروبهنَّ، فهنَّ ينسجن ويُلبسن الرِّجال على هواهنَّ. ولكن، في هذه الأثناء، كانت أنطونيلاَّ على أهبةِ الكلام، وبعد أن بدا الأمرُ وكأنَّها تتقلَّب على الجمر وهي تقلِّب أفكارها، بدأت قائلةً:

لقد أحسن القول ذلك الحكيم حين قال إنَّه لا يمكن لأوامر المَرارة أن تُطاعَ بحلاوة السُّكَّر. يجب على المرء أن يعطي أوامرَ بالقياس الصَّحيح

1) تعني حرفيّاً "الصَّخرة الوعرة"؛ (المترجمان).

2) ضربٌ من العقيق يختلف لونه من أحمرَ مُدَمًّى إلى أحمرَ ضاربٍ إلى صُفرةٍ؛ (المترجمان).

ليحصل على طاعةٍ بالوزن الصَّحيح؛ فمن الأوامر غير اللاَّئقة ينشأ الخروج على الطَّاعات، كما حدث بالضَّبط مع ملك روكَّاسْبرا الذي، بطلبه من ابنته ما هو غير لائقٍ، دفعها إلى الفرار منه، مُخاطِرةً بفقدان شرفها وحياتها.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، ملكٌ من روكَّاسْبرا لديه زوجةٌ هي أمُّ الجمال بذاته، ولكنَّه سرعان ما فقدها، لأنَّها، حين كانت في ريعان شبابها، سقطَتْ عن حصان العافية وكسرَتْ عُوْدَ حياتها. وقبل أن تنطفئ شمعة حياتها في مزادِ السِّنين[1]، نادت زوجها وهي تُحتَضَر وقالت له: «أعلمُ أنَّك أحببتني من صميم قلبك، فأرِني إذاً، بعد أن بلغتُ قعرَ حياتي، ثُمالةَ حُبِّك، وعدني بألَّا تتزوَّج أبداً إن لم تعثر على امرأةٍ لها من الجَمال ما كان لي، وإلَّا تركتُ لك لعنةً معصورةً بكلِّ زخم ثدييَّ، وسوف أحمل لك حقداً حتى وأنا في العالم الآخر».

حين سمع الملك، الذي كان يحبُّها بكلِّ جوارحه، رغبتَها الأخيرةَ، انفجر في البكاء وبقي فترةً طويلةً غير قادرٍ على النُّطق ولو بكلمةٍ واحدة. وأخيراً، قال لها وهو يكبح نشيجَه: "عسى أن أصابَ بسكتةٍ، إنْ أنا فكَّرتُ بزوجةٍ ثانية؛ عسى أن أصاب بحربةٍ كتالونيَّة، عسى أن أعامَلَ مثل ستاراتْشهْ![2] لا تفكِّري البتَّة في ذلك، يا نعمتي، لا تتوهَّمي أبداً أنَّ من الممكن أن أقع في حُبِّ امرأةٍ أخرى. لقد كنتِ أوَّل امرأةٍ تتوشَّحُ بوشاحِ عاطفتي، وسوف تكونين آخر امرأةٍ تأخذ معها خِرَقَ رغباتي الأخيرةَ!". وبينما كان يقول هذه الكلمات، إذا بعينَي الشَّابَّة المسكينة، التي كانت تعاني حشرجةَ الموت، تنقلبان في محجريهما وبساقيها تتمدَّدان إلى الأبد.

1) كانت يُحافَظ على الشُّموع مضاءةً في المزادات العلنيَّة؛ (كروتْشِه).

2) كانت ذكرى ممثِّل الشَّعب جوفانِّي فينتشنْتزو ستاراتْشهْ ما تزال حيَّةً في أذهان سكان نابولي في أثناء المجاعة التي حلَّت بالمدينة سنةَ 1585، حيثُ قام الأهالي، بسبب إشاعةٍ مغرضةٍ تقول إنَّه اقترح على الملك تخفيض وزن الخبز ورفع سعره، بانتشاله من دير «سانتا ماريا لَا نُووفا» وقتله بطريقةٍ وحشيَّةٍ أصبحت مضرب الأمثال؛ (المترجمان).

وإذْ رأى الملكُ ثغرَ باتريا سالكاً[1]، سلَّكَ قناتيَ عينيه بصيحاتٍ ولطماتٍ جعلت البلاط بأكمله يهرع إليه، منادياً بأعلى صوته باسم تلك الرُّوح الطَّيِّبة، وشاتماً القدَرَ الذي سلبه إيَّاها، وناتفاً شعر ذقنه، ومُنْحِياً باللَّائمة على النُّجوم التي أنزلَتْ به ذلك الخطب الجلل. ولكنَّه فعل كما يقول المثل: "ألمان يؤلمان كثيراً ويدومان قليلاً، ألمُ الكوع وألمُ فراق الزَّوجة"، وكما يقول المثل الآخر: "اثنتان، واحدةٌ في القبر وأخرى على الفخذ"[2]؛ ولم يكن اللَّيل قد خرج بعد إلى ساحة حرب السَّماء ليتفقَّد الخفافيش، حتى بدأ يحسب على أصابع يديه: "ها قد فقدتُ زوجتي وبقيتُ أرملَ وحزيناً دون أيِّ أملٍ سوى الابنة البائسة التي تركتها لي. لذلك لا بدَّ لي من العثور على امرأةٍ تُنجب لي ولداً ذكراً. ولكن أين أيمِّم وجهي؟ أين أجد امرأةً تضاهي بجمالها جمالَ زوجتي إذا كانت كلُّ واحدةٍ منهنَّ تبدو عجوزاً شمطاء بالمقارنة معها؟ هذه هي معضلتك! كيف ستعثر على أخرى في كومة قشٍّ؟ هل ستبحث عن أخرى بالجرس، إذا كان الله نفسُه قد خلق نارديلَّا (فلترقد روحها في سلامٍ)، ثمَّ كسر القالب؟ واحسرتاه، في أيَّة متاهةٍ، في أيَّة معصرةٍ حجريَّة وضعني الوعدُ الذي قطعتُه لها؟! ولكن ماذا أقول؟ أنا لم أر الذِّئبَ بعد وأراني أطلقتُ ساقيَّ للرِّيح: فلنبحث أوَّلاً، فلنرَ ولنسمع! هل من المعقول أنَّه ليس ثمَّة أتانٌ أخرى في الإسطبل سوى نارديلَّا؟ هل من المعقول أنَّها تريد أن تسودَّ الدُّنيا في عينيَّ؟ هل من المعقول أنَّ طاعوناً وقعَ وأفنى النِّساء؟ أو أنَّ بذورهنَّ قد انقرضت؟".

ومع هذه الخواطر، أوعز على الفور في إصدار إشهارٍ وإلزامٍ من قبل المعلِّم كيومينتو[3]: أنَّ على جميع نساء العالَم الجميلات أن يأتين إلى

1) تعبيرٌ مجازيٌّ: كان ثغرُ بحيرة باتريا، قرب نابولي، يُفتح في شهر تشرين الثَّاني/ نوفمبر ويُسمَح لصيَّادي الطُّيور والأسماك بالصَّيد، بينما كان الصَّيد ممنوعاً في بقيَّة شهور السَّنة؛ (المترجمان).

2) أي بالقرب منه؛ (كروتشه).

3) أي النِّداء الذي يبدأ بـ «لقد أوصى المعلِّم كيومينتو» (وكيومينتو اسمٌ يمكن أن يُطلَق على أيِّ حرفيٍّ)، وهي طريقةٌ ساخرةٌ كان يُستَهَلُّ بها النِّداء؛ (المترجمان).

محكِّ الجمال، لأنَّه يريد أن يتَّخذ أجملهنَّ زوجةً له، وسيكون مهرُها مملكة. ولأنَّ النِّداء بلغ كلَّ مكانٍ، لم تبق أنثى في بقعةٍ من بقاع الأرض إلَّا وجاءت تجرِّب حظَّها؛ لم تبق حيزبونٌ، مهما كانت قبيحةً، إلَّا وتقدَّمت، لأنَّه، حين يُمَسُّ وترُ الجمال، لا توجد شمطاء يمكن أن ترضى بالهزيمة، ولا غولةٌ بحريَّةٌ يمكن أن تستسلم: كلُّ واحدةٍ تشمخ بأنفها، كلُّ واحدة تعتقد أنَّها الأجمل، وإذا أظهرَتْ لها المرآةُ الحقيقةَ، أنَحتْ باللَّائمةِ على الزُّجاج الذي لا يعكس الصُّورة كما هي في الواقع، وعلى طبقة الزِّئبق التي لم تُطلَ بشكلٍ جيِّدٍ.

وحين امتلأت المملكة عن بكرة أبيها بالنِّساء، أمرهنَّ الملكُ بالاصطفاف وأخذ يستعرضهنَّ كما يفعل التركيُّ العظيم حين يَدخُل الحريمَ بغيةَ انتقاء أفضل حَجَرٍ جنَوِيٍّ لشحذ سيفه الدِّمشقيِّ. وإذْ راح يمشي جيئةً وذهاباً، صعوداً ونزولاً، مثل قردٍ لا يهدأ أبداً، محدِّقاً ومتفحِّصاً تارةً هذه وتارةً تلك، بدت له هذه معْوَجَّةَ الجبين، وتلك طويلة الأنف، والأخرى واسعةَ الفم، وهذه كبيرةَ الشَّفتين، وتلك طويلةً جدَّاً، والأخرى ضئيلةً وسيِّئة القوام، وهذه بدينةً جدَّاً، وتلك نحيفةً جدَّاً، والإسبانيَّة لم تعجبه للونها الشَّاحب، والنَّابوليتانيَّة لم تناسب مزاجه بسبب العكَّاز الذي تستعين به للمشي[1]، والألمانيَّة بدت له باردةً ككتلةٍ من الجليد، والفرنسيَّة غليظةَ الذِّهن، والفينيسيَّة مغزلَ كتَّانٍ، بشعرها الضَّارب جدَّاً إلى البياض. وفي النِّهاية، صرفهنَّ جميعاً، هذه لهذا السَّبب وتلك لآخر، وعاد خاوي الوفاض.

ولأنَّ وجوهاً كثيرةً مليحةً لم تَرُقْهُ، ولأنَّه كان مصمِّماً مهما يكن الأمر على خنق نفسه[2]، انتهى به الأمر إلى اللُّجوء إلى ابنته، مفكِّراً: "لماذا أبحث عن ماريَّا في رافينَّا[3] إنْ كانت ابنتي برِتْسيُوزا قد سُكَّت في قالب

1) في إشارةٍ إلى كعوب الأحذية العالية التي كانت نساء وفتيات نابولي يستعملنها آنذاك؛ (المترجمان).

2) أي على اتِّخاذ زوجة؛ (كروتْشِه).

3) تعبيرٌ إيطاليٌّ يقصد به البحث عن غرضٍ ما بلا جدوى، أو في المكان غير المناسب؛ (كروتْشِه).

الأمِّ نفسِه؟ أأملك هذا المحيَّا الجميل في بيتي، وأركض لأبحث عنه في أصقاع العالم؟!". وألمحَ إلى ابنته بما كان يفكِّر فيه، فانفجرتْ في وجهه مقرِّعةً وزاجرةً بكلماتٍ فلتنقلها لكم السَّماء عوضاً عنِّي. ولكنَّه ردَّ بغضب: "اخفضي صوتك واحشري لسانك في مؤخِّرتك، واحسمي اللَّيلةَ أمرَ هذا القران: وإلَّا كانت أكبر قطعةٍ منكِ الأذُن!".

بعد أن سمعَتْ برِتْسيُوزا قرارَ أبيها، انسحبت إلى غرفتها تشكو سوء حظِّها، ولم تترك خصلةً من شعرها سليمةً. وبينما هي مستمرَّةٌ في تأوُّهاتها المحزنة، مرَّتْ بباب غرفتها امرأةٌ عجوزٌ اعتادَتْ أن تحمل إليها مساحيقَ التَّجميل، وإذْ وجدتها أقرب إلى العالم الآخر منها إلى هذا العالم، واستمعَتْ إلى علَّةِ شكواها، واسَتْها قائلةً: "تماسكي يا بُنيَّتي ولا تيأسي، فلكلِّ داءٍ دواءٌ إلَّا الموت. والآن، أصغي إليَّ جيِّداً: حين يحلُّ اللَّيلُ ويأتي أبوكِ ليقوم بدور فحل الحصان، مع أنَّه أقرب إلى الحمار، ضعي في فمك هذا الغُصَيْن، فتصبحين في الحال دبَّةً وتهربين، لأنَّ الخوف الذي سيحلُّ به سيجعله يتركك تهربين. حينئذ، اذهبي مباشرةً إلى الغابة حيث تحتفظُ لكِ السَّماء بحظوظٍ طيِّبة. وكلَّما أردتِ أن تظهري بمظهر امرأةٍ، انزعي الغُصَيْن من فمك فتعودين إلى شكلك السَّابق".

شكرت برِتْسيُوزا المرأةَ العجوزَ وباركتها، ثمَّ أمرَتْ لها بسعةِ مئزرين من الطَّحين وبشريحتين من اللَّحم المقدَّد وشحم الخنزير. وحين بدأت الشَّمسُ، مثل عاهرةٍ خائبةٍ[1]، بتغيير حيِّها، أمر الملكُ باستدعاء الموسيقيِّين وأقام وليمةً كبيرةً لكلِّ السَّادة النُّبلاء. وبعد خمس أو ستِّ ساعاتٍ من الكاتوبًّا[2]، جلس الضُّيوف إلى المائدة وأفرطوا في الأكل؛ ثمَّ انسحب الملك ليذهب وينام، طالباً من العروس أن تأتيه بالسِّجلِّ لتسوية الحسابات الغراميَّة. ولكن، ما إنْ مثلَتْ برِتْسيُوزا بين يديه حتى وضعت

---

1) أي التي تنتقل إلى حيٍّ آخر بعد أن ملَّ الزَّبائن منها؛ (كروتشه).

2) رقصةٌ شائعةٌ آنذاك؛ (المترجمان).

الغُصَيْن في فمها، فاتَّخذت في الحال شكل دبَّةٍ مخيفةٍ واتَّجهت نحوه مهدِّدةً. فما كان من الملك، وقد ارتعدَتْ فرائصُه أمام هذه المعجزة، إلَّا أن اختبأ بين المراتب التي لم يُخرج منها رأسه حتى في الصَّباح.

في هذه الأثناء، خرجت برِتْسيُوزا من القصر وانطلقت صوبَ غابةٍ كانت الظِّلالُ فيها تتآمر فيما بينها لترى إن كان بمستطاعها، إبَّانَ الغلَس، أن تحقِّرَ الشَّمس. وبقيت في الغابة تتبادل عَذْبَ الأحاديث مع الحيوانات الأخرى، إلى أن أتى ابنُ ملك أكواكورِّينتهْ[1] ليصطادَ في تلك البقاع. وكاد هذا الأخير، حين وجد نفسه وجهاً لوجهٍ مع هذه الدُّبَّة، أن يموت من الخوف. ولكن فيما بعد، حين رأى الحيوانَ يدور حوله ويهزُّ ذيله مثل جروةٍ صغيرةٍ، تنفَّس الصُّعداء. ومستجيباً لمداعباتها، ومكلِّماً إيَّاها، قائلاً: "بيْتْ-بيْتْ، نوْ-نوْ، توْ-توْ، دبُّوب-يا دبُّوبة، حبُّوب-يا حبُّوبة، أنا طيِّب وأنتِ طيُّوبة"، استدرجَها وراءه إلى المنزل؛ وهناك أمرهم أن يعاملوها كما يعاملونه شخصيَّاً وأن يضعوها في حديقةٍ بجوار القصر الملكيِّ لكي يتسنَّى له النَّظرُ إليها من النَّافذة كلَّما أراد ذلك.

والآن، حدثَ ذاتَ يومٍ، حين خرج أهل البيت جميعاً من المنزل وتركوه بمفرده، أن أطلَّ من النَّافذة ليلقي نظرةً على الدُّبَّة. وبدلاً من رؤيةِ الدُّبَّة، رأى برِتْسيُوزا التي كانت قد نزعت الغُصَيْن من فمها لترتِّب شعرَها وتمشِّط جدائلها الذَّهبيَّة. ذَهلَ الأميرُ لمرأى ذلك الجمال الخارق، وهبط الأدراجَ بأقصى سرعةٍ راكضاً نحو الحديقة. ولكنَّ برِتْسيُوزا، إذْ أحسَّت الخطر، حشرت الغُصَين بسرعةٍ في فمها وعادت كما كانت من قبل.

وحين دخلَ الأمير الحديقة ولم يجد ما كان قد رآه من فوق، تجمَّدَ في مكانه مُحبَطاً، لدرجة أنَّه وقعَ في حزنٍ كبيرٍ وبقي أربعة أيَّامٍ مريضاً، وكان ينادي باستمرارٍ: "يا دبَّتي، يا دبَّتي!". فظنَّت الأمُّ، حين سمعت

1) تعني حرفيَّاً: المياه الجارية؛ (المترجمان).

هذا النُّواح، أنَّ الدُّبَّةَ قد سحرته، فأمرت بقتلها. ولكنَّ الخدم الذين كانوا جميعاً مولعين بألفة ذلك الحيوان، الذي كان يجعل حتى حجارة الطَّريق تحبُّه، أشفقوا عليه واقتادوه إلى الغابة، ثم أخبروا الملكة بأنَّهم أردوه قتيلاً.

حين بلغَ الخبرُ سَمْعَ الأمير، انتابه غضبٌ لا يوصف؛ وما إن انتزع نفسَه من الفراش، وهو لا يزال مريضاً، حتى توجَّه إلى الخدم يريدُ أن يصنع منهم لحماً مُدَخَّناً. ولكن، بعد أن تبيَّنت له الأمور، امتطى حصانه وهو في حالةٍ يُرثى لها، وبحث عنها طويلاً إلى أن وجدها وأعادها إلى البيت. وهنا، وضعها في غرفةٍ وبدأ يتوسَّل إليها لاهثاً: "أوه أيَّتها اللُّقمة التي تليق بملكٍ، أنتِ المتحصِّنة في هذا الجلد! يا شمعة الحُبِّ، يا مَن تتحصَّنين في هذا الفانوس المُشعِر! ما بُغْيَتُكِ من هذه الألعاب؟ أنْ ترينني أتألَّم وأبلى رويداً رويداً؟ إنَّني أموت جوعاً وشوقاً إلى هذا الجمال وأهذي به، وأنت ترين الدَّليل رَأيَ العين، فقد تقلَّصَ جسمي إلى الثُّلث كالنَّبيذ المطبوخ، ولم أعد سوى جلدٍ وعظامٍ، لأنَّ الحمَّى خيطت بخيطٍ مزدوجٍ إلى عروقي! لذا، اخلعي عنكِ ستارَ هذا الإهاب الخشن ودعيني أرى مفاتن جمالك! ارفعي، ارفعي الأغصانَ عن هذه السَّلَّة ودعيني ألقي نظرةً على فاكهتكِ اليانعة! ارفعي هذه السِّتارةَ عن بابك ودعي عينيَّ تدخلان لتتأمَّلا عجائبَ فتنتِك! مَن الذي حبسَ في سجنٍ منسوجٍ من الشَّعر تحفةً بمثل هذه النُّعومة؟ مَن الذي حبسَ في صندوقٍ من الجلد هذا الكنز الثَّمين؟ دعيني أرى وحشَ الجمالِ هذا ولتأخذي بالمقابل كلَّ رغباتي، فوحدها دهون هذه الدُّبَّة يمكنها أن تعالجَ تلف الأعصاب الذي أصابني!".

ولكن، بعد أن أعاد قولَ تلك الأشياء مراراً وتكراراً، وبعد أن أدرك أنَّه كان يُلقي كلماته سُدَىً، عاد وارتمى على السَّرير، وزاده يأساً أنَّ الأطبَّاء قدَّموا تشخيصاً سيِّئاً لحالته. حينئذٍ، جلست الأمُّ، التي لم يكن لديها في العالم نعمةٌ سواه، على حافَّة سريره وقالت له: "أيْ بنيَّ، ما مَبْعَثُ حزنك

هذا؟ أيُّ مزاجٍ كئيبٍ ألمَّ بك؟ أنت شابٌّ ومحبوبٌ وعظيمُ المكانةِ وثريٌّ: ماذا ينقصك، يا بنيَّ؟ تكلَّم: إن كان المتسوِّلُ خجولاً، بقيَ جرابه فارغاً. إن كنتَ تريد زوجةً، فما عليك سوى أن تختارَ وسأتكفَّل أنا بالمُقَدَّم. ألا ترى أنَّ ألمك ألمي؟ أنتَ معصمك ينبض، وأنا قلبي يخفق؛ أنتَ الحمَّى في دمك، وأنا داء النُّقطة في دماغي، لأنِّي لا أملك عوناً لشيخوختي سواك، يا ولدي الغالي! لذلك، ابتهجْ ليبتهج قلبي، لئلَّا نرى هذه المملكةَ خراباً، لئلَّا يتقوَّض هذا البيت ويغتمَّ قلبُ هذه الأمِّ!".

فردَّ الأمير على كلمات أمِّه العذبة، قائلاً: "لا شيء يريحني إلَّا رؤية تلك الدُّبَّة، فإن كنتم ترغبون في رؤيتي مَشفيَّاً معافىً، دعوها تمكث معي في هذه الغرفة: ولا أريد أن يخدمني ويسوِّي سريري ويطهو لي أحدٌ سواها، لأنَّني، بهذه المسرَّةِ وحدها، سأتعافى في وقتٍ قصيرٍ".

ومع أنَّه بدا للأمِّ من البلاهة أن تقوم الدُّبَّةُ بعمل الطَّاهية والخادمة، ومع أنَّ الظُّنون خامرَتْها في أنَّ ابنها يهذي، مع هذا وذاك، ولكي ترضيه، أمرت بإحضار الدُّبَّة. اقتربت هذه الأخيرة من سرير الأمير، رفعت قائمتها ولمست معصم المرْيض، فدُهِشَت الملكة، وتملَّكها الخوفُ من أن تمزِّق أنفه في أيَّة لحظة. ولكنَّ الأمير تدخَّل قائلاً: يا دبدوبتي[1]، ألا تريدين أن تطبخي وتطعميني وتعتني بي؟"، وأومأت الدُّبَّةُ برأسها، مُظهرةً أنَّها وافقت على طلبه. عندئذٍ، أمرت الأمُّ بإحضار زوجٍ من الدَّجاج، وجعلتهم يشعلون موقداً صغيراً في الغرفة نفسها، ويضعون فوقه قِدْراً من الماء ليغلي.

أمسكت الدُّبَّةُ إحدى الدَّجاجتين، وألقت بها في الماء المغليِّ، ثمَّ نتفت ريشها ببراعةٍ، وبعد أن نزعت أحشاءها، غرزت السِّيخ في قسمٍ منها، أمَّا القسم الآخر فحمَّرته في المقلاة بعد أن مرَّغته بالخبز والجبن

1) في الأصل «كيابِّينو Chiappino»، وهو اسم يمنح للدِّببة؛ (المترجمان).

المبروش، لدرجة أنَّ الأمير، الذي كان من قبل غير قادرٍ على ابتلاع حتى الماء المحلَّى بالسُّكَّر، لعق أصابعه. وبعد أن أنهى طعامه، قدَّمت له الدُّبَّة الشَّراب بمنتهى اللُّطف لدرجة أنَّ الملكة أرادت تقبيلها من جبينها. وبعد أن أتمَّت مهمَّتها، وحين غادر الأمير سريره ليضع على المحكِّ حُكْمَ الأطبَّاء[1]، سوَّت الدُّبَّةُ السرِّير، ثمَّ هرعت إلى الحديقة، وجمعت باقةً كبيرةً من الورد ومن أزهار الكبَّاد ونثرتها عليه، حتى إنَّ الملكة قالت إنَّ هذه الدُّبَّة تساوي كنزاً وإنَّ ابنها كان لديه قنطارٌ من الأسباب لكي يحبَّها.

وعند رؤيته هذا الحنان الكبيرَ منها، ازدادتْ نارُ الأمير حطباً، وإن كان من قبلُ يذوب درهماً درهماً، فإنَّه الآن يهلك قنطاراً قنطاراً، لدرجة أنَّه توسَّل إلى الملكة قائلاً: "أيْ أمَّاه، أيْ سيِّدتي، إذا لم أقبِّل هذه الدُّبَّة، فإنَّ روحي ستفرُّ من صدري!". فالتفتت الملكةُ، إذْ رأته على وشك أن يُغمَى عليه، إلى الدُّبَّة قائلةً: "قبِّليه، قبِّليه أيَّتها المخلوقة الجميلة، لا تتركي ابني المسكين يموتُ صبابةً إليكِ!".

اقتربت الدُّبَّة منه، فأمسكها الأمير من خدَّيها، ولم يشبع من تقبيلها. وبينما كانا واقفَين والخطمُ على الخطمِ، لا أعرف كيف سقط الغُصَينْ من فم برِتْسيُوزا تاركاً بين ذراعي الأمير أجملَ مخلوقةٍ بشريَّةٍ في العالم. فما كان من الأمير، بينما كان يضمُّها بكُلَّابيَ ذراعيه الوالهَين، إلَّا أن صرخ: "لقد وقعتِ في الفخِّ، أيَّتها القبَّرة، ولن تهربي منِّي بعد الآن بلا عذرٍ مقبولٍ!". فأجابت برِتْسيُوزا وهي تنثر لونَ الحياء على لوحة الجمال الفطريِّ: "أنا بين يديك بالفعل؛ أوصيك أوَّلاً بشرفي، ثمَّ لك أن تفرمني وتزِنَني وتصيِّرني أيَّ شيءٍ تشاء!".

أخذت الملكةُ الكلمةَ، واستجوبت الشَّابَّةَ الجميلةَ لتعرف من هي وما

---

1) أي أن يتبوَّل؛ (كروتشِه).

الذي أرغمها على مثل هذه الحياة البرِّيَّة، فروت برِتْسيُوزا لها قصَّة سوء طالعها بالتَّفصيل، فأشادت الملكة بطيبة وعفَّة الفتاة وقالت للأمير أن يرضى بها زوجة. وفي الحال، أعطاها الأميرُ، الذي لم يكن يريد أيَّ شيءٍ آخر من الحياة، عهدَ ميثاقِ الزَّواج. وبعد أن باركت الأمُّ الزَّوجين، أمرت أن تُقامَ لأجل هذا القران الرَّائع الأفراحُ وتشعشِعَ الأضواء. وهكذا، أصبحت برِتْسيُوزا في ميزان حُكم البشر معياراً للمثل السَّائر:

من يفعل خيراً، خيراً يَلْقَ.

الحمامة
المؤانسة السّابعة من اليوم الثّاني

يكابدُ أحد الأمراء، بسبب لعنةٍ ألقتها عليه امرأةٌ عجوزٌ، مشاقّ كبيرةً، تُضَافُ إليها مشاقٌّ أخرى من لعنةٍ ألقتها عليه إحدى الغولات، ولكن في النِّهاية، بفضل حنكة ابنة الغولة، يتغلَّب على جميع الأخطار ويتزوَّج من هذه الفتاة.

حين وصلَتْ حكاية أنطونيلَّا إلى خاتمتها، وامتدحها المستمعون بصوتٍ عالٍ لجمالها وظرافتها، ولكونها مثالاً رائعاً للفتيات اللَّواتي يَغَرْنَ على شرفهنَّ، بدأت تشولَّا، وقد حلَّ دورُها الآن لمواصلة القَصِّ، بالكلام على هذا النَّحو:

من يولد أميراً عليه ألَّا يتصرَّف تصرُّفَ الأرذال. الرجل العظيم يجب ألَّا يكون مثالاً سيِّئاً لمن هم أقلُّ شأناً منه: فمن الحمار الكبير يتعلَّم أكل التِّبن الحمارُ الصَّغير. بخلاف ذلك، لن يكون مستغرباً أن ترسل السَّماءُ روابِ من المتاعب، كما حدث لأميرٍ حين لم يعرف كيف يكبح ضِيْقَ خُلُقه[1]، فأساء إلى امرأةٍ مسنَّةٍ، وأوشك بسبب ذلك أن يفقد حياته بطريقةٍ مُفجِعةٍ.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزّمان، وسالف العصر والأوان، غابةٌ من التِّين والحَوْر على مَبْعَدَةِ ثمانية أميالٍ من نابولي، باتِّجاه أستروني، تصطدمُ بها أشعَّة الشَّمس دون أن تتمكّن من اختراقها. هناك، في كوخٍ

---

1) في الأصل "happe li cruosche"، أي لديه تلك الدِّيدان التي تتكاثر في أمعاء الخيول وتجعلها تهيج، وأحياناً لا يمكن السِّيطرة عليها؛ (كروتْشِه).

شبه متهدِّمٍ، عاشت عجوزٌ خاويةٌ من الأسنان بقدر ما هي مُتخَمةٌ بالسِّنين، عاليةُ الحدبةِ بقدر ما حظُّها في الحضيض. كان لديها مائةُ تجعيدةٍ في وجهها، وبلا أيِّ تثنيةٍ كان كيسُ نقودها؛ رأسُها مثقَلٌ تماماً بالفضَّةِ[1]، ولا تملك منها كارلينةً[2] واحدةً تمنح بها نفسَها شيئاً من راحة البال. حتى إنَّها كانت تتردَّد إلى مخازن التِّبن في الجوار متسوِّلةً بعض الصَّدقات التي يمكن أن تعينها في البقاء على قيد الحياة.

ولكن، لمَّا كان من السُّهولة بمكانٍ، في أيَّامنا هذه، إعطاءُ واشٍ حقيرٍ وشَرهٍ كيساً من اللِّيرات، ولا يُعطى الفقير المحتاجُ قرشاً واحداً، كان على العجوز البائسة أن تكافح طوالَ وقت دِراسة الحبوب لتجمع قصعةً من الفاصولياء في موسمٍ فاضت فيه الغِلال في تلك البقاع، بحيثُ كانت قليلةً البيوت التي لم تكنز أكواماً منها. ولذلك، بعد أن حملت إلى البيت تلك الحفنة من الفاصولياء؛ نقَّتها وصبَّتها في إناءٍ؛ ثمَّ وضعت الإناء على الحافَّة الخارجيَّةِ للنَّافذة، وخرجت مجدَّداً تبحث عن بعض الأعشاب لطبخها. يُقال عادةً: «المرجلُ القديمُ إمَّا منبعجٌ وإمَّا مثقوبٌ»، وكذلك: «يرسلُ الرَّبُّ الذُّبابَ على الحصان الهزيل»، وأيضاً: «إنَّما الفأسُ للشَّجرة السَّاقطة». وحدث في تلك الأثناء أن مرَّ من هناك ابنُ الملك، ناردانْييلُّو، الذي كان في طريقه إلى الصَّيد؛ ولدى رؤيته الإناءَ على النَّافذة، استولت عليه الرَّغبة في أن يقوم برميةٍ صائبةٍ وأن يجرِّب مع أتباعه، مستهدفاً الإناءَ مباشرةً، من منهم باستطاعته أن يصيبه بحَجَرٍ في منتصفه؛ وبالفعل، بدأوا يستهدفونه، وبعد ثلاث أو أربع رمياتٍ، أصاب الأمير الهدفَ محوِّلاً إيَّاه إلى شظايا.

في تلك اللَّحظة وصلت العجوز، وإذْ رأت تلك المصيبة المريرة،

1) أي مشتعلٌ شيباً؛ (المترجمان).

2) الكارلينةُ تساوي 120 كال؛ (كروتشه).

اشتعلَتْ غضباً وهي تصرخ: «هيَّا، قُلْ لتيسِ فوجًّا الذي نطحَ هذا الإناءَ بقرنيه أن يستعرض عضلاته ويمشي في الأرض مَرَحاً! لقد شقَّ ابنُ السَّاحرةِ، ذاك، حفرةً لجسده! ذاك الخسيسُ الوغدُ الذي بذر حبَّاتي الفاصولياءَ خارج موسمها! ومع ذلك، إن لم يكن لديه ذرَّةُ شفقةٍ تجاه بؤسي هذا، لكان عليه أن يمتلك شيئاً منها لأجل مصلحته، وألَّا يرمي أسلحة منزله على الأرض، وألَّا يدع الأشياء التي توضَع على الرَّأس تسقط تحت الأقدام. ولكن فليذهب، أدعو الله بركبتين مكشوفتين ومن حشا فؤادي أن يقع في حبِّ ابنة الغولة، وأن تسلقه وتطهوه بأسوأ ما يمكن: أن تضربه حماته ضرباً مبرِّحاً فيُشاهِد نفسه حيّاً وهو يبكي موتَه الوشيك، وألَّا يتمكَّن أبداً، وهو أسيرُ جمال الابنة وسحرِ الأمِّ، من حزم أمتعته[1]، بل يبقى، حتى وهو يتمزَّق إرباً، خاضعاً لأفانين العذاب التي تُنْزِلُها به تلك الشَّمطاء، وأن تأمره بخدمتها بالعصا، وأن تعطيه الخبز بالقوس والنُّشَّاب، وأن يتحسَّر أكثر من مرَّةٍ على حبَّات الفاصولياء التي نثرها على الأرض».

نبَتَتْ للعناتِ هذه العجوز أجنحةٌ وصعدت حالاً إلى السَّماء، حتى إنَّها هذه المرَّة، وعلى الرَّغم ممَّا يقال عادةً: «لعنات الأنثى، ازرعها في إسْتِكَ»، و«إنزال اللَّعنة بالحصان تجعل وبره يلمع»، أصابت الأميرَ بين عينيه مباشرةً، وكان على وشك أن يفقدَ إهابَه. فلم يكن قد مضى ساعتان، بعد أن ضلَّ طريقه في الغابة وأصبح بعيداً عن رجاله، حين التقى فتاةً بارعةَ الجمال كانت تجمع الحلزون وتغنِّي تسليةً لنفسها:

أخرِجْ، أخرِجْ قرنَيكَ،
وإلَّا حطَّمَتْهما أمُّكَ!
ستحطِّمهما على المصطبة،

1) أي من المغادرة؛ (كروتشِه).

ويكون لها ابنٌ ذكَرا[1]...

وإذْ رأى الأمير أمامه هذا الصَّندوقَ من أغلى أشياء الطَّبيعة، هذه الخزنةَ من أغنى ودائع السَّماء، هذه التَّرسانةَ من أقوى قِوَى إله الحُبِّ، أحسَّ برأسه يدور؛ وإذْ مرَّ من ذلك الوجه الكريستاليِّ المدوَّر شعاعا عيناها إلى طُعْمِ قلبه، التهب جسدُه كلُّه لدرجة أنَّه أصبح أتوناً تُطهَى فيه حجارةُ مراميه لتشييد بيت آماله.

وحتى فيلادورو نفسُها (كان هذا اسمَ تلك الفتاة) لم تُضِعْ وقتاً لأنَّ الأمير، لكونه شابّاً وسيماً، اخترق قلبَها في الحال وخرجَ منه إلى الجهة الأخرى، حتى إنَّ كلّاً منهما كان يطلب الرَّحمة من الآخر بعينيه، وبينما كان لساناهما يتلمَّظان رغبةً، كانت نظراتهما أبواقَ منادٍ تذيعُ أسرارَ الرُّوح.

بقيا هكذا وقتاً طويلاً متجمِّدَين في مكانهما، وقد جفَّ حلقاهما بحيث لم يقدرا على إمرار كلمةٍ لعينةٍ واحدةٍ منهما؛ وأخيراً، سلَّكَ الأميرُ مجرى الصَّوت وبدأ يقول: "مِنْ أيِّ مرجٍ تفتَّقَتْ زهرةُ الجمالِ هذه؟ مِنْ أيِّ سماءٍ هطلَ ندى النِّعمة هذا؟ مِنْ أيِّ منجمٍ جاءَ كنزُ الرَّوائع هذا؟ آه كم أنتِ محظوظةٌ أيَّتها الغابات والأحراج التي يسكنها هذا البهاءُ المُظفَّر، ويُضيئها هذا النُّورُ الهاربُ من أنوار أعيادِ الحُبِّ، آه أيَّتها الغابات والأحراج التي لا تُقطَع فيها مقابض المكانس، ولا عوارض المشانق، ولا أغطية أواني اللَّيل، بل أبوابُ معابد الجمال فحسب، وعوارضُ بيوتِ النِّعَم، وعيدانُ سِهام الحُبِّ!".

" أخفض نبرتَك يا فارسي! – أجابت فيلادورو، – إنَّك بالغ اللُّطف! من فضائلك، وليس من أحاسني، تتشكَّل شاهدةُ الثَّناء التي منحتني إيَّاها: أنا امرأةٌ تعرفُ كيف تقيسُ نفسَها، ولا أريدُ أن يستخدمني الآخرون كنصف قصبة. ولكن، أيّاً ما أكون، جميلةً أو قبيحةً، سوداء أو بيضاء، نحيفةً

1) أغنيَّةٌ كان يغنِّيها الأطفال لجعل الحلزون تُخرِج قرنيها؛ (المترجمان).

أو بدينةً، رشيقةً أو ثقيلةً، سمكةَ قُشْرٍ أو حوريَّةَ بحرٍ، دميةً أو عنزةً، أنا طَوْعُ يديكَ؛ لأنَّ هذا القدَّ الذي لأوسم الرِّجال قطَّع قلبي إلى شرائح، وهذا المحيَّا الجميل الذي لكونْتٍ اخترقني من جهةٍ إلى الأخرى؛ فأنا أُسْلِمُ نفسي إليك، أمَةً مقيَّدةً بالسَّلاسل، من الآن وإلى الأبد".

كانت كلماتُها هذه صوتَ بوقٍ ناداهُ أن "الكلُّ إلى المائدة!"، مائدةِ الملذَّاتِ الغراميَّةِ، أو بالأحرى، ناداهُ أنْ "هبُّوا على ظهور الخيل!" إلى معركة الحُبِّ. وحين رآها تمدُّ له من الودِّ إصبعاً، تلقَّفَ يدها كلَّها وقبَّلَ خُطَّافَ العاج الذي تصيَّدَ قلبَه. وإزاءَ هذه الحفاوة الأميريَّة، اكتسى وجهُ فيلادورو ملامحَ ماركيزةٍ، بل ملامحَ وجهٍ في لوحةِ رسَّامٍ تَرَى فيه مزيجاً من إسرنجِ الحياء وكرز الخوف وزِنْجار الأمل وزُنْجُفْر الرَّغبة.

كان نارداِنيْلُّو يودُّ الاستمرار في تلك المحادثة العذبة حين وُضِعَ حدٌّ لكلماته، لأنَّه، في هذه الحياة البشريَّة التعيسة، لا وجود لنبيذ الرِّضا من دون ثُفلِ الخيبة، ولا لمرقةِ السُّرور الدَّسمة من دون طُفاحةِ المصائب. فبينما كان في أفضل لحظات غبطته، برزَتْ فجأةً أمُّ فيلادورو، وكانت غولةً جعلَتِ الطَّبيعةُ منها نموذجاً لما ينبغي أن تكون عليه المسوخ. كان شعرها مثل مكنسةٍ من الصَّفَنْدَر، ليس لتنظيف المنازل من السُّخام وأنسجة العنكبوت، ولكن لتسويدِ وتسخيمِ القلوب؛ وكان جبينُها من حجر الشَّحْذِ لشحذ سكِّين الخوف التي تمزِّق الصُّدور؛ وكانت عيناها شهابَين يزرعان الرِّعشة في السِّيقان، والدِّيدانَ في القلوب، والصَّقيعَ في النُّفوس، والقلقَ في الأرواح، والإسهالَ في الأحشاء؛ لأنَّها كانت تحمل الرُّعب في وجهها، والخوف في نظرتها، والهزيمَ في خطواتها، والزُّحارَ في كلماتها؛ وكان الفمُ بأنيابٍ كأنيابِ الخنزير، واسعاً مثل فم سمكة القُشْر، معوجَّاً كأنَّما يكابدُ التَّشنُّجَ، وكان اللُّعابُ يسيل منه كما من فم بغلةٍ: باختصارٍ، كنتَ تَرَى، من رأسها إلى أخمص قدميها، قُطَارةً من القُبحِ، ومارستاناً من العاهات.

وبالطَّبع، إن كان الأميرُ لم يلفظ أنفاسَه الأخيرة أمام هذا المنظر، فلأنَّه

كان يحملُ قصَّةَ ماركو وفيوريلاّ[1] مخيوطةً بسترته. أمسكته الغولة من صدرته وقالت له: "ارفع يديك! قِفْ عندك! يا عصفور، يا عصفور، يا مقبض الحديد!"[2]. "اشهدوا عليَّ! – أجاب الأمير: – تراجعي، أيَّتها الخبيثة!". وأراد أن يستلَّ سيفه الذي كان بتَّارَ النَّصلِ. ولكنَّه تجمَّدَ مثل خروفٍ رأى ذئباً، ولم يعد بإمكانه لا أن يتحرَّك ولا أن يتنفَّس: لذلك، جُرَّ إلى منزل الغولة مثل حمارٍ يُجَرُّ من رسنه.

وبمجرَّد وصوله إلى هناك، حذَّرته الغولة قائلةً: "عليك أن تلهث مثل كلبٍ إنْ كنت لا تريد أن تموت مثل خنزير. وكخدمةٍ أولى، احرصْ على أن تنتهي من عزقِ وزراعةِ هذه القطعة من الأرض، الموجودة خارج هذه الغرفة، قبل نهاية النَّهار، وكن على يقينٍ من أنَّني، إن عدتُ هذا المساء ووجدتُ العمل غير منتهٍ، سوف أبتلعك!". وبعد أن أوصت ابنتها بالبقاء في البيت، ذهبت لتثرثر مع الغولاتِ الأخرى في الغابة.

شرعَ ناردانيْلُّو، إذْ رأى الأمرَ قد بلغَ بهِ هذا المبلغَ، في تبليلِ صدره بسيلٍ من الدُّموع، لاعناً حظَّه الذي جعله يخطو هذه الخطوة غير المحمودة. وكانت فيلادورو، من جانبها، تواسيه وتطلب منه أن يتشجَّع، لأنَّها كانت مستعدَّةً لافتدائه بدمها، وألَّا يلعنَ القدر الذي ساقَهُ إلى ذلك البيت، فهو كان محبوباً جدَّاً منها، وببقائه يائساً على هذا النَّحو ممَّا حصل لم يكن يُبادِلها الحُبَّ إلَّا قليلاً.

وأجابها الأمير: «لا يحزُّ في نفسي أنَّني نزلتُ عن حصانٍ واعتليتُ حماراً، ولا أنَّني استبدلتُ بالقصر الملكيِّ هذا الكوخ، وبالمآدب العامرة كسرةً من الخبز، وبحاشيةٍ من الخَدَم العملَ خادماً، وبالصَّولجان المعزقةَ، وبإخافة

---

1) قصَّةٌ شعبيَّةٌ عن عاشقَين كانت رائجةً في مطلع القرن السَّادس عشر؛ (المترجمان).

2) «ارفع يديك!»، عبارةٌ تردِّدها الشُّرطة عندَ إلقاء القبض على أحد الجناة، ولكنَّ المؤلِّف حوَّرها هنا بطريقةٍ ساخرةٍ مستعيناً بعبارةٍ كان يستخدمها الأطفال في الألعاب المذكورة سابقاً؛ (المترجمان).

الجيوش الخوفَ من خنزيرةٍ دنيئةٍ، فأنا أعدُّ كلَّ مصائبي هناءً لأنَّني هنا معكِ، ولأنَّني أستطيع أن أتأمَّل هاتين العينين؛ ولكن ما يُمزِّقُ قلبي هو أنَّ عليَّ أن أحفر وأبصق مِائةَ مرَّةٍ في يديَّ بينما كنتُ من قبلُ أزدري أن أبصقَ على بثرة؛ والأسوأ من ذلك، يجب أن أقوم بما لا يكفي زوجٌ من الثِّيران للقيام به؛ وإنْ لم أكمل المهمَّة اللَّيلة، أكلتني أمُّكِ؛ ولن يؤلمني انفصالي عن هذا الجسد البائس، بقدر ما سوف يؤلمني ابتعادي عن محيَّاك الجميل هذا!». وهكذا، كان وهو يتحدَّث، يرسلُ دلاءً من التَّنهُّدات وأحواضاً من الدُّموع.

جفَّفتْ فيلادورو عينيها، وقالت له: «لا تظنَّنَّ، يا حياتي، أنَّك ستعمل في أرضٍ أخرى غير بستان الحُبِّ، ولا تخشينَّ أن تلمس أمِّي شعرةً واحدةً من جسدك. لديك فيلادورو ولا تشكِّكْ في ذلك، لأنَّه إنْ كنتَ لا تعرف ذلك، فأنا مسحورةٌ وأستطيع تخثيرَ الماء وحَجْبَ الشَّمس. كفى وجَزَى! لذلك، فلنكن سعداء، لأنَّ الأرض سوف تُعزَق وتُزرَع هذا المساء، دون أن تضرب بمعولِكَ ضربةً واحدة».

«ولكن، إنْ كنتِ، كما تقولين، مسحورةً، يا أجمل امرأةٍ في العالم، لماذا لا نغادر هذا البلد؟ فأنا أريد أن أجعلك ملكةً في بيت أبي».

«إنَّ اقتراناً معيَّناً بين النَّجوم يعرقلُ هذه اللُّعبة، ولكنَّ تأثيره سيتلاشى قريباً وسنكون سعداء».

بين هذا وآلافٍ أخرى من الأحاديث العذبة، انقضى النَّهار، ورجعت الغولة من الغابة ونادت من الدَّرب ابنتها: «فيلادورو، أنزلي شعرك!». (لقد كان البيت بلا سلالم، فكانت تعود إليه دائماً باستخدام شعر ابنتها). وبعد أن سمعت فيلادورو صوت أمِّها، حلَّتْ تسريحتها وأنزلَتْ شعرها صانعةً به مرقاةً من الذَّهب لقلبٍ من حديد. وحالما دخلت الغولة، هرعت إلى الحديقة، وحين وجدت أنَّه أتمَّ عمله، كادتْ تقفز خارجَ ثيابها

من الدَّهشة، فقد بدا لها من المستحيل أنَّ شابَّاً بهذه النُّعومة استطاع أن يُنجز ذلك العمل القاسي.

في صباح اليوم التَّالي، مع خروج الشَّمس واستلقائها لتجفِّف نفسها من الرُّطوبة التي امتصَّتها في نهر الهند، نزلت الغولةُ مرَّةً أخرى وذهبت إلى الغابة، ولكن ليس قبل أن تقول لناردانيْلُّو أنَّ عليه، مع حلول المساء، أن ينتهي من تقطيع سبع أكوامٍ من الحطب، كانت مكدَّسةً في غرفةٍ كبيرةٍ، إلى أربع قطعٍ لكلِّ حطبةٍ منها، وإلَّا فرمَتْهُ كما يُفرَمُ شحمُ الخنزير وصنعَتْ منه طبق بيكَّاديليو[1] كوجبةٍ خفيفةٍ على العشاء.

وحين رأته فيلادورو شاحباً وجَزِعاً بعد سماعه هذه التَّعليمات، أنَّبَتْهُ قائلةً: «يا لك من جبانٍ! باركك الرَّبُّ أيُّها الرَّجل! إنَّكَ تخاف حتى من ظلِّك!». «وهل يبدو لكِ من السُّهولة بمكانٍ – أجاب ناردانيْلُّو – تقطيعُ سبع أكوامٍ من الحطب، وتقطيع كلِّ حطبةٍ منها إلى أربع قطعٍ، من الآن لغاية المساء؟ يا حسرتي، سوف أنشطر أنا نفسي قطعتين قبل أن أنهي ذلك، علَّني أتمكَّن بذلك من ملء فكَّي العاهرة العجوز!». «لا تكن في ريبةٍ من أمرك – ردَّت فيلادورو، – فمن دون أن تبذلَ أيَّ جهدٍ ستجد الحطب مقطَّعاً ومنضَّداً. ولكن في أثناء ذلك، أبقِ مزاجك جيِّداً قليلاً، ولا تحطِّم روحي بالكثير من الشَّكاوى!».

لدى عودة العجوز إلى البيت، حين كانت الشَّمسُ تغلقُ متجرَ الأشعَّةِ لكيلا تبيع الضَّوءَ للظِّلال، وجدت الحطب مقطَّعاً، فارتابَتْ في أن تكون ابنتها قد خانتها. وفي اليوم الثَّالث، لكيلا يتكرَّر الأمر، أمرت ناردانيْلُّو بأن ينظِّف لها خزَّاناً ملؤُه ألفُ دَنٍّ من الماء، وأن ينتهي من ذلك مع حلول المساء، وإلَّا أعدَّتْ منه طبقاً من الإسْكوبيتْشي[2] أو اليخنة.

---

1) طبقٌ إسبانيٌّ يتكوَّن من لحمٍ مفرومٍ مع مزيجٍ من التَّوابل والبَيض المخفوق؛ (كروتْشِه).

2) طبقٌ متوسِّطيٌّ قوامه السَّمك أو اللَّحم المتبَّل بالخلِّ والفلفل الأسود أو الزَّعفران، وتختلف الوصفة من بلدٍ إلى آخر؛ (المترجمان).

وعاد ناردانييلّو يشكو كالمعتاد، فقالت له فيلادورو إذْ رأت أنَّ معاناته كانت تزداد وطأةً، وأنَّ العجوز كانت مصرَّةً على تحميل الرَّجل المسكين الكثير من الأعباء، وكلُّ عبءٍ أكبر من الآخر: «اهدأ، لقد انفضَّ الاقترانُ الذي كان يقيِّدُ مهارتي السِّحريَّة، واليوم، قبل أن تقول الشَّمس: «أستأذنكم»، سنقول لهذا البيت: «دمتَ بخيرٍ». كفى: هذا المساء، ستجد أمِّي هذه البلدةَ خاويةً، وسآتي أنا معك، حيَّةً أو ميِّتةً». وحين سمع الأميرُ، الذي كان على وشكِ الموتِ، هذا الخبرَ، تنفَّس الصُّعداء، وعانق فيلادورو قائلاً: «أنتِ ريح الشَّمال لهذا القارب المترنِّح، يا روحي! أنتِ دعامة آمالي».

وهكذا، في المساء، عبر حفرةٍ كانت فيلادورو قد حفرتها تحت البستان، وتُفضي إلى نفقٍ واسعٍ، هرب الاثنان مهرولَين نحو نابولي. ولكن، حين وصلا إلى كهف بوتْسُولي، قال ناردانييلّو لفيلادورو: «يا نعمتي، ليس من اللَّائق أن أُدخِلَكِ قصري سيراً على الأقدام، وبملابسك هذه. لذلك، انتظريني في هذه الحانة ريثما أعود قريباً مع الخيول والعربات والنَّاس والملابس وأشياء أخرى». فبقيت فيلادورو في الحانة، وسلك هو الطَّريقَ المؤدِّيةَ إلى المدينة.

في هذه الأثناء، كانت الغولة قد عادت من الرِّيف، وعندما لم تجب فيلادورو على ندائها المعتاد، انتابها الشَّكُّ، فهرعت في الحال إلى الغابة وقطعت عموداً طويلاً وأسندته إلى نافذة البيت، ثمَّ تسلَّقت عليه مثل هرَّةٍ، وصعدت إلى البيت. وبعد أن بحثت في الداخل وفي الخارج، في الأعلى وفي الأسفل، ولم تعثر على أحدٍ، لمحت أخيراً النَّفق، ولاحظت أنَّه ينتهي في إحدى السَّاحات، فراحت تنتف خصلات شعرها وهي تلعن ابنتها والأمير وتدعو السَّماءَ أن ينساها عشيقها هذا مع أوَّل قبلةٍ يتلقَّاها من أيٍّ كان. ولكن، فلنترك العجوز وأدعيتها الوحشيَّة، ولنعد إلى الأمير.

حين دخل الأميرُ القصرَ، حيث كان يُظَنُّ أنَّه ميِّتٌ، عمَّ الصَّخبُ كلَّ

أرجاء البيت وهرع الجميع للقائه وهم يصرخون: «لقد غبتَ طويلاً! حلَلْتَ أهلاً ونزلْتَ سهلاً! ها أنت ذَه سالماً مُعافىً! كم تبدو لنا جميلاً في هذا البلد!»، وألف كلمةِ محبَّةٍ أخرى. ولكن، بينما كان يصعد الدَّرج قاصداً شقَّة الملك، التقى في منتصف الطَّريق أمَّه التي عانقته وقبَّلته قائلةً: «ها بنيَّ، يا جوهرتي ومقلةَ عيني، أين كنت؟ لماذا تأخَّرت هكذا كثيراً، وتركتنا جميعاً فريسةً للقلق؟».

لم يعرف الأميرُ ماذا يجيب، فقد كان بودِّه لو يخبرها بمصائبه، ولكن حالما قبَّلته بشفتيها الحمراوين كشقائق النُّعمان، تلاشى من ذاكرته، بسبب لعنةِ الغولة، كلُّ ما كان قد مرَّ به. والحالُ أنَّ الملكة، لكي تمنعه من الذَّهاب إلى الصَّيد وتبديدِ حياته في الغابة، أضافتْ أنَّها كانت ترغب في تزويجه: «خيرُ البرِّ عاجلُه! - أجاب هو: - ها أنا مستعدٌّ وجاهزٌ لفعل كلِّ ما تريده أمِّي وسيِّدتي». «هكذا يفعل الأبناء المباركون!»، ختمَتِ الملكةُ وكلُّها غبطة.

واتُّخِذَ القرار بإحضار العروس إلى البيت في غضون أربعةِ أيَّامٍ، وكانت العروسُ امرأةً نبيلةً من عُلِّيَّةِ القوم وَفَدَتْ من بلاد الفلاندرز إلى تلك المدينة؛ وصدرت الأوامر بإقامة الولائم والحفلات. ولكن، في هذه الأثناء، حين رأت فيلادورو، التي كانت لا تزال تنتظر في الحانة، أنَّ الزَّوج تأخَّر كثيراً في العودة، ووصل إلى أذنها، لا أعرف كيف، خبرُ هذه الحفلة الذي انتشرَ في كلِّ مكانٍ، قرَّرت أن تذهب بنفسها لرؤية ما كان يحدث. وبعد أن وضعَتْ ملابسَ أجير الحانة نَصْبَ عينيها، وكان قد تركها على حافة فراش القشِّ قبل أن ينام، استولت عليها ووضعَتْ مكانَها ملابسها، وهكذا، متنكِّرةً في هيئة رجُلٍ، وصلَتْ إلى بلاط الملك.

ولمَّا كان طُهاة البلاط، الذين كانت تنتظرهم أعمالٌ كثيرةٌ في تلك الأيَّام، في حاجةٍ إلى المساعدة، ولمَّا كان هذا الشَّابُّ قد تقدَّم عن طواعيةٍ للعمل معهم، فقد اتَّخذوه أجيراً. وفي صباح اليوم التَّالي، حين

بدأتْ الشَّمسُ تعرض على منضدة السَّماء كلَّ الامتيازات التي منحَتْها إيَّاها الطَّبيعةُ لتبيع أسرارَ تفتيحِ الأبصار[1] مزوَّدَةً بختم الضَّوء، وصلت العروس على وقع الصُّنوج والأبواق.

كانت الموائد عامرةً، وكلٌّ أخذ مكانه؛ وبينما كانت تتقاطرُ أفخر أنواع الأطعمة، قام النَّادل بتقطيع فطيرةٍ كبيرةٍ معمولةٍ على الطَّريقة الإنجليزيَّة كانت فيلادورو قد حضَّرتها بنفسها؛ فطارت منها حمامةٌ. كانت تلك الحمامة لطيفةً جدَّاً، لدرجة أنَّ الضُّيوف سهوا عن الأكل وراحوا يتأمَّلون بانبهارٍ جمالها. ولكنَّ الحمامةَ توجَّهت نحو الأمير وقالت له بصوتٍ شفوقٍ للغاية: «هل أكلتَ دماغَ هرَّةٍ[2] أيُّها الأمير، فنسيتَ قولاً وفعلاً حُبَّ فيلادورو؟ أبهذه السُّرعة خرجَتْ من ذاكرتك الخدماتُ التي قدَّمَتْها لك أيُّها الجاحد؟ أهكذا تبادلُ الجميلَ بالقبيحِ يا ناكرَ الجميل؟ وهي التي انتزعتك من براثن الغولة، ومنحتك حياتها ونفسها؟ أهذه هي الرَّحمة الكبيرة التي تجازي بها تلك الفتاة المنحوسة على الحُبِّ المتأجِّج الذي أظهرَتْه لك؟ تقول لها أن تنهض وتذهب في طريقها؛ تقول لها أن تمصَّ العظام ريثما يأتي المشويُّ! آهِ ما أبأس المرأةَ التي تأنس كثيراً لكلمات الرِّجال الذين يقرنون دائماً كلامَهم بالجحود، وجمائلَهم بنكران الجميل، والتزاماتِهم بالنِّسيان! ها هي سيِّئة الحظِّ التي كانت تتخيَّل أنَّها تصنع الكعكةَ معك وفقاً لقواعدِ كتابِ دوناتو[3]، وإذا هي ترى نفسها تلعبُ لعبةَ «تقطيعِ الكعكة». كانت تحسب أنَّها تنادي «رصُّوا الصُّفوفَ» معكَ، وإذا أنتَ تنادي «اهربوا، اهربوا». كانت تعتقد أنَّها تستطيع أن تكسر كوباً معك، وإذا هي تكسرُ إناءَ اللَّيل! اذهبْ، لا تبالِ بها، يا ذا الوجه

1) كما هو الحال مع أطبَّاء الأسنان الشَّعبيِّين والباعة الجوَّالين الذين كانوا يبالغون في عرض امتيازاتهم ومهاراتهم كما تُعرَضُ الشَّهادات في أيَّامنا هذه؛ (كروتشه).

2) حسب المعتقدات الشَّعبيَّة فإنَّ من يأكل دماغ هرَّةٍ يفقد ذاكرته؛ (كروتشه).

3) أي كتاب قواعد اللُّغة لإليو دوناتو، وربَّما كان المؤلِّف يقصد السُّخرية من محتواه؛ (كروتشه).

الآبق، ولتُصِبْ في الحالِ هدفَها اللَّعناتُ التي ترسلها تلك المسكينةُ إليكَ من صميمِ قلبها! سوف ترى ما يمكن أن يحلَّ بمن يخدع فتاةً، بمن يغشُّ مسكينةً بريئةً، بمن يمارس معها هذه الخدعةَ القذرةَ، مُديراً لها ظهرَ المِجَنِّ، بينما كانت تديرُ لك صدرَها؛ واضعاً إيَّاها تحت عَظْمِ العَجْز، بينما كانت تضعك على رأسها؛ وبينما كانت تقدِّم لك الكثير من الخدمات، أنزلْتَها منزلةَ الخادمة! ولكن، إن كانت السَّماواتُ لم تعصب عيونها، وإن كان الآلهة لم يضعوا سدادةً في آذانهم، فإنَّهم سيرون الظُّلم الذي أنزلْتَه بها، وحين لا تتوقَّع ذلك، ستأتيك عشيَّةُ العيدِ والعيدُ، البرقُ والرَّعدُ، الحمَّى والزُّحار! كفى، احرصْ على أن تأكل جيِّداً؛ متِّع نفسك كيفما شئت؛ تقلَّبْ في النَّعيم وافرحْ بالنَّصر مع العروس الجديدة؛ لأنَّ فيلادورو البائسة، وهي تغزل خيوطَ حزنها الرَّقيقةَ، سوف تقطع خيطَ حياتها وتدع لك الحقلَ مفتوحاً لتستمتع بزوجتك الجديدة!». قالت هذ الكلمات، وطارت من النَّافذة، وحملتْها الرِّيحُ بعيداً.

بقي الأميرُ لفترةٍ من الوقت حائراً بعد سماعه هذه الخطبةَ الحمائميَّةَ الطَّويلة. وفي النِّهاية، سأل من أين جاءت الفطيرة، وبعد أن علم من النَّادل أنَّ الذي حضَّرها أجيرٌ في المطبخ وُظِّفَ لهذه المناسبة، أمر بإحضاره إليه.

وجاءتْ فيلادورو، وألقت بنفسها عند أقدام ناردانْييلُّو، وصبَّت سيلاً من الدُّموع، ولم تقل سوى: «ماذا فعلتُ لك، يا قاسي القلب؟ ماذا فعلتُ لك؟». وبفضلِ قوَّة جمال فيلادورو والسِّحر الذي تمتلكه، تذكَّر الأميرُ العهدَ الذي قطعَه لها في أبرشيَّةِ الحُبِّ، فجعلها تنهض حالاً وتجلس بجواره، وروى لأمِّه كم كان مديناً لهذه الفتاة الجميلة، وكم فعلت لأجله، وأخبرها بالعهد الذي قطعه لها والذي يجب عليه أن يحفظه.

وما كان من الأمِّ، التي لم يكن لديها في الحياة مسرَّةٌ سواه، إلَّا أن قالت له: «افعل ما تراه مناسباً، بشرط أن تحترم شرفَ ورغبةَ هذه الآنسة النَّبيلة التي اتَّخذتها زوجةً». «لا تلقوا باللَّوم على أنفسكم يا سيِّدتي –

تدخَّلت العروس – لأنَّني، لكي أكون صريحةً معكم، لم يرقني أن أبقى في هذا البلد. ولكن، لمَّا كانت السَّماء قد تبسَّمَتْ لي، فإنَّني أرغب، من بعد إذنكم، في العودة إلى بلادي، إلى الفلاندرز، لكي أعثر على أسلاف الأقداح[1] التي يستخدمونها في نابولي، حيثُ، حين كنت أعتقد أنَّني أشعل سراجاً[2]، كاد سراجُ حياتي أن ينطفئ».

فقدَّم لها الأميرُ، وهو في غاية السُّرور، سفينةً ومرافقِين. ثمَّ أوعز بإلباس فيلادورو ثياباً تليق بأميرةٍ، وفي هذه الأثناء، بعدما رُفعت الموائد، حضر البهلواناتُ وأُعطِيَت الإشارة لبدء حفلة الرَّقص التي استمرَّت حتى المساء. كانت الأرض قد ارتدَت الحِدادَ من أجل تشييع جثمان الشَّمس؛ ولذلك أوقدت المشاعل في الصَّالة الكبيرة.

وهنا، سُمع رنين أجراسٍ صاخبٌ على الأدراج، فقال الأمير لوالدته: "ربمَّا كانت حفلةً تنكُّريَّةً على شرف هذه الحفلة. ربَّاه كم هم موجِّبون فرسان نابولي، فعندما يلزم الأمر، ترينهم ينفقون بلا حساب!". ولكن، بينما كان يُصدر هذا الحُكْمَ، ظهرت في منتصف الصَّالة هيئةٌ قبيحةٌ لا يتجاوز طولها ثلاثةَ الأشبارِ، ولكنَّها كانت أثخن من برميلٍ، توقَّفت أمام الأمير وقالت له: "اعلمْ، يا ناردانِيِيلُّو، أنَّ أهواءكَ وسلوكَك السَّيِّئ قد قادتك إلى مكابدةِ مصائب كثيرة. أنا ظلُّ تلك العجوز التي حطَّمتَ إناءها وجعلتها تموت من الجوع. لقد أرسلتُ عليكَ لعنةً بأن تبقى تحت رحمة تلك الغولة، وقد استُجيبَ لصلواتي. ولكن بفضل هذه الحوريَّة الجميلة، نجوتَ من ذلك الجحيم. ثمَّ أصابتكَ لعنةٌ أخرى من الغولة، أن تنسى فيلادورو مع أوَّل قبلةٍ تتلقَّاها، فقبَّلتك أمُّك، فتبخَّرَتْ فيلادورو من ذاكرتك. ولكن، بسبب ذلك السِّحر نفسه، هي جالسةٌ الآن بجانبك. وها أنا أعود الآن، في ذكرى الضَّرر الذي ألحقتَهُ بي، لألعنك بأن تجد نفسكَ

---

1) أقداح نبيذٍ كبيرةٌ كانت تُستخدَم في إقليم الفلاندرز وفي ألمانيا؛ (كروتشِه).

2) يريدُ: حين كنتُ أعتقد أنَّني أشربُ زجاجةَ نبيذٍ؛ (كروتشِه).

دائماً أمام حبَّات الفاصولياء التي نثرتها على الأرض، وأن يتحقَّق القول المأثور: من يزرع الفاصولياء، تنمُ قرونه". وبعد أن أنهت كلامها، ذابت مثل الزِّئبق، دون أن تترك وراءها خيطَ دخانٍ واحدٍ.

وما كان من الحوريَّة، إذْ رأت الأميرَ وقد بهتَ لونُه، إلَّا أن شجَّعته قائلةً: "لا تخفْ، يا زوجي: أبرا كادابرا، إن كانت هذه تعويذةً فليبطُل عملُها، لأنَّني من قلب النَّار سأُخرجُك". وبعد أن انتهت الحفلة، ذهبا إلى الفراش؛ وتثبيتاً لميثاق العقدِ الجديد، أراد الأميرُ أن يوقِّعَ عليه شاهدان[1]؛ وجعلَتْ عذاباتُ الماضي ملذَّاتِ الحاضرِ ألذَّ طعماً؛ ففي بوتقةِ أحداث الدَّهر جليٌّ للجميع أنَّ:

مَن يتعثَّر ولا يقع،

يمضِ قُدُماً.

1) تلاعبٌ بالألفاظ؛ (كروتشِه). المقصود بالشَّاهدَين الخصيتان؛ (المترجمان).

الأَمَة الصَّغيرة
المؤانسة الثَّامنة من اليوم الثَّاني

تولَدُ ليزا من بتلةِ وردةٍ جوريَّةٍ، وبسبب لعنة جنِّيَّةٍ من الجنِّيَّات، تموت، وتوضَعُ في غرفةٍ من قبل أمِّها التي، في أثناء احتضارها، توصي أخاها بألَّا يفتح أبداً بابَ تلك الغرفة. ولكنَّ الفضول يتملَّكُ زوجتَه الغيور التي ترغب في رؤية ما بداخل الغرفة، فتفتح الباب وتجد ليزا حيَّةً تُرزَق؛ وبعد أن تجعلها ترتدي لباس أَمَةٍ، تذيقها أفانين العذاب. وأخيراً، يتعرَّفها خالُها، فيطرد زوجته ويقيم حفل زفافٍ مهيبٍ لابنة أخته.

«حقَّاً - عقَّبَ الأميرُ تاديو - على كلِّ امرئ أن ينكبَّ على شؤونه الخاصَّة: السَّيِّدُ سيِّدٌ؛ والسَّائسُ سائسٌ؛ والشُّرطيُّ شرطيٌّ: فمثلما يسخِّف نفسَه الصَّبيُّ الذي يريد أن يتصرَّف كأميرٍ، كذلك يفقد سمعتَه الأميرُ الذي يتصرَّف كصبيٍّ». وبعد أن قال قولَه هذا، التفت إلى باولا وأومأ إليها أن تبدأ، فمصَّت هذه شفتيها، وحكَّت رأسها، وشرعت تقول:

الغيرة شيءٌ بغيضٌ، دَوْخَةٌ تجعل الرَّأسَ يدور، حُمَّى تُلهب الشَّرايين، آفةٌ تثلِّجُ الأعضاء، زُحارٌ يهيِّجُ الأمعاء؛ وأخيراً وليس آخراً، سُقْمٌ يسرقُ النَّومَ، ويُحَنظِلُ الطَّعامَ، ويعكِّرُ الطُّمأنينةَ، ويقصِّرُ العمرَ، لكونها حيَّةً تلدغ، وسوسةً تنخر، ومرارةً تسمِّم، وثلجاً يخدِّر، ومسماراً يثقب، ووسيطةَ طلاقٍ لمباهجِ الحُبِّ، وعَزُولاً[1] مُفسِدةً للمُتَعِ الغراميَّة، وعاصفةً ممطرةً في بحرِ ملذَّاتِ

1) حرفيّاً: مَن يتدخَّل ليفرِّق بين كلبين يتناكحان؛ (كروتشِه).

فينوس؛ ولم يولَد أيُّ خيرٍ منها، كما ستُقِرُّون أنتم أنفسكم لدى سماع حكايتي هذه.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، بارونٌ من سِلْفَاسْكُورا[1] لديه أختٌ بِكْرٌ، وكانت هذه تذهب دائماً مع أتراب لها ليلعبن لعبةَ القفز في الحديقة. وفي أحد الأيَّام، عثرن على شُجيرةِ وردٍ جميلةٍ ويانعةٍ، فتَرَاهَنَّ على أن تربح مبلغاً كبيراً من المال مَن تستطيع القفز فوقها دون أن تلمس ورقةً منها. فلمَّا قفزت كثيراتٌ منهنَّ بسيقانٍ منفرجةٍ فوقها، لامَسْنَها كلُّهنَّ، ولم تتمكَّن ولو واحدةٌ منهنَّ من تخطِّيها بنجاح. ولكن، عندما حان دورُ ليلَّا، شقيقةِ البارون، قامت بالإحماءِ قليلاً، ثمَّ ركضت باندفاعٍ كبيرٍ بحيث تمكَّنت من القفز إلى ما وراء شُجيرة الورد. مع ذلك، سقطت بتلةٌ، ولكنَّها، بفطنةٍ ودهاءٍ، التقطتها عن الأرض دون أن تدع أحداً ينتبه إليها، وابتلعتها وربحت الرِّهان.

لم تَمْضِ ثلاثة أيَّامٍ حتى أحسَّت ليلَّا أنَّها حاملٌ، وكادت تموتُ من الكَرْب، مع يقينها التَّامِّ من أنَّها لم تقم بأيِّ عملٍ ذي شَيْنٍ أو مَيْن، ولذلك لم تستطع أن تفهم كيف يمكن أن ينتفخ بطنها. فلجأت إلى بعض صديقاتها من الجنِّيَّات اللَّاتي، بعد أن أصغين إلى قصَّتها، أخبرنها أن تهدِّئ من روعها، لأنَّ السَّبب كان بتلةَ الوردة التي ابتلعتها.

بعدما تبيَّن لها الأمر، قرَّرت ليلَّا أن تخفي حَمْلَها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وعندما حان الوقت لتضعَ حملها، أنجبت في السِّرِّ طفلةً جميلةً سمَّتْها ليزا، وأرسلتها إلى الجنِّيَّات. وهؤلاء، جميعهنَّ، منحنها قوَّةَ سحرهنَّ، ولكنَّ الأخيرة التي هرعت لرؤية الطِّفلة، لوت كاحلها بشدَّةٍ، فشعرت بألمٍ حادٍّ أرسلَتْ على إثره لعنةً تقضي بأن تنسى أمُّها، مع بلوغ الابنة السَّابعةَ من العمر، المشطَ مغروساً في شعرها أثناء تسريحها، فتموت الطِّفلة بسبب ذلك.

---

1) تعني حرفيًا: الغابة المُعتِمة؛ (المترجمان).

ومع إكمال الطِّفلة سبعةَ الأعوامِ، حلَّت المصيبة، وبعد نحيبٍ مريرٍ، أغلقت الأمُّ البائسةُ عليها في سبعة صناديق من الزُّجاج، الواحد داخل الآخر، ووضعتها في أبعد غرفةٍ من القصر، واحتفظت بالمفتاح في جيبها. بيد أنَّها، بعد مرور بعض الوقت، ضمُرَتْ حتى الموت من الحزن، وأحسَّت دنوَّ أجلها، فنادت أخاها وقالت له: «أيْ أخي، أشعر أنَّ كُلَّاب الموت يجرُّني إليه رويداً رويداً. لذلك، أترك لك كلَّ مصاغي، فكُنْ عليه السَّيِّدَ والمالكَ، ولكن يجب أن تعدني أنَّك لن تفتح أبداً بابَ الغرفة الأخيرة من هذا البيت، وأن تحتفظ بالمفتاح في حِرزٍ أمينٍ». وأقسم أخوها، الذي كان يُحبُّها من صميم فؤاده، أنَّه سيفي بوعده، وفي اللَّحظة نفسها لفظت أنفاسَها الأخيرة، قائلةً: «وداعاً؛ فقرونُ الفول قد امتلأتْ!»[1].

بعد بضع سنواتٍ، دُعِيَ هذا الرَّجل، وكان في هذه الأثناء قد اتَّخذ له زوجةً، إلى رحلة صيد، وبينما كان يوصي زوجته أن تعتني بالبيت، توسَّل إليها قبل كلِّ شيءٍ ألَّا تفتح تلك الغرفة التي كان يحتفظ بمفتاحها في حِرزٍ أمين. ولكن، ما إن أدار ظهرَه حتى بدأت الرِّيبةُ تجذبها والغيرةُ تدفعها والفضولُ، الذي هو مَلَكَةُ المرأةِ الأولى، ينهشُها، فأخذت المفتاحَ وفتحت بابَ الغرفة. وحين رأت الفتاةَ عبرَ الصَّناديق البلُّوريَّة، فتحتها صندوقاً تلْوَ الآخر، ووجدت الفتاةَ كالنَّائمة في الدَّاخل. كانت قد شبَّتْ كما تشبُّ أيُّ امرأةٍ، وبمقدار ما كانت تنمو، كانت الصَّناديق تكبر بالتَّناسُب مع حجمها.

لدى رؤيتها هذه المخلوقة الجميلة، فكَّرَت الأنثى الغيورُ في الحال: «أحسنت يا فتى، لعمري لقد صدقَ حدسي! المفتاحُ في الحزام والقرنُ في الطَّبيعة!»[2] لم يكن هذا الحرصُ كلُّه على عدم فتح الغرفة إلَّا لحجبِ

1) أي حان قطافها؛ (كروتشه).

2) بينما يظنُّ أحد الزَّوجين أنَّه لا خوف ما دام المفتاحُ في الجيب، يجد الشَّريكُ طريقةً للارتماء في أحضان العشيق؛ (كروتشه).

رؤية محمَّدٍ وهو يتعبَّد داخل الصَّناديق!»[1]. وبعدما قالت ذلك، أمسكتها من شعرها وجرَّتها إلى الخارج، وبينما كانت تفعل ذلك، سقط المشط على الأرض، فانتفضَت الغافية وهي تصرخ: «أمَّاه، أيْ أمَّاه!».

«هيَّا تعالي، سوف أعطيكِ الماما والتَّاتا!»، صاحت البارونة وكلُّها مرارةٌ كأَمَةٍ، وحنقٌ ككلبةٍ أنجبت لتوِّها، وسُمٌّ كأفعى، فقصَّت شعرها على الفور، وأشبعتها ضرباً بالعصا، وألبستها ثوباً رثّاً، وصارت كلَّ يومٍ تُنزِلُ الأورامَ برأسها، والكدماتِ بعينيها، والنُّدَبَ بوجهها، وتُصَيِّرُ فمها كفمِ مَن أكل حماماً نيئاً[2].

وحين عاد الزَّوج من رحلة الصَّيد ورأى تلك الفتاة المُمْتَهَنَةَ أسوأ امتهانٍ، سأل من تكون، فأجابت الزَّوجة أنَّها أَمَةٌ أرسلتها لها عمَّتها، وأنَّها كانت دائماً تتصيَّد الأسباب لتُضرَب، وأنَّه كان لا بدَّ من معاقبتها باستمرار.

ثمَّ حدث أنَّه سنحت للرَّجل فرصةٌ للذَّهاب إلى أحد المعارض، فسأل كلَّ الموجودين في المنزل، حتى القطط، ماذا يرغبون أن يشتري لهم، وبعد أن طلب كلٌّ منهم هذا الشَّيء أو ذاك، التفت في النِّهاية إلى الأمَة. ولكنَّ زوجته اشتعلت غضباً وتصرَّفت بطريقةٍ لا تمتُّ إلى المسيحيَّة بِصِلَةٍ إذْ قالت: «هيَّا ضعها على قدم المساواة مع الآخرين، هذه الأمَةَ الغليظةَ الشَّفتَين! اجعل الجميع سواسيةً، وليَبُلِ الجميعُ في المِبْوَلة نفسِها![3] دعها في بؤسها، ولا تُوْلِ هذه الكلبةَ القبيحةَ اهتماماً!». ولكنَّ سيِّد البيت، الذي كان لطيفاً، أراد بأيِّ ثمنٍ أن تطلب الأمَةُ أيضاً شيئاً ما. فقالت: «أنا

1) كان ثمَّة اعتقادٌ شائعٌ في أوروبَّا مَفادُه أنَّ جسد النَّبيِّ محمَّد (ص) محفوظٌ في المدينة المنوَّرة داخل صندوقٍ معلَّقٍ في الهواء بفضل قوَّةٍ مغناطيسيَّةٍ؛ (كروتشِه).

2) أي ملطَّخاً بالدِّماء؛ (كروتشِه).

3) كان استعمال المبولة (الإناء اللَّيليّ)، في تلك الحقبة، يرمز إلى مرتبةٍ اجتماعيَّةٍ راقيةٍ، لأنَّ العوامَّ كانوا يقضون حاجاتهم في العراء؛ (كروتشِه).

لا أريد سوى دُميةٍ وسكِّينٍ وحَجَرَ خفَّانٍ؛ ولتعجَزْ عن عبور أوَّل نهرٍ تصادفه في طريقك إنْ أنتَ نسيتهم!».

واشترى البارون كلَّ الأشياء الأخرى، ونسي بالتَّحديد الأشياء التي طلبتها ابنةُ أخته، وحين كان بصدد عبور نهرٍ، نهرٍ كان يحمل الحجارة والأشجارَ من الجبال إلى شاطئ البحر لتضعَ أُسُسَ الخوف وترفعَ جدرانَ الدَّهشة، لم يتمكَّن من الخوض فيه. وحينئذٍ خطرت بباله اللَّعنة التي ألقتها عليه الأمَة، فرجع واشترى الأشياء الثَّلاثة التي طلبَتْها، ثمَّ عاد إلى البيت، ووزَّع على كلِّ واحدٍ ما طلبه.

وبعد أن استلمت ليزا أشياءها الصَّغيرة، دخلت إلى المطبخ، ووقفت أمام الدُّمية، وبدأت تشكو وتنتحب، وتقصُّ على تلك الجَمَدِ الملفوفةِ بالأسمال القصَّة الكاملة لآلامها، كما لو كانت تتحدَّث إلى شخصٍ حيٍّ. ولأنَّ الدُّمية لم تكن تجيب، كانت تتناول السِّكِّين وتشحذها بحَجَر الخفَّان، وتقول: «احذري! إن لم تجيبيني، سأطعنكِ وننهي هذه الحفلة!». وما كان من الدُّمية إلَّا أن أخذت تنتفخ شيئاً فشيئاً مثل القِربَة حين تُملأ بالهواء، وفي النِّهاية أجابت: «نعم، لقد فهمتك أكثر من أصمٍّ!».

استمرَّ هذا الموشَّح على مدار يومين، إلى أن سمعَ البارون، الذي كانت إحدى غرفه ملاصقةً للمطبخ، هذه التَّرنيمة، فوضع عينه على ثقب الباب ورأى ليزا تحكي للدُّمية عن قفزة أمِّها فوق شُجيرة الورد، وعن البتلةِ التي ابتلعَتْها، وكيف أنجبَتْها، وعن التَّعويذة، لعنةِ الحوريَّة الأخيرة، والمشطِ الذي بقي مغروساً في شَعْرِها، وعن موتِها وحبسِها في صناديقَ سبعةٍ ووضْعِها في الغرفة، وعن موت أمِّها والمفتاح الذي ائتمَنَتْ أخاها عليه، وعن رحلة الصَّيد وغيرةِ الزَّوجة ودخولها الغرفة بخلافِ ما أمر الزَّوج، وعن قصِّ شَعرها ومعاملتِها معاملةَ الأمَةِ، وعن الكثير الكثير من العذابات التي

سامتْها إيَّاها. وبينما كانت تحكي وتنتحب، كانت تقول: "هلَّا تجيبيني أيَّتها الدُّمية، هيَّا وإلَّا نحرتُ نفسي بالسِّكِّين". وبعد أن شحذته بحَجَر الخفَّان، وكانت على وشك أن تطعن نفسها، فتح البارون الباب بركلةٍ من قدمه وانتزع السِّكِّين من يدها.

وبعدما طلب منها أن تروي له القصَّة، عانق البارون ابنةَ أخته، وأخذها بعيداً عن المنزل وعهد بها إلى أحد الأقرباء لتستعيد رونقها قليلاً، لأنَّها كانت قد نحُلَتْ وضَمُرَتْ بسبب سوء معاملةِ تلك التي تملك قلبَ مِيْديا لها. وبعد بضعة أشهرٍ، وكانت قد أصبحت جميلةً كإلهةٍ، دعاها إلى منزله، وأخبر الجميع أنَّها ابنةُ أخته. ثم أمر بمأدبةٍ كبيرةٍ، وحالما رُفعت الأطباق، طلب من ليزا أن تروي قصَّة العذابات الطَّويلة وقسوةِ الزَّوجة، فجعلت عيونَ الضُّيوف تفيض بالدُّموع، وعندئذٍ، طرد الزَّوجة معيداً إيَّاها إلى بيت ذويها، وقدَّم إلى ابنةِ أخته عريساً وسيماً بالخِصال التي يتمنَّاها قلبُها. وهكذا، لمسَتْ ليزا لَمْسَ اليدِ أنَّه:

في اللَّحظة التي لا يتوقَّع فيها المرءُ ذلك،

تُمطِرُ عليه نِعَمُ السَّماء.

المزلاج
المؤانسة التَّاسعة من اليوم الثَّاني

تذهب لوتشيا لجلب الماء من إحدى النَّوافير، فتقابل عبداً يقودها إلى قصرٍ بديعٍ، وهناك تُعامَل كملكة. ولكنَّ أخواتها الغيورات يقترحن عليها أن تنظر إلى الشَّخص الذي تنام معه في اللَّيل، فتكتشف شابّاً وسيماً جدّاً، فتفقد نعمتَه وتُطرَد من القصر. تهيم على وجهها في الأرض وهي حاملٌ، تائهةٌ ومبغوضةٌ، وتصل أخيراً إلى بيت عاشقها، حيث تضع مولوداً ذكراً، وبعد أحداثٍ عديدةٍ، يتصالحان وتصبح زوجته.

حرَّكَتْ مصائبُ ليزا البائسةِ الشَّفقةَ في قلوب الجميع، وأكثر من أربعةٍ من الحضور احمرَّت أعينهم من انهمار الدُّموع، لأنَّه لا شيء يبعث على الرَّحمة أكثر من رؤية شخصٍ بريءٍ يعاني. ولكن، لمَّا كان الدَّور الآنَ لِتشومِّتلاَّ في تدوير عجلة المِغْزَلِ، فقد بدأتِ الحديثَ على هذا النَّحو:

لقد كانت مشوراتُ الغيرة دائماً أمَّهاتٍ للمصائب، لأنَّها، تحت قناع الخير، تخبِّئ ملامح الخراب؛ وذلك الذي يجد نفسه مُمْسكاً شَعْرَ القَدَر بيديه، عليه أن يفكِّر أنَّ ثمَّة مِائةً من الأقدار الأخرى تنصبُ له الفخاخ أمام قدميه في كلِّ لحظةٍ ليتردَّى فيها: كما حدث لفتاةٍ مسكينةٍ سقطت من أعلى سلَّم السَّعادة بسبب مشورةٍ سيِّئةٍ من شقيقاتها، وإن كانت لم تُكسَر رقبتُها، فلرحمةٍ من السَّماء.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، أمٌّ لديها ثلاث بناتٍ، وبسبب البؤس الكبير الذي كان قد وضع قدمه في بيتها، هذا البيت الذي كان مجروراً حقيقيَّاً تتزاحمُ فيه سيولُ المحن كلِّها، كانت ترسلهنَّ ليتسوَّلن ويؤمِّنَّ لقمةَ العيش.

في صبيحةِ أحد الأيَّام، جمعن بعض أوراق الملفوف التي كان طبَّاخُ أحد القصور قد رماها، وأرادت الأمُّ أن تطبخها، فقالت لهذه وتلك من بناتها أن تذهب وتجلب قليلاً من الماء من النَّافورة. ولكنَّ كلَّ واحدةٍ منهنَّ راحت تطلب من الأخرى أن تقومَ بالأمر، وكان القطُّ يعطي الأوامر لذيله[1]، لدرجةِ أنَّ الأمَّ المسكينة انتهت إلى القول: «كفى؛ من الأفضل أن أقوم بذلك بنفسي»؛ ثمَّ تناولت الجرَّة وهمَّت بالذَّهاب وقضاء الأمر، ولكن لكونها كبيرةً في السِّنِّ، لم تتمكَّن من جرِّ قدميها.

حينئذٍ قالت لوتشيلَّا، أصغرُهنَّ سنَّاً: «أعطني الجرَّةَ يا أمَّاه، فمع أنَّني لا أملك من القوَّة ما يكفيني لحملها، أريد أن أوفِّر عليكِ هذا الجهد». ثمَّ أخذت الجرَّة وخرجت من المدينة إلى حيث توجد نافورةٌ كانت ترشُّ الماء على وجهها مخافةَ أن يدركها مصيرُ الورود التي أغمي عليها خوفاً من اللَّيل.

صادفَتْ لوتشيلَّا عندَ النَّافورة عبداً جميلَ المظهر قالَ لها: «أيَّتها الفتاة الجميلة، هلَّا تأتين معي إلى كهفٍ ليس بعيداً من هنا، لأنَّني أريد أن أمنحكِ الكثيرَ من الأشياء الجميلة». فأجابت لوتشيلَّا التي لطالما رغبت في أن تحصل على بعض النِّعَمِ دون مقابل: «دعني أحمل هذا الماء إلى أمِّي التي تنتظرني، وسأعود دونما تأخير».

ثمَّ أوصلَتِ الجرَّةَ إلى المنزل، وبعد ذلك، بذريعة الخروج للبحث عن بعض الحطب، عادت إلى النَّافورة. وهناك، كان العبد ينتظرها، فقادها

1) مثلٌ يقال للتَّعبير عن عدم رغبة الشَّخص في القيام بشيءٍ ما، وإن كان يتظاهر بتأهُّبه للقيام به؛ (كروتشِه).

عبر كهف من حجر الطَّفَّة، مزيَّنٍ بكزبرةِ البئرِ واللَّبلاب، إلى قصرٍ جميلٍ تحت الأرض يسطع كلُّه بالذَّهب. وعلى الفور، جهَّزوا لها مائدةً تحتوي ما لذَّ وطاب من الطَّعام، وفي هذه الأثناء، خرجت اثنتان من الوصيفات الجميلات، فجرَّدتاها من الأسمال التي كانت ترتديها، وألبستاها أبهى ما يُلبَس، وفي المساء وضعتاها في سريرٍ مطرَّزٍ باللآلئ والذَّهب.

وحالما أُطفئت الشُّموع، اقترب أحدهم من السَّرير ونام بجوارها. وتكرَّر هذا الأمر عدَّة أيَّامٍ، وفي النِّهاية، شعرت الفتاة برغبةٍ عارمةٍ في رؤية أمِّها، فنقلت رغبتها هذه إلى العبد، فدخل هذا الأخيرُ إلى إحدى الغرف وتبادل الحديث مع أحد الأشخاص، ثمَّ خرج وأعطاها حقيبةً كبيرةً من اللِّيرات لتعطيها لأمِّها، موصياً إيَّاها ألَّا تضيِّع الطَّريق وأن تعود بسرعةٍ دون أن تخبر أيَّ شخصٍ من أين جاءت وأين كانت.

ذهبت الفتاة إلى بيتها، وما إن رأتها شقيقتاها وقد ارتدَتْ أجملَ الثِّياب وعومِلَتْ أفضلَ معاملَةٍ حتى شعرتا بغيرةٍ قاتلة. ثمَّ أرادت الأمُّ والشَّقيقتان مرافقتها، ولكنَّها رفضت صحبتهنَّ وعادت إلى القصر عبر الكهف نفسه. وهناك، ظلَّت رخيَّةَ البال لعدَّة أشهرٍ إلى أن استولَتْ عليها مرَّةً أخرى تلك الرَّغبة، ومع الهِبَة نفسِها والتَّوصيات نفسِها، أُرسِلَتْ مرَّةً أخرى لزيارة والدتها.

وتكرَّرت هذه الزِّيارات ثلاث أو أربع مرَّاتٍ، فكانت تؤجِّج أكثر فأكثر رياحَ الغيرة العاصفة في نفس أختيها، تينكَ الخبيثتَين القبيحتَين اللَّتين ذهبتا تبحثان وتسألان دون كللٍ أو مللٍ إلى أن عرفتا كلَّ شيءٍ عن الموضوع من إحدى الغولات. وحين عادت لوتشيلًّا في زيارتها المعهودة، قالتا لها: «مع أنَّك لم ترغبي في الإفصاح لنا عن أيِّ شيءٍ من ملذَّاتك الخاصة، اعلمي أنَّنا على درايةٍ بكلِّ شيءٍ، ونعلم أنَّهم يعطونك الأفيون كلَّ ليلةٍ لكيلا تتمكَّني من رؤية الشَّابِّ الوسيم الذي ينام معك. ولكنَّ فرحتك ستظلُّ دائماً ناقصةً إن قرَّرتِ ألَّا تُصغي إلى أولئك الذين يحبُّونك. في النِّهاية، أنتِ

من دمنا، ونريد مصلحتكِ وسعادتك. لذلك، عندما تخلدين إلى الفراش في المساء، ويأتي العبد حاملاً إليكِ شراب ما بعد العشاء، اطلبي منه أن يُحضر لكِ منديلاً لتنظِّفي به فمك، وحينئذٍ، ارمي بسرعةٍ النَّبيذ من الكأس؛ وهكذا تظلِّين مستيقظةً في اللَّيل. وحين تتيقَّنين من أنَّ زوجك قد غطَّ في النَّوم، افتحي هذا المزلاج الذي سنعطيك إيَّاه، ورغماً عنه سيجد أنَّ التَّعويذة قد زالت وسوف تصبحين أسعد امرأةٍ في العالم».

وما كان من لوتشيلاَّ المسكينة، التي لم تكن تعلم أنَّه كان يوجد جرحٌ متقيِّحٌ تحت هذا السَّرج المخمليِّ، وأفعىً بين هذه الزُّهور، وسمٌّ في هذا الإناء الذَّهبيِّ، إلَّا أن صدَّقت كلمات شقيقتيها؛ ولدى عودتها إلى الكهف، نفَّذت خطوةً بخطوةٍ ما نصحتاها به تانك الخبيثتان. وعندما غرق كلُّ شيءٍ في الصَّمت، أشعلت شمعةً بالمِقداح، ورأت بجوارها زهرةً من الجمال، شابَّاً كلُّه زنابقُ وورودٌ.

ولدى رؤيتها شابَّاً بكلِّ هذا الجمال، قالت في نفسها: «بحقِّ السَّماء، لن تفلت من يديَّ أبداً!». ثمَّ تناولت المزلاج وفتحته. وإذا حشدٌ من النِّساء يمرُّ أمام عينيها، وكنَّ يحملن على رؤوسهنَّ شِلَلاً كثيرةً من الغَزْل، فسقطت من إحداهنَّ شِلَّةٌ، وما كان من لوتشيلاَّ، التي كانت في غاية الرِّقَّة والحنان، إلَّا أن نسيَت المكان الذي توجد فيه، ورفعت صوتها قائلةً: «تناولي شلَّةَ الغَزْل، يا سيِّدتي».

وعلى إثر هذه الصَّيحة، استيقظَ الشَّابُّ واشتعل غضباً لأنَّ لوتشيلاَّ كشفت أمرَه، فنادى العبدَ في الحال، وطلب منه أن يصرَّها في أسمالها نفسِها ويصرفها. وبلون من يغادر مصحَّاً عادَتْ إلى المنزل، فاستقبلتها أختاها استقبالاً سيِّئاً وطردتاها بأقذع الكلام وأقبح الأفعال.

فاضطرَّت إلى أن تهيم على وجهها في العالم وهي تتسوَّل، إلى أن وصلت، تلك التَّعيسة التي كانت حاملاً أيضاً، بعد ألف مشقَّةٍ ومشقَّةٍ،

إلى مدينة تُورِّهْ لونغا[1]. وهناك، قصدَت القصَر الملكيَّ وطلبت مكاناً مع قليلٍ من القشِّ لتستريح فيه، فاستقبلتها إحدى وصيفات البلاط، وكانت امرأةً طيِّبة القلب. وحين حلَّت السَّاعة لتضع حملها، ولدت طفلاً في غاية الجمال بدا وكأنَّه غُصَينٌ من الذَّهب.

في اللَّيلة الأولى بعد الولادة، بينما كان الجميع نياماً، دخل شابٌّ وسيمٌ الغرفةَ، قائلاً:

آه يا بنيَّ الجميل
لو أنَّ أمِّي تعرف!
لكانت غسلتك في وعاءٍ من الذَّهب،
ولكانت قمَّطتك بشالٍ من الذَّهب.
لو أنَّ الدِّيك يتوقَّف عن الصِّياح،
لبقيتُ دائماً بجوارك!

وما إن صاح الدِّيك حتى تبخَّر كما يتبخَّر الزِّئبق. وقد شهدَت الوصيفةُ ذلك، ولاحظت أنَّه في كلِّ ليلةٍ، كان يأتي ذلك الشَّابُّ نفسُه ويكرِّر الأغنيةَ نفسَها، فأرادت أن تُبلغ الملكةَ بالأمر.

وما كان من الملكة، بمجرَّد أن صرفَتِ الشَّمسُ كطبيبٍ من مشفى السَّماء كلَّ النجوم، إلَّا أن أصدرت فرماناً صارماً يقضي بقتل كلِّ ديوك تلك المدينة، فصارت كلُّ الدَّجاجات، بأقلِّ من لمح البصر، أراملَ مُحبطات. وفي المساء، حين عاد ذلك الشَّابُّ، أدركَتِ الملكةُ، التي كانت متربِّصةً له دون أن تهتمَّ بتنقية العدس، أنَّه كان ابنها، فاحتضنته بشدَّة. ولأنَّ اللَّعنة التي تلقَّاها من إحدى الغولات كانت تقضي بأن يبقى هائماً على وجهه، بعيداً عن بيته، إلى أن تحتضنه أمُّه ويتوقَّف الدِّيك عن الصِّياح، فإنَّه

1) تعني حرفيًّا: البرج المديد؛ (المترجمان).

حالما وجد نفسه بين ذراعَي أمِّه أبطلَ تلك التَّعويذة ووضع حدًّا لمفعولها المقيت.

وهكذا، وجدت الأمُّ نفسها وقد حصلت على حفيدٍ كان بهجةً للنَّاظرين، ولوتشيلًّا على زوجٍ كان قِسْمَةً من القدَر؛ وحين سمعت شقيقتاها بأخبار حظِّها السَّعيد، جاءتا بكلِّ وقاحةٍ لزيارتها، ولكنَّهما تلقَّيتا الصَّاعَ صاعَين، واعترفتا، بكلِّ ما اعتمل بداخلهما من غيظٍ، أنَّ:

ثمرةَ الغيرة دَنَفُ القلب[1].

1) L'anticuore، وتعني حرفيًّا آلام المعدة، مع ما يرافقها من غثيانٍ وإرهاقٍ؛ (كروتشِه).

الصَّديق
المؤانسة العاشرة من اليوم الثَّاني

لِكولا ياكوفو أغرانكاتو صديقٌ طفيليٌّ كان يستغلُّه أيما استغلال؛ ولأنَّه لم يستطع التَّخلُّص منه بالحيل والمكائد، يتشجَّع أخيراً ويطرده من بيته مُتبِعاً إيَّاه بسيلٍ من الكلمات النَّابية.

كانت بحقٍّ حكايةً جميلةً رُويَت بأسلوب جميل، وأصغى إليها الحاضرون باهتمامٍ كبير، ونالت الإعجاب. ولكن، لأنَّ كلَّ فاصلٍ صغيرٍ بين الحكاية والأخرى كان يثير أعصاب الأمَةِ ويجعلها تهتزُّ، حُثَّتْ ياكوفا على الاضطلاع بدورها، فوضعت هذه الأخيرة يديها على منابع القوافي لكي تُطفئ عطشَ المستمعين، وهكذا تكلَّمت:

إنَّ قلَّة البصيرة، أيُّها السَّادة، تجعل مسطرةَ الحُكْم الحصيف تسقط من يد التَّاجر، وفرجارَ المهندس المبدع يحيدُ عن مساره، وبوصلةَ البَّحار الرَّشيد تنحرف. إنَّها ترسِّخ جذورها في تربة الجهل، ولا تلد أيَّ فاكهةٍ سوى الخجل والمذلَّة، كما يحدث كلَّ يومٍ، وعلى وجه الخصوص ما حدث لصديقٍ وقحٍ، وهو ما أنا بصدد أن أرويه لكم الآن.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، شخصٌ يدعى كولا ياكوفو أغرانكاتو من بوميليانو، زوجُ مازيلَّا تشيرنيكيا من ريزينا، رجلٌ غنيٌّ كالبحر، وكالبحر يجهل حجم ثروته، لدرجةِ أنَّ خنازيره كانت في الحظيرة وكان يملك من القشِّ ما يكفيه حتى الصَّباح[1]. مع كلِّ هذا،

1) عبارةٌ ساخرةٌ للتَّعبير عن الثَّراء؛ (كروتشه).

ومع أنَّه لم يكن لديه أبناءٌ ولا همومٌ، وكان يقيس فلوسَه بالبوشِل[1]، كانت لا تسقط من جيبه نكلةٌ واحدةٌ ولو ركض مِائةَ ميلٍ؛ وكان يُخضع نفسَه لكلِّ أفانين الحرمان، ويعيش حياة عُسرٍ أسوةً بالكلاب لكي يوفِّر ويكنز النُّقود.

ولكن، بقدر ما كان بخيلاً، كان يحدث كلَّ يومٍ، في السَّاعة التي يجلس فيها على المائدة لتناول ما يسدُّ رمقَه، أنْ يأتي، لسوء حظِّه، ودائماً لحظةَ البدء بالمضغ، كما لو كان يملك ساعةَ يدٍ في بطنه وساعةً رمليَّةً بين أسنانه، صديقٌ جشعٌ ليشاركَ الزَّوجين طعامهما. وبجبين صلبٍ كمِدَقِّ الهاون، كان يتعلَّق بالثِّياب بطريقةٍ كان من غير الممكن فصله عنها حتى بقوَّة الفأس. وكان يُحصي اللُّقَم التي كانا يضعانها في فمهما، ويظلُّ يمزح ويضرب بالعصا، إلى أن يقولا له: "تفضَّل، اخدم نفسَكَ بنفسِك!". وحينئذٍ، دون أن يدعهما يتوسَّلان إليه، كان يحشر نفسه بين الزَّوج والزَّوجة، نهماً وجائعاً، حادّاً كموس الحلاقة، وهائجاً ككلب صيدٍ؛ ومع جوعٍ مستذئبٍ في أحشائه، وسرعةٍ كالبرق – "من أين أنت قادمٌ؟ من المطحنة!" – كان يحرِّك يديه مثل عازف المزمار، ويحملق بعينيه مثل قطٍّ برِّيٍّ، ويشتغل بأسنانه مثل حجر الرَّحى؛ ومبتلعاً بلا مضغٍ، دون أن يترك اللُّقمةَ تنتظر الأخرى، كان شدقاه يمتلآن تماماً، وبعد أن يحشي معدته وكرشه ويصبح مثل الطَّبل، وبعد أن يُظهِر قعور القصعات للعيان ويكنُس الأرضَ كَنْساً، كان ينهض، ودون أن يقولَ: "دمتما بخير"، كان يتناول دورق النَّبيذ ويعبُّ ما فيه، يكرعه كرعاً، يُفرِّغه، يَشْتَفُّهُ ويجفِّفه بنفسٍ واحدٍ، ثمَّ يذهب إلى حال سبيله، تاركاً كولا ياكوفو ومازيلَّا بخطمٍ طولُه شبرٌ!

وحيالَ قلَّة تبصُّر الصَّديق الذي، مثل كيسٍ مفتوقٍ، كان يبتلع، ويجترع، ويلتهم، ويقشطُ، ويمشِّطُ، ويقلِّبُ، ويفترسُ، ويثرثرُ، ويمزمزُ، ويُقَضْقِضُ، ويسحقُ، ويحشو، وينبشُ مثل خنزيرٍ، ويكنسُ بطريقه كلَّ ما يصادفه على الطَّاولة، لم يعرف الزَّوجان ماذا يفعلان لينزعا عن جلدهما

1) مكيالٌ قديمٌ للحبوب؛ (المترجمان).

هذا الطُّفيليَّ، هذه اللَّبخَةَ الجاثمةَ على صدريهما، هذا الإنتانَ بين ساقيهما، هذا الوباءَ الآبيَّ[1]، هذه الذُّبابةَ المزعجةَ، هذا القُرَادَ الثَّقيلَ[2]، هذه المرقَأةَ المؤلمةَ[3]، هذه الجَبيرةَ، هذا الإيجارَ الباهظَ، هذا الكِراءَ الدَّائمَ، هذا الأخطبوطَ، هذه النَّافذةَ المُربِكَةَ[4]، هذا العبءَ وصداعَ الرَّأس. وكانا يتنهَّدان توقاً إلى تلك اللَّحظة التي يمكنهما فيها، ولو لمرَّةٍ واحدةٍ، أن يأكلا بمفردهما، دون وجود ذاك المرافقِ بجانبهما، ودون كلِّ تلك العِظام الشَّرِهة.

في صباح أحد الأيَّام، علما أنَّ الصَّديق كان قد ذهب ليساعد أحد المتصرِّفين خارج بلدتهم، فقال كولا ياكوفو لزوجته: "أوه، فليبارك الرَّبُّ الشَّمسَ في برج الأسد، فلمرَّةٍ واحدةٍ بعد مِائة عامٍ سنكون قادرَين على تحريك الفكَّين، ورفعِ شرائح الضَّأن، ووضعِها تحت أنوفنا دون تلك المضايقة! لذلك، ما دام البلاط يريد تدميري، فأنا أريد أن أدمِّر نفسي بنفسي![5] ففي هذا العالم القذر، يملك المرءُ بمقدار ما ينهش بأسنانه! هيَّا، أشعلي النَّار بسرعةٍ، فقد سنحت لنا هراوةٌ مستقيمةٌ[6] لنتناول وجبةً جيِّدةً، ونريد الحصول على شيءٍ طيِّبٍ وعلى بضع لُقَمٍ لذيذة". وهرع إلى السُّوق ليشتري سمكةَ أنقليسٍ ضخمةً، وبعض الدَّقيق، ومِلْءَ قارورةٍ من

1) مرضٌ يصيب الخيول بسبب شمس آب القويَّة، ويقصد به هنا الشَّخص المزعج؛ (المترجمان).

2) حرفيَّاً: قُرادُ الخيل؛ (المترجمان).

3) المِرْقَأة، أو العاصِبَة، ضاغطٌ لوقف النَّزيف من وعاءٍ دمويٍّ؛ (المترجمان).

4) فتحةٌ أو كوَّةٌ يُستَرَقُ منها النَّظر إلى بيوت الجيران مسبِّبةً لأولئك الجيران شعوراً بالخجل وعدم الارتياح؛ (كروتشه).

5) في إشارةٍ إلى البارونات الذين، حين كانوا يذهبون أو يُدعَون إلى بلاط الأمير، كانوا يتكلَّفون فخامةً وأبَّهةً مبالغٌ فيهما، فيدفعون على ذلك أموالاً طائلةً، وكثيراً ما كان يؤدِّي ذلك إلى إفلاسهم، وكان هذا الأمر يحدث كثيراً في أوساط البارونات في نابولي؛ (كروتشه).

6) يقصد الهراوة في لعبة العصا والوتد (لعبة الحاح كما هو معروف في دول الشَّرق الأوسط)؛ (المترجمان).

نبيذ مانجاغْوِيرًا، ولدى عودته، وجدَ زوجته منهمكةً كلِّيّاً في تحضير فطيرةٍ رقيقةٍ في الفرن، فعاونها هو في قلي الأنقليس.

عندما انتهيا من إعداد كلِّ شيءٍ، أخذا مكانيهما على المائدة؛ ولكن لم يكونا قد جلسا بعد على كرسيَّيهما حتى كان ذلك العَلَقَة يدقُّ على الباب. أطلَّت مازيلَّا، وإذْ رأت من ينغِّص حياتهما، التفتت إلى زوجها وقالت: "يا زوجي العزيز، لا يمكنك أبداً الحصول على شريحة لحمٍ من متجر جزَّار الملذَّات البشريَّة دون أن يكون معها عظم التَّنغيص؛ لا يمكنك النَّوم أبداً في مُلاءات الرِّضا البيضاء دون بعض بعوضِ التَّنكيد؛ لا يمكنك أبداً نَشْرُ غسيل البهجة دون هطول مطر البلايا. ها قد أفسد علينا أكلتنا التَّعيسةَ الحظِّ؛ ها قد بقيت هذه اللُّقمة المريرة عالقةً في حلقينا!". وفي الحال أجاب كولا ياكوفو: "خبِّئي هذه الأشياء التي على الطَّاولة، اجعليها تختفي وتذوب، احشريها حيث لا يمكن رؤيتها، ثمَّ افتحي الباب، فلعلَّه، إن وجد القرية قد نُهبت، يتفضَّل ويغادر من فوره ويتركنا بسلامٍ لنبتلع هذا القليل من السُّمِّ الزُّعاف!".

وبينما كان الصَّديق يدقُّ بإصرارٍ ويقرع أجراس المجد، كانت مازيلَّا قد حشرت الأنقليس في خزانةٍ، وقارورةَ النَّبيذ تحت السَّرير، والفطيرةَ بين مَراتب الفِراش. واختبأ كولا ياكوفو تحت الطَّاولة ليراقب المشهد من ثقب المفرَشِ المتدلِّي حتى الأرض. رأى الصَّديق كلَّ هذا الهَرْجَ عبر ثقبِ المفتاح، وعندما فُتِحَ الباب أخيراً، دخل إلى الغرفة بوجهٍ صفيقٍ، وهو يتظاهر بالذُّعر والذُّهول. وحين سألته مازيلَّا عمَّا حدث له، أجاب: "في أثناء الفترة التي جعلتِني فيها أكابدُ الكثير من التَّشنُّج والمغص خارج الباب، كما لو في انتظار عودة الغراب ليحثَّك على فتح الباب، انسلَّت أفعى بين قدميَّ؛ أوه، يا أمِّي، كم كانت ضخمةً وقبيحةً! يمكنك أن تتصوَّري أنَّها كانت بحجم الأنقليس الذي خبَّأتِهِ في الخزانة. وإذْ وجدتُ نفسي في وضعٍ سيِّئٍ، أرتجف كعود القصب، وأحشائي مضطربةٌ من الرُّعب،

وجسمي منكمشٌ من الخوف، تناولتُ حجرةً عن الأرض، بحجم القارورة التي تحت السَّرير، ورميتُها بها! فأصبتها على رأسها وهرستها كتلك الفطيرة المهروسة بين المَراتِبْ. وبينما كانت تلفظ أنفاسها وتتخبَّط، لاحظتُ أنَّها كانت تراقبني، كما يفعل الصَّديق من تحت الطَّاولة، فلم يبق في عروقي قطرة دمٍ واحدةٌ من شدَّة الخوف والهلع!".

لدى سماعه هذه الكلمات التي لم يستطع هضمها بأيِّ شكلٍ من الأشكال، لم يتمكَّن كولا ياكوفو من ضبط نفسه، فأخرج رأسَه من تحت مفرشِ الطَّاولة، مثل متنكِّرٍ يطلُّ على المسرح، وبدأ يقول: "إن كان الأمر كذلك، فإنَّها مشكلةٌ كبيرةٌ! نعم، لقد ملأنا المِغْزَلَ الآن، إيه! نعم، لقد خبَزنا الخبزَ الآن، إيه! نعم، لقد ربحنا المعركةَ الآن، إيه! إن كنَّا مدينين لك بشيءٍ، فاشكنا إلى محكمة باليفا؛ إن كنَّا قد سبَّبنا لك إزعاجاً، فأقم علينا دعوى لدى محكمة تْزيكَّا؛ إن كنت تشعر أنَّ مشاعرك قد جُرِحَت، فقيِّدني بحبلٍ قصيرٍ[1]؛ إن كانت لديك بعض النَّزوات، فعالج نفسك بالحقنة الشَّرجيَّة؛ إن كنت تريد شيئاً منَّا، فلاحقنا بذيل الثَّعلب[2]؛ أو اصفعنا على أنفينا في نابولي! أيُّ شروطٍ هذه؛ وأيُّ أسلوبٍ في العمل أسلوبك هذا؟ إنَّك تتصرَّف كجنديٍّ محتلٍّ[3] يريد الاستيلاء على أغراضنا دون خجلٍ! كان عليك أن تكتفي بالإصبع، ولكنَّك أخذت اليد كلَّها، وتريد أن تطردنا من هذا البيت مع كلِّ هذه المتاعب التي تسبِّبها لنا! إنَّ مَن يفتقر إلى البصيرة يحسبُ العالَم كلَّه ملكاً له، ولكن مَن لا يزن أفعاله يزنها له الآخرون، وإن كنت لا تملك نصف قصبةٍ، فنحن نملك بكراتِ غزلٍ

1) أي كما يفعلون مع الحيوانات لئلَّا تهرب؛ (كروتْشِه).

2) المنفضة التي تزيل الغبار؛ (كروتْشِه).

3) إشارةً إلى المضايقات التي كان يتسبَّب بها الجنود لدى إقامتهم في البيوت الخاصَّة؛ (كروتْشِه).

ومَراقيقَ عجين. وفي النِّهاية، أنت تعرف ما يُقال: الجبهة الجيِّدة تستحقُّ ضربةً جيِّدة. لذلك، كلُّ قشَّةٍ إلى حَشيَّةِ التِّبن، واتركنا لمآسينا. من الآن فصاعداً، إن كنت تعتقد أنَّ بإمكانك مواصلة هذا الموشَّح، فإنَّك تفقد خطواتك ولن تستطيع فعل شيءٍ حيال ذلك؛ وسوف تفقد كلَّ عتادك، ولن تجري الرِّياح بما تشتهي سفنُك. إن كنت تظنُّ أنَّ بإمكانك أن تواصل النَّوم في هذا الفراش الوثير، فلديك الوقت لذلك، هيَّا، عليك بذلك! لقد حرمك آذارُ[1] منه! اذهب واحصل على عود سِواكٍ إن كنت تعتقد أنَّ هذه حانةٌ مفتوحةٌ لحلقك النَّتنِ! فانظرْ كيف تركضُ وتُولجُ رمحَكَ في الحلقة[2]! انسَ ذلك، انزعه من رأسك؛ إنَّه جهدٌ مهدورٌ، إنَّه منزلٌ في الرِّيح، ولم يَعُدْ لك لا قلمٌ ولا شَقٌّ للتَّطعيم! لقد استرقتَ النَّظر إلى السَّلِسِ واللَّذيذ؛ ووضعتَ نصب عينيك النَّفيس؛ وسبرتَ غور الحمير؛ وعثرتَ على أرض النَّعيم! فعُد الآن من حيث أتيت، لأنَّه لم يعُد هناك ما يمكن صنعُه لك، ويمكنك أن تسمِّي هذا البيتَ ريشةً[3]، لأنَّك لن تسحب الماءَ بدلوي بعد الآن؛ وإن كنتَ جاسوسَ مآدب، أكَّالَ خبزٍ، ماسحَ موائد، كاسحَ مطابخ، لاعقَ أوانٍ، ملمِّعَ أطباقٍ، حلقاً واسعاً، قناةَ تصريفٍ؛ إن كنتَ مصاباً بالشَّراهة، بنهامةِ ذئبٍ، بفيضٍ في الأحشاء وارتخاءٍ في الأمعاء ممَّا يمكِّنك من ابتلاعِ حمارٍ والتهامِ سفينةٍ، ومن وضع دبِّ الأمير[4] في فمك، وعَبِّ الكأس المقدَّسة، لدرجةِ أنَّ نهرَي تِفِرهْ وأرنو لا يرويان عطشك، وسراويل ماريا‌تشو لا تسدُّ رمقك[5]، فلتذهبْ إلى كنائس أخرى، اذهبْ واسحب

1) إشارةٌ أخرى إلى الأمراض التي يُحدثها شهر آذار/مارس بأجوائه المتقلِّبة؛ (كروتشِه).

2) إشارةٌ إلى لعبة الحلقات، وتتلخَّص في إيلاج الرُّمح في الحلقة في أثناء الرَّكض؛ (كروتشِه).

3) تُقال لشيءٍ لا يمكن العثور عليه؛ (المترجمان).

4) كان من الشَّائع آنذاك أن يربيَ النُّبلاء دببةً في قصورهم وحدائقهم؛ (المترجمان).

5) مثلٌ شعبيٌّ لا يخطر ببالي الآن مثالٌ آخر له؛ (كروتشِه).

شبكةَ الصَّيد، اذهبْ واجمع الخِرَق من بين النُّفايات، اذهبْ وابحثْ عن المسامير في الحمم البركانيَّة، اذهبْ واجمع الشَّمع من الجنازات، اذهبْ وسلِّك مواسير المراحيض لتحشي هذا الحلقوم! وليكن هذا البيتُ ناراً لك؛ لأنَّ لكلِّ امرئٍ مشاكله، وكلُّ امرئٍ يعرف ماذا يخبِّئ تحت ملابسه، وكلُّ امرئٍ يعرف ما يُثقل معدته، ولسنا في حاجةٍ إلى مثل هذه الصَّفقات المنهارة، وهؤلاء الزَّبائن المفلسين، وهذه الرِّماح المكسورة! من يستطع أن ينقذ نفسه، فليفعل: وحريٌّ بك الآن أن تنفطم! أيُّها الطَّائر المتبطِّل، أيُّها القُعَدَة العديم الفائدة، أيُّها الكسول! اذهبْ واعملْ، اذهبْ واعمل! تعلَّم حرفةً، ابحث لكَ عن معلِّم!".

وحين سمع الصَّديقُ المنحوسُ هذا الكلامَ يخرج من بين الأسنان، وهذا القيحَ يخرجُ من الدُّمَل، وهذا النَّدفَ بلا خيزرانةٍ، تثلَّج وتجمَّدت أطرافه، مثل لصٍّ ضُبط بالجرم المشهود، مثل حاجٍّ ضلَّ طريقه، مثل بحَّارٍ تحطَّمت سفينته، مثل عاهرةٍ فقدت زبائنها، مثل طفلٍ بلَّل سريره. وبلسانه بين أسنانه، وبرأسٍ مطأطأٍ، ولحيةٍ ملتصقةٍ بصدره، وعينين دامعتين، وأنفٍ مُنْتِنٍ، وأسنانٍ متجمِّدةٍ، ويدين خاويتين، وقلبٍ مُضنَىً، وبذيلِهِ بين ساقَيه، لمَّ شعثَ نفسِهِ وخرجَ بهدوءٍ شديدٍ، خطوةً خطوةً، رويداً رويداً، صامتاً وأخرسَ، دون أن يدير رأسه مرَّةً أخرى إلى الخلف، مستذكِراً بينه وبين نفسه ذلك القول المأثور:

الكلب الذي يذهب إلى حفل الزِّفاف بلا دعوةٍ،

عليه أن يتوقَّع العودةَ مضروباً.

ضحك الجميعُ على مذلَّةِ الصَّديق الوقح، حتى إنَّهم لم

يلاحظوا أنَّ الشَّمس، لكونها أسرفت في إنفاق الضَّوء، كانت قد أصيبت بالإفلاس، فنفذَتْ بجلدها بعد أن وضعت المفتاح الذَّهبيَّ تحت الباب. ولكنَّ كولا أمبروزو وماركيونُّو، اللذَين كانا قد خرجا بفخذيَّاتٍ من الشَّمواه وسترتين من النَّسيج المقطَّع إلى شرائط لكي يمثِّلا المشهد الثَّاني، أيقظا آذان الجميع ليصغوا إلى المرثيَّة في المشهد الرَّعويِّ التَّالي.

الصِّباغة
مشهدٌ من الأدب الرَّعويِّ

كولا أمبروزو وماركيونُّو

كولا أمبروزو: من بين كلِّ المهن، يا ماركيونُّو،
نحن مدينون للصِّباغة، كما قال لا أعرف
إن كان أجيراً أو طاهٍ،
بمنحها المَمْدَحَةَ الأولى والمقامَ الأوَّل.
ماركيونُّو: أنا أنكر هذه الخُلاصةَ، يا كولا أمبروزو،
لأنَّ هذه المهنة قذرةٌ،
تتركك دائماً بيدين ملوَّثتَين
بالعفصة، بزيت الزَّاج وملح الشَّبَّة[1]،
كوجهٍ من الفحم[2].
كولا أمبروزو: بل هي الأكثر نظافةً
بين كلِّ المهن،
إنَّها بحقٍّ مهنة رجلٍ
يريد أن يبدو نقيَّاً وهو متَّسخ.
ماركيونُّو: هل تحاول أن تقول لي
إنَّه بمستوى العطَّار
أو المطرِّز!
هيَّا تراجع، هيَّا، لقد ارتكبتَ خطأً!

---

1) أو بالأحرى بيدين مسودَّتين من المواد المستخدمة من قبل الصَّبَّاغين ومن العصير الذي يتم استخراجه من جَوْزات العَفْصِ؛ (كروتْشِه).

2) الإشارة المعهودة إلى الأرقَّاء من العرب والأتراك؛ (كروتْشِه).

كولا أمبروزو: أريد أن أثبتَ لك
وأحفظَ داخلَ فرنٍ
أنَّ مهنة الصَّبَّاغ
عملٌ يليق بسيِّد.
إنَّها من بين كلِّ المهن الرَّائجة اليوم،
مهنةٌ يعيش بها الرَّجل
ويكون له اعتباره بين النَّاس،
وإن كان لديه عيوبٌ في الجسد،
أو رذائلُ في الصَّدر،
بالصِّبغة يغطِّي كلَّ عيب.
ماركيونُّو: وما العلاقة بين رذائل الحياة
وصبغة الصُّوف والكابيشولا؟[1]
كولا أمبروزو: أرأيت كيف أنَّك لا تعرف شيئاً!
أنت تعتقد أنَّني أتكلَّم
عن صَبْغِ الجوارب أو الأنسجة العتيقة!
الصَّباغ الذي أتكلَّم عنه
يختلف تماماً عن النِّيلةِ أو العَنْدَم،[2]
إنَّه صِباغٌ يجعل لون الرَّيحان يبدو
كلون البشرةِ في أعين الناس!
ماركيونُّو: لقد حُشِرتُ داخل كيسٍ؛
ولا أفهم ممَّا تقوله شيئاً؛
وكلامك هذا يُشْكِلُ عليَّ ويبلبلني!
كولا أمبروزو: لو تُصغي إليَّ

1) حريرٌ رديء النَّوعيَّة؛ (كروتْشِه).

2) خشبٌ كان يُستخلص منه اللَّون الورديُّ؛ (كروتْشِه).

فأعلِّمُكَ كيف تصبح صبَّاغاً،
أو على الأقلِّ كيف تميِّز الصَّباغين،
وستشعر بمتعةٍ عظيمةٍ
في تعلُّم هذه المهنة الجديدة، المهنةِ الرَّائجةِ
بين أكثر النَّاس دهاءً،
مهنةٍ تجعلُ، في طرفةِ عينٍ،
الخنفساءَ تبدو هرَّةً!
أصغ إليَّ: قد يكون أحدهم أزعرَ فائقَ الدَّهاء،
يكشطُ كلَّ ما يجد في طريقه وما يقع في مرمى عينيه،
وينشلُ كلَّ ما يرى،
وينتزع كلَّ ما يعثر عليه؛
ولكن الآن، من يعرف هذه الصِّبغة
لا يمنحه لقباً شائناً
كلصٍّ ونشَّالٍ،
أو كماكرٍ وأزعر،
بل سيقول إنَّه يستخدم
عقله ويحصل على النُّقود
من تحت الأرض،
وإنَّه يكسب لقمةَ عيشه ويمكنه
أن يتدبَّر أموره حتى داخلَ غابة،
وإنَّه يستغلُّ الفُرَصَ، وهو شابٌّ طيِّبٌ،
سمكةُ قاروسٍ ماكرةٌ، فتىً شديدُ الذَّكاء،
قرصانٌ حاذقٌ[1]،

1) حرفيًّا: قرصانُ بوتقةٍ؛ أي ماهرٌ مثل الصَّائغ الذي يتقن اختبارَ الذَّهب في البوتقة؛ (المترجمان).

شخصٌ لا يفقد قبَّعته في الزِّحام.
وباختصارٍ، مع هذه الصِّبغة،
اللَّطيفة جدّاً والأنيقة،
يحصل الأزعر الكبير على لقبِ الحصيف!
ماركيونُّو: يا إلهي، إنَّك تسحب البساطَ من تحت قدميَّ!
إنَّها مهنةٌ رائعةٌ حقّاً،
مع أنَّها لا تُفلح مع الفقراء،
وإنَّما مع طبقةٍ معيَّنةٍ،
مع أولئك الذين يجيئون من مكانٍ بعيدٍ،
ومُباحٌ لهم أن يُسَمُّوا، بأقصى ما فيهم من غلظةٍ،
غنائمَهم بحبوحةً، وسرقاتِهم عوائدَ!
كولا أمبروزو: خذ مثلاً شخصاً كسولاً مارقاً،
يهوديّاً خرَّاءً في سرواله، دجاجةً،
شخصاً خاويَ الرُّوح،
بقلبِ صوصٍ،
خوَّافاً، خوَّاراً،
رعديداً وهُلَعَةً،
يرتعش مثل قصبةٍ؛
الذُّعر معشِّشٌ دائماً في مؤخِّرته،
ودائماً مصابٌ بالدُّود؛
جباناً خرَّاءً،
يَفْرَقُ حتى من ظلِّه؛
وإن حملق إليه أحدٌ
أُصيبَ بالزُّحار؛
وإن آخر هدَّدَه، رأيته

مثل السُّمانى المنتوف[1]،
ينشفُ دمُه ويصبح شاحباً،
وينعقدُ لسانُه،
وترتخي أمعاؤه ويسيلُ برازُه،
وإن حرَّك أحدٌ يداً واحدةً، سحبَ المرساةَ وهرب:
ولكن مع هذه الصِّبغة النَّبيلة
يراه النَّاسُ شخصاً حصيفاً،
شخصاً رزيناً، رجلاً صالحاً
يشقُّ طريقه بالمِطْمار[2] والفرجار؛
لا يأخذ الأمور بتهوُّرٍ،
ولا بالدَّفع نقداً
يشتري النِّزاعات؛
وهو لا يتسكَّع حول البِلاطات،
ولا يهتمُّ إلَّا بشؤونه؛
هادئٌ وصامتٌ.
على هذا النَّحو، يا بنيَّ،
ثعلباً يُحسَبُ مَن هو أرنب!
ماركيونُّو: يبدو لي فهيماً
مَن ينفذ بجلده:
فذات مرَّةٍ قرأتُ في قصَّةٍ،
لا أذكر إن كانت
مخطوطةً أم مطبوعةً،

1) تلميحٌ جديدٌ إلى يهود ذلك الوقت الذين أطلق عليهم بازيلِه هذه التَّسمية هنا وفي «المُلهمات النَّابوليتانيَّات»؛ (كروتشِه).

2) خيطٌ يُمَدُّ لاختبار استقامة البناء واستوائه؛ (المترجمان).

أنَّ هروباً جميلاً يُنقذ حياةً بأكملها[1].
كولا أمبروزو: ولكن بعد ذلك، على الجانب الآخر،
ترى رجلاً شريفاً،
رجلاً يركب الأخطار، رجلاً شجاعاً
لا يقلُّ جدارةً عن رودومونتهِ[2]،
ويُقارعُ رأساً لرأسِ أورلاندو،
ويتبادلُ اللَّكمات مع هِكتور[3]
الذي لا يسمح لذبابةٍ بالمرور
قرب أنفه، ويقدِّمُ الأفعالَ
على الأقوال،
ويُبقي كلَّ متنمِّرٍ وزعيم عصابةٍ
تحت قبضته،
ويحشرُ قدميه في فردةِ حذاءٍ واحدة؛
بيدَين قويَّتين يضرب،
وبقلب أسدٍ
يبارزُ الموت؛
أبداً لا يتراجع خطوةً إلى الوراء، ودائماً يُناطحُ
مثلَ تَيس؛
ولكن لو عُومِل بهذه الصِّبغة،
لَعَدَّهُ الجميعُ سافلاً اِبْنَ كَلْبٍ ووقحاً،
متهوِّراً ومتغطرساً،
غريبَ الأطوار ومخبولاً مُرهَف العواطف،

1) محاكاةٌ ساخرةٌ لبيتٍ شعريٍّ لبترازكا: «ميتةٌ جميلةٌ تشرِّف حياةً بأكملها»؛ (كروتشِه).

2) المحاربُ العربيُّ في ملحمة "أورلاندو الهائج" كرمزٍ للقوَّة العمياء؛ (المترجمان).

3) بطل طروادة الأسطوريُّ في الميثولوجيا الإغريقيَّة؛ (المترجمان).

صبيًّاً عفريتاً، وناراً تأتي على الأخضر واليابس،
يتعثَّر بكلِّ حجرة،
ويبحث عن العراكِ بخيزرانةٍ؛
رجلاً بلا عقلٍ،
بلا زِمامٍ ولا لِجامٍ،
لا يمرُّ يومٌ دون أن يتحرَّش بالنَّاس،
فيضايق الجيران،
ويستفزُّ حتى حجارةَ الشَّارع؛
وباختصارٍ، الرَّجلُ الذي رأيناه
يستحقُّ القوافي، نقول الآن إنَّه يستحقُّ المجداف![1]
ماركيونُّو: اصمتْ، إنَّهم محقُّون،
لأنَّ الرَّجل الحكيم والرَّصين
هو ذاك الذي يجعل النَّاس يقدِّرونه بلا سيفٍ!
كولا أمبروزو: وأضربُ لك مثلاً رجلاً بخيلاً،
شخصاً دنيءَ النَّفس،
بحزامٍ مشدودٍ،
وكيس نقودٍ مُقفَلٍ، وكمَّاشةِ
سمكريٍّ، شحيحاً مصاباً بالإمساك،
قَضَّامَ مسامير،
حصاناً من سيينا[2]،
كبَّاداً ناشفاً،

1) مجداف سفينةٍ، أي السَّفينة التي تنقل السُّجناء، فقد كان شائعاً استخدام المساجين على متنها في التَّجديف؛ (كروتشِه).

2) أي بخيلاً؛ والعبارة مجهولةُ الأصل: قد تشير إلى ضمور أحصنة سيينا، أو إلى سوء نوعيَّتها بسبب البروز الموجود في قوائمها؛ (كروتشِه).

فلِّيناً لَزِجاً، بذرةَ برقوقٍ،
نملةَ شجرِ الغُبَيراء، ضنيناً،
أبَ البؤسِ كلِّه، أنفه في التُّراب،
ومثل حصانٍ رفَّاسٍ
يعطيكَ رفستين
قبل أن يعطيكَ شعرةً من ذيله؛
حقيراً ويابسَ الكفِّ
يعدو مِائةَ ميلٍ
ولا يسقط منه قرشٌ واحدٌ،
ويقضم حبَّة الفاصولياء مِائةَ قضمة،
ويعقد مِائةَ عقدةٍ
حول نصف فلسٍ،
ولا يتغوَّط أبداً لئلَّا يأكل:
ولكنَّه يجد الحلَّ فوراً في هذه الصِّبغة،
فيُقال إنَّه رجلٌ مدَّخِرٌ،
لا يرمي أو يفرِّق إسرافاً ما يملك،
ولا يجعل الأشياء
تنزلق مع الماء بعيداً،
وإنَّه ربٌّ بيتٍ صالحٌ،
لا يُسقِطُ كسرة خبزٍ على الأرض:
وفي النِّهاية يُدْعَى
(ولكن مِن قِبَل بعض الأوباشِ فحسب)
فرجاراً مَن ليس سوى كمَّاشة!
ماركيونُّو: آه، فليزدهر هذا الصَّنف

الشَّغوف بالمال!
هذا الذي يتَّبعُ حِمْيَةً دون وصفة طبيب،
ويرتدي كومةً من الأسمال،
تراه دائماً مغموماً،
ويتصرَّف دائماً كالمتسوِّلين والخَدَم،
ويموت ضامراً في وسط الدُّهن!
كولا أمبروزو: ولكنَّ الوجه الآخر للعملة
هو ذاك الذي يُنفِق ويبذِّر:
يمكنه أن يفرِّغ سفينةً كاملةً،
وأن يستنزف داراً لسكِّ العملات،
كيسٌ مثقوبٌ، يسقطُ منه كلُّ ما فيه،
وبأملاكه أبداً لا يبالي.
تراه محاطاً بمئاتِ
الطُّفيليِّين والسَّفلة الدَّنيئين
الذين لا يملكون أيَّ فضيلةٍ،
وهو يُمطِرُهُم وابلاً من المكافآت.
يُبَعزِقُ بلا حكمةٍ،
ويُسْرِفُ بلا بصيرةٍ؛
يُغدِقُ على الكلاب والخنازير،
وهباءً تذهب أموالُه؛
ولكن مع هذه الصِّبْغة يكتسب صيتَ
امرئٍ معطاءٍ،
طيِّبِ الأعراق، فيَّاحٍ ولطيفٍ،
مستعدٌّ لأن يهبك بؤبؤَي عينيه،

صديقٍ لكلِّ الأصدقاء،
تفوح منه رائحةُ ملكٍ[1]، وأبداً لا يردُّ سائلاً،
وبهذا الوجه اللَّطيف،
يُفرغ خزائنه ويدمِّر بيتَه!
ماركيونُّو: يكذبُ من حَلْقِهِ
كلُّ مَن يدعو واحداً من هؤلاء كريماً:
الكريم هو من يُنفِقُ في الوقت والمكان المناسبَين،
ولا يبدِّدُ قرشاً واحداً
على أناسٍ بلا شرفٍ ومحتالين،
بل يُنفِقُ أمواله
على الفقراء الشُّرفاء والفاضلين.
كولا أمبروزو: وترى الآن ديُّوثاً،
قِدْراً طافحةً،
خروفاً غزير الصُّوف،
رجلاً مقرَّناً، تيساً ضخماً، يقفز وينطح،
بيتاً ببابين، قرنَ أحذيةٍ[2]،
قادماً من كورنيتو[3]
ويسكن في فورتشيلاَّ[4]،
قوَّاداً، عجلاً مخصيَّاً،
لوحةً أصليَّةً للخزي وبورتريه للدَّعارة:

1) أي محظوظ جدَّاً؛ (المترجمان).

2) القرن أو الأداة التي تُستخدَم لتسهيل دخول القدم في الحذاء؛ (المترجمان).

3) بلدٌ خياليٌّ لذوي القرون؛ (المترجمان).

4) أحد أحياء نابولي؛ (المترجمان).

ولكن لو صُبِغَ هو الآخر
لَدَعَوه رجلاً هادئَ الطِّباع، رجلاً عفيفاً،
رجلاً مهذَّباً لا يتدخَّل في شؤون الآخرين؛
وصديقاً للجميع،
ولطيفاً مع الجميع،
يفتح باب داره لجميع الأصدقاء،
ولا يمشي بموكبٍ ولا يتفاخر،
طيِّباً كالخبز،
حلواً كالعسل،
تفعل به ما تشاء،
وفي الوقت نفسه، دون خجلٍ أو وجل،
يتاجر باللَّحم ويوفِّر العظم!
ماركيونُّو: في رغدٍ من العيش هؤلاء اليوم:
ويمكن للواحد منهم
أن يرى بوضوحٍ حتى إذا خرجَ ليلاً إلى الحانة،
طالما أنَّ ضوء الفانوس ينبعث من بين عظامه[1].
كولا أمبروزو: وهاكَ رجلٌ يعيش في عزلةٍ،
لا يَقْرَبُ النَّذالةَ والخِداع،
يتهرَّب من الصُّحبةِ،
فهو لا يريدُ صداعَ الرَّأس،
ولا أن يكون مسؤولاً
أمام طرفٍ ثالثٍ أو رابع؛
يعيش دائماً هادئ النَّفْس،

---

1) تعبيرٌ غامضٌ عن الأزواج الذين يتغاضون عن خيانات زوجاتهم لهم؛ (المترجمان).

سيِّدَ نفسه،
ليس هناك من يوقظه حين ينام،
أو يُحصي عليه لقماتِهِ حين يأكل:
ومع ذلك، هناك مَن يصبغه
ويدعوه انطوائيَّاً ومتوحِّشاً،
خُرَاءَ باشقٍ
لا عطرَ لهُ ولا نتانة[1]،
صعبَ المراس ومَلِيحاً،
فظّاً خشنَ الطِّباع،
رجلاً بلا نكهةٍ وبلا قلب،
صعلوكاً، بربريَّاً،
عبيطاً، معكرونةً بلا ملح.
ماركيونُّو: أوه، مغبوطٌ مَن يعيش في الصَّحراء،
لأنَّه لا يرى ما يُغضب!
دعهم يقولون ما يحلو لهم: فأنا أراه موثوقاً
المثلَ القائلَ:
"البقاء وحيداً خيرٌ من صحبةٍ سيِّئة".
كولا أمبروزو: ولكن بعد ذلك، على الجانب الآخر،
تجد محادثاً لبقاً،
كأنَّه اللَّحمُ والظِّفرُ لأصدقائه،
خِلّاً ودوداً
يعاملك ببساطةٍ وعفويَّة:
ولكن مع هذه الصِّبغة – مَن يصدِّق ذلك؟ –

1) ليس جيِّداً ولا سيِّئاً، مثل ذرق الباشق الذي كان يعتقد أنَّه بلا رائحة؛ (كروتشِه).

يجدُ مَن يقطِّعه ويمزِّقه شرَّ ممزَّقٍ،
يرتقه ويفتقه، ويحلِّقه بعكس اتِّجاه الشَّعر،
ويحرِّك قضيَّةً ضدَّه من وراء ظهره
مسمِّياً إيَّاه صفيقاً، ومخادعاً،
وضَرِطاً في سرواله،
وجبيناً مقرَّناً،
ورِبَاطَ حذاءٍ مقطوعاً،
وسفيهاً، وبقدونسَ لأيَّةِ صلصة،
يضع الملح في كلِّ ما يراه،
ويضع أنفه في كلِّ ما يشمُّه،
وقحاً، ومتغطرساً، ومتطفِّلاً:
خذ هذا واصرفه، أيُّها البائس!
ماركيونُّو: هناك هذا، وهناك ما هو أسوأ!
وقد وعى الأمرَ ذلك الإسبانيُّ
الذي قال قبل زمنٍ بعيدٍ:
"كثرة التَّشكِّي تُوْرِثُ الازدراء!".
كولا أمبروزو: وإن كان رجلٌ مُصادفةً
يتكلَّم بطلاقةٍ، يُدَردِشُ ويُحادث،
يُفاخر بفطنته وبلاغته،
وحيثما لمستَهُ وكيفما قلَّبتَه
وجدتَه خبيراً حاضرَ الجواب،
فإنَّ هذه الصِّبغة تقلبهُ بحيثُ يُدعَى
قبَّعةَ ثرثارٍ مِهذارٍ،
حَلْقَ مجرورٍ،

شخصاً يفوق الجداجدَ هَذْراً،
والعقاعقَ هُذَاءً،
يجعل رأسكَ يطنُّ ويُفقدكَ صوابك
بالمفترَياتِ والملفَّقات،
بحكاياتٍ كثيرةٍ عن الغيلان[1]،
وبكثيرٍ من الهمس والهسهسة،
بحيثُ، حين يحرِّك ذلك اللِّسان
مع فمٍ يشبه مؤخِّرة الدَّجاجة،
يُعْديك ويشوِّشُكَ ويُصِمُّ أذنيك.
ماركيونُّو: في حقبة الحمير هذه
افعل ما تشاء، وستكون مخطئاً دوماً!
كولا أمبروزو: ولكن إن كان شخصٌ آخر صامتاً وأبكمَ،
سَكُوتاً، يُطْبِقُ فمه ويسدُّه،
ويوفِّرُه لأكل التِّين،
ولا تسمع همسةً واحدةً تخرج منه،
فإنَّ هذه الصِّبغة تغيِّر لونه،
فيصيرُ يُدعَى أنطوُوْنو، مغفَّلاً،
رخواً، أحمقَ، غبيَّاً،
جذع حطبٍ يصلحُ للجحيم،
بارداً وجامداً دائماً،
مثل عروسٍ زُوِّجَت رغماً عنها.
لدرجة أنَّني لا أرى لهذا الخليج
أيَّ ريحِ شمالٍ:

1) سخريةٌ ذاتيَّةٌ، لأنَّ أوَّل حكاية في هذا الكتاب هي بعنوان «الغول»؛ (كروتشِه).

إن تكلَّمتَ، ويلٌ لكَ، وإن لم تتكلَّم، فالأمرُ أسوأ!
ماركيونُّو: إنَّها الحقيقة؛ ففي وقتنا هذا
لا تعرف كيف تتصرَّف،
لا تعرف أين تصطاد،
وليس ثمَّةَ من طريقٍ معبَّدٍ لتمشي فيه:
طوبى لمن يدركه في هذا العالم!
كولا أمبروزو: ولكن من يستطيع أن يصل إلى حرف الرَّاء[1]
في تعداد آثار الصِّبغة؟
الأمر يتطلَّب ألف عامٍ بلا شكٍّ،
ولن تكفي لغةٌ من معدن!
افعل بها ما تشاء،
تعامل بها كما يحلو لك؛ ففي جميع الأحوال
سوف يتغيَّر لونه ويدعى
ظريفاً مسلِّياً
البُهلولُ المهرِّجُ؛
جاسوساً، مَن يعرف خريطةَ
شوارع العالَم؛
وغداً، الدَّاهيةُ وسمكةُ الميناء؛[2]
خاملاً، الرَّجلُ الهادئُ الطِّباع؛
نَهِماً، الرَّجلُ الذي يعرف كيف يعيش؛
متملِّقاً، رجلُ البلاطِ الحصيفُ،
الذي يعرفُ مزاج

1) أي حتى نهاية الأحرف الأبجديَّة، فقد كانوا يستعملون في تلك الحقبة، كما في الكتاتيب في البلاد العربيَّة، ترنيمةً تشبه «أبجد هوَّز، حطِّي كلمن ...إلخ»، وكانت تنتهي بحرف الرَّاء؛ (المترجمان).

2) كان يُعتقد أنَّ الأسماك التي تعيش في مياه الموانئ تتَّصف بحذاقةٍ مميَّزة؛ (المترجمان).

سيِّدِه،
ويعرف كيف يسرُّ خاطرَه؛
عاهرةً، المهذَّبةُ والحسنةُ السُّلوك؛
جاهلاً، السَّاذجُ والطَّيِّب.
وعلى هذا المنوال يمكنك أن
تمضي محدِّثاً ومحدِّثاً بما يكفي!
ولذلك لا غروَ إن رأيتَ في البلاط
السَّافلَ متنعِّماً،
والطَّيِّبَ مُملقاً،
لأنَّ السَّادةَ بألوان الصِّبغةِ
يحجبون لونيهما
فيخطئون ويخلطون بين هذا وذاك،
كما شاهدناهم دائماً
يستبدلون الشِّرِّيرَ بالطَّيِّب[1].
ماركيونُّو: سيِّئ الحظِّ من يعمل خادماً!
أوه، كان من الأفضل
لو أنَّ أمَّه ولدته ميِّتاً!
يخوض الأعاصير ولا أمل له أبداً بميناء.
كولا أمبروزو: البلاط ملائمٌ
للزَّائفين فحسب،
وهو يُبعد أولئك الصَّالحين،
يركلهم ويدحرجهم ويطردهم بعيداً.
ولكن كفانا من هذه القصص:

---

1) في إشارةٍ إلى تجربته الشَّخصيَّة في بلاط الأمراء؛ (كروتشِه).

لأنّني، حين أبدأ بهرشِ موضعٍ يحكّني،
لن أنتهي غداً ولا بعد غدٍ:
ولذلك فلنختم قولَنا هذا ولننصرف،
طالما أنَّ الشّمس تلعب الغُمَّيضةَ الآن،
وفي أمسيةٍ أخرى نواصلُ الحكاية!

وفي وقتٍ واحدٍ، أغلقَ كولا أمبروزو فمه، والشُّمسُ أغلقَتِ النَّهار؛ وهكذا، بعدما اتَّفقوا على العودة في صباح اليوم التَّالي مع مخزونٍ جديدٍ من الحكايات، غادروا جميعاً إلى منازلهم، مُتخَمين بالكلمات ومثقَلين بالشَّهيَّة إليها.

نهاية اليوم الثَّاني

اليوم الثَّالث
من مؤانسة الصِغار

مع طلوع الشَّمس، وحالما أُطلِقَ سراح كلِّ الظِّلال التي كانت قد سجنتها محكمةُ اللَّيل، عاد الأمير وزوجته بصحبة النِّسوة إلى المكان نفسه لتمضية ساعاتٍ ممتعةٍ في الفترة ما بين الصَّباح ووقت الغداء، فأتوا بموسيقيِّي آلات النَّفخ وراحوا يرقصون ببهجةٍ كبيرةٍ رقصات روجييرو، وبنت الرِّيف، وحكاية غول البحر، وسفيسَّانيا، والفلَّاح المضروب، طوال اليوم مع رقصة الحمامة الصَّغيرة، ورقصة ستورديليونهْ، ورقصة الحوريَّات الخفيضة، ورقصة الغجريَّة، ورقصة الفتاة المتقلِّبة الأهواء، ورقصة نجمتي البصيرة، ورقصة ناري الغراميَّة الحلوة، ورقصة تلك التي أبحث عنها، ورقصة المرأة الفاتنة والصَّبيَّة الفاتنة، ورقصة القوَّاد، ورقصة الفتاة الطَّويلة والفتاة القصيرة، ورقصة الكيارانتانا مع مدِّ القدم، ورقصة انظروا من الذي وقعتُ في حبِّه، ورقصة افتحْ لي ولن تندم، ورقصة الغيوم التي تسافر مع الرِّيح، ورقصة الشَّيطان في قميصٍ، ورقصة العيش على الأمل، ورقصة بدِّل أوراقك، ورقصة كاسكاردا، ورقصة الفتاة الإسبانيَّة، واختتموا الرَّقص برقصة "لوتشيا كاناتْسَا" لاستمالة الأمَة[1]. وهكذا مضى الوقت دون أن ينتبهوا إلى ذلك، وحين آن وقت الأكل والشُّرب، أنعمت السَّماء عليهم بما لذَّ وطاب من ألوان الطَّعام والشَّراب التي لوفرتها

1) يمكن العثور على وصف العديد من الرَّقصات المذكورة هنا في كتاب "الابتكارات الجديدة للرَّقصات" وهو عملٌ بديعٌ من تأليف تشيزارهْ نيغري (ميلانو 1604)؛ وفي كتاب "الرَّاقص" للسَّيِّد فابريتيو كاروزو دا سيمونيتا (البندقيَّة 1631)؛ وكذلك في عمل ديل توفو "بورتريه لمدينة نابولي النَّبيلة" الذي يذكِّرنا بتلك الرَّقصات الجميلة. من الرَّقصات المدرجة هنا كانت الأخيرة "لوتشيا كاناتسا" الأكثر شعبيَّةً في نابولي آنذاك؛ (كروتشِه).

يحسب المرء أنَّهم لا يزالون يأكلون إلى الآن. وبعد أن رُفعت المائدة، ما كان من تسيتسا، التي كانت متأهِّبةً كالنَّصل لتروي حكايتها، إلَّا أن بدأت تتكلَّم كالآتي:

كانِّيتيلَّا
المؤانسة الأولى من اليوم الثَّالث

لا تجد كانِّيتيلَّا زوجاً يلائم مزاجها: ولكنَّ خطيئتها تُوقِعها في شرك غولٍ يحكم عليها بأن تعيش حياةً بائسةً إلى أن يقوم منظِّفُ مجارٍ، وهو من أتباع أبيها، بتحريرها.

إنَّه لأمرٌ سيِّئٌ، أيُّها السَّادة، أن نبحث عن خبزٍ أفضل من ذاك المصنوع من القمح، لأنَّ الأمر سينتهي باشتهاء ما رميناه. يجب على الإنسان أن يكون راضياً باللُّقمة الشَّريفة، لأنَّ من يبغِ كلَّ شيءٍ يفقدْ كلَّ شيء، ومن يمشِ على رؤوس الأشجار، لديه من الجنون في رأسه بقدر ما لديه من الخطر تحت قدميه، كما سنرى في قضيَّة ابنة أحد الملوك، والتي ستكون موضوع الحكاية التي سأرويها لكم.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، ملكٌ من بِلُوبُوجُو[1]، وكانت رغبته في الحصول على ذرِّيَّة أكبر من رغبة حمَّالي الجنازات في جمع الشَّمع. حتى إنَّه أضمرَ نذراً للإلهة سيرينكس[2]، إن هي رزقته ابنةً، بأن يسمِّيها كانِّيتيلَّا تخليداً لذكراها عندما تحوَّلت إلى

1) تعني حرفيّاً: الرَّبوة الجميلة؛ (المترجمان).

2) حسب الأساطير اليونانيَّة القديمة، كانت سيرينكس حوريَّةً معروفةً بالعفَّة يلاحقها بان إله الغابات والأدغال، نصفه إنسانٌ ونصفه ماعز، فتهرع إلى ضفَّة النَّهر وتختبئ بين نباتات القصب وتطلب المساعدة من حوريَّات الماء، فيحوِّلنها إلى قصبة جوفاء تئنُّ بألم عندما تمرُّ أنفاس الإله بان من خلالها. يقطع هذا الأخير القصبة ويشكِّل منها أوَّل أداة للعزف، والتي ستعرف فيما بعد باسم سيرينكس، وهو أوَّل نايٍ في التَّاريخ، حسب الأسطورة؛ (المترجمان).

قصبة[1]. وظلّ يصليّ كثيراً إلى أن حصل على النِّعمة، وأنجبت رونزيلاَّ، زوجته، طفلةً جميلةً أطلق عليها الاسم الذي كان قد وعد به.

نمت كانِّيتيلاَّ كلَّ شبرٍ بنَذْرٍ وأصبحت بطول عمودٍ. وعندئذٍ قال الملك: «أيْ بنيَّتي، ها قد صرتِ صلبةَ العود كسنديانةٍ (فلتباركْكِ السَّماء)، وفي وضعٍ مناسبٍ لتكوني مع زوجٍ يستحقُّ هذا المحيَّا الجميل، لكي نحافظ على عرق سلالتنا. لذا، ولأنَّني أحبُّكِ كمقلتَي عينيَّ وأحرص على سعادتك، أريد أن أعرف خصال الزَّوج الذي ترغبين فيه. أيُّ صنفٍ من الرِّجال يروقك؟ هل تريدينه متعلِّماً أم مبارزاً بالسَّيف؟ فتىً يافعاً أم رجلاً ناضجاً؟ أسمرَ أم أبيضَ أم أحمر؟ مِن طوال القامة أم من قصارِها؟ نحيف الوركين أم مكتنزاً كالثَّور؟ اختاري أنتِ وأنا سأوقِّع على ما تختارين».

حين سمعت كانِّيتيلاَّ هذه العروض الفضفاضة من والدها، شكرته وصارحته منذ البدء بأنَّها كرَّست عذريَّتها لديانا، ولا تريد أن تفقدها مع أيِّ زوجٍ أيَّاً كان السَّبب. ولكن مع ذلك، بعد توسُّلات الملك الملحَّة، انتهى بها الأمر بالرَّدِّ: «لئلَّا أبدو جاحدةً لكلِّ هذه المحبَّة، سأكتفي بالإذعان لإرادتكم، ولكن بشرط أن تمنحوني رجلاً لا مثيل له في العالم».

مسروراً بهذه الإجابة، صار الملكُ يقضي وقته من الصَّباح إلى المساء على النَّافذة، يُحدِّق ويتحقَّق ويستكشف ويتفحَّص كلَّ أولئك الذين يمرُّون من السَّاحة أمام القصر الملكيِّ. ومرَّ أخيراً رجلٌ في منتهى اللَّطافة، فقال لابنته: «أسرعي وأطلّي، يا كانِّيتيلاَّ، أسرعي وانظري إن كان هذا الشَّخص يلبِّي رغباتك». فطلبت هي أن يصعد إلى الأعلى، وأقاموا له وليمةً عامرةً تحتوي على كلِّ ما تشتهيه الأنفس. لولا أنَّه، في أثناء تناوله الطَّعام، سقطت من فم خطيبها حبَّةُ لوزٍ، فانحنى والتقطها بخفَّةٍ ووضعها تحت مفرش الطَّاولة، وبعد أن أنهى عشاءه، غادر القصر. فقال الملك لكانِّيتيلاَّ:

1) يعني اسمها القصبة الصَّغيرة؛ (المترجمان).

«ما رأيكِ بالشَّابِّ، يا غاليتي؟». فأجابت: «أبعد هذا الأبله عنِّي، لأنَّ رجلاً ضخماً وقويَّ البنية مثله كان عليه ألَّا يدع حبَّة لوزٍ تسقط من فمه».

بعد أن سمع الملك ردَّها، ذهب ليطلَّ ثانيةً من النَّافذة، وحين مرَّ شابٌّ حسنُ القامةِ، نادى ابنته ليعرف إن كان هذا الآخر سيعجبها. وكما في المرَّة الأولى، طلبت كانِّيتيلاَّ أن يصعد، وأُقيمت له وليمةٌ، وحين انتهى من تناول الطَّعام وكان على وشك أن يودِّعهم، سأل الملك ابنته إن كان قد أعجبها. «ماذا تريدني أن أفعل بهذا الأخرق؟ – ردَّت هي – كان عليه أن يجلب وراءه خادمَين على الأقلِّ لينزعا عن كتفيه العباءة».

«إن كان الأمر كذلك – قال الملك – فهذه ورطة: هذه أعذارُ مَدينٍ سيِّئٍ، وأنت تبحثين عن حججٍ لكيلا تمنحيني ما أطلبه منك. قرِّري، لأنَّني أريد أن أزوِّجك وأجدَ جذراً صالحاً لتتبرعم عليه خلافة سلالتنا».

ردَّت كانِّيتيلاَّ على هذه الكلمات الحانقة قائلةً بصراحةٍ: «لكي أكون صريحةً، يا أبي وسيِّدي، لكي أكون واضحةً وكما أشعر في دخيلة نفسي، فاسمح لي أن أقول إنَّكم تحفرون في البحر وتسيئون الحساب بأصابع اليد، لأنَّني لن أخضع لرجلٍ حيٍّ إذا لم يكن يملك رأساً وأسناناً من ذهب». وإذ أيقن الملك المعذَّب أنَّ ذلك الرَّأس كان صعب المراس، أمر المنادي بأن يخبر الملأ في مملكته أنَّ على من لديه خصالٌ تنسجم مع رغبات ابنته أن يتقدَّم لخطبتها ولسوف يمنحه إيَّاها ومعها المملكة.

وكان لهذا الملك عدوٌّ لدودٌ يدعى فيورافانته، يكرهه جدَّاً ولا يتحمَّل رؤيته حتى لو كان مرسوماً على جدار، وحالما تناهى إلى علمه خبر النِّداء، ولكونه مشعوذاً ماهراً يستحضر الأرواح، دعا زمرةً من أولئك، أبعدهم الله ما أمكن عنَّا، وأمرهم بأن يحوِّلوا رأسه وأسنانه في الحال إلى ذهب. فأجابه هؤلاء بأنَّهم بجهدٍ عظيمٍ فحسب سيتمكَّنون من تأدية هذه الخدمة له، لأنَّ ذلك كان من أكثر ما سمعاه غرابةً في العالم، وأنَّه كان من الأسهل لو زوَّدوه،

عوضاً عن ذلك، بقرنين من ذهب كما كان شائعاً في تلك الأيَّام. ولكنَّه ألحَّ عليهم بالتَّوسُّلات وبالتَّعويذات، وفي النِّهاية، لبَّوا رغبته، وحين رأى نفسه برأسٍ وأسنانٍ من الذَّهب الخالص، ذهب ليتمشَّى تحت نوافذ الملك.

وإذ رأى الملكُ تحت بصره ما كان يبحث عنه بالضَّبط، نادى ابنتَه التي حالما رأت ذلك هتفت في الحال: "إنَّه هو، لا يمكن أن يكون أفضل من هذا حتى لو عجنته بيديَّ". وحين كان فيورافانتِه على وشك المغادرة، قال له الملك: "انتظر قليلاً يا صاحبي، لمَ النَّارُ في ظهرك؟![1] تبدو وكأنَّك في محلِّ رهونات يهوديٍّ، وأنَّ ثمَّة زئبقاً في دبرك ومخرزاً تحت ذيلك. تمهَّل، لأنَّني سأزوِّدك الآن بأمتعةٍ وأناسٍ ليرافقوك أنت وابنتي التي أرغب في أن تكون زوجتك".

"أشكركم – أجاب فيورافانتِه: – لا داعي للأمر. يكفي حصانٌ واحدٌ فحسب لأضعها على متنه وأحملها إلى منزلي، حيث يوجدُ من الخدم والحشم عددَ حبَّات الرَّمل". وتجادلوا لبعض الوقت، ولكن في النِّهاية، فاز فيورافانتِه، فتلقَّف كانِّيتيلاَّ ووضعها على متن الحصان وانطلق بها.

في المساء، في اللَّحظة التي انفصلت بها الأحصنة الحُمر عن طاحونة السَّماء، واستُبْدِلَتْ بها ثيرانٌ بِيضٌ، وصلا إلى إسطبلٍ كانت فيه بعض الأحصنة على المعلف. أدخل العريسُ كانِّيتيلاَّ إلى الإسطبل وقال لها: "انتبهي جيِّداً! عليَّ أن أقوم برحلةٍ إلى بيتي تستغرق سبع سنواتٍ للوصول إليه. انتظريني في هذا الإسطبل، ولا تغادريه، ولا تدعي أحداً يراك، وإلَّا جعلتُكِ تتذكَّرينه ما دمتِ نضرةً وعلى قيد الحياة". فأجابت كانِّيتيلاَّ: "أنا خاضعةٌ لك ورهن أوامرك في كلِّ ما تقوله، ولكن أريد أن أعرف ماذا تترك لي لأعيش منه خلال هذه الفترة". فردَّ فيورافانتِه قائلاً: "ما يتبقَّى من علف هذه الخيول، سيكون كافياً لك".

1) أي: لِمَ العجلة؟؛ (المترجمان).

عليكم أن تتصوَّروا الآن ما حلَّ بقلب كانِّيتيلاَّ البائسة التي لعنت السَّاعة واللَّحظة التي قُيِّدَتْ فيها إرادتها! مكثت في البرد والصَّقيع، وسكبت من الدُّموع ولائمَ بقدْرِ جوعها إلى الطَّعام، وهي تلعن القدر وتلوم النُّجوم لأنَّها أنزلت رتبتها من القصر الملكيِّ إلى الإسطبل، ومن عبق العطور إلى رائحة الرَّوث، ومن فراش الصُّوف البَرْبَريِّ[1] إلى القشِّ، ومن الأطعمة الشَّهيَّة إلى بقايا طعام الخيول. ومع ذلك، مرَّت بضعة أشهر على هذه الحياة الصَّعبة، وكان شخصٌ ما يأتي ليزوِّد الخيول بالعلف، لم يتَّضح من هو، وكانت هي تغذِّي جسدها من بقايا ذلك الطَّعام.

وبعد مرور الكثير من الوقت، أطلَّت من إحدى الفجوات، فرأت حديقةً ساحرةً فيها تعريشاتٌ كثيرةٌ من النَّارنج، ومدرَّجاتٌ كثيرةٌ من الكبَّاد، ولوحاتٌ مثيرةٌ من الورود، وكثيرٌ من الأشجار المثمرة ودوالي العنب التي كانت بهجةً للنَّاظرين. فاشتهت عنقوداً من عنب أنتْسُوليا[2] كانت عيناها قد وقعتا عليه، وقالت بينها وبين نفسها: "أريد أن أخرج خلسةً وأقطفه، وليحدث ما يحدث، ولْتَنْهَر السَّماء! ثمَّ ماذا يمكن أن يحدث، الآن أو بعد مِائة عام؟ من يمكنه أن يشي بي لزوجي؟ وإذا ما عرف، بطريق الصُّدفة، ماذا يمكنه أن يفعل في نهاية المطاف؟ فهذا عنب أنتْسُوليا، وليس عنب أصابع السَّاحرة!". وهكذا خرجت من الإسطبل وأنعشت روحها التي أوهنها الجوع.

بعد فترة قصيرةٍ، وقبل الموعد المحدَّد، عاد زوجها؛ وما كان من أحد الأحصنة، من تلك التي كانت في الإسطبل، إلَّا أن اتَّهم كانِّيتيلاَّ بسرقة العنب. غضب فيورافانتِه وأخرج من سرواله سكِّيناً يبغي قتلها، ولكنَّها جثت على ركبتيها وتوسَّلت إليه ألَّا يفعل، لأنَّ الجوع يطرد الذِّئب من الغابة؛ وأضافت أشياء أخرى كثيرةً، فهدأت فَوْرَةُ فيورافانتِه. "سوف أعفو عنكِ هذه المرَّة – قال لها – وسأمنحك الحياة كصدقة، ولكن إن أغواك

1) أي القادم من شمال إفريقيا؛ (المترجمان).

2) ضربٌ من العنب كبير الحبَّة، مستطيلُها، حلوُ المذاق، أبيض أو أسود اللَّون؛ (كروتشِه).

الشَّيطان ثانيةً وبلغني أنَّك عرَّضتِ نفسك للشَّمس، فسوف أقطِّعك أشلاء. لذا، ضعي هذا في رأسك جيِّداً، لأنَّني سأغادر مرَّةً أخرى، وسوف أغيب بحقٍّ سبع سنوات، فاحرثي باستقامةٍ، لأنَّك لن تمرِّي من دون عقابٍ، وسوف أجعلك تدفعين ثمن ما جدَّ وما سبق".

ثمَّ غادر، وسكبت كانِّيتيلَّا نافورةً من الدُّموع، وكانت تشتكي وهي تضرب كفَّاً بكفٍّ وتلطم صدرها وتنزع شعرها، قائلةً: "آه لو أنَّني لم آت أبداً إلى هذا العالم، طالما كان عليَّ أن أجابه هذا المصير الفجَّ! آه، يا أبي، كيف أهلكتني! ولكن علامَ أتذمَّر من أبي، وأنا نفسي مَنْ أهلكتُ نفسي، أنا نفسي مَنْ أنزلتُ بي مصيبتي؟ لقد رغبت برأسٍ من ذهبٍ فهويتُ في الرَّصاص وهلكتُ بالحديد. آه، هذا هو ما أستحقُّه، لقد أردتُ أسناناً من الذَّهب، فصار سنِّي الآن من ذهب! إنَّه عقابٌ من السَّماء: كان عليَّ أن أذعن لإرادة أبي وأمتنع عن كلِّ تلك الرَّغبات والنَّزوات. "من لا يُطِعْ أمَّه وأباه، يسلك طريقاً غير مبتغاه". ولم يكن يمرُّ يومٌ لم تكرِّر فيه هذه الشَّكوى، حتى إنَّ عينيها تحوَّلتا إلى نافورتين واصفرَّ وجهها وتهدَّل بصورةٍ تدعو إلى الشَّفقة. أين تلك النَّظرات البرَّاقة؟ أين تفَّاحُ الوجنتين القرمزيُّ؟ أين ابتسامة ذلك الثَّغر؟ حتى أبوها ما كان ليعرفها.

الآن، بعد مُضيِّ عامٍ، مرَّ مصادفةً من أمام باب الإسطبل منظِّف مجاري القصر، فعرفته كانِّيتيلاَّ وخرجت تناديه. وإذ سمع الرَّجل من يناديه باسمه، لم يعرف الشَّابَّة المسكينة لما أصابها من تغيُّرٍ، فانتابته الدَّهشة. ولكن عندما علم من هي، ولأيِّ سببٍ أنزلها سيِّدها إلى ذلك الدَّرَكَ، قامَ، من جهةٍ شفقةً عليها، ومن جهةٍ أخرى طمعاً في الحصول على مكافأةٍ من الملك، بوضعها في برميلٍ خشبيٍّ فارغٍ كان يحمله معه على البغل، وانطلق بها إلى بِلُّوبُوجُّو.

وصلا إلى قصر الملك نحو السَّاعة الرَّابعة فجراً، وقرع الباب، فأطلَّ الخدم، وحين رأوا أنَّه منظِّف المجاري، أمطروه بوابلٍ من الشَّتائم، ناعتين

إيَّاه بحيوانٍ بلا عقلٍ لأنَّه أتى في تلك السَّاعة ليقلق نوم الجميع، وإنَّه لمحظوظٌ أنَّهم لم يرموا بعض الحجارة أو الصُّخور على رأسه الفارغ. ولكنَّ الملك الذي استيقظ على الضَّوضاء، حين أخبره أحد الخدم من هو الشَّخص الذي كان يطرق الباب، أمر أن يُدخلوه على الفور، لأنَّه إذا كانت الثِّقة قد بلغت به أن يعرِّج على القصر في تلك السَّاعة، فلا بدَّ أن يكون حدثٌ جللٌ قد وقع.

أنزل منظِّف المجاري حمولته بحضور الملك وفتح البرميل الخشبيَّ فخرجت منه كانِّيتيلَّا التي كانت الكلمات وحدها لا تكفي لكي يتعرَّفها أبوها، ولولا الثُّؤلول على ساعدها الأيمن، لوجب عليها أن تعود من حيث أتت. ولكن حين تأكَّد الملك من حقيقة الأمر، عانقها وقبَّلها ألف مرَّة، وأمر أن يُعِدُّوا لها فوراً حمَّاماً ساخناً، وبعد أن نظَّفوها وألبسوها، جلبوا لها الطَّعام لأنَّها كانت تترنَّح من الجوع. «من كان ليقول يا بنيَّتي – هتفَ الأب – أنَّني سأراك بهذه الحالة! وما هذا المحيَّا؟ ومن ذاك الذي أوصلك إلى هذه الحالة المزرية؟».

وأجابت ابنته: «هذا ما وصلت إليه، يا سيِّدي الغالي! ذلك التُّركيُّ البربريُّ أذاقني عذاب الكلاب، ورأيتُ في كلِّ لحظةٍ روحي على شفا أسناني. ولكن لا أريد أن أروي لك ما قاسيته، لأنَّه شيءٌ بمقدار ما يتجاوز قدرة البشر على التَّحمُّل، يتجاوز قدرتهم على التَّصديق. ولكن كفى، فأنا هنا الآن، يا أبي، ولا أريد أن أبتعد عن قدميك بعد الآن: بل إنَّني أفضِّل أن أكون أمَةً في بيتك، بدلاً من أن أكون ملكةً في بيت الآخرين؛ خرقةً حيث تكون أنت، بدلاً من عباءةٍ من ذهبٍ وبعيدةً عنك؛ أودُّ بالأحرى أن أدير سيخاً في مطبخك، بدلاً من أن أمسك بصولجانٍ تحت مظلَّةِ الآخرين».

في هذه الأثناء، عاد فيورافانته من رحلته، وأخبرته الخيول أنَّ منظِّف المجاري هرَّبَ كانِّيتيلَّا داخل برميلٍ خشبيٍّ، وعلى الفور، ساخطاً من العار، ومشتعلاً من الغضب، انطلق مباشرةً إلى بِلُّوبُوجُّو، ورأى عجوزاً

تقطن مقابل القصر الملكيِّ، فقال لها: «اطلبي ما تشائين من المال، يا سيِّدتي، ودعيني أرى ابنة الملك». فطلبت هذه منه مِائة دوقيَّةٍ، فوضع فيورافانتِه يده في حزامه وعدَّ لها المبلغ دوقيَّةً فوق الأخرى. حينئذٍ، جعلته العجوز يصعد إلى سطح منزلها، ومن هناك رأى كانِّيتيلاَّ على إحدى الشُّرفات تُجفِّف شعرها.

وكما لو أنَّ قلبها حدَّثها، التفتت إلى النُّقطة نفسها في الجهة الأخرى، وإذ لمحت ذلك الكمين، نزلت الدَّرج بسرعةٍ نحو أبيها وهي تصرخ: «يا سيِّدي، إذا لم تجعلوا لي، في هذه اللَّحظة بالذَّات، غرفةً بسبعة أبوابٍ من الحديد، فسوف أهلك». «لن أفقدك من أجل شيءٍ رخيصٍ كهذا - قال الملك -، فأنا مستعدٌّ لأن أدفع عينيَّ مقابل رؤيتك راضيةً يا بنيَّتي الجميلة!».

وفي طرفةِ عينٍ - لمسةٌ هنا، وضربةٌ هناك، - صُنِعَت الأبواب. وعلم فيورافانتِه بذلك، فعاد إلى المرأة العجوز وقال لها: «ماذا تريدين منِّي أكثر؟ سأعطيك ما تطلبين. ولكن اذهبي إلى بيت الملك بحجَّة بيع بعض أوعية أحمر الشِّفاه، وحين تدخلين غرفة ابنته، ضعي هذه الوريقة بين مراتب السَّرير، والفظي في أثناء ذلك هذه الكلمات: «كلُّ النَّاس يقون نياماً، وكانِّيتيلاَّ وحدها تبقى مستيقظة». ومقابل مِائة دوقيَّةٍ أخرى، خدمته العجوز بكلِّ همَّةٍ ونشاطٍ. آه، بائسٌ من يدع هؤلاء السَّاحرات القبيحات يسرحن في عقر داره، حيث، بحجَّة جلب بعض المساحيق، يسحقون شرفك وحياتك كما يُسحَقُ الجلدُ القرطبيُّ!

وبعد أن قامت العجوز بمهمَّتها على أتمِّ وجه، غطَّ كلُّ مَنْ في المنزل في نومٍ عميقٍ كما لو أنَّهم نُحِروا، ووحدها كانِّيتيلاَّ بقيت مفتوحةَ العينين. وحين سمعت جلبة كسر أبواب المنزل، بدأت تصرخ كما لو كانت تحترق

بالنَّار، ولكن لم يكن ثمَّة لصراخها من مُجيب، فتمكَّن فيورافانتِه من خلع الأبواب السَّبعة كلِّها، وبعد أن قفز إلى داخل الغرفة، أمسك بكانِّيتيلَّا، ملفوفةً بالمراتب، ليأخذها بعيداً. ولكن يشاء القدر، في أثناء قيامه بذلك، أن تنزلق الوريقة التي وضعتها العجوز على الأرض ويتناثر منها الغبار الذي كانت تحتويه، فتستيقظ عندئذٍ العائلة بأكملها، ولدى سماعهم صراخ كانِّيتيلَّا، يهرعون جميعاً، حتى قطط وكلاب البيت، ويهجمون على مستحضِر الأرواح ويقطِّعونه إرباً. وهكذا، يسقط هو في الفخِّ نفسه الذي كان قد نصبه لسيِّئة الحظِّ كانِّيتيلَّا، مبرهناً من كيسِهِ أنَّه:

لا يوجد ألمٌ أشدُّ من ألم شخصٍ

يموتُ مجروحاً بسلاحه.

الحسناءُ مبتورة اليدين
المؤانسة الثَّانية من اليوم الثَّالث

ترفض بِنْتا بحنقٍ الزَّواج الذي عرضه عليها أخوها، وبعد أن تقطع يديها وترسلهما إليه هديَّةً، يأمر برميها في البحر داخل صندوقٍ، فتصل إلى شاطئٍ حيث يعثر عليها بحَّارٌ ويقودها إلى بيته؛ ولكنَّ الزَّوجة الغيور ترميها في البحر داخل الصُّندوق نفسه. يعثر عليها ملكٌ وتصبح زوجته، ولكن بسبب خداع المرأة الشِّرِّيرة نفسها، تُطرَد من المملكة، وبعد مصاعب جمَّةٍ، تعثر على زوجها وأخيها، ويعيشون جميعاً في رغدٍ وهناء.

بعد أن أصغوا إلى حكاية تسيتسا، اتَّفق الجميع في الرَّأي على أنَّ كانِّيتيلاَّ كانت تستحقُّ ذاك وأكثر لأنَّها كانت تبحث عن الشَّعرة في البيضة؛ ولم تكن غبطتهم أقلَّ من ذلك برؤيتها تنجو من مصاعب كثيرة. وقد أثار لديهم اعتباراتٍ جديدةً كيف أنَّها، بعد أن احتقرت جميع الرِّجال، انتهى بها الأمر إلى أن تتوسَّل إلى منظِّف مجاري لينتشلها من محنتها. ولكن هنا، أشار الملك إلى تشيكَّا أن تبدأ حكايتها، فلم تتأخَّر في الإطاعة، وتكلَّمت على النَّحو التَّالي:

الفضيلة تُمتَحَنُ في المصاعب؛ وشمعة الخير تشعُّ أكثر حيث تشتدُّ العتمة؛ والاجتهادُ يُنجب الجدارة، والجدارةُ معلَّقٌ بِبُجْرتِها الشَّرف. لا ينتصر من يقف مكتوف اليدين، بل من يحرِّك يديه، كما فعلت شقيقة ملك

بييتراسكًا[1] التي، بالعَرَق المدمّى وبأخطار الموت، شيَّدت منزلَ الفرح؛ وهي الحكاية التي آثرت أن أحكيها لكم اليوم.

وُسْوِسَ لملك بييتراسِكًا الذي بقي أرملاً، دون امرأةٍ بجانبه، من قبل فارفارِلّو[2] أن يتَّخذ شقيقته بِنْتا زوجةً له، فطلب منها، في أحد الأيَّام، أن ينفردا في خلوةٍ، وقال لها: "ليس من شيمة الرَّجل الحكيم، يا شقيقتي الغالية، أن يُهدِر نعمة بيته، وفضلاً عن ذلك، لا يعرف المرء ما سيجنيه على نفسه حين يسمح للغرباء أن يدوسوا عتبته. لقد فكَّرت طويلاً في هذا الأمر وتوصَّلت في النِّهاية إلى قرار اتِّخاذك زوجةً لي. فأنت تناسبين مزاجي، وأنا أعرف خصالك: لذا، وافقي على عقد هذا القِران، هذه الرَّابطة بين دكَّانين[3]، هذه الوحدة بين قضيَّتين[4]، هذا المزيج بين دواءين[5] لكي نعيش معاً حياةً هانئة".

وحين سمعت بِنْتا هذه النَّقلة الموسيقيَّة الكبيرة، خرجت عن طورها، وكان لونٌ يترك وجهها ليحلَّ آخر مكانه، لأنَّها لم تكن لتتخيَّل أبداً أن تخطر في بال أخيها مثل هذه النَّزوة، وأن يحاول منحها زوجاً من البيض الفاسد بينما هو نفسه كان في حاجةٍ إلى مائة بيضةٍ طازجة[6]. وبقيت لفترةٍ من الوقت تفكِّر بصمتٍ في جوابٍ تردُّ به على هذا الطَّلب الوقح والمنافي للأعراف؛ ولكن في النِّهاية، بعد أن أنزلت عن كاهلها حمولة الصَّبر، قالت:

---

1) تعني حرفيّاً: الصَّخرة الجافَّة؛ (المترجمان).

2) من الأسماء التي كانوا يطلقونها على إبليس؛ (المترجمان).

3) أي الشَّراكة بين متجرين؛ (كروتشِه).

4) *uniantur acta*، مصطلحٌ لاتينيٌّ يعني جمع قضيَّتين أو أكثر في المحاكم؛ (كروتشِه).

5) *misce et fiat potum*، مصطلحٌ لاتينيٌّ يشير إلى إحدى الصِّيغ الطِّبِّيَّة؛ (كروتشِه).

6) أي أنَّه أصبح مجنوناً، والعلاج الذي كان يتلقَّاه المختلِّين عقليّاً في تلك الحقبة في نابولي، كان يتلخَّص في إدارة الشَّادوف لسحب الماء من البئر، وتناول مِائة بيضة باليوم كطعامٍ مغذٍّ وخفيفٍ، وتلقِّي الضَّرب الدَّوريّ بالعصا؛ (كروتشِه).

"إذا كنتَ قد فقدت عقلك، فأنا لا أريد أن أفقد الحياء: أنا مندهشةٌ من أن تخرج من فمك مثلُ هذه الاقتراحات التي، إن كانت قيلت على سبيل المزاح، فهي غباء، وإن كانت قيلت على سبيل الجدِّ، فإنَّها نتنةٌ كرائحة التَّيس، ويؤلمني، إن كان لديك اللِّسان لتتفوَّه بهذه الأشياء السَّيِّئة، أن تكون لديَّ الآذان لأصغي إليها. أنا زوجةٌ لك؟ ماذا حلَّ بدماغك؟ ومنذ متى يمزجون هنا النَّبيذ الأبيض بالأحمر؟ منذ متى يصنعون هذه اليخنات؟ هذه الخلائط؟ وأين نحن؟ في السِّيرك؟ وهل أنا أختك أم جبناً مطبوخاً بالزَّيت؟ عد إلى رشدك، من أجل حياتك أنت، ولا تدع كلماتٍ من هذا القبيل تنزلق من فمك، وإلَّا فعلتُ أشياء لن تخطرَ لك في بال، وإذا لم تحترمني كأختٍ، فلن أعاملك كأخٍ!". وبعد أن نطقت هذه الكلمات، انسحبت بغضبٍ وأغلقت على نفسها باب غرفتها وشدَّت المزلاج، ولم تر وجه أخيها لأكثر من شهر، تاركةً الملك الأثيم الذي كان قد اندحرَ بجبهةٍ أشبه بمطرقةِ تَبْطِيء الكُرات[1] ذليلاً مثل صبيٍّ كسر كوزاً، ومشتَّتَ الذِّهن مثل طاهيةٍ سلبتها القطَّة قطعةً من اللَّحم.

بعد عدَّة أيَّام، استُدعِيَتْ بِنْتا مرَّةً أخرى لتؤدِّي إلى الملك ضريبةَ رغباته الجامحة؛ ولأنَّها أرادت أن تعرف ما الشَّيء الذي جعل أخاها يفتتن بها، خرجت من غرفتها وذهبت لمقابلته. «يا أخي، - قالت له - لقد حدَّقتُ في صورتي وتأمَّلتها في المرآة، ولم أجد في ملامحي هذه شيئاً يمكن أن يستحقَّ حبَّك لي، ففي الحقيقة، أنا لست لقمةً شهيَّةً لدرجة أن يرتكب النَّاس حماقاتٍ جنونيَّةً من أجلها». فأجابها الملك: «بِنْتا، يا حبيبتي، أنت جميلةٌ وكاملةٌ من رأسك إلى أخمص قدميك؛ ولكنَّها يدك التي تفتنني قبل كلِّ شيء: يدك، الشَّوكة الكبيرة التي تسحب الأحشاء من وعاء هذا الصَّدر؛ يدك، الخطَّاف الذي يسحب دلو الرُّوح من بئر هذه

1) تشبيهٌ مأخوذٌ من لعبة كرة القدم القديمة، وفيه إشارةٌ بذيئةٌ إلى خيبة الملك الجنسيَّة؛ (المترجمان).

الحياة؛ يدك، الملزمة التي تمسك هذه الرُّوح، بينما يُعْمِلُ الحبُّ فيها مِبْرَدَه. آه أيَّتها اليد، أيَّتها اليد الجميلة، إنَّك مغرفةٌ تدير حساء العذوبة، كمَّاشةٌ تمزِّق الرَّغبات، مجرفةٌ تضيف الفحم لغلي قلبي!».

وأراد أن يقول أكثر من ذلك حين أجابت بِنْتا: «لا بأس: لقد فهمتك. انتظرني هنا قليلاً ولا تتحرَّك، وسوف أعود في الحال». وبعد أن دخلت غرفتها، نادت عبداً نصف أحمق من عبيدها، وناولته سكِّيناً كبيرةً مع حفنةٍ من النُّقود وقالت له: «عليُّ، يا عزيزي، اقطع يديَّ، أريد أن أكون جميلةً في السِّرِّ وأن أحصل على بشرةٍ أكثر بياضاً». اعتقد العبد أنَّه يقدِّم لها خدمةً، فقطع يديها بضربتين، وبعد أن وضعتهما بِنْتا في وعاءٍ من الخزف الملوَّن وغطَّته بمنديلٍ من الحرير، أرسلتهما إلى أخيها مع رسالةٍ تقول له أن يتمتَّع بذاك الذي يفتنه مع تمنِّياتها له بالصِّحَّة وبالرِّفاء والبنين.

اشتعل الملك غضباً من هذه الفَعْلَة النَّكراء، وأمر فوراً بأن يصنعوا صندوقاً ويبطِّنوه بالقطران، ثمَّ حشر أخته في داخله وألقاه في اليمِّ. بعد عدَّة أيامٍ، وصل الصُّندوق، مدفوعاً بالأمواج، إلى أحد الشَّواطئ، حيث اصطاده بعض البحَّارة بشباكهم، ففتحوه ووجدوا بِنْتا بداخله، أكثرَ جمالاً من القمر، وكأنَّها قامت بالصَّوم الأربعينيِّ في تارانتو [1]. فأخذها مازيلُّو، الذي كان كبير القوم وأعلاهم سلطةً، إلى بيته وأوصى زوجته نوتشا أن تعاملها برفق.

ولكن ما كان من هذه، التي كانت أمَّ الشَّكِّ والغيرة، حالما غادر زوجها عتبة البيت، إلَّا أن قامت وحشرت بِنْتا ثانيةً في الصُّندوق وألقته في اليمِّ. وهنا، لعبت بها الأمواج وتقاذفتها كثيراً، إلى أن ارتطمت بسفينةٍ كان يبحر على متنها ملك تيرَّافيردِه [2]. وعندما رأى الملك شيئاً غريباً يطفو على

1) كانت مدينة تارانتو مشهورةً بصيد السَّمك، ولذا كانوا يعدُّونها مكاناً مناسباً للصَّوم الأربعينيِّ الذي يكتفون فيه بتناول السَّمك دون اللُّحوم الأخرى؛ (المترجمان).

2) تعني حرفيَّاً: الأرض الخضراء؛ (المترجمان).

سطح الماء، أعطى أوامره بأن يُنزلوا الشِّراع ويرموا قارباً إلى البحر، وبعد أن انتشلوا الصُّندوق، فتحوه فوجدوا بداخله الشَّابَّة المسكينة، وجدوا في صندوق الموت جمالاً يتوقَّد بالحياة. وبدا للملك أنَّه اكتشف كنزاً عظيماً، مع أنَّ قلبه كان يبكي لأنَّ صندوق الكنز الذي يغصُّ بفرح الحبِّ كان بلا مقابض. وحملها إلى مملكته وعيَّنها وصيفةً للملكة، فبدأت تقدِّم لها كلَّ أنواع الخدمات، بما في ذلك الخياطة وإدخال الخيط في الإبرة وتنشية الياقات وتسريح الشَّعر، وكانت تؤدِّي كلَّ ذلك بقدميها، ولذلك كانوا يعاملونها كابنةٍ لهم.

بعد بضعة أشهرٍ، دُعيَت الملكة للمثول أمام منصَّة باركا[1] لتسدِّد الدَّين إلى الطَّبيعة، فطلبت من الملك أن يدنو من سريرها، وقالت له: "يمكن أن يتأخَّر الأمر بعض الشَّيء لتفكَّ روحي عقدة زواجها بجسدي، لذا، كن بخيرٍ يا زوجي، ولنتبادل الرَّسائل في بعض الأحيان. ولكن، إن كنت تحبُّني وإن كنت ترغب في أن تذهب هذه الرُّوح بسلامٍ إلى العالم الآخر، عليك أن تسدي إليَّ معروفاً". "سمعاً وطاعةً يا حبيبتي، - أجاب الملك، - فأنا إذا لم أستطع أن أعطيكِ شهود قلبي في الحياة، فسأعطيك دليلاً على الحبِّ الذي أكنُّه لك وأنت على شفا الموت". "هيَّا - واصلت الملكة - أتوسَّل إليك بقدر ما أستطيع أن تعدني بأنَّك، بعد أن أغمض عينيَّ تحت التُّراب، ستتزوَّج بِنْتا، مع أنَّنا لا نعرف مَنْ هي ومِنْ أين جاءت، ولكن بالخصال الحميدة يُعَرِّفُ نفسَه الحصانُ الأصيل". "فلتبقِ هنا مِائةَ عامٍ! - ردَّ الملك، - ولكن، إن كنتِ ستتمنَّين لي ليلةً طيِّبةً لتمنحيني نهاراً سيِّئاً، أقسم لك بأنَّني سأتَّخذها زوجةً لي، ولا يهمُّ أنَّها بلا يدين وضئيلة الوزن، فعلى الإنسان أن يأخذ دائماً أقلَّ قدرٍ ممكنٍ من الأشياء الحزينة، ومن بينها النِّساء". ولكنَّه لفظ هذه الكلمات الأخيرة من طرف لسانه، لئلَّا يسيء إلى زوجته.

---

1) واحدةٌ من الإلهات الثَّلاث المسؤولات عن مصير البشر في الميثولوجيا اليونانيَّة، وهنا يعني أمام منصَّة الموت: (المترجمان).

حالما أطفأت الزَّوجة شمعةَ أيَّامها، تزوَّج الملك بنْتا، وألقحها في اللَّيلة الأولى بولدٍ ذكر. ثمَّ اضطرَّ إلى القيام برحلةٍ بحريَّةٍ أخرى إلى بلاد ألتوسْكُوليو[1]، فاستأذن منها ورفع المرساة. وبعد تسعة أشهر، أنجبت بنْتا طفلاً جميلاً، ودارت المشاعل من أجله في كلِّ أرجاء المدينة، وأرسل المجلس على الفور فلوكةً لنقل البشرى إلى الملك.

واجهت الفلوكة عاصفةً شديدةً، فتارةً كانت الأمواج تضعها على بطَّانيَّة[2] وتقذف بها نحو السَّماء، وتارةً كانت تدحرجها إلى أعماق البحر، وفي النِّهاية، كما أرادت مشيئة السَّماء، رست على اليابسة، عند الشَّاطئ نفسه حيث أنقذتها شفقةُ أحد الرِّجال وطردتها القسوة النَّكراء لإحدى النِّساء. ولسوء الحظِّ، كانت نوتشا هناك تغسل أقمطةَ وملابس طفلها الرَّضيع، وفضوليَّةً مثل النِّساء اللَّاتي يحشرن أنوفهنَّ في أمور الغير، سألت ربَّان الفلوكة من أين كان قادماً، وإلى أين كان متوجِّهاً، ولمصلحة من. وأجاب الرُّبَّان: "أنا قادمٌ من تيرَّافيردِه ومتوجِّهٌ إلى ألتوسْكُوليو لأقابل الملك الموجود هناك لأسلِّمه رسالةً أرسلوني خصِّيصاً من أجلها. أعتقد أنَّ زوجته كتبتها، ولكن لا أستطيع أن أخبرك بالضَّبط عن محتواها". "ومن هي زوجة هذا الملك؟" - ألحَّت نوتشا. فأجاب الرُّبَّان: "بحسب ما تناهى إلى سمعي، يقولون إنَّها شابَّةٌ جميلةٌ تدعى "بنْتا المبتورة اليدين"، لأنَّها فقدت كلتا يديها. وسمعت أيضاً أنَّه كان قد عُثِرَ عليها داخل صندوقٍ في البحر، ولحسن حظِّها أصبحت زوجةً للملك، ولا أعرف ما الشَّيء المستعجل الذي كتبت له عنه الآن. ولكن يجب أن أبحر بالشِّراع المربَّع لأصل بسرعة".

وحين سمعت نوتشا، تلك اليهوديَّة، هذا الكلام، دعت الرُّبَّان إلى

1) تعني حرفيَّاً: الصَّخرة البحريَّة العالية؛ (المترجمان).

2) من الفعل الإسباني «Mantear"، ويعني وضع شخصٍ ما على بطَّانيَّةٍ يمسك بزواياها أربعة أشخاصٍ ويبدؤون بقذفه إلى الأعلى، وكان ذلك مزاحاً يقوم به المهرِّجون والخدم في بلاط الملك، وهو نفس المزاح الذي تعرَّض له سانشو بانشا في رواية دون كيشوت لسرفانتس (ميغيل دي ثيربانتس سابيدرا)؛ (كروتشِه).

الشَّراب، وبعد أن جعلته يثمل حتى النُّخاع، استلَّت الرِّسالة من الخُرْجِ وأخذتها إلى أحد الطُّلَّاب من زبائنها[1] ليقرأها لها. أصغت إلى الرِّسالةَ بغيرةٍ كادت تفجِّر أحشاءها، ولم يكن ثمَّة حرفٌ لم تتنهَّد عنده، ثمَّ جعلت الطَّالب نفسه يزوِّر خطَّ الكتابة ويصوغ رسالةً أخرى تقول إنَّ الملكة أنجبت كلباً ممسوخاً، وإنَّهم ينتظرون الأوامر لما يجب أن يفعلونه. وبعد أن دُوِّنت الرِّسالة وطُوِيَت، وضعتها في خُرْجِ الرُّبَّان الذي، حين أيقظوه من النَّوم ورأى العاصفة قد هدأت، سار مع الرِّيح ووضع الجنوب الغربيَّ في مؤخِّرة الفلوكة.

عندما وصل إلى الملك وسلَّمه الرِّسالة، أجاب الملك بأن يُبهجوا قلبَ الملكة وأوصاهم أن لا يحزنوا مثقالَ ذرَّةٍ، لأنَّها أمورٌ شاءتها السَّماء وعلى الرَّجل الصَّالح ألَّا ينقلب على النُّجوم. وفي طريق العودة، بعد ليلتين من الإبحار، وصل البحَّار مجدَّداً إلى بيت نوتشا التي أثنت عليه كثيراً، ثمَّ حشته بالطَّعام وأغرقته بالشَّراب حتى انقلب على رأسه ورفع رجليه في الهواء، وفي النِّهاية، متخماً وفاقدَ الوعي، غطَّ في النوم. فتَّشت نوتشا في الفخذيَّة، ووجدت الجواب، وهرعت ليقرؤوه لها، ثمَّ استبدلت به جواباً مزوَّراً يوصي مجلس تيرَّافيردِه بأن يحرقوا في الحال الأمَّ والطِّفل الرَّضيع. وبعد أن هضم الرُّبَّان النبيذ، أقلع من جديد.

وفورَ وصوله إلى تيرَّافيردِه، سلَّمَ رسالة الملك، وقرأها المجلس، وبدأ همسٌ ولغطٌ كبيرٌ بين أولئك الحكماء المسنِّين، وبعد أن ناقشوا طويلاً القضيَّة، خلصوا إلى القول إنَّ الملك إمَّا جُنَّ وإمَّا سُحِرَ، فقد كانت لديه زوجةٌ لؤلؤةٌ ووريثٌ جوهرةٌ، وكان يريد أن يجعل من الاثنين غباراً لأسنان الموت. لهذا السَّبب، انتهى بهم التَّفكير إلى تبنِّي حلٍّ وسطٍ وإرسال الشَّابَّة مع ابنها ليهيما في العالم، وأن يمنعوه من اتِّخاذ زوجةٍ أخرى بعد ذلك؛ وهكذا، مزوِّدين إيَّاها بحفنةٍ من النُّقود تعينها في البقاء على قيد

1) أي أنَّها كانت تمارس الدَّعارة؛ (المترجمان).

الحياة، نزعوا من الصُّندوق الملكيِّ كنزاً، ومن المدينة قنديلاً مشعًّا، ومن الزَّوج دعامتين من دعاماتِ آماله.

وإذ رأت بِنْتا المسكينة نفسها بلا مأوىً، مع أنَّها لم تكن امرأةً غير شريفةٍ، ولا قريبةَ قاطع طريقٍ، ولا عاهرةً مزعجةً[1]، أخذت بين ذراعيها رضيعها الذي كان يُسقى بالحليب والدُّموع، واتَّجهت نحو لاغوتوربيدو[2]. وكان سيِّد ذلك المكان أحد السَّحرة الذي بعد أن تأمَّل هذه المعاقة الجميلة التي تفتن القلوب، تلك التي كانت تقود بيديها المقطوعتين حرباً أكثر ممَّا قاده برياريو بمِائةِ يدٍ، أراد أن يسمع القصَّة الكاملة للمصاعب التي اعترضتها منذ أراد أخوها، لأنَّها رفضت أن تقدِّم له وجبة اللَّحم، أن يجعلها وجبةً للأسماك، حتى ذلك اليوم الذي وضعت فيه قدميها في مملكته.

سكب السَّاحر، عند سماعه هذه القصَّة المريرة، دموعاً لا نهاية لها، والشَّفقةُ التي كانت تدخل فيه من ثقوب أذنيه، كانت تتبخَّر في تنهُّداتٍ من فتحة فمه. وفي النِّهاية، واساها بكلماتٍ رقيقةٍ قائلاً: «تفاءلي يا بنيَّتي، فمهما فسد منزلُ الرُّوح، يمكنه أن يصمد إن كان ما يسنده هو الأمل. ولذلك، لا تفقدي الرُّوح، لأنَّ السَّماء تجرُّ أحياناً مصائب الإنسان إلى أقصى الخراب لتجعل عمله أكثر روعة. لا تخافي، إذاً، فقد وجدتِ فيَّ الأمَّ والأب، وأنا سأساعدك بدمي».

شكرته بِنْتا المسكينة قائلةً: «لا يهمُّ إن أمطرت السَّماء مصائبَ وبَرَداً من الخراب، ما دمتُ تحت سقف نعمتكم الآن، أنتم الذين تستطيعون وتستحقُّون، وبالفعل محيَّاكم الجميل هذا يسحرني». وهكذا، بعد ألف كلمةِ مجاملةٍ من هنا، وامتنانٍ من هناك، خصَّص لها السَّاحر جناحاً فخماً في قصره وجعلهم يعتنون بها كما لو كانت ابنةً له. وفي صباح اليوم

---

1) ثلاثة أصناف من الأشخاص كانوا يجبرون عادةً على تغيير مكان إقامتهم أو يُطرَدون من المملكة؛ (كروتشِه).

2) تعني حرفيًّا: البحيرة العَكِرة؛ (المترجمان).

التَّالي، أوعز في أن يعمِّموا بلاغاً بأنَّه سوف يمنح من يأتي إلى بلاطه ويسرد عليه أعظم المحن تاجاً وصولجاناً من الذَّهب: شيئَين جميلَين يساويان أكثر من مملكة.

بعد أن انتشر هذا النِّداء في كلِّ أنحاء أوروبا، جاء إلى مملكة السَّاحر أناسٌ أكثر من البروكولي طمعاً في الثَّروة الموعودة. فهناك من روى أنَّه قضى كلَّ حياته في خدمة البلاط، وبعد أن فقد المبيِّض والصَّابون، الصِّحَّةَ والشَّبابَ، كوفِئ بقرصٍ من جبنة الكاتشوكافالُّو. وهناك من قال إنَّه تعرَّض للظُّلم من أحد رؤسائه ولم يُسمَح له بالشَّكوى، لدرجة أنَّه اضطرَّ إلى أن يبتلع الذُّلَّ ولا يتغوَّط الغضب. وهناك من اشتكى أنَّه وضع جميع موارده في سفينةٍ، وأنَّ الرِّياح جرت بما لا يشتهيه، فانتزعت منه الفجَّ والمطبوخ. وهناك من تألَّم لأنَّه قضى كلَّ سنواته يمارس مهنة القلم دون أن يربح من ذلك ثمن قلمٍ واحدٍ، وقبل كلِّ شيءٍ، كان يائساً لأنَّ جهود قلمه لم يحالفها الحظُّ بينما كانت موادُّ المحابر[1] محظوظةً جدَّاً في العالم.

في هذه الأثناء، عاد ملك تيرَّافيردِه إلى المملكة، وبعد أن وجد في المنزل ذلك الشَّراب الحلو الذي لم يكن يتوقَّعه، انفجر كأسدٍ مطلَق العنان، وكان سيسلخ جلود جميع المستشارين لو لم يضعوا دون أدنى تلكُّؤٍ تحت عينيه الرِّسالة التي استلموها منه. ولكن حين رآها وتبيَّنَ زيفَ الخطِّ، نادى السَّاعي وأمره بأن يروي له كلَّ ما حدث له في رحلته. وشيئاً فشيئاً، أدرك أنَّ زوجة مازيبلُّو هي من تسبَّب بهذا الخراب، فجهَّز على الفور سفينةً وذهب شخصيَّاً إلى ذلك الشَّاطئ. وهناك، بعد أن عثر على المرأة واستطاع بطريقةٍ ذكيَّة أن يفهم منها أنَّ السَّبب كان الغيرة، أراد أن تُغَطَّى بالشَّمع، فشُمِّعَتْ وطُلِيَتْ بالشَّحم، ثمَّ وُضِعَتْ فوقها كومةٌ كبيرةٌ من الحطب، وأُضْرِمَتْ فيها النَّار.

1) أي القرون التي كان يستخلص منها الحبر؛ (كرونشِه).

وبعد أن شهد الحريقَ، ورأى النَّارَ تختلجُ بألسنتها الحمراء القرمزيَّة وتلتهم المرأة البائسة، رفع الأشرعة؛ وفي أعالي البحار التقى سفينةً كانت تقلُّ ملك بييتراسِكَّا. وبعد مراسيم الحفاوة المتبادلة، قال هذا للآخر إنَّه كان يبحر نحو لاغوتوريدو تلبيةً لذلك النِّداء المعمَّم من قبل سيِّد ذلك المكان، ليجرِّب حظَّه كشخصٍ لم يستسلم لسوء الحظِّ الأكثر إيلاماً في العالم.

"إذا كان هذا هو السَّبب – قال ملك تيرَّافيردِه، – فبإمكاني أن أتجاوزك بقدمين مقيَّدتين إحداهما إلى الأخرى، وبإمكاني أن أعطي لأكثر الأشخاص تعاسةً في العالم خمسة عشر وأُفلِس[1]، وحيث يقيس الآخرون الآلام بالأشبار، يمكنني أنا أن أقيسها بالقناطير. ولذلك أريد أن آتي معك، ودعنا ندخل هذه المواجهة بشهامةٍ، ومن يفز منَّا، يتقاسم المكاسب مع الآخر كرفيقٍ مخلصٍ تماماً". "نحن متَّفقان"، أجاب ملك بييتراسِكَّا، وأعطى كلٌّ منهما كلمته للآخر.

وهكذا ذهبا متحالفَين إلى لاغوتوريدو حيث، بعد أن ألقيا المرساة وقدَّما نفسيهما إلى السَّاحر الذي استقبلهما بترحابٍ كبيرٍ يليق بالرُّؤوس المتوَّجة، جعلهما يجلسان تحت المظلَّة مع ألف تحيَّةٍ واحتفاء. وحين سمع أنَّهما جاءا من أجل مباراةِ الرِّجال الأكثر تعاسةً، أراد أن يعرف مقدار الألم الذي جعلهما عرضةً لهوجاء التَّنهُّدات. عندئذ، بدأ ملك بييتراسِكَّا يحكي عن حبِّه لمن هي من دمه، وما فعلته المرأة الشَّريفة التي كانت أختَه، وعن القلب المتوحِّش الذي أظهره بوضعها في صندوقٍ مقيَّرٍ وإلقائه في اليمِّ؛ ولهذا، من جهةٍ، كان ضميره يعذِّبه للخطأ الذي ارتكبه، ومن جهةٍ أخرى، كان يؤلمه فقدان شقيقته؛ فمن هنا عذابُ الخزي، ومن هناك عذابُ المصيبة؛ بحيث أنَّ كلَّ آلام النُّفوس الأكثر بؤساً في الجحيم، لو وضعت في إنبيقٍ، لما تقطَّر منها قطرةٌ واحدةٌ ممَّا يحسُّه في قلبه.

1) عباراتٌ كانوا يستخدمونها في الألعاب؛ (كروتشِه).

حالما انتهى هذا الملك من الكلام، بدأ الآخر: «يا أسفي عليَّ، إنَّ آلامك ما هي إلا كعكٌ محلّى، أصابعُ سكّرٍ وكُراتُ عسلٍ بالمقارنة مع الألم الذي أشعر به، لأنَّ بنْتا تلك، بنْتا ذات اليدين المبتورتين التي وجدتها في الصُّندوق مثل شمعةٍ فينيسيَّةٍ لأجل جنازتي، اتَّخذتها زوجةً لي، وأنجبت لي طفلاً جميلاً، وبسبب حقد عجوزٍ قبيحةٍ، كانا على وشك أن ينتهيا في النَّار. ومع ذلك، آهِ للمسمار في قلبي! آهِ للألم الذي لا أستطيع بسببه الحصول على بعض الرَّاحة! لقد طردوا كليهما، وأرسلوهما إلى خارج مملكتي، لدرجة أنَّني، بعد أن وجدتُ نفسي مخفَّفاً من أيَّة متعة، لا أعرف كيف، تحت حمولة الكثير من الآلام، لا يسقط حمار حياتي متمرِّغاً في التُّراب!».

وبعد أن أصغى السَّاحر إلى الملك الآخر، أيقن بفطنته أنَّ الأوَّل أخو بنْتا والثَّاني زوجها، فنادى الصَّبيَّ نوفريلُّو وقال له: «هيَّا، تعال إلى هنا وقبِّل رجْلَي بابا، رجْلَي سيِّدك»، فأطاع الصَّبيُّ السَّاحرَ. وحين رأى الأب الجمالَ الأخَّاذ لذلك الطِّفل، ألقى حول رقبته سلسلةً جميلةً من الذَّهب. وبعد ذلك، تحدَّث السَّاحر مرَّةً أخرى قائلاً: «وقبِّل يد الخال، يا بنيَّ الجميل»، وأطاع ذلك الولد الآسر الأمر، فأعجب الملك الآخر بحيويَّةِ ذلك الغصن الطَّريِّ، ومنحه جوهرةً ثمينةً، وسأل السَّاحرَ إن كان هذا الولد ابنَه، فأجابه بأن يسأل أمَّه.

كانت بنْتا مُختبئةً خلف الباب تصغي إلى كلِّ هذا الحديث، فخرجت على الفور، ومثل كلبةٍ ضائعةٍ وجدت صاحبها بعد أيَّامٍ طويلةٍ فراحت تلعقه وتهزُّ ذيلها وتصنع ألف علامةٍ من علامات الفرح، راحت تهرع تارةً إلى أخيها وتارةً إلى زوجها، تارةً تجذبها عاطفة هذا، وتارةً لحمُ ذاك، فتعانق مرَّةً هذا ومرَّةً ذاك، بغبطةٍ كبيرةٍ لا يمكن تخيُّلها. بدوا وكأنَّهم يؤدُّون عرضاً موسيقيّاً ثلاثيّاً بكلماتٍ مبتورةٍ وتنهُّداتٍ متقطِّعة.

بعد أن توقَّفت هذه الموسيقى، عادا لمداعبة الصَّبيِّ، تارةً الأب وتارةً

الخال، وكانا يقبِّلانه ويعانقانه بالتَّناوب، سعيدَين به أيما سعادة. وبعد ما قيل وعُمِل من هذا وذاك، اختتم السَّاحر بهذه الكلمات: «تعلم السَّماء كم يفرح قلبي برؤية السَّيِّدة بِنْتا تنشرحُ صدراً، وهي التي تستحقُّ لخصالها الجميلة أن تُرفَعَ على كفوف الرَّاحة، ولأجلها سعيت بكثيرٍ من الحنكة لكي أجلب زوجها وشقيقها إلى هذه المملكة، لأقدِّم نفسي لهما عبداً مقيَّداً بالسَّلاسل[1]. ولكن طالما أنَّ الرَّجل يُقيَّد بالكلمة والثَّور بالقرون، وطالما أنَّ وعد الرَّجل الشَّريف عقدٌ وميثاقٌ، وبعد أن أيقنتُ أنَّ ملك تيرَّافيردِه ذاق الأمرَّين، أريد أن أفي بوعدي له وأعطيه ليس التَّاج والصَّولجان الموعودَين في النِّداء فحسب، بل والمملكة أيضاً. فأنا ليس لديَّ أبناء ولا متاعب أسريَّة؛ ولذلك، بعد إذنكم، أريد لأبنائي المُتبنِّين هذا الزَّوج والزَّوجة الجميلَين، وسيكونان عزيزَين عليَّ كمقلتَي عينيَّ. ولكيلا يبقى هناك ما يمكن أن نتمنَّاه لأجل سعادة الجميع، هيَّا، فلتُدخل بِنْتا ساعديها تحت المئزر، يخرجا بيدين أكثر جمالاً ممَّا كانتا عليه من قبلُ».

فعلت بِنْتا ذلك ونجح الأمرُ كما وعد السَّاحر. وكان فرحٌ عظيمٌ، وابتهج الجميع، وخاصَّةً الزَّوج الذي قدَّر هذه النِّعمة الرَّائعة أكثر من تقديره المملكة الجديدة التي وهبه إيَّاها السَّاحر. وبعد قضاء بضعة أيَّامٍ في احتفالاتٍ رائعةٍ، عاد ملك بيتراسِكَّا إلى مملكته، وأرسلَ ملكُ تيرَّافيردِه أخ زوجته الأصغر ليدير شؤون المملكة في أثناء غيابه، وبقي هو مع السَّاحر يكفِّر عن أشبار ذنبه بأمتار الرِّضا والسُّرور، ليثبت للعالم أنَّه:

لا يمكن أن يقدِّر طعمَ الحلاوة

مَن لم يجرِّب طعمَ المرارة.

---

1) احتجاجٌ ضدَّ العبوديَّة كان يستخدم آنذاك في المحادثات وفي المراسلات؛ (كروتْشِه).

الوجه الأبيض
المؤانسة الثَّالثة من اليوم الثَّالث

تقع رينزا التي حبسها أبوها في أحد الأبراج، لأنَّ المنجِّمين تنبَّؤوا بأنَّها ستموت بسبب عظمة فخذٍ، في حبِّ أحد الأمراء، فتثقب الجدار بعظمةٍ جلبها لها كلبٌ وتهرب. ولكن حين ترى حبيبها يُقبِّل عروسته، تموت من الحسرة، بينما ينتحر الأمير من شدَّة اللَّوعة.

بينما كانت تشيكًا تحكي هذه الحكاية بتأثُّر كبيرٍ، كان يبدو على الحاضرين وكأنَّهم يتذوَّقون طبق "أولَّا بودريدا"[1] بلذَّةٍ وعِيافٍ، بانشراحٍ ومعاناةٍ، بالضَّحك والبكاء. بكوا على مصائب بِنْتا، وابتهجوا للنِّهاية التي انتهت إليها عذاباتها. شعروا بالأسى لرؤيتها تواجه العديد من المخاطر، وعزُّوا أنفسهم بأنَّها أنقذت نفسها بكثيرٍ من العفَّة والشَّرف. شعروا بالاشمئزاز من الخيانة التي تعرَّضت لها، وسُرُّوا بالانتقام الذي تلا ذلك. في هذه الأثناء، وضعت مينيكا، التي كانت على أهبة الكلام، يدها على عتادها، قائلةً:

غالباً ما يحدث، حين يعتقد الرَّجل أنَّه تفادى مصيبةً شنيعةً، أن تدهمه تلك المصيبة في تلك اللَّحظة بالذَّات. ولذلك، يجب على الرَّجل الحكيم أن يضع كلَّ مصالحه في يد السَّماء، وألَّا يبحث عن دوائر السَّحرة وطرق المنجِّمين، لأنَّه بخلاف ذلك، إن سعى للتَّنبُّؤ بالمخاطر كفهيمٍ، وقع في الهاوية كبهيمٍ. ولتروا أنَّ هذا صحيحٌ، أصغوا إلى ما حدث.

1) Olla podrida، حساءٌ تقليديٌّ من المطبخ الإسبانيِّ يحضَّر بالبقوليَّات وقطع اللَّحم، مع إضافة توابل مختلفة؛ (المترجمان).

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، ملكٌ من فوسُوسترتُّو[1] لديه ابنةٌ جميلةٌ، ورغبةً منه في معرفة قدرها المدوَّن في كتاب النُّجوم، دعا إليه جميع المشعوذين والمنجِّمين والغجر الموجودين في ذلك البلد. فجاء هؤلاء إلى البلاط الملكيِّ، ومنهم من حدَّق في خطوط راحة اليد، ومنهم في ملامح الوجه، ومنهم في شامات رينزا (وهذا كان اسم ابنة الملك)، وكلُّ واحدٍ منهم عبَّر عن رأيه. ومع ذلك، خلصت غالبيَّة المجتمعين إلى القول إنَّها عرضةٌ، بسبب عظمٍ رئيسٍ[2]، لخطرٍ سوف يسدُّ مجرى حياتها الرَّئيس.

بعد أن اطَّلع الملك على ما تقوله الأبراج، أراد أن يقفز إلى الأمام لئلَّا يقع، فأمر ببناء برجٍ حصينٍ، وحبس ابنته فيه مع اثنتي عشرة وصيفةً شرفٍ ومربِّيةً ليخدمنها: وأمر، تحت طائلة الموت، أن يقدِّمن لها دائماً، اجتناباً للكوكب المعاكس، لحماً بلا عظامٍ.

الآن، وقد كبرت رينزا كالقمر، حدث في أحد الأيَّام، بينما كانت تنظر من نافذة البرج عبر شبَّاكٍ عليه قضبانٌ من حديدٍ، أن مرَّ تشيتشو، ابن ملكة فينيالارغا[3]، وما إن رأى تلك المخلوقة الرَّائعة الجمال حتى أحسَّ بالأمور تختلط عليه. ولأنَّها حيَّته وافترَّت عن أسنانها في ابتسامةٍ خفيفةٍ، تشجَّع واقترب حتى صار تحت النَّافذة، وقال لها: «حيَّاكِ الله يا سجلَّ تشريفاتِ كلِّ امتيازات الطَّبيعة؛ حيَّاكِ الله يا أرشيف كلِّ تنازلات السَّماء؛ حيَّاكِ الله يا ألواح الكون المسطَّرة بكلِّ عناوين الجمال!».

حين سمعت رينزا هذا المديح، أصبحت أكثر جمالاً من الحياء، ورمت مزيداً من الحطب على نار تشيتشو، وكما قال أحدهم، سكبت ماءاً مغليّاً

1) تعني حرفيّاً: الوَهْدَة الضَّيِّقة؛ (المترجمان).

2) عظم الفخذ؛ (كروتشِه).

3) تعني حرفيّاً: الكَرْم المترامي الأطراف؛ (المترجمان).

على مواضع الحرق. ولأنَّها أردات ألَّا تُهزم أمام مجاملات تشيتشو، أجابت: «أهلاً بك يا مخزن مفارش النِّعَم، يا مستودع بضائع الفضيلة، يا جمرك تجارة الحُبِّ!».

فردَّ تشيتشو قائلاً: «كيف تكون حبيسةً برجٍ قلعةُ قوى كيوبيد؟ كيف تكون سجينةً تلك التي هي سجنٌ للرُّوح؟ كيف لرمشٍ من الذَّهب أن يبقى خلف شبَّاكٍ من الحديد؟».

وروت له رينزا حينئذٍ كيف سارت الأمور، فقال لها تشيتشو إنَّه ابن ملكةٍ، ولكنَّه عبدٌ خاضعٌ لجمالها، وإن كان يسرُّها الهروب معه إلى مملكته، وضع التَّاج على رأسها. ولأنَّها كانت تشعر بأنَّها تشمُّ رائحةً آسنةً بين تلك الجدران الأربعة، لم تعد تستطيع الانتظار لتخرج إلى الهواء الطلق، فقبلت العرض، وأعطته موعداً في الصَّباح، حين يدعو الفجرُ الطُّيورَ لتشهد على البقع الحمراء[1] التي لطَّخه بها الشَّفق، ليهربا معاً. وهكذا، بعد أن رمت له قبلةً من أعلى النَّافذة توارت، وعاد الأمير إلى مكان إقامته.

كانت رينزا تفكِّر في طريقةٍ تخدع بها الوصيفات وتتملَّص منهنَّ حين دخل الغرفةَ كلبٌ كورسيكيٌّ، كان الملك قد وضعه لحراسة البرج، وهو يحمل في فمه عظمةَ فخذٍ كبيرةً. وبينما كان يقضمها تحت السَّرير، انحنت رينزا ورأت العظمة، فخطر ببالها فوراً أنَّها أداةٌ أرسلتها إليها ربَّة الحظِّ لتقضي بها غرضها، فانتزعتها من فمه وطردته من الغرفة. ثمَّ أوضحت للوصيفات أنَّها تعاني من الصُّداع، ولذلك عليهنَّ أن يتركنها تستريح دون إزعاجها، وأغلقت الباب.

وحالما بقيت وحدها، بدأت تعمل بالعَظْمَة مثل بنَّاءٍ محترفٍ، وبعد أن زحزحت حجرةً من الجدار، بذلت كثيراً من الجهد حتى نزعته من مكانه بطريقةٍ تمكِّنها من العبور من الفتحة إلى الخارج دونما مشقَّة. ثمَّ مزَّقت

1) كان تلطيخ الأبواب الخارجيَّة بالطِّلاء الأحمر يُعَدُّ إهانةً كبيرةً لساكنيه؛ (كروتشه).

زوجاً من الملاءات وجدلتهما كحبلٍ، وحين رُفِعَتْ ستارة الظّلال عن مشهد السَّماء لكي يبزغ الفجر ويقدِّم مشهداً تمهيديًّاً لمأساة اللَّيل، سمعت صفير تشيتشو، فعلَّقت طرف الملاءة بإطار الباب، وتركت نفسها تنزلق إلى الشَّارع في الأسفل. عانقها تشيتشو برفقٍ، وبعد أن أجلسها على ظهر حمارٍ كان قد وضع عليه سجَّادةً، انطلقا من فورهما إلى فينيالارغا.

في المساء، وصلا إلى مكانٍ يدعى فيزو[1] وأقاما في قصرٍ جميلٍ حيث غرس تشيتشو أوتاده في المزرعة الجميلة التي اقتناها، كعلاماتٍ على أملاكه الغراميَّة. ولكنَّ الحظَّ لا يتخلَّى عن عادته في شربكة خيوط الغزل، وإفساد اللُّعبة، وإغلاق الأبواب في وجوه جميع الخطط الطَّيِّبة التي يضعها العشَّاق. فهذه المرَّة، وهما في أوج غبطتهما، وصل ساعٍ يحمل رسالةً من والدة تشيتشو تقول فيها إنَّ عليه أن يسافر حالاً ليراها، وإلَّا فإنَّه لن يجدها حيَّةً، ذلك أنَّها كانت تجاهد قدر استطاعتها، ولكنَّها أوشكت بالفعل على بلوغ الواو والياء من أبجديَّة حياتها.

عند سماعه هذا الخبر السَّيِّئ، التفت تشيتشو إلى رينزا وقال لها: "يا فؤادي، الأمر عاجلٌ، وعليَّ أن أهرع لأصل في الوقت المناسب. ابقَي أنتِ في هذا القصر لخمسة أو ستَّة أيَّامٍ، لأنَّني لن أتأخَّر أو سأرسل أشخاصاً ليأتوا بكِ".

انفجرت رينزا باكيةً لهذا الخبر المحزن، وأجابت: "يا لبؤس قدري، يا للسُّرعة التي هوت بها على وجهها دنان ملذَّاتي، وانكشطت بها إلى القعر آنيةُ متعتي، وانتهت بها جُذاذاتٍ سلَّةُ بهجتي! يا لبؤسي، كيف انجرَّت مع الماء آمالي، واستحالت نخالةً طموحاتي، وذهبت هباءً كلُّ مسرَّاتي! فبمجرَّد ما بدأت أتذوَّق هذه المرقة الملكيَّة، توقَّفت اللُّقمة في حلقي؛ وبمجرَّد ما لامستُ بفمي نافورة العذوبة هذه، تعكَّرت متعتي؛ وبمجرَّد

---

1) تعني حرفيًّاً : وجه؛ (المترجمان).

ما رأيت الشَّمس تشرق، صار بمقدوري أن أقول: -عمتَ مساءً يا عمِّي مرقدَ القشِّ!".

كانت هذه الكلمات وكلماتٌ أخرى مشابهةٌ تخرج من تحت الأقواس التُّركيَّة لتلك الشِّفاه لتنغرز في روح تشيتشو، حين قال هذا الأخير لها: "توقَّفي يا سند حياتي الأجمل، يا قنديل عينيَّ المشعَّ، يا خزامى قلبي المهدِّئة. سوف أعود بسرعة. أميال البعد لا يمكنها أن تبعدني شبراً واحداً عن جسدك الجميل؛ وقوى الزَّمنَ لا يمكنها أن تطرد ذكراكِ من رأسي. اهدئي، كوني مرتاحة البال، جفِّفي دموعك، واحفظيني في قلبك". وبعد أن نطق هذه الكلمات، امتطى حصانه وأخذ يعدو نحو مملكته.

وإذ رأت رينزا نفسها وقد أُهْمِلَتْ كالخيار، انطلقت في إثره مقتفيةً خطاه؛ فبعد أن حلَّت رباطَ حصانٍ وجدته يرعى في المرج، بدأت تعدو على الطَّريق التي سلكها. وفي أثناء عدوها، التقت بصبيٍّ ناسكٍ، فنزلت فوراً عن صهوةِ الحصان وبادلته ملابسَها التي كانت كلُّها مرصَّعةً بالذَّهب، بالخَيش والحبل الذي كان يرتديهما. ارتدت الخَيشَ وشدَّت الحبلَ زنَّاراً على وسطها، هي التي تشدُّ على الرُّوح رباطَ الحُبِّ، وعادت لامتطاء حصانها وهي تنخسه بكعبيها، حتى لحقت بتشيتشو في وقتٍ قصيرٍ، وقالت له: "مرحباً يا سيِّدي الكريم!". "مرحباً بك، أيُّها الرَّاهب الفتيُّ، - أجاب الآخر: - من أين أنت قادمٌ وإلى أين المسير؟". وأجابت رينزا:

أنا قادمٌ من مكانٍ تعيش فيه امرأةٌ

في نحيبٍ دائمٍ، وتقول: «آه يا أيُّها الوجه الأبيض!

كيف فقدتكَ وقد كنتَ دائماً بجانبي!».

هتف تشيتشو الذي لم يعرفها وكان يعتقد أنَّها صبيٌّ: «- أيُّها الفتى الجميل، كم تسرُّني صحبتك! اصنع لي معروفاً، وخذ مقلتيَّ: لا تبتعد

أبداً عنِّي، وبين فترةٍ وأخرى، ردِّد على مسمعي هذه الأبيات من الشِّعر، لأنَّها حقَّاً تدغدغ فؤادي!»

وهكذا، مع مروحة الثَّرثرة التي تروِّح عنهما حَرَّ الطَّريق، وصلا معاً إلى فينيالارغا. هناك، وجدا أنَّ الملكة قد اختارت زوجةً لتشيتشو، ولهذا السَّبب كانت قد أرسلت وراءه متذرِّعةً بتلك الخدعة، وكانت زوجته بالفعل جاهزةً وتنتظره. توسَّل تشيتشو إلى والدته أن تحتفظ بالشَّابِّ الذي رافقه في المنزل وأن تعامله كما لو كان أخاه؛ ولأنَّ الأمَّ وافقت، جعلته يبقى دائماً بجانبه ويتناول الطَّعام على المائدة نفسها مع العروس.

لكم أن تتصوَّروا الآن حال قلب رينزا المنكودةِ الحظِّ وإن كانت قادرةً على ابتلاع الجوز المُقيِء[1]. مع كلِّ هذا، كانت من وقتٍ لآخر تردِّد أبيات الشِّعر التي كان يحبُّها تشيتشو. ولكن حين رُفعت المائدة، وانسحبت العروس إلى غرفةٍ صغيرةٍ لتتحدَّث بمفردها مع تشيتشو، انفسح المجالُ لرينزا لكي تنفِّس عن شغف قلبها، فدخلت بستاناً يمتدُّ خارج البيت، وبعد أن انتبذت لها مكاناً تحت شجرة توتٍ، بدأت تشتكي قائلةً:

"آه يا تشيتشو القاسي، أهذا هو الشُّكر العظيم على الحُبِّ الذي أكنُّه لك؟ أهذه هي الرَّحمة العظيمة للخير الذي أريده لك؟ أهذا هو جزاء العاطفة التي أُظهرها لك؟ ها قد هجرت أبي، وتخلَّيت عن بيتي، ومرَّغت شرفي، وسلَّمت نفسي لقسوة كلبٍ شرسٍ لأرى نفسي مقطَّعةَ الأوصال، وحين كنت أظنُّ أنَّني أسيطر على هذا الحصن المنيع، إذا البابُ موصدٌ في وجهي والجسرُ مرفوع! وها أنا أرى نفسي الآن مدوَّنةً في سجلِّ ضرائب جحودك، بينما كنت أظنُّني أقيم في دوقيَّةِ نعمك! ها أنا أرى نفسي ألعب لعبةَ "إشهارٌ وإلزامٌ من قِبَل المعلِّم كيومينتو"، بينما كنت أتخيَّل أنَّني ألعب معك لعبة "آنكا نيكولا"! لقد زرعتُ الآمال، وها أنا أحصد جبن

---

1) أو إسطركن الجوز المقيء، وهي شجرةٌ من الفصيلة اللُّوغانيَّة بذورها مرَّة الطَّعم جدَّاً وشديدة السُّمِّيَّة؛ (المترجمان).

الكاتشوكافالُّو؛ لقد رميت شبكة الرَّغبة، وها أنا أسحبُ بها رملَ الجحود؛ لقد بنيت قلاعاً في الهواء، وها قد هويتُ بجسدي على الأرض! هذا هو الجزاء الذي تلقَّيته؛ هذا هو الزَّوجُ الذي أُعطِيتُه؛ هذا هو الأجر الذي أحصل عليه! أدليتُ دلوي في بئر الرَّغبات الغراميَّة، وبقي المقبض في يدي: نشرتُ غسيل آمالي وأمْطَرَتْ عليه سماءٌ صافية؛ وضعتُ قِدْرَ الأفكار على نار الرَّغبة، فتساقط فيه سخامُ المحن. ولكن من كان يعتقد، أيُّها الخائن، أنَّ كلماتك ستكون من نحاس؟ أنَّ برميل وعودك سيجفُّ حتى لا يبقى منه سوى الحثالة؟ أنَّ خبز لطفِكَ سيتعفَّن؟ يا لها من صورةٍ جميلةٍ لرجلٍ محترم! يا له من مثالٍ جيِّدٍ لشخصٍ نبيل! يا لها من خصالٍ رائعةٍ لابن ملكٍ: أن يخدعني، أن يخونني، أن يخاتلني، أن يقصَّ لي عباءةً فضفاضةً ليعطيني سترةً قصيرةً، أن يعدني بالبحار والجبال ليرميني في حفرةٍ، أن يغسل وجهي ليتركني بقلبٍ أسود! آه يا وعود الرِّيح، آه يا كلمات النُّخالة، آه يا أيمَانَ الطِّحال المقليِّ! لقد قلتُ أربعةً قبل أن تكون في الكيس؛ ها أنا على بعد مِائة ميلٍ وكنتُ أعتقد أنَّني وصلتُ إلى منزل البارون! صدقَ من قال إنَّ كلامَ اللَّيل يمحوه النَّهارَ[1]! يا أسفي عليَّ، حين كنت أظنُّ أنَّني سأصيرُ كاللَّحم والدَّم مع هذا القاسي، صرتُ معه كالقطِّ والكلب؛ وحين كنت أتخيَّل أنَّني سأكون كالقِدْر والملعقة مع هذا الكلب المسعور، صرتُ معه كالحيَّة والضِّفدع؛ لأنَّني لا أستطيع أن أتحمَّل أنَّ شخصاً آخر، مع خمسةٍ وخمسين حظَّاً من الحظوظ الجيِّدة، يمكن أن ينتزع من يدي ورقةَ آمالي الرَّابحةَ؛ لا أستطيع أن أتحمَّل الهزيمة! بئس البداية يا رينزا، انظري ما حدث حين وثقت بالرِّجال، انظري ما حدث حين تركتِ كلمات الرِّجال تُخبِلُكِ! رجالٌ بلا قانونٍ ولا عقيدةٍ، بائسةٌ من تعاشرهم، تعيسةٌ من تخالطهم، سيِّئة الحظِّ من ترتمي في السَّرير الرَّحراح الذي اعتادوا تحضيره لكِ! ولكن لا تقلقي: أنت تعرفين أنَّ من يخدع الفتيات يموت كالصَّراصير؛

1) في الأصل الإيطاليِّ: تمحوه الرِّياح؛ (المترجمان).

تعرفين أنَّ في منصَّة السَّماء لا يوجد كَتَبَةٌ دنيئون يزيِّفون الأوراق؛ وحين لا تتوقَّع ذلك، يأتي يومُكَ! أنتَ الذي قمت بخدعة اليد هذه لمن أعطتك نفسها نسيئةً لتتلقّى خدمةً سيِّئةً نقداً. ولكن، ألا أرى أنَّني أنطق بكلماتي للرِّيح وأتنهَّد للفراغ؟ إنَّني أتنهَّد هباءً، وأشكو همِّي إلى نفسي. هذه اللَّيلة، سيصفِّي هو حساباته مع العروس ويأخذ الفدية؛ بينما أصفِّي أنا حساباتي مع الموت وأسدِّد الدَّين للطَّبيعة. هو سيكون في سريرٍ أبيض فوَّاحٍ برائحة الغسيل، وأنا داخل تابوتٍ معتمٍ تنتنُ فيه رائحةُ القتيلة. هو سيلعب "فرِّغ الدِّنان" مع تلك المحظوظة، وأنا سألعب "يا صاحبي، جريحٌ أنا"، غارزةً في ضلوعي عصاً مدبَّبةً لأضع حدّاً لحياتي".

بعد هذه الكلمات وغيرها من الكلمات المفعمة بالألم والغضب، وعندما حانت ساعة العمل بالأسنان، دُعيت رينزا إلى المائدة، ولكنَّ الأطباق المحمَّرة بالجبن المبشور واليخنات كانت بالنِّسبة إليها زرنيخاً وعَنْجَداً[1]، لأنَّ ما كان يشغل رأسها كان أكثر من الأكل، وما كان ينزل إلى معدتها كان أكثر من الشَّهوة لملئها. حتى إنَّ تشيتشو، حين رآها هكذا كئيبةً وحزينةً، قال لها: «ما خطبُ هذه الأطعمة؟ ما خطبكَ؟ بماذا تفكِّر؟ بماذا تشعر؟». «لا أشعر أنِّي بخيرٍ البتَّة – أجابت رينزا، – ولا أعرف إن كان عسرَ هضمٍ أم دُواراً». «حسناً تفعل إذا تركت الطعام – ردَّ الآخر، – لأنَّ الحمية أفضل تبغٍ لكلِّ مرض[2]؛ ولكن، إن كنتَ في حاجةٍ إلى طبيبٍ، فسنرسل في طلب طبيب بَوْلٍ يستطيع من الوجه فحسب، دون أن يلمس المعصم، تشخيصَ أمراض النَّاس». «إنَّه ليس مرضاً يُداوَى بوصفات الطَّبيب –قالت رينزا، – ولا أحد يعرف مصيبة القِدْرِ سوى المغرفة». «اخرج قليلاً إلى الهواء الطَّلق»، أضاف تشيتشو. وردَّت رينزا: «كلَّما حرَّكت عينيَّ أكثر، انفطر قلبي أكثر».

---

1) العَنْجَد أو الفرييون أو الحلاّب، نباتٌ من الفصيلة اللَّبنيَّة ينتشر في حوض البحر المتوسِّط وكلِّ مناطق أوروبّا؛ (المترجمان).

2) في تلك الحقبة كان التَّبغ يُستخدَم علاجاً للعديد من الأمراض؛ (المترجمان).

وبينما كانا يتحدَّثان هكذا، انتهى العشاء وحانت ساعة النَّوم؛ ولكي يسمع دائماً تلك التَّرنيمة، أراد تشيتشو من صاحبه أن ينام في سريرٍ صغيرٍ في الغرفة نفسها التي ينام فيها مع عروسه. وبين فينةٍ وأخرى، كان يطلب منه أن يردِّد تلك الأبيات التي كانت طعناتٍ في قلب رينزا ورعوداً في رأس العروس التي، بعد أن صبرت طويلاً، انفجرت قائلةً: «لقد صدَّعتم رأسي ومؤخِّرتي بهذا «الوجه الأبيض!»؛ ما هذه الموسيقى الحزينة؟ لقد أصبحت زحاراً حقيقيَّاً لا يتوقَّف! كفى بالله عليك! ما هذا؟ أفي رأسك خللٌ يجعلك تكرِّر دائماً الشَّيء نفسه؟ كنتُ أظنُّ، وأنا أنام معك، أنَّني سأصغي إلى آلاتٍ موسيقيَّةٍ وليس إلى ترديد كلماتٍ. ولكن انظر بأيِّ حرصٍ تلمس دائماً الوتر نفسه! بحقِّ نعَمِك، لا مزيد من هذا، يا زوجي، وأنتَ، أيُّها المنفحة التي تفوح منها رائحة الثُّوم، اتركنا بسلامٍ قليلاً».

«اصمتي يا زوجتي! - أجاب تشيتشو، - لأنَّنا سنقطع حبل الكلام الآن». وبقوله هذا، منحها قبلةً قويَّةً لدرجةِ أنَّ فرقعتها سُمعت على بعد ميل. تردَّد دويُّ الشِّفاه ذاك كالرَّعد في صدر رينزا، وشعرت بألمٍ شديدٍ لدرجةِ أنَّه حين هرعت كلُّ الأرواح لتغيث قلبها، حدث كما يقول المثل: «إنَّ الإفراط في الامتلاء يشقُّ الغطاء»، لأنَّ دفقَ دمها كان من القوَّةِ بحيثُ أنَّه قطع نَفَسها وجعل قدميها تتمدَّدان إلى الأبد.

بعد أن انتهى تشيتشو من إرضاء رغبات عروسه، نادى رينزا بصوتٍ خافتٍ لتكرِّر تلك الكلمات التي أحبَّها كثيراً، ولأنَّه لم يسمع الجواب الذي كان ينتظره، عاد يتوسَّل إليها أن تصنع لأجله هذا المعروف الصَّغير؛ وحين رأى أنَّها غارقةٌ في الصَّمت، نهض ببطءٍ وشدَّها من ذراعها، ولمَّا لم يلق جواباً وضع يده على وجهها، وإذ لمس الأنف البارد جدَّاً، أدرك أنَّ نار الحرارة الطَّبيعيَّة لذلك الجسد كانت قد انطفأت. مذهولاً ومندهشاً، أحضر في الحال شموعاً، وإذ كشف الغطاء عن ذلك الجسد، تعرَّفَ فيه رينزا من شامةٍ جميلةٍ كانت في منتصف صدرها. عندئذٍ علا صوتُ

صراخه: «ما هذا الذي تراه، يا تشيتشو المنكوب؟ ماذا حدث لك، أيُّها التَّعيس؟ أيُّ مشهدٍ هذا الماثل أمام عينيك؟ أيُّ مصيبةٍ هذه التي نزلت على مفاصلك؟ آه يا زهرتي، من قطفك؟ آه يا قنديلي، من أطفأك؟ آه يا إناء متع الحبِّ، كيف انقلبتَ رأساً على عقب؟ من هدَّمكَ، يا بيت مسرَّاتي الجميل؟ من مزَّقكِ، يا ورقة بهجتي المزهرة؟ من أرسلكِ إلى الأعماق، يا سفينة انشراح هذا القلب؟ آهِ يا غاليتي، بعد أن أغلقتِ عينيك الجميلتين، أفلس دكَّان الجمال، وانقطعت أعمالُ النِّعَم، وذهب الحُبُّ ليرمي العِظام عن الجسر![1] بعد رحيل هذه الرُّوح الجميلة فُقِدَتْ بذرةُ كلِّ الجميلات، وتحطَّمَ قالبُ كلِّ الحسناوات، وضاعت إلى الأبد بوصلةُ بحر الجمال الغزليِّ. آهِ يا للنَّازلةِ التي لا رافع لها، يا للعذاب الذي لا مثيل له، يا للخراب الذي لا يُقاس! اذهبي وتفاخري يا أمِّي بأنَّكِ صنعتِ خيراً إذ زوَّجتِني بالقوَّة، فجعلتِني أفقد هذا الكنز! ماذا سأفعل، أنا البائس المجرَّد من كلِّ متعة، الفارغ من كلِّ عزاء، المحروم من كلِّ فرح، المفلس من كلِّ بهجة! لا تظنِّي، يا حياتي، أنَّني أريد أن أبقى في هذا العالم من بعدك، لأنَّني أريد أن ألاحقكِ وأحاصركِ أينما ذهبت، ورغمَ أهوال الموت، سنتَّحد معاً، وإذا كنتُ أخذتُكِ رفيقَ درب إلى سريري، فسأكون شريكاً في أسهم قبرك، وشاهدةٌ واحدةٌ ستروي مأساتنا نحن الاثنين!».

ثمَّ تناول مسماراً وقام بعملٍ يائسٍ: تحت الثَّدي الأيسر، جعل دمَ حياتِهِ يخرجُ متدفِّقاً. تجمَّدت العروس في مكانها مذعورةً، وحين أمكن لها أن تفكَّ عقدة لسانها وتُخرج صوتها، نادت الملكةَ التي هرعت إلى مصدر الصُّراخ مع البَلَاط كلِّه. حين رأت ابنها ورينزا ميِّتَين، وبعد أن علمت سبب الكارثة، مزَّقت شعرها وصارت تنتفض مثل سمكةٍ خارج الماء، واتَّهمت النُّجوم بالقسوة لأنَّها أمطرت منزلها بوابلٍ من المصائب ولعنت الشَّيخوخة

1) كانت عظام المحكومين بالإعدام والمنتحرين، وكذلك جثث الأحصنة وبقيَّة الحيوانات، تُرمَى عن جسر ريتشاردو أو جسر مادَّالينا في نابولي إلى نهر سِيبِتو؛ (كروتشِه).

البائسة التي أبقتها لكلِّ هذا الخراب. صاحتا هكذا صياحاً شديداً، ولطمتا، وشقَّتا الجيوب، وولولتا، ثمَّ وضعتا الاثنين معاً في الحفرة نفسها وكتبتا فوقها قصَّة مأساتهما.

في الوقت نفسه وصل الملك، والدُ رينزا الذي هام على وجهه في العالم بحثاً عن ابنته الهاربة، والتقى صبيَّ النَّاسك الذي كان يعرض ألبستها للبيع، فأخبره بالقصَّة، وهكذا، ملاحقاً الأميرَ وريثَ مملكة فينيالارغا، وصل بالضَّبط إلى اللَّحظة التي عندها، بعد أن حُصِدَت سنابلُ أعوامه، كان على وشك الوقوع في الحفرة[1]. وبعد أن رأى رينزا وعرفها، بكاها وتنهَّد عن كبدٍ حَرَّى، ولعن عَظْمَةَ الفخذ التي أجرَتِ الدُّهنَ في حساء مصائبه. تلك العَظْمَة التي وجدها على الأرض في غرفة ابنته، أصبح يعدُّها الآن أداةً لهذه الحادثة القاسية، إذْ تحقَّقت بهذه الطَّريقة، بوجهٍ عامٍّ وخاصٍّ، النُّبوءةُ المحزنة لأولئك المشعوذين الذين تكهَّنوا بأنَّ رينزا سوف تموت بسببها، والذين أثبتوا بما لا يدع مجالاً للشَّكِّ أنَّه:

حين تكون مصيبةٌ ما مكتوبةً في لوح القدر،

فإنَّها تدخل من شقوق الباب.

1) إشارةً إلى الحُفَر التي كانت تُحفَظ فيها الحنطة؛ (كروتشِه).

سابيا ليكَّاردا
المؤانسة الرَّابعة من اليوم الثَّالث

في أثناء سفر والدها، تبقى سابيا عفيفةً في البيت بفضل دهائها، على الرَّغم من المثال السَّيِّئ الذي تقدِّمه شقيقتاها: تحتال على عشيقها، وبعد ذلك، حين تدرك الخطر المُحْدِق بها، تقوم بإصلاح الضَّرر، وفي النِّهاية، يتَّخذها ابن الملك زوجةً له.

كلُّ البهجة التي دخلت قلوبهم في الحكايات السَّابقة، تعكَّرت لدى سماعهم الحكاية الحزينة لهذين العاشقين البائسَين؛ وظلُّوا لفترةٍ لا بأس بها حزينين كما عندما تولَدُ لهم أنثى. عندئذٍ طلب الملك من تولَّا أن تحكي حكايةً مرحةً لتخفِّف من حزنهم على موت رينزا وتشيتشو؛ وما إن تلقَّت هذه الأمرَ حتَّى أطلقت العنان للسانها على النَّحو التَّالي:

في ليل ويلاتِ العالَم يبقى الحكمُ السَّليمُ فانوساً مشعَّاً يمكن بفضله القفز فوق الحفر دون خطرٍ واجتياز المعابر الغدَّارة دون خوف. لذلك، من الأفضل أن يمتلك المرء البصيرة بدلاً من النُّقود، لأنَّ هذه تأتي وتذهب، أمَّا تلك فتكون جاهزةً لكلِّ الضَّرورات. وعن هذا الأمر سوف ترون مثالاً رائعاً في شخص سابيا ليكَّاردا التي، بإقلاعها مع ريح شمالِ حكمِها السَّليم من خليج الآلام الشَّاسع، انتهى بها الأمر إلى الرُّسُوِّ في ميناءٍ آمن.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، تاجرٌ غنيٌّ جدَّاً يدعى ماركونِه، وكان لديه ثلاث بناتٍ جميلاتٍ، سابيلَّا وتشينزا

وسابيا ليكَّاردا. اضطرَّ في أحد الأيَّام إلى السَّفر لأمر يتَّصل بالعمل، ولأنَّه كان يعرف أنَّ الكبيرتين كانتا فرسين جامحتين ترابطان دائماً على النَّوافذ، سَمَّرَ، قبل أن يغادر، جميع نوافذ المنزل وترك لكلٍّ واحدةٍ من بناته خاتماً مرصَّعاً بأحجارٍ معيَّنةٍ تتلطَّخ بالبقع إذا ارتكب من يضعها في إصبعه أفعالاً شائنة.

كان الأب قد ابتعد لتوِّه عن فيلَّا أبرتا[1] (هكذا كانت تدعى تلك الأرض) حين بدأت الشَّقيقتان تصعدان إلى النَّوافذ وتسترقان النَّظر من وراء الرَّواشن، مع أنَّ سابيا ليكَّاردا، صُغراهنَّ سنَّاً، كانت مستاءةً جدَّاً، وصاحت عليهما بأنَّ منزلهم لم يكن "جِلْسِيْ"، ولا "دوكيسَّا"، ولا "خان النَّارنج"، ولا "زقاق المِبْوَلة"[2]، لكي تمارسا فيه هذا الابتذال والخلاعة.

وكان بيتهم يقع مقابل قصر الملك بالضَّبط، وبعد أن شاهد أبناء الملك الثَّلاثة، تشيكَّارييلُّو وغراتسولُّو وتوره[3]، الفتيات الثَّلاث اللاَّتي كان جمالهنَّ يخلب العقول، بدأوا يغمزون لهنَّ بعيونهم، ومن غمزات العيون انتقلوا إلى منحهنَّ قبلاتٍ في الهواء، ومن القبلات في الهواء إلى الكلمات، ومن الكلمات إلى الوعود، ومن الوعود إلى الأفعال. وفي مساء أحد الأيَّام، في الوقت الذي انسحبت فيه الشَّمس مع أرباحها لئلَّا تنافس اللَّيل[4]، صعد الثَّلاثة إلى منزل الأخوات الثَّلاث، واتَّفق الشَّقيقان الأكبران مع الشَّقيقتين الكُبرَيَين، وحين حاول الثَّالث، توره، وضع يده على سابيا ليكَّاردا، تملَّصت منه مثل الأنقليس وحبست نفسها في إحدى الغرف وأزلجت البابَ بالمزلاج بإحكامٍ حتى صار من المستحيل فتحه: لدرجة أنَّ

---

1) تعني حرفيَّاً: الدَّارُ المفتوحة؛ (المترجمان).

2) أحياءٌ سيِّئة السُّمعة في نابولي التي كان فيها في تلك الحقبة ثكناتٌ وتجمُّعاتٌ للجيش الإسباني، فكانت بؤرةً للدَّعارة؛ (المترجمان).

3) تصغيرٌ لأسماء «فرانتشيسكو» و«أوراتسيو» و«سلفاتوره»؛ (كروتشِه).

4) المشهد محاكاةٌ للبارونات الذين كانوا يحضرون إلى البلاط ويتنافسون في مظاهر البذخ والأبَّهة، وبالأخصِّ أولئك الذين كانوا ينسحبون في لحظةٍ من اللَّحظات من المنافسة تفادياً للإفلاس، ويعودون لممارسة حياةٍ متواضعةٍ في مزارعهم؛ (كروتشِه).

الشَّابُّ المسكين جلس هناك يعدُّ لقمات شقيقيه، وبينما كانا يحمِّلان الأكياس من المطحنة، كان هو يمسك بالبغل.

في الصَّباح، حين نادت الطُّيور، حاملةً أبواق الفجر، أنِ "الكلُّ إلى الخيل"، لتحمل ساعات النَّهار على امتطاء السُّروج، غادروا ثلاثتهم، الأكبران مبتهجَين للملذَّة التي حصلا عليها، والأصغرُ مبتئساً للَّيلة السَّيِّئة التي قضاها. وحبلت الشَّقيقتان في الحال؛ ولكنَّ حملهما لم يكن سارّاً، وقالت لهما سابيا ليكَّاردا الكثير؛ وهكذا، بينما كانتا تنتفخان يوماً بعد يومٍ، كانت هي تنكمش ساعةً بعد ساعةٍ، مرتئيةً دائماً أنَّ بطن العظاءة[1] كان سيجلب لهنَّ الحرب والخراب، وحين يعود الأب، سترينَّ رأيَ العين بعض الخراف ترقص مرحاً.

في هذه الأثناء، كانت رغبة توره في سابيا ليكَّاردا تتضاعف، من ناحيةٍ بسبب جمالها، ومن ناحيةٍ أخرى لأنَّه تلقَّى إهانةً وكان يشعر بالحقد؛ فتواطأ الشَّابُّ مع شقيقتيها الأكبر سنّاً لإسقاطها في الفخِّ حين لا تتوقَّع هي ذلك، وتعهَّدت الشَّقيقتان بأن يكيدوا لها بحيث يجعلوها تذهب بقدميها إلى منزله. وهكذا، في أحد الأيَّام، نادتا سابيا ليكَّاردا وقالتا لها: "أيْ أختاه، ما حصل قد حصل: لو كانت النَّصائح تُباع وتُشترى لكانت أغلى ثمناً أو أكثر احتراماً؛ لو كنَّا أصغينا إليكِ كما ينبغي لما انهار شرفُ هذا البيت وانتفخ بطنانا كما ترين. ولكن ما الحلُّ الآن؟ لقد انغرز السِّكِّين إلى المقبض؛ وانجرفت الأمور بعيداً جدّاً؛ وفُتِحَ منقارُ الإوزَّة[2]. لذلك،

1) لدى بعض كتَّاب تلك الحقبة: «عين العظاءة»، ويُشار بها إلى العين التي تغري الآخرين وتوقعهم بحبائلها؛ (كروتشه).

2) مثلٌ ذائع الصِّيت تعود أصوله إلى روايةٍ تزعم أنَّ أحد الوجهاء في فلورنسا كانت له زوجةٌ جذَّابةٌ وسهلة المنال. ولذلك، لكي يحمي شرفه، طلب من أحد الحدَّادين أن يصنع له حزام عفَّةٍ مع مفتاحٍ عصيٍّ على التَّزوير، ويبدو أنَّه كان على شكل منقار إوزَّة. ولكنَّ أحد العشَّاق ينجح في تقليده ويفتح الحزام، ويُقال إنَّه بعد أن مارس الحبَّ مع المرأة، صاح: ها قد فتحنا منقار الإوزَّة وزرعنا لسموِّه قروناً!؛ (المترجمان).

لا نستطيع أن نصدِّق أنَّ السُّخط سيعصف بك لدرجة الرَّغبة في أن ترينا نغادر هذه الحياة؛ ونأمل أنَّكِ سترأفين بحالنا، إن لم يكن لأجلنا، فعلى الأقلِّ لأجل هذه المخلوقات المسكينة التي نحملها في رحمينا".

"تعلمُ السَّماءُ - أجابت سابيا ليگَّاردا - كم يبكي قلبي ألماً من الخطأ الذي اقترفتماه وأنا أفكِّر في الفضيحة القائمة الآن وفي العقاب الذي ينتظركما حين يعود أبونا ويجد مثل هذه السَّوءةِ في منزله؛ وإنَّني مستعدَّةٌ للتَّضحية بإصبعٍ من أصابع يدي لتفادي وقوع هذا الأمر. ولكن، لأنَّ الشَّيطان أعماكما، قولا لي أنتما ماذا يمكنني أن أفعل، شريطةَ ألَّا يمسَّ ذلك شرفي؛ فالدَّم لا يصير ماءً، وفي النِّهاية، اللَّحمُ يحنُّ على اللَّحم، والشَّفقةُ عليكما مِنْخَسٌ في جَنْبي، وأنا مستعدَّةٌ لتقديم حياتي لقاءَ رَأْبِ ما وقع".

تركتها شقيقتاها تقول ما عندها، ثمَّ قالتا لها: "لا نريدُ علامةً على محبَّتكِ لنا أكثر من أن تُحضري لنا شيئاً من الخبز الذي يأكله الملك، لأنَّ الوَحَمَ اشتدَّ بنا إليه، وإذا لم نُعْطَ ما نشتهيه، فثمَّة خطرٌ بأن يولد الأطفال بخبزٍ على رؤوس أنوفهم. ولذلك، إن كنتِ مسيحيَّةً بحقٍّ، أسدي إلينا هذا المعروف غداً صباحاً: سنُنزلك من النَّافذة التي صعد منها أبناء الملك، ولن يعرفك أحدٌ، لأنَّنا سنُلبسك ثياب شحَّاذة".

رحمةً بالأطفال المساكين الذين كانوا سيأتون إلى العالم، وملفوفةً بثوبٍ رثٍّ مع مشط كتَّانٍ معلَّقٍ بحمَّالةٍ على كتفها، وحين رفعت الشَّمس جوائزَ من الضَّوء للنَّصر الذي حقَّقته على اللَّيل، ذهبت سابيا ليگَّاردا إلى قصر الملك لتشحذ رغيفاً من الخبز؛ وبعد أن حصلت على الصَّدقة، وكانت على وشك المغادرة، ما كان من توره، الذي كان يترقَّب بخبثٍ ذلك الموعد، إلَّا أن همَّ بالانقضاض عليها في الحال. ولكن، بينما كان على وشك الإمساك بها، استدارت سابيا فجأةً فنزلت يداه على المشط وتخدَّشتا لدرجة أنَّه بقي يتألَّم يومين.

بعد أن حصلت أختاها على الخبز وازداد جوع توره البائس، عادوا إلى التَّآمر عليها، وبعد يومين، بدأتا تلحَّان مرَّةً أخرى على سابيا زاعمتَين أنَّ الوَحَمَ اشتدَّ بهما إلى إجاصتين من حديقة الملك؛ فارتدت سابيا ثوباً آخر وذهبت إلى الحديقة. وجدت هناك توره الذي عرفَ الشَّحَّاذةَ فوراً، وحين علم أنَّها تريد بعض الإجاص، صعد بنفسه إلى الشَّجرة وقطف ثمرتين من الإجاص وألقاهما في حضن سابيا. ولكن، حين شرع في النُّزول ليمسك بها، أبعدَتْ هي السُّلَّم وتركته في الأعلى بين الأوراق يصيح على العقاعق[1]. ولو لم يأت البستانيُّ مصادفةً ليقطف خسَّتين، ويساعده في النُّزول، لبقي هناك طوال اللَّيل: ولذلك عضَّ على يديه وهدَّد بأن ينتقم شرَّ انتقام.

والآن، كما شاءت السَّماء، أنجبت الشَّقيقتان طفلين صغيرين جميلين، وقالتا لسابيا: «إنَّنا هالكتان لا محالةَ إذا لم تهرعي لمساعدتنا، فبعد وقتٍ قصيرٍ سيعود سيِّدنا، وحين سيجد هذه السَّوءةَ في بيته، سيعاقبنا بحيث أنَّ أكبر قطعةٍ منَّا ستكون الأذن. ولذلك، اذهبي إلى الأسفل، ونحن سنُنزل لك هذين الطِّفلين الصَّغيرين في سلَّةٍ، وعليكِ أن تحمليهما إلى أبويهما ليعتنيا بهما».

كان قلبُ سابيا ليكَّاردا مليئاً بالحُبِّ، ولذلك، مع أنَّها كانت تعرف أنَّه من العسير تحمُّل هذا العبء النَّاجم عن غباء شقيقتيها، سمحت لنفسها بأن تقتنع بالنُّزول إلى الشَّارع، وبعد أن أنزلتا الطِّفلين، حملتهما إلى غرفة أبويهما اللَّذَين كانا غائبين، فوضعت كلَّ واحدٍ منهما في سرير أبيه، بعد أن استفسرت عن الأمر بدهاء. ثمَّ ولجت غرفة توره، ووضعت تحت غطاء السَّرير حجراً كبيراً، وعادت إلى البيت. وحين عاد الأمراء إلى غرفهم، وجد الكبيران الطِّفلَين اللَّطيفَين مع اسمَي أبويهما مكتوبَين على قطعة ورقٍ مثبَّتةٍ على الصَّدر، فشعرا بفرحٍ كبيرٍ؛ أمَّا توره، فكان حانقاً ومغتاظاً

1) أي ليكون كفزَّاعةٍ للطُّيور؛ (كروتشِه).

لأنَّه الوحيد الذي لم يتمكَّن من الحصول على وريث، وحين ألقى نفسه على سريره، ارتطم رأسه بقوَّةٍ بالحجر فنبتَ له نتوءٌ كبير.

في هذا الوقت، عاد التَّاجر من رحلته، وأراد على الفور رؤية خواتم بناته، وحين وجد خاتمَي الكبيرتين ملطَّخَين تماماً، هاج كالشَّيطان، وأوشك بالفعل أن يضع يده على الحديد ويعذِّبهما ويضربهما ليكتشف الحقيقة حين حضر أبناء الملك وطلبوا أن يتزوَّجوا بناته الثَّلاث. ذُهِلَ الرَّجل الطَّيِّب في البداية، وظنَّ أنَّهم يسخرون منه. ولكن بعد أن عرف علاقتهم بالطِّفلين اللذَين كانا ثمرةً لها، عدَّ نفسه محظوظاً؛ وحدَّدوا موعد الزِّفاف في ذلك المساء نفسه.

فركت سابيا معدتها وفكَّرت في الأذى الذي سبَّبته لتوره، ومع أنَّها رأت إلحاحه الشَّديد في طلبها من والدها، تخيَّلت أنْ ليس كلُّ عشبةٍ نعناعاً وأنَّ العباءة لم تكن بلا وبر. لذلك، شرعت فوراً في عمل تمثالٍ من معجون السُّكَّر ووضعته في سلَّةٍ كبيرةٍ وغطَّته ببعض الملابس. وفي المساء، بين الحفل والرَّقص، تذرَّعت بأنَّ قلبها يخفق بسرعة، وانسحبت أوَّلاً إلى غرفة النَّوم، حيث كانت قد طلبت إحضار السَّلَّة لتبدِّل (كما قالت) ملابسها. وبعد أن بقيت بمفردها، أخرجت التِّمثال من السَّلَّة ووضعته بين الملاءات، ثمَّ اختبأت خلف السِّتارة في انتظار نتيجة فِعْلَتِها.

عندما حان الوقت ليأوي العِرْسان إلى أسرَّتهم، اقترب توره من السَّرير، وظنّاً منه أنَّ سابيا كانت مستلقيةً هناك، قال لها: "أيَّتها الكلبة الشَّنيعة، الآن ستدفعين ثمن اللَّوعة التي سبَّبتها لي، وسترين ما يحدث لجدجدٍ حين يُنافس فيلاً. الآن، ستُعاقَبين على كلِّ ما اقترفته يداكِ، وأريد أن أذكِّرك بمشط الكتان، وبالسُّلَّم الذي أبعدته عن الشَّجرة، وبكلِّ الإهانات الأخرى التي سبَّبتها لي!". وبينما كان يقول ذلك، استلَّ خنجره وطعن

التِّمثال من الرَّأس إلى القدمين، ولم يكتفِ بذلك، بل أضاف قائلاً: "والآن أريد أن أمصَّ دمك أيضاً!"، وبعد أن سحب الخنجر من صدر التِّمثال ولحسه، أحسَّ بالطَّعم الحلو وبرائحة المسك التي كانت مرشوشةً على التِّمثال. حينئذٍ، ندم لأنَّه طعن وقتل فتاةً معسولةً ومعطَّرةً كهذه، وبدأ يلوم غضبَه بكلماتٍ تليِّن الحجر، مسمِّياً قلبه حنظلاً، والنَّصلَ سُمَّاً، لأنَّهما تجرآ على الإساءة إلى مخلوقةٍ بهذه الوداعة والجمال. وبعد نحيبٍ طويلٍ، ترك نفسه يُجَرُّ برسن اليأس، ورفع يده ليقتل نفسه بالخنجر نفسه. ولكنَّ سابيا كانت على أهبةِ القفز من المكان الذي كانت تختبئ فيه، فأمسكت يدَه وقالت: "توقَّف، يا توره! اخفضْ هاتين اليدين! هي ذي قطعةٌ من تلك التي تبكيها؛ هأنذا معافاةٌ وحيَّةٌ لأراك غضَّاً وحيَّاً. لا تحسبني عنيدةً، ولا جلدَ ضأنٍ، فإن كنتُ أسأتُ معاملتك وسبَّبت لك بعض الألم، فذلك بغيةَ تجربتك واختبار ثباتك وإخلاصك فحسب؛ وقد قمتُ بهذه الخدعة الأخيرة لاحتواء غضب قلبك الحانق". وهكذا طلبت منه الصَّفحَ عن كلِّ ما مضى.

وعانقها العريس بحنانٍ كبيرٍ، وجعلها تستلقي بجانبه وتصالحا، وإذ تبيَّن له أنَّ السَّعادة تكون أكثر حلاوةً بعد الكثير من المعاناة، قدَّر ذلك القليل من تردُّد زوجته أكثر بكثيرٍ من تقديره ذلك الكثيرَ من سهولةِ زوجتَي أخويه، لأنَّه، كما يقول ذلك الشَّاعر:

لا أفروديت عاريةٌ، ولا ديانا كاسيةٌ:

لطالما كان خيرُ الأمور أوسطها.

الصَّرصار والفأر والجُدْجُد
المؤانسة الخامسة من اليوم الثَّالث

ناردِيِلُّو شابٌّ يرسله أبوه ثلاث مرَّاتٍ لشراء بعض السِّلَع مع مِائة دوقيَّةٍ في كلِّ مرَّةٍ، فيشتري مرَّةً صرصاراً، ومرَّةً فأراً، وفي المرَّة الثَّالثة جُدْجُداً، فيطرده أبوه من البيت. يصل إلى أحد البلدان، حيث يشفي ابنة الملك بهذه المخلوقات، وبعد أحداثٍ مختلفةٍ يصبح زوجها.

أشاد الأميرُ والأمَةُ أيما إشادةٍ بحكمة سابيا ليكَّاردا، وأشادا أكثر بمهارة تولَّا التي عرفت كيف تقدِّم هذه الحكاية بشكلٍ في منتهى البراعة، حيث جعلت كلَّ واحدٍ من المستمعين يبدو وكأنَّه حاضرٌ هناك، ولأنَّ التَّالية كانت بوبا، وفقاً لدورها في القائمة، فقد تصرَّفت وكأنَّها أورلاندو[1]، متكلِّمةً على النَّحو التَّالي:

الحظُّ أنثى عنيدةٌ تهرب من وجه الرِّجال المتعلِّمين، لأنَّ هؤلاء يهتمُّون بتقليب الصَّفحات أكثر ممَّا يهتمُّون بتدوير العجلات، ولذلك ترونها تتعامل بطيبة خاطرٍ مع الجهلة والأغبياء، ولا تتردَّد، لكي تحصل على المجد من العوامِّ، في توزيع خيراتها على الحمقى، كما ستسمعون في هذه الحكاية التي سأحكيها لكم.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، في تلِّ فوميرو، وكيلُ مزرعةٍ ثريٌّ يُدعى ميكُونه، وكان لديه ابنٌ اسمه ناردِيِلُّو،

1) بطل الملحمة الشِّعرية «أورلاندو الهائج»: (المترجمان).

من أكثر الحمقى الذين يمكن العثور عليهم في مراكب بولمونارا[1] بؤساً؛ بحيث أنَّ الأب المسكين كان يشعر بالشَّفقة عليه والمرارة منه، ولا يعرف بأيِّ طريقةٍ أو وسيلةٍ يوجِّهه ليجعله يفعل شيئاً يمكن أن يتقنه ويكون مناسباً لمستواه. فإذا ذهب إلى الحانة مع زملائه الطُّفيليِّين، كانوا يسخرون منه؛ وإذا تردَّد إلى نساءٍ سيِّئات السُّمعة، كان يأخذ أسوأ اللُّحوم ويدفع لقاءَ ذلك التَّعريفة؛ وإذا لعب في أوكار القمار، كانوا يوقعون به، يضعونه في الوسط ويتركونه عارياً تماماً: وهكذا، بسلوكه الجيِّد هذا، كان قد بدَّد بالفعل نصف ثروة أبيه.

كان ميكُّونه يرعد ويزبد باستمرار، ويصرخ ويتوعَّد قائلاً له: "ماذا تظنُّ أنَّك فاعلٌ، أيُّها المبذِّر؟ ألا ترى أنَّ أملاكي تنجرف مع النَّهر الآن؟ دعك، دعك من هذه الحانات اللَّعينة، التي تبدأ باسم الأعداء وتنتهي بمعنى الشَّرِّ[2]، دعك منها، لأنَّها صداعٌ في الدِّماغ واستسقاءٌ في الحلق وزحارٌ في الجراب[3]؛ دعك، دعك من هذا اللَّهو الدَّنِس الذي يعرِّض حياتنا وأملاكنا للخطر، الذي يحرمنا البهجة ويستنفد أموالنا، حيث تعيدُكَ ألعابُ النَّرد صفرَ اليدين، والكلمات تجعلك رقيقاً مثل ريشةِ العود! دعك، دعك من الثَّرثرة مع هذا العِرْق السَّيِّئ، ابنِ الخطيئة الآثمة الذي تبذِّر وتذرِّي المال معه؛ فمن أجل دناءةٍ، تهدر النُّقود؛ ومن أجل لحمٍ مترهِّلٍ، تهدر نفسك وينتهي بك الأمر إلى أن تمصَّ العظام؛ وهنَّ لسن عاهراتٍ، بل بحرَ-تراقيا[4] أخذكَ فيه الأتراك! ابتعد عن السَّانحات، وهكذا تتخلَّص من الرَّذيلة: "أزِل

---

1) مراكب قديمةٌ لا تصلح للإبحار، فكانت تُترك عادةً في أحواض تصليح السُّفن بغية استخدامها كمراكز صحِّيَّة أو كمآوٍ للسُّجناء والمتسكِّعين؛ (كروتشه).

2) يجزِّئ كلمة حانات: «Oste-rei" إلى جزئين، الجزء الأوَّل "Oste" من "Hostis"، أي عدوٌّ باللَّاتينية، والجزء الثَّاني "Rei"، من "Rio"، أي شرِّير؛ (كروتشه).

3) يقصد كيس النُّقود؛ (المترجمان).

4) الجزء الشَّمالي من بحر إيجه، المحاذي للجزء الأوروبيِّ من تركيا. لعبٌ بالألفاظ بين كلمة Meretrice أي عاهرة، وMare-trace أي بحر تراقيا؛ (المترجمان).

السَّبب"، قال أحدهم، "يُزِلِ العتب". هاك إذاً مِائة دوقيَّةٍ واذهب إلى سوق سالرنو واشترِ بها بقراتٍ صِغاراً تنجب لنا، بعد ثلاث أو أربع سنواتٍ، الكثير من الثِّيران، وبعد أن تكبر الثِّيران نستخدمها في حراثة الأرض وبذرها، وبعد البذر نبيع القمح، وإن حصلت مجاعةٌ كبيرةٌ، فسنعدُّ النُّقود بالأكوام، وكما يفعل الآخرون، ستشتري حصَّةً في أرض أحد الأصدقاء، وتصبح أنت أيضاً صاحب حصَّةٍ مثل كثيرٍ من الآخرين. لذا، انتظر يا بنيَّ، لأنَّ كلَّ شيءٍ له بدايةٌ، ومن لا يبدأ لا يستمر".

"دع الأمر لي - أجاب ناردِييلُّو، - لأنَّني سأتكفَّل بالأمر بنفسي، وكلُّ شيءٍ سيكون وفقاً للعرف والنِّظام".

"هكذا أريدك"، ردَّ الأب؛ وأعطاه النُّقود.

انطلق ناردِييلُّو إلى السُّوق؛ ولكن لم يكن قد وصل بعد إلى مياه نهر سارنو، حين رأى حوريَّةً في غابةٍ جميلةٍ من الدَّردار تجلس على حافة حجرٍ وتحيط نفسها بأوراق اللَّبلاب لتدرأ عنها تدفُّق المياه العذبة المستمرَّ. كانت الحوريَّة تلهو مع صرصارٍ يعزف القيثار بطريقةٍ مدهشةٍ، بحيثُ لو سمعه إسبانيٌّ لقال "إنَّه شيءٌ فخمٌ وعظيم"، وما كان من ناردِييلُّو إلَّا أن توقَّف مسحوراً للاستماع، قائلاً إنَّه مستعدٌّ لدفع بؤبؤَي عينيه لقاءَ امتلاك حشرةٍ بهذه المهارة، فأجابته الحوريَّة بأنَّه إن دفع مِائة دوقيَّةٍ أعطته إيَّاه. "ما كان لطلبكِ هذا أن يأتي في لحظةٍ أكثر ملاءمةً من هذه - ردَّ ناردِييلُّو، - لأنَّها في حوزتي، جاهزةٌ وحاضرةٌ"، وألقى في حضنها الدُّوقيَّات التي في حوزته، وأخذ الصَّرصارَ في علبةٍ صغيرة.

وضع العلبة تحت ذراعه وهرع إلى والده ممتلئاً بفرحٍ عظيمٍ يتصاعد من كاحلَيه، وصاح: "سترى الآن، يا سيِّدي، إن كنتُ رجلاً عبقريَّاً أم لا، وإن كنتُ أعرف القيام بعملي أم لا؛ فبدون أن أتعب نفسي بالذَّهاب

إلى السُّوق، عثرتُ على حظِّي في منتصف الطَّريق، وبمِائةٍ من الدُّوقيَّات فحسب امتلكتُ هذه الجوهرة!".

حين سمع الأب هذا الحديث ورأى العلبة، كان على يقينٍ من أنَّ ابنه اشترى بعض قلائد الألماس، ولكن، ما إن فتح العلبة ورأى الصَّرصار حتى تحوَّل ذلُّ تعرُّضِه للخداع وألمُ خسارته المال إلى منفاخَين جعلاه ينتفخ كالعلجوم. أراد ناردِيِلُّو أن يروي فضائل الصَّرصار، ولكن لم يكن من الممكن له أن ينطق ولو بكلمةٍ واحدة، لأنَّ الأب كان يقاطعه قائلاً: "اخرس، سدَّ حنكك، أغلق فمك، توقَّف، لا تتنفَّس، أيُّها البغل، يا عقلَ حصانٍ، ورأسَ حمار، وهيَّا على الفور، أعد الصَّرصار لمن باعك إيَّاه، وهاك مِائة دوقيَّةٍ أخرى: اشترِ بها الكثير من العجول، وعد إلى هنا على الفور؛ وحذار أن يعميك الشَّيطان، لأنَّك ستأكل يديك وأسنانك من النَّدم".

أخذ ناردِيِلُّو المال وسار نحو برج سارنو[1]، وبعد أن وصل إلى المكان السَّابق نفسه، وجد حوريَّةً أخرى تلهو مع فأرٍ، وكان هذا يقوم برقصاتٍ وحركاتٍ لم يرَ لها مثيلاً من قبل. لبث لبعض الوقت فاغرَ الفم يراقب إيماءات ووقفات وشقلبات وهرولات هذا المخلوق العجيب، فذهل أيما ذهولٍ؛ وأخيراً، سأل الحوريَّة إن كانت تريد أن تبيعه إيَّاه مقابل مِائة دوقيَّة. وافقت الحوريَّة على العرض، وأخذت قطع الفضَّة، وسلَّمته الفأر في علبةٍ؛ وحين وصل ناردِيِلُّو إلى البيت، عرض بضاعته الجميلة على ميكُّونه التَّعِس الذي جُنَّ جنونه وأخذ يتخبَّط مثل أخطبوطٍ مخبوطٍ بعصا، ويصهل مثل حصانٍ هائجٍ؛ ولو لم يكن لأجل خاطر صديقٍ صادفَ أن كان حاضراً وسط هذه المعمعة، لكان أخذ قياس حدبةِ ناردِيِلُّو كما ينبغي. في النِّهاية، أعطاه الأب، وهو يغلي غضباً، مِائة دوقيَّةٍ أخرى وقال له: "حذار أن تكرِّر الأمر أكثر من مرَّتين، لأنَّك في المرَّة الثَّالثة لن تفلت منِّي. اذهب إذاً إلى سالرنو واشترِ

1) برج أو حصنُ مدينة سكافاتي، وكان يقع على الضِّفَّة اليسرى لنهر سارنو؛ (كروتشِه).

العجول، لأنَّني، وأقسم بأرواح أجدادي، إن أخطأتَ، سأجعلها تندم تلك الأمَّ التي أنجبتك!".

مطأطِئَ الرَّأس، ذهب ناردِيِلُّو مرَّةً أخرى إلى سالرنو، وحين وصل إلى المكان المعتاد، وجد حوريَّةً ثالثةً تلهو مع جُدْجُدٍ، وكان هذا يغنِّي بعذوبةٍ تجعل المرء ينام. وبإصغائه إلى هذا النَّوع الجديد من العنادل، أراد على الفور مفاوضتها على الشِّراء، وبعدما اتَّفقا على مِائة دوقيَّة، وضعه في قفصٍ صغيرٍ مصنوعٍ من يقطينةٍ طويلةٍ ومجوَّفةٍ ومغطَّاةٍ بالقشِّ، وعاد إلى أبيه. حين رأى هذا الأخير هذه الخدمة السَّيِّئة الثَّالثة، خرج عن طوره بالفعل، فتناول عصاً وأشبعه ضرباً أفضل ممَّا كان رودومونتِه[1] ليفعل.

حين استطاع ناردِيِلُّو الإفلات من براثنه، أخذ المخلوقات الثَّلاثة ورحل من البلد متَّجهاً نحو لومبارديا. وهناك، كان ثمَّة ملكٌ عظيمٌ يدعى تشِنْتسونِه، وكان لديه ابنةٌ وحيدةٌ تدعى ميلَّا، وكانت هذه، بسبب مرضٍ ما، قد سقطت في كآبةٍ كبيرةٍ، لدرجة أنَّ أحداً لم يرها تضحك طوال سبع سنواتٍ متواصلة. وبعد أن جرَّب الأب اليائس ألف علاجٍ وأنفق الأخضر واليابس، أصدر نداءً أعلن فيه أنَّه سيمنحها زوجةً لمن يتمكَّن من إضحاكها، وحين سمع ناردِيِلُّو هذا النِّداء، تملَّكته الرَّغبة في تجريب حظِّه، فذهب إلى الملك، وعرض عليه أن يضحكها، فقال له ذاك: "لا تفقد عقلك يا صاحبي، لأنَّك، إن لم تتمكَّن من ذلك، سوف تخسر قالبَ قلنسوتك[2]". "فلتخسر القلنسوة والحذاء قالبَهما – ردَّ ناردِيِلُّو – لأنَّني أريد أن أحاول، وليحدث ما يحدث".

أمر الملك بإحضار ابنته، وبعد أن جلس الاثنان تحت سرادق العرش، أخرج ناردِيِلُّو من العلبة المخلوقات الثَّلاثة الصَّغيرة التي أخذت تعزف

---

1) مرَّ ذكره سابقاً في مشهد "الصَّباغة الرَّعويّ"؛ (المترجمان).

2) يقصد الرَّأس؛ (المترجمان).

وترقص وتغنِّي بكثيرٍ من السِّحر والجمال، ممَّا جعل الأميرة تنفجر ضاحكةً. ولكنَّ الملك بكى في قرارة نفسه، فبموجب النِّداء، كان مضطرّاً إلى إعطاء جوهرة النِّساء إلى شخصٍ من حثالة الرِّجال. ومع ذلك، لأنَّه لم يكن بإمكانه التَّراجع عن وعده، قال لناردِييلُّو: «سأعطيك ابنتي، ومعها دولتي كدوطة، ولكن بشرطٍ واحدٍ، إن لم تتمكَّن من الزَّواج بها خلال ثلاثة أيَّامٍ، ألقيتُ بك فريسةً للأسُود». «أنا لست بخائفٍ – ردَّ ناردِييلُّو، -لأنَّني قادرٌ ليس على الزَّواج بابنتك فحسب في غضون ثلاثة أيَّامٍ، بل وبكلِّ قصرك. تمهَّل وجرِّبني، فكما يقول كاركارِييلُّو، البطِّيخ يُعرف بالتَّجريب»[1].

بعد أن انتهى الاحتفال بالزِّفاف وحلَّ المساء، واقتيدت الشَّمس مثل لصٍّ مع غطاءٍ على الرَّأس إلى سجون الغرب، ذهب الزَّوجان إلى السَّرير. ولكنَّ الملك، بخبثٍ، جعل الخدم يدسُّون لناردِييلُّو الأفيون في الشَّراب، فسقط هذا في نومٍ عميقٍ وبقي طوال اللَّيل يشخر ويخرخر. وبتكرار الخدعة، انتهى به الأمر في قفص الأسُود.

حين أيقن ناردِييلُّو أنَّ نهايته اقتربت في هذا المكان، فتح علبة المخلوقات الثَّلاثة، وقال شاكياً: «آه، لماذا جرَّني القدر بعربةٍ حزينةٍ إلى هذه الخاتمة الأليمة؟ ولكن، لأنَّني لا أستطيع ترككم هنا يا مخلوقاتي الجميلة، فسأهبكم حرِّيَّتكم، حتى تتمكَّنوا من الذَّهاب حيثما أردتم وأحببتم».

وحالما أطلق سراحها، بدأت تقوم بحركاتٍ وألعابٍ مبهرةٍ جعلت الأسُود تتجمَّد في مكانها مثل تماثيل صمَّاء. وسمع ناردِييلُّو، الذي كانت روحه بالفعل على شفا أسنانه، سمع الفأر يخاطبه قائلاً: "مع أنَّك منحتنا الحرِّيَّة يا سيِّدي، إلَّا أنَّنا نريد أن نكون، بكلِّ طواعيةٍ وسرورٍ، أكثر انصياعاً لك من

1) كان البطِّيخ الأحمر، كما في بلادنا، يباع «على السِّكِّين»، أي بعمل حَزٍّ في القشرة للتَّأكُّد من لونه ونكهته؛ (المترجمان).

ذي قبل، لأنَّك أطعمتنا بمحبَّةٍ كبيرةٍ واحتفظت بنا بحنوٍّ كبيرٍ، وأخيراً، منحتنا دليلاً على عطفك بإطلاق سراحنا. كن على ثقة: من يعمل خيراً، خيراً يلقَ؛ اعملْ خيراً وارمِهِ في البحر. ولكن اعلم أنَّنا مسحورين، ولكي نُريك مقدار قدرتنا وقيمتنا، اتبعني لكي تخرج من هذا الخطر".

وبعدما لحق ناردِيلُّو به، قام الفأر فوراً بحفر ثقبٍ كبيرٍ يتَّسع لمرور رجل، وقادوه عبر صَعْدَةٍ وسلالم إلى الأعلى. ومن هناك، قادوه إلى مخزنٍ للتِّبن، وقالوا له أن يأمرهم بكلِّ ما يرغب فيه، لأنَّهم لن يتركوا شيئاً يطلبه دون أن يلبُّوه. «رغبتي هي – أجاب ناردِيلُّو – أن لا تتركوا الملك يزوِّج ميلَّا بشخصٍ آخر، لأنَّه إن فعل ذلك، ستصبح حياتي تعيسةً، وأيَّامي معدودات». «كأنَّك لم تطلب منَّا شيئاً – أجابت الحيوانات، – كن مرتاح البال وانتظرنا في هذا الكوخ، فقد آن الأوان لنظهر جانبنا الشِّرِّير».

ثمَّ ذهبوا إلى البلاط الملكيِّ، وهناك وجدوا الملك على وشك أن يزوِّج ابنته بسيِّدٍ ألمانيٍّ عظيم، وأنَّ هذا الأخير سوف يضع يده على الكنز في تلك اللَّيلة نفسها. عندئذٍ تسلَّلوا ببراعةٍ إلى غرفة الزَّوجين وانتظروا أن يذهبا إلى سريرهما بعد أن تنتهي المأدبة ويبزغ القمر ويطعم الدَّجاجاتِ حبَّات النَّدى[1]. ولكن، لمَّا كان العريس قد لقَّم القوس والنُّشَّاب، وأخذ الورقة الفائضة[2]، فقد غطَّ في النَّوم حالما اندسَّ تحت المُلاءات، وبدا وكأنَّه جثَّةٌ هامدة.

حين سمع الصَّرصار شخير العريس، صعد ببطءٍ مرتقياً حاشيةَ المظلَّة التي تغطِّي السَّرير وسرعان ما دخل في شرج العريس مثل تحميلةٍ قويَّة المفعول، ثمَّ أخذ يتغلغل في جسده بحيث كان يمكنه أن يقول مع بترارِكا:

1) أي نجوم الثُّريَّا، وهي عنقودٌ نجميٌّ في برج الثَّور؛ (المترجمان).

2) واحدٌ من التَّعابير الكثيرة التي تعني السُّكر، وهو ما لم يتوانى العريس عن القيام به كما هو دأب الألمان؛ (كروتشِه).

«الحبُّ أخرجَ منه سائلاً رقيقاً». وحين سمعت العروس هدير ذلك الزُّحار الهائل، وشمَّت الرَّائحة النَّتنة، أيقظت زوجها، وهذا، حين رأى بأيٍّ عطرٍ بخَّر معبودته، كاد يموت من الخجل وينفجر من الغيظ. وبعد أن نهض من السَّرير وقام بغسل ملابسه وكلِّ جسمه، أرسل مستدعياً الأطبَّاء الذين عزوا تلك البليَّة إلى فوضى تناول الطَّعام خلال المأدبة.

وفي المساء، استشار خدمه الذين رأوا جميعاً أن يلفَّ نفسه جيِّداً بالملابس تلافياً لمغصٍ جديدٍ، ففعل ما أشاروا به ولجأ إلى فراشه ونام في الحال. ولكنَّ الصَّرصار الذي أسرع من فوره إلى العمل كما فعل في المرَّة السَّابقة، وجد المعابر هذه المرَّة مغلقةً، فعاد ساخطاً إلى رفاقه وأبلغهم أنَّ العريس قد حصَّن نفسه بالعصائب، بمتاريس من الضِّمادات وخنادق من الخِرَق. وحين سمع الفأر ذلك، قال له: «تعال معي وسترى ما إذا كنتُ خبيراً في تمهيد الطَّريق لك». وحين وصل إلى تلك البقعة، بدأ يقرض الملابس إلى أن فتح ثقباً يمكن أن يدخل منه الصَّرصار ويمنحه علاجاً طبِّيّاً آخر يجعله يدلق بحراً من الزَّبرجد السَّائل. استيقظت العروس بعد أن أحسَّت بالبلل، وما إن رأت على ضوء القنديل الطُّوفان اللَّيمونيَّ الذي حوَّل المُلاءات الهولنديَّة إلى حريرٍ أصفر مموَّجٍ من البندقيَّة، حتى سدَّت أنفها وهربت إلى غرفة الفتيات. وما كان من الزَّوج المسكين، بعد أن استدعى الخدم، إلَّا أن أنشد مرثيَّةً طويلةً عن البليَّة التي حلَّت به، وعن الأساس المشين الذي شيَّد عليه عَظَمَةَ بيته.

واساه أفراد العائلة ونصحوه أن يكون حذراً في اللَّيلة الثَّالثة، ورووا له حكاية المريض الضَّرَّاط والطَّبيب السَّليط اللِّسان الذي، بعد أن طلب من مريضه أن يطلق قذيفة اختبارٍ، صاح كالأدباء: سانيتاتيبوس[1]؛ وبعدما

---

1) سانيتاتيبوس، فنتوسيتاتيبوس، إزينيتاتيبوس، كلماتٌ لاتينيَّةٌ تعني بالتَّرتيب: صحَّة، ريحٌ، حمارٌ، واللَّاحقة تيبوس أضيفت لتلائم سرد النُّكتة فحسب؛ (المترجمان).

أتبعها بواحدة أخرى، هتف: فنتوسيتاتيبوس؛ ولكن بعد أن ألحقها بقذيفة ثالثةٍ، فغر الطَّبيب فاهه وصرخ: إزينيتاتيبوس. ولذلك، إن كان مردُّ أوَّل قطعة فسيفساءٍ أُنجزت في السَّرير الزَّوجيِّ إلى الفوضى في تناول الطَّعام، والثَّانية إلى الحالة السَّيِّئة للمعدة التي انقلبت على الجسم، فإنَّ الحالة الثَّالثة سوف تُرَدُّ إلى الطَّبيعة الخرَّاءة، وسوف يُطرَد مع رائحته الكريهة مذموماً مدحوراً. «لا تقلقوا – قال العريس، – لأنَّني سأبقى مستيقظاً طوال هذه اللَّيلة، حتى لو متُّ، ولن أدع النُّعاس يغلبني؛ وإضافةً إلى ذلك، سنفكِّر في العلاج الذي يمكن استخدامه لسدِّ القناة الرَّئيسة، لكيلا يُقال عنِّي: «سقط مرَّتين وفي الثَّالثة قضى نحبه!»[1].

بعد الإجماع على ذلك، وحين حلَّت اللَّيلة الثَّالثة، وتمَّ تغيير الغرفة والسَّرير، دعا العريس الخدم وسألهم المشورة حول سدِّ الجسم لئلَّا يتعرَّض لدعابةٍ ثالثةٍ، أمَّا فيما يتعلَّق بالبقاء مستيقظاً، فقد كان واثقاً من أنَّ جميع خشخاش العالم لن يتمكَّن من إطباق جفنيه. وكان من بين أولئك الخدم شابٌّ منخرطٌ في سلاح المدفعيَّة، ولأنَّ كلَّ امرئٍ مولَعٌ بحرفته، نصح العريسَ بأن يضع سدادةً من الخشب كما يفعلون مع قذائف الهاون. وتمَّ تشكيل القطعة ووضعها بثباتٍ في مكانها، وأخلد العريس إلى النَّوم، ولم يجرؤ على مسِّ العروس خوفاً من إفساد ذلك الاختراع في أثناء بذل الجهد، ولم يغلق عينيه ليبقى مستعدَّاً لكلِّ حركةٍ في معدته.

قال الصَّرصار لصاحبيه لمَّا رأى العريس صاحياً لا ينام: "للأسف، هذه هي المرَّة التي سيخيب فيها سعينا، وستكون مهارتنا عديمة القيمة، لأنَّ العريس لا ينام ولا يعطينا أيَّ فرصةٍ لمواصلة العمل". "انتظر – قال الجُدْجُد، – لقد حان دوري". ثم أخذ يغنِّي بعذوبةٍ ورقَّةٍ إلى أن جعل العريس يغطُّ في النَّوم. هرع الصَّرصار عندئذٍ لتقديم الحقنة المعتادة.

---

1) محاكاةٌ لعبارة «ter revoluta toro est"، من الإنيادة لفرجيل؛ (كروتشه).

ولكن، حين وجد الباب مغلقاً والطَّريق مسدوداً، عاد إلى صاحبيه يائساً ومرتبكاً وأبلغهما بما رآه. فما كان من الفأر، الذي لم يكن لديه غرضٌ آخر سوى مساعدة ناردِيِلُّو وإرضائه، إلَّا أن هرع في الحال إلى حجرة المؤن، وبعد أن تشمَّم المرطبانات واحداً تِلْوَ الآخر، عثر على صلصلة الخردل، فغطَّس ذيله فيها وعاد بسرعةٍ وأخذ يمرِّره بتؤدةٍ تحت منخرَي الألماني المسكين. وعلى الفور بدأ يعطس، وكانت إحدى هذه العَطَسات قويَّةً لدرجة أنَّ السِّدادة انطلقت بعنفٍ، ولأنَّه كان ينام وظهره إلى العروس، أصابها في منتصف صدرها بشدَّةٍ كادت أن تقتلها.

هرع الملك على صراخ ابنته متسائلاً عمَّا حدث، فقالت له إنَّ قذيفةً أُطلقَتْ على صدرها. تعجَّب الملك من هذا الهراء، إذ كيف كان لها أن تتكلَّم وهي مصابةٌ بقذيفةٍ في صدرها؟ وبعد أن رفع الغطاء والمُلاءات، رأى انفجارَ النُّخالة وسدادة الهاون التي تركت كدمةً كبيرةً في صدر العروس، ولم يستطع أن يجزم أيُّهما سبَّبَ لها ضرراً أكبر، رائحة البارود الواخزة أم ضربة السِّدادة.

وحين أن رأى القذارة وأدرك أنَّها كانت التَّصفية الثَّالثة للعقد الذي بينهما، طرده من أراضي مملكته، وإذ رأى أنَّ كلَّ ما حدث كان بسبب القسوة التي عامل بها ناردِيِلُّو المسكين، بدأ يلطم صدره وينتف ذقنه. ولكن، بينما كان ينوح متندِّماً على أفعاله السَّيِّئة، وجد أمامه الصَّرصار الذي قال له: «لا تيأس يا سيِّدي، فناردِيِلُّو حيٌّ يُرزَق، وهو يستحقُّ لفضائله أن يكون صهر جلالتكم، وإن كان يسرُّكم مجيئه، أرسلنا إليه ليأتي». «آه أيُّها المخلوق الجميل، أنا سعيدٌ جدَّاً لأنَّك نقلت لي هذه البشرى! لقد منحتني الحياة، وانتشلتني من بحرٍ من المتاعب، لأنَّني كنت أشعر بغصَّةٍ في قلبي للخطأ الذي ارتكبته بحقِّ ذلك الشَّابِّ المسكين. ائتني به إذاً، لأنَّني أريد أن أعانقه كابنٍ وأمنحه ابنتي كزوجة».

وما إن سمع الجُدْجُد هذا حتى انطلق قفزاً إلى الكوخ حيث كان يقيم ناردِييلُّو وأخبره بكلِّ ما حدث، ثمَّ قاده إلى البلاط الملكيِّ حيث قابله الملك وعانقه وأعطاه ميلاَّ زوجةً له. في الوقت نفسه، وبفضل السِّحر الذي تلقَّاه من تلك المخلوقات، تحوَّل ناردِييلُّو إلى شابٍّ وسيمٍ، وأرسل يستدعي والده من فوميرو، وعاشوا بسعادةٍ وهناءٍ وقد أدركوا، بعد ألف مشقَّةٍ وألف معاناةٍ، أنَّه:

يحدث في ساعةٍ أحياناً أكثر ممَّا يحدث في مِائة عام.

بِلُّوتْشا
المؤانسة السَّادسة من اليوم الثَّالث

لأنَّ بِلُّوتْشا، ابنةُ أمبروزو دِلَّا بارَّا، كانت تطيع أبيها وترضيه، ولأنَّها تصرَّفت بكياسةٍ فيما أُمِرَتْ به، تتزوَّج في حفل زفافٍ فخمٍ بناردوتشو، الابن البكر لبيازيليو كواليكيا، وتكون هي السبَّب في أن تحصل شقيقاتها الأخريات الفقيرات على المهر والعطايا نفسها عند زواجهنَّ بأبناء بيازيليو الآخرين.

بقدر ما جعلت حيلةُ الفأرِ العريسَ يلطِّخ نفسه بإطلاق ذلك الطُّوفان من بطنه، جعلت جميع المستمعين يبولون من الضَّحك، وكان الضَّحك سيستمرُّ حتى صباح اليوم التَّالي لو لم يوقفه الأمير ليصغوا إلى دونَّا أنطونيلَّا التي كانت على أهبة الكلام، فبدأت كلامها بهذا البيان: اعلموا يا سادة يا كرام أنَّ الطَّاعة تجارةٌ آمنةٌ تدرُّ الرِّبحَ بلا مخاطرة، وهي قِنْيَةٌ تعطي ثمارها في كلِّ موسم، وهذا ما ستثبته لكم ابنة مزارعٍ فقيرٍ لم تفتح، كونها مطيعةً لأبيها، طريقاً لحسن طالعها فحسب، بل ولحسن طالع أخواتها الأخريات اللَّاتي تزوَّجن بفضلها بشبَّانٍ أثرياء.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، فلَّاحٌ من كازالِهْ دِلَّا بارَّا يدعى أمبروزو، وكان أباً لسبع بناتٍ، وكلُّ ما كان يملكه لحفظ كرامتهنَّ في هذه الحياة كان ينحصر في حقلةِ ثومٍ. وكانت تربط هذا الرَّجل الطَّيِّب صداقةٌ وطيدةٌ برجلٍ ثريٍّ من ريزينا، هو بيازيليو كواليكيا، أبٌ لسبعة أبناءٍ، أكبرهم ناردوتشو، ساعدُه الأيمن، الذي سقط

مريضاً، ولم يعثروا على دواءٍ لمرضه، مع أنَّ كيس النُّقود كان مفتوحاً دائماً لأجله.

في أحد الأيَّام جاء أمبروزو لزيارته، فسأله بيازيليو كم من الأبناء لديه، ولخجله من القول إنَّه طعَّم شجرةَ زوجته بالعديد من الإناث، أجابه: "لديَّ أربعة أبناءٍ وثلاث بنات". "إذا كان الأمر كذلك، – ردَّ بيازيليو، – هلَّا ترسل لي أحد أبنائك ليسامر ابني، وبذلك ستسدي إليَّ معروفاً كبيراً".

رأى أمبروزو نفسه وقد وقع ضحيَّةً لكلمته، فلم يعرف ماذا يجيب واضطرَّ إلى الموافقة بإيماءةٍ من رأسه. ولكن، بعدما عاد إلى بارًّا، استولت عليه كآبةٌ قاتلةٌ لأنَّه لم يجد طريقةً للوفاء بالوعد الذي قطعه لصديقه. في النِّهاية، استدعى بناته الواحدة تِلْوَ الأخرى، من كبراهنَّ إلى صغراهنَّ، وسألهنَّ من منهنَّ مستعدَّةٌ لقصِّ شعرها وارتداء ملابس رجلٍ والتَّظاهر بأنَّها ذكرٌ لتسامر ابنَ بيازيليو الذي كان مريضاً.

أجابت أنُّونتْشا، الابنة الكبرى، على الفور: "آه، أترى مات أبي لكي أقصَّ ضفائري؟".

وأجابت نورا، الابنة الثَّانية: "لم أتزوَّج بعد، وتريد أن تراني منذ الآن أرملةً حليقة الشَّعر؟".

وأجابت ساباتينا، الابنة الثَّالثة: "لقد سمعت دائماً أنَّ على النِّساء ألَّا يرتدين السَّراويل".

وأجابت روزا، الابنة الرَّابعة: "يا للدَّناءة! لا يمكنك أن تصيدني! أنت تبحث عمَّا لا يمتلكه العطَّارون في دكاكينهم لمؤانسة شخصٍ مريض".

وأجابت تشانَّا، الابنة الخامسة: "أخبر هذا المريض أن يضع تحميلةً ويَفْصِدَ عروقه، لأنَّني لن أتنازل عن شعرةٍ واحدةٍ من رأسي لأجل حياة مِائة رجلٍ من الرِّجال".

وأجابت ليلى، الابنة السَّادسة: "لقد وُلدت أنثى، وأعيش كأنثى، ولا أريد أن أفقد سمعتي كفتاةٍ شريفةٍ بتنكُّري بلباس رجلٍ زائف".

ولكنَّ آخر التَّنابلة، بِلُّوتْشا، حين رأت أبيها يتنهَّد بألمٍ بعد كلِّ جوابٍ تقذفه في وجهه ألسنةُ شقيقاتها، قالت له: "إن كان لا يكفي أن أتنكَّر كرجلٍ لأقدِّم لك خدمةً، غيَّرتُ نفسي إلى حيوانٍ أيضاً، بل وجعلتُ نفسي أُكْلَةً بين أصابعك لكي ترضى فحسب".

"أوه، باركك الرَّبُّ! – قال أمبروزو: – إنَّك تعيدين لي الحياة مقابل الدَّم الذي وهبتك إيَّاه. هيَّا، دعينا لا نضيِّع الوقت: على المخرطة تتشكَّل عجلات الغَزْلِ". وهكذا، قصَّ شعرها، الذي كان حبالاً ذهبيَّةً لشرطة الحُبِّ، ودبَّر لها بدلةً رجاليَّةً قديمةً، وذهب بها إلى ريزينا، حيث استقبلها بيازيليو وابنه الذي كان طريح الفراش ومحاطاً برعايةٍ وحنوٍّ كبيرين.

بعد أن غادر أمبروزو، بقيت بِلُّوتْشا هناك لخدمة المريض الذي حين رأى ذلك الجمال الذي يتألَّق من بين تلك الأسمال ويجعل الرَّأس يصاب بالدُّوار، وبعد أن حدَّق فيها وعاينها مليَّاً، قال بينه وبين نفسه: "إن كان ليس ثمَّة خللٌ في عينيَّ، فهذه يجب أن تكون امرأةً: رقَّة الوجه تتَّهمها، والصَّوت يؤكِّد ذلك، وطريقة المشي تشهد عليها، والقلب يقول لي ذلك، والحبُّ يكشفه لي. إنَّها امرأةٌ بالتَّأكيد؛ وربَّما أتت بهذه الحيلة متنكِّرةً في لباس الرِّجال لتنصب لقلبي شَرَكاً".

ولأنَّه غرق كلِّيَّاً في هذه الأفكار، تفاقمت كآبته لدرجة أنَّ الحمَّى تفاقمت معها ووجده الأطبَّاء في حالةٍ حَرِجة. فراحت الأُمُّ، التي كانت تحترق ولهاً إليه، تقول له: "يا بنيَّ، يا قنديل هاتين العينين، يا عكَّاز وجمرة شيخوختي، أهكذا، بدلاً من أن تستعيد قوَّتك، تتردَّى صحَّتُك من سيِّئٍ إلى أسوأ؟ هل تريد أن تبقى أُمُّك البائسة مغمومةً، دون أن تخبرها عن سبب مرضك لتتمكَّن من إيجاد علاجٍ لك؟ لذا، يا جوهرتي، تكلَّم، افتح

قلبك لي، نفِّس عن نفسك، قل لي بوضوحٍ ما تحتاج إليه وما ترغب فيه، واترك البقيَّة لأمِّك التي لن تتردَّد في إعطائك كلَّ ملذَّات العالم".

شجَّعت هذه الكلمات الطَّيِّبة ناردوتشو على البوح بالحُبِّ الذي يلوِّع قلبه، فقال لها إنَّه على يقينٍ من أنَّ ابن أمبروزو ذاك كان امرأةً، وإنَّه مصمِّمٌ على قطع مجرى حياته إن لم يزوِّجوه بها.

"رويدَكَ! – قالت الأمُّ – فلكي تريحَ رأسكَ علينا أن نقوم ببعض الاختبارات لنعرف إن كانت أنثى أم ذكراً، مرجاً حليقاً أم مُعْشِباً. فلندعها تنزل إلى الإسطبل وتمتطي واحداً من أكثر المِهار الموجودة هناك جموحاً، فإن كانت أنثى، فإنَّ الإناث واهناتُ الجأش وسنراها تبلِّل نفسها من الخوف ونعرف في الحال إن كان لديها خصيتان أم لا".

أحبَّ الابنُ الفكرة وجعل بِلُّوتْشا تنزل إلى الإسطبل حيث أعطوها مهراً نزقاً. ولكنَّها سرَّجته وامتطته بشجاعة الأسد، وبدأت تقوم بجولاتٍ تحيِّر العقول، والتفافاتٍ تثير العجب، وقفزاتٍ تخلب الألباب، والتواءاتٍ من العالم الآخر، وعَدْواتٍ تُخرجُ المرءَ من جلده. فقالت الأمُّ لناردوتشو: "انزع هذه الفكرة الحمقاء من رأسك، يا بنيَّ! فهاك الدَّليل: إنَّ هذا الشَّابَّ يبدو على الحصان أكثر ثباتاً من السَّادة المتمرِّسين في إسطبلات بورتا ريالهْ".

ولكنَّ هذا الدَّليل لم يكن كافياً لناردوتشو لينزع تلك الفكرة من رأسه، بل أصرَّ، مع ذلك، على القول إنَّ ذلك الشَّخص كان امرأةً، وحتى سكانَّارِيبيكُّو[1] ما كان ليتمكَّن من نزع هذه الفكرة من رأسه. ولكي تهدِّئ الأمُّ من روعه، قالت له: "كن رابطَ الجأش! سوف ننتقل إلى الاختبار الثَّاني ليتَّضح لك الأمر". فأحضرت بارودةً ونادت بِلُّوتْشا وطلبا منها أن تلقِّمها وتطلق النَّار. فما كان من هذه إلَّا أن التقفت السِّلاح بيدها، وحشت

1) مرَّ ذِكْرُه سابقاً؛ (المترجمان).

السَّبطانة بالبارود، حاشيةً في الوقت نفسه جسدَ ناردوتشو ببارود الحُكاك؛ ثمَّ وضعت الفتيل في اللَّولب والنَّارَ في قلب المريض؛ وحين أطلقت الحشوة، لقَّمت صدر المسكين بالرَّغبات الغراميَّة.

حين رأت الأمُّ البراعة والشَّجاعة والخفَّة التي أطلق بها ذلك الشَّابُّ النَّارَ، قالت لناردوتشو: "كفَّ عن إقلاق رأسك بهذه الفكرة، وانظر كيف أنَّ امرأةً لا يمكنها أن تفعل هذا". ولكنَّ ناردوتشو استمرَّ يجادلها في الأمر، ولم يرتح له بالٌ، وكان مستعدّاً للمراهنة بحياته على أنَّ تلك الوردة الجميلة كانت بلا سداة، وقال لأمِّه: "صدِّقيني يا أمَّاه، لو جادت تلك الشَّجرة الجميلة المثقلة بنعمةِ الحُبِّ بتينةٍ واحدةٍ على هذا المريض، لودَّع الأطبَّاء إلى الأبد. لذلك، دعينا نتيقَّن الأمرَ بأيِّ شكلٍ من الأشكال، وإلَّا انتهى بي الأمرُ إلى الهلاك، لأنَّني إن لم أجد السَّبيل إلى حفرة، انتهيتُ في هاوية".

إذ رأته الأمُّ البائسة أكثر عناداً من أيِّ وقتٍ مضى، مواصلاً الضَّرب بعقبيه وبلسانه، قالت له: "هل تريد أن تتيقَّن أكثر؟ خذه معك للسِّباحة، وهناك ستكتشف إن كان قوساً مسنَّماً أم قبَّةً مستديرةً، ساحةً رحيبةً أم زقاقاً متشعِّباً، سيركوس ماكسيموس[1] أم عمود تراجان"[2]. "مرحى! - أجاب ناردوتشو: - رائعٌ؛ لقد أصبتِ الهدف. اليومَ نتبيَّن إن كان سيخاً أم مقلاةً، مرقاقاً أم غربالاً، مِغزَلاً أم قصعةً".

شمَّت بِلُّوتْشا رائحة المكيدة، فذهبت حالاً لتنادي أحد صِبية أبيها الذي كان في منتهى المكر والخبث، وأعطته تعليماتٍ مفادُها أنَّ عليه، حالما يراها على الشَّاطئ على وشك أن تخلع ثيابها، أن يركض ويخبرها

1) حلبة رومانيَّة قديمة لسباق عربات الخيل؛ (المترجمان).

2) عمودٌ أقيم في روما لتمجيد انتصارات الإمبراطور ترايانو (تراجان) في داقيا (الأراضي الممتدَّة من أوكرانيا إلى هنغاريا ويحدُّها من الشَّمال جبال كاربازيا (تشيكوسلوفاكيا ورومانيا وصربيا)، ومن الجنوب نهر الدَّانوب؛ (المترجمان).

أنَّ أباها مريضٌ للغاية ويريد أن يراها قبل أن تتوقَّف دوَّامة حياته. نُفِّذت التَّعليمات بحذافيرها؛ كان ناردوتشو وبِلُوتْشا قد وصلا لتوِّهما إلى الشَّاطئ وبدآ يخلعان ملابسهما حين وصل الصَّبيُّ ونقل الخبر، مؤدِّياً لها الخدمة كما يجب. وحين سمعت بِلُوتْشا ما قاله الصَّبيُّ، استأذنت من ناردوتشو وانطلقت بلهفةٍ نحو بارًا.

عاد المريض إلى أمِّه مطأطِئ الرَّأس، عيناه تدوران في محجريهما ولونه شاحبٌ وشفتاه باهتتان، وقال لها إنَّ الأمور سارت عكس ما توقَّع، وبسبب الخبر المشؤوم لم يتمكَّن من إتمام الاختبار الأخير. "لا تيأس - أجابت الأمُّ، - لأنَّ الأرنب البرِّيَّ لا يمكن اصطياده إلَّا بالعربة[1]. ستذهب إذاً إلى بيت أمبروزو لزيارته وتنادي ابنه وتنظر إن كان سينزل بسرعةٍ أم سيتلكَّأ، وهكذا ترى الدَّسيسة وتكتشف الخديعة".

اصطبغ خدَّا ناردوتشو الشَّاحبان بالحمرة، وكانا قبل ذلك شاحبَين، لدى سماعه هذه الكلمات، وفي صباح اليوم التَّالي، حين وضعت الشَّمس يدها على الأشعَّة وطردت النُّجوم بعنجهيَّة، ذهب من فوره إلى بيت أمبروزو، وبعد أن ناداه، قال له إنَّ عليه أن يتحدَّث إلى ابنه في أمورٍ مهمَّة. رأى أمبروزو نفسه في موقفٍ صعبٍ؛ ومع ذلك، أجابه أن ينتظر هُنَيهةً ريثما يطلب من ابنه أن ينزل على الفور. في هذه الأثناء، ولئلَّا تُضبَطَ متلبِّسةً بالجرم المشهود، خلعت بِلُوتْشا التَّنُّورةَ والصَّدريَّة وارتدت بدلة رجلٍ ونزلت السَّلالم بسرعةٍ، ولكن لاستعجالها الشَّديد، نسيت أن تنزع الحلق من أذنيها.

وقعت عينا ناردوتشو فوراً على ذينك الحلقين، وكما يُعرَف الطَّقس السَّيِّئ من أذنيَ الحمار، عرف هو السَّكينة التي كان يشتهيها كثيراً من

1) أي معالجة الأمور ببصيرةٍ وتأنٍّ؛ (كروتشِه).

أذنيَ بِلُّوتْشا. عندئذٍ، أمسك بها بقوَّةٍ، مثل كلبٍ كورسيكيٍّ، وقال لها: "أريدك زوجةً لي، رغماً عن الحسد، ورغماً عن القدر، وحتى رغماً عن الموت!". وما كان من أمبروزو حين سمع هذه الرَّغبة الطِّيِّبة إلَّا أن أجاب: "إن كان هذا يرضي أباك، فهو بيدٍ وأنا بمِائة يد!".

وهكذا، بعدما اتَّفقوا، ذهبوا جميعاً إلى بيت بيازيليو حيث رحَّب الأب والأمُّ ببهجةٍ غير اعتياديَّةٍ بالكنَّة حين شاهدا ابنهما سعيداً ومُعافىً. وحين أراد الأب أن يعرف من أمبروزو لأيِّ سببٍ قام بهذا العمل الصِّبيانيِّ وأرسلها بلباس رجل، وفهم أنَّ ذلك حدث لخجله من الاعتراف بأنَّ لديه سبع بنات، قال بيازيليو: "لأنَّ السَّماء منحتك كلَّ هذه الذُّرِّيَّة من الإناث، ومنحتني بالقدر نفسه ذرِّيَّةً من الذُّكور، فبحقِّ الرَّبِّ، دعنا نروح روحةً واحدةً إلى الكنيسة ونحتفل بسبع زيجات. هيَّا، ائتِ بهنَّ جميعاً إلى هذا البيت، وسيكون جهازهنَّ عليَّ، فبفضل السَّماء، لديَّ من الصَّلصة ما يكفي سرباً من الأسماك الصَّغيرة".

ما إن سمع أمبروزو هذه الكلمات حتى طار طيراناً إلى بيته ليأتي بالبنات الأخريات إلى بيت بيازيليو، وهناك أقاموا حفلةً لسبعة أزواجٍ من العرائس والعرسان، وارتفعت الموسيقى والصَّخب حتى بلغا السَّماء السَّابعة، وعاشوا جميعاً في سعادةٍ وهناء، بعدما رأوا بوضوحٍ أنَّ:

النِّعمَ السَّماويَّة لا تتأخَّر أبداً.

كورفِتُّو
المؤانسة السَّابعة من اليوم الثَّالث

تحسدُ حاشيةُ الملك كورفِتُّو لخصاله الفاضلة، فيتمُّ إرساله لخوض العديد من المهامِّ الخطيرة التي يخرج منها بشرفٍ عظيمٍ رغمَ أنفِ أعدائه، وفي النِّهاية، يُعطى ابنةَ الملك زوجةً له.

تأثَّر المستمعون كثيراً بحكاية بِلُّوتْشا، وشعروا بسعادةٍ وفرحٍ كبيرين حين تزوَّجت في النِّهاية، كما لو أنَّ الفتاة خرجت من أرحامهم. ولكنَّ الرَّغبة في الإصغاء إلى تشولَّا وضعت حدَّاً للتَّصفيق، وتعلَّقت الآذان بحركة شفاه تلك التي تكلَّمت على النَّحو التَّالي:

سمعتِ ذات مرَّةٍ يروون أنَّ جونو، لكي تعثر على الكذب، ذهبت إلى كانديا. ولكن لو سألني أحدهم أين يمكن حقَّاً أن يوجد الرِّياء والخداع، لما عرفت أن أدلَّه على مكانٍ آخر سوى البلاط الملكيِّ، حيث يرتدي الجميع أقنعةً، وحيث نميمةُ تراسْتولُّو، وافتراءُ غراتسيانو، وخيانةُ تزانيٍّ، وخبثُ بولِّيتشينيلَّا[1] أمرٌ شائعٌ، إذ يمارسون في الوقت نفسه الفتق والرَّتق، والكسَر واللَّصق. وسوف أنقل لكم فصلاً واحداً فحسب من ذلك، عبر الحكاية التي سأحكيها لكم الآن.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان،

---

1) شخصيَّاتٌ من المسرح الكوميديِّ؛ (كروتْشه).

شابٌّ طيِّبٌ جدَّاً يُدعى كورفِتُّو يعمل في خدمة ملك فيومِيلارغو[1]، وكان محبوباً من الملك لخصاله الحميدة، ومكروهاً ومذموماً للسَّبب نفسه من كلِّ رجال الحاشية، خفافيش الجهل أولاء، الذين كانوا لا يطيقون النَّظر إلى بريق فضائل كورفِتُّو الذي كانت أعماله الحميدة رأسمالَه الذي يشتري به رضا الملك. ولكنَّ الامتيازات التي أسبغها عليه الملك كانت ريحاً عاصفةً لرجال الحاشية الذين أصابتهم الفتوق من شدَّة الحسد، حتى إنَّهم كانوا لا يفعلون شيئاً، في كلِّ زوايا القصر، وعلى مدار السَّاعة، سوى التَّمتمة، والتَّهامس، والتَّوشوُش، والثَّرثرة، والغمغمة، والطَّعن في ظهر هذا الرَّجل المسكين، قائلين: "أيُّ تعويذةٍ ألقى هذا الحيوان على الملك ليكسب ودَّه؟ ما هذا الحظُّ إذ لا يمرُّ يومٌ دون أن يكسب بعض الامتيازات؟ أمَّا نحن فنعود دائماً إلى الوراء، مثل أولئك الذين يشدُّون الحبل ويخسرون الأرض شيئاً فشيئاً من تحتهم! ومع ذلك، نخدم كالكلاب، ونعرق كالفلَّاحين الذين يحرثون الأرض، ونركض كالغزلان لنلبِّي رغبات الملك بحذافيرها. على المرء حقَّاً أن يولد محظوظاً في هذا العالم، ومن لا حظَّ له، فليرم نفسه في البحر: في النِّهاية، كلُّ ما بإمكانه فعله هو أن يتفرَّج ويموت من الغيظ".

كانت هذه الكلمات وغيرها سهاماً مسمومةً تخرج من أقواس أفواههم زاحفةً نحو خراب كورفِتُّو. يا للبائس المحكوم عليه بجحيم البلاط، حيث التَّملُّق يُباع بالسِّلال والخبائث تُقاسُ بالفدادين والخيانات توزَن بالقناطير! ولكن من يستطيع أن يخمِّن كمِّيَّة قشور البطيخ الأحمر التي وضعوها تحت قدميه لينزلق؟[2] من يستطيع أن يصف صابون الكذب الذي نشروه على سلالم آذان الملك لكي يسقط الشَّابُّ المسكين ويكسر عنقه؟ من يستطيع

1) تعني حرفيّاً: النَّهر العريض؛ (المترجمان).

2) كما كان يحدث، وما يزال يحدث، في شوارع نابولي في فصل الصَّيف؛ (كرونِشِه).

أن يعدِّد خنادق المكائد التي حفروها في دماغ السَّيِّد، وغطَّوها بأغصان الغيرة، لكي يتردَّى في الحفرة؟

ولكنَّ كورفِتُّو كان يتمتَّع بقوىً سحريَّة، فكان يرى المصائد ويكتشف الفخاخ ويفطن إلى المؤامرات ويلاحظ الحِيَل والمزالق والحبائل والشِّراك المسنَّنة ومكائد ودسائس خصومه، وكان يظلُّ دائماً بأذنين صاغيتَين وعينَين مفتوحتَين لكيلا يفلت الخيط من يده، مع يقينه بأنَّ حظوظ الحاشية كانت من زجاج. مع ذلك، كانوا كلَّما استمرَّ هذا الشَّابُّ في الصُّعود، يزدادون استياءً، إلى أن، في النِّهاية، بعد أن يئسوا من العثور على وسيلةٍ تزيحه عن طريقهم، ولأنَّ أحداً لم يصدِّق تقوُّلَهم عليه، فكَّروا في اقتياده عبر طريق الإطراء إلى الهاوية ومن ثمَّ دفعه إلى قعرها (فنٌّ ابتُكِرَ في البيت الحارِّ[1] وصُقِلَ في البلاط)؛ وقاموا بهذه المحاولة بالطَّريقة التي سأرويها لكم.

على بعد عشرة أميالٍ من اسكتلندا، حيث مقرُّ هذا الملك، كان ثمَّة غولٌ، أكثرُ الغيلان ضراوةً ووحشيَّةً على الإطلاق. ولأنَّ الملك كان يلاحقه، كان قد تحصَّن في إحدى الغابات الكثيفة على قنَّة جبلٍ لا تطير فوقه حتى الطُّيور، وكانت الغابة من التَّشابك لدرجة أنَّها لم تتمكَّن يوماً من تلقِّي زيارة الشَّمس. وكان لدى هذا الغول حصانٌ في غاية الجمال، حصانٌ يبدو وكأنَّه مرسومٌ بفرشاة، حتى إنَّه لم يكن ينقصه، من بين المفاتن الأخرى، ولا حتى مَلَكَة الكلام، فقد كان مسحوراً وكان يتكلَّم مثلنا.

ما كان من أفراد الحاشية الذين كانوا يعرفون كم كان وحشيّاً ذلك الغول، وكم كانت قاسيةً تلك الغابة، وكم كان مرتفعاً ذلك الجبل، وكم كان صعباً الحصول على الحصان، إلَّا أن التفُّوا حول الملك ووصفوا له بدقَّةٍ كمالَ هذا الحيوان، وقالوا له إنَّه يليق بملكٍ، ولهذا عليه أن يحاول

---

1) جهنَّم؛ (كروتشِه).

بأيِّ طريقةٍ ووسيلةٍ انتزاعه من براثن الغول، وإنَّ كورفِتُّو هو الشَّخص الوحيد القادر على القيام بهذه المهمَّة، فهو شابٌّ حنَّكته التَّجارب ويعرف كيف ينتشل نفسه من النَّار. لم يكن الملك يعرف أنَّ ثعباناً كان يقبع تحت زهور هذه الكلمات، فطلب حضورَ كورفِتُّو في الحال وقال له: "إن كنت تحبُّني، حاول بأيِّ طريقةٍ أن تحصل لي على حصان الغول، يا صديقي، ولسوف أجعلك سعيداً جدَّاً وراضياً إن نجحت في أداء هذه الخدمة لي".

ومع أنَّ كورفِتُّو كان يعلم أنَّ هذا الطَّبل قد قُرِعَ من قِبَل أولئك الذين يريدون إيذاءه، ولئلَّا يعصي أوامر الملك، انطلق نحو الجبل، وبعد أن دخل خلسةً إسطبل قلعةِ الغول، سرَّج الحصان وامتطاه وثبَّت قدميه بقوَّةٍ في الرِّكابَين، ثمَّ اتَّجه نحو باب الخروج. ولكن، حين رأى الحصان نفسه يُنخَس للخروج من القلعة، صاح: "استيقظوا، إنَّ كورفِتُّو يخطفني!". وحالما سمع الغول الصِّياح، نزل مع كلِّ الحيوانات التي تخدمه، فكنتَ ترى القطَّ الشَّيطان عن يمينه، ودبَّ الأمير عن شماله، وأسداً على هذا الجانب، وذئباً على الجانب الآخر، ومستذئباً في الخلف، جاؤوا جميعاً ليجعلوه أشلاء. ولكنَّ الشَّابَّ، بفضل مهارته في التَّحكُّم بالرَّسن، ابتعد عن الجبل وأخذ ينطلق نحو المدينة، ووصل إلى بلاط الملك. هنا، بعد أن قدَّم الحصان للملك، احتضنه هذا الأخير بحنانٍ أكبر ممَّا لو كان ابناً له، ثمَّ وضع يده في كيسٍ، وملأ راحته بالقطع النَّقديَّة. وكان ذلك وقوداً جديداً يُضاف إلى نيران غيرة الحاشية؛ وإن كانوا من قبل ينتفخون بالقرفة، فإنَّهم الآن ينفتقون بنفثات منفاخٍ وهم يرون أنَّ المعول الذي ظنُّوا أنَّهم مهشِّمون به حظَّ كورفِتُّو الحسن لم يخدم سوى في تمهيد الطَّريق للمزيد من نجاحاته.

مع ذلك، ولأنَّهم كانوا يعرفون أنَّه لا يمكن هدم السُّور بأوَّل ضربةٍ من المنجنيق، قرَّروا القيام بمحاولةٍ ثانية، فقالوا للملك: "مباركٌ لكم الحصان الجميل، لأنَّه سيكون بحقٍّ درَّة الإسطبل الملكيِّ! ولكن، لو أنَّكم تحصلون

على زرابيِّ الغول أيضاً، وهي شيءٌ يفوق الوصف، لطبَّقت شهرتكم الآفاق! وليس هناك سوى كورفِتُّو بإمكانه أن يزيد بهذا الكنز ثروتكم، فلكورفِتُّو يدٌ خُلِقَتْ خصِّيصاً لمثل هذا النَّوع من الخدمات".

وما كان من الملك الذي رقص على كلِّ نغمةٍ سمعها، وأكل القشرةَ المحلَّاة من كلِّ ثمرةٍ من تلك الثِّمار المرَّة، إلَّا أن نادى كورفِتُّو ورجاه أن يأتيه بزرابيِّ الغول. لم يُجب كورفِتُّو ولو بكلمةٍ واحدةٍ، ولكنَّه بأربع قفزاتٍ، وصل إلى جبل الغول، ودخل دون أن يراه أحدٌ الغرفة التي ينام فيها، واختبأ تحت السَّرير وانتظر هناك حتى السَّاعة التي يقوم فيها اللَّيل، لكي يُضحك النُّجوم، بتأليف كتاب كرنفال[1] نكايةً بالسَّماء. وبعد أن أخلد الغول وزوجته إلى النَّوم، خلع بهدوءٍ زرابيَّ الغرفة، ومصرَّاً على أخذ اللِّحاف أيضاً، راح يشدُّه رويداً رويداً عن السَّرير. استيقظ الغول وطلب من زوجته ألَّا تشدَّ اللِّحاف كثيراً لأنَّها تتركه بلا غطاء، وقد يصاب بسبب ذلك بمغصٍ في بطنه. "بل أنت من يسحب عنِّي اللِّحاف، - أجابت الغولة، - ويتركني دون أيِّ شيءٍ يغطِّيني". "تبَّاً، أين اللِّحاف؟" - ردَّ الغول، ومتحسِّساً بيده نحو الأرض، لمس وجه كورفِتُّو. "النَّاسك القزم، النَّاسك القزم! - أخذ يصيح: - يا قوم، إليَّ بالشُّموع، اهرعوا!". وعند سماع هذه الأصوات، عمَّت الفوضى أركان البيت. ولكنَّ كورفِتُّو كان قد ألقى الزَّرابيَّ من النَّافذة، ثمَّ رمى نفسه عليها، وبعد أن حملها جيِّداً، انطلق من فوره نحو المدينة. ولا يمكن وصف المعانقات التي حصل عليها من الملك، والغيظ الذي تملَّك رجال الحاشية وجعل أجنابهم تكاد تتطيَّر شتتاً.

مع هذا كلِّه، قرَّروا أن يهاجموا كورفِتُّو بالحامية الخلفيَّة لخبثهم. كان الملك فرحاً لامتلاكه تلك الزَّرابيَّ التي، إلى جانب كونها من الحرير الموشَّى بالذَّهب، كانت تحمل تطريزاتٍ لأكثر من ألف نزوةٍ وفكرةٍ مختلفةٍ، ومن بينها،

1) تلميحٌ إلى «كتاب الكرنفال في القرنين الخامس عشر والسَّادس عشر»؛ (المترجمان).

إن لم تخنِّي ذاكرتي، ديكٌ متأهِّبٌ للصِّياح إيذاناً بفجرٍ على وشك البزوغ، مع جملةٍ بالتُّوسكانيَّة تقول: "شمسي التي أتطلَّع إليها"؛ وزهرةُ عبَّاد شمسٍ ذابلةٌ، مع جملةٍ توسكانيَّةٍ مشابهةٍ تقول: "مع انحدار الشَّمس"، وكثيرٌ من الأشياء الأخرى التي يتطلَّب الأمر ذاكرةً أقوى ووقتاً أطول لأعدِّدها كلَّها لكم.

بعد ذلك، حين رأى رجال الحاشية الملك سعيداً ومغتبطاً، قالوا له: "لقد قام كورفِتُّو بالعديد من الأعمال الجميلة في خدمتكم، ولن يكون أمراً عظيماً، لكي يمنحكم متعةً ترضيكم، أن يجعلكم تحصلون على قصر الغول نفسه، فهو صرحٌ جديرٌ بإمبراطور، كما أنَّه، في الواقع، يضمُّ عدداً هائلاً من الغرف في الدَّاخل وفي الخارج، بحيث يمكن أن يتَّسع لجيشٍ كاملٍ، ولا يمكنكم أن تتخيَّلوا عدد الأحواش، والأروقة، والقاعات، والمحافل، والمراحيض ذات السَّلالم الحلزونيَّة، والمداخن المبنيَّة من الحجر البركانيِّ، مع كثيرٍ من الإبداع الهندسيِّ، حيث الفنُّ يفيض، والطَّبيعة تندحر، والذُّهول يتقلَّب في النَّعمة والتَّرف".

كان الملك ذا خيالٍ خصبٍ يَحْبَلُ بسرعةٍ، فأفصح لكورفِتُّو عن رغبته في الحصول على قصر الغول، طالباً منه أن يضيف إلى الخدمات الكثيرة التي أدَّاها له هذه الخدمة التي سيكتبها له بقلم الاعتراف بالجميل في حانة الذَّاكرة. فما كان من كورفِتُّو، الذي كان سريع الاشتعالِ كعود ثقابٍ وصموتاً قادراً على الصَّمت مِائة ميلٍ في السَّاعة، إلَّا أن أطلق ساقيه للرِّيح ووصل إلى قصر الغول.

كانت الغولة حينئذٍ قد أنجبت غُوَيْلاً جميلاً، وكان زوجها قد خرج ليدعو الأقرباء إلى وليمةٍ، فيما انشغلت النَّفسَاء، بعد أن نهضت من السَّرير، في تحضير الطَّعام. دخل كورفِتُّو عليها بوجهٍ صفيقٍ كمطرقةٍ، وقال: "طاب صباحكِ، أيَّتها الأنثى العظيمة! يا ربَّة البيت الرَّائعة! لماذا تدمِّرين

صحَّتك هكذا؟ لقد أنجبتِ يوم أمس، والآن تجهدين نفسك ولا ترأفين على من هو من لحمك". "وماذا تريدني أن أفعل، - ردَّت الغولة - إذا لم يكن لديَّ من يساعدني؟". "أنا هنا لأساعدك - أجاب كورفِتُّو - بكلٍّ ما في وسعي". "وجدتَ أهلاً ونزلتَ سهلاً - قالت الغولة، - وطالما أنَّك قدَّمت خدماتك بهذا اللُّطف، هلَّا تساعدني في تقطيع أربع حطبات". "بكلِّ طيب خاطرٍ، - أجاب كورفِتُّو مرَّةً أخرى، - وإن كانت أربع حطباتٍ لا تكفي، فليكنَّ خمس". وما إن قال هذا حتى تناول فأساً كان قد شُحذ حديثاً، وبدلاً من أن يهوي به على الحطب، هوى به على رقبة الغولة وأسقطها مثل كمَّثرى. ثمَّ ركض بسرعةٍ إلى مدخل الباب، وحفر خندقاً عميقاً وغطَّاه بالأغصان والتُّراب، ووقف يتجسَّس خلف الباب.

وحين رأى الغولَ قادماً مع أقربائه، صاح من الفناء: "اشهدوا! قفْ عندك! عاش ملك فيوميلارغو!". فانطلق الغول، فور سماعه هذه العنجهيَّة، كالبرق نحو كورفِتُّو ليعمل منه صلصة؛ ولكن، بينما كانوا يدخلون الرُّواق بهياجٍ هو وأقرباؤه، سقطوا جميعاً في الخندق وتدحرجوا نحو القاع، حيث قام كورفِتُّو بهرسهم بصلياتٍ من الجلاميد. ثمَّ أغلق الباب وحمل المفتاح إلى الملك.

وبعد أن رأى الملك شجاعة وحنكة هذا الشَّابِّ، ما كان منه، نكايةً بالحسد والحسرة في قلوب رجال الحاشية، إلَّا أن تحدَّى القدر ومنحه ابنته زوجةً لأنَّه استطاع أن يحوِّل المتاريس التي وضعوها في طريقه، غيرةً وحسداً، إلى أسطواناتٍ يدفع عليها مركب حياته نحو بحر العظمة، مُجبراً أعداءه المرتبكين والمتمرِّغين غيظاً على الذَّهاب إلى المرحاض بلا شمعةٍ، لأنَّ:

العقابَ الحقَّ على فِعل السُّوء

يتأخَّر أحياناً، ولكن لا يمكن أبداً أن يضيع!

الجاهل
المؤانسة الثَّامنة من اليوم الثَّالث

يُرسَل موشونه من قبَل والده إلى القاهرة ليقوم ببعض التِّجارة بغيةَ إبعاده عن المنزل لأنَّه كان يتصرَّف بغباوةٍ كبيرة. وفي الطَّريق، يصادف أشخاصاً يتمتَّعون بقدراتٍ خاصَّةٍ فيأخذهم معه، وبفضل المساعدة التي يقدِّمونها له، يعود محمَّلاً بالفضَّة والذَّهب.

لم يكن الأمير تاديو يفتقر في حاشيته إلى رجالٍ يمكن أن يشتعلوا غضباً حين تُمَسُّ كرامتهم، لولا أنَّ فنَّهم لم يكن سوى التَّمويه والرِّياء. ولم يكن من الممكن الجزم أيُّ الأمرين ضايقهم أكثر، الإهانة من فضح نفاقهم، أم الحسد الذي أكل قلوبهم لدى سماعهم الحظَّ الجيِّد الذي حالف كورفِتُّو. ولكنَّ باولا، حين بدأت الكلام، سحبت أرواحهم من بئر حبِّ الذَّات بخطَّاف هذه الكلمات:

لطالما حظي جاهلٌ يصاحب الأذكياء بإطراءٍ أكبر ممَّا يحظى به حكيمٌ يصاحب الأغبياء، لأنَّه بمقدار ما يمكن أن يجنيه الأوَّل من المنافع والسُّمعة العطرة، بفضل الأذكياء، يمكن للثَّاني أن يخسره بسبب الأغبياء. وإن كان اللَّحم المدخَّن يُعرف باختبار العود، فستعرفون، من الحكاية التي سأرويها لكم، إن كان ما أقوله لكم صحيحاً أم لا.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، أبٌ ثريٌّ ثراءَ البحر، ولأنَّه لا يمكن لأحدٍ أن ينعم بسعادةٍ كاملةٍ في هذا

العالم، كان لديه ابنٌ بائسٌ وغبيٌّ لدرجة أنَّه لم يكن يُميِّز الخرُّوب من الخيار. ولأنَّ الأب لم يعد قادراً على تحمُّل حماقاته، أعطاه قدراً كافياً من المال وأرسله ليتاجر في أسواق الشَّرق، يقيناً منه أنَّ رؤية بلدانٍ مختلفةٍ والتَّعامل مع أناسٍ مختلفين يوقدان الذَّكاء ويشحذان العقل ويجعلان المرء أكثر حكمة.

امتطى موشونِه (هكذا كان يُدعى الابن) حصانه، وسلك الطَّريق المؤدِّية إلى البندقيَّة، تَرْسَانَةِ روائع العالم، ليبحر على متن سفينةٍ متَّجهةٍ إلى القاهرة. بعد مسيرة نهارٍ مُرضٍ، صادف شابَّاً واقفاً في ظلِّ شجرة حور، فسأله قائلاً: "ما اسمك أيُّها الشَّابُّ؟ من أين أنتَ، وما مهنتك؟". أجابه الشَّابُّ: "اسمي البرقُ البارق، أنا من بلاد الصَّاعقة ويمكنني العَدْوُ بسرعة برقٍ خاطفٍ". "أودُّ أن أرى دليلاً على ذلك"، ردَّ موشونِه؛ وأجاب الشَّابُّ: "انتظر هُنَيهةً وسترى إن كنتُ من بارودٍ أم من طحين". وبعد أن وقفا هناك لبعض الوقت ينتظران، رأيا فجأةً ظبياً يركض عبر الحقول؛ فتركه البرقُ البارقُ يعدو أمامه مسافةً لكي يمنحه فرصةً أكبر، ثمَّ بدأ يجري وراءه بسرعةٍ عجيبةٍ وبخفَّةٍ كبيرةٍ كان بإمكانه معها أن يجري على طريقٍ مفروشٍ بالطَّحين دون أن يترك طبعات حذائه؛ فلحقه بأربع قفزات. فسأله موشونِه، مذهولاً، إن كان يرغب في مرافقته، ولسوف يدفع له بسخاءٍ لقاءَ ذلك، فسُرَّ البرقُ البارقُ بعرضه، وانطلقا معاً.

لم يقطعا أربعة أميالٍ أخرى حتى صادفا شابَّاً آخر، فقال له موشونه: "ما اسمك يا صاحبي؟ من أيِّ بلدٍ أنت؟ وما مهنتك؟"، فأجابه الشَّابُّ: "اسمي أُذنُ الأرنب، وأنا من وادي الفضول، أضع أذني على الأرض، ودون أن أتحرَّك من مكاني، أسمع ما يجري في العالم: أسمع الاتِّفاقات والمكائد التي تحوكها زمر الحرفيِّين للتَّلاعب بأسعار السِّلع، ودسائسَ رجال الحاشية، وخبائثَ القوَّادين، ومواعيدَ العشَّاق، ومؤامرات اللُّصوص، وتشكِّيات الخدم، وتقارير الجواسيس، وثرثرات العجائز، وشتائم البحَّارة –

أسمع لدرجة أنَّ ديك لوتشيانو وقنديل فرانكو[1] لا يستطيعان أن يريا أكثر ممَّا تفعل أذني هذه". "إن كان ما تقول صحيحاً، - قال موشونه - فهلاَّ تخبرني بما يُقال في منزلي؟". فوضع الشَّابُّ أذنه على الأرض، ثمَّ قال: "رجلٌ مسنٌّ يتكلَّم مع زوجته ويقول: بوركَتْ شمسُ السَّماء، لأنَّني أخيراً أزحت من أمام عينيَّ موشونه، ذلك الأحمق عديم النَّفع، ذلك المسمار المغروس في قلبي! على الأقلِّ الآن، بسفره عبر العالم، سيصبح رجلاً بدلاً من أن يظلَّ حماراً، بهيمةً، مغفَّلاً وكسولاً كما كان دائماً". "كفى - قاطعه موشونه، - لقد أيقنت أنَّك تقول الحقيقة. لذلك، تعال معي، وستكون محظوظاً". "موافقٌ"، قال الشَّابُّ، وانطلقوا معاً.

بعد عشرة أميالٍ أخرى، صادفوا شابّاً آخر، فسأله موشونه: "ما اسمك أيُّها الرَّجل الطَّيِّب؟ أين ولدت؟ وما صنعتُك في هذه الحياة؟". فأجاب الشَّابُّ: "اسمي الخاسِقُ[2]، وأنا من قلعة صائب الهدف، وأعرف كيف أرمي بالنُّشَابية بحيثُ أصيبُ ثمرة عُنَّابٍ في منتصفها". "أريد أن أرى الدَّليل" - ردَّ موشونه؛ فما كان من ذاك، بعد أن لقَّم القوس، إلَّا أن صوَّب السَّهم نحو حبَّة حِمِّصٍ وطيَّرها عن الحَجَر الذي كانت عليه، فطلب منه موشونه أن ينضمَّ إليهم، وتابعوا المسير.

وقطعوا مسيرة نصف نهارٍ آخر، فصادفوا بعض العمَّال يبنون رصيفاً بحريّاً تحت مقرعةِ الشَّمس التي لِحِمَاوتها حُقَّ لهم أن يقولوا: "ضَعِ الماء في النَّبيذ، يا بنَّاء، لأنَّ قلبي يحترق"[3]. شعر موشونه بتعاطفٍ كبيرٍ مع أولئك العمَّال، وسألهم مستغرباً: "وكيف، باللَّه عليكم، تتحمَّلون البقاء في هذا الفرن الذي يمكن أن تُطهَى فيه مشيمةُ جاموسة؟". فأجاب أحدهم:

---

1) نجد بين صفحات كتاب «حماقات العوام» لنيكُولو فرانكو (البندقيَّة، 1538) سخريةً من العديد من الأوضاع والمهن الإنسانيَّة، من بينها القنديل والدِّيك اللذان يحيطان بالأسرار؛ (كروتشِه).

2) من أسماء السَّهم إذا أصاب الهدف؛ (المترجمان).

3) الأرجح أنَّها كلمات أغنيةٍ شعبيَّة؛ (كروتشِه).

"إنَّنا منتعشون مثل وردة يانعة، لأنَّ معنا شابٌّ ينفخ على أكتافنا فيبدو كأنَّ نسائم ريحٍ غربيَّةٍ تهبُّ علينا". "دعوني أراه، – قال موشونه، – حفظكم الرَّبُّ الإله". فأومأ البنَّاؤون إلى الشَّابِّ، فسأله موشونه: "ما اسمك، بحقِّ أبيك؟ ومن أين أنت؟ وما مهنتك؟". فأجاب: "اسمي النَّافخُ، وأنا من أرض الرِّيح، وأستطيع أن أقلِّد بفمي كلَّ أصناف الرِّياح. فإن أردتَ الرِّيح الغربيَّة، علَّلتُكَ بها؛ وإن أردتَ الرِّيح العاصفة، أريتُكَ البيوت تُمحَق عن بكرة أبيها". "لن أصدِّق ذلك ما لم أره بأمِّ عيني" – قال موشونه، فنفخ النَّافخ بلطفٍ في البداية، فبدت أنفاسه كالنَّسيم العليل الذي يهبُّ من بوزيليبو عند المساء، وبعد ذلك مباشرةً، التفت نحو مجموعةٍ من أشجار السِّنديان، وأرسل من فمه ريحاً عاتيةً اقتلعتها من جذورها. حين رأى موشونه ذلك، اتَّخذه مرافقاً له في سفره.

بعد أن ساروا المسافة نفسها تقريباً، صادفوا شابَّاً آخر، فقال له موشونه: "لستَ مُكرَهاً على الإجابة، ولكن ما اسمك؟ ومن أين أنت، إن كنت لا ترى مانعاً من إخبارنا؟ وما مهنتك، إن كان السُّؤال مشروعاً؟". فأجاب الشَّابُّ: "اسمي الظَّهرُ الصُّلْبُ، وأنا من أرض العَضَل، وأملك من القوَّة ما يمكِّنني من حمل جبلٍ على كتفيَّ ولن يبدو لي سوى ريشة". "إن كان ما تقول صحيحاً، – قال موشونه – استحقَقْتَ أن تكون ملك دوغانا[1] وأن تُقلَّد جائزة أوَّل أيَّار في سباق الخيل؛ ولكن أودُّ أن أرى الدَّليل". فبدأ الظَّهرُ الصُّلْبُ يرفع صخوراً وجذوع أشجارٍ وأثقالاً أخرى كثيرةً لا يمكن لألف عربةٍ كبيرةٍ أن تحملها، فأبرم موشونه معه اتِّفاقاً لقاءَ مرافقته لهم.

وأخيراً، وصلوا إلى بلدٍ يُدعَى بِلْفيُوره[2]، وكان هناك ملكٌ لديه ابنةٌ تجري مثل الرِّيح، وكان بإمكانها أن تمرَّ فوق حقلٍ من القنَّبيط الأخضر

---

1) ملك العتَّالين في الجمارك؛ (كروتشه). [كلمة «دوغانا» بالإيطاليَّة تعني الجمرك، وهذه تركيَّةُ الأصل وعربيَّتُها: مَكْس؛ (المترجمان)].

2) تعني حرفيَّاً: الزَّهرة الجميلة؛ (المترجمان).

المزْهِر دون أن تثني قممَ الأزهار. كان الملك قد أصدر بلاغاً يعلن فيه أنَّه سيمنحها زوجةً لمن يتمكَّن من الفوز عليها في سباق، ومن يبق خلفها يخسَرْ رأسه. قدَّم موشونه نفسه إلى الملك وعرض عليه أن يسابق ابنته، وأبرما الاتِّفاق: إمَّا أن يسبقها بكعبيه، وإمَّا أن يخسر رأسه. ولكن في صباح اليوم التَّالي، أرسل إلى الملك رسولاً يُبلغه أنَّ مرضاً مفاجئاً نزل به، ولأنَّه لا يستطيع الجري شخصيَّاً، سيرسل شابَّاً آخر بدلاً منه.

"فليأت من يرغب – قالت تشانِّتلَّا، ابنة الملك: – لا يهمُّني الأمر، فالسَّاحة مفتوحةٌ للجميع". وهكذا، اكتظَّت السَّاحة بالنَّاس المتوافدين لمشاهدة السِّباق، وكان الرِّجال كالنَّمل والنَّوافذ والشُّرفات ممتلئةً كبيضة، وظهر البرقُ البارقُ ووقف على رأس السَّاحة في انتظار إشارة البدء. وفجأةً وصلت تشانِّتلَّا بتنُّورةٍ مرفوعةٍ إلى منتصف ساقيها وصندلٍ بنعلٍ جميلٍ ومتناسقٍ؛ وبعد أن وقفا كتفاً لكتفٍ وصوَّتَت الأبواقُ طو-طو، بدآ في الجري بسرعةٍ كادت معها كعابهم تلامس أكتافهم. بَدَوَا كأرنبَين برِّيَّين تلاحقهما كلابٌ سلوقيَّة، كجوادَين هربا خلسةً من الإسطبل، ككلبَين بثورٍ على ذيليهما، كحمارَين بمنخسٍ على كفليهما. ولكنَّ البرق البارق، وكان هذا اسمه قولاً وفعلاً، تركها خلفه بأكثرٍ من شبرٍ، وحين وصل إلى النِّهاية، انفجرت الصَّيحات والنِّداءات والهتافات والصَّفير والتَّصفيق وخبط الأقدام من قبل المتفرِّجين الذين راحوا يهتفون: "يحيا الغريب، يحيا الغريب!".

أصبح وجه تشانِّتلَّا كمؤخِّرة تلميذٍ تلقَّى جَلْدَةً، خجلاً وخزياً من هزيمتها. ولكن، لمَّا كان من المفترض أن يجري السِّباق مرَّتين، فكَّرت في الانتقام للهزيمة التي مُنِيَتْ بها، وبعد أن عادت إلى البيت، سحرت خاتماً يجعل رِجْلَي من يضعه في إصبعه تنحنيان، فلا يتمكَّن من الرَّكض، بل ولا حتى من المشي. ثم أرسلت الخاتم باسمها هديَّةً إلى البرق البارق، وطلبت منه أن يضعه في إصبعه عربونَ حبٍّ له. سمع أُذنُ الأرنب هذا الموشَّح الذي دار بين الأب وابنته، وبقي صامتاً ليرى نتيجة الأمر.

حين انطلقت أبواق الطُّيور والشَّمسُ طردت اللَّيل على حمار الظِّلِّ[1]، عاد الاثنان إلى الميدان، وبعد الإشارة المعتادة، بدأ لعبة الكعاب. ولكنَّها لم تكن تشاتِّلاَّ نفسَها بقدر ما كانت آتالانتا[2] أخرى، فقد تحوَّل البرقُ البارقُ إلى حمارٍ ضعيفٍ وحصانٍ واهنٍ، فكان لا يستطيع أن يحرِّك قدماً. فما كان من الخاسق، إذ رأى الخطر وعرف المكيدة من أُذن الأرنب، إلَّا أن تناول النُّشَابية، ورمى سهماً أصاب بالضَّبط إصبعَ البرق البارق وجعل الحجر الكريم الذي تكمن فيه قوَّة السِّحر يطير من الخاتم. وفي الحال، تصلَّبت رِجلا البرق البارق، وبأربع وثباتٍ كوثبات يحمورٍ، تجاوز تشاتِّلاَّ وفاز في السِّباق.

وحين رأى الملك فوزَ ذلك الأحمق، ومَنْجَاةَ ذلك الحيوان، والسَّعَفَةَ مرفوعةً بيد ذلك السَّاذج، بقي في حيرةٍ من أمره إن كان عليه أن يعطيه ابنته أم لا؛ فاستدعى مجلس حكماء البلاط الذين أجابوه بأنَّ تشاتِّلاَّ ليست لقمةً لأنياب كلبٍ مسعورٍ ولحوصلة طائرٍ كسول، وبأنَّ بإمكانه، دون أن يَنْقُضَ كلمته، أن يخفِّف وعدَه إلى هبةٍ من المال من شأنها أن تكون أكثر منفعةً لذلك الشَّحَّاذ القبيح من جميع نساء العالم.

أُعجب الملك برأيهم وأرسل أحدَهم إلى موشونه ليسأله ماذا يريد جائزةً عوضاً عن الزَّوجة الموعودة. شاورَ موشونه أصحابه في الأمر، ثمَّ أجاب: "أريد ذهباً وفضَّةً بقدر ما يستطيع أحدُ أصحابي حمله على ظهره". فسُرَّ الملك أيما سرور. وهكذا، تقدَّم الظَّهر الصُّلب وبدؤوا يضعون على ظهره أكواماً من الدُّوقيَّات وأكياساً من النُّقود المعدنيَّة وحقائب كبيرةً من اللِّيرات الفضِّيَّة وبراميلَ خشبيَّةً من اللِّيرات النُّحاسيَّة، وصناديق من

1) كان شائعاً في ذلك الوقت وضع اللُّصوص والمومسات وغيرهم من الجناة على حمارٍ والطَّواف بهم في أرجاء المدينة وهم يتعرَّضون للضَّرب بالسِّياط؛ (كروتشه).

2) شخصيَّةٌ أسطوريَّةٌ من الميثولوجيا الإغريقيَّة. يروى أنَّها كانت صيَّادةً سريعة الجري، وكانت قد اشترطت على من يريد الزَّواج بها أن يسبقها في العَدْو، فمن سبقها تزوَّجته، ومن سبقته أزهقت روحَه؛ (المترجمان).

السَّلاسل والخواتم. ولكن، مهما كانوا يحمِّلونه، كان يبقى ثابتاً كالبرج، حتى إنَّهم، لأنَّ بيت المال والمصارف والصَّيارفة لم يكفوا، قرَّروا أن يطلبوا من النُّبلاء قروضاً ممَّا لديهم من شمعدانات فضِّيَّة وأقداحٍ وأوانٍ وصحونٍ وصَوَانٍ ومِبْوَلات، ولكن حتى هذه الأشياء لم تكف لتشكيل الحمولة الكاملة. وفي النِّهاية، غادروا المملكة، ليس بسبب التَّعب، ولكن بسبب التُّخمة والملل.

رأى أعضاء المجلس تلك الثَّروة التي لا حدود لها يأخذها أربعةُ مسوخٍ، فقالوا للملك إنَّ من الحماقة أن يترك ثروة مملكته تتبدَّد هكذا، ولذلك سيكون من الحكمة أن يرسل عدداً من الأشخاص لتخفيف الحِمْل عن ذلك الأطلس[1] الحامل سماءً من الكنوز على كتفيه. رحَّب الملك بالنَّصيحة وأرسل على الفور زمرةً من المسلَّحين، بين مشاةٍ وراكبين، ليلحقوا بهم. ولكنَّ أُذن الأرنب، الذي سمع كلام أعضاء المجلس، أخبر رفاقه؛ وبينما كان الغبار يرتفع إلى السَّماء من خبط كِعاب أولئك الذين جاؤوا لتخفيف الحِمْل النَّفيس، بدأ النَّافخُ ينفخ بقوَّةٍ لم تجعلهم ينكِّسون رؤوسهم فحسب، بل ألقى بهم على بعد أكثر من ميلٍ، كما تفعل الرِّياح الشَّماليَّة بمن يمرُّ في تلك الحقول.

وهكذا، دون أيِّ عقبةٍ، وصل موشونِه إلى منزل والده، وهناك وزَّع بعض المكاسب على رفاقه لأنَّه كما يقال: "من يجعلك تربح الكعكة، امنحه قطعةً منها"، وصرفهم سعداء راضِين. أمَّا هو فبقي مع والده، ثريَّاً فوق الخيال، وكان يُنظَر إليه كما يُنظَر إلى حمارٍ محمَّلٍ بالذَّهب، فلم يكذِّب القول المأثور:

إنَّ السَّماء تعطي الكعك لمن ليس له أسنان.

---

1) أطلس في الميثولوجيا الإغريقيَّة واحدٌ من الجبابرة الأقوياء يحمل قبَّة السَّماء على كتفيه؛ (المترجمان).

روزيلّا
المؤانسة التّاسعة من اليوم الثّالث

رغبةً في الاستحمام في دماء رجل نبيل، يرسل السُّلطان التُّركيُّ العظيم رجاله في البحر لأسر أحد الأمراء. تقع ابنته في حبِّ الأسير وتفرُّ معه، فتلحق الأمُّ بها ويقطع الأمير يديها. يموت السُّلطان العظيم كمداً، ولكنَّ الأمَّ تسلِّط لعنةً على ابنتها، فينساها الأمير، وبعد حِيَلٍ عديدةٍ تقوم بها، تعود إلى ذاكرة زوجها، ويعيشان معاً بسعادةٍ ووئام.

أصغى الجميع إلى حكاية باولا بارتياحٍ كبيرٍ، واتَّفقوا جميعاً على أنَّ أباه كان مُحقّاً حين أراد له أن يكون ابناً ذكيّاً، ولكنَّ الوقواق صاح له[1]، وإن كان الآخرون هم من حضَّر له العجينة، فهو من تلقَّف المعكرونة واستمتع بها. وكان الآن دور تشومِّتِلّا لتحكي ما في جعبتها، فتكلَّمت على النَّحو التَّالي:

لا يموت ميتةً طيِّبةً من يعيش عيشةً فاجرة، وأيُّ شخصٍ يُستثنَى من هذه القاعدة هو أشبه بغرابٍ أبيض، لأنَّ من يزرع الزُّؤان لا يمكنه أن يحصد القمح، ومن يزرع الحلّاب لا يمكنه أن يجني القنَّبيط الأخضر المزهر. والحكاية التي سأحكيها لكم لا تكذِّب ما أقول: فآجروني، من فضلكم، بآذانٍ صاغيةٍ وأفواهٍ مفغورةٍ، لقاءَ المتعة التي سأمنحها لكم.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان،

1) كان صياح الوقواق بشارة خيرٍ على الأقلّ عند بعض الكتّاب بالنّابوليتانيّة العاميّة، وإن كان ذلك عكس ما كان يعتقد به العوامُّ؛ (كرونْشِه).

سلطانٌ تركيٌّ عظيمٌ مصابٌ بجذامٍ لم يستطع أن يجد له أيَّ علاج؛ ولأنَّ الأطبَّاء لم يجدوا وسيلةً يتخلَّصون بها من إلحاح المريض عليهم، اقترحوا عليه أمراً كانوا يعدُّونه مستحيلاً، فقالوا له إنَّه في حاجةٍ إلى الاستحمام في دم أميرٍ ذي حسبٍ ونسب. وما إن سمع السُّلطان العظيم المتلهِّف إلى الشِّفاء هذه الوصفة القاسية، حتى أرسل من فوره جيشاً في البحر، وأمرهم أن يجوبوه من كلِّ الجهات، وأن يلجؤوا إلى الجواسيس وتقديم الوعود المغرية لكي يتمكَّنوا من وضع أيديهم على أحد الأمراء.

صادف الجيش، وهو يبحر على طول سواحل فونتِكْيارو[1]، مركباً انطلق فيه باولوتشو، ابن ملك تلك البلاد، للتَّرويح عن نفسه، فألقوا القبض عليه في الحال وحملوه كما هو إلى القُسْطَنْطينيَّة. وهناك، ليس رأفةً بالأمير المسكين ولكن خوفاً على رؤوسهم، لأنَّهم كانوا أوَّل من سيدفع الثَّمن إن لم يكن لذلك الحمَّام فائدةٌ تُرجَى، تشاور الأطبَّاء فيما بينهم، وقرَّروا منح الأمور بعض الوقت وتأجيل الموضوع ما أمكنهم التَّأجيل. لذلك، أقنعوا السُّلطان العظيم بأنَّ الأسير كان غاضباً جدَّاً من أنَّ حرِّيَّته أصبحت رهنَ لعبة الثَّلاث سبعات[2]، وبأنَّ الدَّم الفائر سيؤذيه بدلاً من أن ينفعه، ولذلك كان من الضَّروريِّ تأجيل العلاج إلى أن يزول المزاج الكئيب للأمير، وفي الوقت نفسه، عليه أن يعتني به ويوفِّر له الطَّعام المغذِّي وكلَّ وسائل الرَّاحة ليكتسب دماً جيِّداً.

بعد أن استمع السُّلطان العظيم إلى رأي الأطباء، قرَّر أن يجعل الأمير في عيشٍ رغيدٍ، فحبسه في حديقةٍ غنَّاء اتَّخذها الرَّبيع ملاذاً دائماً له، حيث النَّوافير تنافسُ الطُّيور والنَّسائم العليلة في التَّغريد والشَّدو والغناء، وطلب من ابنته روزيلَّا أن تمكث معه في ذلك المكان، موهماً إيَّاه بأنَّه يريد

1) تعني حرفيَّاً: النَّبع الرَّائق؛ (المترجمان).

2) لعبة ورق تعود أصولها إلى العهد الرُّومانيِّ، وهي منتشرةٌ بشكلٍ خاصٍّ في جنوبي إيطاليا؛ (المترجمان).

أن يعطيه إيَّاها زوجةً. ولكنَّ روزيلا، حين رأت جمال الأمير، شُغفَتْ حُبّاً به، ومع الوقت، امتزجت آمالهما واكتشفا أنَّهما ملتحمان بخاتم الرَّغبة نفسها.

وحين حان الوقت الذي تشتدُّ فيه شهوة القطط وتجد الشَّمسُ متعتها في مناطحة كبش السَّماء[1]، اكتشفت روزيلا أنَّ الأطبَّاء كانوا قد اتَّخذوا قرارهم بذبح الأمير وتحضير الحمَّام للسُّلطان العظيم، لأنَّ الدَّم يكون أفضل ما يكون في الرَّبيع. صحيحٌ أنَّ والدها كان قد أخفى الأمر عنها، ولكنَّها، بمَلَكَة السِّحر التي حصلت عليها من أمِّها، عرفت المكيدة التي كانت تحاك ضدَّ عشيقها. لذلك، لم تتردَّد لحظةً في اتِّخاذ قرارها، فسلَّمت الأمير سيفاً رائعاً، وقالت له: "يا مسرَّتي ولسان حالي، إن كنت تريد إنقاذ الحرِّيَّة الغالية جدّاً، والحياة الحلوة جدّاً، فلا تُضِعْ وقتاً: انتعل أقدام أرنبٍ برِّيٍّ، واهرب إلى الميناء، وهناك ستجد قارباً، اركبه وانتظرني، وبفضل السَّيف المسحور سوف يستقبلك أولئك البحَّارة بالتَّشريف الذي تستحقُّه، كما لو كنت إمبراطوراً".

حين رأى باولوتشو هذا الطَّريق يُفتَح أمامه لينجو بجلده، أخذ السَّيف وانطلق نحو الميناء حيث وجد القارب واستُقبل بتوقيرٍ كبيرٍ من البحَّارة الذين على متنه. وفي أثناء ذلك، قامت روزيلا بكتابة تعويذةٍ سحريَّةٍ على ورقة، ودسَّتها في جيب أمِّها دون أن يراها أو يسمعها أحد، فجعلتها تغطُّ فوراً في نومٍ عميقٍ، بحيث لم يكن هناك ما يمكن أن يوقظها. ثمَّ أخذت صرَّةً من المجوهرات، ونزلت بسرعةٍ إلى القارب، حيث كان الأمير في انتظارها، ومعاً رفعا الأشرعة.

في غضون ذلك، ذهب السُّلطان العظيم إلى الحديقة، وحين لم يجد ابنته ولا الأمير، قلب العالم رأساً على عقب، ثم هرع بجنونٍ إلى زوجته؛ ولكنَّه لم يتمكَّن من إيقاظها، لا بالصِّياح ولا بشدِّها من أنفها، فظنَّ

1) يقصد كوكبة الحمل التي تكون الشَّمس فيها في شهر آذار؛ (كروتشه).

أنَّ إغماءةً مفاجئةً أفقدتها الإحساس، فنادى الوصيفات وأمرهنَّ بخلع ملابسها. وحالما نزعن ثوبها تعطَّل السِّحر، فاستيقظت وهي تصيح: "آه، لقد فعلتها ابنتُكَ الخائنة: لقد هربت مع الأمير! ولكن لا تقلق، سأجمِّد ساقيها وأقطع طريقها". وما إن قالت ذلك حتى نزلت مهتاجةً إلى الميناء، وهناك، رمت ورقة شجرٍ في البحر فتحوَّلت إلى فلوكةٍ ملساءَ راحت تلاحق بها الفتى والفتاة الهاربَين. ومع أنَّ الأمَّ كانت غير مرئيَّةٍ لأحد، رأت روزيلَّا بعيون السِّحر الكارثةَ التي كانت ستحيق بهما، فقالت لباولوتشو: "أسرع يا فؤادي، سُلَّ النَّصل وابقَ في المؤخِّرة، وبمجرَّد أن تسمع قرقعةَ السَّلاسلِ والخطاطيفِ وهي تُرمَى على القارب، أغمض عينيك واضرب عنقَ من تضرب، ومن يخسرْ فهذا شأنه؛ وإلَّا أُحْبِطَ فرارُنا وكنَّا في عداد الهالكين".

رأى الأمير حياته في خطرٍ، فبقي متأهِّباً؛ وعلى الفور، حين اقتربت فلوكةُ السُّلطانةِ العظيمةِ ورمت هذه الخطاطيف، قام بالتفافةٍ رائعةٍ، ولحسن الحظِّ، تمكَّن بضربةٍ واحدةٍ من قطع يدَي السُّلطانة التي أطلقت صيحات روحٍ ملعونةٍ، وألقت على ابنتها لعنةً تقضي بأن ينساها الأمير حالما تطأ قدماه مسقط رأسه. ثمَّ عادت أدراجها إلى أرض التُّرك وساعداها يقطران دماً، ومثلت أمام زوجها وأرته هذا المشهد المؤلم، وقالت له: "هاك يا زوجي، قامرنا على طاولة الحظِّ، فأنت خسرت صحَّتك وأنا خسرت حياتي". ومع هذه الكلمات خرجت روحها وأنفاسها، وذهبت لتدفع أجرة الدُّروس للمعلِّم الذي لقَّنها الفنَّ[1]. وكذلك السُّلطان العظيم، مرتمياً خلفها مثل تيسٍ في بحر اليأس، تبع خطوات زوجته، وبارداً كالثَّلج، مضى هو أيضاً إلى البيت الحارِّ[2].

---

1) الشَّيطان؛ (كروتشِه).

2) جهنَّم؛ (كروتشِه).

في غضون ذلك، وصل باولوتشو إلى فونتِكْيارو وقال لروزيلّا أن تنتظره في القارب ريثما يذهب ويُحضِر النَّاس والعربات لينقلها مظفَّرةً إلى منزله. ولكن حالما وضع قدميه على الأرض خرجت روزيلّا من عقله؛ ولدى وصوله إلى القصر الملكيِّ، استُقبل بترحابٍ كبيرٍ من قبل أبيه وأمِّه وسط احتفالاتٍ وأضواءٍ تأخذ بالألباب. ثلاثة أيَّامٍ مرَّت وروزيلّا تنتظر بلا جدوىً عودةَ باولوتشو، ثم تذكَّرت اللَّعنة التي أُلقِيَت عليها، فعضَّت بنانَ النَّدم لأنَّها لم تفكِّر في الاحتياط للأمر في أوانه. ولذلك، كامرأةٍ يائسةٍ، نزلت إلى اليابسة، واتَّخذت لها منزلاً مقابل قصر الملك لتحاول بطريقةٍ أو بأخرى أن تعيد إلى ذاكرة الأمير الالتزام الذي أخذه على نفسه تجاهها.

وقعت أعينُ رجالات البلاط الذين يحشرون أنوفهم في كلِّ شيءٍ على الطَّائر الجديد الذي حطَّ رحاله في ذلك المنزل، فراحوا يتأمَّلون ذلك الجمال الذي تجاوز كلَّ المقاييس، وتخطَّى كلَّ الحدود، وبلغ تسعةً على مقياس العجائب، وكان ينبوعاً متواصلاً من المفاتن المُسْكِرة، وبدأوا يحومون مثل البرغش حولها ويتمشَّون ويتبخترون أمام منزلها. كانت السُّوناتات تأتي أكواماً، والرَّسائلُ سيولاً، والموسيقى بما يكفي لصمِّ الآذان، وبلغت القُبَلُ المرسَلَةُ في الهواء أقصى حدود الإزعاج؛ ودون معرفة أحدهم بالآخر، كانوا جميعاً يصوِّبون نحو الهدف نفسه، وجميعاً يحاولون، مخمورين بالحُبِّ، أن يستقطروا ذلك الدَّنَّ الجميل.

ولكنَّ روزيلّا كانت تعرف كيف تُربَط هذه القوارب، فكانت تقابلهم جميعاً بوجهٍ مشرقٍ، وتستقبلهم جميعاً بلطفٍ، وتزرع في نفس كلِّ واحدٍ منهم بذرةَ أمل. وحين أرادت في النِّهاية الوصول بهذه المسألة إلى خاتمة، اتَّفقت سرَّاً مع فارسٍ رفيع المنزلة على أنَّه إن منحها ألف دوقيَّةٍ وطقماً كاملاً من الملابس، كان بإمكانه أن يأتي في تلك اللَّيلة إليها لتردَّ له ديون عاطفته. ولأنَّ مبصبِصَ الشَّبابيك المسكين كان معصوب العينين بعِصَاب

الوله، أخرج في الحال أمواله، واشترى من أحد التُّجَّار قطعةً فاخرةً من الحرير السَّميك المقصَّب، وانتظر بفارغ الصَّبر أن تتبادل الشَّمس والقمر الأدوارَ ليقطف ثمار رغباته. وحين بسط اللَّيل رداءه، تسلَّل خلسةً إلى بيت روزيلَّا، فوجدها مستلقيةً على سريرٍ جميلٍ، أشبه بفينوس وسط مرجٍ من الزُّهور؛ فطلبت منه، ممتلئةً رقَّةً وسحراً، ألَّا يستلقي بجانبها قبل أن يغلق الباب. ولأنَّ الفارس رأى في ذلك خدمةً بسيطةً لدرَّةٍ جميلةٍ كهذه، عاد ليغلق الباب؛ وحالما استدار، انفتح الباب مجدَّداً على مصراعيه، وكان كلَّما دفعه ينفتح، واستمرَّ على هذا المنوال في لعبة شدٍّ الحبل هذه، جيئةً وذهاباً، وشدَّاً وجذباً، طوال اللَّيل. وحين بذرت الشَّمس أشعَّتها الذَّهبيَّة في الحقول التي حرثها الفجر، كان قد أمضى اللَّيلة برمَّتها، بطولها وعرضها، يصارع باباً لعيناً، دون أن يتمكَّن من وضع المفتاح فيه. وفوق بلوته هذه، سمع من روزيلَّا محاضرةً طويلةً تتَّهمه فيها بأنَّه لم يكن رجلاً بما يكفي لإغلاق بابٍ، بينما كان يدَّعي أنَّه قادرٌ على فتح صندوق ملذَّات الحُبِّ. وفي النِّهاية، منزعجاً ومرتبكاً وخائباً، ذهب المسكين، برأسٍ ساخنٍ وذيلٍ باردٍ، إلى حال سبيله.

وفي المساء التَّالي، أبرمت موعداً مع بارونٍ آخر، وطلبت منه ألف دوقيَّةٍ وثوباً آخر. فذهب ورهن كلَّ ذهبه وفضَّته لدى اليهود لإرضاء رغبةٍ تأخذ النَّدم إلى قمَّة اللَّذَّة. وحالما غطَّى اللَّيل، كامرأةٍ فقيرةٍ مستحيةٍ، وجهَه بوشاحٍ ليطلب الصَّدقة من الصَّمت، دخل العاشق منزلها. كانت روزيلَّا مستلقيةً، فطلبت منه أن يطفئ الشَّمعة قبل أن يدخل الفراش، فنزع الفارس سيفه وعباءته، وبدأ ينفخ على الشَّمعة. ولكن كلَّما كان ينفخ أكثر، كانت الشَّمعة تتوقَّد أكثر، لأنَّ رياح فمه كان لها فِعْلُ المنفاخ في نار الحدَّاد، فانقضت اللَّيلة كلُّها وهو ينفخ على هذه الحال، ولكي يطفئ شمعةً، ذاب مثل شمعة. وحين ذهب اللَّيل ليختبئ لكيلا يرى حماقات

البشر المختلفة، غادر المخدوع البائس المنزل مثلِ سابقه، مع جرعاتٍ أخرى من الإهانة.

وفي اللَّيلة الثَّالثة، تقدَّم العاشق الثَّالث مع ألف دوقيَّةٍ أخرى استدانها بالرِّبا وثوبٍ آخر اقتناه بالحيلة؛ وبعد أن صعد بهدوءٍ إلى غرفة روزيلَّا، قالت له: "لا أريدُ الذَّهاب إلى الفراش قبل أن أمشِّط شعري". "اسمحي لي بأن أمشِّطه لكِ أنا"، أجاب الفارس، وطلب منها أن تجلس واضعةً رأسها في حضنه، وبينما كان يظنُّ أنَّ الأمر سيكون أشبه بتسريح قطعة قماشٍ فرنسيٍّ، وجد نفسه يفكُّ شعرها المتشابك بمشطٍ من العاج. فكان كلَّما جدَّ أكثر في حلِّ ذلك التَّشابك، تشابكَ الشَّعر أكثر، حتى إنَّه قضى اللَّيل برمَّته دون أن يتمكَّن من التَّقدُّم ولو خطوةً واحدة، ولكي يصفِّف رأساً، اضطرب رأسُه وأوشك أن يضربه بالحائط. وحالما أطلَّت الشَّمس لتصغي إلى الدَّرس الذي تتلوه الطَّير، وأخذت تضرب الجداجد بلسعاتٍ من أشعَّتها لأنَّها لوَّثت مدرسة الحقول، خرج هو الآخر من المنزل بتقريعٍ سخيٍّ آخر، بارداً ومتجمِّداً من الذُّهول.

في تلك الأيَّام، وجد هذا الفارس نفسه يتحدَّث مع الآخرين في غرفة انتظار الملك حيث تحاك المؤامرات، وحيث يُشفَق على الأمِّ التي ابنتها هناك، وحيث تُرَجُّ منافيخ الرِّياء والتَّملُّق، وتُنسَج أقمشة المكائد، وتُلمَس مفاتيح الاغتياب، ويُحَزُّ الجهلُ كالبطِّيخ ليُذاق. وبين هذا الحديث وذاك، روى الفارس ما حدث له والخدعة التي انطلت عليه، فأجابه الثَّاني قائلاً: "اسكت: إن كانت إفريقيا قد بكت، فإنَّ إيطاليا لم تضحك: لقد مررت أنا أيضاً في ثقب الإبرة نفسه، ولكنَّ الحزنَ المشتركَ نصفُ فرحة". وأضاف الثَّالث قائلاً: "أرى أنَّنا جميعاً تلطَّخنا بالسُّخام، ويمكن لكلٍّ منَّا أن يلمس يد الآخر دون أيِّ حسدٍ، لأنَّ هذه الخائنة خدعتنا جميعاً. ولكن لا يجدر بنا أن نبتلع هذه الحبَّة دون بعض

الانتقام: نحن لسنا من صنف أولئك الرِّجال الذين يمكن السُّخرية منهم وحشرهم في كيس. لذا، دعونا نجعل هذه الحلّاقة تندم على فعلتها". وهكذا، مثلوا ثلاثتُهم أمام الملك وأخبروه بالقصَّة.

أرسل الملك في الحال إلى روزيلّا يستدعيها وقال لها: "أين تعلّمتِ هذه الفنون لتحتالي على حاشيتي؟ ربَّما اعتقدتِ أنَّني لن أسجِّلك في سجلِّ العاهرات، أيَّتها الفاجرة، المومس، الزَّانية؟". فأجابت روزيلّا دون أن تغيِّر ملامحها: "ليس ما فعلته سوى ثأرٍ لأذىً ارتُكب بحقِّي من قبل أحد أفراد حاشيتك، مع أنَّني لن أتمكَّن أبداً من فعل أيِّ شيءٍ في العالم يكفي للتَّخفيف من بُرحاء تلك الأذيَّة". حينئذٍ، أمرها الملك أن تخبره عن الأذيَّة التي لحقت بها؛ فحكت له، دون أن تسمِّي الأمير، عن كلِّ ما قامت به في خدمته وكيف أعتقته من العبوديَّة وحرَّرته من الموت وخلَّصته من أخطار ساحرةٍ وأحضرته سليماً معافىً إلى بلده، لتُشكَرَ على ذلك فيما بعد بإدارة الظَّهر وبجبنة الكاتشوكافالّو، الأمر الذي كان إهانةً لمكانتها، هي المرأة الرَّفيعة النَّسب وابنة ملكٍ يبسط نفوذه على العديد من الممالك.

حين سمع الملك هذه القصَّة، دعاها إلى الجلوس بعزَّةٍ وشموخٍ وطلب منها أن تكشف له هويَّة ذلك الباغض والجاحد الذي قام بخداعها. فخلعت خاتماً من إصبعها، وقالت: "ذلك الذي سيذهب إليه الخاتم، سيكون هو الخائن وغير الوفيِّ الذي تخلَّى عنِّي!". وألقت الخاتم فطار ودخل في إصبع الأمير الذي كان واقفاً هناك بلا حراكٍ مثل عمود؛ وفي الحال صعدت قوَّة الخاتم السِّحريَّة إلى رأسه، واستعاد ذاكرته المفقودة، وانفتحت عيناه، وجرى الدَّم في عروقه من جديد، واستيقظت روحه، وهرع ليعانق روزيلّا. ولم يشبع من شدِّ سلاسل روحها، ولم يتعب من تقبيل وعاء بهجته وهو يطلب منها العفو للألم الذي سبَّبه لها.

"لا حاجة إلى طلب الصَّفح - أجابت هي - عن أخطاءٍ لم تفعلها بإرادتك. إنَّني أعرف السَّبب الذي جعلك تنسى روزيلَّا حبيبتك، فاللَّعنة التي ألقتها تلك الرُّوح الضَّائعة، روح أمِّي، لم تبرح عقلي. ولذلك، أنا التي أعتذر منك، وأشعر بالشَّفقة عليك". وأضافت ألف كلمةِ رؤوفٍ أخرى.

وبعد أن عرف الملك نسب روزيلَّا والالتزام الذين يدين لها به لقاءَ المساعدة التي قدَّمتها لابنه، عبَّر عن سعادته بأن يتَّحدا كزوجين، وبعد أن اعتنقت روزيلَّا المسيحيَّة، باركها زوجةً لابنه الأمير، وعاشا أكثر سعادةً من أيِّ زوجين حملا يوماً نيرَ الزَّواج، ورأيا في النِّهاية أنَّه:

إذا قُطِفَت البشملة فجَّةً وقاسية،

فإنَّها، مع الوقت، في القشِّ تنضج.

الحوريَّات الثَّلاث
المؤانسة العاشرة من اليوم الثَّالث

بسبب معاملتها بقسوةٍ من قِبَل زوجة أبيها، تتلقَّى تشيِتْشِلَّا هدايا من ثلاث حوريَّات، فترسل تلك الحسودة ابنتها إلى الحوريَّات، ولكنَّها تعود خائبة. ثمَّ ترسل تشيِتْشِلَّا لتعتني بالخنازير، فيراها سيِّدٌ عظيمٌ ويقع في حُبِّها ويريد أن يتزوَّجها؛ ولكنَّ زوجة أبيها تمكر بها، فتعطيه ابنتها القبيحة بدلاً منها وتضع ربيبتها في برميلٍ لتطهوها بالماء المغلي. يكتشف السَّيِّد الخيانة ويضع في البرميل الفتاة الأخرى. تصل الأُمُّ وتسكب الماء السَّاخن عليها فتسلخ لحمها عن عظمها، وحين تكتشف خطأها، تقتل نفسها.

رُئيَ أنَّ حكاية تشومِّتِلَّا واحدةٌ من أجمل الحكايات التي رُويت حتى الآن، لدرجة أنَّ ياكوفا، حين رأت الجميع خُرْساً من الدَّهشة، قالت بنبرة اعتذار: "لولا أنَّه أمرٌ من الأمير والأميرة، وهما المرفاع الذي يشدُّني والعربة التي تجرُّني، لأحجمت عن ثرثرتي، لأنَّه من الوقاحة، كما يبدو لي، أن أقارن العود المحطَّم لفمي بكمانِ كلمات تشومِّتِلَّا الأجهر. مع ذلك، لأنَّها رغبة الأمير، سأحاول أن أقدِّم لكم مثالاً صغيراً عمَّا نالته من عقابٍ امرأةٌ حسودٌ أرادت أن تُنزِلَ ابنة زوجها إلى الحضيض، فرفعتها بدلاً من ذلك إلى النُّجوم.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، أرملةٌ من قرية مارتشانيزِه، تُدعَى كارادونيا، وكانت كارادونيا هذه أمَّ

الحسد، فلم تكن تطيق أن ترى أحداً من جيرانها ينال خيراً دون أن يعلق ذلك في حلقها، ولا أن تسمع أبداً أنَّ الحظَّ حالف أحداً من معارفها دون أن تتشنَّج؛ كما أنَّها لم تنظر أبداً إلى امرأةٍ مسرورةٍ أو رجلٍ مسرورٍ، دون أن يصيبها الخنَّاق.

كانت لديها ابنةٌ تدعى غرانِّيتسيا، وهذه كانت جوهرَ البلايا، والجُلاقةَ الأولى من الغيلان البحريَّة، وصفوةَ البراميل المتشقِّقة، برأسٍ مُقَمِّلٍ، وشعرٍ أشعث، وصُدغَين أصلعين، وجبهةٍ كالمطرقة، وعينَين جاحظتَين، وأنفٍ مليءٍ بالثَّآليل، وأسنانٍ مُسودَّةٍ، وفمٍ كفمِ سمكة القُشر، وذقنٍ بشكل حافرٍ، وحنجرةٍ كحنجرة العقعق، وثديين كجرابَين، وكتفين كقبَّتَين، وذراعَين كقضيبَي رحى، وساقَين كخطَّافين؛ وباختصارٍ، كانت، من رأسها إلى أخمص قدميها، عفريتةً قبيحةً، طاعوناً خالصاً، كابوساً حقيقيَّاً، وفوق ذلك كلِّه، كانت قزمةً، بطَّةً قبيحةً، مسخاً؛ ومع هذا كلِّه، الخنفساء في عين أمِّها وجهٌ صَبُوحٌ.

وحدث الآن أنَّ هذه الأرملة المصون تزوَّجت شخصاً يُدعَى ميكُّو أنطوُونو، وهو مزارعٌ غنيٌّ من بانيكوكولي، وكان مأمورَ تلك البلدة ورئيسَ بلديَّتها لمرَّتين متتاليتَين، وكان يحظى بتقديرٍ كبيرٍ من قِبَل جميع البانيكوكوليِّين الذين كانوا يحسبون له ألف حساب. وكان لميكُّو أنطوُونو، بدوره، ابنةٌ اسمها تشِيتْشِلَّا لم ترَ عينٌ جميعَ الدَّهر مخلوقاً أجمل وأروع منها. كانت لها مقلتان فتَّانتان تخلبان لبَّ النَّاظر، وثغرٌ شهيُّ القُبَلِ يرميك في بُحران النَّشوة، وعنقٌ أبيض كالحليب يقطع أنفاسَ الأنام؛ وباختصارٍ، كانت مليئةً بالعصير، وشهيَّةً، ولَعوباً، وساحرةً، وكان في حركاتها الكثير من الدَّلال والغُنج والفتنة التي تخطف القلوب من الصُّدور. ولكن ما الغاية من كلِّ هذه الكلمات؟ يكفي أن نقول إنَّها كانت أشبه بلوحةٍ مرسومةٍ بالفرشاة، لأنَّك، إن فحصتها عن كثبٍ، لن تجد فيها عيباً واحداً.

وحين رأت كارادونيا أنَّ تشيتْشِلّا، بالمقارنة مع ابنتها، تبدو كوسادةٍ مخمليَّةٍ بجوار منشفة مطبخٍ، وكمرآةٍ من البندقيَّة بجوار قعر طنجرةٍ مُتَّسخة، وكالجنِّيَّة مورغانا أمام حيزبونٍ شمطاء، بدأت تنظر إليها بتجهُّمٍ والغُصَّة في حلقها. ولم يقف الأمر عند هذا الحدِّ، فبعد أن انفقأ الخُرَّاجَ في قلبها، لم تعد تحتمل البقاء معلَّقةً على الحبل، فبدأت تعذِّب الفتاة المسكينة جهاراً. كانت تُلبس ابنتها تنُّورةً من الجاكار وصدريَّةً من الحرير، وابنةَ زوجها أردأ الخرق والأسمال الموجودة في المنزل؛ وكانت تعطي ابنتها خبز السَّميد الأبيض، وابنةَ زوجها خبزاً متيبِّساً ومتعفِّناً؛ وكانت تُبقي ابنتها مكتوفة اليدَين كما لو كانت كأس المخلِّص[1]، وتُلزم ابنة زوجها بالصُّعود والهبوط لتكنُس البيت، وتنظِّف الأطباق، وترتِّب الأسرَّة، وتغسل الملابس، وتَعْلِفَ الخنازير، وتعتني بالحمار، وتُفرِغ إناءَ اللَّيل. وكانت الفتاة الطَّيِّبة تقوم بكلِّ هذه الأشياء بهمَّةٍ ومثابرةٍ وتنجزها بعنايةٍ كبيرةٍ، ولا تألو جهداً في سبيل إرضاء زوجة أبيها الشِّرِّيرة.

وشاء الحظُّ الطَّيِّب أن تخرج المسكينة في أحد الأيَّام من المنزل لترمي القمامة عند جرفٍ شاهقٍ، فسقطت من يدها السَّلَّة؛ وبينما كانت تبحث هنا وهناك وتفكِّر في طريقةٍ لاسترجاعها من ذلك القعر، إذا بها تلمح شيئاً – ما هو؟ ما هو؟ – لقد رأت شيئاً قبيحاً لم تعرف أكان نسخةً من إيسوب أم من الشَّحَّاذ القبيح[2]. كان غولاً بشعرٍ أسود فاحمٍ كهُلَب الخنزير، يغطِّيه حتى الكعبين. جبينه متجعِّدٌ، وكلُّ طيَّةٍ من طيَّاته تشبه ثلماً شُقَّ بمحراثٍ؛ وحاجباه كثيفان ومتلاصقان؛ وعيناه غائرتان ومليئتان بذلك الشَّيء[3] فكانتا

1) أي الكأس التي شرب بها السَّيِّد المسيح خلال العشاء الأخير؛ (المترجمان).

2) الشَّيطان؛ (كروتشِه).

3) القذى، أي ما يتكوَّن من إفرازات بيضاء تتجمَّع في مجرى الدَّمع من العين، والرَّاوية تتفادى ذكرها لأنَّها ترى أنَّها كلمةٌ ليس من اللَّائق لفظها في حضرة الأمير؛ (المترجمان).

تبدوان مثل حانوتين قذرَين تحت نتوءين كبيرين من الجفون؛ وفمُه ملتوٍ يسيل منه اللُّعاب ويبرز منه نابان كنابيَ خنزيرٍ بريٍّ؛ وصدرُه كلُّه ثآليل في غابةٍ من الشَّعر الذي يمكن أن يُحشى به فراشٌ كاملٌ؛ وفوق ذلك كلِّه، كان عالي الحدبة، كبير البطن، رفيع السَّاقين، معوجَّ القدمين؛ بحيثُ يجعلك تلوي فمك من الخوف.

كانت تشِيتْشِلَّا قد توقَّعت كلَّ شيءٍ إلَّا رؤية ظلٍّ شرِّيرٍ يبعث على الرُّعب، فاستجمعت قواها، وقالت له: "أيُّها الرَّجل الطَّيِّب، ناولني هذه السَّلَّة التي سقطت منِّي، وليرزقك الرَّبُّ زوجةً كثيرة المال!". فأجابها الغول: "تعالي إلى هنا يا فتاتي وخذيها بنفسك". فراحت الفتاة الطَّيِّبة تتشبَّث تارةً بالجذور وتارةً بالحجارة وجاهدت حتى وصلت إلى الأسفل. فماذا وجدت في قعر الهاوية؟ ثلاث حوريَّاتٍ، كلُّ واحدةٍ منهنَّ أجمل من الأخرى. شَعرٌ منسوجٌ من خيوط الذَّهب، ووجوهٌ كالبدر، ولِحاظٌ نواطق، وشفاهٌ تستدعيك، وفقاً لشروط عقدٍ، لترضيهنَّ بشهيِّ القُبَل. ماذا أيضاً؟ عنقٌ بضٌّ، ونهدان ناعمان، ويدان رخصتان، وقدمان طريَّتان، وباختصارٍ، سحرٌ يحيط كإطارٍ تشريفيٍّ بكلِّ هذا الجمال.

أحاطت الحوريَّات تشِيتْشِلَّا بكثيرٍ من المداعبات والملاطفات التي لا يمكن تخيُّلها؛ ثم أخذنها من يدها وسرن بها إلى منزلهنَّ، في كهفٍ يمكن لملكٍ متوَّجٍ أن يعيش فيه، وأجلسنها على سجاجيد تركيَّةٍ ووسائد مخمليَّةٍ وثيرةٍ مزيَّنةٍ بشرائط من القنَّب. ثمَّ وضعن، واحدةً تِلْوَ الأخرى، رؤوسهنَّ في حضن تشِيتْشِلَّا وطلبن منها أن تسرِّح شعرهنَّ، وبينما هي تقوم بعملها، بمشطٍ برَّاقٍ من قرن جاموسٍ، كنَّ يسألنها: "أيَّتها الفتاة الجميلة، ماذا تجدين في هذا الرَّأس الصَّغير؟". وبلطفٍ كبيرٍ كانت تجيب: "أجد فيه صِئباناً ولآلئ وعقيقاً".

أُعجبت الحوريَّات بتهذيب تشِيتْشِلَّا، وحالما انتهين من ضفر شعرهنَّ

الذي كان محلولاً، قدنها في جولةٍ برفقتهنَّ وأرينها، خطوةً فخطوة، العجائب التي كانت في ذلك القصر المسحور: صناديق مُطعَّمةٌ بخشب الكستناء والشَّرْد ومغطَّاةٌ بجلد الحصان مع مقابض من القصدير؛ وطاولاتٌ من خشب الجوز، مصقولةٌ كالمرايا؛ وخزائن مع صفوفٍ من الأواني والصُّحون تبهر العيون؛ وستائر من سندسٍ أخضر مُدَمْقَسٍ بالزُّهور؛ وكراسٍ جلديَّةٌ بمساند للظَّهر؛ والكثير الكثير من مظاهر البذخ والتَّرف التي لو رآها أيُّ شخصٍ آخر لجمدَ في مكانه مسحوراً. ولكنَّ تشِيتْشِلَّا، كما لو أنَّ الأمر لا يعنيها، كانت تتأمَّل روعة ذلك القصر دون أن تصرخ من الدَّهشة، ودون آه! وأوه! كما كان فلَّاحٌ جلفٌ ليفعل.

وفي النِّهاية، أدخلنها غرفة ملابس مكتظَّةً بالثِّياب الفاخرة، وأرينها فساتين إسبانيَّةً موشَّاةً بخيوط الفضَّة، وأثواباً بأكمامٍ فضفاضةٍ من المخمل المقصَّب بخيوط الذَّهب، ومفارشَ من دِمَقْسٍ مزيَّن بمجوهراتٍ مطليَّةٍ بالمينا، وعباءاتٍ من التَّفْتَة المتموِّجة، وعصائبَ رأسٍ نسائيَّةٍ من الزُّهور الطَّبيعيَّة، وحِليَ على شكل أوراق بلُّوطٍ وأصدافٍ وأهِلَّةٍ وألسنة ثعابين، وقلائدَ عريضةً تتدلَّى منها قطعٌ من الزُّجاج الفيروزيِّ والأبيض، وسنابلَ قمحٍ وزنابقَ وأرياشاً توضع على الرَّأس، ومجوهراتٍ مطليَّةً ومرصَّعةً بالفضَّة، وألفَ زينةٍ وحليةٍ أخرى ممَّا يُجعَل في العنق؛ وقالوا لها أن تختار ما يحلو لها وأن تأخذ ممَّا رأت حفناتٍ وحثوات.

ولكنَّ تشِيتْشِلَّا كانت متواضعةً كالزَّيت، فأعرضت عن الأشياء الثَّمينة، وأخذت تنُّورةً متهرِّئةً لا تساوي ثلاثة قروش. وحين رأت الحوريَّات ما فعلته، سألنها: "من أيِّ بابٍ تريدين الخروج، أيَّتها الطِّفلة الصَّغيرة؟". فانحنت عليهنَّ حتى كادت تلامسهنَّ جميعاً، ثمَّ قالت: "يكفيني أن أخرج من باب الإسطبل". حينئذٍ، عانقتها الحوريَّات وقبَّلنها ألف مرَّةٍ، ثم ألبسنها ثوباً رائعاً موشًّى بالكامل بخيوط الذَّهب، وسرَّحن شعرها على الطَّريقة

الأسكتلنديَّة، مع كثيرٍ من الأشرطة والشَّراريب، حتى بدت كمرجٍ مزهرٍ، ووضعن على رأسها قنزعةً محشوَّةً ومزيَّنةً بأشرطةٍ مجدولة؛ ثمَّ رافقنها إلى الباب الذي كان من الذَّهب الخالص مع إطارٍ مرصَّعٍ بالياقوت. وهناك قلن لها: "اذهبي يا تشيتْشِلاَّ العزيزة، عسى أن نراك متزوِّجةً وسعيدةً، وحين تمرِّين عبر ذلك الباب، ارفعي عينيكِ وانظري ماذا يوجد في الأعلى".

أظهرت لهنَّ الفتاة ما يستحققنه من احترامٍ، ومشت؛ وحين أصبحت تحت قوس ذلك الباب رفعت رأسها، فسقطت نجمةٌ ذهبيَّةٌ على جبينها، وكانت شيئاً في غاية الجمال. وهكذا، بعدما ترصَّعت، مثل حصانٍ، بالنَّجمة، ذهبت إلى زوجة أبيها زاهيةً وأنيقةً وأخبرتها بكلِّ ما حصل معها، من الألف إلى الياء. ولكنَّ القصَّة كانت ضربةً قاصمةً على رأس المرأة الحسود التي استولى عليها الاضطراب، وسرعان ما طلبت منها أن تدلَّها على مكان الحوريَّات، وأرسلت ابنتها المسخ إلى هناك.

وصلت الابنة إلى القصر المسحور والتقت الحوريَّات المشعشعات غبطةً، وحين طلبن منها أن تسرِّح شعرهنَّ، سألنها ماذا وجدت هناك، فأجابت: "وجدت قملاً، كلُّ قملةٍ بحجم حبَّة الحمِّص، وصئباناً، كلُّ صؤابةٍ بحجم ملعقة". امتلأت الحوريَّات غضباً وحنقاً من الأسلوب الفظِّ لتلك الفلَّاحة القبيحة، ولأنَّ اليوم السَّيِّئ يُعرف من الصَّباح، قدنها، ولو تكلُّفاً، إلى غرفة الأشياء الفاخرة، وقلن لها أن تختار الأفضل. وإذ رأت غرانِّيتسيا أنَّهنَّ يقدِّمن لها إصبعاً، أخذت اليد كلَّها، فتلقَّفت أجمل عباءةٍ بغطاء رأسٍ وببطانةٍ مفرَّاةٍ وجدتها في تلك الخزائن. فأصيبت الحوريَّات، إذ رأين هذه الفظاظة، بالدَّهشة، ولكن مع ذلك، أردن أن يعرفن إلى أيِّ حدٍّ يمكن أن تصل وقاحتها، فسألنها: "من أيِّ بابٍ تودِّين الخروج، أيَّتها الفتاة الجميلة؟ من الباب الذَّهبيِّ أم من باب البستان؟"، فأجابت بوجه حشرةٍ: "من أفضل ما لديكنَّ من أبواب".

وبسبب غطرستها، لم تمنحها الحوريَّات ولو رشَّة ملح، وصرفنها مع التَّعليمات نفسها: "حين تمرِّين عبر باب الإسطبل، ارفعي رأسك إلى السَّماء وشاهدي ماذا ستنالين". وحالما خرجت من بين الرَّوث ورفعت رأسها تحت قوس الباب، سقطت على جبينها خصيةُ حمارٍ، فالتحمت بالجلد وبدت وحمةً انتابت أمَّها حين كانت حاملاً بها.

مع هذه الهبة الجميلة، بطيئةً كحلزونٍ، عادت غرانِّيتسيا إلى أمِّها كارادونيا التي ما إن رأتها وسمعت قصَّتها حتى فار الزَّبد في فمها، ومسعورةً مثل كلبةٍ أنجبتْ لتوِّها، أمرت تشِيتْشِلَّا بخلع ملابسها على الفور، ثمَّ لفَّتها بقطعة قماشٍ قذرةٍ وأرسلتها لتعتني بالخنازير، وألبست ابنتها ثياب تشِيتْشِلَّا. وبهدوءٍ كبيرٍ وبصبرٍ شبيهٍ بصبر أورلاندو، تحمَّلت تشِيتْشِلَّا الحياة الحزينة التي ابتُلِيَت بها. يا للقسوة التي تثير رأفة حجارة الطَّريق! أنْ يُرغَمَ ذلك الفم، الذي يليق به أن ينطق بكلمات الحبِّ، على النَّفخ في البوق والصِّياح: "تشيكُّو-تشيكُّو، إنتسه-إنتسه!"[1]؛ وأن يوضع ذلك الجمال بلا وجه حقٍّ بين الخنازير؛ وأن تهشَّ تلك اليد، التي تستحقُّ أن تسحب رسن مِائة روح، على مِائة خنزيرةٍ بالعصا: ألف لعنةٍ على تلك الرُّوح الشِّرِّيرة التي أرسلتها إلى تلك الغابات، حيث الخوف والصَّمت يتَّقيان الشَّمس تحت سقف الظِّلال!

ولكنَّ السَّماء، التي تدوس المتغطرسين وترفع من شأن المتواضعين، أرادت أن يمرَّ رجلٌ رفيع المكانة، يُدعَى كوزيمو، من هناك؛ وهذا، حين رأى تلك الجوهرة بين الأوحال، تلك العنقاء بين الخنازير، تلك الشَّمس المشرقة بين تلك الأسمال، اعترته دهشةٌ عظيمةٌ، فأرسل يسأل من هي وأين تسكن. وما إن وصلته الأخبار حتى قدَّم نفسه إلى زوجة الأب وطلب منها يد الفتاة، واعداً إيَّاها بمهرٍ قدره ألف دوقيَّة.

1) كلماتٌ لا معنى لها تُستخدَم لزجر الخنازير؛ (المترجمان).

وضعت كارادونيا في الحال عينها على هذه الصَّفقة وهي تفكِّر بابنتها؛ ولذلك ردَّت على كوزيمو بأن يعود في اللَّيل لأنَّها كانت تريد، في تلك الأثناء، دعوة أقاربها. انصرف كوزيمو مبتهجاً، وبدت له كلُّ ساعةٍ ألف سنةٍ قبل أن تأوي الشَّمس إلى سريرٍ من الفضَّة أعدَّه لها نهر الهند، ليأوي، هو الآخر، مع تلك الشَّمس التي تحرق قلبه، إلى سريره. وفي تلك الأثناء، حشرت زوجةُ الأب تشِيتْشِلاَّ في برميلٍ، وقد عقدت العزم على غليها؛ ولأنَّها كانت قد قصَّرت في رعي الخنازير، أرادت أن تسلقها بالماء السَّاخن كما تفعل عادةً بلحم الخنزير.

كانت الظُّلمة قد احلولكت، وأصبحت السَّماء بلون فم الذِّئب، حين توجَّه كوزيمو، الذي كان يكابد بُرَحاء الانتظار ويموت شوقاً إلى إراحة قلبه الولهان بعناق الجمال المبتغى، بابتهاجٍ كبيرٍ إلى منزلها وهو يردِّد: "هذا هو الوقت المناسب للذَّهاب وحَزِّ الشَّجرة التي زرعها إله الحُبِّ في هذا الصَّدر ليتدفَّق مَنُّ حلاوة الغرام منها! إنَّه الوقت المناسب لاستخراج الكنز الذي وعدني به الحظُّ! لذلك، لا تُضِعْ وقتاً يا كوزيمو: فحين يُعرَضُ عليك الخِنُّوص، اهرع إليه بالحبل! آه أيُّها اللَّيل، آه أيُّها اللَّيل السَّعيد، آه يا صديق العشَّاق، آه أيَّتها الرُّوح والجسد، آه يا قِدْرَ ومغرفة إله الحُبِّ، اهرع، اهرع إليَّ حتى أستطيع تحت ستار ظلالك أن أحمي نفسي من القيظ الذي يهلكني!".

بهذه الأفكار وصل كوزيمو إلى منزل كارادونيا، وبدلاً من أن يجد تشِيتْشِلاَّ، وجد غرانِّيتسيا، وجد بومةً حظيرةٍ بدلاً من حسُّون، وبَقْلَةً حمقاء بدلاً من وردةٍ متفتِّحة، ومع أنَّها كانت قد ارتدت ملابس تشِيتْشِلاَّ، ومع أنَّ المثل الشَّائع يقول: "البسْ لباساً فاخراً، تبدُ بارونا"، مع ذلك كلِّه، بدت مثل صرصارٍ في فستانٍ مذهَّب؛ فلا الخِضاب ولا المساحيق ولا الجلوُ والتَّنعيم الذي أجرته أمُّها لها تمكَّن من نزع القشرة من رأسها، والصَّديد

من عينيها، والنَّمش من وجهها، والأوساخ من أسنانها، والبصل من حلقها، والبثور من صدرها، والقذارة من كعبيها، وكانت أنفاسها المُنْتِنة تُشَمُّ من مسافة ميلٍ كاملٍ.

لم يفهم العريس، حين رأى هذه الهيئة، شيئاً ممَّا يحدث؛ وتراجع إلى الخلف كما لو أنَّ إبليس ظهر أمامه، وقال في نفسه: "هل أنا يقظٌ أم أنَّ عينَيَّ قد احولَّتا؟ هل أنا أنا، أم لست أنا؟ ماذا أرى؟ آه يا كوزيمو البائس، لقد تحطَّم قاربك! هذا ليس الوجه الذي أخذ بخِناقي هذا الصَّباح؛ هذه ليست الصُّورة التي انطبعت في قلبي. ماذا يعني هذا، أيُّها الحظُّ؟ أين، أين الجمال، أين الخطَّاف الذي أمسك بي، أين الرَّافعة التي سحبتني، أين السَّهم الذي اخترقني؟ كنت أعرف جيِّداً أنَّ النِّساء والكتَّان لا يمكن الحكم عليهما في ضوء الشُّموع، ولكنَّني هذه المرَّة اشتريت في وضح النَّهار. واحسرتاه، ذَهَبُ هذا الصَّباح تحوَّل في المساء إلى نحاسٍ، والألماسُ إلى زجاج!".

تلك كانت بضع كلماتٍ من شكاياتٍ كثيرةٍ غمغمها من بين أسنانه؛ مع ذلك، في النِّهاية، مُكرَهاً بحكم الواجب، قبَّل غرانِّيتسيا، ولكن كما لو أنَّه يقبِّل أصيصاً قديماً، لأنَّه قرَّب وبعَّد شفتيه أكثر من ثلاث مرَّاتٍ قبل أن يلمس خطم العروس التي بمجرَّد اقترابه منها بدا له أنَّه في ميناء كيايا، في مساءٍ من تلك المساءات التي تحمل فيها تلك النِّسوة المرموقات إلى البحر إتاوتهنَّ التي تختلف تماماً عن عطور شبه الجزيرة العربيَّة. ولأنَّ السَّماء، في تلك الأثناء، لكي تبدو شابَّةً من جديدٍ، كانت قد صبغت شعرها الأبيض باللَّون الأسود، ولأنَّ أرض هذا السَّيِّد كانت بعيدةً جدَّاً، اضطرَّ إلى أن يأخذ عروسه إلى منزلٍ غير بعيدٍ عن حدود بانيكوكولي، حيث وضع نضيدةً من التِّبن فوق صندوقين ونام معها.

ولكن من يستطيع أن يصف اللَّيلة السَّيِّئة التي أمضياها هو وهي على

حدٍّ سواء؟ فمع أنَّ الفصل كان صيفاً واللَّيلُ لا ينشر أجنحته لأكثر من ثماني ساعات، بدت لهما اللَّيلة أطول من أطول ليالي الشِّتاء. فالعروس، من جهتها، لم تهدأ لحظةً، فكانت تسعل، وتُخرج النُّخامة، وتركل، وتتنهَّد، وبكلماتٍ خرساء كانت تطلب إيجار المنزل المستأجر؛ أمَّا كوزيمو فكان يتظاهر بالشَّخير، وكان قد انسحب بقدر استطاعته إلى حافَّة السَّرير لكيلا يلمس غرانِّيتسيا، إلى أن سقط على المِبْوَلة، وانتهى ملطَّخاً بالخزي والصُّنَان.

آه كم مرَّةً لعن العريس أجداد الشَّمس[1] التي كانت تماطل في المجيء لتتركه أطول فترةٍ ممكنة تحت ذلك المِكْبَس! آه كم صلَّى أن يسقط اللَّيل في هوَّةٍ ويحطِّم عنقه، وأن تغرق النُّجوم ليبزغ نهارٌ جديدٌ يستطيع معه أن يبرح جانبَ ذلك الكابوس!

ولكن لم تكد غزالةُ الضُّحى تخرج لتطارد الدَّجاجات وتوقظ الدُّيوك حتى قفز كوزيمو من الفراش وارتدى بسرعةٍ سرواله وهرع إلى منزل كارادونيا ليتخلَّى عن ابنتها ويسدِّد لها ثمن ما تذوَّقه بعصا المكنسة. لم يجدها حين دخل، لأنَّها كانت قد ذهبت إلى الغابة لجمع حزمةٍ من الحطب بغيةَ وضع الماء على النَّار وسلق ابنة زوجها التي كانت حبيسةً داخل قبر باخوس[2]، وهي التي تستحقُّ أن تستلقي في مهد إله الحُبِّ.

بحث كوزيمو عبثاً في البيت عن كارادونيا، وحين رأى أنَّها اختفت، أخذ يصيح: "ها سيِّدتي، أينَ أنتِ؟". وإذا بقطٍّ مرقَّطٍ، نائمٍ في الرَّماد، يرسل صوتاً: "مياو، مياو! زوجتك داخل برميلٍ مغلقٍ ومُسمَّر! مياو، مياو!". اقترب كوزيمو من الدَّنِّ وسمع أنيناً عميقاً وواهناً، وفي الحال، تناول فأساً

1) في جنوبي إيطاليا لم تكن اللَّعنات توجَّه إلى الشَّخص نفسه، بل إلى عائلته أو أجداده؛ (المترجمان).

2) دنُّ الخمر؛ (المترجمان).

كانت معلَّقةً بجانب الموقد، وحطَّم الدَّنَّ، فبدا سقوط أضلاعه كسقوط ستارة مشهدٍ تتقدَّم فيه إلهةٌ لتتلو المقدِّمة الشِّعريَّة.

لا أعرف كيف أنَّ كوزيمو، أمام كلِّ هذه الرَّوعة، لم يسقط ميِّتاً فجأة؛ ولكنَّه بقي لفترةٍ من الوقت مثل شخصٍ رأى النَّاسك القزم، ثمَّ استعاد وعيه وهرع لاحتضان تشِيتْشِلَّا وهو يستنطقها بقلقٍ: "من وضعكِ في هذا المكان البائس، يا جوهرة قلبي؟ من خبَّأكِ منِّي، يا أمل حياتي؟ ما هذا الذي أرى؟ الحمامة اللَّطيفة في قفصٍ من حلقات؟ بينما إلى جانبي، بدلاً منها، نسرٌ أسمر؟ كيف حدث ذلك؟ تكلَّم أيُّها الثَّغر العذب؛ واسِ هذه الرُّوح، بُحْ بما في هذا الصَّدر!".

أخبرته تشِيتْشِلَّا بكلِّ ما حدث، دون إغفال ذرَّةٍ واحدةٍ. أخبرته كم عانت في الماضي في المنزل منذ اليوم الذي قدمت فيه زوجة الأب، تدريجيَّاً حتى اللَّحظة التي دفنتها فيها في دنِّ الخمر لإنهاء حياتها. استمع كوزيمو إليها، ثمَّ خبَّأها خلف الباب، وبعد أن أعاد الدَّنَّ إلى ما كان عليه، ذهب لإحضار غرانِّيتسيا وحشرها بداخله، قائلاً لها: "ابقَي هنا لبعض الوقت، وسأقوم في هذه الأثناء بتحضير تعويذةٍ لكيلا تنال منك عيون الشَّرِّ". ثمَّ عانق تشِيتْشِلَّا وأركبها على حصانٍ ومضى بها إلى باسكارولا، التي كانت أرضه.

حين عادت كارادونيا مع حزمةٍ كبيرةٍ من الحطب، أشعلت ناراً هائلةً ووضعت فوقها سخَّانة ماءٍ كبيرةً؛ وحالما بدأ الماء بالغليان، سكبته عبر ثقب الدَّنِّ، فجرَّدت من اللَّحم عظامَ ابنتها التي صرَّت بأسنانها كما لو أنَّها أكلت عشبة الحوذان السَّردينيِّ، وانسلخ جلدها كما ينسلخ جلدُ الأفعى. وحين أيقنت أنَّ تشِيتْشِلَّا لاقت حتفها، حطَّمت الدَّنَّ، فرأت (ويحَ قلبها ممَّا رأت! ويحَ قلبها ممَّا عرفت!) ابنتها مطهيَّةً من قِبَل أمٍّ قاسية. عندئذٍ، نتَّفت شعرها، وخدَّشت وجهها، ولطمت صدرها، وضربت كفَّاً بكفٍّ،

ونطحت الجدار برأسها، وخبطت الأرض بقدميها، وندبت وناحت حتى سمعها كلُّ سكَّان البلدة. وبعد أن قالت وفعلت أشياء لا تخطر على بال بشر، بحيثُ لم تكفِ مواساةٌ لتهدئتها ولا نصيحةٌ لتخفيف مصيبتها، هرعت إلى بئرٍ، وألقت بنفسها فيها، ورأسها إلى الأسفل، فاندقَّت عنقها، مبرهنةً بذلك على صحَّة ذلك القول المأثور:

من يبصقْ نحو السَّماء، إلى وجهه يَعُدِ البُصاق.

ما إن انتهت هذه الحكاية حتى اندفع كلٌّ من كولا ياكوفو وجالليزه، الأوَّل طبَّاخٌ والآخرُ وكيلُ مؤونةِ القصر، إلى المشهد ليُلقيا أمام الحضور، بأمرٍ من الأمير، المشهد الرَّعويَّ التَّالي، وقد ارتديا زيّاً نابوليتانيّاً قديماً.

الموقد[1]
مشهد من الأدب الرَّعويِّ

جالليزِهْ وكولا ياكوفو

جالليزِهْ: مرحباً بك، يا كولا ياكوفو!
كولا ياكوفو: مرحباً بك، يا جالليزِهْ!
أخبرني، من أين أنت قادم؟
جالليزِهْ: من الحمَّام.
كولا ياكوفو: من الحمَّام، في هذا القيظ القائظ؟
جالليزِهْ: كلَّما اشتدَّ الحَرُّ،
كان أفضل!
كولا ياكوفو: ولا تلقى حتفك؟
جالليزِهْ: يا صاحبي، سألقى حتفي، إن لم أذهب!
كولا ياكوفو: وما المتعة التي تجدها هناك؟
جالليزِهْ: متعة التَّخفيف
من معاناة هذا العالم،
حيث كلُّ ما يمكنك فعله هناك هو أن تنتفخ[2]
لأنَّ كلَّ شيءٍ اليوم صار ملتوياً.
كولا ياكوفو: أعتقد أنَّك تسخر منِّي:
هل تظنُّني غبيَّاً،

---

1) في الأصل Stufa، وتعني بالإيطاليَّة "موقد" و"ملل"، حسب موقعها في الجملة، وكانت تعني في تلك الحقبة "حمَّام عام" أيضاً يقصده السَّادة والسَّيِّدات من طبقة النُّبلاء؛ (كروتشِه).

2) من الغضب؛ (كروتشِه).

ولا أعرف كيف أصطاد في المياه العميقة؟
ما علاقة الحمَّام بالعالم؟
جالليزهْ: تحسبُ أنَّك تصطاد عميقاً، ولكنَّك لا تصطاد شيئاً على الإطلاق!
هل تظنُّ أنَّني أكلِّمك
عن ذلك الحمَّام الذي تُحشَر فيه
داخل غرفةٍ ضيِّقةٍ
لتختنق وتفطس من الحَرِّ؟
لا ثمَّ لا؛ أنا أتكلَّم عن
ذلك الذي مجرَّد التَّفكير فيه
يزيل نصف تعاسات
هذه الحياة القاسية،
لأنَّ ما تراه عيناي يجعل مرارتي تتورَّم.
كولا ياكوفو: إنَّني أسمع شيئاً جديداً،
إنَّك تذهلني،
وأيمُ الله ما أنت بأحمق كما يبدو لي!
جالليزهْ: فلتعلم إذاً
أنَّ ثمَّة حمَّاماً في هذا العالم
يُصَبُّ فيه الخير والشَّرُّ على السَّواء.
امتلك من المسرَّات والمتع حمولةَ براميل،
ومن العظمة مثلَ صدر حصان[1]،
ولكنْ كلُّ شيءٍ يُشعرك بالملل ويُزعجك:
ولِأُثبتَ لك صحَّة ذلك، افتح أذنيك وأصغِ،

1) قويّةٌ مثل صدر الحصان، ومبهجةٌ مثل سرجه ولجامه؛ (كروتشِه).

ولتُعَزِّ النَّفس
بحقيقة أنَّ كلَّ مسرَّةٍ بشريَّةٍ وكلَّ تسليةٍ
آيلٌ هذا المآل.
كولا ياكوفو: إنَّك تستحقُّ جائزةً على هذا!
تابع إذاً، فأنا أنتظرك فاغرَ الفم.
جالليزهْ: هَبْ أنَّك ترى، مثلاً،
صبيَّةً جميلةً،
فتستميلُ قلبَك،
فتبعث إليها خاطباً
يُباحثها في أمر الزَّواج؛
فتتَّفقان، وتبعثان في طلب كاتب العدل
ليصوغ العقدَ.
تقفز عالياً وتقبِّل العروس
الغارقة في مظاهر الفخفخة والبهرجة؛
وأنت أيضاً مثل أميرٍ
تدشِّن بدلةً أنيقة،
ويتوافد العازفون،
وتُقام الولائم وحفلات الرَّقص؛
وباختصارٍ، تنتظر تلك اللَّيلة
بشوقٍ أكبر
من شوق البحَّار إلى الرِّياح،
والمحامي إلى النِّزاع،
والنَّشَّال إلى الازدحام
والطَّبيب إلى الدَّاء.

ثمَّ يُقبِلُ اللَّيل،
ليلٌ نذيرُ شؤمٍ،
ليلٌ جنائزيٌّ يلبسُ الحِدادَ،
لأنَّ حرِّيَّتك، أيُّها البائس، قد ماتت!
تحتضنك زوجتك بذراعيها،
وأنت لا تعرف أنَّها سلاسل سجن!
ولكنَّ هذه المداعبات والملاطفات،
هذه التَّنهُّدات ورقَّة الكلمات
لا تدوم أكثر من ثلاثة أيَّامٍ:
فقبل حلول اليوم الرَّابع
تُصاب فجأةً بالملل،
وتشتم اليومَ الذي فاتحتها فيه في الأمر،
وتلعن ألف مرَّةٍ
من كان السَّبب في ذلك. وإن فتحت المسكينةُ فمَها،
فَهِمْتَ كلامَها بطريقةٍ خاطئةٍ،
فتمدُّ لها خطمك وتنظر إليها عابساً؛
وإن ذهبتما إلى السَّرير تمثَّلْتَ لها بالنَّسر ذي الرَّأسين[1]؛
وإن قبَّلتكَ نفرتَ عنها؛
وليس ثمَّة أملٌ بأيِّ بهجةٍ في ذلك المنزل.
كولا ياكوفو: بستانيٌّ عاثرُ الحظِّ الرَّجلُ الذي يتزوَّج!
يزرع المسرَّة ليلةً واحدةً فحسب،
ثمَّ يحصد التَّعاسةَ ألفَ نهار.
جالليزِهْ: ويرى الأبُ الآن

1) أي يدير لها ظهره، مثل النَّسر ذو الرَّأسين في شعار إمبراطوريَّة هابسبورغ؛ (كروتشِه).

ميلادَ طفلٍ صغيرٍ:
آه يا للبهجة، يا للمتعة!
فيلفُّه على الفور
بألحفةٍ من قطنٍ وألحفةٍ من حرير،
وكما لو كان مهباجاً
يُزيِّنه ويعلِّق
أشياء كثيرةً في عنقه:
أسنانَ ذئبٍ وتيناً وأهِلَّةً،
مرجاناً وتعاويذ وخَنَانيص،
فيبدو صورةً طبق الأصل من بائعٍ متجوِّلٍ
يبيع شتَّى الأشياء في الشَّوارع؛
يجدُ له مرضعةً؛
وعيناه لا تريان سواه؛
وطوال الوقت يناغيه:
"كيف حالك يا طفلي الجميل؟
أنا أحبُّك كثيراً!
يا بؤبؤ عين البابا
وروح الماما!".
وبينما هو يحدِّق فيه بذهولٍ
فاغرَ الفم
مستمعاً إلى "إغ إغ" و"بب بب"،
إذا به يتلقَّى ملء حضنه ما أفلت من أمعائه!
وفي أثناء ذلك ينمو الصَّبيُّ بسرعةٍ كعشبةٍ ضارَّةٍ
ويتفتَّح مثل القنَّبيط الأخضر:

يرسله إلى المدرسة
ويُنفق عليه الكرز الحلوَ والحامض؛
وحين يأمل
أن يراه طبيباً،
ها هو يفلت من بين يديه،
ويسير في طريق الضَّلال،
فيعاشر المومسات،
ويخالط اللُّصوص،
ويشكِّل عصاباتٍ، ويدخل في مشاجراتٍ، ويتبادل الضَّربات،
ويتعارك مع الحلَّاق وكاتب العدل؛
فيضيق به ذرعاً بسبب ذلك،
ويطرده أو يلعنه،
أو لكي يعيد ذلك الدِّماغ البائس
إلى الطَّريق القويم
يلقي به سجيناً في إحدى القلاع[1].
كولا ياكوفو: ولكن ما فائدة السِّجن؟ الابن العاقُّ
الذي يتغيَّر تماماً كأطوار القمر
يكبر ليجدِّف بالمجداف أو ليتدلَّى من حبلٍ[2]!
جالليزِه: ماذا تريد أكثر؟ حتى الأكل،
وهو أمرٌ لا غنى عنه في الحياة،
يمكن أن يصبح مُزعجاً.
املأ معدتك جيِّداً،

1) كان الأولاد السَّيِّئون يُحبَسون في سجون القلاع بطلبٍ من ذويهم؛ (كروتشِه).

2) أي ليحرِّك المجداف في سفينة السُّجناء أو ليُشنَق؛ (المترجمان).

التهِمْ، ابتلعْ، ازدرِدْ، ازدرِمْ، لا تُبق على شيءٍ،
استرِطْ، انهشْ، أَعْمِلْ فكَّيك،
احشرْ الطَّعام تحت أنفك، احْشُ وجنتيك
بالحلو والحامض، بالدَّسِم وغير الدَّسِم،
وأبقِ فكَّيكَ يمضغان،
اذهبْ إلى كلِّ الولائم والدَّكاكين:
وفي نهاية المطاف،
تجد معدتك تلتوي وتتقطَّع،
وإذا بك تقذف رعوداً من الكبريت،
وتتجشَّأ بيضاً فاسداً،
وتفقد شهيَّتك،
وهكذا تبشم من الطَّعام،
فيجعلك اللَّحم تتقيَّأ،
والسَّمك يقزِّزك،
والحلوى تبدو لكَ شيحاً وعلقماً،
وترى النَّبيذَ عدوَّاً
وبصعوبةٍ تبقيكَ حيَّاً رشفةُ حساء.
كولا ياكوفو: ليته لم يكن صحيحاً
أنَّ الإفراط في الطَّعام
هو أكثر ما يعود عليك بالإسهال،
وأنَّ كلَّ الأمراض تمرُّ من الحُلقوم!
جالليزِهْ: وإذا لعبتَ الورق، أو النَّرد، أو البِلْيَات، أو القناني الخشبيَّة،

أو النَّارنج[1]، أو الشِّطرنج، أو الدُّومينو،
فإنَّك تهدر وقتك،
وتخاطر بحياتك،
وتضع شرفك على المحكِّ،
وتضيِّع أموالك،
وتخسر أصحابك،
ولا تنام قريرَ العين،
ويشقُّ عليك أكل لقمةٍ واحدة،
وتفكيرك مأخوذٌ دائماً
بتلك النَّزوة اللَّعينة،
حيث يتواطأ لاعبان آخران
على خداعك،
ويتقاسمان المكاسب بالتَّساوي.
وحين تدرك أخيراً
أنَّهما خدعاك واستغفلاك،
يعتريك القرف من خسائرك،
فإذا بُدِئَتْ اللُّعبة من جديدٍ
فكأنَّك ترى أمامك الطَّاعونَ والنَّار.
كولا ياكوفو: طوبى للنَّاجين من هذا الشَّرِّ!
أبعدَه الله عنِّي وعنك! كن في احتراسٍ منه!
لأنَّه إن لم يضيِّعْ وقتك ضيَّعَ أموالك!
جالليزْه: والحفلات التَّرفيهيَّة أيضاً،
مع أنَّها أقلُّ خطراً وأكثر إمتاعاً،

1) ربَّما كانت الإشارة إلى لعبة نردٍ كانت تمارس في حانات تشيدرانغولو، وهو زقاقٌ سيِّئ الصِّيت في المدينة؛ (كروتشِه).

يمكن أن تسبِّب لك الضَّجر،
المهازل والمسرحيَّات الكوميديَّة والألعاب البهلوانيَّة،
البنت التي تمشي على الحبل،
وتلك التي بذقنٍ،
والأخرى التي تستطيع الخياطة بقدميها،
المهرِّجون مع دُماهم المتحرِّكة،
والعنزة التي تمشي على البكرات:
باختصارٍ، كلُّ هذه التَّسالي تبعث على السَّأم،
المهرِّجون والهزليُّون والبهاليل والمجانين.
كولا ياكوفو: لهذا السَّبب اعتادَ كومبار بيوندو[1] أن يغنِّي:
"لا توجد مسرَّةٌ دائمةٌ في هذا العالم!".
جالليزهْ: الموسيقى هي الشَّيء الذي يحرِّك فيك
حتى عُظَيْمَات قدمَيك
مع كلِّ تلويناتها من الأنغام والإيقاعات
وارتعاشات الحناجر وتعاقُب الأصوات ومدِّها والاهتزازات
والطَّبقات العالية والألحان التَّابعة والباسَّاكاليات[2]
والأصواتِ الحزينة أو المبهجة،
العالية أو المنخفضة،
المنغَّمة أو الجَهْوَريَّة أو الحادَّة أو الصَّادحة،
مع آلات نفخٍ أو آلات مفاتيح،
وبأوتارٍ من أعصاب الحيوانات أو من المعدن؛

---

1) مرَّ ذكره في المقدِّمة؛ (المترجمان).

2) الباسَّاكاليا شكلٌ موسيقيٌّ من أصلٍ إسبانيٍّ يستند إلى التَّنويع المستمرِّ في صوت «التِّينور»، وتعني الكلمة Passacaglia «عبور الشَّارع»، وهو ما يكشف الأصول الشَّعبية، المتمثِّلة بالمغنِّين الجوَّالين، لهذا الشَّكل الموسيقي؛ (المترجمان).

ولكن كلُّ هذا يبعث في نفسك السَّأم؛
وببساطةٍ، إن كنتَ بلا مزاجٍ،
وانتفخت رئتاك من العزف،
رغبتَ في تحطيم العود والبزق!
كولا ياكوفو: حين لا يكون دماغك على ما يُرام،
فليغنٍّ ويصفِّر من يشاء،
فليغنِّ ستيلاَّ وجمَّاكُّو[1]،
فالسِّمفونيَّة أسوأ من نحيبٍ جنائزيٍّ ستبدو.
جالليزهْ: ولن أقول لك شيئاً عن الرَّقص:
ترى قفزاتٍ مع استداراتٍ ومراوغات،
شقلباتٍ وحركات،
عَدْوَاتٍ ومطارَدات:
يروقك ذلك لبعض الوقت ويمتعك،
ثمَّ لا يلبث أن يصبح مؤلماً كعلاجات آب[2]:
أربع خطواتٍ وتسأم؛
وبفارغ الصَّبر تنتظر أن تبدأ في حلبة الرَّقص
رقصةُ الشُّعلة أو رقصةُ المروحة[3]
لتختفي، في نهاية الحفل،
بقدمٍ ملتويةٍ ورأسٍ متصدِّع.
كولا ياكوفو: لا شكَّ أنَّ هذا مضيعةٌ للوقت،
فرقصة الكاتوبَّا مثلاً

1) مغنِّيان مشهوران من تلك الحقبة؛ (كروتْشِه).

2) الإشارة إلى وطأة قيظ الحرِّ في شهر آب؛ (المترجمان).

3) رقصتان كانتا تؤدَّيان في ختام الحفلات، قرابة منتصِف اللَّيل؛ (كروتْشِه).

تستنفدكَ تماماً ولا تحظى بشيءٍ في المقابل.
جالليزِهْ: المحادثات واللِّقاءات
والتَّسالي والحفلات مع الأصدقاء،
الشُّرب والانغماس بالملذَّات
داخل الحانات،
ارتياد بيوت الدَّعارة في أزقَّةِ جِلْسِي،
قلبُ السَّاحة رأساً على عقبٍ
بسيفكَ المثلوم وتُرْسِكَ المبعوج كأغطية المراحيض،
ألَّا تنعم بلحظة سكينةٍ أبداً،
الرَّأس مثل عَجَلَةِ الغَزْلِ
والقلب مثل دوَّامة ماء،
كلُّ هذا، ما إن تذوي زهرةُ العمر،
ويكفُّ دمُك عن الغليان،
حتى يصبح مبعثَ سأمٍ لك،
ومُطرقاً برأسك،
ومعلِّقاً قرن الخرُّوب ليتدخَّن،
تنسحب وتلتفت إلى شؤونك،
ضجِراً من تلك الأعوام
التي تمنحك ظلالاً من المسرَّة وأحزاناً حقيقيَّة.
كولا ياكوفو: ليس ما يسرُّ الإنسان
إلَّا كالنَّار في الهشيم
لا تدوم سوى لحظاتٍ، ثمَّ تخبو، تنهارُ، وتتلاشى!
جالليزِهْ: ليس في رؤوسنا تصوُّرٌ
إلَّا وتلازمه النَّزوات:

فالعين سرعان ما تملُّ
النَّظر إلى الأشياء البرَّاقة والبديعة،
إلى مظاهر الأبَّهة والجمال، إلى اللَّوحات
والاستعراضات، إلى الحدائق والتَّماثيل والصُّروح؛
والأنف سرعان ما يملُّ
شميمَ القرنفل والبنفسج والورد والزَّنبق
والعنبر والمسك والزَّبَاد
والحساء المتبَّل واللَّحم المشوي؛
واليد سرعان ما تملُّ
ملمسَ الأشياء النَّاعمة والطَّريَّة؛
والفم سرعان ما يملُّ
شهيَّ المأكل ولذيذَ المشرَب؛
والأذنان سرعان ما تملَّان
سماع الأخبار الطَّازجة والشَّائعات.
وباختصارٍ، إن عدَدْتَ على أصابعك
كلَّ ما تفعله وتراه وتسمعه،
وجدتَ ذلك كلَّه باعثاً على الغثيان، بحلوه ومرِّه.
كولا ياكوفو: لو أنَّ الإنسان، الذي خُلِقَ للسَّماء فحسب،
شعر بالرِّضا التَّامِّ في هذه الحياة،
لازداد تعلُّقاً بالأرض؛
ولهذا يُملأ فمُه بسلالٍ من البلايا
وأمَّا الملذَّات فبالقطَّارة.
جالليزهْ: هناك شيءٌ واحدٌ فحسب
لا يحملك على الملل أبداً،

بل دائماً يجدِّد روحَك
ودائماً يجعلك سعيداً وراضياً:
وهو المعرفة المشفوعة بالمال.
وهذا ما حدا بذلك الشَّاعر اليونانيَّ
إلى أن يقول لجوبيتر
في صلاةٍ حارَّةٍ ونابعةٍ من القلب:
"امنحني، يا إلهي، الفضيلة والمال!".
كولا ياكوفو: إنَّك محقٌّ قنطاراً ونصف القنطار،
فلا الأولى ولا الثَّاني يُشبِعان المرءَ أبداً:
ومن لديه الصَّلصة والملح
بالذَّهب ينال العظمة وبالفضيلة ينال الخلود.

كان المشهد الرَّعويُّ ممتعاً جدَّاً، فلم يلاحظ المستمعون المسحورون بتلك المتعة أنَّ الشَّمس، بعد أن تعبت من الرَّقص طوال النَّهار في حقول السَّماء، حثَّت النُّجوم على أداء رقصة الشُّعلة، وانسحبت لتغيِّر قميصها؛ لذا، حالما رأوا السَّماء تُظلم، وأُعطيَ الأمرُ المعتاد بالعودة، انسحب الجميع عائدين إلى بيوتهم.

نهاية اليوم الثَّالث

اليوم الرَّابع
من مؤانسة الصِغار

كان الفجر قد طلع قبل قليلٍ ليطلب الشَّراب للعمَّال لأنَّ الشَّمس كانت على وشك البزوغ، عندما توجَّه الأمير الأبيض والأميرة السَّوداء[1] إلى مكان الموعد. وكانت النِّسوة العشر قد اجتمعن هناك وأقمن وليمةً من التُّوت الأحمر، فكانت أشداقهنَّ أشبه بأيدي الصَّبَّاغين.

ذهب الجميع للجلوس عند النَّافورة التي كانت بمثابة مرآةٍ تتمرأى فيها بعض شجيرات النَّارنج وهي تضفر شعرها الورقيَّ لحجب الشَّمس. وبعد أن اتَّفقت النِّسوة على تزجية الوقت بطريقةٍ ما ريثما يحلُّ موعد تحريك الفكَّين، ليسلِّين تاديو ولوتشيا، بدأن يتناقشن إن كان عليهنَّ أن يلعبن لعبة «اجذُذ الطُّوب»، أم «نقشٌ أو صليبٌ»، أم «للوقواق أو للرِّيح»، أم «العصا والوتد»، أم «المورَّا»[2]، أم «فرديٌّ أم زوجيٌّ»، أم «إلى الجرس»، أم «إلى نوركيا»، أم «إلى القُلَيعة»، أم «ضع الكرة جانباً»، أم «شَفْعٌ ووَتْر»، أم «اللَّمسة»، أم «الكرات»، أم «القوارير الخشبيَّة».

ولكنَّ الأمير الذي كان مُتخَماً من كثرة الألعاب، أمر بأن يأتوا ببعض الآلات الموسيقيَّة ويغنُّوا، فخرج على الفور حشدٌ من الخدم الذين كانوا

---

1) أي الأمير تاديو وزوجته الأمَة الشَّرقيَّة؛ (كروتشه).

2) لعبةٌ تقليديَّةٌ تعود أصولها إلى العصور الرُّومانيَّة واليونانيَّة القديمة وتحظى بشعبيَّةٍ كبيرةٍ في إيطاليا، وخاصَّة في المناطق المطلَّة على البحر المتوسِّط. وتتلخَّص اللُّعبة في تخمين مجموع الأرقام التي يعرضها اللَّاعبون بأصابعهم، حيث يقوم اللَّاعبون، في وقتٍ واحدٍ، بمدِّ أذرعهم وإظهار أصابعهم وهم يهتفون عالياً (لتخويف الخصم) برقمٍ من اثنين إلى عشرة؛ (المترجمان).

يستطيبون العزف، متأهِّبين مع الطَّنابير والدُّفوف والقياثر والجُنُوكِ ومزامير القِرَب والنَّايات والقَرْقَارَات وقياثر اليهود والكمنجات، وبعد أن أدَّوا سمفونيَّةً جميلةً وعزفوا مقطوعاتٍ من «تينور رئيس الدَّير» و«الرِّيح الغربيَّة» و«كوكَّارا جانمارتينو» و«رقصة فلورنسا»، غنَّوا عدداً من أغنيات الزَّمن الجميل التي يبدو الشَّوق إليها في أيَّامنا هذه أسهل من العثور عليها.

وبينما هم في أوج غنائهم، جيء بالطَّعام إلى المائدة، وبعد أن أكلوا وشربوا حتى التُّخمة، أشار تاديو إلى تسيتسا أن تبدأ النَّهارَ بحكايتها، وتلك، إطاعةً لأمر الأمير، تكلَّمت على هذا النَّحو.

حَجَرُ الدِّيك
المؤانسة الأولى من اليوم الرَّابع

بفضل حَجَرٍ وجده في رأس ديكٍ، يصبح مينيكو أنييلُّو شابّاً وغنيّاً؛ ولكنَّ اثنين من المشعوذين يسلبانه الحَجَر، فيعود عجوزاً ومتسوِّلاً. وبينما هو هائمٌ على وجهه في الأرض بحثاً عن النِّعمة المفقودة، يتلقَّى في مملكة الفئران أخباراً عن الخاتم، وبمساعدة اثنين منهم، يتمكَّن من استعادته، ويعود شابّاً وغنيّاً وينتقم من اللِّصَّين.

زوجة اللِّصِّ لا تضحك دائماً؛ ومن يحيك المؤامرات، ينسج خرابَه؛ وما من خديعةٍ إلَّا وتنكشف، ولا خيانةٍ إلَّا وتنفضح: الجدران جواسيسٌ على الأوغاد؛ والسَّرقة والزِّنى تنشقُّ الأرض وتحدِّث أخبارهما، كما ستسمعون منِّي الآن إذا أعرتموني آذاناً صاغية.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، في مدينة غروتّانيرا[1]، شخصٌ يُدعَى مينيكو أنييلُّو، وكان النَّحس يلازمه لدرجة أنَّ كلَّ ما كان يملكه في هذه الحياة ديكٌ قزمٌ كان قد ربَّاه على فتات الخبز الطَّريِّ[2]. ولكن، في صباح أحد الأيَّام، وجد نفسه يكاد يموت من جوعٍ يطرد الذِّئب من الغابة، فقرَّر أن يتكسَّب بعض المال منه،

1) تعني حرفيّاً: الكهف الأسود؛ (المترجمان).

2) أي بكلِّ رقَّةٍ ومحبَّة؛ (كرونِشه).

فأخذه إلى السُّوق. وهناك توصَّل إلى اتِّفاقٍ مع مُشَعوذَين دفعا له نصف المبلغ، وطلبا منه أن يحمل الدِّيك إلى بيتهما ليسدِّدا له بقيَّة المبلغ.

وهكذا، مضى المُشَعوذان ومينيكو أنييلُّو يسير خلفهما، فسمعهما يرطنان فيما بينهما بلهجة اللُّصوص، وكان أحدهما يقول: «من كان يتخيَّل أنَّنا سنحظى بحظٍّ جيِّدٍ كهذا، يا بِنَّارونِه! هذ الدِّيك سيصنع بلا شكٍّ ثروتنا، بفضل ذلك الحَجَر الموجود، كما تعلم، داخل رأسه: سوف نرصِّع به على الفور خاتماً لكي ننال منه كلَّ ما نشتهي». وأجاب بِنَّارونِه: «اسكت يا ياكوفوتشو، لا أزال غير مصدِّقٍ أنَّني أصبحت غنيَّاً؛ ولا أطيق الانتظار حتى أقطع رأس هذا الدِّيك وأركل الفقر وأحصل على بعض الملابس الأنيقة، ففي هذا العالم، الفضيلة بلا مالٍ لا تساوي أكثر من فردة حذاءٍ مرقَّعة؛ والنَّاس يحكمون عليك من ملبسك».

ولكنَّ مينيكو أنييلُّو، الذي طاف البلاد وأكل الخبز من أفرانٍ كثيرةٍ، فهم لهجتهما، وحين وصل إلى زقاقٍ ضيِّقٍ، أدار الدَّفَّة وسلكَ في الدَّرب المترب عائداً إلى بيته. وهناك، لوى عنق الدِّيك، وبعد أن فتح رأسه، وجد الحَجَر، وألصقه على الفور بخاتمٍ من النُّحاس. ولكي يجرِّب قوَّته السِّحريَّة، قال: «أريد أن أتحوَّل إلى شابٍّ في الثَّامنة عشرة من العمر». وما إن لفظ هذه الكلمات حتى صار دمه أكثر حيويَّةً، وأعصابه أكثر قوَّةً، وساقاه أكثر ثباتاً، ولحمه أكثر طراوةً، وبصره أكثر حدَّةً، وأصبح شعره الفضِّيُّ أشقر، وامتلأ فمه، الذي كان قريةً منهوبةً، بالأسنان، وتحوَّل ذقنه، الذي كان أشبه بأرضٍ موقوفةٍ على الصَّيد، إلى أرضٍ لزرع البذار؛ وباختصارٍ، صار شابَّاً وسيم الطَّلعة. ثمَّ قال: «أرغب في قصرٍ رائعٍ وفي عقد أواصر القربى مع الملك»؛ فإذا قصرٌ ذو جمالٍ لا يصدَّق يرتفع، مع تماثيل بديعة، وأعمدةٍ مذهلةٍ، ولوحاتٍ تخلب العقول؛ وكانت الفضَّة تتلألأ في كلِّ مكانٍ، والذَّهب يُداس بالأقدام، والجواهرُ وافرةً، والخدم يندفعون بأعدادٍ كبيرةٍ، والأحصنة

والعربات بالمئات. وباختصارٍ، كانت مظاهر الثَّراء التي عرضها من الرَّوعة بحيث لم يستطع الملك صرف نظره عنها وقرَّر أن يمنح مينيكو أنييلُّو ابنتَه المدعوَّةَ ناتاليسيا زوجةً.

وما كان من المشعوذَين، حين رأيا هذه الثَّروة الكبيرة وكانا يعرفان مصدرها، إلَّا أن وضعا خطَّةً لانتزاعها من يد مينيكو أنييلُّو. فصنعا دميةً جميلةً تعزف وترقص بفضل أثقال موازنة، وتنكَّرا بلباس باعةٍ وقصدا بِنْتِيلَّا، ابنة مينيكو أنييلُّو، بقصد بيعها لها. وحين رأت الصَّبيَّة هذا الشَّيء البديع، سألت: «بكم تبيعانها؟»؛ فأجابا إنَّها ليست ممَّا يمكن شراؤه بالمال، ولكن كان بإمكانها الحصول عليها إن هي أسدت لهما معروفاً واحداً فحسب: أن تسمح لهما بإلقاء نظرةٍ على صنعةِ الخاتم الذي يملكه أبوها، لكي يقوما بنسخ النَّموذج ويصنعا آخر مماثلاً له، لقاءَ إهدائها الدُّمية دون أيِّ مقابل. استمعت بِنْتِيلَّا إلى هذا الاقتراح، وكانت لا تعرف المثل القائل: «حين يكون الشَّيء رخيصاً، فكِّر في أمره مرَّتين»، فوافقت فوراً على الاقتراح، وطلبت منهما أن يعودا في صباح اليوم التَّالي، لأنَّها حينئذٍ ستكون قد استعارته من أبيها.

بعد أن انصرف المشعوذان وعاد الأب إلى البيت، استعطفته بالكثير من عذب الكلام ورقيق الملاطفات إلى أن حملته على إقراضها الخاتم بحجَّة أنَّها كانت تشعر بالكآبة وكانت تريد التَّرويح عن نفسها قليلاً. وفي اليوم التَّالي، في السَّاعة التي يقوم فيها خادم الشَّمس بكنس فضلات الظِّلال من حقول السَّماء، حضر المشعوذان، وحالما صار الخاتم في أيديهما، اختفيا، مثل ذاك الذي يتلاشى[1] ولا يترك أثراً؛ فشعرت بِنْتِيلاً المسكينة بالقلق يعتصر قلبها، وكادت تموت.

دخل المشعوذان غابةً كان فيها قسمٌ من أغصان الأشجار يرقص «رقصة

---

1) الشَّيطان؛ (كروتْشِه).

الزَّهرة»، وقسمٌ آخر يلعب لعبة «الخبز السَّاخن»؛ فتوقَّفا في ذلك المكان، وطلبا من الخاتم أن يدمِّر كلَّ صنيع العجوز الذي تحوَّل إلى شابٍّ. وفي تلك اللَّحظة بالضَّبط، كان مينيكو أنييلُّو واقفًا بين يدي الملك، فأحسَّ فجأةً بشعره ينتفش ويبيَضُّ، وبجبينه يتغضَّن، وبحاجبَيه يخشوشنان، وبعينَيه تغوران، وبوجهه يتجعَّد، وبفمه يخلو من الأسنان، وبذقنه يمتلئ بالشَّعر، وبحدبته ترتفع، وفوق كلِّ شيءٍ، بملابسه المبهرجة تتحوَّل إلى أسمالٍ وخِرَق.

وما كان من الملك، حين رأى هذا الشَّحَّاذ القبيح جالساً يتكلَّم معه، إلَّا أن أمر بطرده على الفور بالعصيِّ والشَّتائم؛ وذاك المسكين، حين رأى نفسه يهوي بكلِّ ثقله إلى الحضيض، ذهب منتحباً إلى ابنته وسألها عن الخاتم ليتدارك هذه الكارثة؛ وهنا، علم بالخدعة التي تعرَّض لها من قِبَل البائعَين وأوشك أن يرمي نفسه من النَّافذة، شاتماً ألف مرَّةٍ جهل ابنته التي من أجل دميةٍ غبيَّةٍ أعادته شبيهاً بغولٍ قبيحٍ، ومن أجل صرَّةٍ من مِزَق القماش أعادته بهلولاً متشرِّداً، ذلك أنَّه عقد العزم على الضَّرب في الآفاق بلا هدىً، مثل المال السَّيِّئ، إلى أن يسمع أخباراً عن ذينك البائعَين.

وهكذا، ارتدى برنوساً ذا قلنسوةٍ، وانتعل حذاءً ثقيلاً ثبَّتَهُ برباطٍ في قدميه، وحمل خرْجاً على كتفه وهراوةً بيده، تاركاً ابنته تتجمَّد من البرد، وانطلق يضرب في الآفاق يائساً. وسار كثيراً إلى أن حطَّ الرِّحال في مملكة بِرتُوجُّوفُوندو التي تسكنها الفئران؛ وحالما وصل، ظنُّوه جاسوساً أرسلته القطط، فاقتادوه على الفور للمثول أمام الملك روزيكونِه، فسأله هذا من يكون ومن أين أتى ولأيِّ غرضٍ جاء إلى هذه البلاد، فقدَّم له مينيكو أنييلُّو، قبل كلِّ شيءٍ، قطعةً من دهن الخنزير تعبيراً عن تقديره له، ثمَّ أخبره بكلِّ مصائبه، واحدةً تِلْوَ الأخرى؛ وأنهى حديثه بالقول إنَّه سيفني جسده البائس إلى أن يحصل على أخبارٍ عن تينك الرُّوحين اللَّعينتَين اللَّتَين سلبتاه ذلك الفرح الثَّمين، ونزعتا منه زهرة الشَّباب ومنهل الثَّراء ودعامة الشَّرف.

وعند سماعه هذه القصَّة، شعر روزيكونه بقلبه يُقرَضُ[1] من الشَّفقة، وراغباً في تقديم بعض العزاء لهذا العبد الفقير، دعا الفئران المسنِّين إلى المجلس وطلب منهم المشورة في محنة مينيكو أنييلُّو وأمرهم بأن يبذلوا ما في وسعهم للحصول على أخبارٍ عن ذينك البائعَين المحتالَين. ومصادفةً كان حاضراً بين المستشارين رودولو وسالتاريلُّو، فأران خبيران في أمور الحياة، وكانا قد عاشا ستَّ سنواتٍ تقريباً في حانةٍ من حانات عابري السَّبيل؛ فقالا له: «لا تحزن، أيُّها الصَّديق، فالأمور ستعود أفضل ممَّا تعتقد. ولتعلم الآن أنَّه، بينما كنَّا موجودَين في أحد الأيَّام في إحدى غرف حانة القَرْن، حيث يقيم وينغمس في الملذَّات أرفع الرِّجال مكانةً في العالم، نزل بالمكان شخصان من كاستل رامبينو، وبعد أن تناولا الطَّعام وأفرغا في جوفيهما جرَّة النَّبيذ، راحا يتحدَّثان عن الحيلة التي دبَّراها لأحد المسنِّين في غروتَّانيرا، وكيف سلباه حَجَراً ذا قوَّةٍ سحريَّةٍ عظيمةٍ، وأنَّ ذاك (قال أحدهما وكان يُدعى بِنَّارونه) ما كان لينزعه أبداً من إصبعه مخافةَ أن يضيِّعه، ولكنَّ ابنته ضيَّعته».

وعند سماعه ذلك، قال مينيكو أنييلُّو للفأرين إنَّه، إذا كانا مستعدَّين لمرافقته إلى البلد الذي يوجد فيه ذانك اللُّصَّان ومساعدته في استرجاع الخاتم، فسوف يعطيهما حمولةً من الجُبن ومن اللَّحم المقدَّد، لكي يستمتعا بها مع سيِّدهما الملك. ولمَّا كان الأمر يتعلَّق بتلطيخ الأيدي بالشَّحم، أجاباه بأنَّهما سيطويان معه الجبال والبحار، وبعد أن طلبا الإذن من التَّاج الفأريِّ، رحلا معه.

وبعد رحلةٍ طويلةٍ، وصلوا إلى كاستل رامبينو وطلب الفأران من مينيكو أنييلُّو الانتظار تحت بعض الأشجار على ضفَّة نهرٍ كان، مثل دودة العَلَق، يمصُّ دماء العمَّال ويُلقيها في البحر. عثر الفأران على

1) تلاعبٌ بالألفاظ، لأنَّ كلمة "روزيكونِه" تعني قارض، من فعل Rosicare: يقرض؛ (المترجمان).

منزل المشعوذَين ولاحظا أن ينّارونِه لا ينزع الخاتم أبداً من إصبعه، فقرَّرا أن يربحا المعركة بالحيلة.

وحين دهنَ اللَّيلُ بالحبر وجه السَّماء الذي لفحته الشَّمس[1]، وغطَّ ينّارونِه في النَّوم، بدأ رودولو يقرض الإصبع التي تحمل الخاتم، فشعر ينّارونِه بالألم ونزع الخاتم ووضعه على طاولةٍ عند رأس السَّرير. وما إن رأى سالتاريلُّو ذلك حتى وضع الخاتم في فمه، وبأربع قفزاتٍ وصلا إلى مينيكو أنييلُّو الذي، ببهجةٍ أكبر من تلك التي يشعر بها محكومٌ بالإعدام حين يُبلَّغ العفوَ، حوَّل المشعوذَين في الحال إلى حمارين، ومدَّ البرنوس على أحدهما، وامتطاه مثل كونتٍ وسيمٍ، وحمَّل الآخر شحماً وجُبناً، وانطلق عائداً إلى برتُوجُّوفُوندو، حيث، بعد أن قدَّم الهدايا إلى الملك ومستشاريه، شكرهم على كلِّ الخير الذي تلقَّاه على أيديهم، داعياً السَّماء ألَّا يعترض طريقهم أبداً أيُّ فخٍّ، وألَّا يُنزل بهم الضَّرر أبداً أيُّ قطٍّ، وألَّا يكون الزِّرنيخُ أبداً سبباً لحزنهم.

وبعد أن غادر ذلك البلد ووصل إلى غروتّانيرا، وأصبح أكثر وسامةً من ذي قبل، استقبله الملك والأميرة بحفاوةٍ كبيرةٍ، وبعد أن ألقى بالحمارين من شاهقٍ، تمتَّع وزوجته برغد العيش، ولم ينزع بعد ذلك الخاتمَ أبداً من إصبعه لكيلا يجلب على نفسه مصيبةً أخرى، لأنَّ:

الكلب الذي احترق بالماء السَّاخن،

يخشى حتى الماء البارد[2].

---

1) من العلاجات الشَّعبيَّة، في ذلك الوقت، دهن الحروق بالحبر؛ (كروتشِه).

2) ما يقابل المثل الدَّارج عندنا: من يحترق فمه بالحليب، ينفخ على اللَّبن؛ (المترجمان).

الشَّقيقان
المؤانسة الثَّانية من اليوم الرَّابع

ماركوتشو وبارميرو شقيقان، الأوّل غنيٌّ وطالحٌ، والآخر فقيرٌ وصالحٌ. بعد أحداثٍ مختلفةٍ يُنكر ذاك الغنيُّ أخاه الفقيرَ الذي يصير باروناً، بينما يقع الغنيُّ في البؤس ويُقتاد إلى حبل المشنقة، ولكن يُعفى عنه لبراءته، ويمنحه أخوه جزءاً من ثروته.

أدخلت حكاية مينيكو أنيلُّو ارتياحاً كبيراً على الأمير؛ وبارك الجميعُ ألف مرَّةٍ الفأرين اللَّذَين ساعدا الرَّجل الفقير في استرجاع الخاتم وجعلا المشعوذَين يدفعان ثمن حلقةٍ في بنصر رقبةٍ مندقَّة. ولكن حين رفعت تشيكًا رأسها لتبدأ بالكلام، حصَّن الجميعُ غرفة الكلمات بباب الصَّمت، فبدأت تتكلَّم على هذا النَّحو:

ليس ثمَّة تصوينةٌ ضدَّ غارات القَدَر خيرٌ من الفضيلة، فهي ترياقٌ من المصائب، ودعامةٌ ضدَّ الخرائب، وميناءٌ في بحر النَّوائب، تنتشلك من الوحل، وتُنْجِيك من العواصف، وتدرء عنك شرَّ المهالك، وتواسيك في الأحزان، وتُجيرك عند الحاجة، وتدفع عنك الموت: كما سترون في الحكاية الواقفة على رأس لساني، على أهبة أن تُحكَى لكم.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، أبٌ لديه ولدان، ماركوتشو وبارميرو، وحين وصل إلى اللَّحظة التي عليه أن يسدِّد فيها الدَّين إلى الطَّبيعة ويمزِّق قرطاسَ الحياة، دعاهما إلى الجلوس

قرب سريره وقال لهما: «يا ولديَّ المباركَين، لن تتأخَّر شرطة الزَّمن كثيراً عن كسر باب أعوامي لكي تستولي، وإن كان ذلك ضدَّ دساتير المملكة، على النِّعَم التي منحتني إيَّاها الحياة كسدادٍ للدِّيون التي أدين بها للأرض؛ ولذلك، لأنَّني أحبِّكما كبؤبؤَي عينيَّ، لن أغادركما دون أن أترك لكما بعض الذِّكريات الطِّيِّبة، لكي تتمكَّنا من الإبحار مع رياح المشورة الطَّيِّبة في خليج الأحزان هذا، وتصلا إلى برِّ الأمان. أصغيا إليَّ جيِّداً إذاً، لأنَّه حتى إن بدا لكما عديمَ القيمة ما سوف أعطيكُماه، عليكما أن تعرفا أنَّه ثروةٌ لن يسلبكما إيَّاها الأوغاد، وبيتٌ لن تهدمه الزَّلازل، وحقلٌ لن تلتهمه اليرقات.

الآن، في المقام الأوَّل وقبل كلِّ شيءٍ، عليكما أن تخشيا السَّماء: فكلُّ شيءٍ يأتي من هناك، من فوق: من يحِدْ عن هذا الطَّريق، يخسرْ نفسه. لا تجعلا نفسيكما طوعَ الكسل، وتمكثا في المنزل مكوث الخنازير في الحظيرة. من يمشِّط حصانه بنفسه، لا يمكن وصفه بصبيِّ الإسطبل: على المرء أن يساعد نفسه بالرَّكل والعضِّ؛ ومن يعمل للآخرين، يُطعم نفسه.

حافظا على ما تمتلكان: من يقتصد، يكسب؛ وقرشاً وراء قرشٍ تُبنَى الثَّروة؛ من يدَّخر يَجِدْ؛ ومن يَجِدْ، يُحضِّر حساءً طيِّباً؛ اخزُنا تأكُلا؛ ولا تبسطا يديكما كلَّ البسط، فالأصدقاء والأقارب جيِّدون، ولكن كئيبٌ البيت الذي لا يوجد فيه شيء؛ من يملك المالَ يَبنِ، ومن يملك الرِّيحَ يُبحر؛ ومن لا يملك المال غبيٌّ وأحمق، يتقلَّب على رمضاء البؤس في كلِّ لحظة، ولذلك، يا ولديَّ، أنفقا بقدر دخلكما؛ فالعجيزة بقدر ما يمكنكما تغطيته، والأرض إلى حيث يمكنكما أن تشمَّا؛ وحسبما تشعران حرِّكا الأسنان؛ المطبخ الصَّغير يجعل البيت كبيراً.

لا تثرثرا كثيراً، لأنَّه صحيحٌ أنَّ اللِّسان بلا عَظْمٍ، ولكن بإمكانه أن يقصم الظَّهر؛ اسمعا ورَيا واصمتا إن كنتما تريدان أن تعيشا مرتاحَي البال؛ ما تريانه، تريانه؛ وما تسمعانه، تسمعانه؛ كُلا قليلاً وتكلَّما قليلاً؛ دفءُ الأردية لا يضرُّ أبداً؛ ومن يتكلَّم كثيراً، يخطئ كثيراً.

اقنعا بالقليل: الفاصولياء التي تدوم خيرٌ من الحلوى التي تنتهي؛ من قنع من الدُّنيا باليسير هانَ عليه كلُّ عسير؛ ومن لا يستطيع شراء اللَّحم، فليحتسِ المرق؛ ومن لا يملك خياراً آخر، فلينم مع زوجته؛ دبِّرا أموركما على قدر استطاعتكما: من لا يستطيع الحصول على الهبر، فليكتفِ بالعظم.

المرء بخليله، فرافقا دائماً من هو أفضل منكما ولا تبخلا عليه؛ قل لي من تعاشر، أقل لك من أنت؛ من يرافق الأعرج، يعرج مثله قبل انتهاء العام؛ ومن ينم مع الكلب، لا ينهض دون براغيث؛ أعطيا النَّذلَ ما يريد من متاعكما واتركاه يرحل بعيداً، لأنَّ رفقة السُّوء تقود المرء إلى حبل المشنقة.

فكِّرا ثمَّ اعملا، لأنَّ من السُّخف إغلاق الإسطبل بعد خروج الثِّيران؛ أغلقا الفمَ حين يكون ممتلئاً؛ ولا حرج عليكما ألَّا تغلقاه إن كان فارغاً؛ امضغا ثمَّ ابلعا؛ فمن عجلتها أنجبت الهرَّة هُرَيراتٍ عمياوات؛ من يمش الهوينى، ينعمْ برحلةٍ طيِّبة.

تجنَّبا الخصام والجدال، ولا تضعا قدميكما على أيِّ حجر؛ فمن يقفز فوق الكثير من الأوتاد ينتهي بوتدٍ في قفاه؛ والحصان الذي يرفس ينال من الرَّفسات أكثر ممَّا يعطي؛ ومن بِخِدْشٍ يَجرح، بسكِّينٍ يُجرَح؛ والدَّلو الذي ينزل أعمق ممَّا ينبغي في البئر، يترك لكما المقبض؛ وحبل المشنقة صُنع لسيِّئ الحظِّ.

لا تدعا أبخرةَ الغطرسة تصعد إلى رأسيكما؛ فالأمر يتطلَّب أكثر من مفارش بيضاء لإقامة وليمة؛ تواضعا وسايرا؛ فالمنزل الذي يُرسل دخاناً لم يكن أبداً منزلاً جيِّداً؛ والخيميائيُّ الجيِّد يمرِّر مقطَّراته في الرَّماد لئلَّا تُلوَّث بالدُّخان؛ والرَّجل الصَّالح يجب أن يذكِّر نفسه بتحويل أفكاره المتكبِّرة إلى رماد، لئلَّا يصيِّره غروره دخاناً.

لا تنساقا وراء أفكار روسُّو: فمن يحشر أنفه في ما لا يعنيه، يقع في

مَوْحِلٍ لا يُتخلَّص منه؛ ومن الحماقة أن تحاولا تسعير الخيار[1] أو ذرَّ الملح في القدور الكبيرة[2].

لا تخالطا الأسياد، وبدلاً من الخدمة في البلاط الملكيِّ، اذهبا لسحب شِباك الصَّيد. حبُّ السَّيِّد نبيذٌ في بطحةٍ، في المساء يكون جيِّداً وفي الصَّباح فاسداً؛ فمِن هؤلاء لا يمكنكما أن تحصلا سوى على كلماتٍ لطيفةٍ وتفَّاحٍ فاسدٍ؛ في البلاط، كلُّ ما تقدِّمانه من خدماتٍ يذهب أدراج الرِّياح، وكلُّ ما ترسمانه من خططٍ يفسد، وكلُّ ما تبنيانه من آمالٍ يتحطَّم؛ تعرقان بلا رحمةٍ، وتركضان بلا راحةٍ، وتنامان بلا سكينةٍ، وتقضيان حاجتكما بلا شمعةٍ، وتأكلان بلا طعمٍ.

احذرا الغنيَّ الذي افتقر، والوضيعَ الذي ارتفع، والمتسوِّلَ القانطَ، والخادمَ الخبيثَ، والأميرَ الجاهلَ، والقاضيَ النَّفعيَّ، والمرأةَ الغيور، والرَّجلَ الذي يؤجِّل عمل اليوم إلى الغد، والرِّجالَ الأشرار، والرَّجلَ الذي بلا لحية، والمرأة التي بلحية، والأنهارَ الهادئة، والمداخنَ الدَّاخنة، وجارَ السُّوء، والصَّبيَّ المتباكي، والرَّجلَ الحسود.

وآخرُ قولي، حاولا أن تضعا نصب أعينكما أنَّ من يملك حرفةً يملك في هذا العالم موطئَ قدم، ومن يملك بعض العقل في رأسه يستطِع تدبير أموره وسط غابة، ويكون قد نبتَ له ضرس العقل وسقطَتْ أذناه الأولَيَان؛ والحصان الجيِّد لا ينقصه السَّرج.

ألف شيءٍ آخر أريد أن أقول لكما، ولكنَّ الإعياء بدأ يبلغ بي كلَّ مبلغٍ ولم أعد قادراً على التَّنفُّس.

نطق بهذه الكلمات، وبشقِّ الأنفس رفع يده ليباركهما، إذ انسدلت ستارة الحياة، ودخل ميناءَ كلِّ فواجع هذا العالم.

---

1) أي وضع سعرٍ مرتفعٍ لشيءٍ لا يستحقُّ ذلك الثَّمن؛ (كروتشِه).

2) يقصد في قدور الآخرين؛ (كروتشِه).

نحت ماركوتشو كلمات أبيه في صميم قلبه، وبدأ يدرس في المدرسة، ويرتاد الأكاديميَّات، ويحاجُّ طلبة العلم، ويناقش في الفضائل، لدرجة أنَّه، في طرفة عينٍ، أصبح الأديب الأوَّل في تلك البلدة. ولكن لمَّا كان الفقر هو القُرادَ الملتصق بالفضيلة، وعن الرَّجل المدهون بزيت منيرفا ينزلق ماء الحظِّ الحسن، كان الرَّجل المسكين يبقى دائماً خاوي الوفاض، دائماً مفلساً، ودائمًا يغنِّي "قلبٌ قاسٍ ورغبةٌ شرساء"[1]، وكثيرًا ما كان يجد نفسه متخماً من قلب صفحات النُّصوص وجائعاً إلى لَعْقِ المقالي، منهوكاً من دراسة القانون ومحتاجاً إلى المساعدة القانونيَّة، منهمكاً دائماً في العمل على موادَّ غير قابلةٍ للهضم، وواجداً نفسه على الدَّوام صائماً.

أمَّا باريميرو، فقد عاش حياة إسرافٍ ومجون، مضيِّعاً أيَّامه في اللَّعب تارةً، وفي ارتياد الحانات تارةً أخرى، ونما وشبَّ دون أيِّ فضيلةٍ في العالم. ومع ذلك كلِّه، ما بين الاحتيال والمقامرة، جمع مالاً كثيراً وصار في رغدٍ من العيش.

وحين رأى ماركوتشو ذلك، شعر بالخيبة لأنَّه، باتِّباع نصائح أبيه، بدا له وكأنَّه خرج عن الطَّريق، لأنَّ "دوناتو"[2] لم يمنحه شيئاً، و"كورنوكوبيا"[3] تركه في فقرٍ وفاقة، و"بارتولو" لم يضع له شيئاً في جعبته، بينما بارمييرو، وهو يلهو بالعظام[4]، كان يجني لحمًا وفيراً، ومن خلال تسلية يديه، كان يُبقي حلقه مليئاً.

في النِّهاية، لمَّا لم يعد قادراً على تحمُّل مِنْخَس الحاجة، ذهب لرؤية أخيه وتوسَّل إليه، باعتبار أنَّ الحظَّ جعله ابن الدَّجاجة البيضاء، أن يتذكَّر

1) كلماتٌ من أغنيةٍ كانت تُستخدَم كمثلٍ يُقال في بؤس الحال؛ (المترجمان).

2) صاحب كتاب «قواعد اللُّغة»؛ مرَّ ذكره سابقاً؛ (المترجمان).

3) الإشارة إلى كتاب "القرن الوفير في قواعد اللُّغة اللَّاتينيَّة" لمؤلِّفه نيكولا بيرُّوتيّ دا ساسُّوفِرَّاتو، والذي طُبع لأوَّل مرَّةٍ في سنة 1489؛ (كروتشِه).

4) يقصد زهر النَّرد؛ (كروتشِه).

أنَّه كان من لحمه ودمه، وأنَّ كليهما خرجا من الرَّحم نفسه. فأجابه بارمييرو الذي، بعد زهو الثَّراء، أصبح بخيلاً: "أنت الذي أردت متابعة دراستك بناءً على نصيحة والدك، وكنت دائماً توبِّخني على الصُّحبة والمقامرة، فاذهب واقضم الكتب ودعني وشأني؛ لأنَّني لست مستعدّاً لأن أعطيك ولو ذرَّةً من الملح، فقد كددتُ كثيراً لأكسب هذه القروش القليلة. أنت رجلٌ ناضجٌ ولا تنقصك الحكمة: من لا يعرف كيف يعيش، فتلك مشكلته: كلُّ امرئٍ لنفسه والرَّبُّ للجميع. إن كنت لا تملك المال، فالعب الكُبَّى. إن كنت جائعاً، فاقضم قضمةً من ساقيك. إن كنت عَطِشاً، فمصَّ إصبعك!". ومع هذه الكلمات وكلماتٍ كثيرةٍ غيرها، أدار له ظهره.

أُصيب ماركوتشو بخيبةٍ كبيرةٍ إذ رأى نفسه يُعامَل بهذه القسوة الفظيعة من قبل أخيه الذي هو من لحمه ودمه، ومقرِّراً فصل ذهب الرُّوح عن تراب الجسد بحمض اليأس، اتَّجه نحو جبلٍ شاهقٍ بدا لعظمة ارتفاعه وكأنَّه واشٍ من وشاةِ الأرض يريد أن يرى ماذا يجري في السَّماء، أو كأنَّه سلطانٌ عثمانيٌّ عظيمٌ على كلِّ الجبال، مع عمامةٍ من الغيم ترتفع إلى عنان السَّماء لتطعن القمر في جبهته. صعد وتسلَّق قدر استطاعته، عابراً مساراً ضيِّقاً بين المنحدرات والصُّخور، وحالما وصل إلى القمَّة، حيث رأى جرفاً عظيماً، أدار حنفيَّةَ ينبوع عينيه، وبعد أن أدَّى مرثاةً طويلةً، كان على وشك أن يرمي نفسه ورأسه إلى الأسفل حين أمسكت به، فجأةً، من ذراعه امرأةٌ جميلةٌ ترتدي ثوباً أخضر، وعلى رأسها إكليلٌ من الغار يتوِّج شعرها المغزول من الذَّهب، وقالت له: "ماذا تفعل، أيُّها الرَّجل المسكين؟ أين تترك الجنون يجرفك؟ ألست ذلك الرَّجل الفاضل الذي استهلك الكثير من الزَّيت وخسر الكثير من النَّوم لكي يدرس؟ ألست أنت ذاك الذي، لكي يرسل شهرته في البحر مثل سفينةٍ جيِّدة التَّشحيم، أمضى ردحاً من الزَّمن تحت العصا؟ والآن، وقد بلغتَ الشَّوط الأفضل، لا تلجأ إلى تلك الأسلحة التي سبكتها في كُوْرِ الدِّراسة لتستخدمها ضدَّ الفقر وسوء الحظِّ؟

ألا تعلم أنَّ الفضيلة ترياقٌ ضدَّ سُمِّ الفقر؟ وتبغٌ ضدَّ بلغم الحسد؟ ووصفةٌ ضدَّ أمراض الزَّمن؟ ألا تعلم أنَّ الفضيلة بوصلةٌ تتدبَّر بها أمرك بين رياح المصائب؟ وشعلةٌ ضدَّ الرِّيح للسَّير في ضباب الآلام؟ وعقدٌ مقنطرٌ وطيدٌ للصُّمود أمام زلازل المعاناة؟ ارجع أيُّها البائس، عد إلى رشدك ولا تدر ظهرك لمن يمكن أن يساعدك في الشَّدائد، ويمنحك القوَّة في الفواجع، والسَّكينة في اليأس؛ واعلم أنَّ السَّماء قد أرسلتك إلى هذا الجبل الذي من الصَّعب جدّاً تسلُّقه، حيث تعيش الفضيلة نفسها، لكي تنزع هي نفسها، هي التي اتَّهمتَها ظلماً، من قدميك النِّيَّة السَّيِّئة التي، بعد أن أعمتك، تريد أن تدفعك إلى الهاوية. لذلك، استيقظ، وهدِّئ من روعك، وغيِّر رأيك؛ ولكي ترى كيف أنَّ الفضيلة دائماً جيِّدة، ودائماً صالحة، ودائماً مُغيثة، خذ حافظة الغبار هذه، وامضِ إلى مملكة كامبولارغو[1]. هناك، سوف تجدهم يقرؤون "سبِّحوا الرَّبَّ يا جميع الأمم"[2] على ابنة الملك التي لا تجد علاجاً لمرضها؛ فاجعلها تشرب محتوى هذه الحافظة في بيضةٍ طازجةٍ، لأنَّك سوف تعطي مرضَها في الحال إشعاراً بالإخلاء، المرضَ الذي يمتصُّ حياتها مثل جنديٍّ يطلب مهجعاً. ستحصل بفضل ذلك على مكافأةٍ سوف تزيح الفاقة عن كاهلك، وستعيش كما تستحقُّ أن تعيش، دون أن تحتاج إلى معونة الآخرين".

عرفها ماركوتشو من طرف أنفها، فألقى بنفسه عند قدميها وسألها الصَّفح عن الخطأ الذي كان على وشك أن يقترفه. «الآن - قال لها - أرفع العصابة عن عينيَّ وأعرف من ملامحك أنَّك أنت هي الفضيلة التي يُشيد بها الجميع ويتَّبعها القليل؛ الفضيلة التي تشحذ المواهب، وتوقظ العقول، وتصقل البصيرة، وتحتضن الجهود النَّبيلة، وتضع أجنحةً لتطير عبر الأجرام السَّماويَّة. أعرفك وأسمِّي نفسي نادماً على إساءة استخدام الأسلحة التي

1) تعني حرفيّاً: الحقل الشَّاسع؛ (المترجمان).

2) مطلع المزمور (117) الذي كان يُقرأ قرب سرير المحتضَر عند الرُّومان؛ (المترجمان).

منحتها لي؛ وأعدك، من الآن فصاعداً، بأن أحصِّن نفسي جيِّداً بترياقك، بحيث لن تمسَّني حتى رعود الإله مارس نفسها». وأراد أن يقبِّل قدميها، ولكنَّها اختفت من أمام ناظرَيه، تاركةً إيَّاه منشرح الصَّدر، كفقيرٍ مريضٍ حين أبلَّ من مرضه أُعطيَ قطعة جذرٍ[1] في كأسٍ من ماءٍ فرات.

انحدر ماركوتشو من أعلى الجبل، وانطلق ميمِّماً كامبولارغو، وفور وصوله إلى القصر الملكيِّ، بعث إلى الملك أنَّه يريد أن يقدِّم علاجاً لمرض ابنته. فحُمِل على المحفَّة إلى غرفة الأميرة[2]، ووجد تلك الشَّابَّة البائسة على سريرٍ مثقوب[3]، متهالكةً وبنفسجيَّةَ اللَّون، لدرجة أنَّها لم تكن تملك سوى الجلد والعظام. كانت عيناها غائرتين جدَّاً لدرجة أنَّ الأمر كان يتطلَّب منظار غاليليو[4] لرؤية البؤبؤين؛ وأنفها حادَّاً جدَّاً بحيث يمكن أن يضاهي المحقنة الشَّرجيَّة في شكله؛ ووجنتاها جافَّتَين جدَّاً لدرجة أنَّها بدت أشبه بموت سورِّنتو[5]؛ وشفتها السُّفلى متدلِّيةً إلى ذقنها؛ وصدرها أشبه بصدر العقعق؛ وذراعاها مثل سيقان خروفٍ مجرَّدةٍ من اللَّحم؛ وباختصارٍ، كانت قد تغيَّرت لدرجة أنَّها بكأس الشَّفقة كانت تشرب نخبَ الرَّأفة.

انهمرت الدُّموع من عينَي ماركوتشو حين رآها في تلك الحالة، وراح يفكِّر في ضعف طبيعتنا البشريَّة وكيف أنَّها خاضعةٌ لنكبات الزَّمن وتقلُّبات البدن وعلل الحياة، ولكنَّه طلب بيضةً طازجةً من دجاجةٍ فتيَّةٍ، وبعد أن

---

1) جذرٌ من جذور النَّباتات التي كانت تُستخدَم في الطِّبِّ كفاتحات شهيَّة أو كمهدِّئاتٍ أوغير ذلك؛ (كروتشِه).

2) أي استُقبل بحفاوةٍ كبيرة؛ (كروتشِه).

3) سريرٌ مخصَّصٌ للمعاقين أو الأشخاص الذين لا يملكون القدرة على الحركة؛ (كروتشِه).

4) كان المنظار اختراعاً حديثاً في ذلك الوقت؛ (كروتشِه).

5) في اللَّيلة الأخيرة من ليالي الكرنفال الذي كان يُقام في بلدة سورِّنتو، وغيرها من البلدات الإيطاليَّة، بعد انتهاء الصَّوم الكبير، كانت إحدى الشَّخصيَّات الكرنفاليَّة عبارةً عن هيكلٍ عظميٍّ عملاقٍ مصنوعٍ من الخشب والورق المقوَّى ومسلَّحٍ بمنجلٍ، وكان يمثِّل الموت الذي يحصد بمنجله الأرواح؛ (المترجمان).

سخَّنها قليلاً على النَّار، رشَّ في داخلها الغبار، ثمَّ جعل الأميرة ترتشفها بالقوَّة بعد أن لفَّعها بأربع بطَّانيَّات. ولم يكن اللَّيل قد احتلَّ السَّاحة ونصب خيامه بعد، حين نادت المريضة وصيفاتها ليغيِّرن سريرها الذي كان مغمورًا بالعرق، وبعد أن جفَّفنها وألبسنها ثياباً أخرى، طلبت الطَّعام: طلبٌ لم يخرج من فمها طوال سبع سنواتٍ من المرض. وكانت تلك بشرى خيرٍ، فقدَّموا لها حساءً؛ وكانت تزداد قوَّةً ورغبةً في الطَّعام ساعةً بعد ساعةٍ، فلم يمض أسبوعٌ حتى أبلَّت من مرضها تماماً ونهضت من السَّرير. وكرَّم الملك ماركوتشو كما لو كان هذ الأخير ملكَ الطِّبِّ، ولم يمنحه لقب البارون على إقطاعيَّةٍ كبيرةٍ فحسب، بل سمَّاه أيضاً مستشاراً أوَّل في بلاطه، وزوَّجه بأغنى سيِّدةٍ في تلك المملكة.

في هذه الأثناء، كان بارمييرو قد تجرَّد ممَّا كان يملك، لأنَّ مال القمار كما يأتي يذهب، وحظُّ المقامر بقدر ما يصعد يهبط؛ وإذ وجد نفسه متسوِّلاً وبائساً، قرَّر شدَّ الرِّحال، فبتغيير المكان، إمَّا يتغيَّر حظُّه، وإمَّا يُمحى مكانه من دورة الحياة. وبعد ستَّة أشهرٍ من التَّرحال، وصل إلى كامبولارغو منهوكاً وخاوي الوفاض لدرجة أنَّه لم يكن قادراً على الوقوف على قدميه. وكان قد أعياه اليأس لأنَّه لم يستطع العثور على مكانٍ يرتمي فيه ميِّتاً، ولأنَّ جوعه كان يزداد باطِّرادٍ، وثيابَه تتساقط أسمالاً. استبدَّ به يأسٌ شديدٌ، فدخل بيتاً قديماً خارج أسوار المدينة، ونزع رباطَي حذائه المصنوعَين من القنَّب والقطن، وبعقدهما معاً، صنع أنشوطةً متينةً، وربط أحد طرفيها إلى عارضةٍ وصعد على كومةٍ من الحجارة جمعها بنفسه، وقفز.

ولكن شاء القدر أن تكون العارضة متآكلةً من الرُّطوبة والدِّيدان، فانكسرت من منتصفها من شدَّة الرَّجَّة، واصطدمت خاصرةُ المشنوق الحيِّ بقوَّةٍ بالحجارة، وبقي يتألَّم عدَّة أيَّام. ولكن، بانكسار تلك العارضة، هطل منها على الأرض وابلٌ من السَّلاسل والقلائد والخواتم الذَّهبيَّة التي

كانت مخبَّأةً هناك داخل التَّجاويف التي صنعتها الدِّيدان، ومن بين ما تساقط حقيبةٌ من الجلد القرطبيِّ مليئةٌ باللِّيرات.

ورأى بارمييرو كيف أنَّه بقفزة مشنوقٍ قفز خارجاً من حفرة البؤس، وإذا كان في السَّابق معلَّقاً بأنشوطة اليأس، فإنَّه الآن معلَّقٌ بحبال البهجة، وقدماه لا تلامسان الأرض. وبعد أن جمع هبة الحظِّ تلك، ذهب بسرعة إلى الحانة لإنعاش روحه التي كادت تفارقه. وكانت تلك الأشياء قد سُرِقَتْ من قِبَل بعض اللُّصوص من صاحب الحانة التي لجأ إليها بارمييرو لتَناول الطَّعام، وكان أولئك قد خبَّأوها في العارضة التي يعرفونها جيِّداً لكي يعودوا إليها بين فترةٍ وأخرى ويأخذوا في كلِّ مرَّةٍ القليل منها وينفقوه على ملذَّاتهم. وبعدما ملأ بارمييرو معدته تماماً، تناول حقيبته ليدفع الحساب، ولكنَّ صاحب الحانة تعرَّفَ الحقيبةَ، فاستدعى رجال الشُّرطة في الحال، وكانوا من زبائن الحانة، وجعلهم يقبضون عليه.

اقتاد رجالُ الشُّرطة بارمييرو في مراسم مهيبةٍ للمثول أمام القاضي، وبتفتيشه عثروا على أدلَّة الجريمة، وبمقارنة الأدلَّة بممتلكات صاحب الحانة لم يتأخَّر إثبات التُّهمة عليه، وأُدين للَّعب بالثَّلاثة[1]، في لعبةٍ كانت قدماه ستدور فيها كمروحة الطَّاحونة. وحين وجد الرَّجل البائس نفسه في هذا المأزق، وأدرك أنَّ ليلةَ أربطة الحذاء سيعقبها عيدُ الحبل المضفور، وبروفةَ العارضة المهترئة سيعقبها مشهدُ العارضةِ ذات المشنقة الجديدة، بدأ ينتفض ويصيح بأنَّه كان بريئاً وبأنَّه سوف يطعن في صحَّة الحكم. وبينما كان يزعق ويصيح في الشَّارع أنَّه ليس هناك عدالة، وأنَّ استغاثة الفقراء لا يصغي إليها أحد، وأنَّ المحاكم تُصدر أحكاماً عشوائيَّة، وأنَّه بسبب عدم قيامه بدهن يد القاضي، ووضْع لقمةٍ في فم الكاتب، وبقشيشٍ في كفِّ النَّاسخ، وإكراميَّةٍ في جيب المدَّعي العام، تمَّ إرساله إلى معلِّمة الأرامل[2] ليطرِّز نقاطاً في الهواء، التقى شقيقَه مصادفةً.

---

1) أي لتعليق نفسه بثلاث ركائز، العِضادتَين والعارضة التي بينهما؛ (المترجمان).

2) المشنقة؛ (كروتْشِه).

فما كان من هذا الأخير، بصفته مستشاراً ورئيسَ دائرةٍ مناوباً[1]، إلاَّ أن أوقف موكب العدالة ليصغي إلى حجج المُدان، وبعد أن أفضى إليه بها، قال له: "اخرس، فأنت لا تعرف كم أنت محظوظ؛ إن كنتَ، في المحاولة الأولى، قد عثرتَ على سلسلةٍ من الذَّهب طولها ثلاثة أشبارٍ، فلا شكَّ أنَّك هذه المرَّة عثرتَ على أخرى طولها ثلاث خطوات. اذهب إذاً، وليملأ السُّرور قلبك، لأنَّ المشانق أخواتك بالدَّم، وحيث الآخرون يفرِّغون حياتهم، ستملأ أنت حقيبتك".

شعر بارميرو بأنَّه يهزأ به، فأجاب: "لقد جئتُ طالباً العدالة وليس السُّخرية: واعلم أنَّ يديَّ نظيفتان ممَّا ألصقوه بي، فأنا رجلٌ شريفٌ وإن رأيتني رثَّ الهيئةِ وفقيراً، لأنَّ الثَّوب لا يصنع الرَّاهب. ولكن، لأنَّني لم أصغ إلى ماركيونِّه والدي، وماركوتشو أخي، مررتُ بهذه التَّجربة وأنا على وشك أن أغنِّي قصيدةً عاطفيَّةً بثلاثةِ تحت أقدام الجلَّاد".

حين سمع ماركوتشو اسمه واسم أبيه، شعر بالدَّم يستيقظ في عروقه، وبعد أن حدَّق مليَّاً ببارميرو، بدا له أنَّه يعرفه؛ وفي النِّهاية، وقد أيقن أنَّه أخوه، وجد نفسه ممزَّقاً بين مشاعر العار ومشاعر الأخوَّة والشَّرف، وبين العدالة والشَّفقة. كان خجلاً من إفشاء أنَّه أخٌ لمحكومٍ بالإعدام، ويرتجف لرؤية مَن هو مِن دمهِ ينتهي تلك النِّهاية؛ كان اللَّحم يجذبه كالخطَّاف ليمنح المأوى لتلك الحقيقة، والشَّرف يسحبه إلى الخلف لئلَّا يشعر بالعار أمام الملك إذا عرف أنَّه شقيق متَّهمٍ تريد العدالة أن تردَّ منه الحقَّ للطَّرف المتضرِّر؛ وكانت الشَّفقة تحثُّه على إيصال أخيه إلى برِّ الأمان.

وبينما هو في هذا الموقف، متوازناً مع دماغه ومتحيِّراً مع رأسه، إذا بمأمور القاضي يركض ولسانه يتدلَّى شبراً خارج فمه وهو يصيح: "أوقفوا، أوقفوا التَّنفيذ! توقَّف... توقَّف، تمهَّل، انتظر!". "ما الخطب؟"، قال

---

1) كانت المحكمة في نابولي مقسَّمةً إلى أربع دوائر: دائرتين مدنيَّتين، ودائرتين جنائيَّتين، وكان لكلِّ دائرةٍ مستشارٌ ورئيس دائرةٍ مناوب؛ (كروتشِه).

المستشار. وأجاب المأمور: "لقد حدث شيءٌ عظيمٌ، لحسن حظّ هذا الشَّاب، لأنَّ لصَّين كانا قد ذهبا لأخذ بعض الذَّهب وبعض النُّقود التي كانا قد خبَّآها في عارضة ذلك البيت القديم، ولم يعثرا عليها، فظنَّ كلُّ واحدٍ منهما أنَّ شريكه قد استولى عليها، فتشاجرا وأصاب كلٌّ منهما الآخر بجروحٍ مميتة. وحين صل القاضي إلى مكان الحادث، اعترفا بالسَّرقة، وهكذا، بعد الحكم ببراءة هذا الرَّجل المسكين، أرسلوني على وجه السُّرعة لإيقاف تنفيذ الحكم وإطلاق سراحه لأنَّه غير مذنب".

عند سماعه هذا الكلام، نما بارمييرو شبراً واحداً، هو الذي كان مرتعباً من أن يطول ذراعاً. وحين رأى ماركوتشو أخاه يستعيد شرفه، خلع قناعه وقرَّر أن يعرِّف نفسَه قائلاً للآخر: "يا أخي، إذا كنتَ رأيتَ الآن أنَّ الرَّذائل ولعب القمار كانت مَهْلَكَتَك، فاعلم أنَّ الفضيلة وحدها يمكنها بالمثل أن تمنحك السَّعادة والخير. تعال إذاً بلا خوفٍ إلى بيتي، حيث ستستمتع معي بثمار الفضيلة، تلك التي كان بينك وبينها الكثير من الجفاء، وأنا سأنسى الاستخفاف الذي قابلتني به، وسأعاملك كبؤبؤي عينيَّ".

وهكذا، بعد أن عانقه، قاده إلى بيته، وألبسه من رأسه إلى قدميه، وجعله يدرك بالحجَّة والدَّليل أنَّ كلَّ ما عدا الفضيلة هباء، وأنَّ:

الفضيلةَ وحدها تجعل الإنسان سعيداً.

ملوكُ الحيوانات الثَّلاثة
المؤانسة الثَّالثة من اليوم الرَّابع

يذهب تيتُّونِه، ابن ملك فيرديكُولِّه[1]، للبحث عن أخواته المتزوِّجات بصقرٍ ووعلٍ ودلفين، وبعد رحلاتٍ طويلةٍ يعثر عليهن. وفي طريق العودة، يصادفون ابنة ملكٍ كان قد أسرها تنِّينٌ داخل أحد الأبراج، وبإشارةٍ منه، يساعده أزواج شقيقاته الثَّلاث في القضاء على التِّنِّين وإطلاق سراح الأميرة التي يتَّخذها زوجةً له، ويعود إلى مملكته مع أصهاره وشقيقاته.

حرَّكت الشَّفقة التي أظهرها ماركوتشو لبارميرو مشاعرَ العديد من المستمعين، وأكَّد الجميع أنَّ الفضيلة ثروةٌ مضمونةٌ لا يستهلكها الوقت ولا تأخذها العاصفة ولا ينخرها الدُّود، بينما ثرواتُ الدُّنيا الأخرى تأتي وتذهب، والمال الحرام لا يدوم حتى يصل إلى الجيل الثَّالث من الورثة. في النِّهاية، بغيةَ تتبيل الحكاية التي رُوِيَت، أحضرت مينيكا إلى مائدة القوافي الحكاية التَّالية:

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، ملكٌ من فيرديكُولِّه لديه ثلاث بناتٍ في غاية الجمال، ومن أجلهنَّ كان أبناء ملك بيلبراتو الثَّلاثة يحترقون في أتون الحُبِّ. ولكن، لمَّا كان الثَّلاثة قد انتهوا إلى هيئة حيواناتٍ بسبب لعنة إحدى الحوريَّات، رفض ملك فيرديكُولِّه تزويجهم بناته.

---

1) تعني حرفيًّا: الأكمة الخضراء؛ (المترجم).

ولهذا استدعى أوَّلهم، وكان صقراً جميلاً، كلَّ الطُّيور إلى اجتماعٍ توافدَت إليه الصَّغانج، وعصافير جبال رياتيني، والصُّفاريَّات، وحساسين الشَّوك، والقراقف الكبيرة، والأبوام، والهداهد، والقبَّرات، والوقاويق، وغربان الصُّرُود، وغيرها من أجناس الطَّير، وأرسلها جميعاً لتدمِّر أشجار فيرديكُولِّهْ، فلم تُبقِ عليها زهرةً ولا ورقة.

واستدعى الثَّاني، وكان وعلاً، كلَّ المِعاز والأرانب الدَّاجنة والأرانب البرِّيَّة والقنافذ والحيوانات الأخرى التي تعيش في تلك الأرض، وأرسلهم ليتلفوا البذور، فلم يُبقوا نصلةَ عشبٍ قائمةً ولم يَذَروا.

أمَّا الثَّالث، وكان دلفيناً، فبعد أن تواطأ مع مِائة وحشٍ بحريٍّ، أرسل الكثير من العواصف التي لم تترك قارباً واحداً سليماً في ذلك الميناء.

لهذا السَّبب، حين رأى أنَّ الأمور تسير نحو الأسوأ، وأنَّه لا يستطيع إصلاح الأضرار التي يلحقها به العشَّاق البرِّيُّون الثَّلاثة، قرَّر الملك أن يخرج من هذا المأزق ووافق على تزويجهم بناته. فما كان من أولئك، الذين لم يرغبوا في حفلاتٍ وموسيقى، إلَّا أن أخذوا زوجاتهم إلى خارج المملكة. ولكن، عند مغادرة العرائس الثَّلاث، منحتهنَّ الملكة غراتسولَّا، ثلاثة خواتم متشابهةٍ، خاتماً لكلِّ ابنةٍ، قائلةً إنَّه، إن اضطررن إلى الافتراق أو الالتقاء مجدَّداً بعد فترةٍ من الوقت، أو احتجن إلى رؤية شخصٍ من دمهنَّ ولحمهنَّ، فعن طريق الخواتم يمكنهنَّ أن يتعرَّفن بعضهنَّ بعضاً.

أخذ الصَّقر فابيلَّا، وكانت الابنة البكر، إلى جبلٍ شاهقٍ جدَّاً لدرجة أنَّه، بعد أن يتجاوز حدود السَّحاب، يصل برأسٍ جافٍّ إلى حيث لا تمطر أبداً، وهناك، في قصرٍ بديعٍ، احتفظ بها كملكة. واقتاد الوعلُ فاستا، وكانت الثَّانية، إلى غابةٍ كثيفةٍ جدَّاً لدرجة أنَّ الظِّلال، حين يدعوها اللَّيل، لم تكن تعرف أيَّ طريقٍ تسلك لتخرج وتغازله؛ وجعلها تقيم، أسوةً به، في منزلٍ مدهشٍ تكتنفه حديقةٌ لا نظير لها في الجمال. بينما سبح الدُّلفين

حاملاً على ظهره ريتا، وكانت الثَّالثة، في عرض البحر، وهناك، فوق صخرةٍ جميلةٍ، اتَّخذ لها بيتاً مجهَّزاً يمكن أن يعيش فيه ثلاثة ملوكٍ متوَّجين.

في هذه الأثناء، أنجبت الملكة غراتسولَّا ابناً ذكراً أسمته تيتُّونه، وهذا، عندما بلغ الخامسة عشرة من العمر وسمع والدته تشكو دائماً حزنها على بناتها الثَّلاث اللَّاتي تزوَّجن بثلاث كائناتٍ مسحورةٍ، ولم تعد تعرف شيئاً عنهنَّ، اقترح أن يضرب في الآفاق إلى أن يحصل على خبرٍ من أخبارهنَّ. وبعد إصرارٍ طويلٍ لدى أبيه وأمِّه، حصل على الموافقة المرغوبة، وزُوِّدَ بجميع الوسائل والمرافقين الذين كانوا ضرورةً ومظهراً لائقاً لأميرٍ مثله، وأعطته الملكة خاتماً آخر، شبيهاً بتلك الخواتم التي أعطتها لبناتها.

لم يترك تيتُّونه ثقباً في إيطاليا، ولا مخبأً في فرنسا، ولا أيَّ جزءٍ في إسبانيا لم يبحث فيه، وبعد أن اجتاز إنجلترا، وقطع بلاد الفلاندرز وزار بولونيا، وباختصارٍ، بعد أن طوى بلاد المشرق والمغرب، وفي النِّهاية، بعد أن ترك جميع الخدم، شطراً في الحانات، وشطراً في المستشفيات، وبقي خالي الوفاض من المال، وجد نفسه على جبلٍ يقطنه الصَّقر وفابيلَّا.

وبينما هو مستغرقٌ في تأمُّل جمال ذلك القصر الذي كانت أركانه من الحجر السُّمَّاقيِّ، وجدرانه من المرمر، ونوافذه من الذَّهب، وقرميد سقفه من الفضَّة، رأته أخته وطلبت منه الصُّعود إلى الأعلى وسألته مَن يكون ومن أين أتى وأيُّ قَدَرٍ ساقه إلى تلك البلاد. وحين سمعت من تيتُّونه اسم البلد والأب والأمِّ واسمه، عرفت فيه شقيقَها، وهو ما أكَّدته لها مقارنة الخاتم الذي تحمله بإصبعها بذاك الذي أعطته إيَّاه أمُّه. فعانقته بفرحٍ عظيمٍ، ولأنَّها شكَّت في أنَّ زوجها قد يشعر بالأسف لمجيئه، خبَّأته في مكانٍ آمن.

حين عاد الصَّقر إلى المنزل، بادرته فابيلَّا قائلةً إنَّها بدأت تشعر بشوقٍ كبيرٍ إلى أقاربها، فأجابها: "اطرحي هذه الرَّغبة جانباً، يا زوجتي، لأنَّ هذا لا يمكن أن يحدث طالما أنَّني لست في مزاجٍ جيِّدٍ". "على الأقلِّ – قالت

فابيلّاً – فلنرسل في دعوة شخصٍ من أقاربي ليواسيني في غربتي". "ومن يريد أن يأتي ويراك في هذا المكان البعيد؟"، ردَّ الصَّقر. "فإذا جاء أحدهم – تابعت فابيلّاً، – هل ستشعر بالأسف؟". "ولماذا سآسف؟ – تابع الصَّقر. – يكفي أن يكون من دمك لأضعه في عينيَّ".

بعد أن سمعت فابيلّاً ذلك، تشجَّعت وجعلت أخاها يخرج من مخبئه وقدَّمته إلى الصَّقر الذي قال: "خمسةٌ زائد خمسةٍ يساوي عشرة؛ الحبُّ يتجاوز القفَّاز والماءُ الجزمة[1]. أهلاً بك، وعلى الرَّحب والسَّعة؛ أنت سيِّد هذا البيت: مُرْ وافعلْ ما تشاء". وأصدر أوامره بأن يُكرَّم ويُخدَم كما يُكرَّم ويُخدَم هو نفسُه. وبعد أن بقي تيتُّونه خمسة عشر يوماً في ذلك الجبل، أراد أن يذهب ويبحث عن شقيقتيه الأخريَين، فودَّع فابيلّاً والصَّقر، وأعطاه هذا الأخير ريشةً من ريَشِه، وقال له: "احمل هذه الرِّيشة، يا عزيزي تيتُّونه، واحتفظ بها جيِّداً، لأنَّك قد تجد نفسك في حاجةٍ ماسَّةٍ إليها، وحينئذٍ ستجد أنَّها لا تقدَّر بثمن. احرص عليها جيِّداً؛ فإذا اضطررت إلى شيءٍ ما، ارمها على الأرض، وقل: 'تعال، تعال'، وستكون لي من الشَّاكرين".

لفَّ تيتُّونه الرِّيشة بورقةٍ ووضعها في حقيبته الصَّغيرة، وبعد العديد من طقوس الوداع غادر. سار طويلاً حتى لا يمكن حصر المسافة التي قطعها؛ إلى أن وصل إلى تلك الغابة التي يسكن فيها الوعل مع فاستا، وبينما كان يدخل الحديقة، مدفوعاً بالجوع، ليقطف بعض الثَّمرات، شاهدته أخته وتعرَّفته بالطَّريقة نفسها التي تعرَّفته بها الأولى، فقدَّمته إلى زوجها الذي استقبله بحفاوةٍ كبيرةٍ وعامله حقَّاً كأمير، وحين أراد أن يسافر، بعد خمسة

---

1) في أثناء المصافحة، يمكن الشُّعور بمحبَّة الشَّخص من خلال القفَّاز أيضاً. «تمسُّهم اليد، والحبُّ يسري عبر القفَّاز»، (في القصيدة التي كتبها الأب ف. فروغوني تحت اسم فلامينيو فلاورو، La guardinfanteide، بيرودْجا 1643). ويستشهد سبيروني في كتابه «Proverbs and proverbìal phrases in Basile's Pentameron» (بيركيلي 1941)، بالتَّفسير الأكثر اكتمالاً: إنَّ العرف يقتضي إزالة القفَّاز قبل المصافحة، ولكن عندما لم يكن ذلك يحدث بسبب العجلة، كان يقال: الحبُّ يمرُّ عبر القفَّاز. بينما العبارة الثَّانية، «والماء الجزمة»، فيبدو أنَّها أضيفت لاحقاً من قبل شخصٍ يتمتَّع بروحٍ مرحة؛ (كروتْشِه).

عشر يوماً، ليبحث عن شقيقته الثَّالثة، أعطاه الوعل وبرةً من وَبَرِه، ملقِّناً إيَّاه الكلماتِ نفسَها التي لقَّنه إيَّاها الصَّقر.

استأنف تيتُّونه رحلته مع وَفْرٍ من النُّقود نَفَحَهُ إيَّاها الصَّقر، ومع وَفْرٍ يعادلها تحصَّل عليه من الوعل، ثمَّ مشى حتى بلغ أقاصي الأرض. وهنا، بعدما نَهِكَهُ التَّعب، استأجر سفينةً وقرَّر أن يزور جميع الجُزر متقصِّياً الأخبار عن شقيقته، فترك الشِّراع للرِّيح وطوَّد في البحر كثيراً إلى أن وصل إلى جزيرةٍ يعيش فيها الدُّلفين مع شقيقته ريتا. وهنا، ما إن رست سفينته على الشَّاطئ حتى رأته شقيقته وتعرَّفته واستقبلته بطريقة أختيها السَّابقتين نفسها، وحين أراد السَّفر ليعود إلى أمِّه وأبيه، أعطاه الدُّلفين حرشفةً مع تعليمات صهريه الآخَرين نفسها.

بعد ذلك، غادر الجزيرة وعاد إلى اليابسة وامتطى حصاناً، ولم يكن قد ابتعد نصف ميلٍ عن الميناء حين دخل غابةً كانت تبدو، لكثافتها، ملاذاً حرَّاً للخوف والظِّلال، ومَعْرِضاً دائماً للرُّعب والظَّلام. وجد تيتُّونه في تلك الغابة برجاً كبيراً يقوم في منتصف بحيرةٍ تلثم ضفافها أقدام الأشجار لكي تحجب عن الشَّمس قبحها؛ وفي نافذة البرج كانت هناك شابَّةٌ في منتهى الجمال بالقرب من قدمَي تنِّينٍ شنيعٍ غارقٍ في النَّوم. وحالما رأت الفتاة تيتُّونه، قالت له بصوتٍ رقيقٍ ونبرةٍ تستدرُّ الشَّفقة: "آه أيُّها الشَّابُّ الجميل، ربَّما أرسلتك السَّماء لتواسي بؤسي في هذا المكان الذي لا يُرى فيه أبداً وجهُ إنسان؛ خلِّصني من سطوة هذا التِّنِّين الطَّاغية الذي اختطفني من ملك كيارافالِّه[1]، أبي، وحبسني في هذا البرج المهجور، حيث بدأتُ أتعفَّنُ وأَعْطَنُ". "ويحكِ! – أجاب تيتُّونه – ماذا يمكنني أن أفعل لخدمتك، يا فتاتي الجميلة؟ من يستطيع عبور هذه البحيرة؟ من يستطيع تسلُّق هذا البرج؟ من يستطيع الاقتراب من هذا التِّنِّين القبيح الذي يُرعب بالنَّظرة، ويزرع الخوف ويبعث القشعريرة؟ ولكن تمهَّلي، انتظري قليلاً، لأنَّنا سنحاول

1) تعني حرفيّاً: الوادي السَّاطع؛ (المترجمان).

اصطياده بمقبضٍ آخر؛ خطوةً بخطوةٍ كما كان يقول غراداسُّو؛ وسوف نرى الآن أريحٌ هو أم وقواقٌ!"[1]

وفي آنٍ واحدٍ ألقى الرِّيشة والوبرة والحرشفة اللَّاتي أعطاها له أزواج شقيقاته، قائلاً: "تعال، تعال!". وعلى الأثر، كما لو أنَّ تلك الأشياء كانت قطيرات ماءٍ صيفيٍّ تنجب الضَّفادع، ظهرَ الصَّقر والوعل والدُّلفين، وصاحوا بصوتٍ واحدٍ: "ها نحن هنا! ماذا تأمر؟".

حين رآهم تيتُّونه أمامه، قال بفرحٍ عظيمٍ: "لا أريد سوى أن أخلِّص تلك الشَّابَّة المسكينة من براثن ذلك التِّنِّين، وأُخرجها من البرج، ثمَّ أهدم كلَّ شيء، وأتَّخذها زوجةً لي". "صه! - أجاب الصَّقر، - لأنَّ الفول ينمو حيث لا تتوقَّع: سنجعله يدور الآن فوق كارلينو[2] ونريد أن تبقى له أقلُّ مساحةٍ من الأرض". "دعونا لا نضيِّع الوقت - ردَّ الوعل: - البليَّة والمعكرونة تُؤكلان ساخنتَين".

وهكذا، جلب الصَّقر سرباً من نسور جريفون، فطار هؤلاء إلى نوافذ البرج وخطفوا الشَّابَّة وأخرجوها من البحيرة، وأنزلوها بالقرب من تيتُّونه وأزواج شقيقاته. وإن كانت قد بدت من بعيدٍ قمراً لتيتُّونه، فقد رآها عن قربٍ شمساً لجمالها الباهر. ولكن، بينما كان يعانقها ويهمس لها كلماتٍ حلوةً، استيقظ التِّنِّين، ومرتمياً من النَّافذة، اندفع لابتلاع تيتُّونه. عندئذٍ أخرجَ الوعل قطيعاً من الأسود والنُّمور والفهود والدِّببة والقطط الشَّيطانيَّة، فانقضَّ هؤلاء عليه وجعلوه أشلاءً بمخالبهم الحادَّة.

بعد ذلك، أراد تيتُّونه أن يغادر؛ ولكنَّ الدُّلفين قال له: "أنا أيضاً أريد أن أفعل شيئاً لخدمتك". ولكيلا تبقى لمثل هذا المكان الحزين واللَّعين

1) ترنيمةٌ يردِّدها الأطفال خلال لعبة «افتح الباب للصَّقر المسكين»؛ (كروتشه).

2) عبارةٌ تقال عن الخيول التي تدور في بقعةٍ صغيرةٍ، والكارلينو كانت قطعةً نقديَّةً من الفضَّة؛ (كروتشه).

ذكرى، جعل البحر يرتفع، وبعد أن خرج هذا من محيطه، اصطدم بهيجانٍ كبيرٍ بالبرج ونسفه من أساساته.

شكر تيتُّونِه أزواج شقيقاته من أعماق قلبه، وطلب من عروسه أن تفعل الشَّيء نفسه، لأنَّهم خلَّصوها من خطرٍ جسيم. ولكنَّ الحيوانات الثَّلاثة أجابوا: "في الواقع، نحن من يجب أن نشكر هذه السَّيِّدة الجميلة، لأنَّنا بفضلها سنعود إلى خِلقتنا الطَّبيعيَّة، نحن الذين، بسبب الاستياء الذي سبَّبته أمُّنا لإحدى الجنِّيَّات، ألقَتْ علينا هذه الأخيرة لعنةً منذ ولادتنا بأن نبقى دائماً في هيئة حيواناتٍ إلى أن نحرِّر ابنة ملكٍ من معاناةٍ عظيمة. وها قد حان الوقت الذي انتظرناه، ها قد نضجت الغُبَيراء، وها نحن بدأنا نحسُّ بالفعل بروحٍ جديدةٍ في صدورنا، ودمٍ جديدٍ في عروقنا". وقبل أن ينتهوا من كلامهم، تحوَّلوا إلى ثلاثة شبَّانٍ وسيمين، وعانقوا نسيبهم الواحد تلو الآخر، ولمسوا يد القريبة الجديدة التي كانت منخطفةً من الفرح.

إزاء هذا العرض، أرسل تيتُّونِه تنهيدةً كبيرةً وقال: "آه يا ربِّي، ولماذا لا يشاركاننا البهجة أمِّي وأبي؟ سيطيران من الفرح برؤيتهم ثلاثة أصهارٍ بمثل هذا الجمال والوسامة". "لم يحن اللَّيل بعد – أجاب الأصهار: – الخجل من رؤية أنفسنا في هذه الهيئة جعلنا نفرُّ من رؤية البشر، ولكن الآن، بفضل نعمة السَّماء، يمكننا أن نظهر بين النَّاس، ونريد أن نجتمع كلُّنا تحت سقفٍ واحدٍ مع زوجاتنا وأن نعيش في هناء. ولذلك، فلنمضِ بسرعةٍ، وقبل أن تُفرغ الشَّمس، صباح غدٍ، حمولتها من الأشعَّة على حدود الشَّرق، ستكون زوجاتنا معنا".

ولكيلا يذهبوا سيراً على الأقدام، لأنَّه لم يكن هناك سوى فرسٍ مرهقةٍ كان قد سافر عليها تيتُّونِه، ذرأوا عربةً جميلةً تجرُّها ستَّة أسودٍ، وجلس خمستهم على متنها. وبعد رحلة نهارٍ كاملٍ، وجدوا أنفسهم مساءً في

إحدى الحانات، حيث، بينما كانوا يعدُّون الطَّعام، زجُّوا الوقت في قراءة الكثير من الشَّهادات عن جهل الرِّجال الذين توقَّفوا على الأسوار[1]. وحين حان وقت الذَّهاب إلى الفراش، تظاهر الشُّبَّان الثَّلاثة بالنَّوم، ثمَّ شغلوا أنفسهم طوال اللَّيل، إلى أن في الصَّباح، حين تختبئ النُّجوم، خجلةً مثل فتياتٍ عانساتٍ، من الشَّمس، التقوا في الحانة نفسها مع زوجاتهم. كان العناق بينهم رائعاً والفرح الذي شعروا به لا يوصف، ثمَّ اتَّخذ الثَّمانية أماكنهم في العربة، وبعد طريقٍ طويلٍ، وصلوا إلى فيرديكولِّه، حيث استقبلهم الملك والملكة بحفاوةٍ كبيرةٍ، وقد اكتسبا كرأسمالٍ ابناً وثلاث بناتٍ كانا يعدَّانهم مفقودين، وكفائدةٍ ثلاثة أصهارٍ وكنَّةٍ كأنَّهم أربعة أعمدةٍ من معبد الجمال. ثمَّ أرسلوا سفراء إلى ملكَي بيلبراتو وكيارافالِّه لإطلاعهما على أخبار أبنائهما، وحضر ذانك الاثنان الحفلة ليضيفا بسرورهما مزيداً من دهون المرح إلى وعاء الزِّفاف ويعوِّضا عن المعاناة السَّابقة بالكامل:

لأنَّ ساعةً من السُّرور،

تُنسي المرءَ ألف سنةٍ من العذاب.

1) يقصد الحانات الموجودة على أسوار المدينة؛ (كروتشِه).

سبع قطع من جلد الخنزير[1]
المؤانسة الرَّابعة من اليوم الرَّابع

تضرب متسوِّلةٌ عجوزٌ ابنتها الشَّرهة التي أكلت سبع قطعٍ من جلد الخنزير بالعصا، وحين تُقنع أحد التُّجَّار بأنَّها عاقبتها لأنَّها عملت كثيراً لملء سبعة مغازل، يتَّخذها زوجةً له. ولكنَّ الفتاة تأبى العمل، وبفضل مساعدة إحدى الحوريَّات، يعود زوجها من رحلةٍ ويجد النَّسيج مغزولاً؛ وأخيراً، مع خدعةٍ جديدةٍ، تقنعه بألَّا يجعلها تشتغل أبداً خشيةَ أن تمرض.

بارك الجميعُ فم مينيكا لأنَّها روت حكايتها بذوقٍ كبيرٍ استطاعت من خلاله أن تضع أمام عيون المستمعين أشياء حدثت في الماضي البعيد. وأغرى هذا تولَّا وحرَّك فيها الرَّغبة في أن تتجاوز مينيكا؛ ولذلك، بعد أن نظَّفت حلقها، تكلَّمت على النَّحو التَّالي:

ليس هناك قولٌ مأثورٌ لا يقول نصفَ الحقيقة أو كاملَها، وعلى هذا فإنَّ مَن قال: "وجهٌ ملويٌّ وحظٌّ مستقيمٌ"، كان ملمَّاً بشؤون العالم، وربَّما قرأ قصص أنطوُونو وبالميرو: خذ حظَّك يا أنطوُونو، ولا تكن في شكٍّ، فمن دون دبقٍ يمكنك صيد عصفور التِّين؛ وبالتَّجربة نرى أنَّ هذا العالم

1) ثمَّة مثلٌ إيطاليٌّ يقول: «من الخنزير لا يُرمى أيُّ شيءٍ»، بما في ذلك جلده السَّميك الذي يحتوي على طبقة من الدُّهن وتحضَّر منه أطباقٌ عديدةٌ، أشهرها «حساء الفاصولياء الحمراء بجلد الخنزير»، وهو طبقٌ شائعٌ بشكلٍ خاصٍّ في وسط إيطاليا، في مقاطعات أومبريا، ماركه وتوسكانا، وكان في الماضي من الأصناف المرغوبة جدّاً في أوساط الفلاَّحين في الأرياف؛ (المترجمان).

صورةٌ نقيَّةٌ وكاملةٌ لأرض كوكَّانيا(1)، حيث من يتعب أكثر يكسب أقلَّ؛ وحيث يعيش أفضل من الآخرين مَن يأخذ الحياة كما هي وينتظر أن تسقط المعكرونة في حلقه؛ لأنَّه واضحٌ وضوح النَّهار أنَّه بالقوارب المهترئة، وليس بالسُّفن الفاخرة، تؤخَذ النُّهُباتُ وغنائمُ الحظِّ، كما ستسمعون الآن.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، متسوِّلةٌ عجوزٌ، تحمل كبَّةً من الغزل بيدها، وتبصق على النَّاس في الشَّوارع، وتدور من بابٍ إلى بابٍ طالبةً الصَّدقة. ولأنَّه بالمكر والخداع يُعاش نصف عام(2)، تمكَّنت في أحد الأيَّام من إقناع بعض النِّسوة رقيقات القلب والسَّاذجات بأنَّها كانت تريد أن تحضِّر مرقةً دسَمةً لابنتها النَّحيفة، فحصلت منهنَّ على سبع قطعٍ من جلد الخنزير حملتها إلى البيت مع حزمةٍ جيِّدةٍ من الحطب كانت قد جمعتها في طريقها، وأعطت قطع جلد الخنزير لابنتها سابوريتا طالبةً منها أن تضعها على النَّار، بينما عادت هي لتتسوَّل بعض الخضرةِ من بعض البستانيِّين لتحضير حساءٍ خفيف.

أخذت سابوريتا قطع جلد الخنزير، وكشطت عنها الشَّعر، ووضعتها في وعاءٍ وشرعت في طهوها. ولكنَّ تلك القطع لم تغلِ في القدْر بقدر ما غَلَتْ في حلقها، لأنَّ الرَّائحة المنبعثة منها كانت تحدِّياً مميتاً في حقل الشَّهيَّة وورقةَ استدعاءٍ إلى بنك الحلق؛ لدرجة أنَّها، بعد أن قاومت وقاومت، سمحت لنفسها في النِّهاية، مستثارةً من رائحة القِدْر، ومدفوعةً بشراهتها الطَّبيعيَّة، ومأخوذةً بأنياب الجوع الذي كان ينهشها، بأن تتذوَّق قطعةً، فاستلذَّت طعمها كثيراً وقالت لنفسها: "من يَخَفْ، فليعمل شرطيّاً! أنا

1) كوكَّانيا (Cuccagna) في الأصل كلمةٌ تشير إلى بلد خياليٍّ فيه وفرةٌ كبيرةٌ من الطَّعام والشَّراب وكلِّ أنواع الملذَّات والتَّرفيه، ومجازيّاً يصف حالةً من رغد العيش يحصل من خلالها المرء على الأشياء دون أيِّ جهدٍ يُذكَر؛ (المترجمان).

2) وبقيَّة المثل تقول: وبالخداع والمكر يُعاش النِّصف الآخر؛ (كروتشِه).

هنا الآن! فلنأكل وليحدث ما يحدث. هل هذا أكثر من قطعة جلدٍ؟ ما الذي يمكن أن يحدث؟ لديَّ جلدٌ لأدفعه ثمناً لما سآكله!".

وهكذا، التهمت القطعة الأولى؛ وحين دغدغتها معدتُها بقوَّةٍ، وضعت يدها على القطعة الثَّانية؛ ثمَّ قضمت الثَّالثة؛ وشيئاً فشيئاً، واحدةً تِلْوَ الأخرى، أتت على القطع السَّبع كلِّها.

وبعد أن رأت أنَّها أساءت صُنعاً، بدأت تفكِّر في الخطأ الذي ارتكبته، ومرتئيةً أنَّ قطع الجلد ينبغي أن تبقى في حلقها، فكَّرت في خداع أمِّها؛ وهكذا، تناولت حذاءً قديماً، وقطعت نعله إلى سبع شرائح وألقتها في الوعاء. في هذه الأثناء، وصلت الأمُّ مع باقةٍ من القنَّبيط الأخضر، وفرمتها إلى قطعٍ صغيرةٍ مع كلِّ السُّوق حتى لا تضيِّع منها ذرَّةً واحدةً، وحالما رأت الماء يغلي من الحوافِّ إلى القاع، ألقت فيه القنَّبيط الأخضر وأضافت إليه بعض الدُّهن الذي نالته كصدقةٍ من حوذيٍّ فاض ذلك الدُّهن عن حاجته بعد دَهْنِ عجلات عربته. ثمَّ جعلت ابنتها تمدُّ قطعة قماشٍ على صندوقين من خشب الحور العتيق، وأخرجت من كيسها قطعتين من الخبز اليابس، وتناولت عن أحد الرُّفوف وعاءً خشبيّاً مستديراً، ووضعت فيه الخبز المفتوت وسكبت فوقه حساء القنَّبيط الأخضر مع قطع النَّعل.

وبدأت تأكل؛ ولكنَّها أدركت على الفور أنَّ أسنانها ليست لإسكافيٍّ، وأنَّ جلد الخنزير، مع تحوُّلٍ أوفيديٍّ جديدٍ، كان قد تحوَّل إلى أمعاء جاموس، فالتفتت إلى ابنتها غاضبةً وقالت: "لقد فعلتِها بي أيَّتها الخنزيرة اللَّعينة! أيُّ قذارةٍ وضعتِ في هذا الحساء؟ أتظنِّين بطني حذاءً قديماً، فأردتِ أن تمدِّيه بالكعاب؟ هيَّا، اعترفي بسرعةٍ كيف سار الأمر؛ وإلَّا جعلتكِ تعتقدين أنَّ من الأفضل لو أنَّك لم تولدي، لأنَّني عزمتُ على ألَّا أترك قطعة عظمٍ سليمةً في بدنك!".

أخذت سابوريتا تنكر، ولكن بالتَّضييق عليها من هيجان العجوز، ألقت

باللَّوم على دخان القِدْر الذي أعماها وقادها إلى ارتكاب هذا الخطأ الجسيم. وإذْ رأت العجوز أنَّ طعامها قد تسمَّم، أمسكت بعصا المكنسة وانهالت عليها ضرباً من كلِّ الجهات، فتركتها ثمَّ عاودت ضربها أكثر من سبع مرَّاتٍ، دون أن تهتمَّ أين كانت تصيبها.

وسمع تاجرٌ كان مارّاً بمنزلهما صرخات الابنة، فدخل، وحين رأى وحشيَّة العجوز، انتزع العصا من يدها وقال لها: "ماذا فعلت لك هذه الشَّابَّة المسكينة لترغبي هكذا في قتلها؟ وهل هذه طريقةٌ لمعاقبتها أم لإزهاق روحها؟ هل رأيتِها تعتدي على عرضٍ للفرسان أو تكسر حصَّالات نقودٍ؟ ألا تخجلين من معاملة فتاةٍ مسكينةٍ بهذه الطَّريقة؟".

"أنت لا تعرف ماذا فعلَتْ لي! - أجابت العجوز. - الفاجرة تراني متسوِّلةً ولا تهتمُّ، وتريد أن تدمِّرني مع الأطبَّة والصَّيادلة؛ فقد أمرتُها، لأنَّ الطَّقس حارٌّ، بألَّا تشتغل كثيراً لئلَّا تسقط مريضةً، لأنَّني لا أملك المال لعلاجها، ولكنَّ المتغطرسة أرادت، رغماً عنِّي، أن تملأ سبعة مغازل هذا الصَّباح، مُخاطِرةً بأن تصاب ببعض الالتهابات في القلب وتبقى طريحة الفراش لمدَّة شهرين".

حين سمع التَّاجر هذا الأمر، خطرَ له أنَّ هذه الفتاة الشِّغِّيلة يمكن أن تكون حوريَّة منزله، فقال للمرأة العجوز: "اتركي الغضب جانباً، لأنَّني أريد اجتثاث هذا الخطر من المنزل باتِّخاذ هذه الفتاة زوجةً لي وأخذها معي إلى منزلي، حيث سأعيِّشها عيشةَ الأميرات، لأنَّني، بفضل نعمة السَّماء، أربِّي الدَّجاج، وأسمِّن الخنازير، ولديَّ حمامٌ، ولا أستطيع التَّنقُّل في المنزل لأنَّه ممتلئٌ عن آخره. السَّماء تباركني وعيون الشَّرِّ لا تنال مني: ولكن لديَّ براميل من القمح، وصناديق من الطَّحين، وجِرَارٌ من الزَّيت، وقِرَبٌ من شحم الخنزير، ولحمٌ مقدَّدٌ، ورفوفٌ من الأواني، وأكداسٌ من الحطب، وأكوامٌ من الفحم، وخزانةٌ كبيرةٌ من البياضات، وسرير عرسانٍ، وفوق كلِّ شيءٍ، يمكنني العيش كسيِّدٍ من العائدات والإيجارات؛ إضافةً إلى أنَّني

أستثمر عشرات الدُّوقيات في الأسواق، وإذا حالفني الحظُّ، سأصبح غنيًّا".

وإذْ رأت المرأة العجوز الحظَّ يمطر حين لم تكن تتوقَّع ذلك، أمسكت سابوريتا من يدها وأعطته إيَّاها وفقاً لعادات وتقاليد نابولي، قائلةً: "ها هي ذي، فلتكن لك، من هنا إلى أعوامٍ سعيدةٍ، بالصِّحَّة وورثةٍ جميلين". وطوَّقها التَّاجر بذراعيه وأخذها إلى المنزل ولم يطق الانتظار حتى يحلَّ اليوم الذي يُعقد فيه السُّوق ليشتري الأغراض المناسبة.

يوم الإثنين نهض مبكِّراً، وذهب إلى حيث توجد الفلَّاحات مع سلعهنَّ، واشترى عشرين عُشْراً[1] من خيوط الكتَّان وأعطاها لسابوريتا قائلاً لها: "الآن يمكنك أن تغزلي بقدر ما تشائين، ولن تخافي أن تعثري على مجنونةٍ أخرى غاضبةٍ مثل أمِّك التي كانت تكسر عظامك لأنَّك كنت تملئين المغازل. أمَّا أنا، فلقاءَ كلِّ عشرة مغازل، أريد أن أقدِّم لكِ عشرات القبلات، ولقاءَ كلِّ فتيلٍ من الكتَّان تعطيني إيَّاه، سأعطيك هذا القلب. لذلك، اعملي بجدٍّ، وحين أعود من المعرض، الذي سيستمرُّ عشرين يوماً، دعيني أجد هذه الكمِّيَّة من غزل الكتَّان جاهزةً، لأنَّني أرغب في صنع زوجٍ جميلٍ من الأكمام الحمراء لك، مزنَّرةً بالمخمل الأخضر".

"اذهب إذاً، وبسرعةٍ! - تمتمت سابوريتا بينها وبين نفسها. - لا شكَّ أنَّك فقدتَ عقلك! نعم، هيَّا اركض ومشِّ شغلك! إذا كنت تنتظر قميصاً من صُنع يديَّ، فالأفضل لك من الآن فصاعداً أن تعثر لنفسك على ورق النُّفايات. لأيِّ غرضٍ أخذتني؟ أتظنُّني حليب عنزةٍ سوداء لأغزل في عشرين يوماً عشرين عُشْراً من الكتَّان؟ اللَّعنة على القارب الذي حملني إلى هذا البلد! اذهب، الطَّقس جميل، وسوف تجد الكتَّان منسوجاً عندما ينمو للكبد شَعرٌ وللسَّعدان البربريِّ ذيلٌ".

وحالما غادر زوجها، لم تفكِّر، هي التي كانت شرهةً بقدر ما كانت

---

1) كل عُشرٍ يعادل أربع لفائف؛ (كروتشه).

كسولاً، سوى في أخذ أكياس الطَّحين وجِرَار الزَّيت وتحضير الفطائر المقليَّة والبيتزا؛ ومن الصَّباح إلى المساء كانت تقرض مثل فأرٍ وتُهَلقِمُ مثل خنزير. ولكن، مع اقتراب موعد العودة، بدأت تشعر بالقلق وترتجف وهي تفكِّر في الضَّوضاء والصَّخب الذي سينفجر حين يجد التَّاجر الكتَّان على حاله، والصَّناديق والجِرَار فارغة.

فماذا فَعَلَتْ؟ تناولت وتداً طويلاً جدَّاً، ولفَّت عليه أربع لفائف من الكتَّان مع النُّسَالات والقشور، وغرزت دبُّوساً كبيراً في قرعةٍ هنديَّةٍ، وربطت الوتدَ إلى درابزين الشُّرفة. بعد ذلك، بدأت تدلِّي إلى الأسفل هذا الأبَ المباركَ لجميع المغازل، وهي تحتفظ بجانبها بمرجلٍ كبيرٍ من حساء المعكرونة لتبلِّل أصابعها به، وبينما هي جالسةٌ تغزل خيطاناً رفيعةً مثل حبال أشرعة السُّفن، ومع كلِّ تبليلٍ لأصابعها تردُّ الماء على المارِّين في الأسفل، كما في أيَّام الكرنفال، مرَّت بعض الحوريَّات مصادفةً من هناك وأُعجبن كثيراً بذلك المشهد الغريب، وكدن يمتن من الضَّحك. عندئذ، ألقين عليها سحراً بأن تجد كلَّ خيوط الكتَّان التي في المنزل ليس مغزولةً فحسب، بل ومنسوجةً ومبيَّضةً أيضاً. ونُفِّذ الأمر في طرفة عينٍ، لدرجة أنَّ سابوريتا عامت في دهون الفرح حين رأت السَّماء تمطرها بكلِّ هذا الحظِّ السَّعيد.

ومع ذلك، لئلَّا يحدث لها مرَّةً أخرى أن تواجه مثل هذه المضايقات من زوجها، استلقت على السَّرير، بعد أن وضعت تحت المُلاءات كمِّيَّةً من البندق، وحين وصل الزَّوج، بدأت تئنُّ، وبتقلُّبها ذات اليمين وذات الشِّمال، كانت حبَّات البندق تفرقع تحتها فتبدو الفرقعة وكأنَّها آتيةٌ من عظامها. سألها زوجها بماذا تشعر، فأجابت بصوتٍ واهنٍ: «لا يمكن أن أكون أسوأ ممَّا أنا عليه الآن، لأنَّه لم تبق في جسمي عَظْمَةٌ واحدةٌ سليمة. وهل يبدو لك غزلُ عشرين عُشْراً من الكتَّان في عشرين يوماً، وتحويله إلى قماشٍ أيضاً، كجمع القليل من العشب لخروفٍ؟ لا يا زوجي، أنت لم

تدفع للقابلة، والحمار أكل حسَّك السَّليم، وعندما أموت، لا تقف هناك وتقول: - آه، يا أمِّي! - لذلك، لا تجبرني بعد اليوم على العمل ككلبةٍ. أنا لا أريد، لكي أملأ الكثير من المغازل، أن أُفرِغ مِغْزَلَ حياتي».

قال لها زوجها وهو يداعبها برقَّةٍ: «اعتني بنفسك، يا زوجتي، لأنَّ هذا النَّوْلَ الجميل، نَوْلَ الحُبِّ، أغلى عندي من كلِّ أقمشة العالم. لقد عرفتُ الآن، وأنا أراكِ تفقدين صحَّتكِ، أنَّ أمَّك كانت محقَّةً في عقابك لأنَّك كنت تُفرِطين في العمل. ولكن فلينشرح صدركِ، فأنا عازمٌ على أن أدفع عيناً من عينيَّ مقابلَ شفائك، وانتظري، لأنَّني ذاهبٌ إلى الطَّبيب». وخرج بسرعةٍ ليستدعي السَّيِّد غاتروبولوس[1].

في هذه الأثناء، أكلت سابوريتا البندق وألقت القشور من النَّافذة، وحين جاء الطَّبيب وجسَّ المعصم وتفحَّص الوجه وشاهد البول وشمَّ إناءَ اللَّيل، خلص مع أبقراط وجالينوس إلى أنَّ داءها كان غزارة الدَّم وقلَّة الجهد. بدا للتَّاجر أنَّه يسمع حماقةً كبيرةً، فوضع ليرةً في يده وصرفه بفظاظةٍ لخناء؛ وكان يريد أن يبحث عن طبيبٍ آخر، ولكنَّ سابوريتا أخبرته أنَّه لا حاجة إلى ذلك وأنَّ رؤيته قد شفتها بالفعل.

وهكذا، عانقها زوجها ونبَّهها بأنَّ عليها، من تلك اللَّحظة فصاعداً، أن تسوِّي أمورها بحيث لا تُتعب نفسها بالعمل أبداً، لأنَّه لا يمكن الحصول على النَّبيذ اليونانيِّ والكرنب معاً[2]،

الدَّنُّ مليءٌ والخادمة ثملة.[3]

1) اسمٌ يونانيٌّ، فالكثير من اليونانيِّين كانوا أطبَّاء؛ (المترجمان).

2) لأنَّه في الأماكن التي يُزرع فيها الكرنب لا يمكن أن تنمو الكرمة؛ (كروتشِه).

3) أي لا يمكن للمرء أن يخدم سيِّدَين في الوقت نفسه؛ (المترجمان).

التِّنِّين
المؤانسة الخامسة من اليوم الرَّابع

ترسلُ الملكةُ ميوتشو ليواجه العديد من الأخطار، ولكنَّه يخرج منها جميعاً مرفوعَ الرَّأس بمساعدة طائرٍ مسحور. في النِّهاية، تموت الملكة، ويكتشف أنَّه ابن الملك، فيحرِّر أمَّه التي تصبح زوجةً للملك.

أضافت حكاية قطع جلد الخنزير السَّبع الكثيرَ من الدُّهون إلى حساء متعة الأمير لدرجة أنَّها سالت إلى الخارج، لدى سماعه ذلك الجهل الخبيث والخباثة الجاهلة اللَّذَين روتهما تولَّا عن سابوريتا مع الكثير من التَّوابل. ولكنَّ بوبا، التي لم تكن تريد أن تتنازل ولو عن نقطةٍ واحدةٍ لتولَّا، نشرَتْ شراعها في بحر الثَّرثرة، مع الحكاية التَّالية:

كلُّ من يسعى في إيذاء الآخرين، يجلب الأذى على نفسه؛ ومن يسعَ إلى إيقاع ثالث ورابع شخصٍ في الفخِّ عن طريق الغدر والخداع، غالباً ما يقع في الفخِّ نفسه الذي أعدَّه؛ كما ستسمعون الآن عن ملكةٍ صنعت بيديها المصيدة التي أمسكتها من قدميها.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، ملكٌ من ألتامارينا[1]، وبسبب ما كان يمارسه من قسوةٍ واستبداد، حدث أنَّ ساحرةً، بينما كان يستمتع في أحد الأيَّام مع زوجته في قلعةٍ صغيرةٍ بعيدةٍ من المدينة، استولت على عرشه. عندئذٍ صلَّى لتمثالٍ خشبيٍّ يقدِّم نبوءاته بشكل ألغازٍ، فأتاه الجواب بأنَّه سيستعيد مملكته حين تفقد

1) تعني حرفيّاً: السَّاحل العالي؛ (المترجمان).

السَّاحرة بصرها. ولكنَّ السَّاحرة لم تكن محاطةً بحراسةٍ مشدَّدةٍ فحسب، بل كانت تعرف أيضاً بحدسها النَّاس الذين كان يرسلهم لإيذائها، وكانت تُنْزِل بهم فورًا عدالتها القاسية.

عند رؤية ذلك، شعر الملك بيأسٍ عميقٍ، وأيُّ امرأةٍ كانت تقع بين يديه من تلك المدينة، كان يسلبها شرفها، ومع شرفها حياتها، نكايةً بالسَّاحرة. وبين مئاتٍ ومئاتٍ من أولئك اللَّاتي قادهنَّ سوء حظِّهنَّ ليرين شرفهنَّ يهوي وحياتهنَّ تتحطَّم، صادف أن وقعت بين يديه شابَّةٌ تُدعَى بورتسيِيلَّا، وكانت من ألطف ما يمكن رؤيته على وجه الأرض. كانت ضفائرها أصفاداً حقيقيَّةً لشرطة الحُبِّ، وجبهتها جدولاً خُطَّت عليه تعرفةُ متجرِ نِعَمِ ملذَّات الغرام، وعيناها مصباحين يضمنان لسفن الرَّغبة أن تحوِّل جؤجؤها إلى ميناء السُّعداء، وفمُها خليَّةَ عسلٍ بين سياجين من الورد.

وقعت هذه الشَّابَّة في قبضة الملك، وبعد أن مرَّت مثل الأخريات بالإجراءات المعهودة، أراد أن يقتلها؛ ولكن بينما كان يهمُّ برفع الخنجر، ألقى أحد الطُّيور على ذراعه نوعاً لا أعرف ما هو من الجذور، فاعترته رعشةٌ قويَّةٌ جعلت الخنجر يسقط من يده. كان الطَّائر حوريَّةً؛ فقبل بضعة أيَّامٍ، بينما كانت هذه الحوريَّة نائمةً في الغابة تحت خيمة الظِّلال التي يظلُّ الخوف تحتها متربِّصاً يتحدَّى قيظ الشَّمس، أوشك ساتيرٌ أن يلطِّخ شرفها لو لم توقظها بورتسيِيلَّا؛ ولهذا كانت دائماً تتبع خطواتها، مستعدَّةً لردِّ المعروف لها.

أمام هذه العقبة غير المتوقَّعة، اعتقد الملك أنَّ جمال ذلك المحيَّا كبحَ ذراعه وأصدر أمراً بالقبض على الخنجر ليمنعه من طعنها كما فعل مع كثيرٍ من الأخريات. ولذلك رأى أنَّ مجنوناً واحداً في البيت يكفي، وأنَّه ليس من الملائم صبغ سلاح الموت بالدَّم بعد أن صبغته أداة الحياة، فأمر بحبس بورتسيِيلَّا، الفتاة المنكوبة والمكروبة، في عِلِّيَّةٍ من عِلِّيَّات قصره، وتركِها هناك، دون طعامٍ ولا شرابٍ، إلى أن تموت من الجوع.

حين رآها الطَّائر بهذه الحالة البائسة، طمأنها بكلماتٍ بشريَّة، طالباً منها ألَّا تحزن لأنَّه سيساعدها بدمه امتناناً لها على معروفٍ تلقَّاه منها. ومع ذلك، على الرَّغم من توسُّلات بورتسيِيلَّا، لم يُرد أن يكشف لها عن هويَّته؛ وبقي يكرِّر لها أنَّه كان ملزماً بذلك، وعاد يؤكِّد لها أنَّه لن يترك شيئاً إلَّا وسيفعله لمساعدتها. ولأنَّ الفتاة المسكينة كانت تعاني من الجوع، طار إلى الخارج وعاد بسكِّينٍ حادَّةٍ أخذها من خزانة الملك، وطلب منها أن تفتح رويداً رويداً فجوةً في زاوية العلِّيَّة يمكنه الولوج منها إلى المطبخ، ليكون بإمكانه دائماً أن يأتيها بما يسدُّ رمقها. أطاعت بورتسيِيلَّا، وانهمكت في الحفر لفترةٍ طويلةٍ إلى أن تمكَّنت من فتح مدخلٍ للطَّائر؛ وهذا، مستغلَّاً لحظة ذهاب الطَّاهي لملء دلوٍ من الماء من النَّافورة، نزل عبر الفجوة واستولى على دجاجةٍ كانت لا تزال ساخنةً وأعطاها لبورتسيِيلَّا. وبعد ذلك، لأنَّه لم يعرف كيف يحمل إليها ما يطفئ عطشها، طار إلى مخزن الطَّعام، حيث ثمَّة وَفْرٌ من عناقيد العنب المعلَّقة، وجلب لها عنقوداً، واستمرَّ على هذا المنوال عدَّة أيَّام.

في وقتٍ لاحقٍ، أنجبت بورتسيِيلَّا، التي كانت حاملاً، طفلاً ذكراً جميلاً، فأرضعته وبمساعدة الطَّائر المستمرَّة ترعرعَ وكَبُرَ. وبعد أن أصبح الابن كبيراً، نصح الطَّائر الأمَّ بأن توسِّع فتحة العلِّيَّة بإزالة العدد نفسه من الحجارة، بحيث يتمكَّن ميوتشو (كان هذا هو الاسم الذي أعطته لابنها) من الدُّخول والنُّزول بواسطة بعض الحبال التي حصل عليها بنفسه، على أن تعيد العوارض إلى أماكنها بحيث لا يتمكَّن أحدٌ من رؤية المكان الذي نزل منه. وكذلك فعلت بورتسيِيلَّا، وأمرت ابنها بألَّا يقول أبداً من أين أتى، ولا ابن مَن يكون.

عندما عاد الطَّبَّاخ، وكان قد خرج لقضاء بعض الأعمال، ورأى الصَّبيَّ الصَّغيرَ الجميلَ في منتصف المطبخ، سأله مَن يكون وكيف دخل وما الذي جاء به إلى ذلك المكان، فأجابه ميوتشو، متذكِّراً تعليمات أمِّه، أنَّه فقد طريقه وأنَّه يبحث عن سيِّد. وفي أثناء هذا الحوار، دخل كبير الطُّهاة

الذي، حين رأى صبيًّاً بتلك الحيويَّة، اعتقد أنَّه سيكون مناسباً لخدمة الملك، فاقتاده إلى الغرف الملكيَّة. أحبَّه الملك أوَّل ما رآه، فقد وجده فائق الجمال واللُّطف، وجعله في خدمته كمرافقٍ، وفي قلبه كابنٍ، وجعلهم يعلِّمونه كلَّ الفنون التي تليق بفارسٍ، حتى أصبح أبرعَ مَن في البلاط.

أحبَّه الملك أكثر ممَّا أحبَّ ربيبَه؛ فبدأت الملكة تتذمَّر منه وتنظر إليه بعين الكراهية. كان الحسد والحقد يكتسبان المزيد من الأرض كلَّما كانت العطايا والنِّعم التي كان الملك يسبغها على ميوتشو تمهِّد لهما الطَّريقَ أكثر. وقرَّرت الملكة أن تضع الكثير من الصَّابون على سلَّم حظِّ ذلك الشَّابِّ لينزلق في النِّهاية من أعلى علِّيِّين إلى أسفل سافلين.

وفي إحدى الأمسيات، بعد أن قاموا بضبط آلاتهم الموسيقيَّة بالكامل، وراحوا يتطارحون موسيقى حديثٍ فيما بينهم، قالت الملكة للملك إنَّ ميوتشو قد تفاخر بقدرته على بناء ثلاث قلاعٍ في الهواء. فما كان من الملك، فضولاً منه أو إرضاءً لزوجته، إلَّا أن استدعى ميوتشو في صباح اليوم التَّالي، عندما كان القمر، معلِّم الظِّلال، يمنح أتباعه عطلةً للاحتفال بمهرجان الشَّمس، وأمره ببناء ثلاث قلاعٍ في الهواء، كما كان يتفاخر؛ وإلَّا جعله يقفز ثلاث قفزاتٍ في الهواء.

حين سمع ميوتشو هذا الطَّلب، ذهب إلى غرفته وبدأ يرثو بمرارةٍ نعمة الأمراء الهشَّة كالزُّجاج والقصيرة الأجَل؛ وبينما هو جالسٌ يذرف دموعاً حَرَّى إذْ حضر الطَّائرُ فجأةً وقال له: "تشجَّع، يا ميوتشو، ولا تخف، لأنَّ معك مخلوقاً مثلي قادراً على انتشالك من النَّار". وأمره بأن يأتي بالكثير من الورق المقوَّى والغراء ويصنع بها ثلاث قلاعٍ عظيمةٍ، ثمَّ أحضر ثلاثةً من نسور جريفون، وربط برجل كلِّ واحدٍ منها قلعةً من القِلاع الثَّلاث، وحلَّقت الجرافينُ في الهواء. ونادى ميوتشو الملك، فهرع هذا مع البلاط كلِّه لرؤية ذلك المشهد، وأعجب كثيراً ببراعة الشَّابِّ، فأسبغ عليه المزيد من العطف وأقام له الحفلات واحتفى به بطريقةٍ لا مثيل لها.

أضاف هذا الأمر ثلجاً على حسد الملكة وناراً على سخطها. وبعد أن رأت أنَّ خطَّتها قد مُنِيَتْ بالفشل، لم يكن يمرُّ يومٌ دون أن تبحث عن وسيلةٍ، ولم تنم اللَّيالي وهي تفكّر في طريقةٍ للتَّخلُّص من عود السِّواك المغروز في عينيها؛ وهكذا، بعد بضعة أيَّامٍ، قالت للملك: "يا زوجي، لقد حان الوقت للعودة إلى عظمة الماضي وملذَّات السِّنين البعيدة، فميوتشو تعهَّد بأنَّه سيفقأ عين السَّاحرة، وحالما يفعل ذلك، سوف تستعيد مملكتك المفقودة".

أحسَّ الملك أنَّها لمست موضع الألم، فنادى ميوتشو على الأثر وتحدَّث إليه قائلاً: "أنا مندهشٌ للغاية، يا ميوتشو، كيف أنَّني أحبُّكَ كلَّ هذا الحبِّ وأنت قادرٌ على إعادتي إلى عرشي الذي طُردتُ منه وتبقى غير مبالٍ كما أنت الآن، ولا تحاول أن تخرجني من البؤس الذي أنا فيه، بعد أن انتهى بي المطاف من مملكةٍ إلى غابةٍ، ومن مدينةٍ إلى قُلَيْعةٍ مزريةٍ، ومن آمرٍ على كثيرين إلى مخدومٍ من عددٍ قليلٍ من الخدم الجائعين الذين يشرِّحون الخبز ويسكبون الحساء. لذلك، إن كنت لا تريد أن تفقد حظوتك عندي، أسرعْ واسملْ عين السَّاحرة التي استولت على مُلكي؛ لأنَّك إذ تغلق منافذ تلك العيون، تفتح مخازن عظمتي؛ وإذ تطفئ ذينك المصباحين، تضيء مصابيح شرفي، التي هي واهنةٌ الآن وشاحبة".

كان ميوتشو على وشك الرَّدِّ بأنَّ الملك لم يكن على درايةٍ كافيةٍ وأنَّه أخطأ العنوان، فهو لم يكن غراباً يفقأ العيون، ولا مِبْزَلاً يفتح الثُّقوب؛ عندما خلص الملك إلى القول: "لا أريد مزيداً من الكلام! هذا ما أطلبه، ويجب أن يُنفَّذ. ضع في اعتبارك أنَّني هيَّأتُ الميزان في دار سكِّ دماغي: ففي هذه الكفَّة الجائزة، إذا فعلت ما عليك؛ وفي الأخرى العقاب، إذا تلكَّأت عن فعلِ ما أمرتك به".

فما كان من ميوتشو الذي لم يكن قادراً على نطح حَجَر، وقد وجد نفسه أمام رجلِ الويلُ لمن يقع بين يديه، إلَّا أن ذهب ينتحب في إحدى الزَّوايا،

ولكنَّ الطَّائر جاء وقال له: "أمِنَ المعقول، يا ميوتشو، أن تغرق دائماً في كوبٍ من الماء؟ لو أنَّني متُّ حقَّاً ما كنتَ لتنتحب أكثر ممَّا تفعل الآن. ألا ترى أنَّني أهتمُّ بحياتك أكثر ممَّا أهتمُّ بحياتي؟ لذلك، لا تخف واتبعني، لأنَّك سترى ما يمكن أن يفعله طائرٌ مثلي". وحلَّق طائراً وميوتشو يتبعه. ثمَّ توقَّف في إحدى الغابات؛ وهناك بدأ يغرِّد، وعلى الفور أحاطت به مجموعةٌ من الطُّيور. فخاطبهم الطَّائر قائلاً إنَّ من يأخذ على عاتقه إطفاء نور عينَي السَّاحرة سوف يجعل له جُنَّةً من مخالب البواشق والصُّقور، وعهدَ أمانٍ من البنادق والسِّهام والنَّشاشيب ودابوقِ الصَّيَّادين.

وكان بين تلك الطُّيور سنونوةٌ بنت عشَّاً لها في عارضةٍ في القصر الملكيِّ، وكانت تبغض السَّاحرة لأنَّها طردتها أكثر من مرَّةٍ من غرفتها بالتَّبخير لتمارس سحرها الأسود. وهكذا، رغبةً في الثَّأر من ناحيةٍ، وطمعاً بالجائزة التي وعد بها الطَّائر من ناحيةٍ أخرى، عرضت عليه أن تقوم هي بتنفيذ المهمَّة.

وطارت السُّنونوة بسرعة البرق إلى المدينة ودخلت القصر الملكيَّ، وهناك رأت السَّاحرة مستلقيةً على السَّرير تتمتَّع بالهواء المنعش من مروحتَي وصيفتَي شرف. حامت السُّنونوة عموديَّاً فوق عينيها وتركت ذَرْقَها يسقط عليهما، فأفقدتها بصرها في الحال. وما كان من السَّاحرة وقد رأت اللَّيل في عزِّ الظَّهيرة، وأيقنت تماماً أنَّه مع هذا الإغلاق لدار الجُمرك انتهت بضاعةُ مملكتها، إلَّا أن أطلقت صرخةً من أعماق روحها اللَّعينة وتركت الصَّولجان وهرعت للاختباء في أحد الكهوف المجاورة، حيث ظلَّت تضرب رأسها بالصَّخر حتى أنهت أيَّامها.

بعد أن رحلت السَّاحرة، أرسل المستشارون رسلاً إلى الملك ليأتي ويستمتع بمنزله، لأنَّ ذهابَ بصر تلك أعطاه النُّور لصباحٍ خَيِّرٍ؛ ووصل ميوتشو أيضاً إلى المكان نفسه الذي وصل إليه السُّفراء، وتكلَّم قائلاً حسبما لقَّنه الطَّائر: "لقد خدمتكم إلى أقصى ما استطعت: فالسَّاحرة

فقدت بصرها، والمملكة عادت لكم، ولكن، إن كنت أستحقُّ مكافأةً مقابل الخدمة التي قدَّمتها لكم، فأنا لا أريد شيئاً سوى أن تتركوني مع معاناتي دون أن تعرِّضوني مرَّةً أخرى للمخاطر". فعانقه الملك بمودَّةٍ كبيرةٍ، ثمَّ وضع عليه الطَّيلسان وأجلسه بقربه؛ أمَّا إلى أيِّ حدٍّ تميَّزت الملكة من الغيظ، فلتخبركم بذلك السَّماء، لأنَّه حتى من وراء ألوان قوس قزح الباديةِ على وجهها[1]، كان من السَّهل تبينُّ ريح الخراب التي تعتمل في قلبها ضدَّ ميوتشو المسكين.

ليس بعيداً عن القلعة، كان ثمَّة تنِّينٌ شرسٌ للغاية، تنِّينٌ وُلِدَ في السَّاعة نفسها التي وُلِدَتْ فيها الملكة، وحكم المنجِّمون، الذين دعاهم الأب لتفسير هذا الأمر، بأنَّ ابنته سوف تعيش بقدر ما سوف يعيش التِّنِّين، فإذا مات أحدهما، مات الآخر بالضَّرورة، وشيءٌ واحدٌ فقط يمكن أن يعيد إليها الحياة: أنْ يدهنوا صدغيها وعظم قَصِّهَا وخياشيمها ورسغيها بدم التِّنِّين نفسه. وكانت الملكة تعرف قوَّة وشراسة هذا الحيوان، ففكَّرت في أن تلقي بميوتشو بين براثنه، متيقِّنةً من أنَّه سيلتهمه في لقمةٍ واحدة، ولن يكون عنده إلَّا كمثل حبَّة فراولة في فم الدُّبِّ. ولذلك، راحت تقول للملك: "بحقِّ السَّماء، إنَّ ميوتشو هو كنز بيتك، وستكون جاحداً إذا لم تحبَّه، خاصَّةً وأنَّه ألمح إلى رغبته في قتل التِّنِّين الذي، مع أنَّه أخي، إلَّا أنَّه عدوٌّ لدودٌ لك، وأنا بدوري، لا أبدِّل شعرةً من زوجي بمِائة أخ".

كان الملك يكنُّ للتِّنِّين حقداً شديداً، ولم يكن يعرف كيف يتخلَّص منه، فأرسل على الفور في طلب ميوتشو مرَّةً أخرى، وقال له: "أنا أعرف أنَّك تضع المقبض أينما تشاء، ولذلك، بعد أن فعلتَ الكثير الكثير لأجلي، عليك أن تسعدني بخدمةٍ أخرى، ويمكنك بعد ذلك أن تعتمد عليَّ بقدر ما تشاء. اذهب في هذه اللَّحظة واقتل التِّنِّين؛ لأنَّك ستقدِّم لي بذلك خدمةً عظيمةً وسأمنحك أنا مكافأةً جيِّدة".

1) يقصد ألوان مساحيق التَّجميل؛ (المترجمان).

كان ميوتشو على وشك الخروج عن طوره، وحالما تمكَّن من النُّطق، أجاب: "ها أنتم توجعون رأسي مرَّةً أخرى بعودتكم إلى مضايقتي! هل تظنُّون حياتي حليب نعجةٍ سوداء لتفعلوا بها ما تشاؤون؟ إنَّه ليس ثمرة كمَّثرى مقشَّرة تضعونها أمام فمي: إنَّه تنِّينٌ بالمخالب يمُزِّق، وبالرَّأس يخرق، وبالذَّيل يحطِّم، وبالأسنان يهرس، وبالعيون يُسَمِّم، وبالنَّفَس يقتل. فلماذا تريدون إرسالي إلى الموت الآن؟ أهذه هي العمولة التي تعطونني إيَّاها لأنَّني أعطيتكم مملكة؟ أيُّ روحٍ لعينةٍ رمت هذا النَّرد على الطَّاولة؟ مَن هو ابن الجحيم الذي حرَّض فيكم هذه النَّزوات ونفخكم بهذه الكلمات؟".

ولكنَّ الملك، الذي كان خفيفاً مثل كرةٍ يمكن أن تجعلها تقفز، ولكن أكثر قساوةً من حجرٍ حين يصرُّ على أمرٍ ما، أجاب قائلاً: "بعد أن فعلتَ وفعلتَ، تريد الآن أن تضيِّع الفرصة المثلى؟ هيَّا، كفى كلاماً! اذهب واقتلعْ هذا الطَّاعون من مملكتي، وإلَّا اقتلعتُ منك حياتك".

أحسَّ ميوتشو المنكودُ الحظِّ أنَّه كان تارةً يتلقَّى المعروف وتارةً التَّهديد، تارةً مداعبةً على الوجه وتارةً ركلةً على المؤخِّرة، تارةً الحارَّ وتارةً البارد، فراح يفكِّر كم هي متقلِّبةٌ حظوظ البلاط، وتمنَّى لو أنَّه لم يتعرَّف إلى الملك. ولكن، لأنَّه كان يعرف أنَّ الرَّدَّ على الرِّجال الأقوياء ضربٌ من الحماقة، كما لو كنتَ تريد حلق لحية الأسد، انسحبَ جانباً، لاعناً قدره الذي ألقى به في القصر لكي يقصِّر في أجله. وبينما هو جالسٌ بعتبة أحد الأبواب، ووجهه بين ركبتيه، يغسل حذاءه بالدُّموع ويُسخِّن خصيتيه بالتَّنهُّدات، إذ حضر الطَّائر مع عشبةٍ في منقاره، وألقاها في حضنه قائلاً: "هيَّا انهض، يا ميوتشو، وكن على يقينٍ من أنَّك لن تلعب لعبة تنزيل حمولةِ الحمار بأيَّامك، بل لعبةَ طاولة النَّرد بحياة التِّنِّين. خذ هذه العشبة، وحين تصل إلى مغارة ذلك الحيوان القبيح، ارمها في الدَّاخل، وسترى كيف سيرين عليه في الحال نعاسٌ أكيدٌ يرغمه على النَّوم؛ وحينئذٍ، بسكِّينٍ تحت وركيه، انهلْ عليه تذبيحاً دون تأخيرٍ، ثمَّ اخرج، لأنَّ الأمور ستكون أفضل

ممَّا ظننت. كفى، أنا أعرف جيِّداً ما أقول، ولدينا من الوقت أكثر ممَّا لدينا من المال، ومن يملك الوقت، يملك الحياة».

نهض ميوتشو ووضع في حزامه سكِّيناً كبيرةً وأخذ العشبة واتَّجه صوبَ الكهف الذي كان يقع تحت جبلٍ ذي متنٍ شاهقٍ لدرجة أنَّ الجبال الثَّلاثة، تلك التي استخدمها العمالقة كأدراجٍ لهم، ما كانت لتصل إلى خصره. وحين وصل إلى المدخل، رمى العشبة، فغرق التِّنِّين في النَّوم، وشرع هو في تقطيعه.

في الوقت نفسه الذي كان يغرز فيه لحمَ الحيوان بالسِّكِّين، شعرت الملكة بوخزٍ في قلبها، وحين رأت أيَّ نهايةٍ سيِّئةٍ انتهت إليها، عرفت خطأها، وأدركت أنَّها اشترت موتها نقداً، فنادت زوجها وأخبرته بما تنبَّأ به لها المنجِّمون، وأنَّ حياتها معلَّقةٌ بحياة التِّنِّين، وكيف أنَّها تخشى أنَّ ميوتشو قد قتله، لأنَّها بدأت تشعر بأنَّها تقترب من الموت شيئاً فشيئاً.

«إذا كنتِ تعلمين أنَّ حياة التِّنِّين كانت دعامةً لحياتك وجذراً لأيَّامك - قال لها الملك - فلماذا جعلتني أرسل ميوتشو؟ على من يقع اللَّوم؟ أنتِ جلبتِ الأذى على نفسك وأنتِ مَن عليه أن يتألَّم؛ أنتِ كسرتِ الوعاء وأنتِ مَن عليه أن يدفع ثمنه!».

«لم أعتقد أبداً - أجابت الملكة - أنَّ رجلاً نحيفاً كهذا لديه من المهارة والقوَّة ما يكفي ليطرح أرضاً حيواناً لا يبالي بجيشٍ؛ وكنت أعتقد أنَّه سيترك خِرَقَهُ هناك. ولكن، طالما أنَّ حسابي لم ينطبق على حساب صاحب الحانة، وطالما أنَّ قارب مخطَّطاتي قد غرقَ في الماء، أسدِ لي معروفاً إن كنتَ تحبُّني. حالما أفارق الحياة، خذ إسفنجةً مشبَّعةً بدم التِّنِّين، وادهن بها أقاصي أطرافي قبل أن تدفنني».

"هذا شيءٌ لا يُذكَر قياساً بالحبِّ الذي أكنُّه لكِ - قال الملك - وإن لم يكف دم التِّنِّين، وضعتُ عليه دمي إرضاءً لكِ".

أرادت الملكة أن تشكره، ولكنَّ روحها خرجت مع كلماتها، لأنَّه في تلك اللَّحظة بالذَّات كان ميوتشو قد انتهى من ذبح التِّنِّين.

حين مثل ميوتشو بين يدَي الملك ليخبره بأنَّ العمل قد أُنجِز، أمره الملك بأن يعود ويجمع دم التِّنِّين، وكان به فضولٌ ليرى عن كثبٍ الدَّليلَ على أنَّ ميوتشو فعل ذلك بيديه، فتبعه خفيةً. وفي أثناء خروجه من القصر، التقى ميوتشو الطَّائرَ، فسأله هذا: – "إلى أين أنت ذاهب؟". "أنا ذاهبٌ إلى حيث أرسلني الملك، هذا الذي يجعلني أتحرَّك صعوداً وهبوطاً مثل المكُّوك، ولا يدعني أرتاح ساعةً واحدةً". "لعملِ ماذا؟". "للحصول على دم التِّنِّين". "آه، يا لتعاستك! فدم التِّنِّين هذا سيكون لك كدم الثَّور[1]، وسوف يمزِّقك من الدَّاخل! بهذا الدَّم، سوف تولد من جديدٍ البذرةُ الخبيثة لجميع مصائبك؛ لأنَّها هي التي كانت تضعك دائماً في مواجهة مخاطر جديدةٍ لكي تفقد حياتك؛ والملك، الذي يسمح لساحرةٍ قبيحةٍ بأن تضع البردعة على ظهره، يرسلك مثل لقيطٍ لتخاطر بحياتك، مع أنَّك من لحمه ودمه، وخلفةٌ من أرومته. إنَّني أعذره، لأنَّه لا يعرفك؛ مع أنَّ خَفْقَ قلبه إليك يجب أن يشي بقرابتك به، والخدمات التي قدَّمتها له، ومكسب أن يكون له وريثٌ وسيمٌ مثلك، يجب أن يرغمه على أن يعفو عن تلك المسكينة بورتسيِلَّا، أمِّك، الحبيسة منذ أربعة عشر عاماً في العلِّيَّة، كمعبدٍ للجمال شُيِّدَ في غرفةِ ملابس".

سمع الملك كلَّ شيءٍ، فتقدَّم على الفور إلى الأمام ليسمع بالتَّفصيل كيف سارت الأمور، وحين علم أنَّ ميوتشو كان ابن بورتسيِلَّا، التي حبلت منه، وأنَّ بورتسيِلَّا كانت لا تزال على قيد الحياة، أمر فوراً بإطلاق سراحها وإحضارها إليه. وحين رآها أجمل ممَّا كانت من قبل بسبب الرِّعاية الجيِّدة التي أولاها إيَّاها الطَّائر، عانقها بحبٍّ كبيرٍ ولم يشبع من ضمِّ الأمِّ تارةً والابن تارةً أخرى، طالباً العفو، منها على معاملته القاسية لها، ومن ابنه على

1) كان دم الثَّور في الأساطير اليونانيَّة يُعَدُّ سُمَّاً قاتلاً، مع أنَّه، في الواقع، غير مؤذٍ؛ (المترجمان).

المخاطر التي عرَّضه لها. وأمر على الفور بإلباس بورتسيِيلّا أثمنَ ملابس الملكة الميِّتة، واتَّخذها زوجةً له.

ثمَّ وضع مملكته ونفسه تحت تصرُّف الطَّائر الذي أبقى الفتاة المسكينة على قيد الحياة بتزويدها بالطَّعام، وساعد بنصائحه ابنه على الخروج من المخاطر. ولكنَّ الطَّائر قال إنَّه لا يريد مكافأةً أخرى سوى ميوتشو زوجاً له، وتحوَّل، بينما كان يقول ذلك، إلى فتاةٍ جميلة. قوبل طلبها بترحابٍ كبيرٍ من الملك ومن بورتسيِيلّا، وفيما كانت الملكة الميِّتة تُرمَى في حفرةٍ، كان العريسانِ يجنيان روابٍ من الملذَّات، ولكي يُضفيا على احتفالهما أبَّهةً أكبر، انطلقا إلى مملكتهما الخاصَّة، حيث كانوا ينتظرونهما بلهفةٍ عظيمة، وقد عرفا أنَّ حظَّهما السَّعيد إنَّما جاء من الحوريَّة لقاءَ المعروف الذي أسدته إليها بورتسيِيلّا، ففي نهاية المطاف:

من يفعل الخير يَغْنَم.[1]

---

1) «ثمَّة تفصيلٌ مهمٌّ - يكتب جاكوب غريم - يستحقُّ الإشارة إليه، وهو التَّشابه بين حكاية بازيله هذه وأسطورة سيغفريد. الولادة السِّرِّيَّة لميوتشو وعمله المتواضع لدى الطَّبَّاخ يعيدان إلى البالَ طفولة البطل؛ والطَّائر الذي يساعده يذكِّر بتلك الطُّيور التي يفهم سيغورد لغتها ويتلقَّى منها النَّصائح والإرشادات؛ والملكة الشِّرِّيرة تشبه برونهيلد، وكلتاهما تحرِّضان على محاربة التِّنِّين. وهنا أيضاً التِّنِّين هو شقيق الملكة، وحياته مرتبطةٌ بحياتها، ولهذا تطلب أن يُدهَن جسدُها بدمه، بالطَّريقة نفسها التي تطمع بها تلك في دم قلب دافنر». (Kinder und hausmarchen، 3d Edition – Gottingen 1856)؛ (كروتشِه).

التِّيجان الثَّلاثة
المؤانسة السَّادسة من اليوم الرَّابع

تُختطَفُ ماركيتَّا من قِبَل الرِّيح وتُحمَل إلى بيت إحدى الغولات، وبعد حوادث مختلفةٍ، تتلقَّى صفعةً من الغولة، فترحل متنكِّرةً بزيٍّ رجل. تصل مصادفةً إلى منزل أحد الملوك، حيث تقع الملكة في حبِّها، وعندما لا تلقى استجابةً لمطلبها، تتَّهمها لدى زوجها بمحاولة إغرائها، ويُحكم على ماركيتَّا بالإعدام. ولكن بفضل القوَّة السِّحريَّة لخاتمٍ تلقَّته هديَّةً من الغولة، يتمُّ تحريرها، وبعد التَّخلُّص من المفترية، تصبح ملكة.

كانت حكاية بوبا مبهجةً للغاية، ولم يكن هناك مَن لم يشعر بالسُّرور لحسن حظِّ بورتسيبِلَّا؛ ولكن لم يكن هناك أيضاً مَن حَسَدَها على هذا الحظِّ الذي حصلت عليه مقابل آلامٍ كثيرةٍ، ذلك أنَّها لم تبلغ زمامَ المَلَكات إلَّا بعد أن أوشكت أن تخسرَ زمامَ حياتها. ولكنَّ أنطونيلَّا، حين أدركت أنَّ حكاية بورتسيبِلَّا قد أغمَّتْ مزاج الأمير والأميرة، أرادت أن ترفع روحهما المعنويَّة، فتكلَّمت على هذا النَّحو:

الحقيقةُ مثل الزَّيت، أيُّها السَّادة، تطفو دائماً على السَّطح؛ والكذب نارٌ لا يمكن إخفاؤها، بل هو بندقيَّةٌ حديثةٌ تقتل من يستعملها[1]، وليس بغير سببٍ يُدعى «كذَّاباً» من لا يكون صادقًا بكلامه، لأنَّه «يحترق» و«يُحرق»

1) إلماحٌ إلى الصِّناعة السَّيِّئة للبنادق في تلك الحقبة، وجديرٌ بالذِّكر أنَّ بازيلهُ كان جنديًّا؛ (كروتشِه).

ليس كلَّ الفضائل والمناقب التي يحملها في صدره فحسب، بل الكذبة نفسَها، كما سأجعلكم تقرُّون من خلال الحكاية التي أنتم على وشك سماعها.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، ملكٌ من فالَّاتِسْكوسِّه[1] لم يكن قادراً على إنجاب الأولاد، فكان يردِّد في جميع الأوقات وأينما كان: «أيَّتها السَّماء، أرسلي لي وريثاً للمملكة لكيلا أترك منزلي مقفراً!». وذات مرَّة، بينما كان في إحدى حدائقه يردِّد بصوتٍ عالٍ هذا الدُّعاء الحزين، سمع صوتاً يخرج من بين الأفنان، ويقول له: «أيُّها الملك، ماذا تفضِّل؟ ابنةٌ تفرُّ منك، أم ابناً يُتلفك؟».

مرتبكاً من هذه الكلمات، لم يعرف الملك بما يجيب وفكَّر في مشاورة حكماء البلاط، فعاد إلى غرفته واستدعى المستشارين وأمرهم بتدارس الأمر. فهناك مَن أجاب بأنَّ الشَّرف يجب أن يُولىَ اعتباراً أكثر من الحياة؛ وهناك مَن رأى أنَّ الحياة يجب أن تُقَدَّر أكثر باعتبارها نعمةً جوهريَّة، بينما الشَّرف شيءٌ عَرَضيٌّ، وعلى هذا يجب اعتباره أقلَّ قيمة؛ وقال أحدهم إنَّ الحياة ماءٌ يمرُّ، ولذلك لا يهمُّ كثيراً فقدانها، وكذلك الثَّروات التي هي أعمدة الحياة المنصوبة على عجلة الحظِّ الزُّجاجيَّة، ولكنَّ الشَّرف شيءٌ دائمٌ يترك آثار الشُّهرة وعلامات المجد، ولذلك على المرء أن يحرسه بغيرةٍ ويكون عطوفاً تجاهه؛ بينما قال آخر مجادلاً إنَّ الحياة التي بها يُحفَظ نسلنا، والثَّروةَ التي بفضلها تُحفَظ عظمة بيوتنا، يجب اعتبارهما أثمن من الشَّرف، لأنَّ الشَّرف مسألة رأيٍ مبنيٍّ على فضائل الشَّخص، وأن يفقد المرء ابنةً بسبب سوء الحظِّ، وليس بسبب خطأٍ اقترفه، فهذا لا يمسُّ بنزاهة الأب، ولا يلطِّخ شرف البيت. ولكن، إضافةً إلى أولئك، كان هناك مَن خلص إلى أنَّ الشَّرف لا يقيم في تنانير أنثى، وأنَّ على الملك، كأميرٍ عادلٍ، أن يكرِّس نفسه للمصلحة العامَّة بدلاً من مصلحته الخاصَّة، وأنَّ ابنةً هاربةً سوف

---

1) تعني حرفيّاً: الوديان المهتزَّة؛ (المترجمان).

تجلب بعض العار على البيت الأبويِّ فحسب، ولكنَّ ابناً أثيماً سوف يضرم النَّار، ليس في بيته فحسب، ولكن في المملكة كلِّها؛ ولذلك، لمَّا كان يتوق إلى الحصول على أبناء، ولمَّا كان مخيَّراً بين ذينك الأمرين، فالأولى به أن يختار الأنثى التي لن تُعرِّض الحياة والمملكة للخطر.

سُرَّ الملك لهذا الرَّأي، فعاد إلى الحديقة وصاح مرَّةً أخرى بالدُّعاء المعتاد، وحين سمع الصَّوت نفسه، أجاب: «أنثى، أنثى!». وفي المساء، حين تدعو الشَّمس ساعات النَّهار إلى إلقاء نظرةٍ على مسوخ الأطياف المتناظرة، نام مع زوجته؛ وفي نهاية الشَّهر التَّاسع، رأت النُّور ابنةٌ جميلة.

أمر الملك على الفور بحبسها في قصرٍ مُحَصَّنٍ وجيِّد الحراسة لكي يفعل كلَّ ما يمكنه فعله لإبعاد الأقدار المحزنة عنها، وعلَّمها كلَّ الفضائل التي تليق بسليلة عائلةٍ ملكيَّة. وعندما صارت في سنِّ الزَّواج، تفاوض مع ملك بِرْديسِنُّو واتَّفقا على زواجه بها، وعندئذٍ سمحَ لها بالخروج من ذلك البيت الذي لم تكن قد غادرته قَطُّ لكي يرسلها إلى زوجها. ولكن، في اللَّحظة التي خرجت فيها، هبَّت ريحٌ عاصفةٌ رفعتها ولم يرها أحدٌ مرَّةً أخرى.

حملتها الرِّيح مسافةً بعيدةً في الفضاء، ثمَّ تركتها أمام منزل إحدى الغولات وسط غابةٍ كانت قد نفت الشَّمس كموبوءةٍ لأنَّها قتلت البيثون(1) الوبيء. هناك، وجدت امرأةً مسنَّةً كانت الغولة قد تركتها لحراسة أمتعتها، فقالت لها: «آه ما أمرَّ حياتك! من أوصلكِ إلى هنا؟ يا لك من فتاةٍ تعسةٍ! إذا عادت الغولة الآن، مالكة هذا البيت، فلن أراهن بثلاثة قروشٍ على جلدك، لأنَّها لا تتغذَّى إلَّا باللَّحم البشريِّ؛ وإذا كنتُ قد بقيت إلى اليوم على قيد الحياة، فذلك لأنَّ حاجتها إلى الخدمات التي أقدِّمها لها تفرض عليها ذلك، ناهيكِ عن أنَّ هذا الجسم العجوز، المليء بالعاهات،

---

1) Pitone، في الميثولوجيا اليونانيَّة أنَّ أبوللو، إله الشَّمس، كتجسُّدٍ للصَّيف، قتل البيثون، الأفعى التي سمَّمت الأرض بصفتها رمزاً للشِّتاء؛ (المترجمان).

بالرَّبو وبأوجاع الكلية، مقرفٌ لأنيابها. ولكن هل تعلمين ما عليكِ فعله؟ إليكِ مفاتيح البيت: ادخلي، رتِّبي الغرف ونظِّفي كلَّ شيء، وعندما تأتي الغولة، اختبئي بحيث لا تراكِ، وسوف أؤمِّن لك أنا حاجاتكِ. ومع مرور الوقت، من يعلم؟ السَّماء تساعد، والزَّمن قادرٌ على أن يأتي بمفاجآتٍ كثيرة. كفى: تحلَّي بالحكمة والصَّبر، لأنَّك بذلك سوف تعبرين كلَّ خليجٍ وتتغلَّبين على كلِّ عاصفة».

فما كان من ماركيتَّا (هكذا كانت تُدعَى الفتاة)، إلَّا أن حوَّلت الحاجة إلى قوَّةٍ وأخذت المفتاح ودخلت غرفة الغولة. في البداية، تناولت المكنسة وجعلت البيت نظيفاً بحيث يمكنك تناول المعكرونة على الأرض، ثمَّ فركت بقطعةٍ من شحم الخنزير الصَّناديق المصنوعة من خشب الجوز وجعلتها لامعةً بحيث يمكنك أن ترى نفسك فيها كما لو في مرآة، وبينما كانت ترتِّب السَّرير، سمعت الغولة قادمةً، فاختبأت داخل دنٍّ خشبيٍّ كان يُحفَظ فيه القمح سابقاً.

ابتهجت الغولة لمرأى هذه النَّظافة غير المألوفة، فدعت المرأة العجوز وقالت لها: «من قام بهذا التَّرتيب اللَّطيف؟». وحين أجابت العجوز بأنَّها هي من قام بذلك، ردَّت قائلةً: «مَن يفعل ما لا يفعله عادةً إمَّا أنَّه كان يخدعك قبل ذلك وإمَّا أنَّه يريد أن يخدعك. ولكن حقَّاً، يمكنك أن تقحمي عصاً في الثُّقب[1]، لأنَّك قمت بعملٍ غير اعتياديٍّ، وتستحقِّين وجبةً سخيَّةً من الحساء». ثمَّ أكلت وخرجت مرَّةً أخرى.

وعند عودتها، وجدت كلَّ السُّخام قد أزيل من العوارض الخشبيَّة، وجميعَ الأواني النُّحاسيَّة قد نُظِّفت ولُمِّعت وعُلِّقت بترتيبٍ متناسقٍ على الجدران، وكلَّ الملابس القذرة قد وُضعت في الماء السَّاخن؛ فأخذتها نشوةٌ لا توصف وباركت العجوزَ ألف مرَّةٍ. «فلتنعم عليكِ السَّماء دائماً، يا سيِّدة بنتاروزا: فلتظفري دائماً بما تريدين وبأحسن من ذلك، لأنَّك

---

1) ربمَّا للذِّكرى لأنَّها قامت بعملٍ استثنائيٍّ؛ (كروتشه).

جعلتِ قلبي ينبض فرحاً بهذه التَّرتيبات الجميلة، وجعلتِني أرى منزلي شبيهاً بمنزل الدُّمى وسريري شبيهاً بسرير زفاف».

سُرَّت المرأة العجوز بإحرازها هذا الرَّأي الجيِّد، وواظبت على منح ماركيتَّا طعاماً شهيَّاً، حاشيةً إيَّاها كديكٍ مخصيٍّ مُعَدٍّ للتَّسمين. وحين خرجت الغولة مرَّةً أخرى، قالت لها: «اسمعي: سوف نتَّفق على خطَّة ونجرِّب حظَّك. أعدِّي بيديكِ شيئاً لذيذاً يطيب للغولة؛ وإن أقسمَتْ بالسَّماوات السَّبع كلِّها، لا تصدِّقيها، ولكن، إن أقسمَتْ مصادفةً بتيجانها الثَّلاثة، فعندئذٍ أظهري لها نفسك، لأنَّك ستحقِّقين مرادك، وسترين أنَّ نصيحتي نصيحةُ أمٍّ لابنتها».

ذبحت ماركيتَّا بطَّةً سمينةً، وصنعت من فخذيها طبقاً من اليَخْنَة، وبعد أن حشتها جيِّداً بالمردقوش والثُّوم، غرزتها في السَّفود، ثمَّ عجنت أربع قطعٍ من قلائد الكاهن[1] على سلَّةٍ مقلوبة، وأعدَّت طاولةً مزيَّنةً بالورود وبأغصان النَّارنج. وحين رأت الغولة هذه المائدة الجميلة، كادت تطير من الفرح، فنادت المرأةَ العجوزَ، وقالت لها: «من قام بهذا العمل الرَّائع؟». «كُلي - أجابت العجوز - ولا تسألي: يكفي أنَّ لديك من يخدمكِ ويرضيكِ».

وبينما كانت تأكل شاعرةً بلذَّةٍ تلك اللُّقمات الشَّهيَّة تنزل حتى كاحليها، بدأت تتمتم: «أقسم بأسماء نابولي الثَّلاثة، لو كنتُ أعرف مَن الطَّاهي، لأعطيته بؤبؤَي عينيَّ». ثمَّ تابعت: «أقسم بالأقواس الثَّلاث والسِّهام الثَّلاثة، أنَّني إذا عرفته، سأجعل له مكاناً في قلبي إلى الأبد. أقسم بالشُّموع الثَّلاث التي تشتعل حين يوثَّق عقدُ اللَّيل؛ وبالشُّهود الثَّلاثة الذين يرسلون رجلاً إلى المشنقة[2]؛ وبالأشبار الثَّلاثة من الحبل التي تلتفُّ على عنق المحكوم؛ وبالأشياء الثَّلاثة التي تُخرِج الرَّجل من بيته: الرَّائحة الكريهة والدُّخان والمرأة الخبيثة؛ وبالأشياء الثَّلاثة التي تُستهلَك في البيت: الفطائر المقليَّة والخبز

1) قطعٌ مقعَّرةٌ من العجين تُطهَى وتجهَّز مثل المعكرونة؛ (كروتشه).

2) يحتاج الأمر إلى ثلاثة شهودٍ لكي يُحكَم على أحدٍ بالإعدام؛ (المترجمان).

السَّاخن والمعكرونة؛ وبالإناث الثَّلاث وبطَّةٍ واحدةٍ يُقِمْنَ سوقاً؛ وبأحرف الميم الثَّلاثة للسَّمك: مقليٌّ ومجمَّدٌ ومريءٌ؛ وبمطربي نابولي الثَّلاثة: جوفانيٍّ ديلَّا كاريولا وكومبار بيوندو وملك الموسيقا؛ وبأحرف الألف الثَّلاثة التي يحتاج إليها العاشق: الانزواء والاهتمام والإسرار؛ وبالأشياء الثَّلاثة التي يحتاج إليها التَّاجر: الائتمان والشَّجاعة والمجازفة؛ وبأصناف الرِّجال الثَّلاثة التي تروق المومسَ: المتبجِّحون والشُّبَّان الوُسَماء والمبذِّرون؛ وبالأشياء الثَّلاثة التي تَلزمُ السَّارق: عينان تنظران ويدان تقبضان وقدمان تطيران؛ وبالأشياء الثَّلاثة التي تُتلف الشَّباب: القمار والنِّساء والحانات؛ وبالفضائل الثَّلاث للشُّرطيِّ: البصرُ والمطاردةُ وإلقاءُ القبض؛ وبالأشياء الثَّلاثة التي تنفع رجل البلاط: النِّفاقُ والبرودُ والحظُّ؛ وبالأشياء الثَّلاثة التي تَلزمُ القوَّاد: الشَّجاعة الكبيرة والثَّرثرة التي لا حدَّ لها وقلَّة الحياء؛ وبالأشياء الثَّلاثة التي يجسُّها الطَّبيب: النَّبض والوجه والبول ...».

وكان من الممكن أن تستمرَّ الغولة من اليوم إلى الغد في القَسَم دون أن تنكث ماركيتَّا بعهدها، ولكن حين سمعتها تقول في النِّهاية: «أقسم بتيجاني الثَّلاثة أنَّه إذا قُدِّر لي أن أعرف من تكون ربَّة البيت الماهرة هذه، سأغدق عليها من المداعبات والحنوِّ ما لا يمكنها تخيُّله»، عندئذٍ فحسب خرجت من مخبئها وقالت: «هأنذا!».

وحين رأتها الغولة، هتفت: «آه! لقد كنتِ أكثر حنكةً منِّي! لقد تصرَّفتِ بحكمةٍ وأنقذتِ نفسك من شواءٍ يليق بهذا الجسم. ولكن، لأنَّك اشتغلتِ بجدٍّ وأدخلتِ السُّرور على قلبي، سوف تكونين لي أعزَّ من ابنة. إليكِ مفاتيح البيت، فكوني ربَّته وربيبته. ولكن، ثمَّة شيءٌ واحدٌ أحرص عليه: يجب ألَّا تفتحي الغرفة الأخيرة لأيِّ سببٍ كان، وهذا هو مفتاحها؛ وإلَّا جعلتِ الخردل يصعد إلى أنفي[1]. استمرِّي في خدمتي، وستكونين محظوظةً! وقسماً بتيجاني الثَّلاثة، أعدك بزفافٍ لا مثيل له».

---

1) أي أنَّها ستغضبها كثيراً؛ (المترجمان).

قبَّلت ماركيتًّا يدها بلطفٍ كبيرٍ ووعدت بأن تخدمها أكثر ممَّا لو كانت عبدةً لها. ومع ذلك، حين خرجت الغولة، دغدغها فضولٌ جنونيٌّ لرؤية ما كان في الغرفة المحظورة. ولم تستطع إمساك نفسها عن فتحها، فوجدت هناك ثلاث فتياتٍ، لباسهنَّ من الذَّهب الخالص، يجلسن على ثلاثة مقاعد ملكيَّةٍ، ويبدَوْن كالنَّائمات. ولم تكن هؤلاء سوى بنات السَّاحرة الثَّلاث اللَّاتي سحرتهنَّ أمُّهنَّ لأنَّها عرفت أنَّهنَّ سيواجهن خطراً كبيراً إذا لم تأت لإيقاظهنَّ ابنةُ ملكٍ؛ ولهذا حبستهنَّ في الدَّاخل لتنقذهنَّ من تهديد النُّجوم.

انتبهت الفتيات لوقع قدمَي ماركيتًّا عند دخولها، وتحرَّكن كما لو أنَّهنَّ يستيقظن من نومٍ عميقٍ، وطلبن منها طعامًا؛ فأخذت على الفور ثلاث بيضاتٍ لكلِّ واحدةٍ منهنَّ، وطهت البيضَ تحت الرَّماد وقدَّمته لهنَّ. فاستعادت الفتيات الثَّلاث قوَّتهنَّ في الحال، وأردن أن يخرجن ليستنشقن الهواء النَّقيَّ. ولكن، في هذه اللَّحظة، وصلت الغولة واشتعلت غضباً أمام ذلك المشهد، فصفعت ماركيتًّا صفعةً قويَّة.

تأثَّرت ماركيتًّا بشدَّةٍ من هذه الإهانة لدرجة أنَّها طلبت، في اللَّحظة نفسها، الإذن من الغولة بأن تغادر وتهيم على وجهها في العالم بحثاً عن مصيرها. حاولت الغولة استرضاءها بكلماتٍ لطيفةٍ، وقالت لها إنَّها كانت تمزح ولن تكرِّر أبداً ذلك المزاح مرَّةً أخرى؛ ولكن لم يكن من الممكن زحزحتها عن مقصدها. في النِّهاية، تركتها تغادر وأعطتها خاتماً منبِّهةً عليها بألَّا تضعه والحجرة نحو راحة يدها، وألَّا تنظر إليه أبداً، إلَّا حين تجد نفسها في خطرٍ كبيرٍ وتسمع اسمها يردِّده الصَّدى. وأعطتها أيضاً لباساً رجاليًّا جميلاً طلبته منها ماركيتًّا لتتنكَّر به، ثمَّ مضت إلى حال سبيلها.

حين وصلت إلى إحدى الغابات، وكان اللَّيل يمرُّ من هناك ليجمع الحطب ويدفِّئ نفسه من قسوة الجليد، صادفت ملكاً كان يتسلَّى بالصَّيد، وحين رأى الملكُ هذا الشَّابَّ الوسيمَ (لأنَّها هكذا بدت)، سأله

من أين كان قادماً وماذا كان يفعل. أجابت ماركيتّا أنّها ابن تاجر، وأنّه، بسبب العذاب الذي ألحقته به زوجة أبيه، هرب من البيت. فأُعجِبَ الملك بذكاء الشّابِّ ولطفه، واتّخذه خادماً له مصطحباً إيّاه إلى قصره.

حالما رأته الملكة، شعرت أنَّ ذلك الشّخص اللّطيف يشوِّش الرُّوح ويشعل كلَّ الرَّغبات؛ ومع أنَّها حاولت لبضعة أيّامٍ، من ناحيةٍ بدافع الفطرة، ومن ناحيةٍ أخرى بدافع الكبرياء، أن تكون دائماً رفيقةً للجمال مواراةً للّهب وكبتاً للّدغات التي يُحْدِثُها الحبُّ تحت ذيل الرَّغبة، إلّا أنَّها كانت قصيرة الكعبَين، فلم تتمكَّن من الصُّمود على السَّرج ضدَّ هجمة تلك الشَّهوات الجامحة. وفي أحد الأيَّام، اختلت بالشَّابِّ الوسيم وشرعت تبوح له بآلامها وتخبره بالغُمَم التي تجمَّعت في قلبها منذ أن ظهر لها جماله، وبأنَّه إذا لم يجد حلاً لسقي أراضي رغباتها، فمن المؤكَّد أنَّ آمال حياتها ستُقفر. وأشادت بقسمات وجهه الجميلة، ملمِّحةً في كلامها إلى أنَّ التِّلميذ الفاشل في مدرسة الحبِّ هو وحده من يرتكب بقسوته خطأً فادحاً في كتابِ كثير النِّعَم، وأنَّه سيندم أشدَّ النَّدم على ذلك. وإلى المدائح أضافت التَّضرُّعات، متوسِّلةً إليه بالسَّماوات السَّبع ألّا يترك امرأةً انطبعت كعلامةٍ في متجر أفكارها صورتُه الجميلة، تحترق داخل فرن التَّنهُّدات وتتقلَّب وسط مستنقع الدُّموع. ثمَّ أتبعت ذلك بالعروض، فوعدته بأن تدفع له، مقابل كلِّ إصبعٍ من الملذَّات، أشباراً من الامتيازات، وأن تترك مخزن الامتنان مفتوحاً لكلِّ طلبات هذا الزَّبون الجميل. وذكَّرته، في النِّهاية، أنَّها ملكة؛ وحيث إنَّها كانت قد صعدت بالفعل على متن السَّفينة، كان عليه ألّا يتركها وسط هذا الخليج دون أيِّ مساعدة، لأنَّها قد تتحطَّم على إحدى الصُّخور وسيعود ذلك عليه بالضَّرر.

بين هذه المداعبات واللّسعات، الوعود والتَّهديدات، المُجاملات والتَّفخيمات، أرادت ماركيتّا أن تقول إنَّها كانت تفتقر إلى المفتاح الذي يمكِّنها من فتح باب رضاها الغرامي؛ وأرادت أن تُظهر لها أنَّه، لمنحها السَّلام

الذي تريده، لم يكن عطارد هو الذي يحمل صولجان هرمس. ولكنَّها لم تشأ أن تفضح نفسها، وبدلاً من ذلك أجابتها بأنَّها لا تستطيع أن تصدِّق أنَّها تريد أن تصنع كعكةً رخوةً لملكٍ جديرٍ بالإجلال كزوجها؛ وأنَّه، حتى لو أرادت هي كملكةٍ أن تضع سمعة بيتها جانباً، فإنَّها لا تستطيع من جانبها أن تسيء إلى سيِّدٍ أحبَّها كثيراً.

حين سمعت الملكة هذا الرَّدَّ على نداء رغباتها، أجابتها: «هيَّا، فكِّر في الأمر جيِّداً واحرث باستقامةٍ، لأنَّ أمثالي، حين يرجون، فهم يأمرون، وحين يركعون، فلكي يركلوا الحناجر بأقدامهم. اعمل حساباتك جيِّداً وانظر كيف يمكن أن تنجح تجارتك هذه. كفى كلاماً، لأنَّني سأقول لك شيئاً واحداً بعدُ، ثمَّ سأذهب. عندما تُهان امرأةٌ بمنزلتي، فإنَّها بدماء ذلك الذي أهانها ستحاول غسلَ اللَّطخة عن وجهها». وبعبوسٍ شديدٍ، أدارت ظهرها، تاركةً ماركيتَّا المسكينة جامدةً في مكانها في حيرةٍ من أمرها.

استمرَّت الملكة في الاعتداء على هذا الجمال المحصَّن لعدَّة أيَّام، وحين رأت في النِّهاية أنَّها تتعب وتكدُّ وتتصبَّب عرقاً بلا جدوى، وأنَّها تلقي بكلماتها في الرِّيح وتتنهَّد في الفراغ، غيَّرت مسارها، محوِّلةً الحبَّ إلى كراهيةٍ والرَّغبة في التَّمتُّع بما تحبُّ إلى رغبةٍ في الانتقام. فاختلقت الدُّموع في زوايا عينيها، ثمَّ ذهبت إلى زوجها وتحدَّثت إليه قائلةً: «مَن كان ليقول، يا زوجي العزيز، إنَّنا كنَّا ندفِّئ ثعباناً في أكمامنا؟ مَن كان يتصوَّر أنَّ مسكيناً حقيراً ستكون لديه كلُّ هذه الجرأة؟ الذَّنبُ ذنبُ الملاطفات الكثيرة التي قدَّمتَها له: إذا أعطيت الجلفَ إصبعاً، أخذ يدك كلَّها. ولكن إذا لم تعطه العقاب الذي يستحقُّه، سأعود إلى منزل والدي، ولن أرغب في رؤيتك أو سماع اسمك مرَّةً أخرى». «ما الذي فعله لكِ؟»، سأل الملك، والملكة أجابت: «لا شيء يُذكَر! الأحمق الصَّغير أراد أن يكون جابي ضرائب ديون الزَّواج المتوجِّبة عليك، ودون احترامٍ، ودون خوفٍ، بلغت به الوقاحة أن يقف أمامي ويطلب منِّي دخولاً حرَّاً إلى الإقليم الذي بذرتَ أنتَ فيه بذور الشَّرف».

إزاء هذا الاتِّهام، ودون البحث عن شهودٍ آخرين، لئلَّا يمسَّ بإخلاص زوجته وسلطتها، طلب الملك من الشُّرطة أن يقبضوا على ماركيتًّا في الحال، وكما يُطرق الحديد ساخناً، ودون أن يعطيها فرصةً للدِّفاع عن نفسها، حكم عليها بأن ترى مقدار الوزن الذي يتحمَّله ميزان الجلَّاد. نُقلت ماركيتًّا بلا تردُّدٍ إلى مكان التَّنفيذ، ولم تكن تعرف ما الذي حدث، ولا الذَّنب الذي اقترفته، فبدأت تصرخ: «يا إلهي! ما الذي فعلته لأستحقَّ جنازة هذه الرَّقبة البائسة قبل جنازة هذا الجسد البائس؟ من كان بإمكانه أن يقول لي إنَّني، دون أن أنضمَّ إلى جيش المجرمين واللُّصوص، سأقف حارساً لقصر الموت هذا مع ثلاثة أشبار من حبال القنَّب حول رقبتي؟ آه! من يواسيني في خطوتي الأخيرة هذه؟ من ينجِّيني من هذه المَهْلَكة؟ من يحرِّرني من هذه المشنقة؟».

«الغولة!»، أجاب الصَّدى؛ وتذكَّرت ماركيتًّا، عند سماع هذا الجواب، الخاتمَ الذي تحمله بإصبعها والكلمات التي قالتها لها الغولة عندما تركتها، فالتفتت بعينيها إلى الحجر الذي لم تكن قد نظرت إليه بعد؛ وإذا صوتٌ في الهواء يردِّد ثلاثاً: «أخلِ سبيلها، لأنَّها أنثى!»: صوتٌ رهيبٌ لدرجةٍ لم يبق معها لا رجال شرطةٍ ولا حفَّارو قبورٍ حول طاهي العدالة[1].

لدى سماع الملك هديرَ هذه الكلمات التي جعلت القصر الملكيَّ يهتزُّ من قواعده، أمر ماركيتًّا بأن تمثل بين يديه؛ فلمَّا أصبحت أمامه، أمرها بأن تقول الحقيقة، مَن هي وكيف وصلت إلى تلك البلاد. وبحكم الضَّرورة، روت ماركيتًّا كلَّ أحوال حياتها، كيف وُلِدَت وسُجِنَت في قلعة، وكيف حملتها الرِّيح بعيداً، وكيف وصلت إلى بيت الغولة، وكيف أرادت أن تغادر البيت، وما قالته وأعطته لها، وما حدث بينها وبين الملكة، وكيف، دون أن تعرف ما الذَّنب الذي اقترفته، رأت نفسها في خطر أن تجدِّف بقدميها في مركبٍ مصنوعٍ من ثلاث خشبات.

---

1) الجلَّاد؛ (كروتشِه).

بعد أن سمع الملك القصَّة وقارنها بتلك التي أتاحت له الفرصة أن يسمعها خلال حديثه مع ملك فالّاتِسْكوسِّه، الذي كان صديقاً له، أدرك حقيقة ماركيتًّا، وأدرك في الوقت نفسه دناءةَ زوجته التي وجَّهت لها تلك التُّهمة المشينة. فأمر بأن تُرمَى في البحر مع كيسٍ من الحجارة حول رقبتها؛ وبعدما دعا ملكَ وملكةَ فالّاتِسْكوسِّه، اتَّخذ ماركيتًّا زوجةً له، بعد أن أثبتت بما لا يدع مجالاً للشَّكِّ:

أنَّ الرَّبَّ يقود إلى ميناءٍ آمنٍ القاربَ اليائس.

قطعتان من بسكويت الوَفل
المؤانسة السَّابعة من اليوم الرَّابع

تُظهر مارتسييلَّا لطفها لامرأةٍ عجوز، فتتلقَّى سحراً؛ ولكنَّ عمَّتها، التي تحسدها على حظِّها السَّعيد، ترميها في البحر، فتلتقطها حوريَّةٌ وتُبقيها مقيَّدةً بالسَّلاسل لفترةٍ طويلة، ثمَّ يحرِّرها أخوها وتصبح ملكةً، وتدفع عمَّتها ثمن جريمتها.

حتماً كان الأمير والأميرة سيقولان إنَّ حكاية أنطونيلَّا هذه قد بَلِيَتْ لكثرة ما حُكِيَت، لولا أنَّهما خشيا أن يوهنا عزيمةَ تشولَّا التي، بعد أن جهَّزت حرية لسانها، أصابت حلقة ذوق الأمير وزوجته إذ تحدَّثت على النَّحو التَّالي:

لقد سمعتُ دائماً أنَّ مَن يمنح الآخرين السَّعادة، يتلقَّها: ناقوس مانفريدونيا[1] يقول «بقدر ما تعطيني تأخذ»، ومَن لا يضع طُعم اللُّطف في صنَّارة المودَّة، لا يصطد أبداً أسماكَ المنفعة؛ وإذا كنتم تريدون أن تروا تلك المنفعة، اسمعوا هذه الحكاية، ثمَّ احكموا مَن الذي يخسر أكثر من الآخر، البخيل أم المعطاء.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، شقيقتان، لوتشيدا وتروكُّولا، وكان لكلٍّ منهما ابنة، مارتسييلَّا وبوتشا. كانت مارتسييلَّا بهيَّةَ الطَّلعة وطيِّبة القلب، وعلى العكس من ذلك، كان قلب بوتشا ووجهها يشكِّلان بقاعدةٍ واحدةٍ وجه سلطعونٍ ولُبَّ

1) كان ناقوس مانفريدونيا جرساً عملاقاً في بلدة مانفريدونيا الصَّغيرة في مقاطعة بوليا، وأصبح مضرب الأمثال لضخامته الهائلة، ومن ثَمَّ لاستحالة قرعه؛ (كروتشِه).

طاعون، وفي هذا كانت تشبه أقاربها، لأنَّ تروكُّولا نفسها كانت تنضح خبثاً من الدَّاخل ومن الخارج.

وحدث في يومٍ من الأيَّام أن اضطُرَّت لوتشيدا إلى سلق أربع جزراتٍ بيضاء لتقليها مع الصَّلصة الخضراء، فقالت لابنتها: «أيْ مارتسيبيلَّا، يا حبيبتي ونعمتي، هلَّا تذهبين إلى النَّافورة وتجلبين لي جرَّةً من الماء». «من كلِّ خاطري يا أمَّاه، - أجابت الابنة؛ - ولكن، إذا كنتِ تحبِّينني حقًّاً، أعطيني قطعةً من بسكويت الوَفل، لأنَّني أريد أن آكلها مع ذلك الماء العذب». «بكلِّ سرورٍ»، قالت الأمُّ؛ وتناولت من سلَّةٍ معلَّقةٍ بخطَّافٍ قطعةً منه (كانت قد خبزته في اليوم السَّابق) وأعطتها لمارتسيبيلَّا. فوضعت هذه الجرَّةَ على رأسها فوق كعكةٍ من القماش، وذهبت إلى النَّافورة الرَّاقدة على قاعدةٍ من الرُّخام، تبيع مثل مشعوذٍ، على أنغام المياه المتساقطة، أسراراً لإرواء العطش.

وبينما كانت تملأ الجرَّة، وصلت عجوزٌ تمثِّل مأساة الزَّمن على منصَّة حدبتها الكبيرة؛ وحالما رأت قطعة البسكويت اللَّذيذة بيد مارتسيبيلَّا وهي على وشك أن تقضمها، قالت لها: «أيَّتها الفتاة الجميلة، أعطيني شيئاً من هذا البسكويت ولتُنعم عليكِ السَّماء بالحظِّ السَّعيد». فأجابتها مارتسيبيلَّا، الفوَّاحة مثل ملكة، على الفور: «خذيها كلَّها، يا سيِّدتي، وأنا آسفةٌ لأنَّها ليست باللَّوز والسُّكَّر، ولكنت أعطيتك إيَّاها أيضاً من كلِّ قلبي».

كانت المرأة العجوز تختبر لطفَ مارتسيبيلَّا، فقالت لها: «اذهبي، فلتكن السَّماء دوماً عوناً لكِ لهذا الحبِّ الذي أظهرتِهِ لي؛ وسأبتهل إلى كلِّ النُّجوم أن تكوني دائماً سعيدةً وراضية؛ وأن يخرج من فمك، كلَّما تنفَّستِ، أريجَ الورد والياسمين؛ وأن يتساقط من رأسك، كلَّما مشَّطتِ شعركِ، لؤلؤاً ومرجاناً، وأن تتفتَّق الأرض، كلَّما وضعتِ قدميكِ عليها، عن زنبقٍ وبنفسج».

شكرتها الفتاة وعادت إلى البيت، ولمَّا كانت أمُّها قد انتهت من الطَّهو، أرضتا الحاجة الطَّبيعيَّة لجسميهما. وفي صباح اليوم التَّالي، حين نشرت الشَّمس بضاعتها من الضَّوء الذي جلبته من الشَّرق في سوق حقول السَّماء، وفيما كانت تمشِّط شعرها، تساقطت في حضنها زخَّاتٌ من اللُّؤلؤ والعقيق. وبفرحٍ كبيرٍ نادت أمَّها التي جمعتها في سلَّةٍ ثمَّ ذهبت إلى صائغٍ كان صديقًا لها لتبيعه قسماً لا بأس به منها.

حدثَ في غضون ذلك أن جاءت تروكُّولا لزيارة أختها، ووجدت مارتسيِيلَّا مشغولةً بتلك اللَّآلئ، فسألتها كيف ومتى ومن أين حصلت عليها، ولكنَّ الفتاة لم تكن تعرف كيف تعكِّر الماء وربَّما لم تكن تعرف المثل القائل: «لا تفعل بقدر ما تستطيع، ولا تأكل بقدر ما تريد، ولا تنفق بقدر ما تملك ولا تَبُحْ بكلِّ ما تعرف»، فروت القصَّة كلَّها لخالتها.

لم تكن قد انتهت بعد من كلامها حين هرعت خالتها إلى البيت، دون أن تنتظر عودة شقيقتها، التي بدا لها انتظارها كألف عام، ووضعت في يد ابنتها قطعةً من البسكويت وأرسلتها إلى النَّافورة. وجدت بوتشا العجوز نفسها هناك؛ ولكن حين طلبت منها شيئاً من البسكويت، أجابت: «لم أكن أفكِّر سوى في إعطائك البسكويت! أتُراكِ سقيت حماري لتطلبي منِّي أشيائي؟ اغربي عن وجهي، فالأسنان أقرب إلى المرء من أقاربه». وفيما كانت تقول ذلك، ابتلعت قطعة البسكويت في أربع لقماتٍ مستفزَّةٍ المرأة العجوز التي، حين رأت أملها يُدفَن مع اللُّقمة الأخيرة، قالت بغضبٍ: «اذهبي، فلينزل الزَّبد من فمك مثل بغلة الطَّبيب عندما تتنفَّسين؛ وليتساقط القمل أكوامًا من رأسك عندما تتمشَّطين؛ ولينبت السَّرخس والحلبوب حيثما تضعين قدمك».

حين رأتها أمُّها عائدةً بالماء، لم تتلكَّأ عن تمشيط شعرها، فوضعت منشفةً جميلةً في حضنها، وأحنت رأس ابنتها، وبدأت بتمرير المشط، فإذا

وابلٌ من المخلوقات الخيميائيَّة[1]، من تلك التي تعطِّل الزِّئبق[2]، يتساقط في حضنها. ولا داعي لأصف لكم ردَّ فعلِ أمِّها التي أضافت نار السُّخط إلى ثلج الحسد، وزفرت ناراً ودخاناً من أنفها وفمها.

بعد مرور بعض الوقت، وفي أثناء وجود تشومُّو، شقيق مارتسيِيلَّا، في بلاط ملك كيونتسو، وبينما كان الحديث يدور عن جمال بعض النِّساء، تدخَّل، دون أن يُدعى، ليقول إنَّ كلَّ أولئك الجميلات سيذهبن ويلقين بعظامهنَّ من فوق الجسر، إن ظهرت شقيقته هناك، فهي، بالإضافة إلى جمال أعضائها التي تشكِّل الموسيقى للَّحن الثَّابت لروحها الجميلة، كانت تملك في شَعرها وفمها وقدميها فضائل منحتها لها الجنِّيَّة. فما كان من الملك، عند سماعه هذا التَّباهي، إلَّا أن أمر تشومُّو بإحضارها، لأنَّه إذا وجدها كما وصفها له، فسوف يتَّخذها زوجةً له.

بدا لتشومُّو أنَّها فرصةٌ ينبغي ألَّا يفرِّط فيها، فأرسل ساعياً خاصَّاً إلى أمِّه يُعْلِمُها بالأمر ويتوسَّل إليها أن تأتي على جناح السُّرعة مع ابنتها حتى لا يفلت هذا الحظُّ من يدها. كانت لوتشيدا عليلةً، فطلبت من شقيقتها، دون أن تعرف أنَّها توصي الذِّئب بالخروف، أن ترافق مارتسيِيلَّا إلى بلاط ملك كيونتسو من أجل ذلك الأمر. فما كان من تروكُّولا، إذ رأت الأمور تسير حسب رغبتها، إلَّا أن وعدتها بأن تقودها إلى أخيها سالمةً وآمنة.

ثمَّ صعدت السَّفينة، ومعها مارتسيِيلَّا وبوتشا؛ ولكن حين صارت

---

1) الخيمياء ممارسةٌ قديمةٌ ترتبط بعلوم الكيمياء والطِّبِّ وعلم المعادن وعلم الرموز والفنِّ والفلك، ولم تكن تمارَس بطريقة علميَّة، وكان المشتغل بهذا العلم لا يعلن عن أسرار مهنته. واختلف مؤرِّخو العلم في أصل الكلمة، فمنهم من ردَّها إلى الكلمة اليونانيَّة Chumeia، التي تعني السَّبك والصَّهر، ومنهم من أعادها إلى كلمتي Kemt وChem المصريَّتين، ومعناهما الأرض السَّوداء لارتباط علم الكيمياء قديماً بالسِّحر، ومنهم من أرجعها إلى أصل عربيٍّ من الفعل كمى/ يكمي، أي أخفى وستر. ويقصد بالمخلوقات الخيميائيَّة هنا القمل؛ (المترجمان).

2) كان الزِّئبق يستخدم ضدَّ القمل الذي لغزارته، في هذه الحالة، قاومَ مفعول الزِّئبق وعطَّله بعمليَّةٍ كيميائيَّة؛ (كروتشه).

السَّفينة في عرض البحر، اغتنمت اللَّحظة التي كان فيها البحَّارة نائمين، ودفعت مارتسيِيلَّا إلى الماء. وبالفعل كانت المسكينة على وشك الغرق حين تلقَّفتها حوريَّة بحرٍ جميلةٌ بين ذراعيها وأخذتها بعيداً.

وصلت تروكُّولا إلى كيونتسو واستقبلها تشومُّو على أنَّها مارتسيِيلَّا، ذلك أنَّه لطول الفراق بينهما لم يتذكَّر شكلها، وقادها في الحال إلى الملك الذي جعلها تصفِّف شعرها، فرأى تلك المخلوقات تتساقط كالوابل، أعداءَ لدودين للحقيقة التي تسيء دائماً للشُّهود، وحين نظر إلى وجهها، رآها تلهث من تعب المسير وفمها يرغو كصابونٍ مُطَرٍّ للملابس؛ وحين خفض ناظريه إلى الأرض، رأى مرجاً من الحشائش العفنة يبعث على الاشمئزاز. اشتعل الملك غضباً، فطرد بوتشا وأمَّها بلا تردُّدٍ، وعاقب تشومُّو بإرساله للعناية بإوزِّ البلاط.

خابت آمال تشومُّو بهذا العمل الذي أُوكِلَ إليه، ولم يكن يعرف كيف يتعامل مع الإوزِّ، فكان يقود القطيع عبر الحقول ويتركه يهيم كما يحلو له على طول الشَّاطئ، ثمَّ يأوي إلى مخزنٍ للتِّبن حتى المساء، وحين يحين وقت الإخلاد إلى النَّوم، كان يبكي مصيره. ولكنَّ مارتسيِيلَّا كانت تطلُّ من الماء وتطعم الإوزَّ السَّائبَ على طول الشَّاطئ طعامًا ملكيًّا وتسقيه من ماء الورد، حتى أصبحت كلُّ إوزَّةٍ بحجم خروفٍ مخصيٍّ، مكتنزةً لدرجة أنَّها لم تعد قادرةً على فتح عيونها. وفي المساء، كان الإوزُّ يندفع إلى حديقةٍ صغيرةٍ تحت نافذة الملك ويبدأ بالغناء:

كواك، كواك، كواك!
الشَّمس جميلةٌ والقمر جميل؛
وأكثر منهما جمالًا التي ترعانا.

سمع الملك هذه التَّرنيمة التي كان يؤدِّيها الإوزُّ كلَّ مساء، فأرسل في طلب تشومُّو وأراد أن يعرف أين وكيف وماذا كان يُطعم الإوزَّ؛ وأجاب

تشومُّو: «أنا لا أعطيهم سوى العشب الطَّازج من الحقول». ولكنَّ الملك الذي لم يقنعه الجواب أرسل في السِّرِّ خادماً جديراً بالثِّقة ليرى أين كان يقود الإوزَّ. اقتفى الخادم خطاه، فرآه يدخل مخزن التِّبن ويترك الإوزَّ وحده، ورأى الإوزَّ يتَّجه نحو الشَّاطئ حيث خرجت مارتسييلَّا من البحر، والتي لا أعتقد أنَّ أمَّ ذلك الأعمى[1] جميلةٌ بقدر جمالها، والتي، كما قال الشَّاعر، لا تطلب صدقةً غير البكاء.

هرع خادم الملك، مذهولاً ومفتوناً، إلى سيِّده وأخبره بالمشهد الجميل الذي رآه على الشَّاطئ، فتحمَّس الملك ودفعه فضوله إلى الذَّهاب بنفسه لرؤيته؛ وفي الصَّباح، حين قام الدِّيك، زعيم الطُّيور، باستنهاض الجميع لتسليح الأحياء ضدَّ اللَّيل، انطلق تشومُّو مع الإوزِّ إلى المكان المعهود، وتبعه الملك دون أن يغفل عنه هنيهة. بقي تشومُّو في مخزن التِّبن واتَّجه الإوزُّ نحو الشَّاطئ، ورأى الملك مارتسييلَّا تخرج من البحر، وبعد أن أعطت الإوزَّ طبقاً من المعجَّنات الحلوة وقِدْراً من ماء الورد، جلست على صخرةٍ تمشِّط شعرها الذي راحت تتساقط منه حثواتٌ من اللُّؤلؤ والمرجان، بينما كانت تخرج من فمها سحابةٌ من الزُّهور وتمتدُّ تحت قدميها سجَّادةٌ من زنبقٍ وبنفسج.

استدعى الملك تشومُّو وسأله إن كان يعرف تلك الفتاة الجميلة؛ فعرفها تشومُّو وركض لاحتضانها، وبحضور الملك سمع كلَّ الخيانة التي قامت بها تروكُّولا، وكيف أنَّ حسد ذلك الطَّاعون القبيح جعل هذه النَّار الجميلة تسكن في مياه البحر.

لا يمكن وصف السَّعادة التي استولت على الملك بحصوله على تلك البهجة الفريدة؛ ثمَّ التفت إلى أخيها، وقال له إنَّه كان محقَّاً تماماً في إكثاره من الثَّناء عليها، وإنَّه وجد لديها ثلثي ما وصفه وأكثر، ولذلك رأى أنَّها كانت أكثر من جديرةٍ بأن تكون زوجته، حين تتكرَّم بقبول صولجان مملكته.

---

1) فينوس؛ (كروتْشِه).

"آه، ما يشأ ملك الشَّمس يكُن – أجابت مارتسيِيلَّا، – ولكنتُ أتيتُ وخدمتكم كعبدةٍ لتاجكم! ولكن ألا ترون هذه السِّلسلة الذَّهبيَّة التي تقيِّد قدميَّ وبها تجعلني السَّاحرة سجينةً، فإذا خرجتُ أستنشق الكثير من الهواء وبقيت لفترةٍ طويلةٍ على الشَّاطئ، سحبتني إلى العبوديَّة الغالية مقيَّدةً بالذَّهب؟".

"وما العلاج الذي يمكن أن يخلِّصكِ من براثن هذه الحوريَّة؟"، قال الملك.

"العلاج يكون بنشر هذه السِّلسلة بمنشارٍ لا يُصدر صوتاً ثمَّ التَّملُّص منها"، قالت مارتسيِيلَّا.

"انتظريني غداً صباحاً – ردَّ الملك، – لأنَّني سآتي بالأداة مُعدَّةً لذلك وآخذك إلى المنزل، حيث ستكونين عيني اليمنى ومهجة قلبي وأحشاء هذه الرُّوح".

وبعد أن تبادلا عربون حبٍّ بتلامس الأيدي، ذهبا، هي إلى وسط الماء وهو إلى وسط النَّار، نارٍ لم تمنحه لحظةً من الرَّاحة طوال اليوم. وحين خرج ذلك العبد الأسود، اللَّيل، ليرقص رقصة التُّوبَّا-كاتوبَّا[1] مع النُّجوم، لم يغمض له جفنٌ، فذهب يجترُّ بفكيَّ الذَّاكرة جمالَ مارتسيِيلَّا، سارحاً بأفكاره في آيات شَعرها ومعجزات فمها وأعاجيب قدميها؛ وبوضع ذهب نُعْمَيَاتِها على حجر اختبار محكمة عقله، وجد أنَّها تساوي أربعةً وعشرين قيراطاً. وراح يلعن اللَّيل الذي يتأخَّر كثيراً عن الاستراحة من عمله في تطريز النُّجوم، ويشتمُ الشَّمس التي تتأخَّر عن الوصول مع حمولة الضَّوء لإثراء بيته بالنِّعمة المنشودة وليجلب إلى غرفته منجماً من ذهبٍ يرشق درراً، ومحارةً من لؤلؤٍ تقذف زهوراً.

ولكن، بينما هو في بحر أفكاره يفكِّر بتلك التي في البحر، إذا مهندسو

1) رقصةٌ قديمةٌ من جنوبي إيطاليا؛ (المترجمان).

الشَّمس العسكريُّون يمهِّدون الطَّريق الذي ستمرُّ منه مع جيش أشعَّتها؛ فارتدى الملك ثيابه، وبصحبة تشومُّو، انطلق نحو الشَّاطئ. وهنا خرجت مارتسيِيلَّا من الأمواج، وقام هو بنفسه بنشر السِّلسلة التي تقيِّد قدمَي المخلوقة التي أحبَّها بالمنشار الذي جلبه معه، مع أنَّه في هذا الفعل بالذَّات كان يصنع سلسلةً أقوى لقلبه. وانطلق على صهوة الحصان مع تلك التي امتطت قلبه، واتَّجه نحو القصر الملكيِّ، حيث وجدت مارتسيِيلَّا، بأمرٍ من الملك، كلَّ نساء المملكة الجميلات في استقبالها وكرَّمنها بصفتها سيِّدتهنَّ.

وعندما تزوَّجها الملك، في الحفلة الكبيرة التي تلت ذلك، بين المفرقعات الكبيرة التي أُشعِلَتْ للإضاءة، ضُمَّتْ تروكُّولا أيضاً إلى برميل مفرقعاتٍ، لكي تدفع ثمن المكر الذي مكرته بمارتسيِيلَّا. وأُرسِلَ في طلب لوتشيدا لكي تأتي وتعيش مع تشومُّو سيِّدةً معزَّزةً في القصر؛ أمَّا بوتشا، فقد طُردت من تلك المملكة لتقضي حياتها في تسوُّلٍ دائمٍ، ولأنَّها رفضت أن تزرع القليل من الخير، أمست في فقرٍ دائمٍ إلى الخبز، لأنَّ:

من لا يرحم الآخرين، لا يجد من يرحمه.

الحمائمُ السَّبع
المؤانسة الثَّامنة من اليوم الرَّابع

سبعة أخوةٍ يغادرون المنزل لأنَّ أمَّهم لا تنجب لهم أختاً، وعندما تولَد الأخت أخيراً، وهم في انتظار الخبر مع علاماتٍ معيَّنةٍ، تخطئ الأم في إرسال تلك العلامات، فيهيمون على وجوههم في الأرض. تكبر الأخت وتبحث عنهم وتجدهم، وبعد أحداثٍ عديدةٍ، يعودون جميعاً أثرياء إلى ديارهم.

كانت حكاية تشولَّا بحقٍّ بيتزا محشوَّةً أحبَّها الجميع ولعقوا أصابعهم وراءها، ولكن لمَّا كانت باولا على أهبة الاستعداد لتحكي حكايتها، رمقهم الأمير بنظرة ذئبٍ، فتوقَّفوا جميعاً عن الكلام، وابتدأت هي حكايتها قائلةً:

من يُسعد الآخرين، ينل دائماً ما يُسعده؛ والخير خطَّافُ الصَّداقة وحربةُ الحبِّ؛ ومن لا يزرع لا يحصد، وقد قدَّمت لكم تشولَّا مقبِّلاتٍ مثالٍ على ذلك، وسوف أقدِّم لكم أنا حلوى ما بعد الوجبة، فكما قال كاتونه[1]: «اقتضب الحديث في المأدبة». ولذلك، لطفاً، وجِّهوا آذانكم إليَّ قليلاً، وسوف تجعلها السَّماء تنمو أكثر لتصغوا إلى أشياء سارَّةٍ وممتعة.

حُكي أنَّه عاشت في أرض أرتسانو امرأةٌ صالحةٌ كانت تضع في كلِّ عامٍ مولوداً ذكراً؛ فكنتم ترون نايَ الإله «بان» بسبع قصباتٍ، وكلُّ قصبةٍ أكبرُ من الأخرى. وبعد أن غيَّر الأبناء السَّبعة آذانهم[2] الأولى، قالوا لأمِّهم

---

1) ديونيسيو كاتونه، أديبٌ لاتينيٌّ عاش ما بين القرنين الثَّالث والرَّابع للميلاد. من مؤلَّفاته "رباعيَّات كاتونه"، وهي عبارةٌ عن أقوالٍ مأثورةٍ منظومةٍ في بيتين شعريَّين مقفَّيين؛ (كروتشه).

2) قولٌ ساخرٌ مفادُه أنَّ آذان الأولاد تتغيَّر أسوةً بأسنانهم؛ (كروتشه).

يانِّيتِلَّا التي كانت حاملاً مرَّةً أخرى: «اعلمي، يا أمَّنا العزيزة، أنَّه إذا لم تنجبي بنتاً، بعد هذا العدد الكبير من الأبناء، فإنَّنا عازمون حقًّا على مغادرة هذا المنزل والطَّواف في العالم مثل فراخ الشُّحرور». وعند سماع الأمِّ هذا القرار، توسَّلت إلى السَّماء أن تنزع هذه الرَّغبة من صدور أبنائها وأن تقيها شرَّ فقدان سبع جواهر.

مع اقتراب موعد الولادة، قال لها أبناؤها: «إنَّنا منكفئون إلى تلك الضِّفَّة المقابلة، فإن أنجبتِ ذكراً، ضعي محبرةً وريشةً في النَّافذة؛ وإن كانت أنثى، ضعي مغرفةً وبكرةَ غزْلٍ. فبالعلامة الثَّانية سوف نعود إلى المنزل لنقضي بقيَّة حياتنا تحت جناحيك، ولكن إن رأينا علامةَ الذَّكر، فعندئذٍ انسي أمرنا، لأنَّك لن ترينا ثانيةً».

وشاءت السَّماء أن تنجب يانِّيتِلَّا طفلةً جميلةً، وأمرت القابلةَ على الفور بأن تضع العلامة المتَّفق عليها للأبناء، ولكنَّ هذه كانت ساهيةً ومشتَّتة الذِّهن، فوضعت ريشةً ومحبرة. وبلا تردُّدٍ، وضع الأشقَّاء السَّبعة الطَّريق بين سيقانهم، ورحلوا عن البلدة.

بعد ثلاث سنواتٍ من التَّرحال المتواصل، وجدوا أنفسهم ذات يومٍ في غابةٍ ترقص الأشجار فيها رقصةَ الإمبيرتيكاتا[1] على صوت تكسُّر جري جدولٍ على الحجارة. وفي تلك الغابة، كان منزل الغول الذي اقتلعت عينيه امرأةٌ في أثناء نومه، فأصبح شرساً جدّاً ضدَّ هذا الجنس وكان يلتهم كلَّ أنثى يسوقها سوء حظِّها إلى الوقوع بين براثنه. كانوا متعبين من السَّفر، وواهنين من الجوع، فتقدَّم أحدهم وسأله أن يشفق عليهم ببعض الخبز، فأجابه الغول بأنَّه سيعطيهم ما يقتاتون به إذا وافقوا على وضع أنفسهم تحت خدمته، فكلُّ ما كان عليهم فعله هو أن يقوده أحدهم، واحدٌ منهم كلَّ يومٍ، مثل جروٍ صغير.

1) رقصةٌ تؤدَّى بعصيٍّ مزيَّنة بالزُّهور، عوضاً عن السُّيوف التي كانت تستعمل من قبل، من قبل مقنَّعين يؤدُّونها تحت نوافذ الحسناوات والنُّبلاء الذين يكافئونهم برمي قطعٍ من النُّقود؛ (كروتشِه).

بدا للفتية أنَّهم وجدوا أمَّهم وأبيهم، فأبرموا الاتِّفاق وظلُّوا في خدمة الغول الذي، بعد أن تعلَّم أسماءهم، صار تارةً ينادي جانغراتسيو، وتارةً تشيكِّتْبيلُّو، وتارةً باسكالِه، وتارةً نوتشو، وتارةً بونِه، وتارةً بِتْسِيلُّو، وتارةً كاركافِكْيا، كما كان يُدعَى الأشقَّاءُ السَّبعة الذين عاشوا في غرفةٍ أرضيَّةٍ من المنزل، وكانوا ينالون من الغول ما يكفي لمعيشتهم.

في غضون ذلك، كبرت أختهم وعلمت أنَّ أشقاءها السَّبعة، بسبب شرود القابلة، انطلقوا يضربون في الآفاق، وانقطعت أخبارهم، فخطر ببالها أن تخرج للبحث عنهم. وفعلت الكثير وقالت لأمِّها الكثير، وبعد الكثير من الإصرار والتوسُّلات، ألبستها أمُّها لباس الحجيج وسمحت لها بالذَّهاب. سارت الشَّابَّة تشانَّا طويلاً، وهي تسأل دائماً، من أرضٍ إلى أرضٍ، إن رأى أحدهم أشقَّاءها السَّبعة، وطافت الكثير من البلاد إلى أن حصلت، أخيراً، على أخبارٍ عنهم في إحدى الحانات. ثمَّ طلبت أن يدلُّوها على طريق الغابة؛ وفي صباح أحد الأيَّام، حين كانت الشَّمس تحفُّ بسكاكين أشعَّتها الأخطاء الفاحشة التي كتبها اللَّيل على صفحة السَّماء، وجدت نفسها في ذلك المكان، وبفرحٍ عظيمٍ تعرَّف إليها أشقَّاؤها الذين لعنوا تلك المحبرة وتلك الرِّيشة التي خطَّت لهم زوراً الكثير من الآلام. احتفوا بها بكثيرٍ من الملاطفات، ولكن من ناحيةٍ أخرى، طلبوا منها أن تبقى في غرفتهم وألَّا تُسمع الغول صوتها، وأن تعطي، إضافةً إلى ذلك، حصَّةً من أيِّ طعامٍ يقع بين يديها لهرٍّ يوجد في تلك الغرفة، وإلَّا ألحقَ بها ذلك الغول مكروهاً.

خطَّت تشانَّا هذه النَّصائح في قرطاس قلبها؛ وصارت تشاطر الهرَّ بودٍّ كلَّ ما كانت تحصل عليه، بما في ذلك الشُّمرة، قائلةً له: "هذا لي، وهذا لك، وهذا لابنة الملك". ولكن في يومٍ من الأيَّام، خرج أشقَّاؤها إلى الصَّيد خدمةً للغول، وتركوا لها سلَّةً صغيرةً من الحِمَّص لتطهوها؛ وبينما كانت تنقِّيه، وجدت فيه، مصادفةً، حبَّة بندقٍ، ولسوء حظِّها كانت هذه الحبَّة حجر العثرةِ لطمأنينتها، ذلك أنَّها وضعتها في فمها دون أن تعطي

الهرَّ نصفها، فما كان من هذا، نكايةً بها، إلَّا أن قفز على الموقد وتبوَّل على النَّار وأطفأها.

لم تعرف تشانًّا كيف تُصلِح الأمر، فخرجت من تلك الغرفة ودخلت شقَّة الغول وطلبت منه بعض النَّار. فقال الغول وقد سمع صوت أنثى: "يا للحظِّ! انتظري قليلاً، لأنَّكِ وجدتِ ما تبحثين عنه!". ثمَّ أخذ مشحذاً ودهنه بالزَّيت وبدأ يشحذ أنيابه.

أيقنت تشانًّا أنَّ العربة انطلقت بشكلٍ سيِّءٍ، فالتقطت جمرةً وهرعت إلى غرفتها وأوصدت الباب، ولم تترك عصيًّا ولا كراسيَّ ولا مقاعد سريرٍ ولا صناديق ولا حجارةً ولا أيَّ شيءٍ آخر في الغرفة إلَّا وكوَّمته وراء الباب. وكان الغول قد انتهى من شحذ أسنانه، فهرع إلى الغرفة السُّفليَّة، وحين وجد الباب موصداً، شرع يركله بهياجٍ شديد.

وفي قلب تلك المعمعة، وصل الأشقَّاء السَّبعة، ولدى سماعهم الهرجَ وزمجرةَ الغول الذي كان يوبِّخهم كخونةٍ لأنَّهم جعلوا من غرفتهم ملجأً لأعدائه، أحسَّ جانغراتسيو، أكبرهم سنّاً وأكثرهم حصافةً، بأنَّ الأمور بدأت تسوء، فقال للغول: "إنَّنا لا نعرف شيئاً عن هذا الأمر، وربَّما كانت هذه الأنثى اللَّعينة قد دخلت غرفتنا مصادفةً بينما كنَّا في الصَّيد؛ ولكن، طالما أنَّها تحصَّنت في الدَّاخل، تعال معي، لأنَّني سأقودك إلى مكانٍ يمكننا منه النَّيل منها دون أن تتمكَّن من الدِّفاع عن نفسها".

وهكذا، أمسك الغولَ من يده وقاده إلى حيث توجد هوَّةٌ عميقةٌ، وهناك قام أشقَّاؤه بدفعه، وألقوا به على نتوء صخرةٍ، وبمجرفةٍ وجدوها في متناول أيديهم، طمروه بالتُّراب. ثمَّ فتحوا باب الغرفة التي فيها شقيقتهم ووبَّخوها بشدَّةٍ على الخطأ الذي ارتكبته وعلى المخاطرة التي عرَّضت نفسها لها. «كوني أكثر تعقُّلاً في المستقبل – قالوا لها – وقبل كلِّ شيءٍ، حذاريكِ من قطف العشب من حول المكان الذي دفنَّا فيه الغول، لأنَّكِ

إن فعلتِ ذلك، تحوَّلنا نحن السَّبعة إلى حمائم». «فلتحرسني السَّماء – أجابت تشينَّا – من أن أُلحِقَ هذا المكروه بكم!». وهكذا وضعوا أيديهم على أملاك الغول وصاروا أسياد المنزل، وكانوا ينتظرون بمرحٍ انتهاء فصل الشِّتاء، فحالما ستعطي الشَّمس كهديَّةٍ للأرض ما حصلت عليه في كَوْكَبَةِ الثَّور، تنُّورةً خضراء مطرَّزةً بالزُّهور، سيبدأون رحلة العودة إلى منزلهم.

وحدثَ، بينما كان الأشقَّاء السَّبعة في الجبل يجمعون الحطب ليتَّقوا البرد الذي كان يزداد شدَّةً يوماً بعد يومٍ، أن مرَّ في تلك الغابة شيخٌ فقير، وفي أثناء فراره من القطِّ الشَّيطان، تسلَّق شجرة صنوبر، فسقطت على رأسه ثمرةٌ من تلك الشَّجرة وسبَّبت له ورماً كبيراً جعله يصرخ كروحٍ ملعونةٍ من الألم. خرجت تشانَّا على صوت صراخه، ومُشفقةً على حاله قطفت على الفور قطفةً من رأس عشبةٍ من أعشاب إكليل الجبل التي نبتت على قبر الغول، وبعد أن طهتها مع الخبز الممضوغ والملح، صنعت منها لبخةً ووضعتها على الجرح. وبعد ذلك، قدَّمت له طعام الإفطار، ثمَّ ودَّعته وبدأت بتحضير المائدة بانتظار أشقَّائها.

ولكن بدلاً منهم، أتت سبع حمائم صغيرةٍ وقالت لها: "آه، يا سببَ كلِّ مصائبنا، ليتَ يديك شُلَّتا قبل أن تقطفي إكليل الجبل اللَّعين الذي ذهب بنا في داهية! ما خطبك يا أختاه؟ هل أكلتِ دماغ قطَّةٍ[1] وتركتِ تحذيرنا يُفلِت من ذاكرتك؟ بسببكِ أصبحنا طيوراً، فرائسَ لمخالب الحِدآن والبواشق والبَوَاز. بسببكِ أصبحنا رفاقاً للوراوِرِ وعصافير أبي قلنسوة والحساسين وبومات الشَّجر والبومات الأذناء والعقاعق والغربان وعصافير الأبلق والعصافير التُّفَّاحيَّة وطيور الواق والصِّردان والقبَّرات ودجاجات الماء وديوك الغاب وحساسين الشَّوك والصَّغانج وعصافير ذهبيِّ التَّاج والقراقف الكبيرة والدُّرسات حمراء الرَّأس واللَّوَّاءات والذُّعَرات الصَّفراء وخطاطيف الذُّباب البقعاء وطيور الغطَّاس الصَّغير والصِّعاء والبلاشين

1) وفقاً للمعتقدات الشَّعبيَّة فإنَّ من يأكل دماغ قطَّةٍ يصاب بالنِّسيان؛ (كروتشه).

الأرجوانيَّة والذُّعَرَات البيضاء وبِطاطِ الحَذَف الصَّيفيِّ والهداهد. لقد أحسنتِ صنعاً! وقد نعود الآن إلى بلدنا لنرى شباكاً ممدودةً وفخاخاً منصوبةً! فلشفاء رأس حاجٍّ، حطِّمتِ رأسَ سبعةِ أخوة! ولا دواء لدائنا إذا لم تعثري على أمِّ الزَّمن التي ستدلُّك على السَّبيل إلى الخروج من هذه الضِّيقة".

مثل طائر سُمَّانٍ منتوف الرِّيش طلبت تشانًّا من أشقَّائها المغفرة عن الذَّنب الذي ارتكبته، وعاهدت نفسها على الضَّرب في الآفاق إلى أن تعثر على منزل المرأة العجوز؛ وتوسَّلت إليهم أن يبقوا دائماً في المنزل اجتناباً لمصيبةٍ أخرى، ثمَّ انطلقت في رحلتها. مشت ومشت دون أن تشعر بأيِّ تعبٍ، فمع أنَّها كانت تطوف سيراً على الأقدام، إلَّا أنَّ الرَّغبة في مساعدة أشقَّائها خدمتها كبغلِ ركوبٍ استطاعت بفضله أن تقطع ثلاثة أميالٍ في السَّاعة.

وصلت إلى شاطئٍ كان البحرُ عندَه يضرب بعصا الأمواجِ الصُّخورَ التي لم تنجز واجبات اللَّاتينيَّة التي أعطتها إيَّاها، فرأت حوتاً ضخماً قال لها: "عمَّ تبحثين أيَّتها الفتاة الجميلة؟". فأجابت تشانًّا: "إنَّني أبحث عن منزل أمِّ الزَّمن". "هل تعرفين ما عليكِ فعله؟ - ردَّ الحوت، - امشي في خطٍّ مستقيمٍ على طول الطَّريق المحاذي للبحر، وعند أوَّل نهر تصادفينه اتبعي ذلك النَّهر إلى منبعه، وهناك ستجدين من يدلُّك على الطَّريق. ولكن هلَّا تُسْدِين إليَّ هذا المعروف: حين تجدين تلك العجوز الطَّيِّبة، اسأليها أن تمنن عليَّ بوصفةٍ تمكِّنني من العوم بأمانٍ دون أن أرتطم هنا وهناك بالصُّخور وينتهي بي الأمر في كثيرٍ من الأحيان إلى الجنوح". "دع الأمر لي"، قالت تشانًّا، وبعد أن شكرته على الإرشادات التي زوَّدها بها، انطلقت تهرول على طول الشَّاطئ.

وبعد رحلةٍ طويلةٍ، وصلت إلى ذلك النَّهر الذي كان، كمفوَّض الضَّرائب، يدفع عملاتٍ فضِّيَّةً لخزينة البحر، فانعطفت لتصعد إلى منبعه،

وفي ريفٍ جميلٍ، حيث المرج يحاكي السَّماء بنجومٍ من الأزهار على عباءته الخضراء، صادفت فأراً قال لها: "إلى أين أنت ذاهبةٌ وحدك أيَّتها المرأة الجميلة؟". فأجابت: ""إنَّني أبحث عن أمِّ الزَّمن". "أمامكِ طريقٌ طويلٌ – أضاف الفأر، – ولكن لا تيأسي: فلكلِّ شيءٍ خاتمة. تابعي السَّير نحو تلك الجبال التي تمنح نفسها ألقاب السُّموِّ كأسيادٍ أحرارٍ على هذه الحقول، وسوف تحصلين دائماً على أفضل الأخبار حول ما تبحثين عنه. ولكن هلَّا تُسْدِين إليَّ هذا المعروف: حين تصلين إلى المنزل الذي تريدين، اطلبي من تلك العجوز الطَّيِّبة أن تخبرك ما العلاج الذي يمكننا أن نجده لنحرِّر أنفسنا من استبداد القطط؛ ثمَّ مُريني ما تشائين، لأنَّني عبدٌ لكِ سأكون". وعدته تشانَّا بأن تفعل ما طلبه، وانطلقت نحو تلك الجبال التي، بقدر ما بدت قريبةً، بدا من المستحيل الوصول إليها.

في النِّهاية، وصلت إلى هناك وجلست على حجرٍ وقد أخذ منها الإعياء كلَّ مأخذٍ، وهناك رأت جيشاً من النَّمل ينقل مخزوناً كبيراً من القمح، فالتفتت نملةٌ إلى تشانَّا وقالت لها: «من أنتِ؟ وإلى أين تذهبين؟». فأجابت تشانَّا التي كانت لطيفةً مع الجميع: «أنا فتاةٌ منكودة الحظِّ، أبحث عن أمِّ الزَّمن لأمرٍ يهمُّني». «عليك بمواصلة المسير – قالت النَّملة، – فهناك، حيث تنفرج تلك الجبال على سهلٍ واسعٍ، سوف يأتيكِ الخبر اليقين، ولكن هلَّا تُسْدِين إليَّ هذا المعروف الكبير: حاولي أن تفهمي من تلك العجوز ماذا يمكننا أن نفعل نحن معشر النَّمل لنعيش حياةً أطول قليلاً؛ لأنَّه يبدو لي حماقةً كبيرةً من الحماقات الأرضيَّة أن نُضطرَّ إلى جمع أكوامٍ من المؤونة للأكل لأجل حياةٍ قصيرةٍ تنطفئ في زهرة العمر كشمعةٍ مسحورة». «لا تقلقي – قالت تشانَّا، – لأنَّني أريد أن أبادلكِ الإحسانَ بالإحسان».

بعد أن اجتازت تلك الجبال، وجدت نفسها في سهلٍ بديعٍ، وبعد أن سارت فيه طويلاً، وجدت شجرةَ بلُّوطٍ عملاقةً، شاهداً على العصور القديمة، وحلوىً لتلك العروس التي كانت تسعد بالقليل، ولقمةً من

لذَّة مفقودةٍ لم يعد الزَّمن يعطيها لهذا العصر المرير. ومُشكِّلةً شفاهاً من لحائها ولساناً من نخاعها، قالت الشَّجرة لتشانَّا: «إلى أين، إلى أين تمضين مغمومةً هكذا يا صغيرتي؟ تعالي إلى ظلِّي واستريحي». شكرتها تشانَّا كثيراً، ولكنَّها اعتذرت لأنَّها كانت في عجلةٍ من أمرها للعثور على أمِّ الزَّمن. حالما سمعت شجرةُ البلُّوط ما قالته، أجابتها: «إنَّكِ لست ببعيدةٍ عنها، ولن تمشي أكثر من يومٍ آخر حتى تجدي بيتاً على قمَّة جبلٍ، وهو ما تبحثين عنه. ولكن، إن كنت لطيفةً بقدر ما أنت جميلة، حاولي أن تعرفي ماذا يمكنني أن أفعل لاستعادة شرفي الضَّائع؛ لأنَّني من مأكلٍ للعظماء صرتُ طعاماً للخنازير». «دعي الأمر لتشانَّا - أجابت هي، - لأنَّني سأتولَّى خدمتك».

قالت ذلك ثمَّ مضت إلى حال سبيلها، وبعد أن مشت ومشت دون راحةٍ، وصلت إلى سفح جبلٍ منغِّصٍ للملذَّات، جبلٍ كان يرفع رأسه ليتحرَّش بالغيوم. وهناك صادفت رجلاً عجوزاً مستلقياً في وسط التِّبن من مشقَّة الطَّريق، وما إن لمحها حتى عرف فيها تلك التي عالجت ورمَه. وحين سمع ما كانت تبحث عنه، أخبرها أنَّه يحمل إلى الزَّمن كراءَ قطعة الأرض التي زرعها، وأنَّ الزَّمن كان طاغيةً اغتصب كلَّ شيءٍ في العالم، فارضاً الجزية على الجميع، وخاصَّةً على من هم في سنِّه؛ ولأنَّه كان قد نال فضلاً من يد تشانَّا، أراد أن يردَّه لها مِائة ضعفٍ بإعطائها بعض التَّحذيرات الجيِّدة حول مجيئها إلى هذا الجبل، متأسِّفاً لعدم قدرته على مرافقتها، لأنَّ سنَّه المحكوم عليها بالنُّزول بدلاً من الصُّعود كانت تجبره على البقاء على منحدراتها لتسوية حساباته مع كتبة الزَّمن، والتي هي آلامُ الحياة وقرفها وأمراضها، وتسديد ما عليه من ديونٍ للطَّبيعة. فقال لها: «أصغي إليَّ الآن جيِّداً يا ابنتي الجميلة الطَّاهرة. اعلمي أنَّك على قمَّة ذلك الجبل ستجدين أطلال منزلٍ لا ذاكرة تحيطُ بوقت بنائه: الجدران متصدِّعةٌ، والقواعد متفتِّتةٌ، والأبوابُ مسوَّسةٌ، والأثاث متهرِّئٌ، وباختصارٍ،

كلُّ شيءٍ متآكلٌ ومدمَّرٌ؛ فعلى هذا الجانب ترين أعمدةً محطَّمةً، وعلى الجانب الآخر تماثيلَ مكسورةً، ولا شيء بقي سليماً سوى سلاحٍ فوق الباب المكين الذي سترين عليه ثعباناً يعضُّ ذيله وغزالاً وعنقاء[1]. عند دخولك ذلك المكان، سترين على الأرضِ نصالاً صمَّاء ومناشير ومناجل ومقصَّات تقليم، فضلاً عن مئات الأواني النُّحاسيَّة الملأى بالرَّماد والشَّبيهة بحناجير الصَّيادلة، مع أسماءٍ مكتوبةٍ عليها، حيث تقرئين أسماء كورنث، ومُرْبَاطَر، وقرطاج، وطروادة، وآلاف المدن الأخرى الغابرة التي يحتفظ بها الرَّمادُ كتذكاراتٍ لأمجاده. الآن، عندما تصبحين على مقربةٍ من ذلك المنزل، تنحَّيْ جانباً وابقي مختبئةً إلى أن يخرج الزَّمن، وعندئذٍ ادخلي وستجدين امرأةً هِرْشَفَّةً تلامس الأرض بذقنها وتبلغ السَّماء بحدبتها؛ شعرُها الذي يشبه ذيل حصانٍ رماديٍّ يغطِّي كعبيها؛ ووجهها يشبه خسَّةً مضفورةً، بتجاعيد تصلَّبت من نشاء السِّنين؛ وستجدينها جالسةً على ساعةٍ مثبَّتةٍ في الحائط، ولأنَّ جفنيها غليظان لدرجة أنَّهما يغطِّيان عينيها، فإنَّها لن تتمكَّن من رؤيتك. بمجرَّد دخولك، انزعي بلا تردُّدٍ الأثقال الموازنة من السَّاعة، ثمَّ نادي المرأة العجوز واطلبي منها أن تلبِّي رغباتك، وسوف تقوم هي على الفور بمناداة ابنها ليأتي ويأكلك. ولكن، طالما أنَّ السَّاعة التي تجلس عليها الأمُّ تفتقر إلى أثقال الموازنة، فإنَّه لن يتمكَّن من التَّحرُّك خطوةً واحدة، وهكذا ستكون مضطرَّةً إلى منحك ما تريدين. ولكن لا تصدِّقي أيَّ قَسَمٍ تقسمه لك إن هي لم تقسم بأجنحة ابنها: عندئذٍ، صدِّقيها وافعلي ما تقوله لك، وسوف تكونين راضيةً».

وما إن انتهى المسكين من قول ذلك حتى انهارَ وتفسَّخ كجثَّةٍ أُخرجَت من سرداب الموتى إلى ضوء النَّهار. فجمعت تشاتَّا ذلك الرَّماد، وبعد أن مزجته بمقدارٍ من الدُّموع، حفرت حفرةً ودفنته فيها، ثمَّ صَلَّتْ إلى السَّماء أن يرقد براحةٍ وسكينة.

---

1) رموز العودة والسُّرعة والانبعاث؛ (كروتشِه).

ثمَّ صعدت الجبل الذي أرهقها صَعُوداً، وانتظرت خروج الزَّمن من المنزل، وكان رجلاً عجوزاً ذا لحيةٍ طويلةٍ جدّاً يرتدي عباءةً قديمةً مليئةً بقصاصاتٍ مخيطةٍ تحمل أسماء هذا وذاك، وكان له جناحان كبيران وقد ركض بسرعةٍ هائلةٍ لدرجة أنَّها فقدت رؤيته في لمح البصر. وحين دخلت منزل أمِّه، ذهلت من مرأى ذلك الحطام الكئيب؛ وبعد أن قبضت على أثقال الموازنة وانتزعتها، وجَّهت أسئلتها إلى المرأة العجوز. فأطلقت العجوز صيحةً مناديةً ابنها؛ ولكنَّ تشانَّا قالت لها: «يمكنك أن تضربي رأسك بالحائط، ولكنَّك لن تري ابنك، لأنَّني أمتلك أثقال الموازنة في يدي». وإذ رأت المرأة العجوز أنَّ خطواتها قد قُطِعَت، بدأت تتملَّقها: «أعيديها، يا عزيزتي، لا تمنعي ابني من الجري، فهذا شيءٌ لم يفعله بعدُ كائنٌ حيٌّ في العالم. أعيديها، أجارك الرَّبُّ، وأقسم لك بمياه ابني الحمضيَّة التي يقضم بها كلَّ شيءٍ، أنَّني لن أؤذيك». «إنَّك تضيِّعين وقتك - أجابت تشانَّا: - عليك أن تفكِّري في شيءٍ أفضل من هذا إن كنت تريدين أن أعيدها». «أقسم لك بتلك الأسنان التي تقضم كلَّ الأشياء الفانية أنَّني سأخبرك بكلِّ ما ترغبين في معرفته». «لن تفعلي شيئاً من هذا - ردَّت تشانَّا، - فأنا أعرف أنَّك تخدعينني». فقالت العجوز: «حسناً، أقسم لك بتلك الأجنحة التي تطير في كلِّ مكانٍ أنَّني سأجعلك أسعد ممَّا تتصوَّرين». فأعادت تشانَّا الأثقال وقبَّلت يد المرأة العجوز التي كانت تنبعث منها رائحةٌ عفنةٌ وكريهة.

وإذ رأت العجوزُ الأخلاق الحميدة للشَّابَّة، قالت لها: «اختبئي وراء هذا الباب، وعندما يأتي الزَّمن، سأجعله يقول ما تريدين أن تعرفيه. وعندما يخرج ثانيةً، لأنَّه لا يمكث أبداً في مكانٍ واحدٍ، يمكنك أن تهربي؛ ولكن دون أن تجعليه يسمعك، لأنَّه شرهٌ جدّاً ولا يوفِّر حتى أطفاله، وعندما ينضب كلُّ شيءٍ، يأكل نفسه ثمَّ ينشأ من جديد».

فعلت تشانَّا ما قالته لها المرأة العجوز، وفي هذه الأثناء وصل الزَّمن،

وبسرعةٍ وخفَّة قضم كلَّ ما وجده في متناول يده، حتى حُطام الجدران؛ وبينما كان يهمُّ بالمغادرة، استنطقته أمُّه في جميع الأشياء التي طلبتها تشانًّا، متوسِّلةً إليه، باسم الحليب الذي أرضعته إيَّاه، أن يجيب على أسئلتها. وبعد ألف رجاءٍ ورجاءٍ، أجابها ابنها قائلاً: «يمكن القول للشَّجرة إنَّها لن تكون أبداً عزيزةً على البشر ما دامت تحتفظ بالكنوز مدفونةً تحت جذورها. وللفأر، إنَّه لن يتحرَّر أبداً من القطِّ إن لم يعلِّق جرساً صغيراً على ساقه لسماعه عندما يأتي. وللنَّملة، إنَّها ستعيش مِائة عامٍ إن استطاعت أن تُعرض عن الطَّيران، لأنَّه عندما يريد النَّمل أن يموت، تظهر له أجنحة. وللحوت، أن يطمئنَّ وأن يتَّخذ فأر البحر صديقاً، فهو سيكون مرشداً له، وبهذه الطَّريقة لن يجنح أبداً؛ وللحمائم الصَّغيرة، إنَّهنَّ سيعدن إلى ما كنَّ عليه من قبل عندما يبنين عشَّهنَّ على عمود الغنى». وبعد أن أنهى كلامه، استأنف إهراعه المعتاد.

ودَّعت تشانًّا المرأةَ العجوز، ونزلت إلى أسفل الجبل، وفي الوقت نفسه وصلت إلى هناك الحمائم السَّبع اللَّاتي كنَّ يتعقَّبن أثر شقيقتهنَّ، وتَعِباتٍ من كثرة الطَّيران، ذهبن وحططن على قرني جاموسٍ ميِّتٍ[1]، وما إن حططن هناك حتى عدن شبَّانًا وُسَماءَ كما كنَّ من قبل. وبينما هم متعجِّبون من ذلك، سمعوا الجواب من الزَّمن وفهموا أنَّ القرن، كرمزٍ للوفرة، كان عمود الغنى الذي ألمح إليه الزَّمن.

بعد أن أقاموا حفلاً كبيراً مع شقيقتهم، انطلقوا معاً في الطَّريق الذي سلكته تشانًّا، ووصلوا إلى شجرة البلُّوط وأخبروها بما قاله الزَّمن، فتوسَّلت الشَّجرة إليهم أن يُخرجوا من تحتها الكنز الذي كان السَّبب في الحطِّ من سمعة بلُّوطاتها. فتناول الأخوة السَّبعة مجرفةً من بستانٍ قريبٍ وظلُّوا يحفرون إلى أن عثروا على جرَّةٍ كبيرةٍ مليئةٍ باللِّيرات الذَّهبيَّة، فقسَّموها إلى ثمانية أقسامٍ، بينهم وبين شقيقتهم، ليتمكَّنوا من حملها بسهولةٍ أكبر.

1) واحدٌ من التَّلميحات الكثيرة السَّاخرة التي يستخدمها بازيله عن القرون والمزايا التي يجنيها الأشخاص الذين يحملونها؛ (كروتشِه).

من مشقَّة السَّفر وثقل الحمولة غلبهم النُّعاس، فاستلقوا للنَّوم بالقرب من سياج. ولكنَّ عصبةً من اللُّصوص، الذين صادف وجودهم في ذلك المكان، قاموا، حين رأوهم غارقين في النَّوم ورؤوسهم مستريحةٌ على صُرَرٍ من النُّقود، بربط أيديهم وأرجلهم بالأشجار المجاورة، واستولوا على أموالهم، وتركوهم يتأوَّهون أسفاً، ليس فقط على المال الذي بمجرَّد أن أدركوه أفلت من أيديهم، ولكن على حياتهم أيضاً، لأنَّهم، بافتقارهم إلى أيِّ أملٍ في المساعدة، كانوا عرضةً إمَّا إلى الموت جوعاً وإمَّا إلى إسكات جوع بعض وُحْشَانِ البراري. وبينما كانوا يتألَّمون من قسوة مصيرهم، وصل الفأر، وحين سمع منهم جواب الزَّمن أراد أن يردَّ لهم الجميل، فقضم الحبال التي رُبِطوا بها وحرَّرهم.

ساروا مسافةً طويلةً أخرى والتقوا في طريقهم النَّملةَ التي، بعد أن سمعت نصيحة الزَّمن، سألت تشانًّا لماذا تبدو محبطةً للغاية وشاحبة اللَّون؛ فأخبرتها عن المحنة التي مرُّوا بها وعن غدر اللُّصوص بهم. «صَهٍ! - أجابتها النَّملة، - فلقد سنحت الفرصةُ لأردَّ لكم الجميل الذي أدَّيتموه لي. اعلموا أنَّني، بينما كنت أنقل حمولةً من القمح إلى تحت الأرض، رأيت المكان الذي يُخَبِّئُ فيه أولئك اللُّصوص الأوغاد مسروقاتهم، وهي مغاور صغيرةٌ تحت بناءٍ قديمٍ يخزِّنون فيها تلك المسروقات؛ والآن إذْ خرجوا للقيام بأعمال سطوٍ أخرى، أريد أن أرافقكم وأدلَّكم على المكان لكي تتمكَّنوا من استرداد أموالكم». ومضت نحو بعض المنازل الخربة ودلَّت الأخوة السَّبعة على فتحةٍ في الأرض، فنزل جانغراتسيو فيها، لأنَّه كان أكثر جرأةً من الآخرين، فوجد كلَّ الأموال التي سُرِقَت منهم واستعادها.

ساروا بعد ذلك باتِّجاه البحر، وهناك أخبروا الحوت بالنَّصيحة الطَّيِّبة التي قدَّمها له الزَّمن، وهو أبو النَّصائح؛ وبينما كانوا يتحدَّثون عن الرِّحلة التي قاموا بها والحالات التي واجهوها، رأوا أولئك الأوغاد يبرزون لهم، مسلَّحين حتى الأسنان، بعد أن تقفَّوا أثرهم. «واحسرتاه! - صاحوا: -

هذه المرَّة لن يبقى منَّا شيءٌ نحن البائسين، لأنَّ اللُّصوص باتوا بالفعل بين ظهرانينا، وسوف يسلبوننا أرواحنا!». «لا تخافوا – قال الحوت، – فأنا قادرٌ على إخراجكم من النَّار لأردَّ لكم الجميل الذي أدَّيتموه لي بمحبَّة. هيَّا، اصعدوا على ظهري لأنقلكم في الحال إلى مكانٍ آمن».

رأى المساكين الأعداء من ورائهم والبحر من أمامهم، فصعدوا على ظهر الحوت الذي ابتعد عن الصُّخور وحملهم إلى نابولي حيث قال لهم، لأنَّه لم يكن مطمئنَّاً إلى إنزالهم بسبب ضحالة المياه: «في أيِّ بقعةٍ من ساحل أمالفي تريدون أن أترككم؟». فأجاب جانغراتسيو: «انظر إن كان بإمكاننا أن نتخلَّى عن هذه الفكرة، يا سمكتي اللَّطيفة، لأنَّني لن أكون سعيداً بالنُّزول في أيِّ بقعةٍ هنا. في ماسَّا يحيُّونك ويمضون إلى حال سبيلهم؛ وفي سورِّنتو عليك أن تكزَّ على أسنانك؛ وفي ڤيكو عليك أن تأتي بخبزك معك؛ وفي كاسْتِلَّامَّارِه لن تجد صديقاً ولا رفيقاً».

وإرضاءً لهم، وجَّه الحوت حيزومه نحو صخرة الملح وتركهم هناك، ومن ذلك الموضع، في أوَّل قارب صيدٍ مرَّ بهم نُقِلوا إلى اليابسة. وهكذا، عادوا إلى بلدتهم سالمين وناضري الوجوه وأغنياء، فكانوا لأمِّهم وأبيهم أعظم عزاءٍ، وتمتَّعوا بعيشٍ رغيدٍ بفضل تشانَّا التي أكَّدت صدقَ القول المأثور:

افعل الخير ما استطعت، ثمَّ ارمه في البحر.

الغراب
المؤانسة التَّاسعة من اليوم الرَّابع

إرضاءً لأخيه ميلُّوتْشُو، ملكِ فراتُّومبروزا[1]، يشرع جِنَّارييلُّو في رحلةٍ طويلةٍ ويجلب له ما يبتغيه. ولكن، لتحريره من الموت الوشيك، يُحكَم عليه بالإعدام، ولكي يثبت براءته، يتحوَّل إلى تمثالٍ من الرُّخام. وفي النِّهاية، بعد تحوُّلٍ غريبٍ في الأحداث، يعود حيَّاً وينعم بحياةٍ هانئة.

حتى لو كان لديَّ مِائة قصبةٍ حنجرة، وصدرٌ من البرونز، وألف لسانٍ من الفولاذ، لما استطعت التَّعبير عن مدى إعجاب المستمعين بحكاية باولا، إذْ رأوا كيف أنَّ أيَّا من الأعمال الطَّيِّبة التي قامت بها تشانَّا لم يبق بلا أجرٍ؛ فكان لا بدَّ لهم من أن يضاعفوا جرعة استجدائهم لتشومِّتلَّا لتروي حكايتها بعد أن فقدت ثقتها بقدرتها على تلبية طلب الأمير أسوةً بالأخريات. ومع ذلك، لمَّا كانت غير قادرةٍ على التَّملُّص من الطَّاعة الواجبة، ولكيلا تفسد اللُّعبة، فقد تكلَّمت على النَّحو التَّالي:

إنَّه حقَّاً مثلٌ عظيمٌ ذلك الذي يقول: «اجلس معوَجَّاً وتكلَّم قويماً»؛ ولكن من الصَّعب جدَّاً العمل به، لأنَّ قلَّةً من أحكام الرِّجال تصيب كبد الحقيقة؛ بل إنَّ أكثرهم من صيَّادي الماء العذب الذين لا يصطادون سوى السَّرطانات في بحر الشُّؤون الدُّنيويَّة؛ ومَن يحسب أنَّه يتَّخذ الإجراء الأكثر صواباً لما يدور في خلده، فالأرجح أنَّه أكثر الأشخاص وقوعاً في الخطأ.

1) تعني حرفيَّاً: الأيكة الظَّليلة؛ (المترجمان).

ولهذا نرى الجميع يذهبون شَذَرَ مَذَرَ، ويكدُّون خبطَ عشواءَ، ويفكِّرون باعوجاجٍ، ويتصرَّفون جزافاً، ويلقون الأحكام على عواهنها؛ وفي كثيرٍ من الأحيان، منزلقين على نحوٍ يثير الحزن من سداد الرَّأي إلى الخروج عن الصَّواب، يشترون لأنفسهم أمَرَّ النَّدامة، كما حدث مع ملك فراتُّومبروزا الذي ستسمعون قصَّته إن أنتم دعوتموني بجرسِ اللُّطف إلى عجلة التَّواضع وأصغيتم إليَّ قليلاً.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، ملكٌ لفراتُّومبروزا يدعى ميلُّوتْشُو، وكان مولعاً بالصَّيد لدرجة أنَّه أهمل شؤون بيته ودولته الملحَّة ليذهب وراء آثار أرنبٍ برِّيٍّ أو وراء تحليقة سُمنةٍ مغرِّدة؛ واستمرَّ على هذا المنوال إلى أن ساقته الصُّدفة في أحد الأيَّام إلى غابةٍ حصَّنت نفسها بصفوفٍ متراصَّةٍ من الأشجار لئلَّا تتمكَّن خيول الشَّمس من اختراقها. وهناك، فوق حجرٍ رخاميٍّ بديعٍ، رأى غراباً قُتِلَ لتوِّه، وأمام ذلك الدَّم الطَّازج المتناثر على الحجر النَّاصع البياض، صدرت عنه تنهيدةٌ عميقةٌ وقال: «يا إلهي! ألا يمكنني أن أحصل على زوجةٍ بيضاء وحمراء كهذا الحجر، وفاحمةِ الشَّعر والحاجبَين كريش هذا الغراب؟».

استغرق ميلُّوتْشُو طويلاً في هذه الفكرة، لدرجة أنَّه شكَّل لبعض الوقت زوجاً مع ذلك الحجر، وبدا وكأنَّه تمثالٌ رخاميٌّ يمارس الحبَّ مع الرُّخامة الأخرى. وبعد أن غرس تلك النَّزوة المؤلمة في دماغه، وذهب يبحث عنها بِدَبَقِ الرَّغبة، تحوَّلت في وقتٍ قصيرٍ من عود سواكٍ إلى عمودٍ، ومن حبَّة عنَّابٍ إلى يقطينةٍ هنديَّةٍ، ومن غلَّايةِ حلَّاقٍ إلى فرنِ زجَّاجٍ، ومن قزمٍ إلى عملاقٍ، حتى إنَّ ميلُّوتْشُو لم يستطع التَّفكير سوى في تلك الصُّورة التي تعشَّقت بقلبه تَعَشُّقَ حجرٍ بحجر. فأينما وجَّه بصرَه كان لا يرى سوى ذلك الشَّكل الذي حمله في صدره؛ ونسي كلَّ شيءٍ، ولم يعد لديه في رأسه سوى تلك الرُّخامة؛ وفي النِّهاية شفَّ جسمه كثيراً بسبب ذلك الحجر الذي جعله يتآكل رويداً رويداً. كان ذلك الحجر مطحنةً طحنت حياته؛ رخاماً

سمّاقيّاً سحقَ ألوانَ[1] أيّامه؛ فتيلاً أشعلَ النّار في عود ثقاب روحه؛ مغناطيساً اجتذبَه؛ وأخيراً، حصوةً تجذَّرت في مثانته ولم تتركه لحظةً في سلام.

حين رآه شقيقه جنّاربيلّو مصفرّاً وشاحباً، سأله: «ماذا ألَمَّ بك يا أخي حتى استقرَّ الغمُّ في عينيك وانضوى اليأس تحت لواء وجهك الشَّاحب؟ تكلَّم، بُحْ لأخيك بما عندك! رائحة الفحم الكريهة في غرفةٍ مغلقةٍ تسمِّم النَّاس؛ والغبار المتراصُّ في جبلٍ يُرسل شظايا تتطاير في الهواء؛ والجرب المحبوس في العروق يُفسد الدَّم؛ والرِّيح إن أُمْسِكَتْ في الجسم أحدثت تطبُّلاً ومغصاً شديداً. فافتح فمك وأخبرني بما يُحزنك. ففي النِّهاية، يمكنك أن تثق في أنَّني سأبذل ألفَ حياةٍ لأساعدك ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً».

شكره ميلُّوتْشُو، وهو يتنهَّد ويلوك الكلمات، على دفء محبَّته، وقال له إنَّه لا يشكُّ في عاطفته، ولكنَّ الألم الذي يشعر به لم يكن له علاجٌ لأنَّه وُلِدَ من صخرةٍ لا يمكن للمرء أن يتوقَّع منها ولو كَمْءَ سعادةٍ واحداً؛ من صخرة سيزيف التي حملها إلى أعلى جبل آماله، وما إن لامست قمَّته حتى عادت وتدحرجت إلى الأسفل. مع ذلك، في نهاية المطاف، وبعد ألف توسُّلٍ وتوسُّل، أخبره بكلِّ ما يتعلَّق بقصَّة حبِّه الغريبة.

بعد أن سمع جنّاربيلّو قصَّته، واساه بقدر ما استطاع وشجَّعه على ألَّا يترك نفسه تنساق مع الكآبة، ذلك أنَّه، ولكي يمنحه بعض السَّعادة، كان قد قرَّر أن يضرب في الآفاق إلى أن يجد المرأة التي تشبه تماماً ذلك الحجر. فقام على الفور بتجهيز سفينةٍ كبيرةٍ مليئةٍ بالبضائع، وارتدى زيَّ تاجر، وتوجَّه إلى البندقيَّة، مرآةِ إيطاليا ومأوى الموهوبين وكِتَابِ عجائبِ الفنِّ والطَّبيعة الأعظم، حيث حصل على رخصة عبورٍ إلى بلاد المشرق وأبحرَ نحو القاهرة. وعند دخوله المدينة التقى شخصاً يحمل صقراً رائع الجمال، فاشتراه في الحال ليأخذه لأخيه الذي كان يهوى الصَّيد؛ وبعد

1) الحجر الذي يستعمله الرَّسّامون لطحن الألوان؛ (كروتشه).

ذلك بقليل، صادف رجلاً آخر مع حصانٍ بديع، فاشترى الحصانَ أيضاً؛ ثمَّ توقَّف في إحدى الحانات ليستريح من الصِّعاب التي واجهها في البحر.

وفي صباح اليوم التَّالي، عندما بدأ جيش النُّجوم، بأمر من قائد الضِّياء، بطيِّ خيامه من معسكر السَّماء وإخلاء المكان، أخذ جِنَّاريِيلُّو يتجوَّل في المدينة، مصوِّباً عينيه كالوشَقِ إلى كلِّ شيءٍ، ومحدِّقاً تارةً في هذه الفتاة وتارةً في تلك، علَّه يعثر على وجهٍ من اللَّحم يشبه ذلك الحجر. وبينما كان يميل تارةً إلى هنا وتارةً إلى هناك، وهو ينظر حواليه مثل لصٍّ خائفٍ من رجال الشُّرطة، صادف شحَّاذاً مغطًّى بمشفىً كاملٍ من الضِّمادات وبسوقٍ كاملٍ من الخِرَق، فقال له: «ما لي أراكَ مغتمَّاً هكذا أيُّها الرَّجل الكريم؟». «لماذا عليَّ أن أخبرك بشؤوني؟ - أجاب جِنَّاريِيلُّو، - انتظر حتى ينتهوا من صنع الخبز، وبعدئذٍ سأخبر الشُّرطة بشؤوني». «على رسلك يا بنيَّ الوسيم - ردَّ المتسوِّل - فلحم الإنسان لا يباع بالوزن. لو أنَّ داريوس لم يخبر خادم إسطبل[1] بشؤونه لما أصبح ملكاً على بلاد فارس. ولذلك ليس بالأمر الغريب أن تخبر متسوِّلاً بائساً بشؤونك، لأنَّه ما من غُصَينٍ رفيعٍ إلَّا ويمكن أن يُستخدَمَ سِواكاً».

حين سمع جِنَّاريِيلُّو الرَّجلَ الفقيرَ يتكلَّم كلاماً قويماً وحكيماً، أخبره بسبب مجيئه إلى هذا البلد، وبما كان يبحث عنه بمثل هذا الدَّأب الكبير. فأجابه المتسوِّل بعد أن أصغى إليه: «الآن سترى يا بنيَّ كيف ينبغي أن تحسب حساباً لكلِّ إنسان؛ فمع أنَّني قمامةٌ، إلَّا أنَّني سأكون قادراً على إخصاب حديقة آمالك. أصغ! بحجَّة طلب الصَّدقة، سأطرق باب فتاة جميلة، وهي ابنة أحد المشعوذين. افتح عينيك جيِّداً، انظر إليها، تأمَّلها، حدِّق فيها، اجْتَلِها، عاينها، وستجد فيها صورة المرأة التي يرغب فيها شقيقك».

وطرق الباب، فأطلَّت الفتاة التي كانت تدعى لوتشيِيلَّا لترمي له رغيفاً

1) أويبار حارس الخيول الذي تكلَّم عنه هيرودوت؛ (كروتشِه).

من الخبز؛ وحالما رآها جنّاريلّو، أدرك أنَّ المنتَجَ يتوافق تماماً مع القالب الذي وصفه له ميلّوتشُو. فنفح الشَّحَّاذَ صدقةً معتبَرَةً وذهب إلى الحانة وتنكَّر بلباس بائع أربطةٍ ودبابيس ووضع في صندوقين كلَّ منتوجات العالم؛ ثمَّ عاد إلى أمام منزل لوتشِيلَّا، وراح يمرُّ جيئةً وذهاباً منادياً على بضاعته، إلى أن نادته الفتاة.

استعرضت لوتشِيلَّا شبَاك الشَّعر الجميلة وأخمرة الرَّأس والشَّرائط وأقمشة التَّطريز والدَّنتِلَّة والجوخ والأبازيم ودبابيس الزِّينة وصِحَاف أحمر الشِّفاه ومساحيق تجميلٍ تليق بالملكات، وغير ذلك ممَّا كان يحمله؛ وبعد أن أرجعت البصرَ كرَّةً تلوَ الكرَّة، طلبت في النِّهاية أن يُريها أشياء أخرى أجمل من هذه، فأجابها جنّاريلّو: «يا سيِّدتي، إنَّني أحمل في هذا الصُّندوق بضاعةً رديئةً ورخيصة الثَّمن؛ ولكن إن تكرَّمتِ وأتيتِ إلى سفينتي أريتُكِ بضاعةً من العالم الآخر، لأنَّ لديَّ كنوزاً من الأشياء البديعة التي تليق بسيِّدةٍ عظيمة». ولكيلا تمسَّ بطبيعة المرأة، قالت له وقد تملَّكها الفضول: «أوه! لو لم يكن والدي مسافراً لوددت أن ألقي عليها نظرة». «بل من حسن حظِّك أنَّه مسافرٌ – ردَّ الآخر، – لأنَّه ربَّما ما كان ليسمح لك بهذه المتعة؛ وأنا أعدك بأن أريك أشياء تخلب الألباب. أيُّ قلائد وأيُّ أقراط! أيُّ أحزمةٍ وأيُّ مِشَدَّات! أيُّ أعمال تطريزٍ وأيُّ مخرَّمات! باختصارٍ، سأذهلكِ».

لم تستطع لوتشِيلَّا الصُّمود أمام وصفه لهذه التَّشكيلة الرَّائعة من الأشياء الجميلة، فأخذت برفقتها إحدى صديقاتها وانطلقت إلى السَّفينة. وهناك، بينما كان يسحرها بمرأى تلك الكنوز الرَّائعة، أمرَ ببراعةٍ برفع المرساة ونشر الأشرعة؛ ولذلك، قبل أن ترفع لوتشِيلَّا عينيها عن البضائع وترى أنَّها ابتعدت عن اليابسة، كانوا قد قطعوا بالفعل عدَّة أميال.

حين علمت لوتشِيلَّا بعد فوات الأوان بالخدعة، بدأت تلعب دور أوليمبيا بشكلٍ عكسيٍّ[1]، فإذا كانت تلك قد تدمَّرت لأنَّها هُجِرَت على

1) إشارةٌ إلى تفجُّع أوليمبيا بعد أن هجرها حبيبها على جزيرةٍ جرداء في الفصل العاشر من ملحمة «أورلاندو الهائج»؛ (كروتشِه).

صخرةٍ، فإنَّ هذه راحت تتذمَّر لأنَّها هَجَرَت الصُّخور. ولكنَّ جِنَّارِيِلُّو أخبرها من يكون، وإلى أين كان يأخذها، وأيَّ حظٍّ كان ينتظرها، واصفاً لها وسامةَ ميلُّوتْشُو ومكانته وبسالته، وأخيراً، أيَّ حبٍّ كان سيستقبلها به؛ وقال الكثير وفعل الكثير حتى هدأت، بل بدأت تتضرَّع إلى الرِّيح أن توصلها دون إبطاءٍ لترى بالألوان الصُّورةَ التي رسمها لها جِنَّارِيِلُّو.

وهكذا أبحروا بسعادة، وفجأةً سمعوا همهمةَ الموجة تحت السَّفينة، ومع أنَّها تحدَّثت همساً، إلَّا أنَّ صاحب السَّفينة فهم ما قالته، فصاح قائلاً: "فليتأهَّب الجميع، لأنَّ العاصفة قادمة، عسى الله أن يأخذ بيدنا!". وكان صفير الرِّيح شاهداً على هذه الكلمات؛ وتغطَّت السَّماء بالغيوم والبحرُ بأمواجٍ عاتيات. ولأنَّ الأمواج فضوليَّةٌ وتحبُّ أن تدسَّ أنفها في شؤون الآخرين، صعدت إلى سطح السَّفينة دون أن تكون مدعوَّةً إلى حفل الزِّفاف، فكان هناك من يجمع الماء بالأوعية ومن يسكبه في أحد الأحواض ومن يُفرغه بمضخَّة. وبينما كان كلُّ بحَّارٍ منهمكاً في عمله، من منطلق أنَّ الأمر يتعلَّق بسلامته الشَّخصيَّة، فهذا واقفٌ على الدَّفَّة، وذاك يتسلَّق الشِّراع، وآخر يشدُّ الحبال، تسلَّق جِنَّارِيِلُّو الصَّاري ليرى بمنظارٍ بعيد الرُّؤية إن كان بإمكانه اكتشاف أرضٍ يمكنه إلقاء المرساة عندها.

وفجأةً، بينما كان يمسح مئات الأميال بشبرين من منظاره، رأى حمامتين تعبران، وبعد أن حطَّتا على السَّارية، قال الذَّكر: «كرو كرو!»؛ فقالت الأنثى: «ما خطبك يا زوجي؟ لماذا تشتكي؟». فأجاب الذَّكر: «لقد اشترى هذا الأمير السَّيِّئ الحظِّ صقراً لأخيه، وحالما سيصبح الصَّقرُ في يديه، سيفقأ عينيه؛ ولكن إن هو لم يأخذه إليه أو حذَّره منه، تحوَّلَ إلى حجرٍ من رخام». ثمَّ عاد يهتف: «كرو كرو!»؛ فسألته الحمامة ثانيةً: «أما تزال تشتكي؟ أثمَّة أمرٌ جديد؟». فأجاب الذَّكر: «هناك أمرٌ آخر. لقد اشترى له حصاناً أيضاً، وحالما سيمتطيه، سيسقط وتندقُّ عنقه؛ ولكن إن هو لم يأخذه إليه أو حذَّره منه، تحوَّلَ إلى حجرٍ من رخام. كرو كرو!». «ويحك!

تأوُّهاتٌ أخرى؟ – عادت الحمامة تقول: – أثمَّة شيءٌ آخر في جعبتك؟». فردَّ الذَّكر قائلاً: «هذا الرَّجل يأخذ إلى أخيه زوجةً جميلةً؛ وفي اللَّيلة الأولى التي سينامان فيها معاً، سيلتهمهما تنِّينٌ قبيح؛ ولكن إن هو لم يأخذها إليه أو حذَّره منها، تحوَّلَ إلى حجرٍ من رخام». ومع نهاية هذه المحادثة، هدأت العاصفة وسكنَ هيجانُ البحر وغضبُ الرِّياح.

ولكنَّ عاصفةً أقوى هبَّت في صدر جِنَّارِييلُّو لما سمعه؛ وأكثر من أربع مرَّاتٍ أراد أن يرمي كلَّ الأشياء في البحر حتى لا يجلب لأخيه ما يكون سبباً في هلاكه. ولكن من ناحيةٍ أخرى، كان يفكِّر في نفسه، وفي أنَّ الأقربين أولى بالمعروف، وخوفاً من أنَّه إذا لم يأخذ تلك الأشياء إلى أخيه، أو إذا ما حذَّره منها، سيتحوَّل إلى حجرٍ من رخامٍ، قرَّر أن ينظر إلى الحقيقة بدلاً من الاحتمال، لأنَّ القميص كان أقرب إليه من السُّترة.

وعند وصوله إلى ميناء فراتُّومبروزا، وجد شقيقه على رصيف المرسى ينتظر دنوَّ السَّفينة بفرحٍ عظيم. وحين رأى أنَّها تحمل إليه تلك المكنونة في قلبه، قارن بين الوجهين، فلم يجد أدنى اختلافٍ، وكانت بهجته كبيرةً لدرجة أنَّ الحمولة الزَّائدة من السُّرور كادت تسحقه تحت وطأتها. ثمَّ عانق أخاه بسعادةٍ كبيرةٍ، وسأله قائلاً: «ما هذا الصَّقر الذي تحمله على يدك؟». فأجاب جِنَّارِييلُّو: «لقد اشتريته لك». فقال ميلُّوتشُو: «من الواضح أنَّك تحبُّني، لأنَّك ذهبت ضارباً في الآفاق لأجل إسعادي، وبحقٍّ، لو أنَّك أحضرت لي كنزاً لما أسعدني أكثر من هذا الصَّقر». وكان على وشك أن يأخذه بيديه عندما استلَّ جِنَّارِييلُّو بسرعةٍ خنجراً وأطاح برأس الصَّقر. فلمَّا رأى الملك فِعلته هذه، ظَنَّ أنَّ أخاه قد جُنَّ؛ ولكن، لكيلا يعكِّر فرحة عودته، لم يتفوَّه بكلمة.

ثمَّ رأى الحصان وسأل لمن يكون، وحين سمع أنَّه له أراد امتطاءه؛ ولكن بينما كان يضع رجلَه في الرِّكاب، قطع جِنَّارِييلُّو في الحال ساقَي الحصان بساطور. جعلت فِعلته الثَّانية الملك يخرج عن طوره، وبدا له أنَّ أخاه

كان يفعل ذلك نكايةً به، وبدأ الغضب يفور في دخيلته؛ ولكنَّه لم يقرِّر أنَّ الوقت قد حان للسُّخط عليه لئلَّا تبتئس العروس في اليوم الأوَّل لوصولها إلى المملكة. لم يرتوِ من النَّظر إليها وضمِّها بذراعه؛ وبعد أن صعد إلى القصر الملكيِّ، دعا جميع نبلاء المدينة إلى حفلٍ رائعٍ بدت فيه القاعة أشبه بمدرسة ركوبٍ مليئةٍ بأفراسٍ على شكل نساء. وبعد الرَّقص، أُقيمت وليمةٌ كبيرةٌ، ثمَّ انسحب العروسان إلى غرفتهما.

اختبأ جِنَّاريِيلُّو، الذي لم يكن يشغل فكرَه سوى إنقاذ حياة أخيه، خلف سرير الزِّفاف؛ وبينما كان متيقِّظاً لمجيء التِّنِّين إذ دخل في منتصف اللَّيل الوحش الرَّهيب وعيناه تقذفان لهباً وفمه ينفث دخاناً، والذي، من هول مظهره، كان من الممكن أن يكون وسيطاً جيِّداً لبيع كلِّ عقاقير الصَّيادلة في كافَّة أرجاء الأرض. وبسيفٍ دمشقيٍّ كان يحمله معه، بدأ جِنَّاريِيلُّو بإنزال الضَّربات به يمنةً ويسرة؛ وكانت إحدى الضَّربات من القوَّة بحيث أنَّها شطرت نصفَين دعامةً من دعائم سرير الملك الذي استيقظ على الضَّوضاء واختفى التِّنِّين.

رأى الملكُ أخاه جِنَّاريِيلُّو والسَّيف بيده والدِّعامة نصفَين، فبدأ يصيح: «هيَّا، إليَّ بأربعةٍ من رجالي! أيُّها النَّاس، ساعدونا! النَّجدة! النَّجدة! أخي الخائن جاء ليقتلني!». وهرع الحرَّاس الذين كانوا نياماً في الغرفة المجاورة على وقع الجلبة والصِّياح، فأمرهم الملك بأن يقيِّدوا جِنَّاريِيلُّو ويحبسوه دون تأخيرٍ في السِّجن.

وفي الصَّباح، حالما فتحت الشَّمس مصرفَها لتحرِّر وديعةَ الضِّياء لدائني اليوم، جمعَ مجلسَ الشُّورى؛ وبعد أن روى لهم الواقعةَ مؤكِّداً النِّيَّة الخبيثة التي أظهرها أخوه بقتل الصَّقر والحصان ليثير حنقه، صدر الحكم بأنَّ جِنَّاريِيلُّو يجب أن يموت. ولم تكفِ دموع لوتشييلَّا لتليين قلب الملك الذي قال: «أنتِ لا تحبِّينني، يا زوجتي، فأنتِ تقدِّرين أخي أكثر ممَّا تقدِّرين حياتي. لقد رأيتِه بأمِّ عينك، هذا الوغد القاتل،

يرفع سيفاً حادَّاً يمكنه قطع شعرةٍ في الهواء، ليفرمني به: فلو لم تحمِني دعامةُ السَّرير (آه، يا دعامةَ حياتي!)، لكنتِ الآن أرملة». وأمر بأن تأخذ العدالة مجراها.

حين سمع جِنَّارييلُّو هذا الحكم، ورأى أنَّه يُجازى شرَّاً على الخير الذي فعله، لم يعرف ماذا عليه أن يفعل، لأنَّه إن لم يتكلَّم فتلك مصيبةٌ، وإن تكلَّم فالمصيبة أعظم؛ الجرب سيِّئٌ، ولكنَّ الثَّعْلَبَةَ أسوأ؛ وأيَّاً كان ما سيفعله، كان سيسقط من الشَّجرة في فم الذِّئب. فإذا بقي صامتاً، فقد رأسه تحت المقصلة؛ وإذا تكلَّم، أنهى أيَّامه في رُخامة. وأخيراً، بعد عواصف عديدةٍ من الاستخارات الباطنيَّة، قرَّر أن يكشف السِّرَّ لأخيه؛ ولأنَّه كان سيموت في جميع الأحوال، فقد رأى أنَّ من الأفضل إيضاح الحقيقة لأخيه وإنهاء أيَّامه بلقب البريء، بدلاً من إبقاء الحقيقة حبيسةً في داخله وطردِه من العالم بتهمة الخيانة.

ولذلك بعث يقول للملك إنَّه يريد التَّحدُّث إليه في أمرٍ يهمُّ الدَّولة، وحين اقتيد للمثول أمامه، أعرب له أوَّلاً، بديباجةٍ عريضةٍ، عن الحبِّ الذي أظهره له دائماً؛ ثمَّ شرع يتحدَّث عن الخدعة التي حبكها للوتشييلاَّ إرضاءً لرغبته؛ وعن السِّرِّ الذي سمعه من الحمامتين حول الصَّقر، وكيف أنَّه، حتى لا يتحوَّل إلى حجرٍ من رخامٍ، أحضره إليه، ولكنَّه في الوقت نفسه، قتله دون الكشف عن السِّرِّ، حتى لا يرى أخاه بلا عيون. وبينما كان يقول ذلك، شعر بساقيه تتصلَّبان وتتحوَّلان إلى رخام. واستمرَّ يقول الشَّيء نفسه عن الحصان، فتحوَّل، على مرأى النَّاظرين، إلى حجرٍ حتى الحزام، متصلِّباً بشكلٍ مثيرٍ للشَّفقة: وهو ما كان ليدفع ثمنه نقداً في وقتٍ آخر، ولكنَّ قلبه كان يدمى عليه الآن. وفي النِّهاية، بوصوله إلى حادثة التِّنِّين، أصبح كلُّه حجراً، مثل تمثالٍ، في وسط تلك القاعة.

ذهلَ الملك عند سماعه ذلك الكلام ورؤيته ذلك التَّحوُّل المفاجئ، وأدرك خطأه الكبير وتسرُّعه في الحكم الذي أصدره بحقِّ أخيه الممتلئ

محبَّة؛ وحدَّ عليه أكثر من عام، وفي كلِّ مرَّةٍ كان يفكِّر فيها بما حدث، كان نهرٌ من الدُّموع يتدفَّق من عينيه.

في ذلك الوقت، أنجبت لوتشيِيلاً ولدين كانا أجمل ما يمكن رؤيته في العالم: وفي أحد الأيَّام، بينما كانت الملكة قد خرجت إلى الرِّيف بغية التَّرويح عن نفسها، وبقي الأب مع الطِّفلين يتأمَّل بعيونٍ دامعةٍ ذلك التِّمثال، تذكارَ حماقته التي جعلته يفقد زهرة الرِّجال، إذ دخل القاعةَ رجلٌ عجوزٌ بشعرٍ يُخفي كتفيه ولحيةٍ تغطِّي صدره، وانحنى أمام الملك، وقال له: «كم يمكن لتاجكم أن يدفع إن عاد أخاكم الوسيم كما كان من قبل؟». فأجاب الملك: «مملكتي كلَّها».

«لا - قال الرَّجل العجوز، - هذا ليس شيئًا يُدفَع ثمنه مالاً؛ فالمسألة مسألةُ حياةٍ، ويجب أن يُدفَع الثَّمن بالعملة نفسها». فأجاب الملك، مدفوعاً من جهةٍ بالحبِّ الذي يكنُّه لجِنَّارِييلُّو، ومن جهةٍ أخرى بندمه على الأذى الذي سبَّبه له: «صدِّقني، يا سيِّدي، إنَّني مستعدٌّ لبذل حياتي مقابل حياته؛ وفي سبيل إخراجه من هذا الحجر، سأكون سعيداً بوضع نفسي فيه».

«دون أن تعرِّضوا حياتكم لهذا الخطر - قال الرَّجل العجوز، - ولأنَّ إعداد رجلٍ يستغرق وقتاً طويلاً، فسيكون كافياً تبليلَ الرُّخام بدم طفليكم، ليعود إلى الحياة». فقال الملك بدوره: «الأطفال يمكن صنعهم: ثمَّة قالبٌ لهذين الطِّفلين؛ سوف نصنع غيرهما؛ ولكنَّني أملك أخاً واحداً، ولن أتمكَّن أبداً من الحصول على مثيلٍ له».

ودون تردُّدٍ، ضحَّى بالحملين الصَّغيرين عند قدمَي ذلك الصَّنم الحجريِّ البائس؛ وبمجرَّد أن صبغ التِّمثالَ بدمهما، عادت إليه الحياة، وعانق الملك ميلُوتْشُو أخاه جِنَّارِييلُّو، وغمرتهما فرحةٌ لا توصف.

كان الجثمانان الصَّغيران موضوعَين في صندوقٍ لدفنهما مع كلِّ مراسم

التَّشريف التي يستحقَّانها عندما عادت الملكة من الرِّيف. فأخفى الملك أخاه، وقال لزوجته: «ماذا تدفعين، يا قلبي، ليعود أخي إلى الحياة؟». «سأدفع هذه المملكة كلَّها»، أجابت لوتشيِيلَّا. «وهل تعطيه دم ابنيكِ؟»، سأل الملك. «أمَّا هذا فلا – ردَّت الملكة، – لأنَّني لا أستطيع أن أكون قاسيةً لدرجة أن أقتلع بؤبؤي عينيَّ بيديَّ». «واأسفاه! – تابع الملك – فلكي أرى أخي حيّاً، ذبحتُ طفليَّ. لأنَّ هذا كان ثمن حياة جِنَّارِيِيلُّو!».

وأراها الطِّفلين في الصُّندوق؛ ومن هول المشهد بدأت لوتشيِيلَّا تصرخ كالمجنونة: «واوَيْلَتَاه، يا ولديَّ، يا دعامتَي حياتي، ومهجتَي قلبي، وينبوعَي دمي! من الذي لطَّخ بالحُمرة نوافذ الشَّمس؟ من الذي فصد، دون إذنٍ من الطَّبيب، وريدَ حياتي الرَّئيس؟ واهاً، يا ولديَّ، أملي من بعدكما دُمِّر، وضوئي أُعْتِم، وسعادتي سُمِّمَتْ، وعكَّازي ضاع! أنتما طُعِنتُما بالحديد، وأنا طُعِنْتُ بالألم؛ أنتما غرقتما في الدِّماء، وأنا غرقت في الدُّموع! ويحَ قلبي، لتمنحا الحياة لعمِّكما، قتلتما أمَّكما؛ فأنا لن أستطيع أن أحوك قماش أيَّامي من دونكما، يا ثقلَي الموازنة الجميلَين لنول حياتي البائسة: خيرٌ لأرغن صوتي أن يصمت الآن وقد أزيلت منافيخُه. آه يا ولديَّ! آه يا ولديَّ! لماذا لا تجيبان أمَّكما التي سكبت دمها في جسديكما، والآن تذرفه من عينيها! ولكن ما دام سوء حظِّي قد جعلني أرى منبع بهجتي جافّاً، فإنَّني لا أريد أن أبقى فاجعةً دائمةً في هذا العالم. أنا قادمةٌ إليكما الآن، يا طفليَّ، لألتقيكما من جديد!».

وركضت إلى النَّافذة لترمي نفسها؛ ولكن في تلك اللَّحظة بالذَّات، دخل والدها من تلك النَّافذة في سحابةٍ وقال لها: «توقَّفي، يا لوتشيِيلَّا! فأنا برحلةٍ واحدةٍ وثلاث خدماتٍ[1] انتقمت من جِنَّارِيِيلُّو لاختطافه ابنتي من منزلي، فجعلته يبقى شهوراً طِوالاً كبلحةِ بحرٍ في حجرٍ؛ وعاقبتكِ أنتِ لسلوكك السَّيِّئ إذ رحلتِ على متن سفينةٍ دون إذني، فجعلتك ترين

1) بمعنى أنَّه ضرب ثلاثة عصافير بحجرٍ واحدٍ؛ (المترجمان).

ولدين، بل جوهرتين، ذبحهما والدهما نفسه؛ وعاقبت الملك على نزوته الأشبه بنزوة امرأةٍ حُبلى، فجعلته في البداية قاضياً على أخيه، وبعد ذلك جلَّاداً لولديه. ولكنَّني أردت من ذلك كلِّه أن أقلِّم أظافركم، لا أن أسلخ جلدكم، ولذلك أريد أن يصبح كلُّ السُّمِّ الذي قدَّمته لكم طبقاً ملكيَّاً؛ فاذهبي واسترجعي ولديكِ وحفيديَّ اللَّذين ستجدينهما أكثر نضارةً من ذي قبل؛ وأنت، يا ميلُّوتْشُو، عانقني، لأنَّني أقبلك صهراً وابناً، كما أنَّني أسامح جِنَّارييلُّو على إساءاته، لأنَّه فعل ما فعل خدمةً لأخيه الكريم».

وبعد أن قال ذلك، جاء الطِّفلان، فلم يشبع جدُّهما من عناقهما وتقبيلهما؛ وفي خضمٍّ تلك البهجة، دخل جِنَّارييلُّو بصفته مشاركاً ثالثاً فيها، فكنتَ تراه الآن، بعد أن اجتاز عواصف القدَر، يسبح في مرق المعكرونة من شدَّة الفرح، مع أنَّ كلَّ الجوائز التي نالها فيما بعد في حياته لم تستطع أن تنزع من ذاكرته شيئاً من مخاطر الماضي؛ وبقي دائماً يفكِّر بخطأ أخيه وكم من الصَّائب للإنسان أن يكون حذراً لكيلا يقع في الحفرة، لأنَّ

كلَّ حكمٍ بشريٍّ خاطئٌ ومُعْوَجٌّ.

عاقبة الغطرسة
المؤانسة العاشرة من اليوم الرَّابع

ينتقمُ ملك بِلْباييزه[1] بقسوةٍ بالغةٍ من تشينْزيبيلاَّ، ابنة ملك سولكولونغو[2]، لأنَّها احتقرته، رادّاً إيَّاها أسفل سافلين، ثمَّ يتَّخذها زوجةً له.

لو لم تُسرع تشومِّتلَّا في إحضار السَّاحر ورشِّ الماء على النَّار، لأوشكت أرواح المستمعين، التي رقَّت شفقةً على حال لوتشيبيلَّا، على التَّلاشي. ولكن في العزاء الذي تلقَّته المرأة البائسة وجدوا العزاء لأنفسهم، وبعد أن هدأت النُّفوس، انتظروا ياكوفا أن تدخل الميدان بالزِّيِّ الرَّسميِّ لحكايتها، فركضت بالرُّمح إلى دريئة رغبتهم:

مَن يغالي في شدِّ الحبل يقطعه؛ ومَن يبحث عن المتاعب تنزل به المتاعب والبلايا؛ ومَن يذهب إلى رؤوس الجبال ويسقط فالذَّنب ذنبه، كما ستسمعون من حكاية امرأةٍ احتقرت التَّاج والصَّولجان فانتهى بها الأمر إلى ضيق المستقرِّ في إسطبلٍ. ومع ذلك، فالضَّربات التي تُنزلها السَّماء على الرَّأس دائماً ما تأتي معها بالكِمَادَات، لأنَّ السَّماء لا تعاقب أبداً دون رحمةٍ، ولا تضرب بالعصا دون قطعة خبزٍ[3].

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، ملكٌ

---

1) تعني حرفيّاً: البلد الجميل؛ (المترجمان).

2) تعني حرفيّاً: الأخدود الطَّويل؛ (المترجمان).

3) إشارةٌ إلى المثل الإيطاليِّ القائل: «العصيُّ مع الخبز تهذِّب الأبناء، والخبز بلا عصيٍّ يفسدهم»؛ (المترجمان).

لسولكولونغو لديه ابنةٌ تُدعى تشينْزِيلاَّ، وكانت جميلةً كالقمر، ولكنَّ كلَّ درهمٍ من الجمال كانت تعادله برطلٍ من الغطرسة. ولذلك، لمَّا كانت لا تحترم أحداً، لم يكن من الممكن للأب المسكين، الذي كان يرغب في تزويجها، أن يجد زوجاً يمكن أن ترضى به، مهما كان صالحاً وعظيماً.

ومن بين العديد من الأمراء، الذين تنافسوا على اتِّخاذها زوجةً، ملكُ بِلْبايِيزِه الذي لم يترك شيئاً إلَّا وفعله لكسبِ ودِّ تشينْزِيلاَّ. ولكن بقدر ما كان يزيد من عبوديَّته لها، كانت تُنقص من قدره؛ وبقدر ما كان يمنحها عواطفه بثمنٍ بخسٍ، كانت تُظهر له قحطَ رغبتها؛ وكانت تقابل بشحٍّ قلبها سخاءَ روحه. ولم يكن يمضي يومٌ دون أن يقول ذلك الرَّجل الشَّقيُّ لها: «متى، أيَّتها القاسية، بين العديد من بِطِّيخات الأمل، التي وجدتُها يقطيناً بعد قطفها، أعثر على واحدةٍ حمراء؟ متى، أيَّتها البغيُّ المتحجِّرة القلب، تتوقَّف أعاصير قسوتك، وأكون قادراً مع ريحٍ مواتيةٍ على توجيه دفَّة رغباتي إلى مينائكِ الجميل؟ متى، بعد الكثير من التَّضرُّعات والتَّوسُّلات، أنصب راية رغباتي على أسوار قلعتكِ البديعة؟».

ولكنَّها كانت كلُّها كلماتٍ أُلقِيَتْ في الرِّيح، لأنَّه كان لديها عينان تثقبان الحجَر، ولكن لم يكن لها أذنان لتسمع شكوى جريحٍ يتأوَّه؛ بل كانت تُريه وجهاً كالحاً، كما لو أنَّه قَطَعَ كَرْمَها. وهكذا، في النِّهاية، بعد أن عرف ذلك السَّيِّد المسكين قسوة تشينْزِيلاَّ التي كانت تعامله كما يعامل الآخرون أيَّ إنسانٍ وضيع، تخلَّى عن محاولاته، وفي نوبةِ ازدراءٍ قال: «أعلن نفسي خارج نيران الحبِّ!». ولكنَّه أقْسَمَ مع ذلك على الانتقام من تلك الشَّرقيَّة[1] بطريقةٍ تجعلها تقول إنَّها نادمةٌ على تعذيبه بكلِّ تلك القسوة.

ثمَّ غادر ذلك البلد، وأطلق لحيته وصبغ وجهه، وبعد بضعة أشهرٍ عاد إلى سولكولونغو متنكِّراً في هيئة فلَّاح، وبفضل الرَّشاوي، تمكَّن من العمل بستانيَّاً لدى الملك. عمل في الحديقة بأفضل ما يستطيع، وفي أحد

1) في الأصل Saracena، اسمٌ أطلقه الصَّليبيُّون على العرب والمسلمين عموماً؛ (المترجمان).

الأيَّام، مدَّ تحت نافذة تشينْزِيِلَّا فستاناً رائعاً مطرَّزاً بالذَّهب والألماس. وفي الحال أشارت وصيفات الشَّرف اللَّاتي رأينه لسيِّدتهنَّ نحوه، فأرسلت هذه تسأل البستانيَّ إن كان يرغب في بيعه؛ فأجاب أنَّه ليس تاجراً ولا بائع مقتنياتٍ قديمةٍ، ولكنَّه سيهديه لها إن سمحوا له بالنَّوم ليلةً واحدةً في جناح الأميرة.

قالت الوصيفات لتشينْزِيِلَّا: «ما الذي ستخسرينه، يا سيِّدتي، إن لبَّيتِ رغبةَ البستانيِّ وحصلتِ على ذلك الفستان الذي يليق بملكة؟». وإذ تركت تشينْزِيِلَّا نفسها تعلق بصنَّارةٍ يُراد بها اصطياد أسماكٍ أخرى غير هذه، وافقت، وأخذت الفستان ولبَّت رغبته.

وفي صباح اليوم التَّالي، شوهدت في المكان نفسِه تنُّورةٌ بديعةٌ؛ فكرَّرت تشينْزِيِلَّا السُّؤال وتلقَّت الجواب نفسه، مع طلب النَّوم في غرفة انتظار الأميرة. وهذه المرَّة أيضاً تركت تشينْزِيِلَّا نفسها تُجَرُّ من رقبتها، وبغيةَ اقتناء التَّنُّورة لبَّت رغبة البستانيِّ.

وفي صباح اليوم الثَّالث، قبل أن تأتي الشَّمس لتقدحَ النَّارَ على فتيل الحقول، وضع البستانيُّ في المكان نفسِه سترةً بديعةً تلائم الفستان؛ فقالت تشينْزِيِلَّا وهي تنظر إليها: «لن يهنأ لي بالٌ حتى أحصل على تلك السُّترة». ونادت البستانيَّ وقالت له: «أيُّها الرَّجل الطَّيِّب، من الضَّروريِّ أن تبيعني تلك السُّترة التي رأيتُها في الحديقة، وخذ بالمقابل قلبي».

فأجاب البستانيُّ: «لستُ أنوي بيعها؛ ولكن، إن كنت ترغبين فيها، فسأعطيك إيَّاها، مع سلسلةٍ من الألماس أيضاً، بشرط أن تسمحي لي بالنَّوم ليلةً واحدةً في غرفة نومك». «لقد بدأتَ تتصرَّف بخِسَّةٍ الآن! – صرخت تشينْزِيِلَّا – ألم يكفك أنَّك نمت في جناحي، ثمَّ في غرفة الانتظار خاصَّتي، والآن تريد غرفة نومي! شيئاً فشيئاً سترغب في النَّوم في سريري!». فقال البستانيُّ: «يا سيِّدتي، سأحتفظ بالسُّترة، وسموُّكِ

احتفظي بغرفتك: حين ترغبين في عقد الصَّفقة، فأنت تعرفين الطَّريق. سأكون سعيداً بالنَّوم على الأرض، وهو ما لن تنكريه على تركيٍّ؛ ولو رأيتِ السِّلسلة التي أريد أن أهديها لكِ، لعرضتِ عليَّ صفقةً أفضل».

وفي النِّهاية، مدفوعةً من جهةٍ بالجشع، ومن جهةٍ أخرى بتحريض وصيفاتها اللَّاتي كنَّ يساعدن الكِلاب على الصُّعود، وافقت تشينْزِيلَّا على تلبية رغبته. وبحلول المساء، عندما يقوم اللَّيل، كقرصانٍ، بسكب ماء الدِّباغة على جلد السَّماء، ويصبغه بالسَّواد، تناول البستانيُّ السِّلسلةَ والسُّترة وذهب إلى شقَّة الأميرة فأعطاها إيَّاهما ودخل غرفتها.

دفعته الأميرة إلى إحدى الزَّوايا وقالت له: «الآن، ابق هناك ثابتاً، ولا تتحرَّك، إن كنتَ تقدِّر صنيعي»؛ وبعد أن رسمت بالفحم خطَّاً على الأرض، أضافت: «إذا تجاوزت هذا الخطَّ، فسوف تخسر حياتك». ثمَّ أحاطت سريرها بالسِّتارة واستلقت.

بمجرَّد أن أحسَّ البستانيُّ بنومها، بدا له أنَّ الوقت قد حان للعمل في حقول الحُبِّ، فنام بجانبها، وقبل أن تستيقظ صاحبة الأرض كان قد قطف ثمار الحُبِّ. حين استيقظت تشينْزِيلَّا ورأت ما حلَّ بها، لم تُرِدْ أن تجعل الخطأ خطأين بغية تصويب خطأٍ واحدٍ، ولا أن تدمِّر الحديقة بغيةَ تدمير البستانيِّ؛ وهكذا، متَّخذةً من الضَّرورة ذريعةً للرَّذيلة، ارتضت الفوضى وشعرت بلذَّة الخطيئة؛ ولم تُعْرِضْ، هي التي لطالما احتقرت الرُّؤوس المتوَّجة، عن تسليم نفسها لأحد الأجلاف، لأنَّ الملكَ الحقَّ هكذا يكون، وهذا ما رأته حقَّاً في شخصه.

استمرَّت العلاقة بينهما، وحَبِلَتْ تشينْزِيلَّا؛ ولمَّا رأت بطنها ينتفخ يوماً بعد يوم، قالت للبستانيِّ إنَّها هالكةٌ لا محالة إذا لاحظ والدها ذلك، ففكَّرا فيما بينهما لدرء هذا الخطر. فكان جوابه أنَّه لا يجد حلاًّ للورطة التي أوقعا نفسيهما فيها سوى أن يرحلا معًا، وسيأخذها إلى منزل سيِّدةٍ كان

يعمل لديها، وهذه ستمنحها بعض العناية عند ولادتها الوشيكة. فما كان من تشينْزِيِلاَّ ، وقد وجدت نفسها في أدنى درجات الحضيض، مجرورةً إلى هناك بخطيئة غطرستها التي ألقت بها من صخرةٍ إلى صخرة، إلَّا أن اقتنعت بتلك الكلمات، فتخلَّت عن بيتها ورضخت لمشيئة القدر.

وبعد مسيرةٍ طويلة، وصلا إلى منزله، وبعد أن أخبر والدته بكلِّ شيءٍ، توسَّل إليها أن تتنكَّر، لأنَّه يريد أن يقاضي تشينْزِيِلاَّ على غطرستها في الماضي. وهكذا، بعد أن هيَّأ لها مكاناً في أحد إسطبلات القصر، أبقاها هناك في حالةٍ يُرثى لها، مرسلاً لها الخبز بالقوس والنُّشَّاب. وفي أحد الأيَّام، عندما كانت مدبِّرات المنزل يخبزن، طلب منهنَّ أن يستدعين تشينْزِيِلاَّ لتساعدهنَّ، وفي الوقت نفسه ألمح إليها بأن تسرق بعض الكعك لسدِّ رمقهما.

وفي أثناء سحب الخبز من الفرن، استغلَّت تشينْزِيِلاَّ المنكودة الحظِّ اللَّحظةَ، وبطرفة عينٍ سرقت كعكةً وخبَّأتها في جيبها. ولكن في تلك اللَّحظة دخل الملك، مرتدياً زيَّه الملكيَّ، وقال للفتيات: «من أعطاكنَّ الإذن لتسمحن لهذه الفتاة الوضيعة بدخول المنزل؟ ألا ترين من سيماها أنَّها لصَّة؟ ضعن أيديكنَّ في جيوبها وستجدن الدَّليل». وعند تفتيشها، وجدن الكعكة في جيبها، فوبَّخنها شرَّ توبيخٍ، وبقين يسخرن منها وينكِّتن عليها طوال اليوم.

عاد الملك إلى تنكُّره، وعرَّج على تشينْزِيِلاَّ فوجدها محبطةً وحزينةً للإهانة التي تلقَّتها. ولكنَّه قال لها ألَّا تبتئس كثيراً لهذه الحادثة، لأنَّ الحاجة حاكمٌ طاغيةٌ على البشر، وكما قال ذلك الشَّاعر التُّوسكانيُّ:

... الفقيرُ المتضوِّرُ من الجوع
يأتي أحياناً بتصرُّفٍ كان من شأنه،
في أحسن الأحوال، أن يلوم الآخرين على الإتيان به[1].

1) بتراركا، المجلَّد 1 – النَّشيد 16؛ (كرونْشِه).

وإذا كان الجوع يدفع الذِّئب إلى الخروج من الغابة، فعليها أن تعذر نفسها إن هي فعلت ما ليس لائقاً في نظر الآخرين. وألمح إليها بأن تصعد الآن إلى حيث كانت السَّيِّدة تقصُّ بعض القماش، وأن تعرض عليها المساعدة وترى إن كان بإمكانها أن تحصل على بعض القطع، فلكونها على وشك الولادة، كانت في حاجةٍ إلى كلِّ شيء.

فصعدت تشينْزِيلاَّ، التي لم تكن تعرف كيف تخالف زوجها (ولهذا السَّبب كان يحتفظ بها)، إلى غرفة الملكة وانضمَّت إلى وصيفات الشَّرف لقصِّ ملاءاتٍ صغيرةٍ وأقمطةٍ وقبَّعاتٍ صغيرةٍ وحمَّالات مشيٍ[1]، وسرقت حفَّاظةً[2] ودسَّتها تحت ملابسها. ولكنَّ الملك عاد ووبَّخهنَّ مرَّةً أخرى كما فعل من قبلُ مع الخبز، وعند عثورهنَّ على ما سرقته، أمطرنها بوابلٍ آخر من الإهانات، كما لو أنَّهنَّ عثرن تحت ثيابها على كومةٍ من البياضات، فاحمرَّت من الخجل وعادت إلى الإسطبل.

ومرَّةً أخرى ظهر الملك متنكِّراً؛ ولمَّا رآها حزينةً ويائسة، واساها طالباً منها ألَّا تستسلم للكآبة، لأنَّ كلَّ شيءٍ في العالم مجرَّد رأي، ولذا عليها أن تنظر إن كان بإمكانها الحصول على بعض الأشياء الصَّغيرة، لأنَّ الولادة أصبحت وشيكةً الآن. «في هذه اللَّحظة، لدينا فرصةٌ رائعة. فالسَّيِّدة خطبت لابنها فتاةً أجنبيَّةً وتودُّ أن ترسل لها هديَّةً فساتينَ من الدِّيباج والقماش المذهَّب، جاهزةً للُّبس وجميلةً، ومقاسُ الخطيبة يقارب مقاسك. سيكون من السَّهل، إذاً، أن تقع بين يديك قطعةٌ جميلةٌ من تلك القطع، وعندئذٍ ضعيها في الكيس[3] لنبيعها ونعيش من ثمنها».

---

1) كنايةٌ عن قدَّتين من الجلد أو القماش تُجمَعان معاً ليُسنَد بمجمعهما الطِّفل حين يبدأ المشي؛ (المترجمان).

2) تسمِّيها العامَّة حفَّاضة؛ (المترجمان).

3) حرفيّاً في الكيس الذي تُجمع فيه التَّبرُّعات في المعابد؛ (كروتشِه).

فعلت تشينْزِيِلاَّ ما أمرها زوجُها بفعله، وخبَّأت في صدرها قطعةً فاخرةً من الدِّيباج المجعَّد، وفي تلك اللَّحظة وصل الملك، وبعد أن أحدث فضيحةً كبيرةً، أمر بتفتيش تشينْزِيِلاَّ، وحالما وجد القطعة المسروقة معها، طردها وخزيٌ عظيمٌ يجلِّلها من رأسها إلى قدميها. ولكن بعد ذلك، متنكِّراً بزيِّ البستانيِّ، هرع ليواسيها؛ ذلك أنَّه إن كان يجرحها بيدٍ، فباليد الأخرى، كُرمى للحبِّ الذي يكنُّه لها، كان بكلِّ سرورٍ يمُرْهِمُ جِراحَها، لئلَّا تسقط في اليأس.

ولكن، في بحر اغتمامها ممَّا حدث لها، أدركت تشينْزِيِلاَّ المسكينة أنَّ الأمر كلَّه كان عقاباً من السَّماء على الغطرسة والتَّكبُّر اللَّذَين أظهرتهما في الماضي، فلأنَّها عاملت الكثير من الأمراء والملوك كمماسح أقدام، باتت تُعامَل الآن كامرأةٍ وضيعةٍ، ولأنَّها تلقَّت نصائح أبيها بقلبٍ قاسٍ، باتت تحمرُّ الآن خجلاً أمام استفزازات الخادمات؛ وبسبب الغضب الشَّديد الذي شعرت به من العار الذي لحق بها، أحسَّت بآلام المخاض.

وحالما أخبر الملك أمَّه الملكة بما حدث، جعلتها هذه الأخيرة تصعد إلى غرفتها، ومبديةً شفقتها على حالها، وضعتها في سريرٍ مطرَّزٍ بالذَّهب واللُّؤلؤ داخل حجرةٍ كُسيَتْ جدرانُها بقماشٍ مذهَّب؛ وهو ما أذهل تشينْزِيِلاَّ إذ رأت نفسها تنتقل من إسطبلٍ إلى حجرةٍ ملكيَّةٍ، ومن الرَّوْث إلى سريرٍ فاخرٍ جدّاً، ولم تستطع أن تفهم ما حدث لها. وكانت محاطةً بنساءٍ يقظاتٍ قدَّمن لها المرق والكعك ليحثُثْنَها على الولادة. وكما أرادت السَّماء، دون الكثير من المتاعب، أنجبت طفلين بديعين كانا أجمل ما يمكن أن تراه العين.

وما إن وضعت حِمْلَها حتى دخل الملك وقال لأمِّه: «أين ذهبت حكمتك حتى تضعي سرج الحصان على الحمار؟ هل هذا سريرٌ لامرأةٍ

وضيعة؟ هيَّا بسرعة، اطرديها مع الضَّرب بالعصا من هذا المكان، وبخِّري الغرفة بإكليل الجبل حتى تتلاشى هذه الرَّائحة الكريهة منها».

عندئذٍ قالت الملكة: «لا مزيد، لا مزيد يا بنيَّ؛ كفى، كفى تعذيباً لهذه الشَّابَّة المسكينة! يجب أن تكون الآن راضياً بعد أن سلقتها سلقاً حتى تقلَّصت إلى أصغر من قلنسوةٍ ليليَّة؛ وإذا كنت تشعر بأنَّ غليلك لم يُشْفَ بعد بسبب الاحتقار الذي أظْهَرَتْهُ لك في بلاطها، فإنَّ هاتين الجوهرتين اللَّتين منحتك إيَّاهما تكفيان لتسديد ديونها». وأحضرت له الطِّفلين اللَّذين كانا أجمل شيءٍ في العالم.

حين رأى الملك ذينك الطَّائرين الصَّغيرين، تملَّكه الحنان؛ فاحتضن تشينْزِيلَّا وعرَّفها حقيقةَ نفسه، وأخبرها أنَّ ما فعله بها كان بدافع الغضب من معاملة ملكٍ مثله بتلك الطَّريقة، ولكنَّه، من الآن فصاعداً، سيحملها على أكفِّ الرَّاحة. أمَّا الملكة فقد احتضنتها بدورها كزوجة ابنٍ وكابنة، ونفحتها، مع الملك، عطيَّةً كبيرةً لهذين المولودَين الذَّكرين، لدرجة أنَّ لحظة العزاء تلك بدت لتشينْزِيلَّا أكثر عذوبةً من كلِّ العذابات الماضية، وحرصت دائماً، بعد ذلك، على أن تُبقي نصبَ عينيها إبقاء أشرعتها منخفضةً، متذكِّرةً كيف أنَّ

الخرابَ ابنُ الغطرسة.

وبمجرَّد الانتهاء من حكايات ذلك اليوم، أراد الأمير أن يزيح عن صدره تلك الكآبة الذي سبَّبها له مخاض تشينْزِيلَّا، فنادى تشيكُّو أنطوُونو ونادوتشو ليؤدِّيا دوريهما، فخرج هذان من فناء الحديقة، كلٌّ بقبَّعةٍ مسطَّحةٍ وفخذيَّةٍ سوداء مع ركائب وسترتين مخطَّطتين ومقطَّعتين بالمطرَّزات، ليمثِّلا المسرحيَّة الرَّعويَّة التَّالية:

الخُطَّاف[1]
مشهدٌ من الأدب الرَّعويِّ

ناردوتشو وتشيكُّو أنطوُوْنو

ناردوتشو: أقرضني قرشاً يا تشيكُّو أنطوُوْنو
وخُذ الرَّهْنَ!
تشيكُّو أنطوُوْنو: صدِّقني، لكنت أقرضتك إيَّاه عن طيبِ خاطرٍ،
لولا أنَّني تسوَّقتُ بمبلغٍ محترمٍ هذا الصَّباح.
ناردوتشو: يا لسوء حظِّي؛ ولكن ماذا اشتريت؟
تشيكُّو أنطوُوْنو: لقد عثرتُ مصادفةً
على خُطَّافٍ جديدٍ،
خُطَّافٍ لو طلبوا مني ألف سكُودو[2]،
لما تلكَّأت في دفعها!
ناردوتشو: أنت متسرِّعٌ في صرف النُّقود!
فمهما بلغ سعر خُطَّافٍ، لا يمكن أن يبلغ أكثر من كارلينتَيْن.
تشيكُّو أنطوُوْنو: بل يمُكن، يا ناردوتشو! أنت لا تفهم بالخُطَّافات!
عدْ إلى المنزل يا عزيزي!
ألا تعلم أنَّ ثمن الخُطَّافات قد ارتفع؟
كانوا سابقاً يتصيَّدون بها الدِّلاء، والآن يتصيَّدون بها السُّكودات!

1) أداةٌ من حديدٍ تستخدم لاسترداد الدِّلاء أو أغراضٍ أخرى سقطت في البئر؛ (المترجمان).

2) عملةٌ فضِّيَّةٌ كبيرةٌ ضُربَتْ أوَّل مرَّةٍ في إيطاليا بمدينة ميلانو في عهد كارلوس الخامس، أي في القرن السَّادس عشر، وبقيت متداولةً حتى القرن التَّاسع عشر؛ وتعني كلمة سكودو "الدِّرع"؛ (المترجمان).

ناردوتشو: كيف يتصيَّدون السُّكودات؟
أنا لا أفهم.
تشيكُّو أنطوُوْنو: أنت حمارٌ، سامحني!
تبدو وكأنَّك أتيت الآن إلى العالم!
ألا تعلم أنَّه ليس هناك رجلٌ
إلَّا ولديه خُطَّافٌ في يده؟
به يعيش ويتمتَّع،
وبه يتباهى ويثرى؛
هذا هو ما يفرش تحته قشَّاً وثيراً[1]،
وبفضل هذا يذهب ليحبس الخنازير[2]،
بفضله يلمع نجمُه ويشبعُ حتى النِّهاية،
بفضله، باختصارٍ، يهيمن على العالم!
ناردوتشو: كلامُكَ يجعلني في ذهولٍ ونشوة!
أتريدنا أن نراهن
على أنَّك وضعت في رأسك أن تقنعني
بأنَّ االقمر في البئر،
وأنَّني سأصدِّق أنَّه شيءٌ نادرٌ،
حجرُ فلاسفةٍ، هذا الخُطَّاف؟
تشيكُّو أنطوُوْنو: إنَّه بالضَّبط هذا: حجرُ فلاسفةٍ
خرج من إنبيق العبقريَّة!
ناردوتشو: اعلمْ، يا أخي، أنَّني أكلت
خبزاً من كثيرٍ من الأفران،

1) أي يُثريه؛ (كروتشِه).

2) أي ينظِّم نفسه وشؤونه؛ (كروتشِه).

ولم أسمعهم أبداً يتحدَّثون عن هذا:
فإمَّا أنا أهبل وإمَّا أنَّك تريد أن تسخر منِّي.
تشيكُّو أنطوُوْنو: افتح أذنيك وتعلَّم،
طالما أنَّك مغفَّل.
قلَّةٌ من النَّاس يدعونه خُطَّافاً،
لأنَّه من النَّظرة الأولى
يخلِّف انطباعاً سيِّئاً:
ولهذا غيَّر الأذكياء المتبصِّرون
اسمَه،
لأنَّ كلَّ شيءٍ في عصرنا
يضع قناعاً،
فالأمير يسْمِّيه
هديَّةً أو عطيَّة؛
والقاضي أطلق عليه
اسم إكراميَّةٍ سخيَّةٍ أو مهدٍّئ،
أو دَهْنَةِ يدٍ أو لقمةٍ في الفم؛
وكاتب العدل يدعوه أجراً غيرَ ذي عِوَجٍ:
والله أعلمُ
أنَّه أكثر اعوجاجاً من وركِ كلبٍ!
التَّاجرُ يسمِّيه ربحاً،
والحرفيُّ مصلحةً،
والحانوتيُّ شُغلاً،
واللِّصُّ رميةً موفَّقةً أو دهاءً،
والشُّرطيُّ مسَّةَ يدٍ،

وقاطعُ الطَّريق تسويةً،
والجنديُّ فديةً،
والجاسوسُ واقعةً،
والعاهرةُ هبةً،
والقوَّادُ دخلاً أو بقشيشاً؛
ووسيطةُ الزَّواج تدعوه حُلواناً،
والمأمورُ يسمِّيه إمداداً؛
وباختصارٍ، القرصانُ يسبغُ عليه
سمةَ الغنائم،
والقبطانُ سمةَ العيش الهادئ:
فإذا لم يكن هادئاً، عادَ
ليبثَّ الفوضى والخراب،
وأؤكِّد لك، صدِّقني، أنَّه سيحارب
بالخُطَّاف أكثر ممَّا بسيفه!
مَن أيضاً؟ الشَّاعر
الذي يجرِّد من الأفكار ومن الكلمات
كلَّ ما يقع بين يديه من الكتب
– كُتُبِ أراطُس وأوفيد ومازارو[1] ونازونِه[2] –
يسمِّيه محاكاةً![3]
ناردوتشو: حسناً، والله فهمتُ ما تريد أن تقوله!

1) ليس واضحاً من المقصود؛ (كروتْشِه).

2) من ألقاب أوفيد، أو ربَّما كان يقصد مارونِه Marone؛ (كروتْشِه).

3) كان الجدل على أشدِّه في القرن السَّابع عشر حول مسألة الانتحال ومسألة المحاكاة الأدبيَّة لنصٍّ قديمٍ والاحتذاء به؛ (المترجمان).

وأيمُ الله، إنَّك لفتىً بارعٌ
في الفنون الأربعة، تعرف كيف تستخدم البُوْتَقة،
وثعلبٌ مكَّارٌ، وقوَّادٌ كبير؛
عفريتٌ وداهيةٌ وسَبْتِيٌّ محتال:
أتريد أن تقول الآن إنَّهم جميعاً يستخدمون الكُلَّاب؟
تشيكُّو أنطوُوْنو: ولكنَّ الخُطَّاف والكُلَّاب
هما الشَّيء نفسه!
كفى: ما من رجلٍ إلَّا
ويحمله دائماً في حزامه،
هذا يحمله من ذهبٍ، وهذا من فضَّةٍ، وهذا من نحاسٍ،
وهذا من حديدٍ، وآخر من خشبٍ،
وفقاً لمكانة الأشخاص.
كيف سأقولها لك؟ ذلك الرَّجل العظيم
الذي غزا العالم[1]،
لكي يصطاد الإمبراطوريَّات
من الذَّهب صَنَعَه،
وبالياقوت والألماس رصَّعَه؛
وذاك الذي يُمَلِّحُ
صانعاً الكثير من لحم الخنزير المُقدَّد[2] لشيشرون
كان يحمل واحداً من فضَّة؛
والآخرون،

1) الإسكندر المقدونيُّ؛ (كروتشِه).

2) توريةٌ، أو تلاعبٌ بالكلمات بين Verrinie، ثديي أنثى الخنزير، وعنوان خطبة شيشرون ضد فيرّه، Le verrine؛ (كروتشِه).

وفقاً لحصافتهم وقوَّتهم،
يصنعونه كلٌّ على قدر مستطاعه:
المهمُّ أنَّ الجميع يصطادون،
ولذلك كان لهذا الصَّيد
أسماءٌ مختلفة:
سلبٌ، انتزاعٌ، تلقُّفٌ،
تخفيفٌ، رفعٌ واختلاسٌ،
خدشٌ ونهبٌ،
نفخٌ، تذريةٌ، سرقةٌ،
خطفٌ، تنظيفٌ ونفضُ غبار،
كشطٌ ونشلٌ،
ملءُ الكيس والهرب،
تنظيفُ المغرفة،
تشليحُ رئيس الدَّير، قرعُ الصَّنج،
نفضُ كيس النُّقود،
ورميُ الكُلَّاب.
ناردوتشو: كلُّ هذا يمكنك قولُه
بكلمةٍ واحدة:
لعبُ لعبةِ الانتصار،
السَّرقة والقتل!
تشيكُّو أنطوُنْو: لديك ذاكرةٌ قصيرة! لقد قلت لك
إنَّ العالم اليومَ
يعطي الشَّرَّ صفةَ الخير،

والذَّكاء لا يصبح حادّاً
إلَّا بفضل إعمال هذا الخطّاف الذي
يَنْشِلُ ولا يُرَى،
يَعْلَقُ ولا يُسمَع،
يُمسكُ ولا يُلمَس،
ودائماً ما يلتقطُ ودائماً ما يتخطَّفُ وينتشُ.
ناردوتشو: لا حسدَ، يا أخي،
لأنَّ كلَّ شيءٍ في النِّهاية يذهب مع الماء إلى الأسفل:
فالمال الحرام
لا يتمتَّع به الوريث الثَّالث أبداً،
والأثرياء الفاحشون ينحطُّون إلى القاع،
ويرون بيوتهم تخربُ،
وذرِّيَّاتهم تتصدَّع وتتفرَّق
وتهيمُ في الأرض شَتَاتَ شَتَات،
لأنَّه صحيحٌ ما قاله معلِّم المدرسة ذاك:
«هل يستقيم الظِّلُّ والعود أعوج».
تشيكُّو أنطوُونو: ملتوو الرَّقبةِ[1] اليوم
شُنقوا بمشنقة الجوع!
فمن لا يسرق لا يملك،
ومن لا يقشُشْ لا يملك قشَّة،
ومن لا يحصل يحصل لروحه الغمُّ،
ومن لا يتصيَّد أبداً، أبداً لا يحتفل بالفصح.
ناردوتشو: ولكن وقتَ الحساب

1) الأتقياء الخاشعون؛ (كروتشِه).

يُعْطى ثلاث جَلْدات[1]!
فضلاً عن أنَّ وغداً شديدَ المَكْر،
شَرِهاً إلى نهب النُّقود،
غالباً ما يوضَع بمرسومٍ
على حمارٍ مثل بُهلولٍ أهبل،
وقد نال من المحكمة متراً من الورق،
ليُساقَ إلى السُّوق[2] وهناك يُوسَم،
يقبلُ الخزيَ لكيلا يعاني الجوع،
ويفقد الشَّرف لكي يتقلَّب في النِّعمة ساعةً،
ولأجل قليلٍ من النُّحاس
يحصل على مجداف[3]،
ومرقُ الصَّلصة
يصير في فمه
ماءً صَلَّالاً،
ولينتزع بأظفاره
ينال ثلاث خشبات[4]،
وتصبحُ أرياشُه راياتٍ سوداء: [5]
ما نفعُ وفرةِ الذَّهب ووفرةِ الفضَّة،

---

1) تلاعبٌ بالكلمات على معنيَين لكلمة caallo النَّابوليتانيَّة، الأوَّل يشير إلى اسم عملةٍ نحاسيَّة، والآخر إلى تقريع التَّلاميذ وضربهم في المدارس؛ (كروتْشِه).

2) كانت أحكام الإعدام تنفَّذ في ساحة السُّوق؛ (كروتْشِه).

3) تلاعبٌ بالكلمات بين Rame، نحاسُ النُّقود المعدنيَّة، وRemo، مجداف، إذ كان السُّجناء يجدِّفون في السُّفن؛ (كروتْشِه).

4) القوائم الثَّلاث للمشنقة؛ (كروتْشِه).

5) الرَّاية التي كانت ترافق المحكومين إلى خشبة الإعدام؛ (كروتْشِه).

ما نفعُ فيضِ الفلوسِ والسُّكودات،
العملاتِ المعدنيَّةِ والفكَّات،
اللِّيراتِ الذَّهبيَّةِ والفضِّيَّة،
إن كان في النِّهاية، كما تُثبتُ أمثلةٌ كثيرةٌ،
من يملك مالاً لُبَدًا لا يسعد أبداً؟
تشيكُّو أنطوُوْنو: إذا جرَّبت هذا الخُطَّاف مرَّةً واحدةً،
فإنَّك لن تستطيع منه فكاكاً أبداً، لأنَّه مثل الجرب
كلَّما حككتَ أكثر، ازددتَ رغبةً في الحكِّ.
فلنقم بجولةٍ
بين فنون ومِهَنِ هذا العالم
وسترى أنَّ الجميع يستعين به.
فلنبدأ أوَّلاً، وقبل كلِّ شيء،
بذلك الذي لديه مرؤوسون.
ها هو ذا يلمح ويراقب مزارعاً
ملأ حظيرته بالخنازير:
يطلب منه اليوم على سبيل الاقتراض الكثير من السُّكودات
التي سيعيدها له فيما بعد
عندما تمطر السَّماء
زبيباً وتيناً مجفَّفاً؛
وغداً يطلب منه بعض الشَّعير
ليعيده له في موسم الحصاد؛
وتارةً يطلب منه حماراً أو ثوراً
خدمةً لقصره؛

ويستمرُّ هذا العذاب طويلاً،
طويلاً يستمرُّ هذا الحصار المرير،
إلى أن يفورَ فائرُ المزارع،
فيهين وكيلَ المزرعة
أو يضربه. يا للشَّقيِّ،
كان خيراً له لو أنَّ أمَّه لم تلده،
أو لو أنَّ عظمة
رقبته اندقَّت! هو ذا، يُحْمَل
ويُلقَى به في حفرة،
مقيَّدَ الرِّجلَين،
ومطوَّقَ الرَّقبة بالحديد،
والأصفاد على معصميه
ومرثيَّةٌ معلَّقةٌ على البوَّابة تقول:
«إبلاغٌ وأمرٌ: حذار، ابتعد من هنا! كلُّ من يتحدَّث إليه
يدفع عشرة دوقيَّات».
باختصارٍ، فليصرخ بقدر ما يحلو له،
وليرسل التَّذكارات، وليحاول شتَّى الطُّرق،
فلن يُطلق سراحُه أبداً
إلَّا عندما، بعد كثيرٍ
من حرقةِ العذاب والآهات،
من النَّفقات والآلام،
يقبل بعقد صفقة.
عندئذٍ، بعد أن تكون شهوته،

شهوةُ الذِّئب، قد شبعت وبَشِمَت،
ينالُ القاتلُ العفوَ.
ناردوتشو: أيُّها الخُطَّاف اللَّعين!
اللَّعنة على الورشة الشَّائنة
حيث طُرِقْتَ وصُقِلْتَ!
تشيكُّو أنطوُوْنو: أصغِ. مثلما من الثَّور الكبير
يتعلَّم العجلُ الصَّغيرُ الحَرْثَ،
كذلك الضَّابطُ أو كاتبُ المحضَر
يرشو الشُّهود، ويتلاعب بالأوراق،
ويؤجِّر الأحكام،
ويخفي المَحَاضِر،
وبلا سببٍ يَزُجُّ في السُّجون،
والخُطَّافُ هنا يساوي سبعة[1]،
وبينما ينبغي
أن يُجَرَّ هو إلى السِّجن، يعلن نفسه
خبيراً في مجال عمله،
رجلًا بارعاً وحصيفاً في أحكامه.
ناردوتشو: هذا أكثر من صحيح،
وإذا عاد رجلٌ صالحٌ إلى بيته
بمحفظةٍ نظيفةٍ
نظافةَ ضميره،
وهو أمرٌ حدث لي

---

1) كما في بعض أنواع ورق اللَّعب حيث «ورقة السَّبعة»، وبالأخصّ الدِّيناري، لها قيمةٌ أكثر من مثيلاتها؛ (كروتشِه).

ربَّما اثنتي عشرة مرَّة[1]، يقول الجميع
إنَّه من الأفضل له أن يبقى خارج الموضوع،
وإنَّ هذه ليست مهنته،
وإنَّ من المؤسف إعطاءه الرُّخصة[2]،
لإنَّ من لا يحصد الأرباح لا يصلح لشيء.
تشيكُّو أنطوُونو: إن كان الطَّبيبُ داهيةً،
أطالَ أمدَ المرض
وتقاسمَ الأرباحَ مع الصَّيدلانيِّ؛
وحتى لو كان طيِّباً، فإنَّه يُظهر
أنَّه من بين العديد من الوصفات التي يعرفها
يعرف أيضاً ذلك السِّرَّ
عندما يمدُّ يده من وراء ظهره.[3]
ناردوتشو: لا يمكنك أن تتكلَّم بسوءٍ عن هذا الخُطَّاف،
لأنَّه متواضعٌ وشريفٌ،
بل يمكن أن تسمِّيه
مكافأة القَدَر:
تدفعُ خلسةً لمن يجعلك تتغوَّط!
شيكُّو أنطوُونو: التَّاجر لا يفقد
قبَّعته في الزِّحام؛

---

1) يشير بازيله هنا إلى تجربته كحاكمٍ نبيلٍ لإقطاعيَّات مملكة نابولي، الأمر الذي واظب عليه لأكثر من اثنتي عشرة مرَّة؛ (كروتشه).

2) رخصة مزاولة المهنة نفسها، كضابطٍ أو متصرِّف؛ (كروتشه).

3) طريقةٌ محترمةٌ ليتلقَّى أجره عن زيارةٍ طبِّيَّةٍ دون أن يبدو أنَّه يقبض مالاً كأيِّ بائع بضاعةٍ أو مقدِّمِ خدمات؛ (كروتشه).

يعطي بضاعةً باليةً؛
يدهن القماش بالغراء
ليزيد من وزنه:
يقسم، يتوسَّل، يؤكِّد
أنَّ المتعفِّن طازجٌ،
وأنَّ الفاسدَ صحِّيٌّ،
وبكلماتٍ منمَّقةٍ وأفعالٍ دنيئةٍ
يخدعك ويُظهر لك
الأسودَ أبيضَ، مع أنَّك تجد دائماً
بعض العيوب في بضاعته،
وعندما يقيسها
فبلفتةٍ أنيقةٍ
يسحب القماش لتجده بعد ذلك ناقصاً.
ناردوتشو: ولذلك لا عجب
إذا أشاحت السَّماء بوجهها عنه
وبسبب زلَّةٍ واحدةٍ فَقَدَ طريدتَه.
تشيكُّو أنطوُوْنو: الجزَّار يبيعك
شاةً عجوزًا مريضةً
على أنَّها خروفٌ فتيٌّ مخصيٌّ،
ثورًا على أنَّه عجلٌ،
ويُظهر لك كلَّ شيءٍ
مغلَّفاً بأوراق الذَّهب والزُّهور
ليجعل لعابكَ يسيل،

يبيعكَ العظمَ على أنَّه هبرةٌ غير آبهٍ بلائحة الأسعار
ودائماً ما تتجاوز الإضافةُ الرِّطْلَ،
وليحمنا الرَّبُّ من طريقة كيله!
يتلاعب بأصابعه ويُخسر الميزان.
ناردوتشو: إنَّها أشياء تجعل رئتيك تنفجران!
ولذلك يبدون في الحفلات كالبارونات.
تشيكُّو أنطوُوْنو: وبائع الزَّيت يعمي بصيرتك عندما يكيل؛
وليُريك أنَّه يصبُّ لك الزَّيت طَفْحَاً
وأنَّه بلغَ العلامةَ،
يكبسُ قعرَ كوبِ القياس إلى الدَّاخل،
ويرفعه كثيراً حتى تظهر له حدبة؛
ودائماً يمزج الزَّيت بالسَّميد،
فيُكسبه كثافةً ولوناً:
ترى رغوةً ذهبيَّةً،
وبعد أن تملأ جرَّةً جميلةً
تجد العُكارة،
بل تجد مزيجاً من الماء والكُدارةِ لو كان
داخل مصباحٍ أسود رديءٍ
لأَنَّ وضرطَ وقذفَ الشَّرار.
ناردوتشو: لم يعد هناك شبرٌ واحدٌ نظيفٌ،
كلُّ ما هو جيِّدٌ اندثر:
أوه أيُّها العالم الفاسد، كم تغيَّرت!
تشيكُّو أنطوُوْنو: دِنانُ الخمَّار نصف فارغةٍ،

ويتاجر بها طوال اللَّيل
وإذا وجد الدَّنَّ
قد أمسى خَلّاً أو عَفَناً،
يصنع منه بزلال البيض لبخةً،
ولكنَّه، في المقام الأوَّل، يمزج
النَّبيذ الجيِّد بالنَّبيذ السَّيِّئ، ويجعل من الخلِّ نبيذاً أبيض،
بل من الماء نبيذاً،
وبأصابعه يغطِّي عنقَ الغرَّافة
ليخدع بصرك،
فلا ترى المقياس التَّعيس.
ناردوتشو: بائسون أولئك الذين يقعون في مصيدته،
إذ يلزمهم معه
معدةٌ من حديدٍ وكيسٌ من الذَّهب!
تشيكُّو أنطوُوْنو: الخيَّاط يقتطع من القماش،
ويرى في كلِّ قطعةٍ إن كان له قطعة:
يضع الخيط مكان الحرير،
وإذا أخذته معك لشراء القماش
رافقكَ والإبرة على صدره[1]؛
يجعل الاتِّفاق سخيَّاً
ويعود إلى التَّاجر ليقبض[2].
ولكنَّ هذا أهون الشُّرور:

1) لكي يشير إلى تاجر الأقمشة بأنَّه خيَّاط؛ (كروتشِه).

2) ليقبض عمولته؛ (كروتشِه).

سيغشُّك في الحساب بعد ذلك،
وستلعن وأنت تقرأ الفاتورة
السَّاعةَ التي أردت فيها أن تحسِّن مظهرك.
ناردوتشو: آه كم هي محظوظةٌ وسعيدةٌ الحيوانات
التي يمكنها التَّجوُّل عاريةً
في الغابات والوديان والسُّهول والمنحدرات
وهي ليست خاضعةً لهذا الخراب!
تشيكُّو أنطوُوْنو: استمع إلى تاجر الخردوات على طريقة أحياء اليهود،
إذا ما نزعَتْ بك نفسُك
إلى بيع شيءٍ ما:
تجد هناك شرذمةً
تأخذ على الفور بخِناقِك:
إذا اشتريت ثوباً
وجدتَه عَطِباً حالما ترتديه،
فلا يدوم معكَ إلَّا من عيد الميلاد إلى رأس السَّنة،
ومع الأذيَّة والعار
تجد نفسك مهندَماً ورثّاً في يومٍ واحد.
ولكن لماذا ألمس الكثير من المفاتيح؟
تلزمنا رزمةٌ من الورق
للحديث عن كلِّ المهن
التي تُكرِّم هذا الخُطَّاف
ولحصرِ كلِّ البائسين والهزلى
والأثرياءِ والبُدُنِ الذين صنعهم.

ناردوتشو: يا له من اختراعٍ لعينٍ،
يسمِّم الشَّرف،
ويجعلك ترى
الحقَّ مظلماً، والصِّدقَ أسود!
تشيكُّو أنطوُوْنو: قل ما تشاء: فالجميع
يستخدمونه!
فلأمت مخنوقاً بحبلٍ
إذا لم أشتر واحداً منه اليوم!
ناردوتشو: خيرٌ لك لو تصيبك مصيبةٌ!
إن استخدمتَ الخُطَّاف في هذا العالم
سَحَبَكَ معه إلى القعر.

لا أستطيع أن أجزم أيَّهما أحببتُ أكثر من الهلام العذب لهذا اليوم، الرَّأسَ أم الذَّيل، لأنَّه إن كان أحدهما لذيذاً، فإنَّ الآخر قد نزل في نخاع العظام؛ وكانت كبيرةً متعةُ الأمير الذي، لكي يُظهر نفسه لطيفاً وسخيَّاً كما ينبغي لنبيلٍ حقيقيٍّ، استدعى المسؤول عن الملابس وأمر بمنح الحكَّاءات بطانة قبَّعةٍ قديمةٍ كانت لجدِّه: ولمَّا كانت الشَّمس قد دُعيت على عجلٍ إلى القطبِ الآخر لتغيث أراضيها التي احتلَّتها الظِّلال، فقد رُفعت المقاعد، واتَّخذ كلُّ امرئٍ طريق العودة إلى كوخه، مع نيَّة العودة في صباح اليوم التَّالي إلى المكان نفسه وللغرض نفسه.

نهاية اليوم الرَّابع

اليوم الخامس
من مؤانسة الصِغار

كانت الطُّيور قد بدأت بالفعل تُبْلغُ سفير الشَّمس بكلِّ الأحابيل والأغاويِّ التي دُبِّرت في اللَّيل، عندما توجَّه الأمير تاديو والأميرة لوتشيا في الصَّباح الباكر إلى المكان المعتاد، وعند تفقُّدهنَّ، وجد تسع نساءٍ فقط، بدلاً من عشر. سأل الأمير لماذا لا يرى ياكوفا بين الحاضرات، فأجابوه بأنَّها تعاني فرطَ تَدَفُّقِ الدَّم إلى الرَّأس (فلنشرب نخبها!)؛ فأمر بأن يبحثوا عن امرأةٍ أخرى لتحلَّ مكانها. ولكيلا يبتعدوا كثيراً، نادوا تسوتسا التي تقطن قُبالةَ القصر الملكيِّ، فاستقبلها تاديو بترحابٍ كبيرٍ، سواءٌ لما لها عليه من التزاماتٍ، أو لميل قلبه إليها وللمشاعر التي يكنُّها لها.

استمتعت مع الأخريات بوقتها في الحديقة، وقطفت الفوذَنْجَ الجبليَّ المزهر، والخزامى، والسَّذابَ الخماسيَّ الأوراق، وهذه وتلك من الأزهار؛ ومنهنَّ من ضفرت لنفسها إكليلاً، كما لو كانت ستؤدِّي دوراً في مسرحيَّةٍ هزليَّةٍ؛ ومنهنَّ من صنعت باقةً؛ وتلك عَلَّقَتْ بِدَبُّوسٍ وردةً على صدرها؛ وأخرى وضعت قرنفلةً مرقَّشةً بين شفتيها.

ولكن، لمَّا كان لديهم متَّسعٌ من الوقت، أربع ساعاتٍ تقريباً، حتى ينتصف النَّهار ويحين وقت تناول الطَّعام، أمرَ الأمير بلعب بعض الألعاب لتسلية زوجته، وأوكل المهمَّة إلى كولا ياكوفو، السُّفْرَجِيِّ، وهو رجلٌ ذو موهبةٍ عظيمةٍ، فقام هذا الأخير، كما لو أنَّ جيبه مليءٌ بالاختراعات، بإخراج واحدٍ منها على الفور، قائلاً:

"لطالما كان عديمَ الطَّعم، يا سيِّداتي، ذلك المذاق الذي لا تُرجى منه المنفعة، والتَّسالي ومجالس السُّمَّار لم تُبتدَع من أجل متعةٍ بسيطةٍ وغير مجدية، ولكن لتحقيق ربحٍ وفيرٍ أيضاً؛ لأنَّه، مع هذا النَّوع من التَّسلية، لا يُزَجَّى الوقت فحسب، بل توقَظ وتُشحَذ حدَّة العقل لتعرف كيف تصنع الحلول وتجيب على ما تُسأل به. وهذا هو الحال بالضَّبط مع لعبة الألعاب التي أزمعت على القيام بها، والتي ستكون على هذا الشَّكل. سأقترح على إحدى هؤلاء النِّساء الحاضرات هنا لعبةً ما، وعليها، دون التَّفكير في الأمر، أن تقول لي على الفور إنَّها لم تعجبها، ولماذا لم تعجبها؛ والتي تتأخَّر في الإجابة، أو التي تخرج في جوابها عن الموضوع، ستدفع تكفيراً عن خطئها أيَّ غرامةٍ تفرضها عليها سيِّدتنا الأميرة. وللبدء باللُّعبة، أريد أن ألعب مع السَّيِّدة تسيتسا لعبةَ *المنتصر*[1] مراهَنةً على نصف بنسٍ".

فأجابت تسيتسا على الفور: "لا أريد أن ألعب، فأنا لست لصَّة!".

"مرحى! – قال تاديو، – لأنَّ من يسرق ويقتل هو الذي ينتصر".

"إذا كان الأمر كذلك – ردَّ كولا ياكوفو، – فمعي قطعة نقودٍ تعادل ربعاً ونصف الرُّبع وأريد أن ألعب بها لعبةَ *الإفلاس* مع السَّيِّدة تشيكًّا".

"لا يمكنك أن توقع بي – أجابت تشيكًّا، – فأنا لست تاجرة".

"إنَّها محقَّةٌ – قال تاديو، – لأنَّ هذه اللُّعبة إنَّما ابْتُكِرَتْ لأمثال هؤلاء".

"على الأقلِّ، يا سيِّدة مينيكا – ردَّ كولا ياكوفو، – دعينا نلعب لبضع ساعاتٍ لعبةَ *السُّخط*".

"سامحوني، فهذه لعبةٌ تليق بالحاشية"، أجابت مينيكا.

---

1) هذه وما يليها ألعاب ورقٍ لا نرى ضرورةً لوصفها؛ (كروتشِه).

"لقد أصابت كبدَ الحقيقة – قال تاديو، – لأنَّ هذا الصِّنف من النَّاس لم يكن طيِّب السَّريرة يوماً".

"أعلم – تابعَ كولا ياكوفو – أنَّ السَّيِّدة تولَّا سيسرُّها أن تلعب معي لعبة *الكِباش الأربعة* مراهَنةً على ستَّة بنساتٍ".

"نجِّني يا الله! – هتفت تولَّا، – فهذه لعبة الأزواج الذين لديهم زوجاتٌ سيِّئات".

"لا يمكنكِ أن تأتي بجوابٍ أفضل من هذا – قال تاديو، – لأنَّ هذه اللُّعبة ابتُكِرَتْ لهؤلاء الذين كثيراً ما يتناطحون كالكِباش".

"على الأقلّ، يا سيِّدة بوبا – ردَّ كولا ياكوفو، – فلنلعب لعبةَ عشرون رجُلاً، وأنا سأمدُّ لكِ يداً".

"ليتك لم تنطق – أجابت بوبا، – فهذه لعبة الملَّاقين".

"لقد تكلَّمتِ مثل أورلاندو – علَّق تاديو، – لأنَّ هذا هو بالضَّبط ما يفعله عشرون وثلاثون رجُلاً، إذ يغيِّرون دائماً وجوههم ليوقعوا أميراً مسكيناً في حبالهم".

ومستأنفاً حديثه، قال كولا ياكوفو: "بحياتكِ، يا سيِّدة أنطونيلَّا، دعينا لا نضيِّع هذا الوقت: فنلعب مراهَنةً على طبقٍ جميلٍ من الكَعْكَةِ المُحَلَّاةِ المَقْلِيَّة لعبةَ *الضَّرائب*".

"لقد أصبتَ الهدف! – أجابت أنطونيلَّا، – حمداً لله أنَّك تعاملني كامرأةٍ أجيرة".

"إجابتكِ ليست سيِّئةً – علَّق تاديو، – لأنَّ هذا الصِّنف من النِّساء غالباً ما ينتهي به الحالُ تحت الضَّريبة".

"تبَّاً، هيَّا احصل عليها! – تابع كولا ياكوفو: – بدأتُ أعتقد أنَّ السَّاعة ستمرُّ دون أن نحصل على أيِّ متعةٍ إذا لم تلعب معي السَّيِّدة تشولَّا لعبةَ *الاستدعاء* مراهَنةً على كَيلةِ ترمسٍ".

"ماذا؟ هل تحسبني شرطيَّةً؟"، أجابت تشولَّا.

وأضاف تاديو على الفور: "لقد كانت إجابتها رائعةً حقَّاً، لأنَّه عملُ المُحْضِرين ورجالِ الشُّرطة استدعاء النَّاس إلى المحكمة".

"تعالي إلى هنا يا سيِّدة باولا – عاد كولا ياكوفو يقول، – ولنلعب مراهَنةً على ثلاث عشراتٍ لعبةَ *الخُفراء*".

"لقد أخطأتَ الهدف – أجابت باولا، – فما أنا بنمَّامة بلاط".

"هذه عبقريَّةٌ – أجاب الأمير، – لأنَّه ما من مكانٍ يُلَطَّخُ فيه شرف النَّاس أكثر من بيوتنا".

"بلا شكٍّ إذاً – ردَّ كولا ياكوفو، – ستكون السَّيِّدة تشومِّتلَّا سعيدةً بلعب لعبةِ *العرية* معي".

"أبداً – أجابت تشومِّتلَّا: – لقد وجدتَ لي لعبةً جميلةً لمعلِّم مدرسة!".

"هذه يجب أن تدفع الغرامة – قال كولا ياكوفو، – لأنَّه لا علاقة لجوابها باقتراحي".

"اذهب واستردِدْ أموالك من المعلِّم! – حكمَ الأمير، – فالجواب مناسبٌ تماماً، لأنَّ المتحذلقين يلعبون لعبة *العرية* ببراعةٍ، لدرجة أنَّهم، حتى لو خسروا خمس نقاطٍ، يفوزون باللُّعبة".

ولكنَّ كولا ياكوفو التفت إلى الأخيرة وقال لها: "لا أستطيع أن أصدِّق أنَّ

السَّيِّدة تسوتسا تريد أن ترفض، مثل الأخريات، دعوتي لها لتلعب معي لعبة *التَّعرِّي* على ليرةٍ فضِّيَّة".

"انتبه إلى نفسك – أجابت تسوتسا، – فهذه لعبة أطفال".

"هذه نعم، يجب أن تدفع الكفَّارة – قرَّرَ تاديو، – لأنَّه حتى كبار السِّنِّ يمكنهم لعب هذه اللُّعبة؛ وعليه فإنَّ الأمر متروكٌ لكِ، يا سيِّدة لوتشيا، لفرض العقوبة".

نهضت تسوتسا وذهبت لتركع أمام الأميرة التي أمرتها بأن تغنِّي أغنية "الفلَّاحة" على الطَّريقة النَّابوليتانيَّة. فطلبت الدَّفَّ، وبينما راح حوذيُّ الأمير يعزف على القيثار، غنَّت:

إذا بدا لكِ أنَّك تستطيعين ضربي بالمطرقة
وأنَّني سأولِّي هاربةً
فقط لأنَّكِ تدَّعين العظمة وتجعِّدين أنفك،
فاذهبي، يا ابنتي، وليهدَّكِ آذار هدَّاً!
لقد ولَّى الزَّمن الذي كانت فيه بيرتا تغزل
والطير يحرث.
ولم أعد أحسُّ بسهم الحُبِّ ولا بلهيبه:
أرضي أقفرت، وأمِّي رحلت.
اغربي، فحتَّى الهُرَيرات فتحت عيونها،
واستيقظت الجداجد.
وإذا لم تعطي أملاً لهذا الجمال،
فحذاريكِ السُّقوطَ أينما ذهبتِ واختبأتِ!
لقد اقتلعتُ ضرسَ العقل

ولن أتحرَّك إذ تومئين لي بعد الآن،
فقد عرفتُ التِّينَ من الثُّوم:
انزعي الفكرةَ من رأسك، فلن تنالي شيئاً بعد الآن![1]

انتهت الأغنية وانتهى استمتاع الجمع بها عندما مُدَّت الموائد بما لذَّ وطاب من الطَّعام والشَّراب. ولكن، ما إن خُتِمَتِ المعدة ورُفِعَت مفارش الموائد حتى أعطيت الأوامر لتسيتسا بأن تكشف عن أجمل أزهار حكاياتها؛ ومع أنَّها كانت ثملةً بعض الشَّيء، وأصبح لسانها ضخماً وأذناها صغيرتين، أدَّت واجبها وتكلَّمت على النَّحو التَّالي.

1) في هذه الأغنية تلمِّح تسوتسا للأميرة برغبتها في تدمير حياتها لتحلَّ محلَّها، وفي النِّهاية بدلاً من أن تعاقبها الأميرة على جوابها الخاطئ تصبح هي المعاقَبة إذ تفضحها تسوتسا بحكاية قصَّتها وتتسبَّب في النِّهاية بموتها؛ (المترجمان).

الإوزّة
المؤانسة الأولى من اليوم الخامس

تشتري ليلّا ولولّا من السُّوق إوزّةً تتغوَّط نقوداً؛ فتستعيرها منهما إحدى الجارات، وتُمنَى معها بنتيجةٍ معاكسةٍ، فتقتلها وترميها من النَّافذة. ولكنَّ الإوزَّة تلتصق بمؤخِّرة أحد الأمراء وهو يقضي حاجته، ولا يتمكَّن أحدٌ من فصلها عنه، إلى أن تأتي لولّا وتنجح في ذلك، فيتَّخذها زوجةً له.

حكمةٌ عظيمةٌ من رجلٍ عظيمٍ، صالحٍ ونزيهٍ، أنَّ الحرفيَّ يحسد الحرفيَّ، ومنظِّف المراحيض يحسد منظِّفَ المراحيض، والموسيقيَّ يحسد الموسيقيَّ، والجار يحسد الجار، والفقير يحسد الشَّحَّاذ، لأنَّه لا يوجد ثقبٌ في زوايا العالم لا يَنْسُجُ فيه شبكته عنكبوتُ الحسد اللَّعين الذي لا يتغذَّى إلَّا على أنقاض جاره، كما ستسمعون على وجه الخصوص في هذه الحكاية التي سأحكيها لكم:

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، أختان لصقتا بالدَّقعاء لشدَّة فقرهما، وبشقِّ الأنفس كانتا تستطيعان تدبير أمورهما، فقد كانتا تبصقان من الصَّباح إلى المساء على أصابعهما لغزل بعض الخيوط وبيعها. ومع ذلك، وبرغم هذه الحياة البائسة، ما كان لأيِّ ظرفٍ أن يدفعهما إلى الخروج من المنزل سوى كُرَة الضَّرورة عندما تصطدم بكُرَةِ الشَّرف[1]. ولهذا السَّبب وضعت السَّماء، وهي رحيبةٌ جدَّاً في إثابة الخير مثلما هي دقيقةٌ

1) عباراتٌ من لعبة البليار؛ (كروتشِه).

في معاقبة الشَّرّ، في رأس هاتين الفتاتين الفقيرتين الذَّهاب إلى السُّوق لتبيعا بعض شلَّات الغزل وتشتريا إوزَّةً بالثَّمن القليل الذي ستحصلان عليه.

بعد أن أحضرتا الإوزَّة إلى المنزل، منحتاها الكثير من الحُبِّ، وعاملتاها كما لو كانت أختهما من لحمهما ودمهما، وجعلتاها تنام معهما في السَّرير نفسه. ولكنَّ الفجر يبزغ ويأتي معه نهارٌ جميل: فقد بدأت الإوزَّة الطَّيِّبة تتغوَّط سكوداتٍ مموَّجة الحوافِّ، فملأتا منها، شيئاً فشيئاً، صندوقاً كبيراً؛ وكان ذلك التَّغوُّط كبيراً لدرجة أنَّهما بدأتا ترفعان رأسيهما وصار النَّاس يرون شعرهما يلمع.

لاحظت بعض الجارات ذلك، فقالت إحداهنَّ للأخرى حين التقين في يومٍ من الأيَّام لتبادل الحديث: «أرأيتِ، يا جارتي فاستا، الأختين ليلَّا ولولَّا اللَّتين كانتا، لغاية يوم أمس، لا تجدان مكاناً لتقعا فيه ميِّتتَين، كيف أصبحتا الآن نظيفتين وتختالان كالسَّيِّدات؟ نوافذهما مزيَّنةٌ دائماً بالدَّجاج وبشرائح اللَّحم التي تأخذ بالأبصار. فما قصَّتهما يا تُرى؟ إمَّا أنَّهما وضعتا أيديهما على برميل الشَّرف وإمَّا أنَّهما وجدتا كنزاً». «لقد جمدتُ كالمومياء – أجابت بيرنا، – فحيث كانتا من قبلُ تموتان من الجوع، أراهما الآن تسبحان في الدُّهن والثَّراء، وهذا يبدو لي كحلم».

قلن هذه الأشياء وأشياءَ غيرها، وفي النِّهاية، يستحثُّهنَّ الحسد، حفرن نفقاً يمتد من بيت إحداهنَّ إلى بيت تينك الفتاتين ليتجسَّسنَ عليهما ويَرَيْنَ إن كان بإمكانهنَّ إشباع فضولهنَّ ببعض الطَّعام؛ وظللن يتجسَّسن أمدًا طويلًا إلى أن رأين في إحدى الأمسيات، عندما تضرب الشَّمس بعصا أشعَّتها على قوارب بحر الهند لمنح إجازاتٍ لساعات النَّهار، ليلَّا ولولَّا تفرشان ملاءةً على الأرض وتضعان الإوزَّةَ عليها، وهذه الأخيرة تبدأ في رشق السُّكودات من مؤخِّرتها.

جعل هذا المشهد غير المتوقَّع عيون الجارات تخرج من المحاجر وغُدَدهنَّ الدَّرقيَّة من الحُلوق في الوقت نفسه؛ وفي الصَّباح، عندما يناشدُ أبوللو بعصاه الذَّهبيَّة العتمةَ أن تنسحب، ذهبت إحداهنَّ، واسمها باسكا، لتزور الفتاتين، وبعد ألف ديباجةٍ وكثيرٍ من اللَّفِّ والدَّوران، والشَّدِّ والجذب، وصلت إلى لبِّ الكلام وطلبت منهما أن تعيراها الإوزَّة لساعتين فحسب، لأنَّها اشترت بعض فراخ الإوزِّ وتريد أن تحبِّبها بالمنزل. وظلَّت تتكلَّم وتتوسَّل لدرجة أنَّ الأختين السَّاذجتين، اللَّتين كانتا لطيفتين بطبعهما ولا تستطيعان أن تقولا «لا»، ولكيلا يزرعن الشَّكَّ أيضاً في نفس الجارة، أعارتاها الإوزَّة، بشرط أن تعيدها لهما في أسرع وقتٍ ممكن.

دعت الجارات الأخريات، وفرشن معاً ملاءةً على الأرض، ووضعن الإوزَّة عليها، وهذه، بدلاً من أن تُظهر في مؤخِّرتها داراً لسكِّ النُّقود، فتحت قناةَ مرحاضٍ وملأت غسيلَ أولئك النِّسوة بسكوداتٍ من طينٍ أصفر انتشرت رائحته في كلِّ أنحاء الحيِّ، كما تنتشر، في أيَّام الأحد، رائحة قدور الحساء. فظننَّ عندئذٍ أنَّ إطعامها جيِّداً سيجعلها أفضل من حجر الفلاسفة لإشباع رغباتهنَّ؛ فقمنَ بحشوها حتى وصل الطَّعام إلى حلقها، ثمَّ وضعنها مرَّةً أخرى على الملاءة. ولكن، إن كانت في البداية قد أظهرت لهنَّ أمعاءً زَلِقةً، فقد بدت الآن وكأنَّها أصيبت بالزُّحار، إذ كان عليها أن تهضم كلَّ ذلك. فشعرت الجارات بالسُّخط، ولَوَيْنَ رقبتها وألقينها من النَّافذة في زقاقٍ مسدودٍ تكدَّست فيه القمامة.

وتشاء الصُّدفة، تلك التي تجعل الفول ينمو حيث لا يتوقَّع المرء، أن يمرَّ ابن الملك، وهو في طريقه إلى الصَّيد، بتلك الأنحاء. وبالقرب من هناك، شعر بنداء الحاجة، فسلَّم سيفه وحصانه إلى أحد الخدم، ودخل ذلك الزُّقاق الصَّغير ليُفرغ فائض بطنه؛ وبعد أن انتهى من هذه العمليَّة، ولم يجد في جيبه ورقةً يستنجي بها، رأى تلك الإوزَّة التي قُتِلَت قبل لحظاتٍ، فاستخدمها لهذا الغرض.

ولكنَّ الإوزَّة، التي لم تكن ميِّتةً، أمسكت أليةَ الأمير المسكين بقوَّةٍ بمنقارها، فبدأ يصرخ، وهرع جميع الخدم إليه، وعبثاً حاولوا فصلها عن لحمه، لأنَّها كانت ملتصقةً به التصاقَ سلماسيس كثيرةِ الرِّيش بهرمافروديت كثير الوبر[1]. لم يستطع الأمير تحمُّل الألم، وإذ رأى أنَّ جهود الخدم تذهب سدىً، طلب نقله إلى القصر الملكيِّ، وتمَّ استدعاء جميع أطبَّاء المدينة الذين هرعوا إلى القصر وفعلوا كلَّ ما في وسعهم لعلاج هذا الحادث الغريب باستخدام المراهم والملاقط ونثر المساحيق. ولكنَّ تلك الإوزَّة كانت مثل قُرادةٍ لا يمكن نزعها حتى بالزِّئبق، أو علقةٍ لا يمكن قلعها حتى بالخلِّ.

ثم أمر الأمير بإعلان فرمانٍ يمنح بموجبه مَن يريحه من هذا الإزعاج من الخلف نصفَ مملكته إن كان رجلاً، فإن كانت أنثى اتَّخذها زوجة. وهنا، بدأ النَّاس يتوافدون حشوداً ليحشروا أنوفهم في تلك الرَّبكة؛ ولكن، كلَّما كانوا يزيدون في ضروب العلاجات، كانت الإوزَّة تزداد تشبُّثاً بالأمير المسكين: بدا حقَّاً أنَّ جميع وصفات جالينوس وأقوال أبقراط وبلاسم ماسويه[2] ضدَّ مؤخِّرات[3] أرسطو، قد اجتمعت لتعذيب ذلك البائس.

ومن بين الكثيرين الذين جاؤوا ليجرِّبوا حظَّهم، جاءت لولَّا، صُغرى الأختين، والتي ما إن رأت الإوزَّة حتى عرفتها وصرخت: «أيَّتها الهاربة، يا

---

1) سلماسيس، في الأسطورة الإغريقيَّة، حوريَّةُ نافورةٍ من فريجي، افتتنت بهرمافروديت عندما وصل إلى جانب النَّافورة، فاحتضنته وطلبت من الآلهة أن تبقى معه إلى الأبد، فلبَّت الآلهة طلبها وصهرتهما معاً في جسدٍ واحدٍ، فلعن هرمافروديت نافورة سلماسيس وتمنَّى أن يلاقي أيُّ شخصٍ يستحمُّ في مياهها مصيره نفسه؛ (المترجمان).

2) أبو زكريَّا يحيى بن ماسويه الخوزيُّ، طبيبٌ عالمٌ ومترجمٌ سريانيٌّ، وكان صيدلانيَّاً في جنديسابور ثمَّ عمل طبيباً في بغداد، ويعود له الفضل في تطوُّر العديد من العلوم في العالم الإسلاميِّ في العصر العباسيِّ الأوَّل؛ (المترجمان).

3) تلاعبٌ بالكلمات بين عنوان كتاب أرسطو «البرهان Analitica posteriora» وكلمة Posteriore التي تعني بالإيطاليَّة: مؤخِّرة، خلفيٌّ، لاحق؛ (المترجمان).

هاربتي!». وحالما سمعت الإوزَّة هذا الصَّوت، أرخت منقارها وقفزت إلى حضن لولَّا وراحت تداعبها وتقبِّلها، منتقلةً دون حرجٍ من مؤخِّرة الأمير إلى فم الفلَّاحة.

وإذ رأى الأمير هذه الأعجوبة، أراد أن يعرف من أين بدأت القصَّة؛ وبعد أن علم بخدعة الجارة، أمر بجلدها في السَّاحة ثمَّ نَفْيِها خارج البلاد، واتَّخذ لولَّا زوجةً له، وأخذ منها الإوزَّةَ دوطةً تتغوَّط ذهباً، وأعطى ليلَّا زوجاً ثريَّاً آخر.

وهكذا أصبحتا من أسعد النَّاس في العالم، برغم كيد الجارات اللَّواتي ذهبن ليغلقن طريق الثَّراء أمام لولَّا، ففتحت لها السَّماء طريقاً آخر لتصبح ملكةً وعرفت في النِّهاية أنَّ

العوائق غالباً ما تعود بالمنافع.

الأشهُر
المؤانسة الثَّانية من اليوم الخامس

لكونه فقيراً ولم يتلقَّ أيَّ مساعدةٍ من أخيه الثَّريِّ تشانِّه، يرحل ليزهِ ويصادفه حظٌّ طيِّبٌ فيصبح غنيَّاً جدًّا؛ وبدافع الحسد، يحاول الآخر خوض التَّجربة نفسها، ولكنَّه يجد نفسه في ورطةٍ كبيرةٍ لا يتمكَّن من الخروج منها إلَّا بمساعدة أخيه.

كان الضَّحك الذي اعترى المستمعين لقصَّة الحادثة التي حدثت مع الأمير متشنِّجاً لدرجة أنَّ الجميع كانوا على وشك الإصابة بفتقٍ، وكان من الممكن أن يستمرَّ موشَّح الضَّحك حتى تنفجر سُرَّاتهم لو لم تُشِر تشيكَّا إلى أنَّه دورها في سرد حكايتها؛ وهكذا، بعد أن فرضت الصَّمت على أفواه الجميع، بدأت تقول:

إنَّه قولٌ يستحقُّ أن يُنقَشَ بأحرفٍ كبيرةٍ كتلك التي تُنقَش بها الأقوال على النُّصب التَّذكاريَّة، أنَّ الصَّمت لم يَجْنِ على أحد. ولكن لا تظنُّوا أبدًا أنَّ بعض الهمَّازين، أولئك الذين لا تعرف ألسنتهم أبداً قول الخير، ودائمًا ما تقدُّ وتخيط، وتقصُّ وتلدغ، يمكن أن ينالوا مبتغاهم؛ فعند تفريغ الأكياس، وهو ما رأيناه دائمًا وما نزال نراه، ينال قولُ الخير المحبَّةَ والرِّبحَ، وقولُ الشَّرِّ العداوةَ والخراب. اسمعوا كيف يحدث ذلك، وسوف تقولون إنَّ معي قنطارَ حقٍّ.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان،

شقيقان، أحدهما تشانّه، وكان ذا نعمةٍ وثراءٍ مثل كونتٍ، والآخر ليزه، ولم يكن يملك حتى ما يقوم بأوده؛ ولكن بقدر ما كان هذا فقير الحظِّ، كان الآخر فقيرَ الإحساس، لدرجة أنَّه لم يكنْ لينهض عن إناء اللَّيل ليسمح لشقيقه بقضاء حاجته. فغادر ليزه المسكين بلده يائساً وانطلق يضرب في الآفاق؛ ومشى كثيراً إلى أن وصل في إحدى الأمسيات، في طقسٍ سيِّئٍ للغاية، إلى حانةٍ وجد فيها اثني عشر شابّاً جالسين حول النَّار.

وحين رأى هؤلاء ليزه منكمشاً على نفسه وشبهَ مخدَّرٍ من البرد، من ناحيةٍ بسبب قسوة الطَّقس ومن ناحيةٍ أخرى بسبب ثيابه المهترئة، دعوه إلى الجلوس بجانب النَّار، فقَبِلَ ليزه الدَّعوة وجلس يدفِّئ نفسه. وبينما كان يتدفَّأ، سأله أحد أولئك الشَّباب، وكان شديد العبوس ووجهه القبيح يبعث على الرُّعب: "كيف يبدو لك، أيُّها الفلَّاح، هذا الطَّقس؟". "كيف يبدو لي؟ - أجاب ليزه. - يبدو لي أنَّ كلَّ أشهُر السَّنة تقوم بواجبها؛ ولكنَّنا، نحن الذين لا نعرف ما قد نواجهه، نريد أن نفرض قوانيننا على السَّماء، ولأنَّنا نرغب في أن تكون الأشياء حسب ما نشاء، لا نصطاد عميقاً لنرى إن كانْ خيراً أم شرَّاً، مفيداً أم ضارَّاً، ما يراودنا من نزوات؛ ففي الشِّتاء، عندما تمطر، نطلب الشَّمس المحرقة؛ وفي شهر آب، نطلب انصباب السَّحاب؛ ولا نفكِّر في أنَّه، إن حدث ذلك، فإنَّ الفصول ستنقلب رأساً على عقب، وستتلف البذور، وتضيع المحاصيل، وتمرض الأجسام، وتنقلب الطبيعة رأساً على عقب. ولذلك فلنترك السَّماء تأخذ مجراها، فهي التي، بعد كلِّ شيءٍ، خلقت الأشجار لندرأ بحطبها قسوة الشِّتاء، ونتَّقي بورقها قيظ الصَّيف".

"إنَّك تتحدث كشمشون - قال ذلك الشَّابُّ؛ - ولكن لا يمكنك أن تنكر أنَّ هذا الشَّهر، شهر آذارْ الذي نحن فيه، وقحٌ للغاية، مع كلِّ هذا الصَّقيع والأمطار والثَّلج والبَرَد والرِّياح والضَّباب والعواصف وغيرها من البوائق: إنَّه ينغِّص عيشنا تماماً!".

"إنَّك تتحدَّث بالسُّوء عن شهر آذار المسكين هذا – ردَّ ليزِه، – ولكنَّك لا تتحدَّث عن المنافع التي يجلبها لنا، فهو الذي، استهلالاً للرَّبيع، يُخرج الوردَ من أكمامه، وهو وحده السَّبب الذي يجعل الشَّمس تشعر بالسَّعادة من الطَّقس الحاليِّ لأنَّه يسمح لها بالدُّخول إلى بيت الكبش"[1].

أُعجِبَ الشَّابُّ كثيراً بكلام ليزِه، لأنَّه هو بالتَّحديد كان شهرَ آذار شخصيَّاً، وقد انتهى به المطاف مع إخوته الأحد عشر في تلك الحانة، ولكي يكافئ طيبةَ ليزِه الذي لم يعرف أن يتحدَّث بالسُّوء عن هذا الشَّهر الحزين الذي حتى الرُّعاة لا يحبُّون ذِكره، أعطاه صندوقاً جميلاً وقال له: "خذ هذا، وإن احتجت إلى شيءٍ ما، افتحه وستجده أمامك".

شكر ليزِهْ ذلك الشَّابَّ بكلماتٍ في غاية التَّواضع، ووضع الصُّندوق تحت رأسه كوسادةٍ، وأخلد إلى النوم؛ وفي الصَّباح، عندما أتت الشَّمس بفرشاة أشعَّتها لتلوِّن ظلال اللَّيل بلونٍ فاتح، ودَّع أولئك الشُّبَّان واستأنف رحلته. وبعد خمسين خطوةً فقط من الحانة، فتح الصُّندوق الصَّغير وقال: "أوه يا صديقي! أيمكنني الحصول على هودجٍ مبطَّنٍ بالقماش، وبداخله القليل من النَّار، بحيث يمكنني أن أسافر متمتِّعاً بالدِّفء في وسط هذا الثَّلج؟".

وما إن أتمَّ كلامه حتى ظهر هودجٌ مع الحمَّالين الذين رفعوه ووضعوه فيه، فأمرهم بأن يسيروا به نحو منزله. وعندما حانت ساعة تحريك الفكَّين، فتح الصُّندوق الصَّغير مرَّةً أخرى وقال: "إليَّ بالطَّعام"، وإذا النِّعَمُ تهطل من السَّماء، وكانت هناك مأدبةٌ عظيمةٌ تكفي عشرة ملوكٍ متوَّجين.

ووصل في المساء إلى غابةٍ لم تكن تسمح للشَّمس بدخولها[2]، لأنَّها

1) عبارةٌ ساخرةٌ أخرى حول القرون؛ (كروتشِه).

2) تشبيهٌ بإعطاء تصريحٍ لإدخال الحيوانات وبالحجر الصِّحِّيِّ الذي كانوا يفرضونه على السُّفن التي تحمل بضائع مشبوهة؛ (كروتشِه).

قادمةٌ من بلادٍ مشبوهةٍ[1]، ففتح الصُّندوق وقال: "أريد أن أستريح هذا المساء في هذا المكان الجميل، حيث يصنع النَّهر موسيقاه على الحصى مماشياً أغنية النَّسائم العليلة". وفي الحال ظهرت أريكةٌ قرمزيَّةٌ، تحت خيمةٍ من القماش المُشمَّع، مع فراشٍ محشوٍّ بالرِّيش، وعليها لحافٌ إسبانيٌّ وملاءةٌ ناعمة الملمس؛ وعندما طلب العشاء، مُدَّت له في لمح البصر، تحت خيمةٍ أخرى، مائدةٌ تليق بأميرٍ، أوانيها من فضَّةٍ، وفيها ما لذَّ وطاب من طعامٍ انتشرت رائحته لمسافة مِائة ميل.

بعد الأكل والنَّوم، وعند الفجر، عندما يقوم الدِّيك، وهو جاسوسٌ للشَّمس، بتنبيه سيِّده إلى أنَّ الظِّلال قد ضعفت وتبدَّدت، وأنَّ الوقت قد حان ليبدأ، كجنديٍّ متمرِّسٍ، بمطاردتها وقتلها، فتح ليزه الصُّندوق الصَّغير وقال: "أريد ثوباً جميلاً، لأنَّ أخي سيراني اليوم وأريد أن أجعل لعابه يسيل". وفي لمح البصر كان له ذلك، فقد أُعطيَ بزَّةً تليق بالنُّبلاء، من مخملٍ أسود قشيبٍ، مع شرائط حمراء من وبر الجمل، وبطانةٍ من صوفٍ أصفر خفيفٍ مطرَّزةٍ أجمل تطريز، بحيث كان بإمكانك أن ترى فيه حقلاً من الزُّهور. وبعد أن لبسها، ركب الهودج ووصل إلى البيت.

عندما رآه تشانِّه مرتدياً تلك الملابس الفاخرة ومحاطاً بكلِّ وسائل الرَّاحة تلك، أراد أن يعرف أيَّ حظٍّ طيِّبٍ صادفه؛ فأخبره عن الشُّبَّان الذين وجدهم في تلك الحانة، وعن الهديَّة التي قدَّموها له، ولكنَّه كتم الحديث الذي تبادله مع ذلك الشَّابِّ. ولم يستطع تشانِّه الانتظار حتى ينصرف أخوه، فنصحه أن يذهب ويستريح لأنَّه كان متعباً جدَّاً، وفي الحال ركب الرِّيحَ ووصل إلى الحانة نفسها ووجد الشُّبَّان أنفسهم، فجلس وأخذ يتبادل الحديث معهم.

ولكن أمام السُّؤال نفسه الذي طرحه من قبلُ ذلك الشَّابُّ، أي عن رأيه

---

1) أي من الشَّرق؛ (كروتشِه).

بالشَّهر الجاري، شهر آذار، أجاب قائلاً: "أوه، شتَّتَ الله أمرَ هذا الشَّهر اللَّعين، عدوٍّ مرضى الزُّهريِّ[1]، المُبْغَضِ إلى نفوس الرُّعاة، معكِّر الأمزجة ومدمِّر الأجسام: شهرٌ كهذا، كلَّما تمنَّيتَ الخراب لشخصٍ ما، قلتَ له: - اذهب، مَحَقَكَ آذار! - شهرٌ، عندما تريد أن تنعت شخصاً ما بالغرور، تناديه: "يا عَقَّارَ آذار!"؛ شهرٌ، باختصارٍ، سيكون من حظِّ العالم، من حظِّ الأرض وحظِّ البشر، لو يُمحَى موقعه من صفوف إخوانه!".

وما كان من شهر آذار، بعد أن سمع الإهانات التي أمطره بها تشانِّه، إلَّا أن كظم غيظه حتى الصَّباح عازماً على جعله يبتلع حديثه المنغِّص؛ وعندما همَّ تشانِّه بالمغادرة، أعطاه سوطاً جميلاً من الجلد، وقال له: "كلَّما رغبتَ في شيءٍ ما، قل: - أيُّها السَّوط، أعطني مِائة! - وسترى اللآلئ مصفوفةً على القصب".

شكر تشانِّه الشَّابَّ وأخذ يُعمِل مهمازَه، ولم يرغب في اختبار السَّوط قبل الوصول إلى بيته. وحالما وصل، حبس نفسه داخل غرفةٍ سرِّيَّةٍ ليَخْزُنَ فيها المال الذي كان يأمل الحصولَ عليه من السَّوط، وخاطبه قائلاً: "أيُّها السَّوط، أعطني مِائة!". وإن لم يكن السَّوط قد أعطاه مِائة، فمن الأكيد أنَّه طلب منه أن يعود لأجل الباقي، عازفاً ألحان موسيقارٍ على ساقيه ووجهه، حتى وصل صراخه إلى ليزِه الذي أيقن أنَّه لم يكن من الممكن كبح جماح السَّوط الذي كان يسرح ويمرح مثل جوادٍ جامحٍ، ففتح الصُّندوق الصَّغير وأوقفه.

ثمَّ سأل تشانِّه عمَّا حدث له، وعندما سمع القصَّة، أخبره أنَّ عليه أن يلوم نفسه قبل أن يلوم الآخرين، لأنَّه هو الذي جنى على نفسه بسلوكه المتغطرس، وفعل مثل الجمل الذي أراد أن يكون له قرنان، ففقد أذنيه،

---

1) كان يُعتقَد أنَّ شهر آذار يزيد من حدَّة مرض الزُّهريِّ؛ (كروتشِه).

وأنَّ عليه في المرَّة القادمة أن يتعلَّم صونَ لسانه، المفتاح الذي فتح عليه مخزنَ هذه البليَّة؛ فلو أنَّه تكلَّم خيراً عن ذلك الشَّابِّ، لكان حصل ربَّما على مثل ما حصل هو عليه من الحظِّ: خاصَّةً وأنَّ قول الخير سلعةٌ لا تكلِّف شيئاً، وعادةً ما تُثمر مكاسب لا يمكن تصوُّرها. وفي النِّهاية، عزَّاه قائلاً له ألَّا يطلب نِعَماً أكثر ممَّا أعطته السَّماء، لأنَّ صندوقه الصَّغير سيكون كافياً لملء ثلاثين بيتاً من بيوت البؤساء، ولأنَّه سيجعله سيِّداً على كلِّ ما لديه، لأنَّ الرَّجل الكريم خَازِنُهُ السَّماء؛ وأنَّه وإن كان يعتقد أنَّ أخاً آخر كان سيكرهه لما أظهره له من قسوةٍ أيَّامَ بؤسه، إلَّا أنَّه يرى أنَّ دناءته كانت رياح الرَّخاء التي ساقته إلى هذا الميناء، ولهذا فإنَّه يريد أن يعبِّر له عن امتنانه ويعترف له بفضله.

وحين سمع تشانِّه من أخيه كلَّ هذه الكلمات، طلب منه أن يغفر له جفاء الماضي، وبعدما تشاركا في عددٍ من المتاجر، تمتَّعا بالحظِّ الطَّيِّب معاً؛ ومنذ ذلك الحين أصبح تشانِّه يتكلَّم خيراً عن كلِّ شيءٍ، مهما كان ذلك الشَّيء سيِّئاً، لأنَّه

صحيحٌ أنَّ اللِّسان بلا عَظْمٍ، ولكن بإمكانه أن يقصم الظَّهر.

بينتو سمالتو
المؤانسة الثَّالثة من اليوم الخامس

ترفض بيتًّا الزَّواج، ولكنَّها بعد ذلك تعجن زوجاً بيديها؛ ولأنَّ الملكة تسرقه منها، فإنَّها لا تعثر عليه إلَّا بعد ألف مشقَّةٍ ومشقَّة، وعندئذٍ تستعيده بحيلةٍ بارعةٍ وتعود به إلى المنزل.

حالما أنهت تشيكًّا هذه الحكاية التي أعجبت الجميع أيما إعجاب، وإذ رأت مينيكا التي كانت واقفةً على مِسْنَدِ سلاحها متأهِّبةً لإطلاق نار حكايتها، أنَّ آذان الجميع كانت مشدودةً إليها، تكلَّمت على النَّحو التَّالي:

كان دائماً أكثر صعوبةً على الإنسان أن يحتفظ بما اشتراه من أن يشتري شيئاً جديداً، لأنَّه صحيحٌ أنَّ الحظَّ في بعض الحالات يهرع إلى المساعدة، وغالباً ما يكون حليفاً للظُّلم، إلَّا أنَّه في حالاتٍ أخرى يتطلَّب عقلاً؛ ولذلك كثيراً ما ترون أناساً بلا عقلٍ يصعدون إلى مراتب الأثرياء، ولكن بعد ذلك، لافتقارهم إلى الذَّكاء، ينحدرون إلى الحضيض، كما في الحكاية التي سأحكيها لكم، فإذا كنتم ألبَّاء ومن الإشارة تفهمون، أدركتم ذلك بسهولة.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، تاجرٌ لديه ابنةٌ وحيدةٌ يرغب بشدَّةٍ في أن يراها متزوِّجة؛ ولكن كان كلَّما لمس أوتار هذا العود، وجدها بعيدةً مِائة ميلٍ عن لحنه، لأنَّ تلك الفتاة الحمقاء، كإناث قرود المكَّاك البربريِّ، كانت تكره كلَّ الذُّيول؛ وكأرضٍ

محظورةٍ ومنطقة صيدٍ مَحْمِيَّةٍ، كانت تمنع دخول أيِّ رجل؛ وكانت تريد دائماً إجازةً في محاكمها، ودائماً عطلةً في مدارسها، ودائماً إغلاقاً في مصارفها لأجل احتفالات البلاط؛ لدرجة أنَّ والدها كان الأكثر اغتماماً ويأساً في العالم.

ذات مرَّةٍ، بينما كان يهمُّ بالخروج إلى السُّوق، سأل بيتَّا (هكذا كانت تُدعى ابنته) عمَّا تريد أن يحضره لها عند عودته؛ فأجابت: "يا أبتِ العزيز، إذا كنت تحبُّني، أحضر لي نصف قنطارٍ من سُكَّر باليرمو، ونصف قنطارٍ من اللَّوز الأمبروزيِّ[1]، مع أربع أو ستِّ قوارير من ماء الورد وقليلٍ من المسك والعنبر، وأحضر لي أيضاً حوالي أربعين لؤلؤة، وياقوتتين زرقاوين، وكومةً صغيرةً من العقيق والياقوت، مع بعض الذَّهب المغزول؛ وقبل كلِّ شيءٍ، مِعْجَناً ومكشطةً من الفضَّة".

تعجَّب الأب من هذا الطَّلب الباهظ الحِمْل، ولكن، حتى لا يزعج ابنته، ذهب إلى السُّوق، وعند عودته، جاءها بكلِّ ما طلبته. وبعد أن حصلت على هذه الأشياء، حبست نفسها في غرفةٍ وبدأت بتحضير كمِّيَّةٍ كبيرةٍ من عجينة اللَّوز والسُّكَّر، ممزوجةً بماء الورد والعطور، وأنشأت تشكِّل شابّاً جميلاً شعره من خيوط الذَّهب، وعيناه من الياقوت الأزرق، وأسنانه من اللُّؤلؤ، وشفتاه من الياقوت الأحمر، وآتته الكثير من جمال الخِلقة والخُلق لدرجة أنَّه لم يكن ينقصه سوى الكلام.

بعد أن فعلت ذلك، وكانت قد سمعت أنَّ تمثالاً آخر، بفضل صلوات أحد ملوك قبرص[2]، صار حيّاً ناطقاً، صلَّت كثيراً لربَّة الحُبِّ، حتى بدأ التِّمثال يفتح عينيه، وحالما شهق خرجت من فمه الكلمات، وأخيراً،

1) صنفٌ من اللَّوز يُعَدُّ من أجود الأصناف؛ (كروتشِه).

2) بجماليون؛ (كروتشِه).

استرخت جميع أطرافه، وبدأ يمشي. وبفرحٍ عظيمٍ، كما لو أنَّها حصلت على مملكة، احتضنته وقبَّلته، ثمَّ أمسكته من يده وأحضرته إلى أمام والدها، وقالت له: "أيْ أبتِ وسيِّدي، لطالما قلتَ إنَّك تتوق إلى رؤيتي متزوِّجة؛ وها أنا، إرضاءً لك، اخترت العريس الذي هفا إليه قلبي".

الأب الذي رأى شابَّاً جميلاً يخرج من غرفة ابنته ولم يكن رآه وهو يدخل، ظلَّ مبهوتاً؛ وبعد أن تأمَّل تلك الخلقة البديعة التي قد يدفع المرء ثروةً لكي يتمكَّن من تأمُّلها[1]، سلَّم بأنَّه يجب الاحتفال بزواجهما.

وأُقيم حفل زفافٍ كبيرٌ، وكان من بين الحضور ملكةٌ عظيمةٌ مجهولةٌ افتُتِنَتْ بجمال بينتو سمالتو (حسب الاسم الذي أطلقته عليه بيتَّا)، ولم تكن المسألة مجرَّد هوىً عابر. والحال أنَّ بينتو سمالتو، الذي لم يكن قد مضى ثلاث ساعاتٍ مُذ فتح عينيه على خبث العالم، لم يكن يعرف كيف يعكِّر الماء، وراح يرافق الغرباء إلى أسفل الدَّرج لوداعهم نزولاً عند طلب عروسه، وعندما فعل الشَّيء نفسه مع تلك السَّيِّدة، أخذته بيده وقادته بهدوءٍ شديدٍ إلى عربةٍ تجرُّها ستَّة خيولٍ كانت تنتظرها في الفناء، وزجَّت به في داخلها، ثمَّ أمرت الحوذيَّ أن ينطلق بهما إلى أرضها، وهناك، دون أن يفهم ما حدث له، أصبح بينتو سمالتو السَّاذج زوجها.

بعد أن انتظرت بيتَّا لفترةٍ من الوقت ولم تره يظهر مرَّةً أخرى، أرسلت أحدهم إلى الفناء ليرى إن كان مستغرقاً في الحديث مع أحدٍ ما، وطلبت من آخر أن يصعد إلى السَّطح لعلَّه ذهب إلى هناك لاستنشاق بعض الهواء النَّقيِّ، وألقت هي نظرةً على المرحاض لعلَّه قصدها ليدفع الجزية الأولى لضرورات الحياة. ولكن، عندما لم تعثر عليه في أيِّ مكانٍ، قدَّرت على الفور أنَّه سُرق منها لكونه جميلاً جداً. ولأنَّ أحداً لم يظهر ليخبِّر عنه

1) كما الحيوانات النَّادرة التي تُعرَض في الأسواق العامَّة؛ (كروتشِه).

ما نفعُ فيضِ الفلوسِ والسُّكودات،
العملاتِ المعدنيَّةِ والفكَّات،
اللِّيراتِ الذَّهبيَّةِ والفضِّيَّة،
إن كان في النِّهاية، كما تُثبتُ أمثلةٌ كثيرةٌ،
من يملك مالاً لُبَدًا لا يسعد أبداً؟
تشيكُّو أنطوُوْنو: إذا جرَّبت هذا الخُطَّاف مرَّةً واحدةً،
فإنَّك لن تستطيع منه فكاكاً أبداً، لأنَّه مثل الجرب
كلَّما حككتَ أكثر، ازددتَ رغبةً في الحكِّ.
فلنقم بجولةٍ
بين فنون ومِهَنِ هذا العالم
وسترى أنَّ الجميع يستعين به.
فلنبدأ أوَّلاً، وقبل كلِّ شيء،
بذلك الذي لديه مرؤوسون.
ها هو ذا يلمح ويراقب مزارعاً
ملأ حظيرته بالخنازير:
يطلب منه اليوم على سبيل الاقتراض الكثير من السُّكودات
التي سيعيدها له فيما بعد
عندما تمطر السَّماء
زبيباً وتيناً مجفَّفاً؛
وغداً يطلب منه بعض الشَّعير
ليعيده له في موسم الحصاد؛
وتارةً يطلب منه حماراً أو ثوراً
خدمةً لقصره؛

ويستمرُّ هذا العذاب طويلاً،
طويلاً يستمرُّ هذا الحصار المرير،
إلى أن يفورَ فائرُ المزارع،
فيهين وكيلَ المزرعة
أو يضربه. يا للشَّقيِّ،
كان خيراً له لو أنَّ أمَّه لم تلده،
أو لو أنَّ عظمة
رقبته اندقَّت! هو ذا، يُحْمَل
ويُلقَى به في حفرة،
مقيَّدَ الرِّجلَين،
ومطوَّقَ الرَّقبة بالحديد،
والأصفاد على معصميه
ومرثيَّةٌ معلَّقةٌ على البوَّابة تقول:
«إبلاغٌ وأمرٌ: حذار، ابتعد من هنا! كلُّ من يتحدَّث إليه
يدفع عشرة دوقيَّات».
باختصارٍ، فليصرخ بقدر ما يحلو له،
وليرسل التَّذكارات، وليحاول شتَّى الطُّرق،
فلن يُطلق سراحُه أبداً
إلَّا عندما، بعد كثيرٍ
من حرقةِ العذاب والآهات،
من النَّفقات والآلام،
يقبل بعقد صفقة.
عندئذٍ، بعد أن تكون شهوته،

شهوةُ الذِّئب، قد شبعت وبَشِمَت،
ينالُ القاتلُ العفوَ.
ناردوتشو: أيُّها الخُطَّاف اللَّعين!
اللَّعنة على الورشة الشَّائنة
حيث طُرِقْتَ وصُقِلْتَ!
تشيكُّو أنطوُوْنو: أصغِ. مثلما من الثَّور الكبير
يتعلَّم العجلُ الصَّغيرُ الحَرْثَ،
كذلك الضَّابطُ أو كاتبُ المحضَر
يرشو الشُّهود، ويتلاعب بالأوراق،
ويؤجِّر الأحكام،
ويخفي المَحَاضِر،
وبلا سببٍ يَزُجُّ في السُّجون،
والخُطَّافُ هنا يساوي سبعة[1]،
وبينما ينبغي
أن يُجَرَّ هو إلى السِّجن، يعلن نفسه
خبيراً في مجال عمله،
رجلًا بارعاً وحصيفاً في أحكامه.
ناردوتشو: هذا أكثر من صحيح،
وإذا عاد رجلٌ صالحٌ إلى بيته
بمحفظةٍ نظيفةٍ
نظافةَ ضميره،
وهو أمرٌ حدث لي

---

1) كما في بعض أنواع ورق اللَّعب حيث «ورقة السَّبعة»، وبالأخصّ الدِّيناري، لها قيمةٌ أكثر من مثيلاتها؛ (كروتشِه).

ربمّا اثنتي عشرة مرَّة[1]، يقول الجميع
إنَّه من الأفضل له أن يبقى خارج الموضوع،
وإنَّ هذه ليست مهنته،
وإنَّ من المؤسف إعطاءه الرُّخصة[2]،
لإنَّ من لا يحصد الأرباح لا يصلح لشيء.
تشيكُّو أنطوُوْنو: إن كان الطَّبيبُ داهيةً،
أطالَ أمدَ المرض
وتقاسمَ الأرباحَ مع الصَّيدلانيِّ؛
وحتى لو كان طيِّباً، فإنَّه يُظهر
أنَّه من بين العديد من الوصفات التي يعرفها
يعرف أيضاً ذلك السِّرَّ
عندما يمدُّ يده من وراء ظهره.[3]
ناردوتشو: لا يمكنك أن تتكلَّم بسوءٍ عن هذا الخُطَّاف،
لأنَّه متواضعٌ وشريفٌ،
بل يمكن أن تسمِّيه
مكافأة القَدَر:
تدفعُ خلسةً لمن يجعلك تتغوَّط!
شيكُّو أنطوُوْنو: التَّاجر لا يفقد
قبَّعته في الزِّحام؛

1) يشير بازيلِه هنا إلى تجربته كحاكمٍ نبيلٍ لإقطاعيَّات مملكة نابولي، الأمر الذي واظب عليه لأكثر من اثنتي عشرة مرَّة؛ (كروتشِه).

2) رخصة مزاولة المهنة نفسها، كضابطٍ أو متصرِّف؛ (كروتشِه).

3) طريقةٌ محترمةٌ ليتلقَّى أجره عن زيارةٍ طبِّيَّةٍ دون أن يبدو أنَّه يقبض مالاً كأيِّ بائع بضاعةٍ أو مقدِّمِ خدمات؛ (كروتشِه).

يعطي بضاعةً باليةً؛
يدهن القماش بالغراء
ليزيد من وزنه:
يقسم، يتوسَّل، يؤكِّد
أنَّ المتعفِّن طازجٌ،
وأنَّ الفاسدَ صحِّيٌّ،
وبكلماتٍ منمَّقةٍ وأفعالٍ دنيئةٍ
يخدعك ويُظهر لك
الأسودَ أبيضَ، مع أنَّك تجد دائماً
بعض العيوب في بضاعته،
وعندما يقيسها
فبلفتةٍ أنيقةٍ
يسحب القماش لتجده بعد ذلك ناقصاً.
ناردوتشو: ولذلك لا عجب
إذا أشاحت السَّماء بوجهها عنه
وبسبب زلَّةٍ واحدةٍ فَقَدَ طريدتَه.
تشيكُّو أنطوُونو: الجزَّار يبيعك
شاةً عجوزًا مريضةً
على أنَّها خروفٌ فتيٌّ مخصيٌّ،
ثورًا على أنَّه عجلٌ،
ويُظهر لك كلَّ شيءٍ
مغلَّفاً بأوراق الذَّهب والزُّهور
ليجعل لعابكَ يسيل،

يبيعكَ العظمَ على أنَّه هبرةٌ غير آبهٍ بلائحة الأسعار
ودائماً ما تتجاوز الإضافةُ الرِّطْلَ،
وليحمنا الرَّبُّ من طريقة كيله!
يتلاعب بأصابعه ويُخسر الميزان.
ناردوتشو: إنَّها أشياء تجعل رئتيك تنفجران!
ولذلك يبدون في الحفلات كالبارونات.
تشيكُّو أنطوُونو: وبائع الزَّيت يعمي بصيرتك عندما يكيل؛
وليُريك أنَّه يصبُّ لك الزَّيت طَفْحاً
وأنَّه بلغَ العلامةَ،
يكبسُ قعرَ كوبِ القياس إلى الدَّاخل،
ويرفعه كثيراً حتى تظهر له حدبة؛
ودائماً يمزج الزَّيت بالسَّميد،
فيُكسبه كثافةً ولوناً:
ترى رغوةً ذهبيَّةً،
وبعد أن تملأ جرَّةً جميلةً
تجد العُكارة،
بل تجد مزيجاً من الماء والكُدارةِ لو كان
داخل مصباحٍ أسود رديءٍ
لأنَّ وضرطَ وقذفَ الشَّرار.
ناردوتشو: لم يعد هناك شبرٌ واحدٌ نظيفٌ،
كلُّ ما هو جيِّدٌ اندثر:
أوه أيُّها العالم الفاسد، كم تغيَّرت!
تشيكُّو أنطوُونو: دِنانُ الخمَّار نصف فارغةٍ،

ويتاجر بها طوال اللَّيل
وإذا وجد الدَّنَّ
قد أمسى خَلَّاً أو عَفَناً،
يصنع منه بزلال البيض لبخةً،
ولكنَّه، في المقام الأوَّل، يمزج
النَّبيذ الجيِّد بالنَّبيذ السَّيِّئ، ويجعل من الخلِّ نبيذاً أبيض،
بل من الماء نبيذاً،
وبأصابعه يغطِّي عنقَ الغرَّافة
ليخدع بصرك،
فلا ترى المقياس التَّعيس.
ناردوتشو: بائسون أولئك الذين يقعون في مصيدته،
إذ يلزمهم معه
معدةٌ من حديدٍ وكيسٌ من الذَّهب!
تشيكُّو أنطوُونو: الخيَّاط يقتطع من القماش،
ويرى في كلِّ قطعةٍ إن كان له قطعة:
يضع الخيط مكان الحرير،
وإذا أخذته معك لشراء القماش
رافقكَ والإبرة على صدره[1]؛
يجعل الاتِّفاق سخيَّاً
ويعود إلى التَّاجر ليقبض[2].
ولكنَّ هذا أهون الشُّرور:

---

1) لكي يشير إلى تاجر الأقمشة بأنَّه خيَّاط؛ (كروتشِه).

2) ليقبض عمولته؛ (كروتشِه).

سيغشُّك في الحساب بعد ذلك،
وستلعن وأنت تقرأ الفاتورة
السَّاعةَ التي أردت فيها أن تحسِّن مظهرك.
ناردوتشو: آه كم هي محظوظةٌ وسعيدةٌ الحيوانات
التي يمكنها التَّجوُّل عاريةً
في الغابات والوديان والسُّهول والمنحدرات
وهي ليست خاضعةً لهذا الخراب!
تشيكُّو أنطوُوْنو: استمع إلى تاجر الخردوات على طريقة أحياء اليهود،
إذا ما نزعَتْ بك نفسُك
إلى بيع شيءٍ ما:
تجد هناك شرذمةً
تأخذ على الفور بخِناقِك:
إذا اشتريت ثوباً
وجدتَه عَطِباً حالما ترتديه،
فلا يدوم معكَ إلَّا من عيد الميلاد إلى رأس السَّنة،
ومع الأذيَّة والعار
تجد نفسك مهندَماً ورثَّاً في يومٍ واحد.
ولكن لماذا ألمس الكثير من المفاتيح؟
تلزمنا رزمةٌ من الورق
للحديث عن كلِّ المهن
التي تُكرِّم هذا الخُطَّاف
ولحصرِ كلِّ البائسين والهزلى
والأثرياءِ والبُدُنِ الذين صنعهم.

ناردوتشو: يا له من اختراعٍ لعينٍ،
يسمِّم الشَّرف،
ويجعلك ترى
الحقَّ مظلماً، والصِّدقَ أسود!
تشيكُّو أنطوُوْنو: قل ما تشاء: فالجميع
يستخدمونه!
فلأمت مخنوقاً بحبلٍ
إذا لم أشتر واحداً منه اليوم!
ناردوتشو: خيرٌ لك لو تصيبك مصيبةٌ!
إن استخدمتَ الخُطَّاف في هذا العالم
سَحَبَكَ معه إلى القعر.

لا أستطيع أن أجزم أيَّهما أحببتُ أكثر من الهلام العذب لهذا اليوم، الرَّأسَ أم الذَّيل، لأنَّه إن كان أحدهما لذيذاً، فإنَّ الآخر قد نزل في نخاع العظام؛ وكانت كبيرةً متعةُ الأمير الذي، لكي يُظهر نفسه لطيفاً وسخيَّاً كما ينبغي لنبيلٍ حقيقيٍّ، استدعى المسؤول عن الملابس وأمر بمنح الحكَّاءات بطانة قبَّعةٍ قديمةٍ كانت لجدِّه: ولمَّا كانت الشَّمس قد دُعيت على عجلٍ إلى القطب الآخر لتغيث أراضيها التي احتلَّتها الظِّلال، فقد رُفعت المقاعد، واتَّخذ كلُّ امرئٍ طريق العودة إلى كوخه، مع نيَّة العودة في صباح اليوم التَّالي إلى المكان نفسه وللغرض نفسه.

نهاية اليوم الرَّابع

اليوم الخامس
من مؤانسة الصِغار

كانت الطُّيور قد بدأت بالفعل تُبْلِغُ سفير الشَّمس بكلِّ الأحابيل والأغاويِّ التي دُبِّرَت في اللَّيل، عندما توجَّه الأمير تاديو والأميرة لوتشيا في الصَّباح الباكر إلى المكان المعتاد، وعند تفقُّدهنَّ، وجد تسع نساءٍ فقط، بدلاً من عشر. سأل الأمير لماذا لا يرى ياكوفا بين الحاضرات، فأجابوه بأنَّها تعاني فرطَ تَدَفُّقِ الدَّم إلى الرَّأس (فلنشرب نخبها!)؛ فأمر بأن يبحثوا عن امرأةٍ أخرى لتحلَّ مكانها. ولكيلا يبتعدوا كثيراً، نادوا تسوتسا التي تقطن قُبالةَ القصر الملكيِّ، فاستقبلها تاديو بترحابٍ كبيرٍ، سواءٌ لما لها عليه من التزاماتٍ، أو لميل قلبه إليها وللمشاعر التي يكنُّها لها.

استمتعت مع الأخريات بوقتها في الحديقة، وقطفت الفوذَنْجَ الجبليَّ المزهر، والخزامى، والسَّذابَ الخماسيَّ الأوراق، وهذه وتلك من الأزهار؛ ومنهنَّ من ضفرت لنفسها إكليلاً، كما لو كانت ستؤدِّي دوراً في مسرحيَّةٍ هزليَّةٍ؛ ومنهنَّ من صنعت باقةً؛ وتلك عَلَّقَتْ بِدَبُّوسٍ وردةً على صدرها؛ وأخرى وضعت قرنفلةً مرقَّشةً بين شفتيها.

ولكن، لمَّا كان لديهم متَّسعٌ من الوقت، أربع ساعاتٍ تقريباً، حتى ينتصف النَّهار ويحين وقت تناول الطَّعام، أمرَ الأمير بلعب بعض الألعاب لتسلية زوجته، وأوكل المهمَّة إلى كولا ياكوفو، السُّفْرَجِيِّ، وهو رجلٌ ذو موهبةٍ عظيمةٍ، فقام هذا الأخير، كما لو أنَّ جيبه مليءٌ بالاختراعات، بإخراج واحدٍ منها على الفور، قائلاً:

"لطالما كان عديمَ الطَّعم، يا سيِّداتي، ذلك المذاق الذي لا تُرجى منه المنفعة، والتَّسالي ومجالس السُّمَّار لم تُبتدَع من أجل متعةٍ بسيطةٍ وغير مجدية، ولكن لتحقيق ربحٍ وفيرٍ أيضاً؛ لأنَّه، مع هذا النَّوع من التَّسلية، لا يُزَجَّى الوقت فحسب، بل توقَظ وتُشحَذ حدَّة العقل لتعرف كيف تصنع الحلول وتجيب على ما تُسأل به. وهذا هو الحال بالضَّبط مع لعبة الألعاب التي أزمعت على القيام بها، والتي ستكون على هذا الشَّكل. سأقترح على إحدى هؤلاء النِّساء الحاضرات هنا لعبةً ما، وعليها، دون التَّفكير في الأمر، أن تقول لي على الفور إنَّها لم تعجبها، ولماذا لم تعجبها؛ والتي تتأخَّر في الإجابة، أو التي تخرج في جوابها عن الموضوع، ستدفع تكفيراً عن خطئها أيَّ غرامةٍ تفرضها عليها سيِّدتنا الأميرة. وللبدء باللُّعبة، أريد أن ألعب مع السَّيِّدة تسيتسا لعبةَ *المنتصر*[1] مراهَنةً على نصف بنسٍ".

فأجابت تسيتسا على الفور: "لا أريد أن ألعب، فأنا لست لصَّة!".

"مرحى! – قال تاديو، – لأنَّ من يسرق ويقتل هو الذي ينتصر".

"إذا كان الأمر كذلك – ردَّ كولا ياكوفو، – فمعي قطعة نقودٍ تعادل ربعاً ونصف الرُّبع وأريد أن ألعب بها لعبةَ *الإفلاس* مع السَّيِّدة تشيكَّا".

"لا يمكنك أن توقع بي – أجابت تشيكَّا، – فأنا لست تاجرة".

"إنَّها محقَّةٌ – قال تاديو، – لأنَّ هذه اللُّعبة إنَّما ابْتُكِرَتْ لأمثال هؤلاء".

"على الأقلِّ، يا سيِّدة مينيكا – ردَّ كولا ياكوفو، – دعينا نلعب لبضع ساعاتٍ لعبةَ *السُّخط*".

"سامحوني، فهذه لعبةٌ تليق بالحاشية"، أجابت مينيكا.

---

1) هذه وما يليها ألعاب ورقٍ لا نرى ضرورةً لوصفها؛ (كروتشِه).

"لقد أصابت كبدَ الحقيقة – قال تاديو، – لأنَّ هذا الصِّنف من النَّاس لم يكن طيِّب السَّريرة يوماً".

"أعلم – تابعَ كولا ياكوفو – أنَّ السَّيِّدة تولَّا سيسرُّها أن تلعب معي لعبة *الكِباش الأربعة* مراهَنةً على ستَّة بنساتٍ".

"نجِّني يا الله! – هتفت تولَّا، – فهذه لعبة الأزواج الذين لديهم زوجاتٌ سيِّئات".

"لا يمكنكِ أن تأتي بجوابٍ أفضل من هذا – قال تاديو، – لأنَّ هذه اللُّعبة ابتُكِرَتْ لهؤلاء الذين كثيرًا ما يتناطحون كالكِباش".

"على الأقلِّ، يا سيِّدة بوبا – ردَّ كولا ياكوفو، – فلنلعب لعبةَ عشرون رجُلاً، وأنا سأمدُّ لكِ يداً".

"ليتك لم تنطق – أجابت بوبا، – فهذه لعبة الملَّاقين".

"لقد تكلَّمتِ مثل أورلاندو – علَّق تاديو، – لأنَّ هذا هو بالضَّبط ما يفعله عشرون وثلاثون رجُلاً، إذ يغيِّرون دائماً وجوههم ليوقعوا أميراً مسكيناً في حبالهم".

ومستأنفاً حديثه، قال كولا ياكوفو: "بحياتكِ، يا سيِّدة أنطونيلَّا، دعينا لا نضيِّع هذا الوقت: فنلعب مراهَنةً على طبقٍ جميلٍ من الكَعْكَةِ المُحَلَّاةِ المَقْلِيَّة لعبةَ *الضَّرائب*".

"لقد أصبتَ الهدف! – أجابت أنطونيلَّا، – حمداً لله أنَّك تعاملني كامرأةٍ أجيرة".

"إجابتكِ ليست سيِّئةً – علَّق تاديو، – لأنَّ هذا الصِّنف من النِّساء غالباً ما ينتهي به الحالُ تحت الضَّريبة".

"تبّاً، هيَّا احصل عليها! – تابع كولا ياكوفو: – بدأتُ أعتقد أنَّ السَّاعة ستمرُّ دون أن نحصل على أيِّ متعةٍ إذا لم تلعب معي السَّيِّدة تشولَّا لعبةَ *الاستدعاء* مراهَنةً على كَيلةِ ترمسٍ".

"ماذا؟ هل تحسبني شرطيَّةً؟"، أجابت تشولَّا.

وأضاف تاديو على الفور: "لقد كانت إجابتها رائعةً حقَّاً، لأنَّه عملُ المُحْضِرين ورجالِ الشُّرطة استدعاء النَّاس إلى المحكمة".

"تعالي إلى هنا يا سيِّدة باولا – عاد كولا ياكوفو يقول، – ولنلعب مراهَنةً على ثلاث عشراتٍ لعبةَ *الخُفراء*".

"لقد أخطأتَ الهدف – أجابت باولا، – فما أنا بنمَّامة بلاط".

"هذه عبقريَّةٌ – أجاب الأمير، – لأنَّه ما من مكانٍ يُلَطَّخُ فيه شرف النَّاس أكثر من بيوتنا".

"بلا شكٍّ إذاً – ردَّ كولا ياكوفو، – ستكون السَّيِّدة تشومِّتلَّا سعيدةً بلعب لعبةِ *العرية* معي".

"أبداً – أجابت تشومِّتِلَّا: – لقد وجدتَ لي لعبةً جميلةً لمعلِّم مدرسة!".

"هذه يجب أن تدفع الغرامة – قال كولا ياكوفو، – لأنَّه لا علاقة لجوابها باقتراحي".

"اذهب واستردِدْ أموالك من المعلِّم! – حكمَ الأمير، – فالجواب مناسبٌ تماماً، لأنَّ المتحذلقين يلعبون لعبة *العرية* ببراعةٍ، لدرجة أنَّهم، حتى لو خسروا خمس نقاطٍ، يفوزون باللُّعبة".

ولكنَّ كولا ياكوفو التفت إلى الأخيرة وقال لها: "لا أستطيع أن أصدِّق أنَّ

السَّيِّدة تسوتسا تريد أن ترفض، مثل الأخريات، دعوتي لها لتلعب معي لعبة *التَّعرِّي* على ليرةٍ فضِّيَّة".

"انتبه إلى نفسك – أجابت تسوتسا، – فهذه لعبة أطفال".

"هذه نعم، يجب أن تدفع الكفَّارة – قرَّرَ تاديو، – لأنَّه حتى كبار السِّنِّ يمكنهم لعب هذه اللُّعبة؛ وعليه فإنَّ الأمر متروكٌ لكِ، يا سيِّدة لوتشيا، لفرض العقوبة".

نهضت تسوتسا وذهبت لتركع أمام الأميرة التي أمرتها بأن تغنِّي أغنية "الفلَّاحة" على الطَّريقة النَّابوليتانيَّة. فطلبت الدَّفَّ، وبينما راح حوذيُّ الأمير يعزف على القيثار، غنَّت:

إذا بدا لكِ أنَّك تستطيعين ضربي بالمطرقة
وأنَّني سأولِّي هاربةً
فقط لأنَّكِ تدَّعين العظمة وتجعِّدين أنفك،
فاذهبي، يا ابنتي، وليهدَّكِ آذار هدًّا!
لقد ولَّى الزَّمن الذي كانت فيه بيرتا تغزل
والطير يحرث.
ولم أعد أحسُّ بسهم الحُبِّ ولا بلهيبه:
أرضي أقفرت، وأمِّي رحلت.
اغربي، فحتَّى الهُرَيرات فتحت عيونها،
واستيقظت الجداجد.
وإذا لم تعطي أملاً لهذا الجمال،
فحذاريكِ السُّقوطَ أينما ذهبتِ واختبأتِ!
لقد اقتلعتُ ضرسَ العقل

ولن أتحرَّك إذ تومئين لي بعد الآن،
فقد عرفتُ التِّينَ من الثُّوم:
انزعي الفكرةَ من رأسك، فلن تنالي شيئاً بعد الآن![1]

انتهت الأغنية وانتهى استمتاع الجمع بها عندما مُدَّت الموائد بما لذَّ وطاب من الطَّعام والشَّراب. ولكن، ما إن خُتِمَتِ المعدة ورُفِعَت مفارش الموائد حتى أعطيت الأوامر لتسيتسا بأن تكشف عن أجمل أزهار حكاياتها؛ ومع أنَّها كانت ثملةً بعض الشَّيء، وأصبح لسانها ضخماً وأذناها صغيرتين، أدَّت واجبها وتكلَّمت على النَّحو التَّالي.

---

1) في هذه الأغنية تلمِّح تسوتسا للأميرة برغبتها في تدمير حياتها لتحلَّ محلَّها، وفي النِّهاية بدلاً من أن تعاقبها الأميرة على جوابها الخاطئ تصبح هي المعاقَبة إذ تفضحها تسوتسا بحكاية قصَّتها وتتسبَّب في النِّهاية بموتها؛ (المترجمان).

الإوزَّة
المؤانسة الأولى من اليوم الخامس

تشتري ليلَّا ولولَّا من السُّوق إوزَّةً تتغوَّط نقوداً؛ فتستعيرها منهما إحدى الجارات، وتُمنَى معها بنتيجةٍ معاكسةٍ، فتقتلها وترميها من النَّافذة. ولكنَّ الإوزَّة تلتصق بمؤخِّرة أحد الأمراء وهو يقضي حاجته، ولا يتمكَّن أحدٌ من فصلها عنه، إلى أن تأتي لولَّا وتنجح في ذلك، فيتَّخذها زوجةً له.

حكمةٌ عظيمةٌ من رجلٍ عظيمٍ، صالحٍ ونزيهٍ، أنَّ الحرفيَّ يحسد الحرفيَّ، ومنظِّف المراحيض يحسد منظِّفَ المراحيض، والموسيقيَّ يحسد الموسيقيَّ، والجار يحسد الجار، والفقير يحسد الشَّحَّاذ، لأنَّه لا يوجد ثقبٌ في زوايا العالم لا يَنْسُجُ فيه شبكته عنكبوتُ الحسد اللَّعين الذي لا يتغذَّى إلَّا على أنقاض جاره، كما ستسمعون على وجه الخصوص في هذه الحكاية التي سأحكيها لكم:

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، أختان لصقتا بالدَّقعاء لشدَّة فقرهما، وبشقِّ الأنفس كانتا تستطيعان تدبير أمورهما، فقد كانتا تبصقان من الصَّباح إلى المساء على أصابعهما لغزل بعض الخيوط وبيعها. ومع ذلك، وبرغم هذه الحياة البائسة، ما كان لأيِّ ظرفٍ أن يدفعهما إلى الخروج من المنزل سوى كُرَة الضَّرورة عندما تصطدم بكُرَة الشَّرف[1]. ولهذا السَّبب وضعت السَّماء، وهي رحيبةٌ جدَّاً في إثابة الخير مثلما هي دقيقةٌ

1) عباراتٌ من لعبة البليار؛ (كروتشه).

في معاقبة الشَّرّ، في رأس هاتين الفتاتين الفقيرتين الذَّهاب إلى السُّوق لتبيعا بعض شلَّات الغزل وتشتريا إوزَّةً بالثَّمن القليل الذي ستحصلان عليه.

بعد أن أحضرتا الإوزَّة إلى المنزل، منحتاها الكثير من الحُبِّ، وعاملتاها كما لو كانت أختهما من لحمهما ودمهما، وجعلتاها تنام معهما في السَّرير نفسه. ولكنَّ الفجر يبزغ ويأتي معه نهارٌ جميل: فقد بدأت الإوزَّة الطَّيِّبة تتغوَّط سكوداتٍ مموَّجة الحوافِّ، فملأتا منها، شيئاً فشيئاً، صندوقاً كبيراً؛ وكان ذلك التَّغوُّط كبيراً لدرجة أنَّهما بدأتا ترفعان رأسيهما وصار النَّاس يرون شعرهما يلمع.

لاحظت بعض الجارات ذلك، فقالت إحداهنَّ للأخرى حين التقين في يومٍ من الأيَّام لتبادل الحديث: «أرأيتِ، يا جارتي فاستا، الأختين ليلَّا ولولَّا اللَّتين كانتا، لغاية يوم أمس، لا تجدان مكاناً لتقعا فيه ميِّتتَين، كيف أصبحتا الآن نظيفتين وتختالان كالسَّيِّدات؟ نوافذهما مزيَّنةٌ دائماً بالدَّجاج وبشرائح اللَّحم التي تأخذ بالأبصار. فما قصَّتهما يا تُرى؟ إمَّا أنَّهما وضعتا أيديهما على برميل الشَّرف وإمَّا أنَّهما وجدتا كنزاً». «لقد جمدتُ كالمومياء – أجابت بيرنا، – فحيث كانتا من قبلُ تموتان من الجوع، أراهما الآن تسبحان في الدُّهن والثَّراء، وهذا يبدو لي كحلم».

قلن هذه الأشياء وأشياءَ غيرها، وفي النِّهاية، يستحثُّهنَّ الحسد، حفرن نفقاً يمتد من بيت إحداهنَّ إلى بيت تينك الفتاتين ليتجسَّسنَ عليهما ويَرَيْنَ إن كان بإمكانهنَّ إشباع فضولهنَّ ببعض الطَّعام؛ وظللن يتجسَّسن أمدًا طويلاً إلى أن رأين في إحدى الأمسيات، عندما تضرب الشَّمس بعصا أشعَّتها على قوارب بحر الهند لمنح إجازاتٍ لساعات النَّهار، ليلَّا ولولَّا تفرشان ملاءةً على الأرض وتضعان الإوزَّةَ عليها، وهذه الأخيرة تبدأ في رشق السُّكودات من مؤخِّرتها.

جعل هذا المشهد غير المتوقَّع عيون الجارات تخرج من المحاجر وغُدَدهنَّ الدَّرقيَّة من الحُلوق في الوقت نفسه؛ وفي الصَّباح، عندما يناشدُ أبوللو بعصاه الذَّهبيَّة العتمةَ أن تنسحب، ذهبت إحداهنَّ، واسمها باسكا، لتزور الفتاتين، وبعد ألف ديباجةٍ وكثيرٍ من اللَّفِّ والدَّوران، والشَّدِّ والجذب، وصلت إلى لبِّ الكلام وطلبت منهما أن تعيراها الإوزَّة لساعتين فحسب، لأنَّها اشترت بعض فراخ الإوزِّ وتريد أن تحبِّبها بالمنزل. وظلَّت تتكلَّم وتتوسَّل لدرجة أنَّ الأختين السَّاذجتين، اللَّتين كانتا لطيفتين بطبعهما ولا تستطيعان أن تقولا «لا»، ولكيلا يزرعن الشَّكَّ أيضاً في نفس الجارة، أعارتاها الإوزَّة، بشرط أن تعيدها لهما في أسرع وقتٍ ممكن.

دعت الجارات الأخريات، وفرشن معاً ملاءةً على الأرض، ووضعن الإوزَّة عليها، وهذه، بدلاً من أن تُظهر في مؤخِّرتها داراً لسكِّ النُّقود، فتحت قناةَ مرحاضٍ وملأت غسيلَ أولئك النِّسوة بسكوداتٍ من طينٍ أصفر انتشرت رائحته في كلِّ أنحاء الحيِّ، كما تنتشر، في أيَّام الأحد، رائحة قدور الحساء. فظننَّ عندئذٍ أنَّ إطعامها جيِّداً سيجعلها أفضل من حجر الفلاسفة لإشباع رغباتهنَّ؛ فقمنَ بحشوها حتى وصل الطَّعام إلى حلقها، ثمَّ وضعنها مرَّةً أخرى على الملاءة. ولكن، إن كانت في البداية قد أظهرت لهنَّ أمعاءً زَلِقةً، فقد بدت الآن وكأنَّها أصيبت بالزُّحار، إذ كان عليها أن تهضم كلَّ ذلك. فشعرت الجارات بالسُّخط، ولَوَيْنَ رقبتها وألقينها من النَّافذة في زقاقٍ مسدودٍ تكدَّست فيه القمامة.

وتشاء الصُّدفة، تلك التي تجعل الفول ينمو حيث لا يتوقَّع المرء، أن يمرَّ ابن الملك، وهو في طريقه إلى الصَّيد، بتلك الأنحاء. وبالقرب من هناك، شعر بنداء الحاجة، فسلَّم سيفه وحصانه إلى أحد الخدم، ودخل ذلك الزُّقاق الصَّغير ليُفرغ فائض بطنه؛ وبعد أن انتهى من هذه العمليَّة، ولم يجد في جيبه ورقةً يستنجي بها، رأى تلك الإوزَّة التي قُتِلَت قبل لحظاتٍ، فاستخدمها لهذا الغرض.

ولكنَّ الإوزَّة، التي لم تكن ميِّتةً، أمسكت أليةَ الأمير المسكين بقوَّةٍ بمنقارها، فبدأ يصرخ، وهرع جميع الخدم إليه، وعبثاً حاولوا فصلها عن لحمه، لأنَّها كانت ملتصقةً به التصاقَ سلماسيس كثيرةِ الرِّيش بهرمافروديت كثير الوبر[1]. لم يستطع الأمير تحمُّل الألم، وإذ رأى أنَّ جهود الخدم تذهب سدىً، طلب نقله إلى القصر الملكيِّ، وتمَّ استدعاء جميع أطبَّاء المدينة الذين هرعوا إلى القصر وفعلوا كلَّ ما في وسعهم لعلاج هذا الحادث الغريب باستخدام المراهم والملاقط ونثر المساحيق. ولكنَّ تلك الإوزَّة كانت مثل قُرادةٍ لا يمكن نزعها حتى بالزِّئبق، أو علقةٍ لا يمكن قلعها حتى بالخلِّ.

ثم أمر الأمير بإعلان فرمانٍ يمنح بموجبه مَن يريحه من هذا الإزعاج من الخلف نصفَ مملكته إن كان رجلاً، فإن كانت أنثى اتَّخذها زوجة. وهنا، بدأ النَّاس يتوافدون حشوداً ليحشروا أنوفهم في تلك الرَّبكة؛ ولكن، كلَّما كانوا يزيدون في ضروب العلاجات، كانت الإوزَّة تزداد تشبُّثاً بالأمير المسكين: بدا حقَّاً أنَّ جميع وصفات جالينوس وأقوال أبقراط وبلاسم ماسويه[2] ضدَّ مؤخِّرات[3] أرسطو، قد اجتمعت لتعذيب ذلك البائس.

ومن بين الكثيرين الذين جاؤوا ليجرِّبوا حظَّهم، جاءت لولَّا، صُغرى الأختين، والتي ما إن رأت الإوزَّة حتى عرفتها وصرخت: «أيَّتها الهاربة، يا

---

1) سلماسيس، في الأسطورة الإغريقيَّة، حوريَّةُ نافورةٍ من فريجي، افتتنت بهرمافروديت عندما وصل إلى جانب النَّافورة، فاحتضنته وطلبت من الآلهة أن تبقى معه إلى الأبد، فلبَّت الآلهة طلبها وصهرتهما معاً في جسدٍ واحدٍ، فلعن هرمافروديت نافورة سلماسيس وتمنَّى أن يلاقي أيَّ شخصٍ يستحمُّ في مياهها مصيره نفسه؛ (المترجمان).

2) أبو زكريَّا يحيى بن ماسويه الخوزيُّ، طبيبٌ عالمٌ ومترجمٌ سريانيٌّ، وكان صيدلانيَّاً في جنديسابور ثمَّ عمل طبيباً في بغداد، ويعود له الفضل في تطوُّر العديد من العلوم في العالم الإسلاميِّ في العصر العباسيِّ الأوَّل؛ (المترجمان).

3) تلاعبٌ بالكلمات بين عنوان كتاب أرسطو «البرهان Analitica posteriora» وكلمة Posteriore التي تعني بالإيطاليَّة: مؤخِّرة، خلفيٌّ، لاحق؛ (المترجمان).

هاربتي!». وحالما سمعت الإوزَّة هذا الصَّوت، أرخت منقارها وقفزت إلى حضن لولَّا وراحت تداعبها وتقبِّلها، منتقلةً دون حرجٍ من مؤخِّرة الأمير إلى فم الفلَّاحة.

وإذ رأى الأمير هذه الأعجوبة، أراد أن يعرف من أين بدأت القصَّة؛ وبعد أن علم بخدعة الجارة، أمر بجلدها في السَّاحة ثمَّ نَفْيِها خارج البلاد، واتَّخذ لولَّا زوجةً له، وأخذ منها الإوزَّة دوطةً تتغوَّط ذهباً، وأعطى ليلَّا زوجاً ثريَّاً آخر.

وهكذا أصبحتا من أسعد النَّاس في العالم، برغم كيد الجارات اللَّواتي ذهبن ليغلقن طريق الثَّراء أمام لولَّا، ففتحت لها السَّماء طريقاً آخر لتصبح ملكةً وعرفت في النِّهاية أنَّ

العوائق غالباً ما تعود بالمنافع.

الأشهُر
المؤانسة الثَّانية من اليوم الخامس

لكونه فقيراً ولم يتلقَّ أيَّ مساعدةٍ من أخيه الثَّريِّ تشانَّه، يرحل ليزهِ ويصادفه حظٌّ طيِّبٌ فيصبح غنيَّاً جدًّا؛ وبدافع الحسد، يحاول الآخر خوض التَّجربة نفسها، ولكنَّه يجد نفسه في ورطةٍ كبيرةٍ لا يتمكَّن من الخروج منها إلَّا بمساعدة أخيه.

كان الضَّحك الذي اعترى المستمعين لقصَّة الحادثة التي حدثت مع الأمير متشنِّجاً لدرجة أنَّ الجميع كانوا على وشك الإصابة بفتق، وكان من الممكن أن يستمرَّ موشَّح الضَّحك حتى تنفجر سُرَّاتهم لو لم تُشِر تشيكًّا إلى أنَّه دورها في سرد حكايتها؛ وهكذا، بعد أن فرضت الصَّمت على أفواه الجميع، بدأت تقول:

إنَّه قولٌ يستحقُّ أن يُنقَشَ بأحرفٍ كبيرةٍ كتلك التي تُنقَش بها الأقوال على النُّصب التَّذكاريَّة، أنَّ الصَّمت لم يَجْنِ على أحد. ولكن لا تظنُّوا أبدًا أنَّ بعض الهمَّازين، أولئك الذين لا تعرف ألسنتهم أبداً قول الخير، ودائمًا ما تقدُّ وتخيط، وتقصُّ وتلدغ، يمكن أن ينالوا مبتغاهم؛ فعند تفريغ الأكياس، وهو ما رأيناه دائمًا وما نزال نراه، ينال قولُ الخير المحبَّةَ والرِّبحَ، وقولُ الشَّرِّ العداوةَ والخراب. اسمعوا كيف يحدث ذلك، وسوف تقولون إنَّ معي قنطارَ حقٍّ.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان،

شقيقان، أحدهما تشانِّه، وكان ذا نعمةٍ وثراءٍ مثل كونتٍ، والآخر ليزه، ولم يكن يملك حتى ما يقوم بأوده؛ ولكن بقدر ما كان هذا فقير الحظِّ، كان الآخر فقيرَ الإحساس، لدرجة أنَّه لم يكن لينهض عن إناء اللَّيل ليسمح لشقيقه بقضاء حاجته. فغادر ليزِه المسكين بلده يائساً وانطلق يضرب في الآفاق؛ ومشى كثيراً إلى أن وصل في إحدى الأمسيات، في طقسٍ سيِّئٍ للغاية، إلى حانةٍ وجد فيها اثني عشر شابَّاً جالسين حول النَّار.

وحين رأى هؤلاء ليزه منكمشاً على نفسه وشبهَ مخدَّرٍ من البرد، من ناحيةٍ بسبب قسوة الطَّقس ومن ناحيةٍ أخرى بسبب ثيابه المهترئة، دعوه إلى الجلوس بجانب النَّار، فقَبِلَ ليزِه الدَّعوة وجلس يدفِّئ نفسه. وبينما كان يتدفَّأ، سأله أحد أولئك الشَّباب، وكان شديد العبوس ووجهه القبيح يبعث على الرُّعب: "كيف يبدو لك، أيُّها الفلَّاح، هذا الطَّقس؟". "كيف يبدو لي؟ – أجاب ليزِهْ. – يبدو لي أنَّ كلَّ أشهُر السَّنة تقوم بواجبها؛ ولكنَّنا، نحن الذين لا نعرف ما قد نواجهه، نريد أن نفرض قوانيننا على السَّماء، ولأنَّنا نرغب في أن تكون الأشياء حسب ما نشاء، لا نصطاد عميقاً لنرى إن كان خيراً أم شرَّاً، مفيداً أم ضارَّاً، ما يراودنا من نزوات؛ ففي الشِّتاء، عندما تمطر، نطلب الشَّمس المحرقة؛ وفي شهر آب، نطلب انصباب السَّحاب؛ ولا نفكِّر في أنَّه، إن حدث ذلك، فإنَّ الفصول ستنقلب رأساً على عقب، وستتلف البذور، وتضيع المحاصيل، وتمرض الأجسام، وتنقلب الطبيعة رأساً على عقب. ولذلك فلنترك السَّماء تأخذ مجراها، فهي التي، بعد كلِّ شيءٍ، خلقت الأشجار لندرأ بحطبها قسوة الشِّتاء، ونتَّقي بورقها قيظ الصَّيف".

"إنَّك تتحدث كشمشون – قال ذلك الشَّابُّ؛ – ولكن لا يمكنك أن تنكر أنَّ هذا الشَّهر، شهر آذار الذي نحن فيه، وقحٌ للغاية، مع كلِّ هذا الصَّقيع والأمطار والثَّلج والبَرَد والرِّياح والضَّباب والعواصف وغيرها من البوائق: إنَّه ينغِّص عيشنا تماماً!".

"إنَّك تتحدَّث بالسُّوء عن شهر آذار المسكين هذا - ردَّ ليزه، - ولكنَّك لا تتحدَّث عن المنافع التي يجلبها لنا، فهو الذي، استهلالاً للرَّبيع، يُخرج الوردَ من أكمامه، وهو وحده السَّبب الذي يجعل الشَّمس تشعر بالسَّعادة من الطَّقس الحاليِّ لأنَّه يسمح لها بالدُّخول إلى بيت الكبش"[1].

أُعجِبَ الشَّابُّ كثيراً بكلام ليزه، لأنَّه هو بالتَّحديد كان شهرَ آذار شخصيَّاً، وقد انتهى به المطاف مع إخوته الأحد عشر في تلك الحانة، ولكي يكافئ طيبةَ ليزه الذي لم يعرف أن يتحدَّث بالسُّوء عن هذا الشَّهر الحزين الذي حتى الرُّعاة لا يحبُّون ذِكره، أعطاه صندوقاً جميلاً وقال له: "خذ هذا، وإن احتجت إلى شيءٍ ما، افتحه وستجده أمامك".

شكر ليزه ذلك الشَّابَّ بكلماتٍ في غاية التَّواضع، ووضع الصُّندوق تحت رأسه كوسادةٍ، وأخلد إلى النوم؛ وفي الصَّباح، عندما أتت الشَّمس بفرشاة أشعَّتها لتلوِّن ظلال اللَّيل بلونٍ فاتح، ودَّع أولئك الشُّبَّان واستأنف رحلته. وبعد خمسين خطوةً فقط من الحانة، فتح الصُّندوق الصَّغير وقال: "أوه يا صديقي! أيمكنني الحصول على هودجٍ مبطَّنٍ بالقماش، وبداخله القليل من النَّار، بحيث يمكنني أن أسافر متمتِّعاً بالدِّفء في وسط هذا الثَّلج؟".

وما إن أتمَّ كلامه حتى ظهر هودجٌ مع الحمَّالين الذين رفعوه ووضعوه فيه، فأمرهم بأن يسيروا به نحو منزله. وعندما حانت ساعة تحريك الفكَّين، فتح الصُّندوق الصَّغير مرَّةً أخرى وقال: "إليَّ بالطَّعام"، وإذا النِّعَمُ تهطل من السَّماء، وكانت هناك مأدبةٌ عظيمةٌ تكفي عشرة ملوكٍ متوَّجين.

ووصل في المساء إلى غابةٍ لم تكن تسمح للشَّمس بدخولها[2]، لأنَّها

---

1) عبارةٌ ساخرةٌ أخرى حول القرون؛ (كروتشِه).

2) تشبيهٌ بإعطاء تصريحٍ لإدخال الحيوانات وبالحجر الصِّحِّيِّ الذي كانوا يفرضونه على السُّفن التي تحمل بضائع مشبوهةً؛ (كروتشِه).

قادمةٌ من بلادٍ مشبوهةٍ[1]، ففتح الصُّندوق وقال: "أريد أن أستريح هذا المساء في هذا المكان الجميل، حيث يصنع النَّهر موسيقاه على الحصى مماشياً أغنية النَّسائم العليلة". وفي الحال ظهرت أريكةٌ قرمزيَّةٌ، تحت خيمةٍ من القماش المُشمَّع، مع فراشٍ محشوٍّ بالرِّيش، وعليها لحافٌ إسبانيٌّ وملاءةٌ ناعمة الملمس؛ وعندما طلب العشاء، مُدَّت له في لمح البصر، تحت خيمةٍ أخرى، مائدةٌ تليق بأمير، أوانيها من فضَّةٍ، وفيها ما لذَّ وطاب من طعامٍ انتشرت رائحته لمسافة مِائة ميل.

بعد الأكل والنَّوم، وعند الفجر، عندما يقوم الدِّيك، وهو جاسوسٌ للشَّمس، بتنبيه سيِّده إلى أنَّ الظِّلال قد ضعفت وتبدَّدت، وأنَّ الوقت قد حان ليبدأ، كجنديٍّ متمرِّسٍ، بمطاردتها وقتلها، فتح ليزه الصُّندوق الصَّغير وقال: "أريد ثوباً جميلاً، لأنَّ أخي سيراني اليوم وأريد أن أجعل لعابه يسيل". وفي لمح البصر كان له ذلك، فقد أُعطيَ بزَّةً تليق بالنُّبلاء، من مخملٍ أسود قشيبٍ، مع شرائط حمراء من وبر الجمل، وبطانةٍ من صوفٍ أصفر خفيفٍ مطرَّزةٍ أجمل تطريز، بحيث كان بإمكانك أن ترى فيه حقلاً من الزُّهور. وبعد أن لبسها، ركب الهودج ووصل إلى البيت.

عندما رآه تشانِّه مرتدياً تلك الملابس الفاخرة ومحاطاً بكلِّ وسائل الرَّاحة تلك، أراد أن يعرف أيَّ حظٍّ طيِّبٍ صادفه؛ فأخبره عن الشُّبَّان الذين وجدهم في تلك الحانة، وعن الهديَّة التي قدَّموها له، ولكنَّه كتم الحديث الذي تبادله مع ذلك الشَّابِّ. ولم يستطع تشانِّه الانتظار حتى ينصرف أخوه، فنصحه أن يذهب ويستريح لأنَّه كان متعباً جدَّاً، وفي الحال ركب الرِّيحَ ووصل إلى الحانة نفسها ووجد الشُّبَّان أنفسهم، فجلس وأخذ يتبادل الحديث معهم.

ولكن أمام السُّؤال نفسه الذي طرحه من قبلُ ذلك الشَّابُّ، أي عن رأيه

1) أي من الشَّرق؛ (كروتشِه).

بالشَّهر الجاري، شهر آذار، أجاب قائلاً: "أوه، شتَّتَ الله أمرَ هذا الشَّهر اللَّعين، عدوِّ مرضى الزُّهريِّ[1]، المُبْغَضِ إلى نفوس الرُّعاة، معكِّر الأمزجة ومدمِّر الأجسام: شهرٌ كهذا، كلَّما تمنَّيتَ الخراب لشخصٍ ما، قلتَ له: - اذهب، مَحَقَكَ آذار! - شهرٌ، عندما تريد أن تنعت شخصاً ما بالغرور، تناديه: "يا عَقَّارَ آذار!"؛ شهرٌ، باختصارٍ، سيكون من حظِّ العالم، من حظِّ الأرض وحظِّ البشر، لو يُمحَى موقعه من صفوف إخوانه!".

وما كان من شهر آذار، بعد أن سمع الإهانات التي أمطره بها تشانِّه، إلَّا أن كظم غيظه حتى الصَّباح عازماً على جعله يبتلع حديثه المنغِّص؛ وعندما همَّ تشانِّه بالمغادرة، أعطاه سوطاً جميلاً من الجلد، وقال له: "كلَّما رغبتَ في شيءٍ ما، قل: - أيُّها السَّوط، أعطني مِائة! - وسترى اللآلئ مصفوفةً على القصب".

شكر تشانِّه الشَّابَّ وأخذ يُعمِل مهمازَه، ولم يرغب في اختبار السَّوط قبل الوصول إلى بيته. وحالما وصل، حبس نفسه داخل غرفةٍ سرِّيَّةٍ ليَخْزُنَ فيها المال الذي كان يأمل الحصولَ عليه من السَّوط، وخاطبه قائلاً: "أيُّها السَّوط، أعطني مِائة!". وإن لم يكن السَّوط قد أعطاه مِائة، فمن الأكيد أنَّه طلب منه أن يعود لأجلِ الباقي، عازفاً ألحان موسيقارٍ على ساقيه ووجهه، حتى وصل صراخه إلى ليزِه الذي أيقن أنَّه لم يكن من الممكن كبح جماح السَّوط الذي كان يسرح ويمرح مثل جوادٍ جامحٍ، ففتح الصُّندوق الصَّغير وأوقفه.

ثمَّ سأل تشانِّه عمَّا حدث له، وعندما سمع القصَّة، أخبره أنَّ عليه أن يلوم نفسه قبل أن يلوم الآخرين، لأنَّه هو الذي جنى على نفسه بسلوكه المتغطرس، وفعل مثل الجمل الذي أراد أن يكون له قرنان، ففقد أذنيه،

---

1) كان يُعتقد أنَّ شهر آذار يزيد من حدَّة مرض الزُّهريِّ؛ (كروتشِه).

وأنَّ عليه في المرَّة القادمة أن يتعلَّم صونَ لسانه، المفتاح الذي فتح عليه مخزنَ هذه البليَّة؛ فلو أنَّه تكلَّم خيراً عن ذلك الشَّابِّ، لكان حصل ربمَّا على مثل ما حصل هو عليه من الحظِّ: خاصَّةً وأنَّ قول الخير سلعةٌ لا تكلِّف شيئاً، وعادةً ما تُثمر مكاسب لا يمكن تصوُّرها. وفي النِّهاية، عزَّاه قائلاً له ألَّا يطلب نِعَماً أكثر ممَّا أعطته السَّماء، لأنَّ صندوقه الصَّغير سيكون كافياً لملء ثلاثين بيتاً من بيوت البؤساء، ولأنَّه سيجعله سيِّداً على كلِّ ما لديه، لأنَّ الرَّجل الكريم خَازِنُهُ السَّماء؛ وأنَّه وإن كان يعتقد أنَّ أخاً آخر كان سيكرهه لما أظهره له من قسوةٍ أيَّامَ بؤسه، إلَّا أنَّه يرى أنَّ دناءته كانت رياح الرَّخاء التي ساقته إلى هذا الميناء، ولهذا فإنَّه يريد أن يعبِّر له عن امتنانه ويعترف له بفضله.

وحين سمع تشانِّه من أخيه كلَّ هذه الكلمات، طلب منه أن يغفر له جفاء الماضي، وبعدما تشاركا في عددٍ من المتاجر، تمتَّعا بالحظِّ الطَّيِّب معاً؛ ومنذ ذلك الحين أصبح تشانِّه يتكلَّم خيراً عن كلِّ شيءٍ، مهما كان ذلك الشَّيء سيِّئاً، لأنَّه

صحيحٌ أنَّ اللِّسان بلا عَظْمٍ، ولكن بإمكانه أن يقصم الظَّهر.

بينتو سمالتو
المؤانسة الثَّالثة من اليوم الخامس

ترفض بيتّا الزّواج، ولكنّها بعد ذلك تعجن زوجاً بيديها؛ ولأنّ الملكة تسرقه منها، فإنّها لا تعثر عليه إلّا بعد ألف مشقَّةٍ ومشقَّة، وعندئذٍ تستعيده بحيلةٍ بارعةٍ وتعود به إلى المنزل.

حالما أنهت تشيكّا هذه الحكاية التي أعجبت الجميع أيما إعجاب، وإذ رأت مينيكا التي كانت واقفةً على مِسْنَدِ سلاحها متأهِّبةً لإطلاق نار حكايتها، أنَّ آذان الجميع كانت مشدودةً إليها، تكلَّمت على النَّحو التَّالي:

كان دائماً أكثر صعوبةً على الإنسان أن يحتفظ بما اشتراه من أن يشتري شيئاً جديداً، لأنَّه صحيحٌ أنَّ الحظَّ في بعض الحالات يهرع إلى المساعدة، وغالباً ما يكون حليفاً للظُّلم، إلَّا أنَّه في حالاتٍ أخرى يتطلَّب عقلاً؛ ولذلك كثيراً ما ترون أناساً بلا عقلٍ يصعدون إلى مراتب الأثرياء، ولكن بعد ذلك، لافتقارهم إلى الذَّكاء، ينحدرون إلى الحضيض، كما في الحكاية التي سأحكيها لكم، فإذا كنتم ألبَّاء ومن الإشارة تفهمون، أدركتم ذلك بسهولة.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزّمان، وسالف العصر والأوان، تاجرٌ لديه ابنةٌ وحيدةٌ يرغب بشدَّةٍ في أن يراها متزوِّجة؛ ولكن كان كلَّما لمس أوتار هذا العود، وجدها بعيدةً مائة ميلٍ عن لحنه، لأنَّ تلك الفتاة الحمقاء، كإناث قرود المكَّاك البربريِّ، كانت تكره كلَّ الذُّيول؛ وكأرضٍ

محظورةٍ ومنطقة صيدٍ مَحْمِيَّة، كانت تمنع دخول أيِّ رجل؛ وكانت تريد دائماً إجازةً في محاكمها، ودائماً عطلةً في مدارسها، ودائماً إغلاقاً في مصارفها لأجل احتفالات البلاط؛ لدرجة أنَّ والدها كان الأكثر اغتماماً ويأساً في العالم.

ذات مرَّة، بينما كان يهمُّ بالخروج إلى السُّوق، سأل بيتًا (هكذا كانت تُدعى ابنته) عمَّا تريد أن يحضره لها عند عودته؛ فأجابت: "يا أبتِ العزيز، إذا كنت تحبُّني، أحضر لي نصف قنطارٍ من سُكَّر باليرمو، ونصف قنطارٍ من اللَّوز الأمبروزيِّ[1]، مع أربع أو ستِّ قوارير من ماء الورد وقليلٍ من المسك والعنبر، وأحضر لي أيضاً حوالي أربعين لؤلؤة، وياقوتتين زرقاوين، وكومةً صغيرةً من العقيق والياقوت، مع بعض الذَّهب المغزول؛ وقبل كلِّ شيءٍ، معْجَناً ومكشطةً من الفضَّة".

تعجَّب الأب من هذا الطَّلب الباهظ الحِمْل، ولكن، حتى لا يزعج ابنته، ذهب إلى السُّوق، وعند عودته، جاءها بكلِّ ما طلبته. وبعد أن حصلت على هذه الأشياء، حبست نفسها في غرفةٍ وبدأت بتحضير كمِّيَّةٍ كبيرةٍ من عجينة اللَّوز والسُّكَّر، ممزوجةً بماء الورد والعطور، وأنشأت تشكِّل شاباً جميلاً شعره من خيوط الذَّهب، وعيناه من الياقوت الأزرق، وأسنانه من اللُّؤلؤ، وشفتاه من الياقوت الأحمر، وآتته الكثير من جمال الخِلقة والخُلق لدرجة أنَّه لم يكن ينقصه سوى الكلام.

بعد أن فعلت ذلك، وكانت قد سمعت أنَّ تمثالاً آخر، بفضل صلوات أحد ملوك قبرص[2]، صار حيَّاً ناطقاً، صلَّت كثيراً لربَّة الحُبِّ، حتى بدأ التِّمثال يفتح عينيه، وحالما شهق خرجت من فمه الكلمات، وأخيراً،

---

1) صنفٌ من اللَّوز يُعَدُّ من أجود الأصناف؛ (كروتشه).

2) بجماليون؛ (كروتشه).

استرخت جميع أطرافه، وبدأ يمشي. وبفرحٍ عظيمٍ، كما لو أنَّها حصلت على مملكة، احتضنته وقبَّلته، ثمَّ أمسكته من يده وأحضرته إلى أمام والدها، وقالت له: "أيْ أبتِ وسيِّدي، لطالما قلتَ إنَّك تتوق إلى رؤيتي متزوِّجة؛ وها أنا، إرضاءً لك، اخترت العريس الذي هفا إليه قلبي".

الأب الذي رأى شابّاً جميلاً يخرج من غرفة ابنته ولم يكن رآه وهو يدخل، ظلَّ مبهوتاً؛ وبعد أن تأمَّل تلك الخلقة البديعة التي قد يدفع المرء ثروةً لكي يتمكَّن من تأمُّلها[1]، سلَّم بأنَّه يجب الاحتفال بزواجهما.

وأُقيم حفل زفافٍ كبيرٌ، وكان من بين الحضور ملكةٌ عظيمةٌ مجهولةٌ افتُتِنَتْ بجمال بينتو سمالتو (حسب الاسم الذي أطلقته عليه بيتًّا)، ولم تكن المسألة مجرَّد هوىً عابر. والحال أنَّ بينتو سمالتو، الذي لم يكن قد مضى ثلاث ساعاتٍ مُذ فتح عينيه على خبث العالم، لم يكن يعرف كيف يعكِّر الماء، وراح يرافق الغرباء إلى أسفل الدَّرج لوداعهم نزولاً عند طلب عروسه، وعندما فعل الشَّيء نفسه مع تلك السَّيِّدة، أخذته بيده وقادته بهدوءٍ شديدٍ إلى عربةٍ تجرُّها ستَّة خيولٍ كانت تنتظرها في الفناء، وزجَّت به في داخلها، ثمَّ أمرت الحوذيَّ أن ينطلق بهما إلى أرضها، وهناك، دون أن يفهم ما حدث له، أصبح بينتو سمالتو السَّاذج زوجها.

بعد أن انتظرت بيتًّا لفترةٍ من الوقت ولم تره يظهر مرَّةً أخرى، أرسلت أحدهم إلى الفناء ليرى إن كان مستغرقاً في الحديث مع أحدٍ ما، وطلبت من آخر أن يصعد إلى السَّطح لعلَّه ذهب إلى هناك لاستنشاق بعض الهواء النَّقيِّ، وألقت هي نظرةً على المرحاض لعلَّه قصدها ليدفع الجزية الأولى لضرورات الحياة. ولكن، عندما لم تعثر عليه في أيِّ مكانٍ، قدَّرت على الفور أنَّه سُرق منها لكونه جميلاً جداً. ولأنَّ أحداً لم يظهر ليخبِّر عنه

1) كما الحيوانات النَّادرة التي تُعرَض في الأسواق العامَّة؛ (كرونْشِه).

عندما أطلقوا النِّداءات المعتادة، عزمت على الخروج للبحث عنه في العالم، متنكِّرةً بزيٍّ متسوِّلة.

وعلى هذه الشَّاكلة انطلقت في رحلتها، ووصلت بعد بضعة أشهرٍ إلى منزل عجوزٍ طيِّبةٍ استضافتها بحنانٍ كبير، وبعد أن استمعت إلى مصيبتها، ورأت فوق ذلك أنَّها كانت حاملاً، أشفقت كثيراً على حالها، وعلَّمتها ثلاث عبارات. الأولى: "تريكَّه فارلاكَّه، البيت يمُطر"، والثَّانية: "آنُولا ترانولا، النَّافورة ترقص"، والثَّالثة "تافارو وتامبورو، الشَّمس تُشرق"[1]؛ وأضافت أنَّ عليها أن تقولها متى كانت في ورطةٍ كبيرةٍ، وسوف تجني منها فوائد كبيرة.

ومع أنَّ بيتَّا اندهشت من هذه الهديَّة التَّافهة، إلَّا أنَّها قالت في نفسها: "من يبصق في حلقك، لا يُرِدْ أن يراك ميِّتاً[2]، ومن يأخذ عليه ألَّا يتبرَّم: كلُّ وخزةٍ تنفع. من يدري أيَّ حظٍّ طيِّبٍ تنطوي عليه هذه الكلمات!". ثمَّ شكرت العجوز واستأنفت مسيرها.

بعد رحلةٍ طويلةٍ، وصلت إلى مدينةٍ جميلةٍ اسمها مونته روتوندو[3] وتوجَّهت مباشرةً إلى القصر الملكيِّ، وطلبت كُرمَى للَّه ملاذاً صغيراً في الإسطبل لأنَّها كانت على وشك الولادة. فأشفقت وصيفات البلاط عليها وأعطينها غرفةً صغيرةً تحت الدَّرج، وبينما هي هناك، رأت المسكينة بينتو سمالتو يمرُّ أمام الباب، فاجتاحها فرحٌ كبيرٌ أوشكت له أن تهوي عن شجرة الحياة، وشعرت أنَّها حقَّاً في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى العبارة الأولى التي لقَّنتها إيَّاها المرأة العجوز، فقالت: "تريكَّه فارلاكَّه، البيت يمُطر!". وعلى الفور

1) عباراتٌ يردِّدها الأطفال في أثناء اللَّعب؛ (المترجمان).

2) من الممارسات الشَّائعة في ذلك الوقت النَّفخ أو البصق في فم من سقط مغشيًّا عليه اعتقادًا بأنَّ ذلك يعيد الرُّوح إليه؛ (المترجمان).

3) تعني حرفيَّاً: الجبل المستدير؛ (المترجمان).

ظهرت أمامها عربةٌ ذهبيَّةٌ جميلةٌ مرصَّعةٌ بكاملها بالأحجار الكريمة، وكانت تسير من تلقاء نفسها في الغرفة، وكانت بهجةً للنَّاظرين.

نقلت وصيفات البلاط، حين رأين العربة، الخبرَ إلى الملكة التي، دون أن تضيِّع وقتاً، هرعت إلى غرفة بيتًّا، وحين رأت تلك الجوهرة الرَّائعة انبهرت بها وسألتها إن كانت ترغب في بيعها لها على أن تعطيها كلَّ ما يمكن أن تطلبه. فأجابت أنَّها، رغم كونها متسوِّلةً، كانت تفضِّل ملذَّاتها الخاصَّة على كلِّ ذهب العالم؛ ولذلك، إن كانت تريد العربة، فلتدعها تنام ليلةً واحدةً مع زوجها.

ظلَّت الملكة مبهوتةً من جنون هذه الفتاة المسكينة المغطَّاة بالأسمال والتي، من أجل نزوةٍ عابرةٍ، تخلَّت عن كلِّ هذه الثَّروة، ومع ذلك عزمت على الاستيلاء على تلك اللُّقمة الطَّيِّبة، ورأت أنَّها إذا أعطت الأفيون لبينتو سمالتو، فإنَّها ستجعل الفتاة المسكينة سعيدةً وستدفع في الوقت نفسه ثمناً قليلاً. وبحلول اللَّيل، عندما تخرج النُّجوم في السَّماء واليراعات في الأرض لتقدِّم استعراضاتها، أعطت الملكة المنوِّم لبينتو سمالتو وجعلته يستلقي، هو المطواع دائماً، بجانب بيتًّا؛ وبمجرَّد أن لمس الشَّابُّ الفراش، غطَّ في نومٍ عميقٍ مثل زُغبة.

فما كان من بيتًّا المنحوسة، وقد حسبت أنَّ تلك اللَّيلة ستمحو كلَّ عذاباتها الماضية، حين وجدته لابساً أذنيه، إلَّا أن أخذت تشكو بمرارةٍ لا توصف، وتلوم نفسها على كلِّ ما فعلته لأجله، ولم تغلق المعذَّبة فمها أبداً ولم يفتح النَّائم أذنيه أبداً حتى أشرقت الشَّمس لتفصل الظِّلَّ عن النُّور بروح التِّربنتين، وعندئذٍ نزلت الملكة وأخذت بينتو سمالتو من يده، قائلةً لبيتًّا: "ها أنتِ مسرورة".

"أتمنَّى لك المسرَّة نفسها طوال حياتك! – قالت بيتًّا في دخيلتها،

- لأنّني قضيت ليلةً وبيلةً سأظلُّ أتذكَّرها أيَّاماً طوالاً". ولمَّا لم تعد قادرةً على مقاومة الحُرقة المضطرمة في جوارحها، جرَّبت العبارة الثَّانية، قائلةً: "آنولا ترانولا، النَّافورة ترقص!". فظهر أمامها قفصٌ ذهبيٌّ مع طائرٍ جميلٍ مصوغٍ من الأحجار الكريمة والذَّهب، وكان يغنِّي مثل عندليب.

وحدث كما في المرَّة الأولى: رأت الوصيفات تلك الأعجوبة، وأخبرن الملكة التي ذهبت بدورها لتراها، وسألت السُّؤال ذاته ونالت الجواب ذاته؛ وإذ رأت الملكة واستشفَّت مدى بساطة تلك الشَّابَّة وسذاجتها، وعدتها بأن تسمح لها بالنَّوم مع زوجها وأخذت القفص مع الطَّائر. وعندما حلَّ اللَّيل، أعطت بينتو سمالتو المنوِّم المعتاد وأرسلته لينام مع بيتَّا في الغرفة نفسها، حيث رُتِّب لهما سريرٌ جميل. وإذ رأته المسكينة ينام كذبيحة، بدأت المرثاة نفسها من جديد، وقالت أشياء من شأنها أن تحرِّك الشَّفقة في الصَّوَّان، وأمضت ليلةً أخرى مليئةً بالعذاب وهي تبكي وتئنُّ وتمزِّق شعرها؛ ومع بزوغ النَّهار، نزلت الملكة لتأخذ زوجها وتركت بيتَّا البائسة باردةً ومتجمِّدةً وتعضُّ على يديها للخدعة التي تعرَّضت لها للمرَّة الثَّانية.

في صباح ذلك اليوم، خرج بينتو سمالتو ليقطف بعض التِّين من حديقةٍ خارج أبواب المدينة؛ فاقترب منه إسكافيٌّ كان يعيش بجوار غرفة بيتَّا ولم تكن قد فاتته، من خلال الجدار، كلمةٌ واحدةٌ ممَّا قالته، وروى له كلمةً بكلمةٍ ما كانت تقوله تلك المتسوِّلة البائسة في عويلها وأنينها وشكواها. ولدى سماعه هذا الكلام، حزر بينتو سمالتو، الذي كان قد بدأ بالفعل يشغِّل عقله، كيف آلت الأمور هذا المآل، وقرَّر، إن حدث وأرسلته الملكة مرَّةً أخرى لينام مع تلك المسكينة، أنّه لن يتجرَّع الشَّراب الذي كانت تقدِّمه له الملكة.

قامت بيتًّا بالمحاولة الثَّالثة وقالت: «تافارو وتامبورو، الشَّمس تُشرق!»، فخرجت لها كمِّيَّةٌ كبيرةٌ من الملابس الحريريَّة والذَّهبيَّة والشَّرائط المطرَّزة مع مهدٍ من الذَّهب، أشياءُ نبيلةٌ لم يكن في وسع الملكة نفسها أن تجمعها معاً. ورأتها الوصيفات وأخبرن سيِّدتهنَّ التي سعت للحصول عليها كما فعلت في المرَّتين السَّابقتين، وإزاء طلب بيتًّا المكرَّر للمرَّة الثَّالثة فكَّرت: «ماذا سأخسر إذا أرضيتُ هذه الغشيمة لأنتزع منها كلَّ هذه الأشياء الجميلة؟»، وأخذت الكنوز التي عرضتها عليها بيتًّا، وعندما أطلَّ اللَّيل لتصفية صكوك الدَّين المتعاقِد عليها مع النَّوم والرَّاحة، أعطت المنوِّم لبينتو سمالتو. ولكنَّ هذا الأخير احتفظ به في فمه، ثمَّ تظاهر بأنَّه ذاهبٌ لتفريغ مثانته، وبصقه. وعندما استلقى في الفراش، بدأت بيتًّا، التي كانت بجانبه، بترديد موشَّحها، فذكرت كيف عجنته باللَّوز والسُّكَّر، وكيف صنعت شعره من خيوط الذَّهب وعيونه وفمه من اللُّؤلؤ والأحجار الكريمة، وكيف كان مديناً لها بحياته التي وهبته إيَّاها الآلهة بفضلها، وكيف سُرق منها فخرجت، هي الحامل، تبحث عنه في العالم بمشقَّةٍ تنوء بحملها الجبال، فلتحفظ السَّماء كلَّ جسدٍ مُعَمَّدٍ، وكيف أنَّها نامت معه ليلتين أخريين مقابل كنزين ولم تتمكَّن من الحصول منه على كلمةٍ واحدة، وأنَّ هذه آخر ليلةٍ لآمالها وخاتمة حياتها. فلمَّا سمع بينتو سمالتو، وكان مستيقظاً، هذه الكلمات، تذكَّر كما لو في حلمٍ كلَّ ما حدث في الماضي، فنهض وعانق بيتًّا وواساها بأطيب ما كان يعرف من الكلمات.

وإذ رأى أنَّ اللَّيل، بقناعه الأسود، كان يقود رقصة النُّجوم، نهض ببطءٍ، ومشى بهدوءٍ إلى غرفة الملكة التي كانت مستغرقةً في نومٍ عميق، وأخذ كلَّ الأشياء التي انتزعتها من بيتًّا، وكلَّ المجوهرات والنُّقود التي كانت في خزنتها، تعويضاً عن الأضرار الماضية؛ ثمَّ رجع إلى زوجته وغادرا من فورهما، وسارا طويلاً حتى غادرا حدود تلك المملكة. عندئذٍ استراحا

في نُزلٍ جميلٍ حتى أنجبت بيتًا ولداً جميلاً؛ وعندما تمكّنت من مغادرة السَّرير، انطلقا إلى بيت أبيها، ووجداه على قيد الحياة وبصحَّةٍ جيِّدةٍ، بل إنَّه، فرحاً برؤية ابنته، عاد شابّاً في الخامسة عشرة. وعندما لم تجد الملكة زوجها ولا المتسوِّلة ولا مجوهراتها، راحت تنتف شعرها يأساً، ولم يكونوا قلَّةً أولئك الذين قالوا لها:

من يَخدع، يجب ألَّا يشتكي إذا خُدع.

الجذع الذَّهبيُّ
المؤانسة الرَّابعة من اليوم الخامس

تُصادف بارمتِلَّا، ابنةُ فلَّاحٍ فقيرٍ، حظَّاً طيِّباً، ولكن بسبب فضولها الشَّديد يُفلت من يدها، وبعد ألف مشقَّةٍ ومشقَّةٍ، تعثر على زوجها في منزل والدته التي كانت غولةً، وبعد أن تتخطَّى مخاطر كبيرةً، يعيشان معاً في سعادةٍ ووئام.

كان أكثر من شخصٍ بين المستمعين مستعدَّاً لدفع إصبعٍ من أصابع يده ليمتلك تلك القوَّة السِّحريَّة التي تمكِّنه من صنع زوجةٍ أو زوجٍ حسب ذوقه أو ذوقها، وخاصَّةً الأمير الذي كان سيفضِّل أن يرى بجانبه عجينةً من السُّكَّر بدلاً من كتلة السُّمِّ الملتصقة به. ولكن، لأنَّه كان دور تولَّا لتلعب لعبتها، لم تنتظر إخطار المحكمة لتسدِّد دينها، فتكلَّمت قائلةً:

ليس الفضول الجامح والرَّغبة في معرفة ما وراء ما هو مشروعٌ سوى فتيلٍ جاهزٍ لإشعال النَّار في برميل بارود الحظِّ، وغالباً ما يفشل في شؤونه الخاصَّة مَن يتدخَّل في شؤون الآخرين؛ ومَن ينقِّب عن الكنوز كثيراً ما يقع وجهُه على المجاري: كما حدث لابنة بستانيٍّ في الحكاية التي سأرويها لكم.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، بستانيٌّ فقيرٌ جدَّاً حتى إنَّه لم يكن يحصل، رغم تعبه وكدِّه، إلَّا على ما يسدُّ رمقه. وفي يومٍ من الأيَّام اشترى ثلاثة خنانيصَ إناثٍ لبناته الثَّلاث ليربِّينها ويوفِّرن القليل لدوطتهنَّ. فأخذت باسكوتسا وتشيتشِه، وكانتا الأكبر

سنَّاً، خنّوصيهما ليرعيا في مرجٍ جميلٍ، وكرهتا أن تأتي أختهما الصُّغرى، بارمِتِلَّا، معهما، فطردتاها وطلبتا منها أن تذهب إلى مكانٍ آخر. فقادت حيوانها الصَّغير إلى غابةٍ كانت الظِّلال فيها محصَّنةً ضدَّ هجمات الشَّمس، فلمَّا وصلت إلى مرجٍ تتدفَّق في وسطه عينٌ داعيةً بلسانها الفضِّيِّ عابري السَّبيل إلى شرب رشفةٍ من مائها العذب، وجدت شجرةً جميلةً بأوراقٍ ذهبيَّة. فانتزعت بارمِتِلَّا فرعاً وحملته إلى أبيها الذي باعه بفرحٍ كبيرٍ لقاءَ أكثر من عشرين دوقيَّة، الأمر الذي ساعده على سدِّ بعض الثُّقوب؛ وحين سأل ابنته أين وجدته، أجابته هذه الأخيرة: "خذه يا سيِّدي، ولا تطلب أكثر، إذا كنت لا تريد أن تُفسد حظَّك".

وفي اليوم التَّالي، عادت إلى المكان نفسه وفعلت الشَّيء نفسه؛ واستمرَّت في تقليم الشَّجرة يوماً بعد يومٍ إلى أن تجرَّدت من الأغصان وبدت كما لو أنَّها نُهِبَتْ من قِبَل الرِّياح بعد فصل الخريف. رأت بارمِتِلَّا أنَّ جذعاً كبيراً من الذَّهب، لا يمكن اقتلاعه باليدين، بقي من الشَّجرة، فعادت بفأسٍ، وأخذت تقطع به الجذور حول قاعدة الجذع، ثمَّ رفعت الجذع بقدر استطاعتها، فظهر لها في الحفرة دَرَجٌ جميلٌ من الحجر السُّمَّاقي.

ولأنَّها كانت فضوليَّةً أكثر ممَّا ينبغي، نزلت تلك الدَّرجات، وبعد أن مشت في نفقٍ عميقٍ جدَّاً، خرجت إلى سهلٍ جميلٍ يرتفع فيه قصرٌ رائعٌ، حيث لا يدوس المرء سوى ذهبٍ وفضَّة، ولا يرى سوى لؤلؤٍ وأحجارٍ كريمة. نظرت بارمِتِلَّا بذهولٍ إلى هذا المشهد الرَّائع، وعندما لم تر أيَّ شخصٍ يتحرَّك في ذلك المبنى، دخلت غرفةً عُلِّق على جدرانها عددٌ من اللَّوحات التي تصوِّر العديد من الأشياء الجميلة، وعلى وجه الخصوص جَهْلَ رجلٍ حُسِبَ حكيماً، وظُلْمَ أولئك الذين يملكون الموازين، والخطايا التي عاقبتها السَّماء، وغير ذلك من الأشياء المدهشة التي بدت حقيقيَّةً وحيَّة؛ ووجدت في تلك الغرفة طاولةً معدَّةً للغداء.

كانت بارمِتِلّا تشعر بالإغماء من شدَّة الجوع، ولأنَّها لم تر أحداً، جلست على تلك الطَّاولة وبدأت تستمتع بالطَّعام مثل كونتيسَّة. ولكن، بينما هي في أفضل لحظات متعتها، دخل عَبْدٌ حَسَنُ المظهر، وقال لها: "توقَّفي، ولا تغادري هذا المكان، لأنَّني أريدك زوجةً لي، وسوف أجعلكِ أسعد امرأةٍ في العالم".

ارتعدت بارمِتِلّا خوفاً، ولكن عند سماعها تلك الوعود الطَّيِّبة، استعادت رباط جأشها ووافقت على ما يريده العبد؛ فحصلت في الحال على عربةٍ من الألماس تجرُّها أربعة خيولٍ ذهبيَّةٍ مجنَّحةٍ، أجنحتها من الزُّمرُّد والياقوت، حملتها في نزهةٍ في الهواء؛ ووُضِعَتْ في خدمتها مجموعةٌ من القِرَدة يرتدون ثياباً ذهبيَّةً، وعلى الفور ألبسها هؤلاء من رأسها إلى أخمص قدميها لتبدو أكثر أناقةً من عنكبوتٍ، وقد بدت حقَّاً أشبه بملكةٍ متوَّجة.

وبحلول اللَّيل، عندما ترغب الشَّمس في النَّوم على ضفاف نهر الهند بلا بعوضٍ فتطفئ القنديل، قال العبد مخاطباً بارمِتِلَّا: "يا حبيبتي، إذا أردتِ النَّوم، استلقي على هذا السَّرير، ولكن حالما تندسِّين بين الملاءات أطفئي الشَّمعة، واحرصي على أن تفعلي ما أقوله لكِ إن كنتِ لا تريدين أن تتعقَّد الأمور".

فعلت بارمِتِلَّا ما طلبه منها وأخلدت إلى النَّوم؛ ولكن ما إن أطبقت جفنيها حتى اقترب الرَّجل الدَّاكن السُّمرة، وقد تحوَّل إلى شابٍّ فائق الوسامة، واستلقى بجانبها؛ فاستيقظت وأحسَّت أنَّ صوفها قد مُشِّط بلا مشطٍ، وكادت تموت من الخوف، ولكن، حين أدركت أنَّ الأمر تحوَّل إلى حربٍ أهليَّة، بقيت ثابتةً تحت الهجمات. وقبل أن يُطلَّ الفجر ليبحث عن بيضٍ طازجٍ يسترضي به عشيقته العجوز، قفز العريس من السَّرير

واستعاد قشرته الدَّاكنة، تاركاً بارمِتِلاَّ متلهِّفةً جدّاً إلى معرفة ذلك الشَّرِه الذي ارتشف البيضة الأولى لفرخةٍ جميلةٍ مثلها.

في اللَّيلة الثَّانية، بعد أن استلقت وأطفأت الشَّمعة كما في المرَّة السَّابقة، جاء الشَّابُّ الوسيم، كما في المرَّة السَّابقة أيضاً، ليستلقي بجانبها؛ وبعدما تعب من المداعبات، غطَّ في نومٍ عميق. فتناولت قدَّاحةً كانت قد أعدَّتها، وأشعلت الشَّمعة، ورفعت الغطاء، فرأت الأبنوس وقد تحوَّل إلى عاجٍ، والكافيار إلى جبنٍ أبيض، والفحم إلى جيرٍ بكرٍ. وبينما كانت تحدِّق فاغرة الفم في ذلك الجمال، وتتأمَّل أجمل ضربات الفرشاة التي أنجزتها الطَّبيعة على لوحة العجائب، استيقظ الشَّابُّ الوسيم وبدأ يلعن بارمِتِلاَّ، صارخاً: "يا لمصيبتي، بسببك يجب أن أواصل سبع سنواتٍ أُخَر هذه الكفَّارة اللَّعينة! نعم بسببك، لأنَّك بفضولك الشَّديد أردت أن تحشري أنفك في أسراري! هيَّا انصرفي، اغربي عن وجهي، انقلعي، لا تُريني وجهك بعد الآن، وارجعي إلى أسمالك، لأنَّك لم تعرفي كيف تحافظين على حظِّك".

وبينما كان يقول ذلك، اختفى كالزِّئبق. وما كان من بارمِتِلاَّ إلاَّ أن غادرت القصر باردةً ومتجمِّدةً ومطأطأةَ الرَّأس، وحالما خرجت من الكهف، صادفت جنِّيَّةً، فقالت هذه الأخيرة لها: "أوه يا طفلتي، إنَّ روحي لَتبكي على سوء حظِّك! تُساقين إلى المسلخ، حيث ستعبرين على صراطٍ أدقَّ من الشَّعرة أيَّتها البائسة؛ ولذلك، لكي تدرئي الخطر عنك، خذي هذه المغازل السَّبعة وحبَّات التِّين السَّبع وجرَّة العسل هذه، وهذه الأزواج السَّبعة من الأحذية الحديديَّة، وامشي كثيراً، ولا تتوقَّفي أبداً، إلى أن تبلى الأحذية وترين على شرفة أحد المنازل سبع إناثٍ يغزلن من الشُّرفة إلى الأرض بلفِّ الخيط على عظام الموتى. أتعرفين ما عليك القيام به حينئذٍ؟ تخفَّي جيِّداً، وبهدوءٍ، عندما يتدلَّى الخيط، انزعي العظم وضعي المغزل

مطليّاً بالعسل مع تينةٍ مكانَ الحامل، بحيث عندما تسحبه إحداهنَّ إلى الأعلى وتتذوَّق الحلاوة، ستقول: – حلَّى الله حظَّ مَن حلَّى فمي؛ – وبعد هذه الكلمات، سيقلن، واحدةً تِلْوَ الأخرى: – يا من جلبت لي هذه الأشياء الحلوة، أظهر نفسك؛ – فتجيبين: - لا أريد، لأنَّكنَّ ستأكلنني؛ – وسيقلن لكِ: – لن نأكلك، وحقِّ مَغْرَفَتنا! – وأنتِ أصرِّي على موقفكِ وابقي راسخة القدمين؛ وسيكرِّرن: – لن نأكلك، وحقِّ سَفُّودنا؛ – وأنتِ ابقي ثابتةً كأنَّك تحلقين ذقنكِ. وسيقلن: – لن نأكلك، وحقِّ مقشَّتنا؛ – ولكن لا تصدِّقيهنَّ؛ وإذا قلن: – لن نأكلك، وحقِّ إنائنا؛ – أغلقي فمك ولا تهمسي بكلمةٍ لأنَّهنَّ سيزهقن روحك. وفي النِّهاية سيقلن: – بحقِّ المُرعِد-المُبرِق، لن نأكلك؛ وعندئذٍ اصعدي إليهنَّ وتأكَّدي أنَّهنَّ لن يؤذينك".

بعد أن تلقَّت هذه التَّعليمات، بدأت بارمِتِلَّا تمشي، وطوت الوديان والجبال، لدرجة أنَّ الأحذية الحديديَّة اهترأت بعد سبع سنواتٍ. ووصلت إلى بيتٍ كبيرٍ تبرز منه شرفةٌ صغيرةٌ ورأت الإناث السَّبع يغزلن، وفعلت ما نصحتها به الجنِّيَّة بحذافيره؛ وبعد ألف مراوغةٍ وألف حيلة، حصلت أخيراً على يمين المُرعِد-المُبرِق، فأظهرت نفسها وصعدت. ولكن حالما رأينها، صرخن جميعاً بصوتٍ واحد: "آه أيَّتها العاهرة الخائنة! أنت سبب بقاء أخينا في الكهف سبع سنين أُخَر، بعيداً عنَّا، وفي هيئة عبد. ولكن تيقَّني، إن كنتِ تمكَّنتِ من انتزاع اليمين من حناجرنا، فسوف تدفعين حساب القديم والجديد في أوَّل فرصة! أمَّا الآن، فاختبئي خلف تلك الخزانة، وعندما تأتي أمُّنا، ومن المؤكَّد أنَّها ستبتلعك، اخرجي وأمسكي بنهديها اللَّذين تحملهما على ظهرها مثل خُرْجَين، وتشبَّثي بهما بقدر ما تستطيعين، إلى أن تقسم بالمُرعِد-المُبرِق، وعندئذٍ لن تؤذيك".

وهذا أيضاً نفَّذته بارمِتِلَّا بحذافيره؛ وبعد أن أقسمت الغولة بمجرفة الموقد، وبدولاب الغَزْل، وبالمشاجب، وبمسند القدمين، وبرفِّ الصُّحون،

أقسمت أخيراً بالمُرعِد-المُبرِق، وعندئذٍ تركت نهديها وأظهرت لها نفسها، فقالت الغولة: "لقد فعلتِها بي! ولكن يجدر بكِ أن تحرثي بخطٍّ مستقيم، أيَّتها الخائنة، لأنَّني مع أوَّل مَطْرَةٍ سأجعلك تزولين مع الحُمَم!".

وأخذت تنبش بالأغصان هنا وهناك عن مناسبةٍ لابتلاعها، وفي أحد الأيَّام، أخذت اثني عشر كيساً من الحبوب الممزوجة معاً، والتي كانت حمِّصاً وجلبانًا وبازلَّاء وعدساً وفاصولياء وفولاً ورزّاً وترمساً، وقالت لها: "أمسكي أيَّتها الخائنة، خذي هذه الحبوب ونقِّيها بحيث تفرزين كلَّ نوعٍ عن الآخر: فإذا لم تنجزي ذلك اللَّيلة، سأبتلعكِ مثل كعكةٍ هشَّة".

جلست بارمِتِلَّا المسكينة بالقرب من الأكياس وأخذت تبكي: "آه يا أمِّي الحبيبة، آه كم جَذَعَني[1] ذلك الجذع الذَّهبيُّ! هذه المرَّة انتهى أمري بالفعل! فلأنَّني رأيت وجهاً أسود تحوَّل إلى أبيض، تحوَّل قلبي إلى ممسحة! واحسرتاه، لقد دُمِّرتُ، لقد انتهيت، وليس من مَخْرَج! يبدو لي، من لحظةٍ إلى أخرى، أنَّني أسقط في الحلق الرَّهيب لهذه الغولة النَّتنة! وليس هناك من يساعدني، ليس هناك من ينصحني، ليس هناك من يعزِّيني!".

وبينما كانت تنتحب، ظهر المُرعِد-المُبرِق الذي كان قد أنهى فترة المنفى، منفى اللَّعنة التي نزلت عليه، ومع أنَّه كان حانقاً على بارمِتِلَّا، لم يستطع تحويل الدَّم إلى ماء، ولمَّا رآها تندب ذلك النَّدب، قال لها: «أيَّتها الخائنة، ما يُبكيكِ؟». فأخبرته بسوء معاملة والدته ورغبتها في ذبحها وأكلها. ولكنَّ المُرعِد-المُبرِق أجابها: «انهضي وهدِّئي من روعكِ، لأنَّ ما تخشينه لن يكون»، وفي الحال نثر جميع الحبوب على الأرض وأمطرها، في الوقت نفسه، بوابلٍ من النِّمال التي شرعت على الفور

1) أي حبسَ عنها الخير؛ (المترجمان).

في تنقيتها وتكويمها بشكلٍ منفصلٍ، حتى إنَّه لم يكن على بارمِتِلَّا سوى أن تملأ الأكياس بها.

عادت الغولة فوجدت أنَّ العمل قد أُنجز، فكادت تُصاب بالإحباط: «ذلك الوغد المرعِد-المُبرِق هو من لعب هذه الألعوبة القذرة عليَّ! ولكنَّك ستدفعين الثَّمن! خذي أكياس اللُّبود هذه، والتي تلزم لاثني عشر فراشاً، واحرصي على أن تكون محشوَّةً بالرِّيش مع حلول المساء، وإلَّا ذبحتك». فأخذت البائسة تلك الأكياس وجلست على الأرض وبدأت تنتحب مرَّةً أخرى وتتشكَّى بمرارةٍ جاعلةً من عينيها ينبوعين؛ وإذا المُرعِد-المُبرِق يظهر ويقول لها: «أيَّتها الخائنة، لا تبكي: دعي الأمر لي لأقودك إلى الميناء. حلِّي شعرك، ثمَّ مدِّي على الأرض أكياس الفراش وابدئي بالعويل والبكاء نادبةً ملك الطُّيور، وسترين ما سيحدث».

وفعلت بارمِتِلَّا ما طلبه منها؛ وإذا بسحابةٍ من الطُّيور تعتِّم الجوَّ وتنفض أجنحتها فيتساقط الرِّيش خُصَلاً خُصَلاً بحيث، في أقلِّ من ساعةٍ، كانت الفُرُش قد امتلأت. وعندما جاءت الغولة ورأت ما كان، انتفخت بالغضب حتى كادت خاصرتاها تنفجران، وصاحت: «المرعِد-المُبرِق بدأ يضايقني! ولكن فلينته بي الحال إلى ذيل قردٍ إذا لم أوقعها في مصيدةٍ لن تستطيع الهروب منها!».

ثمَّ قالت لبارمِتِلَّا: «هيَّا، أسرعي إلى بيت شقيقتي، وقولي لها أن ترسل لي الآلات الموسيقيَّة، لأنَّني سأزوِّج المُرعِد-المُبرِق، ونريد أن نقيم حفلاً يليق بملوكٍ متوَّجين». وأرسلت، عبرَ طريقٍ آخر، شخصاً يُخطر شقيقتها بذلك ويطلب منها أن تُسارع، حالما تأتي إليها الخائنة لطلب الآلات الموسيقيَّة، إلى قتلها وطهيها، لأنَّها ستزورها وتأكلها معها.

ابتهجت بارمِتِلَّا إذ رأت أنَّها تؤمر بتأدية مهمَّةٍ أسهل، واعتقدت أنَّ

الوضع بدأ يتحسَّن. ولكن آه كم تُخطئ أحكام البشر! فبينما هي في الطَّريق إلى هناك، صادفت المُرعِد-المُبرِق الذي حين رآها تغذُّ السَّير، أوقفها ووبَّخها قائلاً: "يا لسذاجتك! إلى أين أنت ذاهبة؟ ألا ترين أنَّك في طريقك إلى المسلخ، وأنَّك تصنعين أغلالك بنفسك، وتشحذين السِّكِّين بنفسك، وتحضِّرين السُّمَّ بيديكِ لنفسك؟ لأنَّ أمِّي لم ترسلك إلى شقيقتها الغولة إلَّا لكي تأكلك. ولكن أصغي إليَّ ولا تجزعي: خذي هذا الرَّغيف، وهذه الحزمة من التِّبن، وهذا الحجر، وعندما تصلين إلى بيت خالتي، ستجدين كلباً كورسيكيًّا سيهجم عليك ليعضَّك، فأعطيه الرَّغيف لتسدِّي حلقه؛ ثمَّ ستجدين حصاناً أرعن سيندفع نحوك ليركلك ويدوسك، فألقي له بهذا التِّبن وضعي هذه القيود في أقدامه؛ وأخيراً، ستجدين باباً ينصفقُ باستمرار، فثبِّتيه بهذا الحجر وستنزعين غضبه. ثمَّ اصعدي وستجدين الغولة مع طفلةٍ بين ذراعيها، واعلمي أنَّها قد أوقدت الفرن لشيِّكِ، وستقول لكِ: – احملي عنِّي هذه المخلوقة ريثما أذهب وأحضر لك الآلات الموسيقيَّة؛ ولكن اعلمي أنَّها، بدلاً من ذلك، ذاهبةٌ لتشحذ أنيابها لكي تمزِّقك إرباً إرباً، فألقي الطِّفلة في الفرن بلا رحمة، لأنَّها لحمُ غولة، ثم خذي الآلات الموسيقيَّة المعلَّقة خلف الباب وانسلِّي من المكان قبل أن تنزل الغولة، وإلَّا انتهى أمرك. ولكن احذري أنَّ الآلات داخل صندوقٍ عليك ألَّا تفتحيه إن كنت لا تريدين أن تتضاعف متاعبك".

وفعلت بارمِتلَّا كلَّ ما نصحها به حبيبها؛ ولكن، في طريق العودة، فتحت الصُّندوق، فرأت في الحال ناياً يطير من هنا، وبوقاً من هناك؛ مزمارَ قربةٍ يمْنَةً، وزَمْخراً[1] يَسرَةً؛ وطفقت الآلات تعزف في الهواء كلَّ ضروب الأصوات؛ وبارمِتلَّا تلحق بهم وهي تخمِّش وجهها. وفي غضون ذلك، نزلت الغولة، وعندما لم تجدها، أطلَّت من النَّافذة وصاحت بالباب:

1) من آلات النَّفخ الموسيقيَّة؛ (المترجمان).

"اسحق الخائنة!"؛ ولكنَّ الباب أجاب: "لا أريد أن أؤذي المسكينة، لأنَّها ثبَّتتني!". وصاحت بالحصان: "دُس السَّاقطة!"؛ فأجاب الحصان: "لا أريد أن أدوسها، لأنَّها أعطتني التِّبن لأقضمه". فصاحت أخيراً بالكلب: "اغرز أنيابك في الجبانة!"، ولكنَّ الكلب أجاب: "دعي المسكينة تذهب، لأنَّها أعطتني خبزاً!".

كانت بارمِتلَّا تركض وتصرخ خلف الآلات الموسيقيَّة عندما صادفت المُرعِد-المُبرِق الذي وبَّخها بشدَّةٍ: "أيَّتها الخائنة! ألم تتعلَّمي بعد من كيسكِ أنَّك، بسبب هذا الفضول اللَّعين، وصل بك الأمر إلى ما أنت فيه الآن؟". وصفَّر للآلات الموسيقيَّة وأعادها إلى الصُّندوق، وطلب منها أن تأخذها إلى أمِّه. فلمَّا رأتها هذه الأخيرة صاحت بصوتٍ عالٍ: "أوه أيُّها القدَر القاسي! حتى شقيقتي ضدِّي ولا تريد أن تُسدي إليَّ هذا المعروف!".

في هذه الأثناء، وصلت العروس الجديدة التي كانت طاعوناً، سرطاناً، ثَعْلَبَةً، ظلاًّ خبيثاً، فطساء الأنف، بارزة الأسنان، غَمْصاء العينَين، خرقاءَ، كأنَّها الخازوق في تصلُّبها، بحيث لو وضعتَ عليها مِائة زهرةٍ وإكليلٍ لبدت أشبه بحانةٍ افتُتِحَت للتَّوِّ. وأقامت لها حماتها مأدبةً كبيرةً، ولأنَّها كانت خبيثة النَّوايا، أمرت بوضع الطَّاولة بالقرب من البئر، وحولها بناتها السَّبع، وكلُّ واحدةٍ منهنَّ تحمل مشعلاً بيدها، وبارمِتِلَّا مشعلين، جالسةً على حافَّة البئر، بحيث إذا ران عليها النُّعاس سقطت في قعر البئر.

والآن، بينما كانت الأطباق تذهب وتجيء والدَّم يبدأ بالغليان، التفت المُرعِد-المُبرِق، الذي كان يبدو مثل عروسٍ مستاءةٍ، إلى بارمِتِلَّا وقال لها: "أيَّتها الخائنة، هل تحبِّينني؟". فأجابت: "حتى أعلى السَّطح!". فقال: "إن كنت تحبِّينني، قبِّليني". فقالت: "أجارني الله، حاشا لله أن أفعل! فليحفظ الله هذا الشَّيء الجميل الذي بجانبك من هنا إلى مِائة عامٍ،

بالصِّحَّة وبالرِّفاء والبنين!". فتدخَّلت العروس قائلةً: "من الواضح أنَّكِ ستظلِّين بائسةً، حتى لو عشتِ مِائة عامٍ، إن كنت تجدين تقبيل هذا الشَّابِّ الوسيم مقرفاً. أمَّا أنا، فمقابل حبَّتين من الكستناء، أدع راعي غنمٍ يقبِّلني على الوجنتين!". فغضب العريس إذ سمع هذه الأخبار الطَّيِّبة وانتفخ مثل ضفدعٍ وغصَّ بالطَّعام، ولكنَّه تظاهر بأنَّ الكرشةَ قلبٌ وابتلع الحبَّة وهو يفكِّر في تسوية الحساب معها وإتمام الصَّفقة في وقتٍ لاحق.

وبعد أن رُفِعَت المائدة، صرف أمَّه وشقيقاته، وبقي هو والعروس وبارمِتلَّا معاً ليذهبوا إلى الفراش؛ وبينما كانت بارمِتلَّا تساعده في خلع نعليه، قال للعروس: "أرأيت يا زوجتي كيف حرمتني هذه المرأة الخجول قبلةً؟". "لقد أخطأت – أجابت العروس – بإحجامها عن تقبيلك، فأنت شابٌّ وسيمٌ للغاية، وكنتُ أنا سأسمح لراعي غنمٍ بأن يقبِّلني مقابل حبَّتي كستناء".

لم يعد المُرعِد-المُبرِق قادراً على كبح جماح نفسه، وببروقٍ من الغضب ورعودٍ من الأفعال، وصل الخردل إلى أنفه، فوضع يده على السِّكِّين وذبح العروس، ثمَّ حفر حفرةً في القبو ودفنها فيها، وبعد ذلك، عانق بارمِتلَّا وقال لها: "أنت فرحتي، أنت زهرة النِّساء، مرآة الشُّرفاء؛ فانظري إليَّ وأعطيني يدك، اضغطي على فمي، احضني بقلبك قلبي، لأنَّني أريد أن أكون ملكك حتى نهاية العالم".

وهكذا اضطجعا وغرفا من نهر الملذَّات، إلى أن أخرجت الشَّمس خيول النَّار من إسطبل الماء وقادتها لترعى في الحقول المبذورة بالفجر، وعندئذٍ جاءت الغولة بالبيض الطَّازج لتطعم العروسين وهي تقول: "طوبى لمن يتزوَّج وتصبح عنده حماة!"، فرأت بارمِتلَّا في أحضان ابنها وفهمت كيف سارت الأمور.

فهرعت في الحال إلى أختها لتتَّفق معها على خطَّةٍ تُزيل بها تلك الشَّوكة من عينيها دون أن يعترض ابنها؛ ولكنَّها وجدت أنَّ أختها، كمداً على فقدان ابنتها التي احترقت في الفرن، قد ألقت بنفسها في الفرن هي الأخرى، وكانت رائحة الاحتراق تغطِّي الحيَّ بأكمله. كان يأسها من الهول بحيث أنَّها تحوَّلت من غولةٍ إلى كبش، وظلَّت تنطح الجدران إلى أن انفجر دماغها في النِّهاية. وبعد أن أحلَّ المُرعِد-المُبرِق السَّلام والوئام بين بارمتِلَّا ونسيباتها، عاش بسعادةٍ وهناءٍ مع زوجته، مؤكِّداً صواب القول المأثور:

مَن يصبر يظفر.

شمسٌ وقمرٌ وتاليا[1]
المؤانسة الخامسة من اليوم الخامس

تموتُ تاليا بسبب شظيَّةٍ من نبتة كتَّانٍ، وتوضع في أحد القصور، فيصادف أن يمرَّ ملكٌ من هناك فتلد منه طفلين. يقع الطِّفلان بين يدَي الملكة الحسود التي تأمر بطهيهما وإطعامهما لأبيهما وبحرقِ تاليا. ولكنَّ الطَّاهي ينقذ الطِّفلين ويحرِّر الملكُ تاليا ويأمر برمي زوجته في النَّار نفسها التي أعدَّتها لتاليا.

مع أنَّ ما حدث للغولة وأختها أثار في المستمعين رعشةَ تعاطفٍ، إلَّا أنَّه كان سببًا للشُّعور بالرِّضا، فقد ابتهج الجميع لأنَّ الأمور سارت مع بارمِتِلَّا بشكلٍ أفضل ممَّا كانوا يتوقَّعون. ثمَّ وقع الدَّور على بوبا لتحكي حكايتها، وكانت بالفعل قد وضعت رجليها في الرِّكاب، فتكلَّمت على النَّحو التَّالي:

من الأمور التي ثبتت بالدَّليل القاطع، في معظمها، أنَّ القسوة جلَّادُ مَن يُعامِل بها، إذ لم يُرَ أبداً شخصٌ يبصق نحو السَّماء ولا تعود البصقة إلى وجهه. أمَّا الجانب الآخر من الميداليَّة فيُرينا أنَّ البراءة درعٌ من خشب التِّين ينكسر عليه سيف الخبث أو ينثلم حدُّه، حتى إذا ظنَّ أحد المساكين أنَّه مات ودُفِنَ، رأى نفسه يقوم من الموت بلحمه وعظمه: كما ستسمعون في الحكاية التي سأُخرجها لكم من برميل الذَّاكرة بمِبْزَلِ هذا اللِّسان:

1) اشتُهرت هذه الحكاية فيما بعد باسم "الجميلة النَّائمة في الغابة"، بعد إدخال بعض التَّعديلاتِ عليها من قبل حكَّائين لاحقين؛ (المترجمان).

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، سيِّدٌ عظيمٌ وُلِدَتْ له بنتٌ فسمَّاها تاليا، ودعا جميع الحكماء والعرَّافين في مملكته ليتنبَّأوا له بطالعها. وبعد مشاوراتٍ عديدةٍ، خلص هؤلاء إلى أنَّها ستكون في خطرٍ عظيمٍ بسبب شظيَّةٍ من نبتة كتَّان. فأمر الملك بمنع دخول الكتَّان أو القنَّب أو أيِّ شيءٍ مشابهٍ لهما إلى منزله، درءًا لهذا الخطر عنها.

ذات مرَّةٍ، وكانت تاليا قد كبرت، أطلَّت من النَّافذة، فرأت عجوزاً تمرُّ وهي تغزل، ولأنَّها لم تكن قد رأت عِرناساً أو خشبةَ غزْلٍ من قبل، خلبت عقلَها الرَّقصةُ التي كانت تصنعها خشبة الغَزْل، فانتابها الفضول وطلبت من العجوز أن تصعد إلى الأعلى، وحين صعدت أخذت منها البكرة وبدأت تغزل. ولكن، لسوء الحظِّ، دخلت شظيَّةٌ في ظفرها فسقطت من فورها ميِّتةً على الأرض، وفي الحال هربت العجوز مندفعةً على الدَّرج بأسرع ما استطاعت، وما كان من الأب المنكود، بعد أن دفع برميلاً من الدُّموع ثمن دلوٍ من النَّبيذ الرَّخيص، إلَّا أن سجَّى تاليا الميِّتة في القصر نفسه، الذي كان يقع في قلب غابة، على كرسيٍّ من المخمل، تحت مظلَّةٍ من الدِّيباج. ثمَّ أوصد الأبواب، وهجر إلى غير رجعةٍ ذلك المنزل الذي كان سبب بلواه، علَّه يمحو من ذاكرته كلَّ أثرٍ لتلك الذِّكرى الأليمة.

بعد مرور بعض الوقت، هربَ من ملكٍ كان يصطاد في تلك الأماكن صقرٌ وحطَّ على نافذة ذلك البيت؛ ولأنَّه لم يرجع بمناداة الملك له، طرق الملكُ الباب معتقداً أنَّ المنزل كان مأهولاً. ولكن بعد أن طرق وقتاً طويلاً بلا جدوى، طلب الملك من أحد قاطفي العنب سلَّماً ليصعد بنفسه ويرى ما بالدَّاخل. وعندما صعد ودخل، اندهش لأنَّه لم يجد أيَّ إنسانٍ في أيِّ مكان؛ وأخيراً، وصل إلى الغرفة حيث كانت تاليا مُسجَّاةً وكأنَّها مسحورة.

ناداها الملك، معتقداً أنَّها نائمة. ولكن عندما لم تستفق رغم جميع محاولاته وصيحاته، ولأنَّه، في الوقت نفسه، كان مصعوقاً بذلك الجمال، حملها إلى سريرٍ وجنى ثمار الحُبِّ، ثمَّ تركها ممدَّدةً وعاد إلى مملكته، حيث بقي ردحاً من الزَّمان لا يذكر شيئاً ممَّا حدث.

بعد تسعة أشهر، أنجبت تاليا طفلين، ذكراً وأنثى، جوهرتين برَّاقتين، فوضعتهما جنِّيَّتان، كانتا قد ظهرتا في ذلك القصر، على صدر أمِّهما. وحين لم يتمكَّن الطِّفلان، التَّوَّاقان إلى المصِّ، من العثور على الحلمة، وضعتا في فميهما ذلك الإصبع الذي انغرزت فيه الشَّظيَّة، فظلَّا يمصَّانه حتى خرجت الشَّظيَّة منه. وفي الحال بدت تاليا وكأنَّها تستيقظ من نومٍ عميقٍ، ولمَّا رأت تينك الجوهرتين بجانبها، قدَّمت لهما صدرها وتعلَّق قلبُها بهما أكثر من تعلُّقه بالحياة. ولكنَّها لم تفهم ما حدث لها حين وجدت نفسها وحيدةً في ذلك القصر مع طفلين رضيعين، ورأت أنَّ كلَّ ما تحتاج إلى تناوله يُحمَل إليها دون أن تُبصِرَ أحداً.

وفي أحد الأيَّام، تذكَّر الملك مغامرته مع الجميلة النَّائمة، فانتهز فرصة خروجه للصَّيد في تلك الأماكن وجاء لرؤيتها، وحين رآها صاحيةً مع أعجوبتين من أعاجيب الجمال، ظلَّ مبهوتاً من البهجة. ثمَّ عرَّف تاليا بنفسه وحكى لها كيف سارت الأمور، فعقدا بينهما أواصر صداقةٍ وعلاقةٍ وُثقَى، وبقي عدَّة أيَّامٍ بصحبتها. ثمَّ ودَّعها على وعد العودة ليأخذها ويقودها إلى مملكته؛ ولكن طوال ذلك الوقت، بعد عودته إلى منزله، لم يُفارق اسمُ تاليا والطِّفلين لسانه. فإذا أكل، كانت تاليا في فمه، وكذلك شمسٌ وقمر (لأنَّ هذين كانا اسمي الطِّفلين)؛ وإذا نام، كان يناديها ويناديهما في نومه.

كان لدى زوجة الملك ومضاتُ شكٍّ بسبب تأخُّره عن العودة من رحلة الصَّيد، وحين سمعته يلهج بذِكرِ تاليا وقمرٍ وشمس، تأجَّجت من

حرٍّ نارٍ أخرى غير نار الشَّمس، فنادت الحاجب وقالت له: "اسمع يا بنيَّ: إنَّك واقفٌ بين سيلَّا وكاريبديس[1]، بين العِضادة والباب، بين المِشْبَك والقضيب. إن أخبرتني من التي يحبُّها زوجي، جعلتكَ غنيَّاً؛ وإن أخفيت الحقيقة عنِّي، لن أسمح بأن يُعثَر عليك لا حيَّاً ولا ميِّتاً". فما كان منه، من جهةٍ مضطربًا من الخوف، ومن جهةٍ أخرى مدفوعاً بالمصلحة، التي هي غشاوةٌ على عيون الشَّرف، وعِصَابةٌ على عيون العدالة، وعَتَلَةٌ على حَجَر الإخلاص، إلَّا أن حكى لها كلَّ شيءٍ مسمِّياً الأشياء بأسمائها.

عندئذٍ، أرسلت الملكة الحاجب نفسَه باسم الملك إلى تاليا، وطلبت منه أن يقول لها إنَّ الملك يريد أن يرى الطِّفلين مرَّةً أخرى، فأرسلتهما تاليا إليه بفرحٍ عظيم. ولكنَّ قلبَ ميديا تلك، حالما وقعا بين يديها، أمرت الطَّبَّاخ بأن يذبحهما ويُحضِّر منهما أطباقاً وصلصاتٍ مختلفةً ويقدِّمها للأب البائس.

ولكنَّ الطَّبَّاخ كان رقيق القلب، وعندما رأى تينك التُّفَّاحتين الذَّهبيَّتين الجميلتين، شعر بالشَّفقة عليهما، فعهد بهما إلى زوجته لتخفيهما، ثمَّ أعدَّ من جَدْيَين مِائة طبقٍ مختلف. وعندما حان وقت العشاء، أمرت الملكة بإحضار الطَّعام، وبينما كان الملك يأكل بشهيَّةٍ كبيرةٍ ويهتف: "ما أشهى هذا، وحقِّ حياةِ لانفوزا![2]" أو "ما أشهى ذاك، وحقِّ روح جدِّي!"، كانت هي تشجِّعه قائلةً: "كُلْ، فأنت تأكل ممَّا تملك". لم يعبأ الملك لمرَّةٍ أو مرَّتين بهذه الكلمات، ولكن، حين رأى أنَّ الموسيقى لا تتوقَّف، أجاب: "أعرف جيِّداً أنَّني آكل ممَّا أملك، لأنَّك لم تأتي بأيِّ شيءٍ إلى هذا البيت". ثمَّ نهض بحنقٍ وذهب إلى دارةٍ مجاورةٍ ليستعيد هدوءه.

1) أسطورة من الميثولوجيا اليونانيَّة، و«أن تكون بين سيلَّا وكاريبديس» يعني أن تكون بين خطرين محدقين؛ (المترجمان).

2) مرَّ ذكرُها سابقًا في مشهد "البُوتقة" الرَّعويِّ؛ (المترجمان).

لم يكن غليلُ الملكة قد شُفِيَ بعد بما فعلته، فأرسلت الحاجب مرَّةً أخرى لاستدعاء تاليا نفسها بذريعة أنَّ الملك كان ينتظرها؛ فجاءت بلا تلكُّؤٍ، متلهِّفةً إلى العثور على نورها دون أن تعرف أنَّ النَّار هي ما كان ينتظرها. وحين مَثَلَت بين يدَي الملكة، قالت لها هذه الأخيرة بوجهٍ متجهِّمٍ كوجه نيرون: "أهلاً بكِ يا مدام تروكُّولا[1]! أأنتِ ذلك القماش النَّاعم، ذلك الحشيش الطَّيِّب الذي يستمتع به زوجي؟ أأنتِ تلك العاهرة الخبيثة التي جعلت رأسي يدور كالخُذروف؟ هيَّا، لقد وصلتِ إلى المَطْهَرِ، حيث سأجعلك تدفعين ثمن الضَّرر الذي ألحقته بي!".

أخذت تاليا تعتذر قائلةً إنَّ الخطأ لم يكن خطأها، وإنَّ زوجها استولى على أراضيها بينما كانت نائمة. ولكنَّ الملكة لم تقبل اعتذارها، وبعد أن أشعلوا ناراً عظيمةً وسط فناء القصر نفسِه، أمرت بإلقائها فيها.

وإذ رأت المسكينة أنَّها هالكةٌ لا مخالة، ركعت أمامها، وتوسَّلت إليها أن تمنحها على الأقلِّ الوقت الكافي لخلع الملابس التي كانت ترتديها. فما كان من الملكة، ليس رأفةً بالمرأة التَّعيسة ولكن حرصاً على تلك الملابس المطرَّزة بالذَّهب واللُّؤلؤ، إلَّا أن قالت لها: "اخلعي ملابسك، سأسمح لك بذلك".

بدأت تاليا بخلع ملابسها، ومع كلِّ قطعةٍ كانت تنضوها عن نفسها كانت تطلق صرخةً؛ وبعد أن نضت عنها الثَّوب والتَّنُّورة والسُّترة، وعندما كانت على وشك أن تخلع ثوبها الدَّاخليَّ، أطلقت الصَّرخة الأخيرة بينما بدأوا يجرُّونها ليجعلوا منها رماداً للماء المغليِّ الذي يغسل به خارون[2]

---

1) Troccola، من الكلمة النَّابوليتانيَّة trocula التي تعني حرفيًّا الخُشخيشة أو المصلصِلة، وتُقال للمومس؛ (المترجمان).

2) إحدى شخصيَّات الميثولوجيا الإغريقيَّة، مهمَّته نقل الأرواح بقاربٍ في نهر ستيكس أو أخيرون؛ (المترجمان).

سراويله. ولكن في تلك اللَّحظة، هرع الملك الذي كان قد رأى ذلك المشهد، وأمر بأن يخبروه بكلِّ ما حدث. وحين سأل عن الطِّفلين، سمع من زوجته، التي كانت توبِّخه على خيانته لها، كيف جعلته يأكلهما.

فوقع الملك فريسةً لليأس وراح يصرخ: "إذاً، أنا نفسي كنت المذؤوب الذي التهم خرافه؟ واويلتاه، لماذا لم تميِّز عروقي ينبوعَ دمائهما؟ آه، أيَّتها التُّركيَّة المرتدَّة، أيُّ وحشيَّةٍ كانت تلك؟ انتظري فحسب، سوف أجعلك تجمعين النَّوى، ولن أرسل وجهَ الطَّاغية هذا إلى الكولوسِّيوم للتَّكفير عن ذنبه!".

وبعد أن قال ذلك، أمر بإلقاء الملكة في النَّار نفسها التي أُضْرِمَتْ لتاليا ومعها الحاجب الذي كان المقبضَ لهذه اللُّعبة القاسية والحائكَ لهذه المؤامرة الخبيثة؛ وأراد أن يفعل الشَّيء نفسه مع الطَّبَّاخ لاعتقاده أنَّه فرم طفليه بالسِّكِّين. ولكنَّ هذا الأخير ألقى بنفسه عند قدميه وقال له: "في الحقيقة، يا سيِّدي، الخدمة التي أدَّيتُها لك تستحقُّ وظيفةً تدرُّ دخلاً بلا جهدٍ أكثر ممَّا تستحقُّ أن أُرمَى في فرنٍ مليءٍ بالفحم الحيِّ؛ تستحقُّ إكراميَّةً أكثر ممَّا تستحقُّ خازوقاً في قفاي؛ تستحقُّ تسليةً أخرى غير التَّلوِّي والتَّقبُّض في النَّار؛ تستحقُّ حظوةً أخرى غير امتزاج رماد طبَّاخٍ برماد ملكة! ليس هذا هو الشُّكر الذي أنتظره منك لأنَّني أنقذت طفليك رغم أنف كيس مرارةِ الكلب تلك، التي أرادت قتلهما لتعيد إلى جسمك ما كان جزءاً منه".

ظلَّ الملك مبهوتاً ممَّا سمع، وبدا له وكأنَّه يحلم، ولم يستطع تصديق ما سمعته أذناه. ثمَّ التفت إلى الطَّبَّاخ وقال له: «إذا كان صحيحاً أنَّك أنقذت طفليَّ، فتأكَّد أنَّني سأعفيك من دوران الأسياخ وسأضعك في مطبخ هذا الصَّدر لتدير، كما يحلو لك، رغباتي، وسأمنحك من المكافآت ما يجعلك أسعد إنسانٍ في العالم».

وبينما كان الملك يقول هذه الكلمات، أحضرت زوجة الطَّبَّاخ، إذ رأت ورطةَ زوجها، قمراً وشمساً إلى أمام أبيهما الذي بدأ يداعب الثَّلاثة، تاليا والطِّفلين، ويُمطر بوابلٍ من القُبَل الأمَّ أوَّلاً ثمَّ الطِّفلين. وبعد أن أعطى الطَّبَّاخَ مكافأةً كبيرةً وسمَّاه وصيفاً شخصيَّاً له، اتَّخذ تاليا زوجةً، وهذه تمتَّعت بعمرٍ مديدٍ مع زوجها وولديها، مدركةً بأدلَّةٍ لا تقبل الشَّكَّ أنَّ:

مَن كان الحظُّ حليفه، هطلت عليه النِّعَمُ حتى وهو نائم.

سابيا
المؤانسة السَّادسة من اليوم الخامس

تحاول سابيا، وهي ابنةُ بارونةٍ عظيمةٍ، أن تجعل من كاريوتشيو، ابن الملك، رجلاً متعلِّماً، وكان لا يفقه حرفاً في الأبجديَّة؛ ولكنَّه يتلقَّى صفعةً من سابيا، ورغبةً منه في الانتقام منها يتَّخذها زوجة، ولكن بعد ألف معاناةٍ ومعاناة، وبعد ثلاثة أبناء دون علمه، يتصالح معها.

ابتهج الأمير والأميرة كثيراً حين سمعا النِّهاية السَّعيدة لِما حدث مع تاليا، إذ لم يعتقدا أبداً أنَّ من المكن، بعد كلِّ تلك العواصف التي تعرَّضت لها، أن تجد المرسى، ثمَّ أُعطِيَ الأمر لتشولَّا لتحكي حكايتها، فبدأتها على النَّحو التَّالي:

ثمَّة ثلاثة أصنافٍ من الجَهَلَة في العالم، وكلُّ واحدٍ منهم يستحقُّ أن يوضع في فرنٍ أكثر من الآخر: الأوَّل، مَن لا يعرف؛ والثَّاني، مَن لا يريد أن يعرف؛ والثَّالث، مَن يدَّعي أنَّه يعرف. والجاهل الذي سأحدِّثكم عنه ينتمي إلى الصِّنف الثَّاني، إذ كان لا يريد للمعرفة أن تدخل دماغه، وكان يكره مَن يعلِّمه ويسعى، مثل نيرون جديدٍ، إلى سدِّ طريق الرِّزق عليه.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، ملكٌ من كاستِلْ كيُوزو[1] لديه ابنٌ صعب المراس، ولم يكن هناك وسيلةٌ ناجعةٌ

1) تعني حرفيًّا: القلعة الموصَدة؛ (المترجمان).

لتعليمه الأبجديَّة، وكان كلَّما أتى أحدهم على ذِكْر القراءة والتَّعلُّم، انتابه هياجٌ شديدٌ، ولم يكن ينفع معه التَّوبيخ ولا الضَّرب ولا التَّهديد لإصلاح أمره، لدرجة أنَّ الأب المسكين كان يظلُّ منتفخاً كالضِّفدع ولم يكن يعرف أيَّ طريقٍ يجب أن يسلك لإيقاظ ذكاء هذا الابن البائس حتى لا تقع مملكته بيد المماليك، ذلك أنَّه كان يدرك استحالة الجمع بين الجهل والإمساك بزمام حُكْم مملكة.

في الوقت نفسه، كانت هناك ابنة البارونة تشينسا، التي اكتسبت اسم "سابيا" للمعرفة الواسعة التي حصَّلتها وهي لا تزال ابنة الثَّالثة عشرة. فقرَّر الملك، الذي تناهت إلى علمه صفاتُها الفاضلة، أن يعهد بابنه إلى البارونة لكي تقوم ابنتها بتعليمه، مفترضاً أنَّه بالصُّحبة والتَّنافس مع الفتاة الصَّغيرة سوف يجني من ذلك نفعاً. وما كان من سابيا، في الواقع، بمجرَّد وصوله إلى ذلك المنزل، إلَّا أن بدأت تُعلِّمه الصَّليب المقدَّس[1]، ولكن حين رأت أنَّه كان يلبس أُذنَه لكلِّ تلك الكلمات الجميلة وأنَّ كلَّ تعليلاتها الوجيهة كانت تدخل من أذنٍ وتخرج من الأخرى، نفد صبرها، فصفعته.

وكان أثر الصَّفعة عظيماً في نفس كاريوتشو (كما كان يُسمَّى الأمير)، لدرجة أنَّ ما لم يفعله بالإقناع والملاطفات، فعله بدافع الخجل والسُّخط؛ وفي وقتٍ قصيرٍ، لم يتعلَّم القراءة فحسب، بل قطع شوطاً كبيراً في النَّحْوِ، حتى إنَّه تعلَّم كلَّ قواعد اللُّغة؛ وكان والده من السَّعادة بحيث أخرجه من ذلك المنزل وأرسله ليكمل دراساته العليا الأخرى، حتى أصبح الرَّجل الأكثر علماً في المملكة.

ولكنَّ تلك الصَّفعة التي وجَّهتها إليه سابيا بقيت دائماً ماثلةً أمام

1) الحكمة والغرض من رسم الصَّليب المقدَّس؛ (المترجمان).

عينيه في اليقظة؛ فإذا نام كانت تأتيه في المنام، فقرَّر إمَّا الموت وإمَّا الانتقام. وفي ذلك الوقت، كانت سابيا قد بلغت سنَّ الزَّواج، فتوجَّه الأمير، الذي كان يتحيَّن الفرصة للانتقام، إلى أبيه قائلاً: "أعترف، يا سيِّدي، بأنَّني تلقَّيتُ كينونتي منك، ولذلك فإنَّني أحمل لك من الالتزامات ما لا أحيد عنه؛ ولكنَّني أجد نفسي ملزماً بالقدر نفسه تجاه سابيا التي منحتني حياةً كريمةً، ولذلك، وحيث إنَّني لم أجد طريقةً أوفِّيها بها حقَّها تامَّاً، فإنَّني أريدها، إن كنتم لا تمانعون، زوجةً لي، وأؤكِّد لكم أنَّ بإمكانكم أن تراهنوا عليَّ".

وحين سمع الملك قرار ابنه، أجابه: "أيْ بنيَّ، مع أنَّ سابيا ليست من ذلك النَّسب الذي ينبغي أن تتَّخذ لنفسك زوجةً منه، إلَّا أنَّ خصالها الحميدة، إذا ما وُزِنَتْ في الميزان مع دمائنا، رجحَتْ كفَّتها، ولذلك يمكننا أن نعقد هذه الآصرة، فتكون أنت مسروراً وأنا راضياً". وهكذا، استدعى البارونة وكُتِبَ عقد الزَّواج على الفور واحتُفِل بالزِّفاف بحفلٍ يليق بسيِّدٍ عظيم.

وطلب كاريوتشو من الملك أن يتكرَّم ويمنحه شقَّةً منفصلةً يعيش فيها مع زوجته؛ وإرضاءً له بنى له الملك قصراً جميلاً. فاصطحب كاريوتشو زوجته إلى هناك وحبسها في إحدى الغرف ولم يقدِّم لها سوى القليل الرَّديء من الطَّعام والشَّراب، رافضاً أن يوفِّيها حقوقها، فرأت المرأة المسكينة أنَّها أكثر النِّساء يأساً في العالم، ولم تكن تعرف سبباً لسوء معاملته لها وهي التي لتوِّها دخلت بيت الزَّوجيَّة.

أخيراً ذهب الأمير لرؤية سابيا في الغرفة التي جعلها سجناً لها، وسألها عن حالها. "ضع يدك على بطني - قالت سابيا - وسوف ترى كيف حالي، مع أنَّني لم أفعل لك أيَّ شيءٍ يعطيك الحقَّ في معاملتي بهذه الطَّريقة،

مثل كلبة. لأيِّ غايةٍ طلبتني كزوجةٍ إذا كنت تريد استبقائي كعبدةٍ؟". فأجاب الأمير: "ألا تعرفين أن من يقوم بالإساءة يخطُّها في التُّراب، وأنَّ من يتلقَّاها ينقشها في الرُّخام؟ تذكَّري جيِّداً ما فعلتِه لي عندما كنتِ تعلِّمينني القراءة، واعلمي أنَّني لم أُرِد أن أتزوَّجك إلَّا لأضيف الصَّلصة على حياتك وأعاقبك على الإهانة التي تلقَّيتُها منكِ". "إذاً -ردَّت سابيا- أنا أحصد شرَّاً لأنَّني زرعت خيراً؟ إذا كنتُ قد صفعتك، فذلك لأنَّك كنت حماراً وأردتُ أن أجعلك حكيماً. أنت تعرف أنَّ من يُحبَّكَ يُبكِك، ومن يكرهك يُضحِكك".

إن كان الأمير مِن قبلُ مستاءاً بسبب الصَّفعة، فقد أصبح الآن غاضباً حين رأى أنَّه يوبَّخُ لجهله؛ وأكثر من ذلك، بينما كان يظنُّ أنَّ سابيا سوف تشعر بالذَّنب، رآها جريئةً كالدِّيك وتردُّ له الصَّاع صاعين، فأدار لها ظهره وانصرف، تاركاً إيَّاها في حالٍ أسوأ ممَّا وجدها عليه. وبعد بضعة أيَّام، عاد لرؤيتها، فوجدها باقيةً على موقفها نفسه، فغادرها وهو أكثر تصلُّباً من ذي قبل، مصمِّماً على طهوها في مائِهِ مثل أخطبوطٍ ومعاقبتها بمضربِ صوف القطن.

في ذلك الوقت، تنازل الملك عن ممتلكات الحياة على أعمدة سريرٍ جنائزيٍّ، وأصبح كاريوتشو السَّيِّدَ المطلق لجميع الولايات، فأراد أن يذهب ويضع يده عليها بنفسه، وبعد أن جهَّز ركباً من جنودٍ وفرسانٍ يليقون بتاجه، بدأ رحلته معهم. وكانت البارونة الأمُّ قد عرفت بالحياة التي تقاسيها ابنتها وأرادت أن تستر الفضيحة بحكمةٍ، فحفرت ممرَّاً تحت قصر الأمير، وبدأت تُطعم وتقوِّي سابيا المسكينة عبره، ولدى سماعها الخبر الذي انتشر عن الرِّحلة الوشيكة للملك الجديد، جهَّزت عرباتٍ وبزَّاتٍ فخمةً. ثمَّ ألبست ابنتها أجملَ مَلْبَسٍ وبرفقة مجموعةٍ من السَّيِّدات جعلتها تسبق زوجها عبر طريقٍ مختصر، بحيث وجدت نفسها قبل يومٍ في المكان الذي سيتوقَّف

فيه الملك، واستأجرت غرفةً مقابل القصر المخصَّص له. كانت واقفةً على النَّافذة في كامل زينتها عندما رأى الملك الشَّابُّ زهرةَ النِّعَم اليانعةِ تلك، ودون أن يعرف أنَّها سابيا، افتتن بها، وبعد أن قام بحيلٍ كثيرةٍ، امتلكها أخيراً بين ذراعيه، وقبل مغادرته، ترك لها جوهرةً ثمينةً عربونَ حبِّه لها. وبعدما غادر الملك، ليقوم بجولةٍ في الأجزاء الأخرى من مملكته، هرعت سابيا إلى منزلها، وبعد تسعة أشهرٍ، أنجبت ولداً جميلاً.

ولدى عودته إلى العاصمة، ذهب الملك لرؤية سابيا، معتقداً أنَّه سيجدها ميِّتة، ولكنَّه رآها أعذب ممَّا كانت في أيِّ وقتٍ مضى، وأكثر إصراراً على موقفها في قولها له إنَّها إذا كانت قد تركت أثر خمسة أصابع على وجهه، فذلك لكي تجعله حكيماً بدلاً من الحمار الذي كان. فاشتعل الملك غيظاً مرَّةً أخرى وتركها وحدها.

ولكن، لمَّا كان مضطرَّاً إلى استئناف رحلته لزيارة أماكن أخرى في مملكته، كرَّرت سابيا الخدعة مستعينةً بنصائح أمِّها واستمتعت بزوجها، فتلقَّت جوهرةً ثمينةً لرأسها وولداً آخر رأى النُّور في وقته. وكرَّرت الأمر للمرَّة الثَّالثة، فتلقَّت سلسلةً كبيرةً من الذَّهب والأحجار الكريمة، وابنةً أنثى.

عندما عاد الملك أخيراً، علم أنَّ سابيا قد ماتت، لأنَّ البارونة أعطتها حبَّةً منوِّمةً ودفنتها كميِّتةٍ ثمَّ أخرجتها خفيةً من القبر وخبَّأتها في منزلها. عندئذٍ تزوَّج بفتاةٍ تنحدر من عائلةٍ ذات حسبٍ ونسب، وأخذ العروس الجديدة إلى القصر الملكيِّ. ولكن، في أفضل لحظةٍ من لحظات ذلك الحفل المدهش الذي أقيم لهذا الحدث، ظهرت سابيا في القاعة، مع ثلاث جواهر، وألقت بنفسها عند قدمَي الملك، وطلبت منه العدالةَ بألَّا يحرم أولئك الصِّغار من التَّاج، لأنَّهم كانوا من دمه ولحمه.

جمد الملك برهةً في مكانه كَمَنْ يحلم. ولكن، في النِّهاية، حين أدرك

أنَّ معرفة سابيا بلغت النُّجوم، ورآها تقدِّم له، ساعةَ لم يكن يتوقَّع شيئاً من هذا القبيل، ثلاث دعاماتٍ لشيخوخته، رقَّ قلبه، وما كان منه إلَّا أن زوَّجَ تلك السَّيِّدة، التي استقدمَها، لأخيه مانحاً إيَّاهما ولايةً كبيرةً، وأخذ هو سابيا، مؤكِّداً بذلك للنَّاس أجمعين، أنَّ:

الحكيم يجعل حتى النُّجوم تنحني له.

الأبناء الخمسة
المؤانسة السَّابعة من اليوم الخامس

يرسل باتشونه أبناءه الخمسة إلى العالم ليتعلَّموا حرفةً ما، فيعودون إليه جميعاً مع بعض المهارات، ثمَّ يذهبون معاً لتحرير ابنة ملكٍ اختطفها أحد الغيلان. ولكن بعد أن يختلفوا حول من منهم قدَّم أفضل دليلٍ على أنَّه الأحقُّ بها كزوجةٍ، يعطيها الملك للأب، الذي هو أرومة كلِّ تلك الفروع.

بعد أن انتهت حكاية لوتشيًّا وحان دور تشولًّا لتحكي حكايتها، سوَّت جلستها على الكرسيِّ، وبعد أن نظرت بلطفٍ حولها، ابتدأت الكلام، قائلةً: مَن يحبُّ البقاء قرب المواقد والإخلاد إليها يملك عقلَ قطٍّ؛ ومَن لا يمشِ لا يرَ، ومَن لا يرَ لا يعرف؛ ومَن يتجوَّل يَخبُرُ الحياة؛ الممارسة تصنع الطَّبيبَ، وخروج المرء من فِراشه يجعله يقظاً: كما سأريكم على أرض الواقع، في الحكاية التَّالية.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، رجلٌ صالحٌ جدَّاً، يدعى باتشونِه، لديه خمسة أبناء قليلي النَّفع لدرجة أنَّهم لم يكونوا يصلحون لشيء. وفي أحد الأيَّام، قرَّر الأب المسكين، الذي لم يعد قادراً على إعالتهم، أن يزيحهم عن كاهله، فقال لهم: "يا أبنائي، يعلم الله كم أحبُّكم، فأنتم في النِّهاية من صُلبي! ولكنَّني كبيرٌ في السِّنِّ ولا أستطيع العمل؛ وأنتم شبَّانٌ تأكلون بشهيَّةٍ كبيرةٍ، ولم يعد بإمكاني إطعامكم كما كنت أفعل من قبل. لذلك، اذهبوا وابحثوا عن

حِرَفيٍّ وتعلَّموا حرفةً ما؛ ولكن احذروا من البقاء في خدمته أكثر من عامٍ واحدٍ، وبعد انقضاء هذه المدَّة، ستجدونني في المنزل أنتظر عودتكم وقد اغتنيتم ببعض المهارات".

وبعد أن سمع الأبناء هذا القرار، ودَّعوا أباهم آخذين معهم بعض الأسمال لتغيير ملابسهم، ومضى كلٌّ منهم في طريقه الخاصِّ بحثاً عن حظِّه. وفي نهاية العام، وفقاً للموعد، التقوا جميعاً في بيت أبيهم حيث استُقبِلوا بترحابٍ كبيرٍ، ولأنَّهم كانوا مُتعَبين ومنهَكين من السَّفر، أجلسهم الأب لتناول الطَّعام.

وبينما هم في أفضل لحظات استمتاعهم بالطَّعام، سُمِعَ تغريد طائرٍ، فقام الابن الأصغر عن المائدة وخرج ليستمع إليه، وعندما عاد ورُفِعَ مفرش المائدة، بدأ باتشونه باستجواب أبنائه: "حسناً، أريحوا قلبي قليلاً، ولنستمع إلى تلك المهارات الجميلة التي تعلَّمتموها في هذه الفترة".

فأجاب لوتشو الذي أصبح أميراً على اللُّصوص: "لقد تعلَّمتُ فنَّ السَّرقة، وأنا الآن زعيم الماكرين ومعلِّم النَّهَّابين، الرَّابع في فنِّ الاحتيال، ولا أجد لي نظيراً، حيث بخفَّةٍ أجيدُ قَطْعَ وجَذْبَ الأردية، ثَنْيَ وسرقةَ الغسيل، ثَقْبَ وتخفيفَ الحقائب، خَلْعَ الأبواب ونَهْبَ الحوانيت، لَفْفَ ونَشْلَ المَحَافظ، فَتْحَ وتفريغَ الصَّناديق، وأينما أصل، يمكن رؤية المعجزات تهزُّ كُلَّابها".

"مرحى، أحسنتَ وحقِّ إيماني – أجاب الأب: – لقد تعلَّمتَ من حسابات التَّاجر أن تبدِّل طِباقَ الحياة بإيصالاتٍ من الخلف، ودوراتِ المفاتيح بضربات المجاديف، وتَسَلُّقَ النَّوافذ بمدِّ الحبال. يا لبؤسي، لو أنَّني علَّمتك أن تدير عجلة غَزْلٍ لكان خيراً لي من دوران عجلة الغَزْل في جسدي، ويبدو لي، مع كلِّ ساعةٍ تمضي، أنَّني أراك في قلب المحكمة

مع طاسةٍ من ورق[1]، أو موضوعاً على المجداف[2] بعد أن يَبِينَ نحاسُكَ من ذَهَبِك، أو، إن نجوت من هذا، مستوفياً أخيراً أجلكَ بحبلٍ".

وبعد أن قال هذا، التفت إلى تيتِّلُّو، ابنه الثَّاني، وقال له: "وأنت، أيَّ مهارةٍ جميلةٍ تعلَّمت؟".

"بناء القوارب"، أجاب الابن.

"لا بأس – قال الأب، – فهذه مهنةٌ شريفةٌ، ويمكنك أن تكسب قوت يومك منها. وأنت، يا رِنتسونِه، ما الذي صرت تتقنه بعد هذا الوقت الطَّويل؟".

"أجيد الرَّمي بالقوس والنُّشَّاب لدرجة أنَّني أستطيع أن أقلع عين ديكٍ بسهمي".

"لا بأس بهذا أيضاً – قال الأب، – لأنَّك تستطيع أن تكسب قوت يومك بالصَّيد وتؤمِّن حاجتك من الخبز". ثمَّ التفت إلى الرَّابع، سأله السُّؤال نفسه.

"أعرف كيف أعثر على عشبةٍ تُحْيي الموتى"، قال ياكوكو.

"أحسنت وحقِّ حياة لانفوزا! – هتف باتشونِه، – فهذه المرَّة الأولى التي سنتخلَّص فيها من الفقر، ونجعل النَّاس يعيشون أكثر من مدرَّج كابوا".

وحين سأل الابنَ الأخيرَ، مِنيكوتشو، ما الذي يبرع فيه، أجاب هذا الأخير: "أستطيع أن أفهم لغة الطَّير".

«لا تقل لي إنَّك – علَّق الأب، – بينما كنَّا على المائدة، نهضتَ لتصغي إلى تغريد ذلك الدُّوريِّ. ولكن، طالما أنَّك تتباهى بفهم ما تقوله الطُّيور، هيَّا أخبرنا ماذا قال ذلك الطَّائر الذي كان على الشَّجرة؟».

---

1) أي يُجلَد من قبل السَّجَّانين مع قبَّعةٍ من الورق على رأسه؛ (كروتشِه).

2) أي أن يُحكم عليه بالأعمال الشَّاقَّة، لأنَّ السُّجناء كانوا يقومون بالتَّجديف في السُّفن؛ (المترجمان).

«كان يقول إنَّ أحد الغيلان قد اختطف ابنة ملك ألتوغولفو[1] – قال مِنيكوتشو – وأخذها إلى حيدٍ صخريٍّ، وانقطعت أخبارها، وقد أصدر والدها بلاغاً بأنَّ من يجدها ويُعِدْها إليه، تكُنْ له زوجة».

«إن كان الأمر كذلك، فقد ضمنَّا لأنفسنا الثَّراء – تدخَّل لوتشو، – فشجاعتي كافيةٌ لانتزاعها من براثن الغول».

«إن كنت واثقاً من ذلك – أضاف العجوز، – فلنذهب من فورنا إلى الملك، وإن منحنا كلمته للوفاء بوعده، عرضنا عليه أن نعثر على ابنته».

وحالما أقرَّ الجميع هذا الاتِّفاق، بنى تيتِّلُّو قارباً قويَّاً ركبوه وأبحروا إلى سردينيا، وهناك قابلوا الملك وعرضوا عليه استعادة ابنته تشانَّا، وحصلوا على تأكيدٍ جديدٍ للوعد الذي كان قد قطعه على نفسه في البلاغ.

ثمَّ توجَّهوا إلى الحيد الصَّخريِّ، ولحسن حظِّهم وجدوا الغول نائماً تحت الشَّمس، وابنة الملك مُسندةً رأسها إلى حِجره. وحالما رأت القارب يقترب، أرادت النُّهوض من الفرحة؛ ولكنَّ باتشونِه أشار إليها بأن تبقى ساكنةً، ثمَّ وضعوا حجراً كبيراً في حضن الغول وأنهضوا تشانَّا وسحبوها إلى القارب وبدأوا يجدِّفون بقوَّة.

لم يكونوا قد ابتعدوا كثيراً عن الشَّاطئ عندما استيقظ الغول ولم يجد تشانَّا بجانبه، فمسح البحر بعينيه ورأى القارب يحملها بعيداً. وفي الحال تحوَّل إلى سحابةٍ سوداء راحت تجري في الهواء لتلحق بالقارب؛ ولكنَّ تشانَّا، وكانت تعرف حيله، أدركت أنَّه قادمٌ ملفوفاً بالسَّحابة، فبدأت ترتجف من شدَّة الخوف، وتمكَّنت بشقِّ الأنفس من تحذير باتشونِه وأبنائه قبل أن تقضي نحبها من شدَّة خفقان قلبها. ومع اقتراب السَّحابة، أمسك رِنتسونِه القوس والنُّشَّاب وأصاب الغول في عينيه، فسقط في

---

1) تعني حرفيّاً: الخليج العالي؛ (المترجمان).

البحر من شدَّة الألم مُصدِراً دويَّاً هائلاً، ولكن، بعد أن كان منكبًّاً تماماً على مهمَّته وعيناه مصوَّبتان إلى السَّحابة، عاد بنظره إلى القارب ليرى ماذا حدث لتشانَّا، فوجدها بقدمين ممدودتين وقد غادرت زينة الحياة الدُّنيا.

وراح باتشونِه ينتف لحيته وهو يصرخ: «ها قد ضاع الشَّرف وراحة البال؛ ها قد ذهبت جهودنا أدراجَ الرِّياح وآمالُنا أدراجَ البحر؛ لأنَّ هذه ذهبت ترعى لتجعلنا نتضوَّر من الجوع؛ قالت لنا: - ليلةً سعيدة! - لتمنحنا نهاراً مشؤوماً؛ قطعت خيط الحياة لينقطع خيطُ شَصِّ آمالنا! من الواضح أنَّ خطط الفقراء لا تنجح؛ ومن الثَّابت أنَّ من يولد بائساً يمت يائساً! ها قد تحرَّرت ابنة الملك؛ ها قد رجعت إلى سردينيا، ها هي الزَّوجة الموعودة كجائزة، ها قد أقيمت الأفراح واللَّيالي المِلاح، هاكم الصَّولجان، ها نحن نُساط على مؤخِّراتنا على الأرض العارية!».

ظلَّ ياكوكو يصغي إلى هذا النَّحيب، وفي النِّهاية، حين رأى أنَّ الأغنية استمرَّت أكثر من اللُّزوم وأنَّ أباه على وشك أن يعزف على عود الألم طباقاً مؤثِّراً، قال له: «اهدأ يا سيِّدي، فنحن نريد أن نذهب إلى سردينيا وأن نعيش هناك ونحن أكثر سعادةً وعزاءً ممَّا تتخيَّل».

«فليكن هذا العزاء من نصيب التُّركيِّ العظيم! - أجاب باتشونِه، - فعندما نعود بهذه الجثَّة إلى الأب، سيجعلنا ندفع الثَّمن غالياً، وليس مالاً، وبينما النَّاس يموتون من التَّكشيرة السَّردينيَّة، سنموت نحن من البكاء السَّردينيِّ[1]».

«اصمت! - ردَّ ياكوكو: - هل أرسلت دماغك ليرعى؟ ألا تذكر الفنَّ

1) التَّكشيرة السَّردينيَّة تشنُّجٌ غير طبيعيٍّ في عضلات الوجه، بحيث يظهر في شكل ابتسامة عريضة، وتبدو للمراقب العاديِّ على أنَّها ابتسامةٌ ساخرةٌ أو حاقدة. وتعود جذور هذه التَّسمية إلى جزيرة سردينيا، وقد نُسجت حولها الكثير من التَّفسيرات والأساطير؛ (كروتشِه).

الذي تعلَّمتُه؟ فلنرسُ، ودعني أبحث عن العشبة التي في ذهني، وسوف ترى شيئاً عظيماً يحدث».

حين سمع الأب هذه الكلمات، تنفَّس الصُّعداء وعانقه، وممزَّقاً من شدَّة التَّوق إلى ذلك، كاد يُمَزِّق بضرباته المجداف، حتى إنَّهم وصلوا في وقتٍ قصيرٍ إلى سواحل سردينيا. وهناك، نزل ياكوكو إلى البرِّ ووجد ما كان يبحث عنه؛ ثمَّ عاد بسرعةٍ إلى القارب وعصر العشبة في فم تشانَّا التي عادت على الفور إلى الحياة مثل ضفدعةٍ لبثت وقتاً في كهف الكلب ثمَّ أُلقِيَتْ في بحيرة أنيانو[1].

وهكذا، بسعادةٍ غامرةٍ، مثلوا بين يدَي الملك مع ابنته التي أنقذوها، ولم يشبع الملك من احتضانها وتقبيلها وهو يشكر أولئك الرِّجال الطَّيِّبين الذين أعادوها إليه. وحين التمسوا الوفاء بالوعد، قال الملك: «نعم، ولكن لمن منكم عليَّ أن أعطي تشانَّا؟ هذه ليست كعكة ميلياتشو[2] يمكن تقطيعها إلى شرائح. لذلك، ستكون حبَّة الكرز التي فوق الكعكة من نصيب واحدٍ منكم فحسب، والآخرون سيلهون بالمسواك».

فأجاب أوَّل الأخوة، وكان حصيفاً: «سيِّدي، الجائزة يجب أن تُعطى وفقاً للجهد المبذول. انظروا جلالتكم من منَّا يستحقُّ هذه اللُّقمة الطَّيِّبة، ثمَّ احكموا بما ترونه عدلاً».

"أنت تتحدَّث مثل أورلاندو! – أجاب الملك، – إذاً أخبروني بما قمتم به حتى لا أرتكب خطأً في الحكم».

---

1) كهف الكلب الشَّهيرة بالقرب من نابولي والذي كان يُستخدَم، على سبيل التَّجربة، لإفقاد الحيوانات الوعي بثاني أكسيد الكربون الذي يملأ الكهف، ثمَّ إلقائهم في بحيرة أنيانو القريبة لإفاقتهم؛ (كروتشه).

2) Torta Migliaccio نوعٌ من الحلوى التَّقليديَّة في نابولي، مرتبطة بشكلٍ خاصٍّ بأعياد الكارنفال، وتُحضَّر بالسَّميد والبيض والسُّكَّر والفانيليا؛ (المترجمان).

وبعد أن عدَّد كلٌّ منهم براهينه، التفت الملك إلى باتشونه وسأله: «وأنتَ، ماذا فعلت في هذه القضيَّة؟».

«أعتقد أنَّني فعلت الكثير – أجاب باتشونِه، – لأنَّني صنعت من أبنائي هؤلاء رجالاً، وبالحثِّ والتَّشجيع جعلتهم يتعلَّمون الفنون التي يجيدونها الآن؛ ولولا ذلك لكانوا مِشكاكاً من السِّلال الفارغة بدلاً من الثِّمار الجميلة التي ترونها أمامكم!».

وبعد أن استمع الملك إلى هذا وذاك، وبعد أن مضغ واجترَّ حُجَجَ هذا وحُجَجَ ذاك، وبعد أن رأى وقدَّر ما هو صواب، قرَّر أنَّ تشانًّا من نصيب باتشونِه، لأنَّه كان السَّبب الأصليَّ لخلاص ابنته.

وكما قال فعل، وبعد أن نفح أبناءَه كومةً من النُّقود تعينهم على كسب رزقهم، عاد الأب، من شدَّة الفرح، صبيًّاً في الخامسة عشرة، مُثبِتاً المثل القائل:

إذا تخاصم اثنان، انتصرَ الثَّالث.

نينِّلُّو ونينِّلَّا
المؤانسة الثَّامنة من اليوم الخامس

ليانُّوتشو ولدان من زوجته الأولى، وبعد أن يتزوَّج مرَّةً ثانيةً، ترفضهما زوجة أبيهما، فيجد نفسه مرغماً على تركهما في إحدى الغابات. يضيع الولدان ويفترقان، ويصبح نينِّلُّو الوصيفَ الأثيرَ لأحد الأمراء؛ ونينِّلَّا، بعد أن تغرق في البحر، تبتلعها سمكةٌ مسحورة؛ ولكنَّها ترميها فيما بعد على صخرةٍ، فيتعرَّف عليها شقيقها ويتزوَّجها الأمير في حفلٍ مهيب.

ما إن أنهت تشولَّا عَدْوَها حتى استعدَّت باولا لدخول مضمار السِّباق، فهذَّبت صوتها بكشطةٍ قويَّةٍ ونظَّفت أنفها بمنديلٍ جديدٍ من الكتَّان، ثمَّ أنشأت تقول: بائسٌ ذلك الرَّجل الذي لديه أطفالٌ ويأمل أن يوفِّر لهم الرِّعاية بإهدائهم زوجة أب، ولا يعرف أنَّه يجلب إلى المنزل وسيلةً لدمارهم، لأنَّه ليس هناك زوجة أبٍ تنظر بعين اللُّطف إلى نسل غيرها، وإن وُجدت واحدةٌ مُصادفةً، أمكنكم حينئذٍ أن تضعوا العود في الثُّقب وتقولوا إنَّها غرابٌ أبيض. ومن بين الكثيرات اللَّاتي سمعتم عنهنَّ، سوف أحدِّثكم عن واحدةٍ يمكن وضعها في قائمة زوجات الأب عديمات الضَّمير؛ ولسوف تجدونها مستحقَّةً للعقاب الذي اشترته لنفسها نقداً.

حُكي أنَّه كان فيما مضى من قديم الزَّمان، وسالف العصر والأوان، أبٌ يُدعَى يانُّوتشو، له ولدان، نينِّلُّو ونينِّلَّا، وكان يحبُّهما كبؤبؤَي عينيه. ولكن، لأنَّ الموت كسر بِنَصْلِهِ الأصمَّ قضبان سجن روح زوجته، اتَّخذ ساحرةً

قبيحةً زوجةً له، وكانت تلك الزَّوجة سمكة قرشٍ ملعونة؛ وبمجرَّد أن وطئت قدمها منزل زوجها، تحوَّلت إلى حصانٍ في إسطبلٍ، وبدأت تقول: «إذاً، لقد جئت لأنقِّي القمل من رأسَي ابنَي امرأةٍ أخرى! هذا ما كان ينقصني، أن آخذ على عاتقي هذا العبء وأجد بين ساقيَّ طفلين بكَّاءَين! أوه، ليتني كسرت رقبتي قبل مجيئي إلى هذا الجحيم لآكل طعاماً رديئاً ولا أنام جيِّداً بسبب هاتين القُرَادتَين! هذه حياةٌ لا تُطاق! لقد جئت كزوجةٍ وليس كخادمة. يجب أن أحزم أمري وأعثر على مأوىً لهاتين الحشرتين، أو أعثر على مأوىً لي. ومن الأفضل أن أحمرَّ مرَّةً واحدةً من أن أشحب مِائة مرَّة. فلنصحِّح هذا الزَّواج مرَّةً واحدةً وإلى الأبد! أنا عازمةٌ إمَّا على نيل شيءٍ من هذا الزَّواج وإمَّا على هدم كلِّ شيءٍ مرَّةً واحدة». فقال الزَّوج المسكين الذي كان يكنُّ بعض المودَّة لهذه الأنثى: «لا تغضبي يا زوجتي، فالسُّكَّر باهظ الثَّمن! غداً صباحاً، قبل صياح الدِّيك، سأزيح هذا الغمَّ عن صدركِ لأبقيكِ سعيدة».

وهكذا، في صباح اليوم التالي، قبل أن ينشر الفجر البطَّانيَّةَ الإسبانيَّةَ الحمراء من نافذة الشَّرق لينفض عنها البراغيث، أمسك يانُّوتشو بيدي ولديه، حاملاً على ذراعه سلَّةً ملأى بالطَّعام، وقادهما إلى إحدى الغابات، حيث كان جيشٌ من أشجار الحور والزَّان يحاصر الظِّلال. وعند وصوله إلى هناك، قال: «يا طفليَّ، ابقيا هنا؛ كُلَا واشربا بسعادةٍ، وإذا احتجتما إلى شيءٍ ما، أترَيان شريط الرَّماد الذي أنثره؟ سيكون هو الخيط الذي سيخرجكما من المتاهة ويقودكما خطوةً خطوةً إلى منزلكما». وبعد أن قبَّلهما، عاد إلى المنزل باكياً.

ولكن، في السَّاعة التي تؤدِّي فيها جميع الحيوانات، بطلبٍ من شرطة اللَّيل، ضريبةَ الرَّاحةِ اللَّازمةِ إلى الطَّبيعة، خاف الطِّفلان من البقاء في ذلك المكان الموحش، حيث مياه النَّهر تضرب أحجار النَّهر الوقحة

لمعاقبتها، بطريقةٍ كانت ستخيف حتى رودومونتِه، فتبعا رويداً رويداً الدَّرب المنثور بالرَّماد، وكان الوقت منتصف اللَّيل عندما وصلا على مهلهما إلى المنزل.

وعندما رأتهما باسكوتسَا، زوجة الأب، لم تقم بأشياء تمتُّ بصلةٍ إلى أنثى، بل إلى غضبٍ جهنَّميٍّ، رافعةً صراخها إلى السَّماء، وهي تصفِّق بيديها وقدميها، وتنخر مثل حصانٍ حُجِبَ عنه الضَّوء، قائلةً: "ما هذا الشَّيء الجميل؟ من أين بزغ هذان المَخَّاطان المزعجان؟ وهل من المعقول ألَّا يكون هناك زئبقٌ يمكن أن يزيلهما من هذا البيت؟ وهل من الممكن أنَّك تريد أن تبقيهما حولي فقط لينفجر قلبي؟ هيَّا، أبعدهما في الحال عن ناظريَّ، لأنَّني لا أريد انتظار صياح الدِّيك ولا نقيق الدَّجاج. وإذا لم تفعل ذلك، يمكنك أن تدغدغ أسنانك لأنَّني لن أنام معك مرَّةً أخرى؛ وسوف أعود إلى منزل أهلي صباح يوم غد؛ لأنَّك لا تستحقُّني! أنا لم أجلب إلى هنا الكثير من الأثاث الجميل لكي أراه يتَّسخ برائحة براز مؤخِّرات الآخرين؛ ولم أعطك دوطةً كبيرةً لكي أرى نفسي عبدةً لولدين ليسا منِّي".

فما كان من يانُّوتشو البائس، إذ رأى القارب يترنَّح والوضع يزداد سوءاً، إلَّا أن أخذ الولدين على الفور وعاد بهما إلى الغابة، وبعد أن أعطاهما سلَّةً أخرى تحتوي على بعض الطَّعام، قال لهما: "أنتما تريان، يا ولديَّ، كم تبغضكما زوجتي القبيحة التي أتت إلى منزلي خرابًا لكما ومسماراً لهذا القلب. لذا، ابقيا في هذه الغابة، حيث الأشجار، الأرأف بكما منها، ستجعل من أنفسها سقفاً يدرأ عنكما الشَّمس؛ وحيث النَّهر، الأكثر خيراً منها، سيمنحكما ما تشربانه بلا سمٍّ؛ والأرض، الأكثر لطفاً منها، ستقدِّم لكما فِراشاً كبيراً من العشب بلا مخاطر. وعندما لا تجدان ما تأكلانه، ستريان درب النُّخالة المستقيم الذي صنعتُه لكما الآن، ويمكنكما السَّير عليه لطلب المساعدة". قال هذا وأدار وجهه إلى الجانب الآخر لئلَّا يراه الصَّغيران المسكينان يبكي ويجزعا.

عندما استهلك الولدان محتويات السَّلَّة، أرادا العودة إلى المنزل؛ ولكنَّ حماراً، ابنَ سوء الطَّالع، كان قد لعق النُّخالة المنثورة على الأرض، فضلَّا الطَّريق، وهاما على وجهيهما لبضعة أيَّامٍ في الغابة، يقتاتان ثمارَ البلُّوطِ والكستناء التي التقطاها من الأرض. ولكن، لأنَّ السَّماء تبسط يدها دائماً على رؤوس الأبرياء، صادف أن كان أحد الأمراء يصطاد في تلك الغابة؛ وعندما سمع نينِّلُّو نباح الكلاب، شعر بخوفٍ شديدٍ وألقى بنفسه في جوف إحدى الأشجار، بينما أطلقت نينِّلَّا العنانَ لساقيها إلى أن وجدت نفسها في مرسىً كان بعض القراصنة قد رسوا فيه لجمع الحطب، فأخذها زعيمهم إلى بيته، وهناك احتفظت بها زوجته عِوَضاً عن ابنتها التي كانت قد فقدتها للتَّوِّ.

في تلك الأثناء، كانت الكلاب قد طوَّقت نينِّلُّو القابع خلف لحاء تلك الشَّجرة، وأخذت تصدر نباحاً يصمُّ الآذان؛ فأراد الأمير أن يرى ما في الدَّاخل، وحين وجد ذلك الطِّفل الجميل، ولم يعرف ما اسم أمِّه وأبيه لكونه صغيراً جدَّاً، وضعه على حصان أحد مرافقيه وأخذه معه. وباهتمامٍ كبيرٍ رعاه في قصره ولقَّنه الفضائل، وعلَّمه من بين ما علَّمه فنَّ تقصيب اللَّحم، ولم تمض ثلاث أو أربع سنواتٍ حتى أصبح بارعاً جدَّاً لدرجة أنَّه كان قادراً على شقِّ الشَّعرة نصفَين.

في ذلك الوقت، اتَّضح أنَّ القرصان، الذي كانت نينِّلَّا تقيم عنده، كان لصَّ بحرٍ كبيراً، وكان من المزمع وضعه في السِّجن؛ ولكن، لمَّا كان لديه أصدقاءٌ من الكتبة[1] وكان يدفع لهم مرتَّباً، هرب مع جميع أفراد أسرته. وربَّما كان من عدل السَّماء أن يسدِّد، هو الذي ارتكب آثامه في البحر، عقوبتَه في البحر؛ فبعدما ركبوا قارباً صغيراً، وأصبحوا في عرض البحر، تعرَّضوا لهبَّات رياحٍ ولهيجاتِ أمواجٍ، فانقلب القارب بهم وغرقوا جميعاً. وحدها نينِّلَّا، التي لم يكن لها، مثل زوجة القرصان وأبنائه، ذنبٌ في

---

1) في المحكمة؛ (كروتشِه).

سرقاته، نجت من الخطر؛ وبينما كان الآخرون يسقطون في البحر، صادف وجود سمكةٍ مسحورةٍ بالقرب من القارب، ففتحت هاويةَ حلقِها وابتلعتها.

وعندما اعتقدت الفتاة أنَّ أيَّام حياتها شارفت على نهايتها، إذا بها تقف مبهوتةً ممَّا رأته في بطن السَّمكة. كان ثمَّة حقولٌ جميلةٌ، وحدائق رائعةٌ، وقصرٌ بديعٌ فيه كلُّ وسائل الرَّاحة، عاشت فيه نينِّيلَّا عيشةَ الأميرات.

ثمَّ حدث أن حملتها السَّمكة إلى حيدٍ صخريٍّ، ولأنَّ قيظ الصَّيف كان في أشدِّه وحرارته كحرارة أكثر الأفران التهاباً، كان الأمير قد قصدَ الحيدَ ليتمتَّع ببعض الهواء المنعش. وبينما كان يُعَدُّ لمأدبةٍ كبيرةٍ، وقف نينِّيلُّو على إحدى شرفات القصر المطلَّةِ على ذلك الحيد ليشحذ بعض السَّكاكين، مزهوَّاً كثيراً بالشَّرف الذي أحرزه من عمله، فرأته نينِّيلَّا وعرفته من وراء فكَّي السَّمكة المفتوحَين، وفي الحال رفعت عقيرتها بنداء أنينٍ وبكاء:

أخي، أيْ أخي!
هي ذي سكِّينُكَ قد شُحِذَت،
والمائدةُ أُعِدَّت،
وفرحٌ عظيمٌ عمَّ الجميع:
أنا وحدي تُضنيني الحياة،
من دونكَ، هنا في حلق السَّمكة!

في البداية، لم ينتبه نينِّيلُّو لهذه الكلمات؛ ولكنَّ الأمير، الذي كان واقفاً على شرفةٍ أخرى، رأى السَّمكة وسمع الكلمات نفسها تتكرَّر مرَّةً أخرى، فاستغربَ الأمرَ وأرسلَ عدداً من الخدم ليروا إن كان بإمكانهم خداع السَّمكة بطريقةٍ ما واستدراجها إلى الشَّاطئ؛ ولكن لأنَّه بقي، في هذه الأثناء، يسمع نداءَ "أخي، أيْ أخي!" يتواصل بلا انقطاعٍ، راح يسأل الجميع، فرداً

فرداً، إن كان أحدهم قد فقد أخته. فأجاب نينِّلُّو، وكان في تلك اللَّحظة يتذكَّر الأمر كحلمٍ، بأنَّه، عندما كان في الغابة، كانت بصحبته أختٌ له، ولم يسمع عنها شيئاً بعد ذلك.

طلب منه الأمير أن يقترب من السَّمكة وينظر في الأمر، لأنَّ مخاطرةً كهذه ربَّما كانت شأناً من شؤونه. ولدى اقترابه منها، وضعت السَّمكة رأسها على الحيد، ثمَّ فغرت فكَّين باتِّساع ستِّ قصباتٍ وأخرجت نينِّيلاَّ التي بدت كحوريَّةٍ خرجت، بلمسة ساحرٍ، من بطن حيوانٍ، في مشهدٍ مسرحيٍّ فاصل.

حكت نينِّيلاَّ للأمير الذي استجوبها بعض فصول آلامِها وحقدِ زوجة أبيها؛ ولكن لم تستطع هي ولا شقيقها تذكُّرَ اسم أبيهما أو مكان منزلهما، فأصدر الأميرُ بلاغاً بأنَّ على من فقد في غابةٍ ولدين، نينِّلُّو ونينِّيلاَّ، أن يذهب إلى القصر الملكيِّ حيث سيسمع خبراً سعيداً عنهما.

كان يانُّوتشو حزيناً دائماً وكئيباً لأنَّه كان يعتقد أنَّ الذِّئاب التهمت ولديه، فهرع مبتهجاً إلى الأمير ليخبره أنَّه هو الرَّجل الذي فقدَ طفليه. وبعد أن حكى له كيف أُجبِر على أخذهما إلى الغابة، وبَّخه الأمير بشدَّةٍ، واصفاً إيَّاه بالوحش الأحمق الذي سمح لأنثى بأن تضع قدمها على رقبته وألقى إلى التَّهلكة بجوهرتين من صُلبه. ولكن، بعد أن حطَّم رأسه بهذه الكلمات، وضع عليه ضمادةَ العزاء، وجعله يرى ولديه اللَّذَين لم يشبع من معانقتهما وتقبيلهما لأكثر من نصف ساعة؛ وبعد أن طلب الأميرُ منه أن ينضو المعطف الخشن عنه، أوعز في إلباسه لباس رجلٍ نبيل. ثمَّ استدعى زوجة يانُّوتشو وأشار إلى تينك الوريقتين الذَّهبيَّتين، سائلاً إيَّاها: "ما الذي يمكن أن يستحقَّه من يسيء إليهما ويعرِّضهما لخطر الموت؟". فأجابت: "بالنِّسبة إليَّ، سأضعه في دنٍّ خشبيٍّ وأدحرج الدَّنَّ من قمَّة

جبل". "ها قد نلتِ ما طلبته: لقد وجَّهَتِ المعزاةُ قرنيها نحو نفسها. هيَّا، أنتِ التي أصدرتِ الحكمَ وأنتِ التي ستنالينه؛ أنتِ يا من حملت الكثير من الكراهيَّة لولدَي زوجك الجميلَين". وأعطى الأمر بتنفيذ الحكم الذي نطقت به بلسانها.

في الوقت نفسه وجد رجلاً ثريَّاً من أعوانه وزوَّجه نينِّيلَّا، وابنةَ نبيلٍ آخر مثل هذا، وقدَّمها زوجةً لأخيها؛ وجعل لهما ولأبيهما دخلاً يكفيهم ليعيشوا دون الحاجة إلى أحدٍ في العالم. في هذه الأثناء، محشورةً في برميلٍ خشبيٍّ، حطَّمت زوجة الأب حياتها، وهي تصرخ باستمرارٍ من الثُّقب إلى أن لفظت أنفاسها:

يتأخَّر العقاب، ولكن لا تأمَنْ!

سيأتي دفعةً واحدةً، ويجعلك تدفع كلَّ ما يترتَّب عليك!

ثمرات الكَبَّاد الثَّلاث

المؤانسة التَّاسعة من اليوم الخامس

لا يريد تشِنتسُولُّو الزَّواج؛ ولكن حين يجرح إصبعه فوق قطعةٍ من جبن الرِّيكوتّا، تتوق نفسه إلى واحدةٍ ذات بشرةٍ بيضاء وحمراء مثل الدَّم على الحليب. يضرب في الآفاق بحثاً عنها، وفي جزيرة الحوريَّات الثَّلاث يُعطى ثلاث ثمراتٍ من الكَبَّاد، وبقطع إحداهنَّ يحصل على حوريَّةٍ جميلةٍ توافق هواه؛ ولأنَّها كانت قد قُتلت على يد عبدةٍ، يتَّخذ السَّوداء زوجةً بدلاً من البيضاء. ولكنَّه يكتشف الخيانة، فتلقى العبدة حتفها، وتعود الحوريَّة إلى الحياة وتصبح ملكة.

لا يمكن وصف مقدار المتعة التي منحتها حكاية باولا للحاضرين؛ ولكنَّه كان دور تشومِّتِلَّا لتحكي حكايتها، وحين أومِئَ إليها بذلك، تكلَّمت على النَّحو التَّالي:

لقد كان مصيباً بالفعل ذلك الحكيم الذي قال: "لا تقل ما تعرف، ولا تفعل ما تستطيع"، لأنَّ كلا الأمرين يحمل خطراً لا يمكن التَّكهُّن به، وخراباً لا يمكن توقُّعه؛ كما ستسمعون عن تلك العبدة (مع احترامنا للسَّيِّدة أميرتنا) التي، بسبب إلحاقها ما استطاعت من الأذى بفتاةٍ مسكينةٍ، غنمتْ غَنْماً انتهى بها قاضيةً على نفسها وأصدرت حكماً بالعقوبة التي تستحقُّها.

كان لملك تُورِّه لونغا ابنٌ بمثابة عينه اليمنى، وكان قد أرسى فيه أسسَ

كلِّ أملٍ من آماله، وكان شديد التَّوق إلى إيجاد زوجةٍ مثاليَّةٍ له وإلى سماع من يناديه: جَدِّي. ولكنَّ هذا الأمير كان انطوائيّاً وبعيداً عن هذه الأفكار، فكلَّما فاتحه أحدٌ بأمر الزَّوجة، كان يهزُّ رأسه ويبدو بعيداً عن محدِّثه مِائة ميل؛ وهكذا، عندما رأى الأب المسكين كم كان متمنِّعاً وعنيداً، ورأى مِن ثَمَّ الخطرَ المحدق بسلالته، صار أكثر حقداً وحنقاً من مومسٍ فقدت زبونها، ومن تاجرٍ أفلس وكيله، ومن فلَّاحٍ مات حماره. ولم تكن دموع الأب لتحرِّك مشاعر الابن، ولا صلوات الأتباع لتليِّن قلبه وتدفعه إلى الأخذ بمشورة الرِّجال الصَّالحين الذين كانوا يبيِّنون له رغبة من جاء من نسله، وحاجة الشَّعب، ومصلحته هو نفسه الذي كان النُّقطة الأخيرة في خطِّ الدَّم الملكيِّ. فبمكرٍ لا يتزعزع، وبعناد بغلةٍ هرمة، وبجلدٍ سُمْكُهُ أربعة أصابع في أجزائه الرَّفيعة، كان يثبِّت قدميه، ويسدُّ أذنيه، ويوصد قلبه؛ وكان من العبث قرع السِّلاح، لأنَّه ما كان ليجيب.

ولكن، لأنَّه عادةً ما يحدث في ساعةٍ أكثر ممَّا يحدث في مِائة عامٍ، ولأنَّه لا يمكنك أبداً أن تقول: «لن أمرَّ في هذا الطَّريق»، حدث في أحد الأيَّام، عندما كان الجميع على المائدة، أن أراد الأمير تقطيع جبنة الرِّيكوتَّا وهو يراقب الغربان التي تطير، فجرح من غير قصدٍ إصبعه، وسقطت قطرتان من الدَّم على الجبنة، فتشكَّل مزيجٌ من لونٍ جميلٍ وساحرٍ، وربَّما عقاباً من إله الحبِّ الواقف له بالمرصاد، أو مشيئةً من السَّماء لمواساة الأب، ذلك الرَّجل الطَّيِّب الذي لم يكن يتضايق من فرسه المستأنسة بقدر ما كان يتعذَّب من هذا المهر البرِّيِّ، استولت عليه رغبةٌ في الحصول على أنثى بيضاء وحمراء مثل تلك الجبنة التي اصطبغت بدمه. فقال لأبيه: «أيْ سيِّدي، إذا لم أحظ بعروسٍ من هذا اللَّون، فإنَّني هالكٌ لا محالة! لم أصادف أبداً أنثى حرَّكت دمي، والآن أريد واحدةً مشابهةً لدمي. فإن كنت تريدني حيّاً وبصحَّةٍ جيِّدةٍ، اعقد العزم على أن تمنحني ما يلزم لأضرب في

الآفاق بحثاً عن جمالٍ يضارع جمالَ هذه الجبنة، وإلَّا أنهيتُ دورة حياتي ورحلتُ إلى الظِّلال».

عندما سمع الملك هذا القرار الهمجيَّ، اسودَّت الدُّنيا في عينيه، وظلَّ مبهوتاً، وأجاب ولونه يتنقَّل ما بين الاحمرار والشُّحوب: «يا بنيَّ، يا أحشاء هذه الرُّوح، يا مراد هذا القلب، يا عكَّاز شيخوختي، أيُّ دوارٍ أصابك؟ هل خرجت عن طورك؟ هل فقدت عقلك؟ إمَّا ورقة الآس وإمَّا ورقة السِّتَّة! كنت لا تريد زوجةً لكي تحرمني الوريث، والآن تريد زوجةً لكي تطردني من هذا العالم. أين، أين تريد أن تذهب وتتصعلك من غير مساعدة، مستنزفاً حياتك، وكيف تريد أن تترك منزلك، وأنفاسك، وموقدك الصَّغير، وضراطك؟ ألا تدرك حجم المشاقِّ والمخاطر التي يتعرَّض لها المسافر؟ دع نوبة الغضب تمرُّ، يا بنيَّ، وعُدْ إلى رشدك. لا أريد أن أرى هذه الحياة منكوبةً، وهذا البيت مدمَّراً، وهذه المملكة خاويةً على عروشها!».

إلَّا أنَّ هذه الكلمات، وكلمات أخرى مشابهةٍ لها، كانت تدخل من أذنٍ وتخرج من الأخرى، وكانت كلُّها تذهب أدراج الرِّياح. حتى إنَّ الملك المكروب، عندما رأى أنَّ ابنه كان كالغراب في برج أجراس الكنيسة، أعطاه مبلغاً من المال واثنين أو ثلاثة من الخدم، وأذن له بالرَّحيل. ولكنَّه كان يشعر بروحه تُنْتَزَعُ من صدره، وأطلَّ من إحدى الشُّرفات، وهو يبكي بمرارةٍ، وتبعه بعينيه حتى اختفى عن ناظريه.

راح الأمير يطوي البراري والغابات والجبال والوديان والسُّهول والمنحدرات، ورأى بلداناً مختلفةً، وتعامل مع شعوبٍ مختلفةٍ، وعيناه مفتوحتان دائماً للبحث علَّه يقع على هدف رغبته. وبعد مضيِّ أربعة أشهر، وصل إلى أحد الشَّواطئ الفرنسيَّة، وهناك ترك الخدم في نُزلٍ بأقدامٍ متورِّمةٍ، وركب البحر وحده على متن سفينةٍ جِنَويَّةٍ[1]، وأبحر باتِّجاه

1) نسبةً إلى جنوة، المدينة الإيطاليّة؛ (المترجمان).

جبل طارق حيث صعد إلى سفينةٍ أكبر حجماً وأبحر إلى جزر الهند، باحثاً بلا انقطاعٍ من مملكةٍ إلى مملكة، ومن إقليمٍ إلى إقليم، ومن مقاطعةٍ إلى مقاطعة، ومن أرضٍ إلى أرض، ومن زقاقٍ إلى زقاق، ومن بيتٍ إلى بيت، ومن كوخٍ إلى كوخ، علَّه يصادف النُّسخة الأصليَّةَ للصُّورة الجميلة التي كان يحملها وشماً في قلبه.

وبعد رحلةٍ عظيمةٍ، وصل إلى جزيرة الغيلان، حيث، بعد أن ألقى المرساة ونزل إلى البرِّ، وجد امرأةً هرمةً وضامرةً وقبيحةَ الوجه للغاية، فأخبرها بالسَّبب الذي قاده إلى تلك البلاد. فاندهشت العجوز من نزوته الغريبة ومن خياله الجامح ومن المشاقِّ والمخاطر التي مرَّ بها لتحقيق رغبته، فقالت له: "يا بنيَّ، اهرب، لأنَّه إن رآك أبنائي الثَّلاثة، وهم مسلخٌ للَّحم البشريِّ، فلن أراهن عليك بثلاثة قروش. نصفَ حيٍّ ونصفَ مشويٍّ، ستكون المقلاة نعشك والبطن مدفنك. فاستخدمْ خطوة أرنبٍ برِّيٍّ، ولن تذهب بعيداً قبل أن تجد حظَّك".

عند سماعه ذلك، وضع الأميرُ الطَّريق بين ساقيه وهو مضطربٌ ومرتعدٌ ومذعورٌ ومنذهل، ودون حتى أن يقول: "يا قدُّوس"، واصل خبط كعبيه حتى وصل إلى بلدٍ آخر، حيث صادف عجوزاً أخرى، أشدَّ قبحاً من الأولى، وبعد أن أخبرها بقصَّته من بدايتها إلى نهايتها، قالت له: "انصرفْ بسرعةٍ من هنا إن كنت لا تريد أن تكون وجبةً خفيفةً لبناتي الغُولات؛ هيَّا اركض، لأنَّ اللَّيل على الأبواب! وسوف تجد حظَّك إلى الأمام قليلاً".

وركبَ الأميرُ ذيلَ الرِّيح، كما لو أنَّ بثوراً في ذيله؛ وسار كثيراً حتى صادف عجوزاً أخرى جالسةً على عجلةٍ مع سلَّةٍ في ذراعها مليئةٍ بالكعك واللَّوز المحلَّى، كانت تطعم منها قطيعاً من الحُمر الذين بدأوا يتقافزون على ضفَّة النَّهر وينهالون رفساً على بعض البجعات المسكينات. وبعد

ألف مجاملةٍ وإطراءٍ، حكى لها الأمير قصَّة رحلته؛ فواسته العجوز بكلماتٍ طيِّبةٍ وقدَّمت له فطوراً تُلعق من بعده الأصابع، وبعد أن رُفعت المائدة، سلَّمته ثلاث ثمراتٍ من الكَبَّاد، بدت وكأنَّها قُطفت للتَّوِّ من الشَّجرة، مع سكِّينٍ جميلةٍ. وفي الوقت نفسه، قالت له: "يمكنك العودة إلى إيطاليا، لأنَّ غَزْلَكَ قد اكتمل، ووجدتَ ما كنت تبحث عنه. اذهب إذاً، وعندما تصبح قريباً بعض الشَّيء من مملكتك، اقطع واحدةً من هذه الثَّمرات عند أوَّل نافورةٍ تجدها في طريقك، وسوف تخرج منها حوريَّةٌ ستقول لك: 'أعطني ما أشربه!'، فعجِّل لها بالماء، وإلَّا تلاشت مثل الزِّئبق. وإذا لم تكن سريعاً كفايةً مع الحوريَّة الأولى ولا مع الثَّانية، فعندئذٍ افتح عينيك جيِّداً وكن يقظاً مع الثَّالثة واسقِها على الفور، لئلَّا تطير من يديك، وستحظى بزوجةٍ توافق هوى قلبك".

ممتلئاً فرحاً، قَبَّلَ الأميرُ تلك اليد المُشْعِرة، التي كانت تبدو كظهر نَيْصٍ، مِائةَ قبلةٍ، وبعد أن استأذن، غادر تلك البلاد. ثمَّ نزل إلى المرسى، وأبحر إلى أعمدة هرقل، ودخل بِحَارَنا، وبعد ألف عاصفةٍ ومَهْلَكَةٍ، ألقى بمرساته على بعد مسيرة يومٍ من مملكته. وهناك دخل غابةً جميلةً كانت الظِّلال فيها تحجب المروج لكيلا تراها الشَّمس، وترجَّل عن حصانه بجوار نافورةٍ كانت تدعو النَّاس بصافرة لسانها الكريستاليِّ لينعشوا أفواههم. وبعد أن جلس على سجَّادةٍ سُوريَّةٍ منسوجةٍ بالأعشاب والزُّهور، سحب السِّكِّين من الغمد وبدأ في قطع ثمرة الكَبَّاد الأولى، فإذا فتاةٌ رائعة الجمال، بيضاء مثل الجبن الطَّازج وحمراء مثل عنقود من الفراولة، تخرج منها وتقول: "أعطني ما أشرب!". استولت دهشةٌ عظيمةٌ على الأمير وظلَّ جامداً في مكانه، فاغرَ الفم، من جمال الحوريَّة، لدرجة أنَّه لم يستطع إعطاءها الماء بالسُّرعة الكافية؛ فكان ظهورها واختفاؤها في لحظةٍ واحدة.

إذا أراد المرء أن يحكم إن كانت هذه ضربةً على رأس الأمير أم لا،

فليتصوَّر أنَّه كان يرغب في شيءٍ رائعٍ وبمجرَّد أن وجده بين يديه فقده! ولكن، عندما قطع ثمرة الكَبَّاد الثَّانية، حدث له الشَّيء نفسه وكانت الضَّربة الثَّانية موجعةً لدرجة أنَّ عينيه تحوَّلتا إلى جدولين تنهمر دموعهما قطرةً بقطرةٍ، وجبهةً إلى جبهةٍ، ووجهاً لوجهٍ مع النَّافورة، دون أن يتخلَّف عنها بقطرةٍ واحدة. وراح في الوقت نفسه يتنهَّد ويندب: "يا لحظي العاثر، فلتكن سنةً جديدةً سعيدة! لقد جعلتها تفلت منِّي مرَّتين، كما لو كانت يداي مخدَّرتين؛ شُلَّتْ يداي! ويحاً لي، أتحرَّك مثل صخرةٍ في وقتٍ ينبغي عليَّ فيه أن أعدو مثل السَّلوقيِّ! ويحاً لي، كم كنتُ بارعاً! هيَّا انهض، أيُّها الرَّجل المسكين: ثمَّة واحدةٌ أخرى، والرَّقم ثلاثةٌ رقمُ الملوك: إمَّا أن تعطيني هذه السِّكِّينُ الحوريَّةَ وإمَّا أن أستسلم للقدر!".

وقطع ثمرة الكَبَّاد الثَّالثة فخرجت منها حوريَّةٌ وقالت كما السَّابقتين: "أعطني ما أشرب!"؛ فقدَّم لها الأمير الماء في الحال، ورأى بين يديه فتاةً صغيرةً ورقيقةً، بيضاء مثل حلوىً من الحليب الخاثر المحلَّى، مع خطوطٍ حمراء بدت وكأنَّها لحمٌ مقدَّدٌ من أبروتسو أو سجقٌّ من نولا: شيءٌ لم يُرَ له مثيلٌ في العالم، جمالٌ لا يُضارعه جمال، بياضٌ لا يعلو عليه بياض، وطلاوةٌ ما بعدها طلاوة: كان جوبيتر قد أمطرَ شعرَها ذهباً صاغ منه كيوبيد سهاماً لاختراق القلوب؛ وعلى ذلك الوجه كان إله الحُبِّ قد تلا "المارناتا"[1] علَّ نفساً بريئةً تُعَلَّق بمشنقة الرَّغبة؛ وفي تينك العينين كانت الشَّمس قد أضاءت قنديلين علَّ النَّار تشتعل في براميل بارود مَن يراها فتنطلق أسهمٌ ناريَّةٌ وفرقعاتٌ من التَّأوُّهات؛ وعلى تلك الشِّفاه كانت قد مرَّت فينوس وهي في فترة حيضها، فأضفت على وردتهما لوناً لتلدغ بأشواكها ألف روحٍ هيمانة؛ وعبرَ ذلك الصَّدر كانت جونو قد عصرت ثدييها لتُرضع الرَّغبات

---

1) في الأصل Maranatha باليونانيَّة، وMarnata بالإيطاليَّة، وهي كلمةٌ آراميَّةٌ انتقلت إلى اللَّاتينية عن طريق اللُّغة اليونانيَّة، ويمكن أن تعني شيئين: "أتى الرَّبُّ"، أو "تعال أيُّها الرَّبُّ"؛ (المترجمان).

البشريَّة؛ وباختصارٍ، كانت رائعة الجمال من رأسها إلى أخمص قدميها لدرجة أنَّه كان من المستحيل رؤية شيءٍ أشدَّ فتنةً منها.

نظر الأمير بذهولٍ إلى هذه الولادة من ثمرة كبَّادٍ، إلى هذه القطعة الجميلة لأنثى انبثقت من قَطْع ثمرة، وقال في نفسه: "أنائمٌ أنت أم مستيقظ، يا تشِنتسُولُّو؟ هل سُحِرَ بصرُك أم تشوَّشت عيناك؟ ما هذا الشَّيء الأبيض الذي خرج من القشرة الصَّفراء؟ أيُّ عجينةٍ حلوةٍ خرجت من حامض ثمرة الكبَّاد؟ أيُّ نبتةٍ بديعةٍ خرجت من بذرتها؟". ولكنَّه أدرك أخيراً أنَّ ذلك لم يكن حلماً وأنَّ اللُّعبة كانت جدِّيَّة، فعانق الحوريَّة وأمطرها بمئات القُبَل مع قرصاتٍ صغيرةٍ، وبعد ألف كلمةٍ غراميَّةٍ تبادلاها فيما بينهما – كلماتٍ مثل ترنيمةٍ ثابتةٍ متخلَّلَةٍ بعذب القُبَل – قال الأمير: "لا أريد، يا حياتي، أن آخذك إلى بلد أبي دون موكبٍ يليق بشخصك الجميل، ودون رفقةٍ تليق بملكة، كما تستحقِّين. لذا، تسلَّقي شجرة البلُّوط الأشْعَر هذه، وامكثي داخل ما يبدو أنَّ الطبيعة قد جعلته لأجلنا تجويفاً على شكل حجرة نومٍ صغيرةٍ، وانتظريني حتى أعود، لأنَّني، بلا شكٍّ، سأعود على جناح السُّرعة، وقبل أن يجفَّ هذا البصاق – وبصق – سوف أرجع لآخذك إلى مملكتي، ومعي ملابس أنيقةٌ وخدمٌ وحشم". وبعد أن قال ذلك، أدَّى ما ينبغي تأديته من المراسم، وغادر.

في أثناء ذلك، أرسلت إحدى السَّيِّدات عبدتها السَّوداء مع أمفورةٍ لتجلب لها الماء من تلك النَّافورة؛ فرأت العبدةُ بطريق الصُّدفة صورةَ الحوريَّة منعكسةً في الماء، واعتقدت أنَّها انعكاسُ صورتها، فراحت تقول مندهشةً: «ماذا أرى، يا لوتشيا السَّيِّئة الحظِّ؟ أنت فائقة الجمال، وترسلك السَّيِّدة لجلب الماء؛ آه يا لوتشيا السَّيِّئة الحظِّ، لن أصبر أكثر!». وبعد أن قالت ذلك، حطَّمت الأمفورة وعادت إلى البيت.

عندما سألتها سيِّدتها لماذا فعلت ذلك، أجابت: «ذهبتُ وحدي إلى النَّافورة، وبحجرٍ تحطَّمت الأمفورة». ابتلعت سيِّدتها هذه الكعكة البائتة، وأعطتها برميلاً كبيراً لتذهب وتملأه بالماء؛ فعادت إلى هناك ورأت ذلك الجمال يلمع مرَّةً أخرى على صفحة الماء، فهتفت مُطلقةً تنهيدةً كبيرةً: «لن أبقى عبدةً حمقاء، لن أبقى بائسةً، لن أبقى مؤخِّرة حمار؛ مع كلِّ هذا الجمال، لن أحمل البراميل بعد الآن إلى النَّافورة!». وبينما كانت تقول ذلك، حطَّمت البرميل مهشِّمةً إيَّاه إلى ألف شظيَّة؛ ثمَّ عادت إلى سيِّدتها متذمِّرةً وقالت لها: «مرَّ حمارٌ، رفس البرميل، فوقع على الأرض وتحطَّم تماماً».

حيال هذه الكلمات، لم يعد بإمكان سيِّدتها ابتلاع غضبها، فأمسكت بعصا المكنسة وأشبعتها ضرباً بقيت تتذكَّره أيَّاماً عديدةً، ثمَّ تناولت قربةً، وقالت لها: "اركضي واكسري رقبتك، أيَّتها العبدة الحقيرة، يا رِجْلَ جدجدٍ؛ اركضي، لا تتثاقلي ولا تتوقَّفي في الطَّريق، لا تلعبي الغمَّيضة مع لوتشيا، وعودي إليَّ بهذه القربة مليئةً بالماء: إذا لم تفعلي ذلك، فسوف أسحقك مثل الأخطبوط، وسأتدبَّر أمرك بحمولةٍ من العصيِّ، لتتذكَّري اسمي مدى الحياة. اركضي، ولتلامس ساقاكِ كتفيكِ!".

وبعد أن ذاقت العبدةُ البرقَ وكانت مذعورةً من الرَّعد، وبينما كانت تملأ القربةَ، عادت لتتأمَّل الصُّورة الجميلة، وقالت: "فلأمت إن جلبت لك الماء؛ أريد أن أبحث عن نصيبي وأتزوَّج: حرامٌ أن يموت هذا الجمال من الكمد وأن يكون خادماً لسيِّدةٍ نَزِقة". وهكذا، استلَّت دبُّوساً من رأسها وبدأت تثقِّب القربة التي، بمنافثها المائة، بدت مثل نافورةٍ لعوبٍ في حديقة.

وحين رأت الحوريَّة ذلك، ضحكت بصوتٍ عالٍ، فرفعت العبدة رأسها ورأت مخبأها، فحدَّثت نفسها قائلة: "أنت ستكونين السَّبب في ضربي!

ولكن لا تقلقي!". ثمَّ وجَّهت كلامها بصوتٍ عالٍ إلى الحوريَّة: "ماذا تفعلين هناك في الأعلى أيَّتها الفتاة الجميلة؟". فما كان من تلك التي كانت في منتهى اللَّطافة إلَّا أن فتحت لها قلبها كلَّه، دون أن تغفل عن ذرَّةٍ ممَّا حدث لها مع الأمير الذي كانت تنتظره من ساعةٍ إلى أخرى، ومن لحظةٍ إلى أخرى، مع الملابس والخدم والحشم، لتذهب إلى مملكة أبيه وتحتفل بزفافها.

خَطَرَ للعبدة التي لاحت البشاشة على وجهها، وهي تسمع هذه القصَّة، أن تحصل هي على الجائزة بضربة يدٍ، فردَّت على الحوريَّة قائلةً: "طالما أنَّكِ تنتظرين زوجاً، اسمحي لي أن أصعد لأمشِّط شعرك وأجعلك أكثر جمالاً". فقالت الحوريَّة: "أنت موضع ترحيبٍ مثل الأوَّل من أيَّار"؛ فأخذت العبدة تتسلَّق الشَّجرة، ومدَّت لها الحوريَّة يداً ناصعةَ البياضِ بدت، حين إمساكها بتلك العيدان السَّوداء[1]، مثل مرآةٍ من الكريستال في إطارٍ من الأبنوس، وبعد أن استقرَّت العبدة على تلك الشَّجرة، تظاهرت بأنَّها تصفِّف شعرها، وغرست دبُّوساً في ذاكرتها.

في الحال شعرت الحوريَّة بالوخزة، فصرخت: "حمامةٌ، حمامة!"، وتحوَّلت إلى حمامةٍ وطارت بعيداً. خلعت العبدة ثيابها، وصنعت من الخرق والأسمال التي كانت ترتديها صرَّةً ألقت بها على بعد ميلٍ، وبقيت كما أنجبتها أمُّها على تلك الشَّجرة، وكانت تبدو مثل تمثالٍ من الكهرمان الأسود في منزلٍ من الزُّمرُّد.

عاد الأمير بركبٍ كبيرٍ ووجد برميلاً من الكافيار حيث ترك وعاءً من الحليب، فبقي وقتاً غائباً عن رشده. وأخيراً قال: "من لطَّخ بالحبر هذه الرُّقعة الملكيَّة التي كنت أفكِّر في كتابة أسعد أيَّامي عليها؟ من غطَّى بسربال الحِداد ذلك البيت المطليَّ حديثاً بالأبيض النَّاصع، حيث

1) أصابع العبدة؛ (المترجمان).

اعتقدتُ أنَّني سأنال كلَّ ملذَّاتي؟ من جعلني أجد حجرَ المحكِّ هذا، حيث تركت منجم فضَّةٍ لأكون ثريَّاً ومسروراً؟".

حين رأت العبدةُ الخبيثةُ مدى استغراب الأمير، قالت: "لا تستغرب يا أميري، إنَّ السِّحر قلبني هكذا: عامٌ بوجهٍ أبيض، وعامٌ بمؤخِّرةٍ سوداء". وإذ رأى الأمير المسكين أنَّه لا إصلاح لهذا الضَّرر، طأطأ قرنيه مثل ثورٍ، واستكانَ مبتلعاً الحبَّة؛ ثمَّ طلب من السَّمراء أن تنزل، وألبسها من رأسها إلى قدميها ملابس جديدةً وزيَّنها كلَّها. وهكذا، غاضباً، منتفخَ المرارة وبخطمٍ طويلٍ، أخذ طريقه إلى بلاده، وهناك استقبلهما الملك والملكة اللَّذانِ كانا قد خرجا ستَّة أميالٍ من أرضهما تغمرهما تلك البهجة التي تغمر السَّجينَ عندما يسمع عبارة "مع وقف التَّنفيذ". ومع أنَّهما رأيا الاختيار المحبط الذي قام به ابنهما المجنون، هذا الذي بعد أن بحث طويلاً في العالم للعثور على حمامةٍ بيضاء أتاهما بدلاً منها برنجيَّةٍ سوداء، ولأنَّه لم يكن باستطاعتهما الاستغناء عنه، تنازلا عن التَّاج للعروسين، ووضعا ثلاثيَّ القوائم الذَّهبيَّ على ذلك اللَّحم الفحمي.

بعد ذلك، بينما كانوا يحضِّرون الولائم والمآدب الرَّائعة، وبينما كان الطُّهاة ينتفون ريش الإوزَّات، وينحرون الخنانيص، ويسلخون المعاز، ويصبُّون الدُّهن على اللَّحم المشويِّ، ويقشطون الرَّغوة من الطَّناجر، ويفرمون اللَّحم لصنع كرات اللَّحم، ويحشون ديوك الحبش ويهيِّئون ألف صنفٍ وصنفٍ من الأطباق الشَّهيَّة، حطَّت على إحدى النَّوافذ حمامةٌ بديعةٌ، وبدأت تغنِّي:

أيها الطَّاهي، يا طاهي المطبخ،
ماذا يفعل الملك مع السَّاراسينة؟[1]

1) Saraceno بالإيطاليَّة، أو Saracen بالإنكليزيَّة، اسمٌ أطلقه الصَّليبيُّون على العرب والمسلمين بشكلٍ عامٍّ؛ (المترجمان).

لم يعبأ الطَّبَّاخ بها؛ ولكن عندما كرَّرت الحمامةُ التَّغْنِيَةَ كرَّةً ثانيةً وثالثة، هرع ليخبر المدعوِّين بهذا الأمر العُجاب. وحالما سمعت السَّيِّدة تلك الكلمات، أعطت أوامرها بالقبض على الحمامة فورًا وتحميرها مع فتات الخبز. أطاع الطَّبَّاخ الأمر، وتحايل كثيراً إلى أن قبض عليها ونفَّذ ما طلبته تلك الحمقاء ووضعها في الماء السَّاخن لينتف ريشها، ثمَّ ألقى ذلك الماء والرِّيش على شجرةٍ خارج الشُّرفة.

لم تمض ثلاثة أيَّامٍ حتى نبتت هناك شجرة كبَّادٍ جميلةٌ ونمت بين ليلةٍ وضحاها، وصادف أن أطلَّ الملك من النَّافذة التي تشرف على تلك البقعة، فرآها حيث لم يرها أبداً من قبل، فنادى الطَّبَّاخ وسأله من الذي زرعها ومتى. وحين أخبره المعلِّم كوكيايونه[1] بالحقيقة، شكَّ في وجود لغزٍ، فأمر بألَّا تُمسَّ تلك الشَّجرة، تحت عقوبة الموت، بل أن يُعنَى بها خيرَ عناية.

وبعد أيَّامٍ قليلةٍ ظهرت على تلك الشَّجرة ثلاث ثمرات كبَّادٍ بديعاتٍ، شبيهاتٍ بتلك التي حصل عليها من الغولة، وحين نضجت، أمر الملك بقطفها، ثمَّ حبس نفسه في حجرةٍ مع كوبٍ كبيرٍ من الماء، وبسكِّين العجوز التي كان يحملها باستمرارٍ على خصره، بدأ بقطعها، وحدث الشَّيء نفسه كما في المرَّة السَّابقة، إذ اختفت الحوريَّتان الأولى والثَّانية في لمح البصر؛ ولكن بينما كان يقطع ثمرة الكبَّاد الثَّالثة، قدَّم الماء للفتاة الثَّالثة التي خرجت منها، ووقفت أمامه الحوريَّة نفسها التي كان قد تركها على الشَّجرة، وأخبرته بمكيدة العبدة بحذافيرها.

الآن، من يستطيع أن يصف أصغر جزءٍ من الفرح الذي شعر به الملك إزاء هذا الحظِّ السَّعيد؟ من يستطيع أن يصف الغبطة، والسَّعادة، والسُّرور،

---

1) المعلِّم «ملعقة كبيرة»، ويقصد الطَّبَّاخ؛ (المترجمان).

والبهجة العارمة، والضَّحك والبكاء اللَّذين انتاباه؟ عليكم أن تتخيَّلوا أنَّه كان يعوم في بحر الهناء، وأنَّ جلده لم يسعه من الفرح، وأنَّه كان يغرق في الحبور والنَّشوة. ثمَّ ضمَّها بين ذراعيه، وجعلها تلبس أجمل مَلْبَسٍ، وأخذها على الفور من يدها إلى منتصف القاعة، حيث كان جميع رجال البلاط وأهل البلد حاضرين للاحتفال بالزِّفاف.

فاستدعاهم الملك واحداً واحداً وسألهم: "من يؤذي هذه السَّيِّدة الفاتنة، أيَّ عقابٍ يستحقُّ؟". فأجاب أحدهم أنَّه يستحقُّ قلادةً من القنَّب، وآخرُ حلواناً من الصَّوَّان، وثالثٌ لحنَ مطرقةٍ على جلد معدته، ورابعٌ شرابَ السَّقَمُونِيا، وخامسٌ جوهرةً من حجر الرَّحى، وهذا اقترح شيئًا وذلك شيئاً آخر.

وأخيراً استدعى الملكة الفاجرة، وسألها السُّؤال نفسه، فأجابت: "يستحقُّ أن يُحرَق ويُنثَر رماده من سطح القلعة". فقال لها الملك: "لقد سَطَّرْتِ الحكمَ بقلمك؛ وهويتِ بالبلطةِ على قدمك؛ وصَنَعْتِ الأغلال وشَحَذْتِ السِّكِّين ومزجتِ السُّمَّ لنفسك، لأنَّه ليس هناك من آذى هذه السَّيِّدة أكثر ممَّا آذيتِها أنتِ، أيَّتها العاهرة السَّوداء! هل تعلمين أنَّ هذه هي الفتاة الجميلة التي وخزتِها بالدَّبُّوس؟ هل تعلمين أنَّ هذه هي الحمامة البديعة التي أمرتِ بذبحها وطبخها في المقلاة؟ ما رأيك، يا تشِكَّا، بهذه البِرْذَوْنَة؟ هيَّا تحرَّكي، فقد انتهى أمرُكِ! لقد طرحتِ من القذارة ما يكفي: من يفعل الشَّرَّ شرّاً يَلْقَ، ومن يطبخ أغصاناً غضَّةً يغرف الدُّخان".

وهكذا، أمر بأن تُحمَل وتوضَع حيَّةً على كومةٍ كبيرةٍ من الحطب، وبعد أن صارت رماداً، نثروا الرَّماد في الهواء من سطح القلعة، مؤكِّدين القول المأثور:

من يزرع الشَّوك، عليه ألَّا يمشي حافي القدمين.

ختام مقدِّمة المؤانَسات
التي توافق المؤانَسة العاشرة من اليوم الخامس

تحكي تسوتسا قصَّة مصائبها، وإذ تشعر العبدة بأنَّها المقصودة، تحاول كلَّ ما في وسعها لتقاطعها. ولكنَّ الأمير، رغماً عنها، يصرُّ على الاستماع إليها؛ وحين يكتشف خيانتها، يقتلها، مع أنَّها حُبلى، ويتَّخذ تسوتسا زوجةً له.

استمع الجميع بآذانٍ صاغيةٍ إلى حكاية تشومِّتِلَّا؛ وأشاد بعضهم ببراعتها في السَّرد، وبعضهم الآخر تذمَّر متَّهماً إيَّاها بقلَّة البصيرة، لأنَّه كان عليها ألَّا تذيع، بحضور أميرةٍ عبدةٍ وداكنة اللَّون، السُّوءَ عن أخرى من العِرق نفسِه، وقالوا إنَّها خاطرت كثيرًا بإفساد اللُّعبة.

ولكنَّ لوتشيا تصرَّفت حقًّاً كلوتشيا[1]، فقد كان جسمها كلُّه يتلوَّى وهي تسمع حكايتها، حتى إنَّه من اهتزاز جسدها كان يمكن تخيُّل العاصفة التي كانت تجيش في قلبها، بعد أن رأت في قصَّة العبدة وصفاً دقيقاً لمكيدتها. وكان بمستطاعها أن توقف المسامرة؛ ولكن، من جهةٍ لأنَّها لم تكن تستطيع الاستغناء عن الحكايات بعد أن بثَّت الدُّمية في صدرها المزيد من نار الشَّهوة إلى سماعها، تماماً مثل أولئك الذين تلدغهم الرُّتيلاء فلا يستطيعون تحرير أنفسهم من النَّغمات[2]، ومن جهةٍ أخرى لكيلا تترك

1) أي أدَّت رقصة لوتشيا مع التَّثنِّيات المتَّصلة بها؛ (كروتشِه).

2) كان النَّاس قديماً يعتقدون أنَّ لدغة الرُّتيلاء تسبِّب مرضاً يسمَّى هَوَس الرَّقص، ووفقاً لبعض المعتقدات، فإنَّ أنجح علاجٍ كان يتمثَّل في الرَّقصة الإيطاليَّة المعروفة باسم "تارانتِلَّا"، نسبةً

لتاديو مجالاً للشَّكِّ، ابتلعت صفار البيض هذا مع نيَّة تحويله إلى سخطٍ قويٍّ في الزَّمان والمكان المناسبَين.

ولكنَّ سلوى الحكايات كانت قد بدأت تسرُّ خاطرَ تاديو، فأشار إلى تسوتسا أن تحكي حكايتها؛ وبعد كلمات المديح المعتادة، استهلَّت حكايتها بالقول: "إنَّ الحقيقة، يا سيِّدي الأمير، كانت دائماً أمَّ البغضاء؛ ولذلك لا أحبُّ أن يكون في إطاعتي أوامركم إساءةٌ لبعض الحاضرين هنا؛ ولأنَّه ليس من عادتي الإتيان باختلاقاتٍ ونسج حكايات، فأنا مرغَمةٌ، بالطَّبيعة وبالصُّدفة، على سرد وقائع حقيقيَّة. ومع أنَّ المثل السَّائد يقول: 'تبوَّل ماءً رائقاً وابتعد عن الطَّبيب'، ومع يقيني بأنَّ الحقيقة لا تصل بحضور الأمراء، أرتجف من قول شيءٍ قد يجعلك تشتعل غضباً".

"قولي ما تشائين – أجاب تاديو، – فمن هذا الفم الجميل لا يمكن أن يخرج إلَّا المعسول والحلو".

كانت هذه الكلمات طعناتٍ في قلب العبدة، ولو كانت الوجوه السَّوداء، كما البيضاء، كتابَ الرُّوح، لظهرت علاماتها، ولكانت ضحَّت بإصبعٍ من يدها مقابل إفراغ معدتها من تلك الحكايات، لأنَّ قلبها كان قد أصبح أكثر سواداً من وجهها؛ ولحدسها أنَّ الحكاية السَّابقة لم تكن سوى نذير بليَّةٍ قادمةٍ، كان من السَّهل أن تتنبَّأ من الصَّباح بنهارٍ سيِّئ.

ولكنَّ تسوتسا، في هذه الأثناء، بدأت تسحر الحاضرين بعذوبة كلماتها، وتروي لهم كلَّ همومها من البداية إلى النِّهاية، ابتداءً بطبيعتها الكئيبة التي كانت نذير نحسٍ بما كان سيحدث لها، هي التي، مذ كانت في المهد، حملت معها الجذر المرَّ لكلِّ الفجائع القاسية التي، على مفتاح الضَّحك

إلى مدينة تارانتو في مقاطعة بوليا جنوبي إيطاليا، ولكن كان العازف يعزف طويلاً إلى أن يتمكَّن من إيجاد النَّغمة التي تُرضي الشَّخص الملدوغ، وحينئذٍ يبدأ هذا الأخير بالرَّقص إلى أن يتعرَّق ويطرد السُّمَّ من جسده؛ (المترجمان).

المتكلِّف، كانت تجبرها على ذرف الكثير من الدُّموع. ثمَّ تبع ذلك لعنةُ المرأة العجوز، ثمَّ رحلتها المصحوبة بالكثير من المعاناة، ثمَّ وصولها إلى النَّافورة، وبكاؤها الدَّفَّاق، والنَّوم الذي خان مقلتيها وسبَّب هلاكها.

وإذ سمعتها العبدةُ تُقلع وتتقدَّم، ورأت القارب يبحر في خطٍّ ملاحةٍ خطيرٍ، صرخت: "اخرسي، لا تتحرَّكي، وإلَّا لَكَمْتُ بطني وأجهضتُ جورجِتْيِيلُّو!". ولكنَّ تاديو كان كمن اكتشف أرضاً، فلم يتمكَّن من ضبط نفسه، فنزع القناع وألقى السَّرج على الأرض، وقال: "دعيها تقول ما لديها حتى النِّهاية، وتوقَّفي عن هذا الابتزاز السَّافر بجورجِتْيِيلُّو وجورجوني، ففي النِّهاية، أنتِ لم تجديني وحدي[1]، وإذا أغضبتِني، سأجعلكِ تتمنِّين لو أنَّ عجلة عربةٍ سحقتكِ". وأمر تسوتسا بالاستمرار رغماً عن أنف زوجته، فاندفعت، هي التي لم تكن تنتظر أكثر من إيماءةٍ، تخبرهم كيف وجدت الأمفورة مكسورةً وكيف احتالت عليها العبدة لتنتزعها من يدها، وبينما كانت تقول هذا، انفجرت باكيةً بطريقةٍ لم يتمكَّن أحدٌ من الحاضرين معها من البقاء بلا تأثُّرٍ أمام كربتِها.

من دموع تسوتسا ومن صمت العبدة، التي انعقد لسانها، أدركَ تاديو حقيقة الأمر؛ وبعد أن عنَّف لوتشيا تعنيفاً لم يكن ليفعله مع حمارٍ، أجبرها على الاعتراف بالخيانة بملء فمها، وأمر على الفور بأن تُدفَن حيَّةً، مع بقاء رأسها فحسب مكشوفاً حتى يكون موتها أشدَّ صعوبةً.

ثمَّ عانق تسوتسا، وأعلى كَعْبَها عنده أميرةً وزوجةً، وبعث برسالةٍ إلى ملك فالِّبيلوزا يدعوه فيها إلى حضور حفل الزِّفاف. ومع هذا الزِّفاف الجديد، انتهى جبروتُ العبدة وسلوى الحكايات؛ جعلها الله عوناً ورعايةً لكم، لأنَّني راحلٌ الآن عنكم، مجرجراً خطاي جرجرةً، وفي فمي ملعقةٌ صغيرةٌ من العسل.

---

1) يعني: «لأنَّ لديَّ أيدٍ»؛ (كروتشِه).

فهرس المحتويات

مقدّمة: بازيلِهْ وتطويره لفنِّ الحكايات الشَّعبيَّة 7

مدخلٌ إلى مؤانَسات الصِّغار 35

حكاية الغول: المؤانَسة الأولى من اليوم الأوَّل.................. 47

شتلةُ الآس: المؤانسة الثَّانية من اليوم الأوَّل 57

بِيروُنْتُو: المؤانسة الثَّالثة من اليوم الأوَّل 69

فاردِيِنْلُّو: المؤانسة الرَّابعة من اليوم الأوَّل.................. 80

البرغوث: المؤانسة الخامسة من اليوم الأوَّل 87

القطَّة سندريلَّا: المؤانسة السَّادسة من اليوم الأوَّل.............. 96

ابنا التَّاجر: المؤانسة السَّابعة من اليوم الأوَّل 104

وجه الماعز: المؤانسة الثَّامنة من اليوم الأوَّل 119

الظَّبية المسحورة: المؤانسة التَّاسعة من اليوم الأوَّل 128

العجوز المسلوخة: المؤانسة العاشرة من اليوم الأوَّل 137

البُوْتَقَة: مشهدٌ من الأدب الرَّعويِّ...................... 151

اليوم الثَّاني: من مؤانسة الصِّغار 193

بيتروسينيلَّا: المؤانسة الأولى من اليوم الثَّاني................. 197

الأمير فيردِبْراتو: المؤانسة الثَّانية من اليوم الثَّاني 203

فيولا: المؤانسة الثَّالثة من اليوم الثَّاني 210

غاليوزو: المؤانسة الرَّابعة من اليوم الثَّاني 217

الثُّعبان: المؤانسة الخامسة من اليوم الثّاني........................ 223
الدُّبَّة: المؤانسة السَّادسة من اليوم الثَّاني 234
الحمامة: المؤانسة السَّابعة من اليوم الثَّاني........................ 244
الأَمَة الصَّغيرة: المؤانسة الثَّامنة من اليوم الثَّاني........................ 258
المزلاج: المؤانسة التَّاسعة من اليوم الثَّاني........................ 264
الصَّديق: المؤانسة العاشرة من اليوم الثَّاني........................ 270
الصِّباغة: مشهدٌ من الأدب الرَّعويِّ 278

اليوم الثَّالث: من مؤانسة الصِّغار 295
كانِّيتيلَّا: المؤانسة الأولى من اليوم الثَّالث........................ 299
الحسناءُ مبتورة اليدين: المؤانسة الثَّانية من اليوم الثَّالث........................ 308
الوجه الأبيض: المؤانسة الثَّالثة من اليوم الثَّالث........................ 320
سابيا ليكَّاردا: المؤانسة الرَّابعة من اليوم الثَّالث 331
الصَّرصار والفأر والجُدْجُد: المؤانسة الخامسة من اليوم الثَّالث 338
بِلُّوتْشا: المؤانسة السَّادسة من اليوم الثَّالث........................ 349
كورفِتُّو: المؤانسة السَّابعة من اليوم الثَّالث 356
الجاهل: المؤانسة الثَّامنة من اليوم الثَّالث 363
روزيلَّا: المؤانسة التَّاسعة من اليوم الثَّالث........................ 370
الحوريَّات الثَّلاث: المؤانسة العاشرة من اليوم الثَّالث 379
الموقد: مشهد من الأدب الرَّعويِّ........................ 391

اليوم الرَّابع من مؤانسة الصِّغار 405
حَجَرُ الدِّيك: المؤانسة الأولى من اليوم الرَّابع 409
الشَّقيقان: المؤانسة الثَّانية من اليوم الرَّابع........................ 415
ملوكُ الحيوانات الثَّلاثة : المؤانسة الثَّالثة من اليوم الرَّابع 427
سبع قطعٍ من جلد الخنزير: المؤانسة الرَّابعة من اليوم الرَّابع 435
التِّنِّين: المؤانسة الخامسة من اليوم الرَّابع........................ 442

التِّيجان الثَّلاثة: المؤانسة السَّادسة من اليوم الرَّابع.................. 453
قطعتان من بسكويت الوَفل: المؤانسة السَّابعة من اليوم الرَّابع 464
الحمائمُ السَّبع: المؤانسة الثَّامنة من اليوم الرَّابع 472
الغراب: المؤانسة التَّاسعة من اليوم الرَّابع 485
عاقبة الغطرسة: المؤانسة العاشرة من اليوم الرَّابع 497
الخُطَّاف: مشهدٌ من الأدب الرَّعويِّ.................. 505

اليوم الخامس من مؤانسة الصِّغار 523
الإوزَّة: المؤانسة الأولى من اليوم الخامس.................. 531
الأشهُر: المؤانسة الثَّانية من اليوم الخامس.................. 536
بينتو سمالتو: المؤانسة الثَّالثة من اليوم الخامس 542
الجذع الذَّهبيُّ: المؤانسة الرَّابعة من اليوم الخامس 550
شمسٌ وقمرٌ وتاليا: المؤانسة الخامسة من اليوم الخامس 561
سابيا: المؤانسة السَّادسة من اليوم الخامس 568
الأبناء الخمسة: المؤانسة السَّابعة من اليوم الخامس 574
نينِّلُّو ونينِّلَّا: المؤانسة الثَّامنة من اليوم الخامس 581
ثمرات الكَبَّاد الثَّلاث: المؤانسة التَّاسعة من اليوم الخامس.......... 588

ختام مقدِّمة المؤانسات:
التي توافق المؤانسة العاشرة من اليوم الخامس 601

نضع بين يدَي القارئ العربيِّ، ولأوَّل مرَّة، ما يُعَدُّ أوَّل مجموعةٍ أوروبِّيَّة من الحكايات الشَّعبيَّة وأهمَّ نصٍّ حكائيٍّ في الموروث الأدبيِّ الإيطاليِّ، نصٍّ لطالما شكَّلَ نواةً خصبةً لإعادة إنتاجٍ حكائيٍّ غزيرةٍ في الثَّقافة الأوروبِّيَّة، وخاصَّةً في القرنين الأخيرين، جامعاً في طيَّاته بين نماذج وتقاليد أدبيَّةٍ مختلفةٍ (الخُرافات والأساطير والأمثال والنِّكات والنُّصوص المقدَّسة والمعتقدات الشَّعبيَّة وأحاديث المنازلِ الرِّيفيَّة والحانات والأسواق، وقصص العفاريت) ينسجها بازيلهْ في إطارٍ حكائيٍّ يذكِّرُ بالمحكيَّات الشَّرقيَّة، وخاصَّةً "ألف ليلةٍ وليلة"، ووفق بناءٍ دائريٍّ تشكِّل فيه الحكاية الأولى المطلعَ السَّرديَّ الذي تنبثق منه الحكايات التِّسع والأربعون الأخرى لنعود في الحكاية الأخيرة إلى الحكاية الأولى على شاكلة ثعبانٍ يعضُّ ذيلَه. ولكن بخلاف "ألف ليلةٍ وليلة" التي تُروَى فيها الحكايات ليلاً، وترويها امرأةٌ واحدةٌ فقط، تُروَى حكايات "البنتاميرون" الخمسين نهاراً، وترويها عشر نساءٍ سليطات اللِّسان على مدار خمسة أيَّام.

قبل الأخوين غريم، وشارل بيرو، وهانس كريستيان آندرسن كان هناك جامباتِّيستا بازيلهْ. فـ "ساندريلا"، و"القطُّ أبو جزمة"، و"ذات الرِّداء الأحمر"، و"عقلة الإصبع"، و"العذراء في البرج"، وكثيرٌ غيرها، بدأت من هذا الكتاب، "البنتاميرون" أو الأيَّام الخمسة، الذي وصفه إيتالو كالفينو بأنَّه: "حلمٌ نابوليتانيٌّ محوَّرٌ من شكسبير"، بينما وصفه بِندتُّو كروتشهْ بأنَّه "أجمل كتابٍ وصلَنا من عصر الباروك الإيطاليِّ"، وبأنَّ فنَّ الباروك، قبل هذا الكتاب، كان عكِراً، وتحوَّل (مع البنتاميرون) إلى بهجةٍ صافيةٍ.

ISBN 979-12-5591-067-1

9 791255 910671

المتوسط